فتوح عبد المحسن الخترش

الكويت وجاراتها

ه. ر. ب. ديكسون

سلام على الدنيا إذا لم يكن فيها
صديق صدوق صادق الوعد منصفا

هـ . ر . ب . ديكسون

الجزء الأول

للطباعة والنشر

(المؤلف الكولونيل هارولد ديكسون وزوجته فيوليت)
(في القصر الملكي بالرياض)

مقدمة الطبعة الثانية

وُلِدَ هارولد ديكسون في بيروت عام (١٨٨١ م) ، ودرس في مدارس دمشق ـ حيث كان والده قنصلاً لبريطانيا فيها ـ ، ثم سافر إلى (أوكسفورد) ملتحقاً بالكلّية العسكرية ، وعند تخرّجه منها أحسَّ بأنّه يستطيع أنْ يؤدي دوره خارج حدود بلاده ؛ خدمةً للإمبراطورية البريطانية التي دأبَ أفراد أسرته على تقديم الولاء لها ؛ فالتحقَ بالقوات العسكرية البريطانية التي كانت تسيطر على بلاد الهند ، واستقرَّ خمس سنوات هناك ، ثم هاجرَ إلى العراق فترةً من الزمن ، واستقرَّ أخيراً وبالتحديد عام (١٩٢٩ م) في الكويت مع زوجته (فيوليت) . وكانت له صلاة مع أغلب رؤساء عشائر المنطقة ، وحكامها .

ونظراً للمهام التي أُنيطتْ به ، وبسبب رغبتهِ الشخصية ، وميوله النفسية فقد سجَّل ملاحظاته فيما يتعلّق بالأوضاع السياسية للمنطقة بشكل دقيق ، كما كتبَ كتاباً خاصاً عن قبائل البدو يُعدُّ أثراً متميزاً بين ما كُتِبَ في هذا المجال ، وسمّاه (عرب البادية) The Arab of desert وطُبع ـ بالانكليزية ـ مرات عديدة .

أمّا كتابُهُ «الكويت وجاراتُها» فيُعدُّ من أهمّ ، وأغنى ما كُتبَ عن تاريخ هذه البلدة ، وما جاورها من مناطق سواءً في العراق ، أو السعودية ، أو عمان ، ـ فقد حَفظَ في طياتهِ حوادثاً لم تُدوّن في أيِّ مصدر من المصادر

الأخرى ، والسبب أنَّ مؤلفَهُ كان واحداً من صنّاع تاريخ هذه المنطقة ، والمخططين لمستقبلها .

وفعلاً ، فإنَّ الحدود المصطنعة التي قُسِّمتْ بين العراق ، والكويت ، والسعودية كانت من مخترعهِ ، وتنفيذه .

إنَّ هذا الكتاب هو تاريخٌ حيٌّ يشرحُ ـ في جانب منه ـ تلك الخديعة التي وقعَ فيها حكّام هذه الدول ـ يومذاك ـ ، بسبب السذاجة البدوية التي عشّشتْ في عقولهم ، وخبراتهم ؛ الأمر الذي يُمكّنُ القارىء أنْ يتبيّنَ بوضوح دور الحكّام (الأبناء) في عملية الحفاظ على هذا المخطط ، وعدم استطاعتهم الإفلات منه .

إنَّ هارولد ديكسون ، وزوجته فيوليت سجّلا في هذا الكتاب مواضيعَ لم يُسجّلْها أيُّ مؤرخٍ آخر ـ فالكتاب مضافاً إلى أنّه في الصميم من أحداث السياسة الساخنة في تلك المنطقة ؛ فإنّه في صميم الأحداث التاريخية ، والاجتماعية أيضاً .

ومهما قيل في الكتاب من ثناءٍ فإنّه يبقى المُعبّر الوحيد عن جدتِه ، وانفراده بحقائقَ أصبحتْ تأريخاً يُضافُ إلى تاريخ هذه المنطقة .

إنَّ قراءةَ أحداث هذه المذكرات ـ بإمعان ـ سترشد القارىء العربيّ إلى أمورٍ في غاية الأهمية ، ولا شكَ أنّها ستعيد بناء تفكيرهِ العقلي من جديد .

القسم الأول

الفصل الأول

إمارة عربية

« نجد البحرية »

في منطقة الخليج العربي البعيـــدة ، وعلى شكل إسفين عميق غرز بـــين جنوب العراق والاحساء المقاطعة الشمالية الشرقية من المملكة العربية السعودية، تقع امارة الكويت العربية الصغيرة المعتزة . ومع انها دولة مستقـلة فهي تتمتع بالحماية البريطانية .

ويسميها محبوها « نجد البحرية » . وليس ذلك نعتـــاً سيئاً لمدينة وولاية أوجدها حاكم وشعب نزحوا من أواسط الجزيرة العربية في أوائل القرن الثـامن عشر ، وهي الآن تحتل منزلة رفيعة بين الدول العربيـة في ظل حاكمها المستنير الشيخ عبدالله السالم الصباح الذي ارتقى الى الامارة في كانون الثاني سنة ١٩٥٠ ، محتفظاً بمعاهدات صداقة وتحالف وثيقة مع بريطانيا ، وهو احتياط ضروري ، نظراً لأن تلك الدولة الصغيرة تملك أفضل الموانيء من الناحية الستراتيجية على الشاطيء العربي من الخليـــج العربي . ثم ، أليست تجـاور دولتين قويتين إلى الشمال والجنوب ، فضلاً عن شعب عنيد مغتصب عبر الخليج يحلم دائماً باقـــامة امبراطورية عظيمة يكون الخليـــج العربي « بحرها الوسط » الخاص بهـا ؟

ان ميناء الكويت المرموق الذي يبلغ عمقه عشرين ميـلاً وعرضه عشرة

أميال ، وثروتها النفطية الهائلة المدفونة تحت الأرض على بعد اثني عشر ميـــلاً من البحر ، هما اليـــوم قبلة الانظار ونقطة الخطر في نفس الوقت . وكل واحد يتمنى مغازلة « حسناء طروادة » الجديـــدة ؛ وقد جرت محاولات كثيرة في السابق ، ومحاولات كثيرة لا تزال تجري ، بعضها على طريقة انسان الكهوف ، وبعضها على طريقة اكثر ذكاء وليست أقل خطراً هي طريقة « تقديم الهدايا » . ومن الطبيعي ان يغار كل طامع من منافسيه . وهذا ما ساعد « السيدة الحسناء » الى درجة لا يستهان بها ، في ان تحافظ على بكارتها فترة طويـــلة من الزمن ، وستنقذها كما يأمل المخلصون ، من عشاق اكثر وقاحة والحاحاً .

تنحدر عائلة آل الصباح الارستقراطية النبيلة من بني عتوب — وهم من البدو الخلص — . وبنو عتوب من الداهمشاه من قبيلة عمارات من عرب عنـــيزه الذين ينحدرون من أصل نبيل ويقطنون اليـــوم اجزاء من المملكة العربية السعودية والعراق وسورية .

ابلغـــني صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم في معرض حديثي معه في شهر تشرين الأول من السنة التي ارتقى فيها الى الامارة ، انه حوالي سنة ١٧١٠ م ، دفع جفاف متواصل مخيف بآل الصباح الذين كانوا يتمتعون بالسيطرة على قبيلة عنيزة العظيمة كلها ، إلى النزوح من داخل نجد بحثـــاً عن مكان أيسر للعيش . ومعهم نزح آل خليفة وهم فخذ آخر من عمارات .

وقد توجه النازحون في البداية جنوباً الى وادي دويسر . ولكنهم وجدوا الاحوال هناك أسوأ ممـــا هي عليه في نجد ، فعادوا وتقدموا الى زباره في شبه جزيرة قطر على شاطىء الخليج الفارسي ، تصحبهم عدة عائلات نبيلة صغـــيرة ، من قبيلة عمارات ، منهم آل زايد المعروفين اليوم بآل غانم ، وآل صالح وآل شملان . وتبين ان الأحوال في زباره ليست أفضل ، فـــنزح الجميع مع قطعانهم وماشيتهم ببطء الى أن وصلوا بالنتيجة إلى مرتفع بعيد حيث وجدوا وافراً من المياه العذبة على عمق أقدام معدودة من السطح . وهذا هو المكان الذي تقع فيه مدينة الكويت حالياً .

وقـــد اشتق اسم بني عتوب ، كما يقول سموه ، من التعبير الذي اطلق يوم النزوح وهـــو « عتبوا الى الشمال » . وليس عتوب اسماً لأي سبط حقيقي من أسباط عمارات المتفرعة من عنيزه .

وخشي آل الصباح وآل خليفة الذين نصبوا خيامهم في خليـج الكويت ، ان يعترض الاتراك ، الذين كانوا يدعون ملكية المكان وكانت لهم قوة كبيرة في البصرة ، على وجـــودهم هناك ويطردوهم الى حيث اتوا أو يفرضوا الضرائب عليهم .

وقرروا في مجلس عقده أهـل الرأي بينهم ارسال مبعوث الى الباشا التركي في البصرة لكي يشرح له انهم مستوطنون فقراء نزحوا من نجـــد البعيدة الى الكويت طلباً للرزق ، وليست في نيتهم أذية أحـــد . والرجل الذي اختير للقيام بهذه المهمة يـــدعى صباح . وكان متقدماً في السن وله من دنياه الخبرة والحظ ، فنجح في مهمته .

واستطرد سموه قائـــلاً ، ان آل نصار وهم العشيرة الحاكمة في بني كعب القبيلة العربية الارستقراطية التي تقطن عربستان في جنوب ايران ، شنوا حرباً على عبدالله ، ابن صباح ، وان الخوف من تكرر الغزوات حمل آل خليفـة على العودة جنوباً الى زباره ، ومن هناك انتقلوا الى البحرين التي غزوها وحكموهـا منذ ذلك الحين .

وحسب الروايات المحلية — التي يسقط سموه قسماً منها — ان سبب هجوم آل نصار على الكويت هو ان شيخ بني كعب في ذلـك الوقت أخذ يتودد الى مريم الابنة الجميلة للشيخ عبـــدالله الصباح ، فلما صدتـــه أرسل اسطولاً لغزو الكويت .

وقبل ان يعود آل خليفة الى زباره استحثوا نسيبهم وحليفهم عبدالله ان يضحي بمريم ليشتري بذلك سكوت بني كعب عنـــه . ولكن عبدالله اجابهم بعناد : مـــاذا ؟ أأعطي ابنتي الى هؤلاء الكلاب من بني كعب لأنقذ نفسي ؟ أبداً .. ان احداً من آل الصباح ، طالما هو حي ، لا يزوج ابنته الى غريب نسبه

موضع شك .

وهنالك قصة أخرى ايضاً لا يستحسنها سمو الشيخ عبدالله السالم وهي انه عندما اشتد خطر غزو بني كعب ، وبعد أن تراجع آل خليفة الى الجنوب ، جمع عبدالله شيوخ عائلته جميعهم واستحلفهم على عتبة بيته أن يقفوا بثبات دفاعاً عن ابنته وعن شرف آل الصباح ، ففعلوا ولذلك سموا ببني عتبة او بني عتوب .

ويقال انه عندما اقترب اسطول العدو اخذت مريم الجميلة تطوف على مراكز الدفاع عن المدينة وتشجع البدو في خيامهم ، وهي ممتطية فرساً ومسلحة بغدارة وبسيف ورمح .

وسنذكر في مكان آخر من هذا الكتاب كيف ان ابن عم مريم ، سالم بن محمد الصباح ، ومعه جماعة من الشجعان تسللوا الى الأسطول المنتشر في عرض البحر الى الجنوب من جزيرة بنيان (١) ، في هدوء الليل متخفين بشكل صيادي الأسماك ، وقتلوا الحراس الى آخر رجل ، وكتفوا بقية الملاحين على الصواري ، وحملوا الغنائم الى الكويت وقدموها إلى مريم .

وغني عن القول انه بعد هذا النصر الأولي الذي ألهمته مريم بحماسها المتوقد ، جعل سالم ينظم أهل الكويت ، رغم نصيحة الشيخ عبدالله ، ليشنوا هجوماً بزوارقهم الصغيرة على أسطول بني كعب ، فنزلوا الى البحر واشتبكوا مع سفن بني كعب واضطروها الى فرار مخز . وأسرعت في انزال هذه الهزيمة الشنعاء ببني كعب عاصفة شديدة شتتت شمل الأسطول ودمرت نصفه .

ومنذ ذلك الوقت حتى اليوم ، لم يسمح لأميرة من آل الصباح أن تتزوج رجلاً من خارج عائلتها ، حتى وان كان من البيت السعودي العظيم ، او من شرفاء مكة ، او من شيوخ آل السعدون النبلاء الذين يتوارثون المشيخة على المنتفق العظيم في العراق .

ولا تزال عبارات النخوة في الكويت الى اليوم « انا اخو مريم » و « اولاد سالم » .

وللكويت علم خاص بها أحمر اللون كتب في وسطه افقيا بأحرف عربيـــة بيضاء « الكويت » وكتبت على طرفـــه القريب من الصارية عمودياً عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . .

الحاكم الحـالي

ولد صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح سنـــة ١٨٩٥ . وهو اقوى شخصيات عائلة آل الصباح وابرزها . انـه واسع الثقافة ، ويتحدث بطلاقة ، ويتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء والالمام بالشؤون العالمية عامة ، وباهتمام خـاص بالأوضاع السياسية المختلفة التي تنشأ دائماً في أوروبا والشرق الأوسط .

ومع اعجابه الشديد بالملك الراحل عبدالعزيز ابن سعود، لكنه لم تنطل عليه ابداً مناورات العاهل السعودي البارعة .

ان احداً من شيوخ القبائل لا يصل الى مركزه لأن والده كان شيخاً قبـله . وبكلمات أخرى : ان المشيخة لا تنتقل من الأب الى الابن . وهذا أيضاً ينطبق على الحكام . فعندما توفي الشيخ سالم ابن مبارك الصباح في ٢٧ شباط سنة ١٩٢١، خلفه ابن أخيه الشيخ أحمد الجابر الصباح . وبدأ الشيخ عبدالله السالم الصباح ابن الشيخ سالم مخلصاً يعاون ويتعاون مع ابن عمـه ، ويستجمع كثيراً من السلطة في يديه برضى الشيخ أحمد وبفضل طبيعته الكريمة السمحة .

وتوفي الشيخ أحمد الكبير ، كما يسمى اليوم ، بمرض القلب في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٩٥٠ ، فحزن عليه الجميع . وخلفه على العرش ابن عمه الشيخ عبدالله السالم الذي تشير كل الدلائل إلى انـه سيقتفي خطى سلفه . وبالفعل فقد اتخذ سلسلة اجراءات حكيمة في حقل الخدمة العامة ، فشق الطرقـات ، وبنى المدارس ، وشيد المباني العامة والمستشفيات والمحاكم . وأهم من كل ذلك انشأ مصنعاً ضخماً لتكرير مياه البحر يستطيع ، عند انتهائه في سنة ١٩٥٥ ، ان يمـد الكويت بحوالي اربعة ملايين غالون من مياه الشرب يومياً . وشكل ايضاً لجنة لتخطيط المدينة وانمائها، وأعطاها موافقته على الخطة التي رسمتها لتحسين المدينة . والمقال

الذي كتبته مارغريت كلارك والمنشور في مكان آخر من هذا الكتاب ، فيه الكثير من المعلومات عن التقدم الذي أحرزته الكويت بفضل استغلال ثروتها النفطية .

وفي ٥ حزيران سنة ١٩٥٢، يوم عيد ميلاد جلالة الملكة، اسبغ على سمو الشيخ عبدالله السالم الصباح لقب K. C. M. G. الرفيع ، اعترافاً بخدماته الجليلة كحاكم .

حدود الدولة

كانت هذه الحدود في الماضي مصدراً لكثير من النزاع وسفك الدماء . وسنروي قصتها كاملة في فصول أخرى . ويكفي هنا ان نذكر ان الحدود المعترف بها بين الكويت وجاراتها العراق والمملكة العربية السعودية ، هي كما تبدو على الخريطة المنشورة في نهاية هذا الكتاب . وحسب التعابير الرسمية كما يأتي :

من النقطة التي تتصل فيها البلدان الثلاثة ، وهي ملتقى وادي العوجه بالوادي الواسع الطويل المعروف بالباطن في الغرب ، تتجه الحدود العراقية — الكويتية شمالاً على طول الباطن الى نقطة جنوب خط العرض في صفوان تماماً ، حيث تنعطف وتتجه شرقاً مارة جنوب آبار صفوان ، وجبل سنام ، وام قصر ، الى ان تصل الى الشاطىء حيث يلتقي الرافدان خور زبير الى الشمال وخور عبدالله الى الجنوب الشرقي .

وتبدأ حدود الكويت — نجد من نفس النقطة الغربية ، أي من ملتقى وادي العوجه بالباطن . ومن هناك تتجه في خط مستقيم ، تاركة آبار الرقعة لنجد (المملكة السعودية) الى اتصال خط العرض ٢٩ بقوس الدائرة الذي ينتهي في تل قرين جنوباً، وتصل الى الشاطىء جنوب المرتفع المعروف باسم رأس القليعة .

والى الجنوب من هذا الخط المنحني تقع المنطقة المعروفة بمنطقة الكويت المحايدة . وتحدها من الغرب سلسلة مرتفعات تسمى الشق ، ويحدها البحر من الشرق ، ومن الجنوب خط متفرع من الشق ماراً بعين العبد الى نقطة

على الساحل شمال رأس المشعاب . وتشترك في المنطقة المحايدة كل من الكويت ونجد (المملكة السعودية) ، ولكل منها حقوق متساوية فيها .

وتشمل دولة الكويت أيضاً جزر وربا ، وبوبيان ، ومسكان ، وفيلكه ، وعوجه ، وكبر ، وقارو ، ومقطع ، وام المرادم وغيرها من الجزر الصغيرة المجاورة .

وتبلغ مساحة دولة الكويت ستة الاف ميل مربع أي أقل من مساحة ويلز بحوالي ١٤٠٠ ميل مربع .

الجغرافية الطبيعية

تتألف الكويت في الغالب من سطح رملي صلب الى الشمال من خط يتجه من الكويت الى الرقه عبر الجهراء ، وتنحدر الى ارض رملية جنوب هذا الخط . اما الى الغرب من الشق ، فإن الأرض في كل مكان حتى تبلغ الباطن ، رملية صلبة ومستوية .

إن أفضل العرفج في المنطقة — وهو نبات صحراوي تتغذى عليه الجمال — ينبت بمحاذاة شاطىء البحر الى مسافة ٤٠ ميلاً ، وينبت النسي — نبات صحراوي آخر — الى الغرب من هذا المكان . والوادي الوحيد الواضح المعالم هو الشق الذي يقع قسم منه داخل حدود الكويت . وعلى الحدود الغربية يقع وادي الباطن . والمرتفعات الوحيدة التي تستحق الذكر هي : جال الزور ، وسلسلة ليه على الجهة الشمالية من خليج الكويت ، وعدة تلال معزولة في الجنوب لها بعض الأهمية كعلامات حدود ، منها مشرف وسرا في منطقة قرعه ، وبرقان ووارا وقرين في اقليم عدان ، وشظف وجبل فوارس في منطقة الكويت المحايدة . والى الجنوب من المنطقة المحايدة وراء الحدود المعترف بها ، تجدر ملاحظة ظلبعات المعيجل وهضبة بعل ووريه .

ولا توجد في أي مكان في الكويت مياه جارية او ينابيع ترتفع مياهها الى سطح الأرض ، ولا في أي مكان في المناطق المجاورة باستثناء عين العبد الواقعة في

اقليم مقطع في المنطقة المحايدة ، والتي تحتوي على كبريتيات الهيدروجين وتتدفق بمعدل الف غالون في الدقيقة .

خليج الكويت

يبدأ ميناء الكويت من الزاوية الشمالية الغربية للخليج الفارسي ، ويمتد من الشرق إلى الغرب مسافة عشرين ميلا . وهو من حيث الشكل اشبه شيء بهلال ظهره إلى الشمال وأحد طرفيه يتجه الى الجنوب الغربي .

والخليج نفسه عبارة عن ثـلم في الشاطىء العربي ينتهي في الشمال بالضفة الغربية لخور صبيه الذي تقع فيه جزيرة فيلكه . ويبلغ عرض مدخله ، بين رأس العرض وضفة خور صبيه الغربية ، أربعة أميال ، وهو مفتوح إلى الجهة الجنوبية الغربية .

وفي الشاطىء الجنوبي لخليج الكويت توجد ثلاثة أخاديد منها واحد في أقصى الشرق بين رأس العرض ورأس العجوزه ، ضحل جداً بحيث ان دخول المراكب اليه محظور . ويعرف القسم الشرقي منه ببندر الشعب ، والقسم الغربي ببنيد القار . وهذا الاسم ربما كان تحريفاً لبنيدر الغار . والاخدود الوسط بين رأس العجوزه ورأس عشيرج ، يضم مدينة الكويت من الناحية الشرقية ، ويضم جزيرة صدفية مغطاة بالرمال والوحول من الوسط تعرف بعكاز او الجزيرة ، وجزيرة قرين من طرف عكاز الجنوبي، وجزيرة أم النمل القريبة من رأس عشيرج .

ويشكل الأخدود الذي في أقصى الغرب والمسمى دوحة كاظمة والواقع بين رأس عشيرج ورأس كاظمة ، القسم الداخلي للخليج كله . وتقع عند أقدامه قرية الجهراء .

ان الأرض المحيطة بالخليج واطئة باستثناء الناحية الشمالية حيث يتراوح ارتفاع تلال زور المحاذية للشاطىء بين ١٥٠ و ٤٠٠ قدم . وهنالك رقعة موحلة من الأرض تمتد الى مسافة طويلة عبر الشاطىء من ناحية الخليج الشمالية ، مما يجعل الاتصال بين البر والبحر من تلك النـاحية صعباً عندما تكون مياه البحر في

الخفاض . والمياه في معظم انحاء الخليج ذات اعماق مناسبة لارساء السفن . ويبلغ عمق الماء عند رأس العرض ١٤ قامة ، ويتراوح بين ست وعشر قامات عند رأس العجوزه ، وينخفض الى ست قامات عند مدخل دوحة كاظمة . وهنالك ضفة صخرية يبلغ عمق الماء فيها قامتين فقط تدعى فشت الحديبة وتبعد ميلين ونصف الميل الى الشمال من المدينة . ويدعى مرسى السفن الكبيرة المحدد بالعرامات « بندر طوينة . ويقع هذا المرسى داخل فشت الحديبة ويبعد ميلاً ونصف الى الشمال من المدينة .

وعندما تهب الرياح الشمالية يرتفع البحر ارتفاعاً ملحوظاً في القسم الجنوبي من الخليج ، ولكن هذا الارتفاع على كل حال لا يشكل خطراً على سفينة كبيرة .

وتوجد منارة في رأس العرض تعمل اضواؤها الكشافة طوال الليل . وهنالك ضوءان ابيضان دائمان في رأس العجوزة وضوء أحمر على سطح القسم الأمامي من مبنى الوكالة البريطانية الذي ساهم كاتب هذا الكتاب في اكماله سنة ١٩٣٥ .

مدينة الكويت

إن كلمة كويت هي تصغير لكلمة كوت ومعناها الحصن الصغير . وقد أطلق المستوطنون الأوائل من آل الصباح وآل خليفة هذا الاسم على المعقل الذي بنوه وسط الخيام التي نصبوها عند قدومهم الى المكان .

وفي الكتب والسجلات الانكليزية القديمة يشار إلى الكويت عموماً باسم « غراين » وهو مأخوذ بدون شك من جزيرة قرين التي تبعد مسافة قصيرة عن المدينة الى الغرب .

وتبعد مدينة الكويت عن البصرة ٨٠ ميلاً جنوباً وعدة أميال شرقاً ، وتبعد حوالي ٢٨٠ ميلاً عن البحرين . وهي تتجه الى الشمال الغربي وتقع على الشاطىء الجنوبي لخليج الكويت ، في مكان هو ثلث الطريق بين مدخل الخليج

في رأس العرض ونهايته في الجهراء .

وتمتد مدينة الكويت على الشاطىء ، حالياً ، مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل تقريباً . وقد اتسعت في السنوات القليلة الماضية اتساعاً ملحوظاً باتجاه رأس العجوزه حيث شيد أحد قصور سمو الشيخ . وهذا القصر شيده المرحوم جابر بن مبارك الصباح واسماه قصر الدسمان . ويستخدمه الحاكم الحالي كمجلس وكدار للاستراحة .

ويبلغ العمق الأقصى للمدينة حوالي ميل وربع إلى مكان بالقرب من وسطها حيث تمت الضاحية الطويلة المسماة مرقاب وامتدت من هناك باتجاه الجنوب الغربي .

والى غرب قصر الدسمان بقليل تقع الوكالة السياسية البريطانية الجديدة ومنزلان كبيران يملك احدهما الحج أحمد كبير عائلة آل غانم ، والآخر يملكه الشيخ عبدالله الجابر الصباح مدير التعليم في الكويت وحفيد الشيخ عبدالله حاكم الكويت من سنة ١٨٦٦ الى سنة ١٨٩٢ .

وعلى بعد ربع ميل تقريباً من مبنى الوكالة غرباً ، تقع المساكن الخاصة بالمرضات . ووراء هذه المساكن يقع المستشفى المجاني الفخم المجهز بأحدث أدوات الجراحة وعيادات طب الأسنان والعيون وغرف الأشعة وجناح الأطفال وغيرها .

وعلى بعد ميل تقريباً من المستشفى الى الجنوب الغربي تقع الوكالة السياسية القديمة التي يشغلها حالياً الكاتب وعائلته .

ووراء مبنى الوكالة القديمة وعلى بعد نصف ميل تقريبا ، يقع قصر سموه في المدينة ومبنى الجمارك الواسع الحديث ومحطة شرطة الجمارك. وهنا تبدأ مداخل البزار الرئيسي وشارع الأعمدة الحديث الذي تقع عند نهايته من الجنوب والى الغرب من حي المرقاب السوق المكشوفة المعروفة بالصفاة .

وعلى مسافة قصيرة من مبنى الجمارك الى جهة البحر يصل المرء الى مكاتب شركة غراي ومكنزي المحدودة التي تقع وراءها المدرسة التي افتتحت حديثاً

وتعرف باسم مدرسة الأحمدية .

وفي الطرف الغربي من المدينة تقع مستشفيات ومساكن الإرسالية الأميركية ـ العربية .

ان موقع المدينة على العموم ذو سطح مستو رملي ولكن الناحية الجنوبية الغربية منها تقع على أرض مرتفعة نوعاً فيها مسالك منحدرة باتجاه الشاطىء . اما شوارعها التي كانت في الأصل غير منتظمة وكثيرة المنعطفات ، تحولت الآن (سنة ١٩٥٤) إلى شوارع حديثة عريضة مستقيمة .

والى جانب البزار الرئيسي وشارع الأعمدة ، فإن الشارع الأهم هو شارع الدسمان الذي يسير من قصر الشيخ في المدينة ومبنى الجمارك فيشكل مع البحر زاوية قائمة ، وهو يتجه من الصفاة الى الناحية الشمالية الشرقية من المدينة .

ان معظم المنازل في الكويت تتألف من طابق واحد ولكنها تبدو عالية نظراً للجدران العالية المبنية كحواجز على مدار السطوح . وهذه المنازل عموماً تبنى حول باحة مركزية واسعة .وأفضل هذه المنازل هو المبني من الحجر المغلف بالجص وله بوابات على شكل قناطر . وتظهر هذه القناطر أيضاً في الطبقات العليا . أما نظام الصيانة فهو بدائي . ولكنه باشراف اللجنة الجديدة المكلفة بتحسين المدينة وتطويرها فقد طرأت عليه تحسينات جلى .

وفي المدينة أكثر من اربعين مسجداً منها تسعة جوامع يصلي فيها الناس الجمعة ، وكلها بدون استثناء لها مآذن . ومن هذه المساجد : مسجد السوق وهو المسجد الرئيسي ويقع في الجهة الغربية من البزار الرئيسي ، ومسجد العدساني الذي يقع غرب مسجد السوق ، ومسجد هلال ومسجد فضاله في حي المرقاب ، ومسجد النصف الذي يقع قليلاً الى شرق الوكالة القديمة ، ومسجد الشيخ الذي يدعى مسجد آل خليفة وهو ذو مئذنة جميلة رائعة ويقع على البحر قرب القصر ، ومسجد السيد ياسين ومسجد البدار ومسجد الساير في القسم الغربي من المدينة .

وهنالك مسجد عاشر هو مسجد الملا صالح الواقع على الطريق بين الصفاة ودروازة الجهراء ، سيحول الى جامع قريباً .

صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح
حاكم الكويت
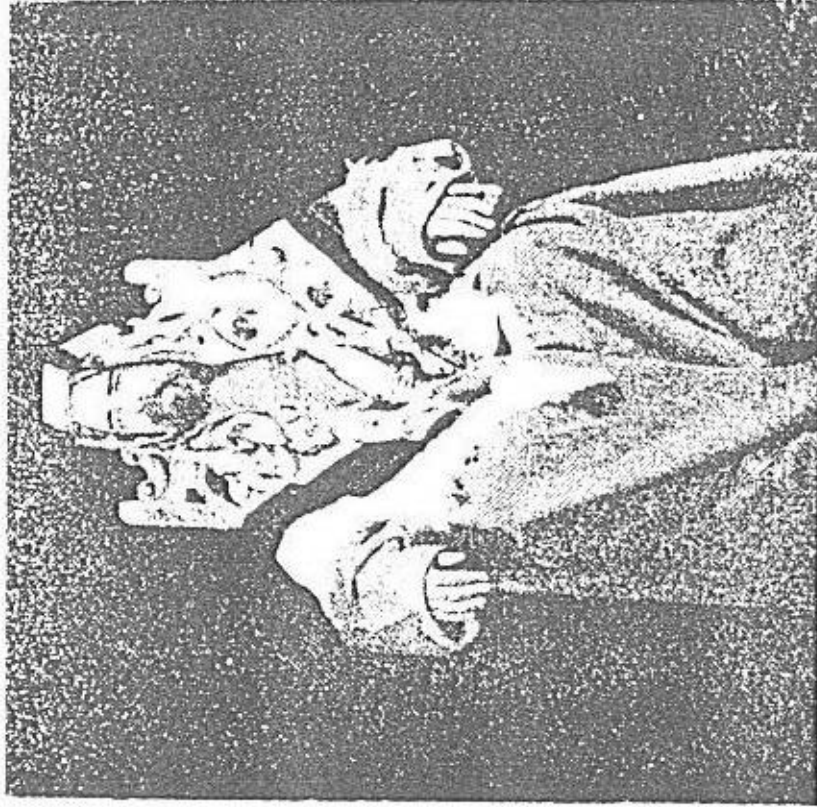
صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفه
حاكم البحرين

الشيخ عبدالله الأحمد الصباح
الابن الاكبر لحاكم الكويت الراحل

كانت مدينة الكويت في الأصل مدينة مسورة . ويقال انه كانت لها سنة ١٨٧٤ سبع بوابات من جهة البر . ولكن رقعة المدينة تزايدت أكثر من أربع مرات منذ ذلك الوقت ، وقليلون هم الأشخاص الذين يعرفون معالم البوابات القديمة اليوم .

وظلت الكويت مدينة مكشوفة غير محصنة عدة سنوات . ولكنه في سنة ١٩٢٠ مباشرة بعد هزيمة الكويت في معركة حمض ، بنى المرحوم الشيخ سالم الصباح حاكم الكويت في ذلك الوقت سورا حول المدينة ليمنع هجمات الاخوان وهم فئة متعصبة من اواسط الجزيرة العربية . ويبلغ طول هذا السور أكثر من أربعة أميال ، ويمتد من رأس العجوزة حوالي ميلين ونصف الى الجنوب الغربي ثم ينحدر ميلا من الغرب الى الجنوب ثم من الغرب شمالاً الى البحر ، ويمتد ربع ميل تقريباً الى ما بعد الارسالية الاميركية .

واليوم توجد في المدينة أربع بوابات هي : دروزة دسمان ، ودروزة البريعي المسماة اليوم دروزة الشعب التي تقود الى حولي ودمنة التي تبدل اسمها سنة ١٩٥٣ الى سالمية ، ودروزة نايف على الطريق الرئيسية الى الرياض ، ودروزة الجهراء التي تقود الى الجهراء .

وبالاضافة الى هذه البوابات الأربع المحمية بالابراج ، توجد قلعة على بعد كل ٢٠٠ ياردة وعلى طول السور . وتنتصب خارج السور بين دروزة نايف ودروزة الجهراء خيام كثيرة للبدو . وهنالك حركة خروج ودخول مستمرة للجمال والقوافل عبر دروزة نايف . وتعرف هذه المنطقة بمنطقة شاميه .

والى جنوب المدينة خارج السور تماماً يقع المطار الذي ينتظر ان تدخل عليه تحسينات كثيرة مع الوقت .

وعلى بعد حوالي ربع ميل الى الجنوب الغربي من دروزة الجهراء تقوم المقبرة المسيحية التي قدم أرضها للحكومة البريطانية عام ١٩١٣ المرحوم الشيخ مبارك الصباح جد الحاكم الحالي . وفي سنة ١٩٣٦ شيدت مقبرة جديدة مصونة داخل المدينة على حساب الحكومة البريطانية . وقد وهب الأرض الشيخ أحمد الجابر

الصباح الحاكم السابق وابن عم الحاكم الحالي .

ويظل الكلام عن مدينة الكويت ناقصاً إذا لم نذكر البناء الضخم الحديث قرب دروزة نايف والذي تشغله دائرة الأمن العـــام ، وكلية الصبيان التي كلفت مليون جنيه ، والكلية الصناعية ، ومستشفى الأمراض الصدرية ، وهذه المباني تقع على بعد ثلاثة أميال غربي المدينة . هذا فضلاً عن محطة الكرنتينا الحديثة ، ومحطة البرق والهاتف،وعشرات المدارس للبنين والبنات بإشراف الشيخ النشيط عبدالله الجابر الصباح ومعاونيه السيد عبد العزيز حسين والسيد مقدادي وهو من أهالي بغداد . ويجب ان لا نغفل المستشفى العام الجديد الذي سيشيد قريباً بين كلية الصبيان ومستشفى الأمراض الصدرية ويتسع لسبعماية وخمسين سريراً . وكذلك مصنع تكرير المياه الذي اشرنا اليه آنفـــاً ، ومحطة التوليد الجبارة في صفه .

جهة البحر والملاحة

يبلغ طول الواجهة البحرية للمدينة ثـــلاثة اميال ونصف . وتكون اكثر انشغالاً في أواسط شهر آب . وقد كتبت الملاحظات الآتية في مثل هذه الفترة من سنة ١٩٤٤ :

لا تزال الكويت اليوم مكاناً من العالم القديم بالغ الأهمية لأي شخص يرغب في دراسة مختلف فنون الملاحة في الخليج الفارسي . وأكبر السفن هناك المسماة بوم ، ويملك تجار المدينة اكثر من ١٣٠ واحدة منها . وتقوم هذه السفن كل سنة برحلتين أو أكثر إلى الهند وفي بعض الأحيان الى زنجبـــار ونهر رفيجي . ولم تمض بعد عدة شهور على رحلاتها التي قامت بها في السنة الماضية ، فهي تعد الآن للقيام برحلات جديدة طويلة .

وعلى طول السيف (الميناء) تجد ربابنة السفن على المصاطب (دتشه)[1] امام جميع البيوت تقريباً. وفي هواء الصباح المنعش، يتعاقدون مع البحارة ويدفعون لهم النقود .

والاشرعة التي اخرجت من مخابئها تبدو وكأنها وحوش بحرية وهي تتأرجح على الطريق محمولة على اكتاف خمسة عشر أو ستة عشر بحاراً . وقبل ان توضع هذه الأشرعة في امكنتها على ظهر السفينة ، تنشر لادخال اية تصليحات لازمة عليها .

ويظل السيف مكاناً مشغولاً كل يوم إلى أن تقلع هذه السفن الى البصرة في اوائل كانون الأول لتحمل التمور إلى الهند .

وهنالك أنواع أصغر من الزوارق تدعى سمبوق وشوبع . وقد عادت هذه الزوارق من الضفاف التي كانت تصطاد عليها اللؤلؤ ، باكراً بسبب حلول شهر رمضان. وهي الآن تقف على الشاطىء او داخل ارصفة الميناء الصدفي المنخفضة، على استعداد للعودة الى الصيد بعد العيد .

لم تبن زوارق كثيرة هذه السنة نظراً لصعوبة الحصول على الاخشاب اللازمة من الهند بسبب الحرب . ولكنه في الأحوال العادية يشاهد المرء ستة زوارق على المشاغل كل صيف . وإلى غرب المدينة خارج السور تجد بريطانيين وعرباً يعملون في بناء زوارق غريبة من خشب يستورد خصيصاً من أمريكا . ويشرف على هذا العمل اشهر باني زوارق في الكويت وهو الحاج أحمد الأطرم .

الحاج أحمد وأولاده بارعون في بناء نماذج صغيرة من كل أنواع الزوارق الشراعية . وكثيرون من رجال الاسطول الملكي البريطاني وغيرهم من الزائرين حملوا معهم نماذج للبغلة وباتل وبوم وغيرها من زوارق صيد اللؤلؤ ، تذكاراً لزيارتهم . ومنذ حوالي تسعة اعوام حمل اميرال بريطاني معه واحداً من هذه النماذج الكاملة واهداه الى متحف العلوم في سوث كسينغتون .

أما موسم زوارق اللعب للأطفال فيأتي فيما بعد عندما يكون الميناء خالياً مهجوراً باستثناء بعض سفن الصيد القديمة . وفي هذا الوقت يجد الصغار أشياء كثيرة يتمتعون بها . وهنالك موانىء آمنة تسمى النقعه وهي أماكن ملائمة للصغار لكي يتعلموا فنون الملاحة . فعندما يصبح الفتى قادراً على السباحة يعطى زورقاً صغيراً مصنوعاً من صفيحة بترول يسير فيه بالميناء أو يرفع عليه شراعاً

صغيراً عندما تهب نسمة خفيفة . وفيما بعد يعطى « حوري » حقيقي .

والحوري عبارة عن زورق صغير مصنوع من جذع مجوف ويحمل على ظهر زوارق اكبر . وهو خفيف وسهل التداول يستخدمه الرجال الذين يراقبون الحذور (شباك من البردي تنصب للأسماك) ويذهبون للاستطلاع في الشباك المنصوبة في المياه المنخفضة . اما الذين يصطادون السمك بالقرب من الشاطىء يستخدمون زورقاً بدائياً يسمى « وايرجيه » وهو مصنوع من الجريد (الياف من سعف النخل) المشبوك بعضه ببعض بالعسو وهو حبل مصنوع من أليـاف سعف النخل الآنف الذكر .

« والوايرجيه » حاد الطرفين ويمكن اجباره بأي من الاتجاهين وله مجدافان وشراع خفيف بعض الأحيان يعلق على عمود صغير يغرز طرفه السفلي في ثقب في وسط الزورق . وعندما تصطاد الأسماك تلقى في قعر الزورق حيث تعيش في الماء الذي يتسرب اليه إلى ان يعود الصياد الى الشاطىء مالئاً سلته بها .

المناخ والسكان

يشبه مناخ الكويت مناخ الموانىء الأخرى على الخليج الفارسي ومناخ معظم انحاء العراق . ففي الشتاء شديد البرودة وخاصة عندما تهب الرياح الشمالية . وقد وصلت درجة الحرارة في كانون الثاني سنة ١٩١١ الى ٢٤ درجة فهرنهايت أي حوالي ٤ درجات مئوية تحت الصفر . وفي الصيف يلطف نسيم البحر حرارة الشمس وتبرد الصحراء بسرعة في الليل . اما معدل درجات الحرارة القصوى والدنيا فهو ١١٤ درجة فهرنهايت و ٣٥ درجة فهرنهايت اي ٤٤ درجة مئوية ودرجتان مئويتان ، بينما لا يزيد معدل تساقط الأمطار عن خمس بوصات .

وكان عدد سكان مدينة الكويت سنة ١٩٥٢ ما يزيد عن ١٦٠ ألف نسمة . وقد ارتفع هذا العدد في نهاية ١٩٥٣ الى ٢٥٠ الف نسمة بسبب تدفق الأيدي العاملة الأجنبية . والأغلبية العظمى من السكان الدائمين من العرب من قبائل عتوب ، وعوازم ، ورشايده ، وبني خالد ، ودويسر ، وعجمان ، وعنيزه ،

وظـافر . الى جانب الحسوية ، اي من عرب الاحساء والبحارنة من البحرين . أما الجالية الإيرانية التي تزايد عددها بصورة مذهلة في السنوات القليلة الماضية ، فيبلغ عدد أفرادها حوالي ٣٠ الف نسمة . ومن هؤلاء عدد قليل من التجار أما الغالبية العظمى فهي من العمال . وباستثناء الإيرانيين والبحارنة وبعض الحسوية الذين هم من الشيعة ، فإن مسلمي الكويت كلهم تقريباً من السنة . ويحج من سكان الكويت الى مكة سنوياً حوالي ٦٠٠ حاج فقط يسافرون الى الأماكن المقدسة بطريق البر عادة .

أما العائلات الرئيسية في الكويت بحسب عدد الذكور فيها فهي كما يلي :

العائلة	عدد الرجال تقريباً
قناعات	٢٥٠٠
آل خالد	٢٠٠
آل زايد (آل غانم)	١٥٠
آل سيف (بما فيهم ابن رومي وآل شملان)	١٥٠
آل بدر	٥٠
آل جليل	٥٠
آل صالح	٥٠
آل صقر	٣٠

وقد اعطاني التفاصيل المدونة اعلاه عبد اللطيف رئيس عائلة آل جليل والشيخ عبدالله الجابر .

وتشتق كلمة زايد من زيادة ومعناها الكثرة للدلالة على ان اجداد العائلة كانوا يملكون اعداداً من الاغنام والجمال أكثر من غيرهم من العرب . ويرجع أصل جميع العائلات التي تشكل جماعة آل زايد في الكويت الى عنيزة . وكما ذكرنا سابقاً فقد قدموا الى الكويت من قطر مع آل الصباح وآل خليفة منذ قرنين ونصف من الزمان .

ويعرف آل زايد اليوم بآل غانم ومنهم الأشخاص التالية اسماؤهم :
شاهين بن محمد الغانم .
أحمد بن محمد الغانم (رئيس العائلة اليوم) .
ابراهيم بن محمد الغانم .
خليفة بن شاهين الغانم .
محمد الثنيان الغانم .
يوسف بن ابراهيم الغانم .
ابراهيم بن محمد الجبار الغانم .
عبد الوهاب بن خليفة الشاهين الغانم .
ويتصل بهم بصلات قربى كل من :
خالد الغانم الزايد .
عبد الوهاب بن عيسى قطامي الزايد .
عبد الوهاب بن عبد العزيز الزايد .

وكان حاكم الكويت السابق المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح متزوجاً من حسه (١) ابنة ابراهيم بن محمد الجبار الغانم وله منها عدة أولاد أشهرهم : عبـــدالله الأحمد الجابر الصباح ، ومحمد الأحمد الجابر الصباح ، ومنيره وهي اليوم زوجـة الشيخ عبدالله الجابر الصباح .

(١) حصه

الامكانيات العسكرية

يحتفظ حاكم الكويت بحرس خاص قوامه خمسون رجلا وبقوة نظامية يربو عددها على الألف . وقد قام بتدريب هذه القوة ضباط بريطانيون وفلسطينيون ومهمة هذه القوة المجهزة ببنادق من عيار ٣٠٣ر٠ حماية شخص الحاكم وحراسة المدينة وحماية منشآت شركة النفط في الاحمدي . هذا بالاضافة الى ١٨٠ حارساً تحتفظ بهم شركة النفط الانكلو – اميركية :

وفي حالة الحرب يمكن تجنيد حوالي ٢٠٠٠ رجـــل آخر والحاقهم بالقوة

النظامية . ويستطيع الشيخ ان يجمع هذا العدد من الرجال من قبائل البدو الخاضعة لنفوذه . ويمكن أيضاً تجنيد ٣٠٠٠ رجل من السكان المستوطنين . ففي أيام معركة جهرة في تشرين الأول سنة ١٩٢٠ دفع جميع رجال مدينة الكويت القادرين جدياً الى الخدمة العسكرية . ولعدة اسابيع بعد المعركة كان على كل تاجر في المدينة ان يقدم عدداً معيناً من الرجال لحماية سور المدينة في الليل .

وفي حالة طوارىء يملك الشيخ عتاداً حربياً يتألف من ٤٥٠٠ مسدس موزر وبندقية بريطانية مع وافر من الذخيرة . وفي سنة ١٩٣٣ اضاف الشيخ أحمد الجابر الى قواته المسلحة عشر سيارات مصفحة حديثة مثبتة في كل منها بندقية حديثة جيدة . وعزز الدفاع سنة ١٩٥٣ باضافة ١٤ دبابة خفيفة ، وباضافة اربع طائرات اوستر خفيفة في كانون الثاني سنة ١٩٥٤ .

ويملك الشيخ عبدالله السالم أيضاً ١٢ شاحنة شيفروليه صغيرة كل واحدة منها مجهزة ببندقية من طراز « لويس » مثبتة على ركيزة مثلثة القوائم ، وشاحنة شيفروليه كبيرة على ظهرها مدفع رشاش من طراز « فيكرز » مثبت بالطريقة ذاتها . واذا دعت الحاجة لنقل قوات بسرعة الى أية نقطة مهددة ، فإنه يستطيع باشارة ان يحصل على ٢٠٠ شاحنة مختلفة الاحجام من المدينة .

المواصلات

ان السفر في الكويت ليس سهلاً مع ان سطح الارض خال من العوائق الطبيعية . وعندما يخرج المرء من المدينة بأي اتجاه فإنه لن يجد ولو كمية قليلة من المؤن ، وعليه ان يحمل معه زاده من الماء والطعام (باستثناء خمس قرى رئيسية هي: الجهراء وفنطاس وأبو خليفه وفحيحيل وشعيبه) . وبالنسبة لعلف الحيوانات فإن الأمر أسهل وبامكان المواشي من كل نوع ان تجد لنفسها ما تتغذى به . اما الماء فهو نادر في كل مكان وخاصة الى الشمال والشمال الغربي من الجهراء. واختيار الطريق ووجهة السير يقررها موقع الآبار وحالتها .

وبدخول السيارات الى البلاد خططت طريق ممتازة بين الكويت والرياض تسلك الاتجاه التالي : الكويت ، مناقيش ، خبرة ، الدويش ، الجانب الغربي من الشق ، جاريه (١) (أو قاريه) ، عليا ، تربي ، كنهرا (الجانب الشرقي من رمال دهانة مقابل رماح) (٢) ، رماح ، مر بويب ، تبان ، الرياض . وقرب كنهرا وفي وسط رمال دهانة تلتقي هذه الطريق بطريق الهفوف عاصمة الاحساء المقاطعة الشرقية من المملكة العربية السعودية .

وبالنسبة للعمليات العسكرية ، فان جميع البلاد صالحة لسير الشاحنات السريعة وسيارات التجول ، باستثناء منطقة الكبد الرملية الواقعة جنوب غربي مدينة الكويت . وسيتم إنشاء خمس طرقات رئيسية معبدة بالإسفلت بموجب خطط التنمية الجديدة . هذه الطرقات هي : الكويت – صفوان ، الجهراء – رقيبع (٣) ، الكويت – منقاش ، الكويت – قرى القصور (وهذه طريق بمحاذاة الشاطىء) ، الكويت – أرق على الحدود الجنوبية للمنطقة المحايدة .

النباتات والحيوانات

النباتات في الكويت نادرة الوجود وفي الشتاء يختفي أثرها . والأشجار الوحيدة الموجودة هي النخيل والسدر (او البر) والأثل وحتى هذه لا يجدها المرء إلا في جوار القرى .

والأعشاب الموجودة خاصة في المناطق الشمالية والشرقية والجنوبية والتي تتغذى عليها الجمال فهي : العرفج وهو عشب ذو طعم مائل الى الملوحة يعرف عموماً باسم حمض ، والعوسج وهو نبات شوكي ذو أوراق صغيرة وثمار حمراء تشبه التوت .

ويكثر الحنظل ، وهو من فصيلة الحمض ، في الصحراء الغربية . وتنمو أعشاب تعرف محلياً باسم ثمام وثندا جنوب خليج الكويت وفوق مساحة واسعة جنوب المدينة رأساً . وينمو العشب المسمى نسي (٤) بكثرة الى غرب الشق .

ويأخذ البدو جمالهم كل عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً الى الأماكن التي يكثر

(١) القريه/عليا (٢) الدهناء (٣) الرقعي (٤) النصي

فيها الحمض لترعى مدة اسبوع تقريباً. ويقول البدو ان الملوحة في هذه الأعشاب مفيدة للجمال وتحفظها بصحة جيدة .

وفيما يلي قائمة بأسماء أنواع الحمض المختلفة في شرقي الجزيرة العربية :

عقروم ، ضمران ، جغراف ، عادة ، حدتش (حنظل) ، هرم ، رمض ، شران ، شينان ، سويد .

الجمال لا تأكل الحنظل ولكن الأغنام تحبه وتسمن عليه . ومن الغريب انه يؤثر على الأغنام بحيث انها لا تحتاج الماء حتى في اشد الأيام قيظاً . ويعرف الرعاة هذه الحقيقة ولذلك يسوقون اغنامهم الى حيث يوجد هذا العشب عندما يتأخر هطول الأمطار او عندما يتعذر عليهم ايجاد الماء .

وتجدر الإشارة هنا الى ان آل مرة وهم قبيلة ارستقراطية في جنوب المملكة السعودية يستخدمون كلمة تهاج لوصف الأماكن التي تنمو فيها عدة أنواع من الحمض مع بعضها .

وتتركز الزراعة في الكويت في جوار جهرة وسنتطرق إلى ذلك عندما نتحدث عن جهرة في الفصل القادم .

الطيور نادرة في الكويت إلا في مواسم الهجرة . ففي الشتاء تكثر الحبارى والقطا . وفي اوائل الخريف وأواخر الربيع بالامكان ان تصبح الكويت مركزاً ملائماً لدراسة هجرة الطيور التي تنتقل من المناطق الاستوائية الى روسيا وشمال آسيا الصغرى . ويبدو ان الكويت تقع على خط هجرة هذه الطيور .

ومن الحيوانات البرية في الكويت الأرنب والذئب وثلاثة انواع من الغزال هي : العدمي والعفري والريم .

فالعدمي ، بخلاف العفري ، ليست له بقع بيضاء تحت العين . ولون رأسه بني ميال الى الحمرة وجسده بني فاتح . وله ، كالعفري ، بقعة سوداء تعرف بالحرقة فوق الأنف . والعفري هو اصغر الغزلان واكثرها انتشاراً في شمال شرق الجزيرة العربية . ويمكن تمييزه بالبقعة السوداء فوق الأنف وبالحواشي البيضاء على الوجنتين من العين نزولاً . وله ايضاً شمائل من الشعر الأسود تحت

الركبتين الأماميتين .

ويمكن تمييز الريم بالخط الأبيض على جانبي الخط البني في الوسط . ويشبه بذلك العفري . ولكن الخط الأبيض في الريم أعرض منه في العفري بمرتين ويمتد الى ما وراء العين . وحوالي العين وتحتها توجد عدة علامات سوداء وبنية قاتمة . وللريم ، كالعفري والعدمي ، بقعة سوداء في وسط الرأس فوق الأنف . ولون جسده بني فاتح جداً ويبدو عن بعد كأنه أبيض .

وينكر بعض المطلعين وجود الفهد في الجزيرة العربية ولكن واحداً منهـا قتل صدفة في ١٥ آذار سنة ١٩٥٠ على بعـد ٧٠ ميلاً غربي بدنة وهي محطة لضخ البترول تابعـة لخط التابلاين الممتد من أبقيق الى البحر المتوسط . حدث ذلك عندما كان توني فالنتاين وهو مهندس يعمل مع التابلاين متوجهاً الى عمله في سيارته الفورد فهجم الفهد على السيارة فقتلته .

ولقد تسنى لي رؤية جلد ذلك الفهد ويبلغ طوله ستة اقـدام واربع بوصات وكان في حالة سليمة . وهو ابيض اللون وفيـه بقع سوداء في كل مكان باستثناء أسفل البطن . اما اقدامه ومخالبه فهي اقرب الى اقدام كلب كبير منهـا الى أقدام ومخالب القط او السنور ، وله سالفان بارزان . وقد اكد متحف التاريخ الطبيعي في بريطانيا عندما ارسلت لهم الصورة والأوصاف ان الحيوان هو فهد .

وتوجد كثير من الأفـاعي في منطقة الكويت الساحلية الجنوبية . ولكن معظم هذه الأفاعي غير سامة .

وقـد وصف لي صديقي صالح المري مرافق الشيخ عبدالله المبارك الصباح مدير الأمن العام وقائد قوات الكويت المسلحة، يوم ٨ ايار سنة ١٩٤٨ ، الأفعى الرهيبة المسماة حام وهي كوبرا سوداء يعرفها أهل الأحساء باسم عبه . وقـال ان طولها يبلغ خمسة أقدام وتزحف ببطء وهي سامة جداً وعندما يقتلها البدو يطلقون عليها النار من بعيد . وقـال صالح ان تلك الأفعى تسير غالباً في الليل وتحدث صوتاً كصوت جدي صغير . وإذا اقترب منها أحد تهاجمه . وحدثني صالح ايضاً انه شاهد أثر سير هذه الأفعى قرب أم قصر .

اما النوع الشائع من الأفاعي فهو الحنش . وهنالك عدة أنواع أخرى تعرف جميعها باسم داب .

ويـــأتي الجراد الكويت كل سنة تقريباً بأسراب مختلفة الحجم حسب كمية هطول الأمطار . فكلما كان هطول الأمطار شديـداً في الشتاء كان الجراد كثيراً في الربيع . وكما كتبت في ايار سنة ١٩٥٤ : انهم معنا وزيارتهم غــير مستحبة .

ان أعظم مــا كتب في وصف غزو الجراد هو ما ورد في الاصحاح الأول والثاني من سفر يوئيل في التوراة وبه انهي الفصل الأول من هذا الكتاب :

أمة قوية غزت أرضي . لا عد لها ولا حصر . انيــابها كأنياب الأسد . تركت كرومي خراباً ونزعت قشور شجرة التين في بستاني ، طرحتها جانبــاً عارية أغصانها بيضاء كصفرة الموت . أتلفت الحقل وتركته حزيناً يبـكي القمح الذي ضاع . لقد جف الخمر الجديد وفسد الزيت . . . كيف تزمجر الوحوش ، هكذا تفعل القطعان لأنها فقدت المرعى . . والأغنام بائسة محرومة .

يوم مظلم قاتم . . يوم غائم شديد الظلمة . . وعندما طلع الصباح على الجبال : شعب عظيم قوي كالنار يلتهم كل شيء وراءه يباس ولن يفوته شيء . مظهرهم كمظهر الخيل وكالخيالة يسيرون . . يقفزون كأصوات العربات المنحدرة من قمم الجبال . . يتراكضون كالجبـابرة . . يتسلقون الجدران كرجال الحروب . . يسيرون كل واحد منهم في طريقه ولا يمزقون صفوفهم . . سيصولون ويجولون في المدينــة . . يتسلقون الجدران والمنازل . . يدخلون من النوافذ كاللصوص . . ستتزلزل الأرض أمامهم وترتعد السماء . . الشمس والقمر يحتجبان واشعة النجوم ستنهزم .

الفصل الثاني

المناطق والقرى حول الكويت وشرق الجزيرة العربية

العدان

العدان منطقة محاطة بمنطقة القرعة من الشمال والكبد من الغرب والصلو من الجنوب . وتبدأ من نقطة تبعد ١٦ ميلاً الى الجنوب من مدينـــة الكويت وراء ملح الواقعة في منطقة القرعة مباشرة . وتمتد منطقة العدان ٢٥ ميلاً جنوباً نحو تلة قرين التي تشكل حدودها وحدود مقاطعة الكويت ، مع منطقة الصلو .

وتقع على زاويتي عدان الشمالية الغربية والجنوبية الغربية تـــلة المعيدنيات وآبار صبيحية على التوالي . ويظهر ان عرض المنطقة من البحر الى الداخل يتراوح بين عشرة أميال وعشرين ميلاً . ومقابل البحر تمتد عدان الى الشمال اكثر من مقوى وتضم القرى التالـــة : فناطيس ، فنطاس ، ابو حليفه ، فحيحيـــل ، وشعيبه . وهذه القرى مجتمعة تعرف باسم القصور . والى الجهة الشرقية من عدان توجد سلسلة مرتفعة تشرف على البحر اسمها ظهر العدان حيث تقع مدينة النفط الجديدة الأحمدي . وهنـــاك توجد الخزانات التي يضخ اليها النفط من آبار مقوى وبرقان قبل ان ينحدر ، بفعل الجاذبية ، في الأنابيب الى ميناء الأحمدي .

وفي عدان توجد الانقاض الوحيدة ذات القيمة الأثرية في الكويت . وهـــذه الآثار عبارة عن نواويس وجدت في تـــلة تعرف بام خزنه وتبعد ستة أميال الى

الشرق من تلة وارا .

والقبور الموجودة هناك تتجه من الشرق الى الغرب ولذلــك فهي ليست قبوراً اسلامية قطعاً. وتشغل هذه القبور مساحة مرتفعة من الأرض تقدر بحوالي ١٠٠ قدم مربعة . والنواويس مصنوعة من الجص وطول الواحد منهـا خمسة أقدام وعرضه قــدم واحد وثماني بوصات ويبلغ عمقه قدمين وسماكة جوانبه حوالي أربع بوصات . وقــد دفنت هذه النواويس في الأرض على عمق أربعة أقدام ووضعت فوقهـا أعداد كبيرة من الحجارة المختلفة الاشكال يبلغ حجم الواحد منها قدمين مكعبين . ولا توجد اية نقوش على هذه النواويس ولكنـه عثر على قطعة نقود نحاسية قرب المكان يبدو انها فارسية مسكوكة في بغــداد ويعود تاريخها الى القرن السابع عشر أو الثامن عشر بعد الميلاد .

ويمكن معرفة مدى وطبيعة منطقة عدان من معرفة القرى والآبار والمعالم الطبيعية التالية :

ابو حليفا : وهي قرية ساحلية تقع على بعد ١٨ ميلاً جنوب الجنوب الغربي لمدينة الكويت . وتتألف من ١٦٠ بيتاً ويسكنها عرب من أصول متفرقـة . وفي القرية حوالي ألف شجرة نخيل مثمرة وثلاثين بئراً فيها مياه صالحة منهــا سبع آبار تستخدم للري . ويزرع فيها الشعير والبطيخ وبعض الخضار . ويظهر فيها عدد من اشجار السدر . وهي قرية من قرى القصور يؤمها أهل المدينة في فصول معينة من السنة . ويصلها بمدينة الكويت قريباً طريق مزفت حديث . وفي ٢١ أيار سنة ١٩٣٧ اكتشف السيد لاتيار الذي كان يعمل لشركة نفط الكويت ، نموذجاً لرأس سهم من الصوان طوله بوصة ونصف ، في مكان يبعـد ثلاثة أميال الى الجنوب الغربي من قرية أبو حليفا .

عريفجان : وهي آبار ذات مياه جيدة تبعد خمسة أميال الى الغرب مــن قليمة العابد على الشاطىء .

عرفجيه: وهي آبار ذات مياه مالحة الطعم يبلغ عمقها اثني عشر قدماً وتبعد ثمانية أميال الى الشمال الشرقي من صبيحيه .

برقان : وهي سلسلة تلال ارتفاعها مئة قدم وتضم فجوة تحتوي على ترسبات القار . وتبعد هذه التلال عن مدينة الكويت ٢٨ ميلاً الى الجنوب وتبعد ١٣ ميلاً عن الساحل . وتقع تلال برقان وسط حقول النفط الرئيسية التـــابعة لشركة نفط الكويت . والتنقيب عن النفط هناك مستمر لذلك فان عدد الآبار يختلف من فترة لفترة . وفي الوقت الذي كتب فيه هذا الكتاب كانت هنالك ١٥٦ بئراً بما في ذلك آبار مقوى ، وكانت هنالـــك ثلاث آخرى يجري العمل بها . وفي سنة ١٩٣٥ اكتشف الكاتب في تلال برقان عدة أدوات صوانية من نوع رأس السهم وأدوات الحفر . وقد أرسلت هـذه الأدوات الى متحف لندن حيث حكم عليها الخبراء بأنها من العصر الحجري المتأخر .

دشت : وهي عبارة عن سهل رملي مجدب ومستنقع يمتد جنوباً عدة أميال على طول الشاطىء من قليعة العابد وتصل الى بعد ثلاثة أميال في الداخل . وهنا وهناك في دشت توجد مجموعات من الطرفه وهي شجيرات صغيرة لها أزهـــار وردية اللون . وعلى بعد خمسة أميال من قليعة العابد وثلاثـــة أرباع الميل من الشاطىء يوجد كثيب من الرمل الأبيض يعرف باسم بنية الدشت .

دسمه : وهي آبار مياهها مالحة تقع على بعـــد تسعة أميال الى الغرب من شعيبه .

فحيحيل : وهي احدى قرى القصور على البحر . وتبعد ٢٤ ميلاً ونصف الميل الى جنوب الجنوب الشرقي عن مدينة الكويت . وتضم فحيحيل اربعمائـة بيت وفيها ٢٠ بئراً من المياه الصالحة على عمق ١٨ قدماً . وفي القرية حوالي ٢٠٠ شجرة نخيل ، ويزرع فيها بعض القمح والشعير والبطيخ الذي يروى من الآبار . وتملك سكان القرية الذين ينتمون الى قبائل عربية متعددة عـدة قطعان من الغنم والماعز . وقد بدأت القرية تزدهر لأن أهـــالي المدينة يقصدونها للاستجمام في فصول معينة من السنة ولأنها قريبة من ميناء الأحمدي .

فنطاس : وهي قريـة أخرى من قرى القصور على البحر وتبعد ١٦ ميلاً الى جنوب الجنوب الشرقي من مدينـة الكويت . وفيها ١٧٠ بيتاً سكانها من العرب

الذين ينتمون الى قبائل مختلفة كما في الكويت وفحيحيل . وفي القرية حوالي ٣٠ بئراً بعضها ذو مياه مالحة وبعضها الآخر ذو مياه عذبة على عمق ٢٠ قدمـــاً . ويبلغ اتساع فوهة البئر ٢٠ قدماً من كل جانب ممـــا يجعل من الممكن ان تعمل لسحب الماء منها ثلاث فرق من الحمير في وقت واحد .

والزراعة في فنطاس اغنى منها في جهره مع ان الارض المزروعة في فنطاس أقل مساحة . ويزرع أهالي القريـة الشعير والعدس والبطيخ والفجل والبصل . وتوجد فيها ٦٠٠ شجرة نخيل وبعض أشجار السدر والعشور ، وينتظر ان تزدهر هذه القرية ايضاً عند اكمال الطريق المزفت الذي يصل القصور بمدينة الكويت.

فناطيس : وهي قرية أخرى من قرى القصور على البحر وتبعد ثمانية اميال الى الجنوب من رأس الارض . وفيها ست أو سبع آبار على عمق ١٢ قدماً .

حنيظل : وهي مجموعة آبار على الشاطىء تبعد ميلين إلى الشمال عن فنطاس. وعدد هذه الآبار كبير ولكن اثنتين منها فقط تحتـوي على المـــاء على عمق ١٨ قدماً .

جعيدان : وهي أرض منخفضة طولها ميل وعرضها ميل وتبعد ميلاً واحداً عن برقان الى الشمال ، تملكها قبيلة العوازم . فيها عدة آبار ماء حولهـــا بعض اشجار النخيل والسدر . وقد عثرت شركة نفط العراق اول ما عثرت على النفط بالقرب من شجرة سدر منفردة بجوار آبار جعيدان . وكان ذلك سنة ١٩٣٧ بعد محاولات يائسة للعثور على النفط في بحرا شمال خليج الكويت .

القيط : وهي آبار مياهها جيدة لكنها قليلة الملوحة ، عمقها ٢٠ قدماً وتقع على بعد ٢٥ ميلاً الى جنوب شرق مدينة الكويت على الطريق بين برقان وقرين.

منيفة : وهي تسع آبار مياهها صالحة للشرب عمقها ٢١ قدماً . وتقع هــذه الآبار على الساحل بين فنطاس وحنيظل.

مزارع : وهي أرض مزروعة تمتد بضعة أميال وفيها آبار قليـــلة العمق ، وتقع على بعد ثلاثة أميال إلى شمال غرب لقيط .

ميناء الأحمدي : وهو المرفـــأ الكبير الذي تستخدمه شركة نفط الكويت

لتصدير النفط الخام . وهناك تقوم مدينة حديثة واسعة ومذهلة النشاط . ان أرصفة النقل والتجهيزات الموجودة في ميناء الأحمدي تعتبر أحسن وأحدث ما في العالم . وتقوم هناك ايضاً منارة عظيمة يبلغ مداها ٢٠ ميلاً . ويستطيع الميناء ان يتسع لتحميل ١٤ ناقلة في وقت واحد ، كما ان هنالك ثلاثة أنابيب غواصة الى الشمال من الرصيف الرئيسي . ويصدر الميناء حالياً ٨٠٠ الف برميل يومياً وينتظر أن يصل هذا الرقم إلى المليون قريباً . ان ميناء الأحمدي يتزايد في الحجم والأهمية كل شهر فيما تستمر التنمية الخيالية .

مشاش **حبينان** : وهي آبار خمس فيها مياه جارية على عمق ١٨ قدماً وتقع غرب المزارع مباشرة .

معيدنيات : وهي مجموعة من ثلاث تلال واطئة تحتوي على الكبريت الذي تفوح منه رائحة قوية . وهناك مركز الحقل الجديد للنفط الذي تملكه شركة نفط الكويت . وتقع معيدنيات على بعد أربعة أميال إلى الغرب من مقوى في منطقة قرعة .

قليعة العبيد : وهي مرتفع صخري عال منبسط السطح على الساحل يحتضن خليجاً صغيراً يتخذه صيادو اللؤلؤ ملجأ لهم في الطقس العاصف . يقع هذا المرتفع على بعد خمسة أميال إلى الغرب من رأس القليعة وعلى بعد عشرة أميال الى الجنوب الشرقي من شعيبه . وليس في هذا المكان ماء . ويقال ان جماعة من العبيد الفارين استولت عليه ودافعت عنه منذ سنوات خلت .

رأس القليعه : وهو رأس بارز داخل في البحر ليس فيه ماء ويقع على بعد ١٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من شعيبة .

صفوي : وهي عبارة عن مئة بئر منتشرة بجوار لقيط من الجهة الشمالية — الشرقية . وهذه الآبار فيها مياه صالحة على عمق ١٨ قدماً ولكنه ليست حولها زراعة .

شعيبه : وهي آخر قرية ساحلية الى اقصى الجنوب في منطقة عدان وهي ايضاً من قرى القصور . وتقع هذه القرية على بعد ٢٧ ميلاً الى جنوب الجنوب الغربي من
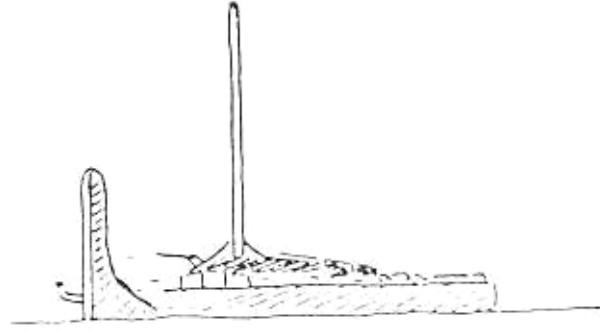
بدن من مسقط
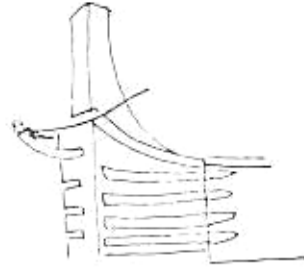
مؤخرة البدن

بقرة من الساحل الجنوبي
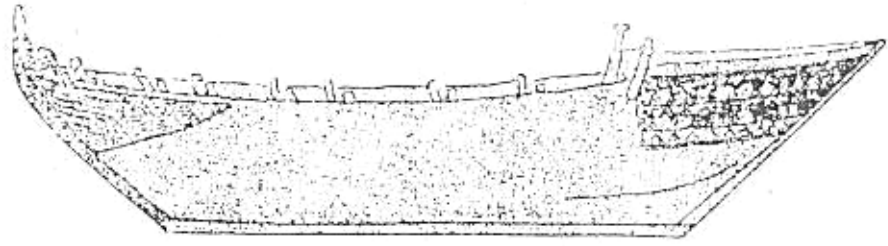
زورق من جيزان ، اليمن
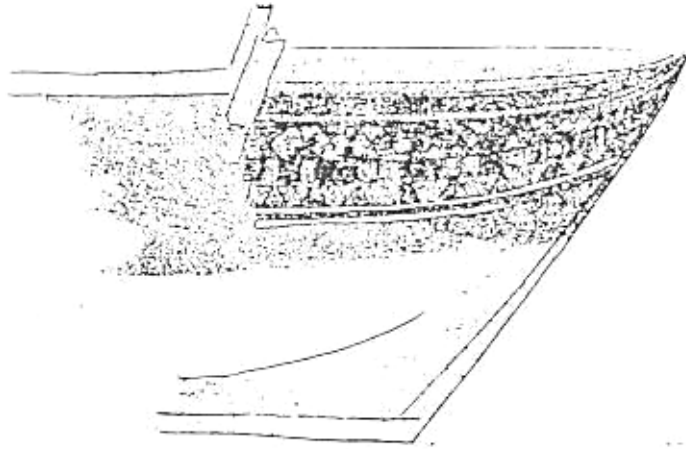
مؤخرة الزورق المزخرفة

مدينة الكويت وفيها ١٠٠ منزل يسكنها اصحابها بصورة دائمـــة ، وعدد من المنازل الصغيرة تدعى « هوته » تسكن من وقت الى آخر ، وفيها ايضاً انقاض قلعة كانت في يوم من الأيام المصيف المفضل لدى الشيخ جابر ابن مبارك الصباح . وفي القرية عشر آبار تحتوي على مياه صالحة للشرب على عمق ١٥ قدماً ، وهناك ايضاً حوالي ١٥٠ شجرة نخيل وبعض اشجار السدر وقليل من زراعـــة الشعير والخضار . ويملك سكان القرية مركباً او مركبين . ان قرية شعيبة آخـذة في التوسع والازدهار وهي تقع مباشرة الى جنوب المدينة الحديثـــة على ميناء الأحمدي .

طويل : وهي مجموعة من اثني عشرة بئراً مياهها عذبة وعمقهـا حوالي ٤٠ قدماً وتقع على بعد ستة اميال الى الغرب من وعرا .

أم الهمان : وهي ثماني آبار عمقها ١٨ قدماً وفيها مياه صالحة للشرب . تبعـد أم الهمان ثلاثة اميال الى الجنوب من شعيبة وتقع بجانب ميناء عبدالله وهو المحطة التي تستخدمها لشحن النفط شركة النفط الأميركية المستقلة .

أم قصبه : وهي مجموعة آبار صغيرة مياههـــا مالحة تقع بالقرب من الساحل على بعد خمسة اميال الى الجنوب من شعيبة .

أم صفق : وهي آبار ذات ميـــاه صالحة على عمق ١٨ قدماً . تقع على بعد ميلين من انقيط الى الشمال الشرقي . ويشتهر هذا المكان بزراعة البطيخ .

عقيله : وهي آبار قرب الساحل تبعد عدة اميال عن شعيبة جنوباً وتسمى ايضاً ام العوسج نظراً لكثرة ما ينبت حولها من العوسج .

وعرا : وهي قمة عالية من الحجر الأسود . يبلغ ارتفاعها ٢٠٠ قدم تشبه برجاً مخروطي الشكل . وتقع وعرا على بعد سبعة اميـــال الى الشمال الغربي من برقان .

البحرين

البحرين اسم يطلق على مجموعة الجزر الواقعة في الخليج بـين ساحل الاحساء

في المملكة العربية السعودية من جهة الغرب ، وبين شبه جزيرة قطر من جهة الشرق . وأكبر هذه الجزر الجزيرة التي كانت تدعى سابقاً آفال (١) والمسماة اليوم البحرين . ويبلغ طول هذه الجزيرة ٢٧ ميلاً وعرضها عشرة أميال وفيها العاصمة منامة التي تمتد ثلاثة أميال على طول شاطىء الجزيرة الشمالي . ومعظم سكان الجزيرة ، عرب وايرانيون ، هم من الشيعة . والصناعة الرئيسية فيها صيد اللؤلؤ وقد اكتشف النفط هنالك سنة ١٩٣٢ .

والبحرين مقاطعة مستقلة تحكمها عائلة آل خليفه ، وترتبط مع بريطانيا بمعاهدات وثيقة . وتتمثل الحكومة البريطانية في البحرين بوكيل سياسي يعمل تحت اشراف المقيم السياسي في الخليج الفارسي الذي كان يتخذ مقره الدائم في بوشير (٢) على الشاطىء الشرقي في الخليج ولكنه اليوم في البحرين التي تعتبر المحطة البحرية الرئيسية للأسطول الملكي البريطاني في الخليج الفارسي . وتتخذ شركة الخطوط الجوية البريطانية عبر البحار من البحرين محطة رئيسية للتموين لأنها تقع في طريق خطها المباشر الى الهند واستراليا والشرق الاقصى . ويقع المطار في جزيرة محرق الواقعة شرق منامه مباشرة وتتصل بها بطريق مرتفع .

وفي سهل صحراوي في القسم الشمالي من الجزيرة الرئيسية توجد مرتفعات فيها آلاف من القبور قديمة العهد ولا يعرف أصلها بالضبط ولكنها تعتبر أكبر مقبرة في العالم . وربما كانت هنالك قبور أخرى . ويعتقد البروفسور كورنوال انها تعود الى الألف الثاني قبل المسيح ، وان ديلمون القديمة ذات الكتابة المسمارية لم تكن في الواقع إلا البحرين اليوم .

(١) اوال
(٢) بوشهر
(٣) الرمه
(٤) القصيم
(٥) الدهناء

الباطن

الباطن هو القسم الأخير المنخفض من وادي رمة (٣) العظيم الذي تقع الاجزاء الوسطى والعليا منه في المملكة العربية السعودية . وتقول بعض المراجع ان الاسم اطلق على الوادي كله من قسيم (٤) نزولا . ولكن الناس درجوا على تمييز القسم الواقع في حزام دهانه (٥) الرملي بأسم وادي المستوي ، وسموا القسم الاسفل

الباطن .

ويمكن القول ، اذن ، انه يبدأ من على مسافة ٧٠ ميلاً جنوب غربي حفر الباطن ، ويستمر من رقيع في نفس الاتجاه نحو مئة وثلاثة أميال الى سلسلة مرتفعات الرتق التي تبعد ٣٧ ميلاً عن البصرة ، حيث ينتهي .

والباطن على العموم ذو انخفاض ملحوظ ويختلف عرضه من أربعة اميال كما في حفر الى ميلين كما في رقيع . وعند نهايته في رتق يصبح عريضاً جداً وقليل العمق . ويبلغ عرض قعر الوادي في حفر حوالي ثلاثة أميال ولكن أقل من ذلك بكثير في أماكن أخرى اذ يصبح على بعد مسافة قليلة من رقيع أقل من نصف ميل . ولا يوجد في الوادي أي أثر لفعل المياه ، ولكن قعر الوادي مغطى بطبقة من الترسبات الطينية الداكنة اللون يبدو انها انجرفت تدريجياً من الاماكن المرتفعة على جهتي الوادي . وتنبت على هذه الطبقة مجموعات من الاعشاب والشجيرات تشكل ملجأ للغزلان والطيور . وتمر طرق السيارات من البصرة والكويت الى قسيم في بطن البطين . ويلتقي طريق الكويت بالوادي في رقيع .

ضليعة المعيجل

وهذه سلسلة من التلال الواطئة في منطقة مختلف على ملكيتها . وتقع بين الكويت وبين دوحة بلبول في الاحساء . وهذه المنطقة هي الآن في المملكة العربية السعودية ولكن الكويت تدعي ملكيتها . وتتجه هذه السلسلة من الشرق الى الغرب بين آبار حمض في منطقة السدى وآبار الصفا في ثمن . ويبلغ طول السلسلة ٣٠ ميلاً وتضم ضلعة الكبريت او أبرق الكبريت كما تعرف عموماً . ويظهر ان مناطق دبدبه وثمن والشق تلتقي عند نهاية السلسلة من الغرب . والى الجنوب منها توجد الأماكن التالية :

جاريه عليا : وهي آبار عذبة الماء عمقها ١٢ قدماً وتبعد ٢٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من وبره . وفي سنة ١٩٢٠ بنيت هناك قرية وقد بناها سلف تراحيب ابن شقير الدويش من الدوشان وهم العائلة الحاكمة في مطير . ويستخدمها تراحيب

اليوم كمقر دائم له .

وفي القرية اليوم مسجد ومدرسة ولها أمير يسكن في قلعة كبيرة فيها حامية قوامها ٢٠٠ رجل وفيها محطة اذاعة .

جاريه سفلى : وهي آبار ذات مياه عذبة على عمق ٢٠ قدماً وتبعد ١٤ ميلاً عن جاريه عليـــا الى الجنوب الشرقي . وهناك مقر سعود ابن حايف الفقم شيخ السبيه من عائلة مثير .

قصوان : وهنا أيضاً توجد مياه عذبـة في آبار على عمق ١٨ قدماً . وتبعد قصوان عن جاريه سفلى حوالي ١٥ ميلاً شرقاً جنوباً وحوالي نفس المسافـة الى الشمال من النعيريه على رأس وادي المياه في الاحساء .

الدبدبـــه

الدبدبه منطقة واسعة تقع بين الشق في الشرق والشقاق في الشمال والباطن في الشمال الغربي وتنتهي من الجنوب قرب سلسلة المسناة ، وتمتـد قليلاً الى الشمال ابعد من خط العرض الذي تقع عليه مدينة الكويت ، ويبعد طرفهـــا الشمالي حوالي ٣٥ ميلاً عن جهره غرباً . ويبلغ طولهـا الاجمالي نحو ١٠٠ ميل وعرضها ٥٠ ميلاً . ويقع على الجهة الغربية من الباطن بحاذاة دبدبة الكويت اقليم دبدبه العراقي .

والأعشاب السائدة في هذه المنطقة هي الحمض ولكن هنالك بعض أعشاب النصي والعوسج . وهنالك نبات يدعى رجلة ينمو بكثرة في دبدبة وعلى الأخص على أطراف الباطن . وهذا النبات لا يوجـــد في اي مكان آخر في الكويت . ويحمل هذا النبات ثماراً كالفقاقيع يشبه طعمها طعم البصل الحلو ويحبه البدو وله كذلك أزهار جميلة .

جزيرة فيلكـه

ويلفظها البحارة الانكليز « فيليشه » كما يلفظ السكان المحليون . ويبلغ طول

الجزيرة سبعة أميال وأقصى عرض لها ثلاثة اميال ، وتقع على الجهة الشمالية من مدخل خليج الكويت . والجهة الغربية منها وهي الأقرب الى مدينة الكويت تبعد حوالي عشرة اميال الى شرق الشمال الشرقي من رأس العرض ، بينما يبعد طرفها الشمالي حوالي سبعة اميال الى الجنوب الشرقي من مصب خور صبية .

والجزيرة من حيث الشكل كأسفين رأسه الى الجنوب الشرقي وقاعدته الى الشمال الغربي . وهي منخفضة إجمالاً ولكن أعلى نقطة فيها مرتفع علوه ٣٠ قدماً يقوم في اقصى الجهة الغربية من الجزيرة على ارض رملية موحلة فيها اماكن صخرية ، تدعى ضروب وتمتد من مدخل خور صبية باتجاه الجنوب الشرقي .

وهنالك جزيرتان صغيرتان بجانب فيلكه هما : عوحه (١) وهي جزيرة رملية تبعد ثلاثة أميال عن الطرف الجنوبي الشرقي لفيلكه حيث تنتهي ضروب ، وجزيرة مسكان (٢) الرملية الواطئة التي تبعد ميلين عن فيلكه باتجاه خور صبيه .

وتختلف التقديرات حول سكان جزيرة فيلكه ولكنه يبدو ان عددهم لا يتجاوز ١٥٠٠ شخص . والمدينة او القرية الرئيسية فيها تدعى زور وتقع على الشاطىء الشمالي الغربي للجزيرة بمواجهة مسخان .

والمكان الآخر المأهول في الجزيرة هو قرينية على الشاطىء الشمالي وتبعد عن زور ثلاثة اميال إلى الشمال الشرقي . ويملك الشيخ محمد الجابر الصباح منزلاً هناك يحل فيه أفراد عائلته وقتاً قصيراً . وكان والد الشيخ محمد الجابر حاكماً للجزيرة اما اليوم فيحكمها امير يعينه ويدفع له راتبه شيخ الكويت .

ان حوالي ثلث الأراضي المزروعة في الجزيرة معفي من الضرائب اما اصحاب الأراضي الباقية فيدفعون الزكاة إلى شيخ الكويت بمعدل عشر الانتاج الاجمالي . وإلى جانب ذلك يأخذ سموه كل تبن الجزيرة بما في ذلك تبن الأراضي المعفية باستثناء كمية صغيرة يسمح للسكان الاحتفاظ بها كعلف لماشيتهم .

ولا يسمح لتجار الكويت الاثرياء ولا للاجانب بالاقامة في فيلكه على اساس انهم قد يظلمون السكان الأصليين .

ان اغلبية أهالي زور يعملون في صيد الاسماك وعدد ضئيل منهم يعمل في

صيد اللؤلؤ . وينتسب هؤلاء السكان الى أصول مختلفة ويقال ان معظمهم اتوا من جزيرة خرق[1] بالقرب من الشاطىء الإيراني ، وان بعضهم اتوا من الفـاو قرب مصب شط العرب ، ومن مقاطعة هنديان في إيران ، وحتى من عمان . وهم قوم مهذبون وأحوالهم لا بـأس ولكنهم خياليون يأخذون بالخرافات . وكانت احوالهم في الماضي مزرية بائسة ولكن الأمور اليـوم في عهد سمو الشيخ عبدالله السالم تبدلت نحو الأفضل . فقد تم مؤخراً بنـاء مدرسة ومسجد ومستشفى في زور وانشئت بلدية نشيطة .

وتوجد مياه صالحة كثيرة في انحاء مختلفة من الجزيرة وعلى عمق ستة اقـدام فقط . وهذه المياه افضل من مياه الآبار في ضواحي مدينة الكويت ، ويقـال انها أقل ملوحة قرب الشاطىء منها في الداخل .

وموارد جزيرة فيلكه هي صيد الاسمـاك والزراعة على نطاق متواضع . وتملك زور ٥٠ أو ٦٠ زورقاً للصيد هي على العموم أصغر من تلك الموجودة في مدينة الكويت ، و ٢٠ أو ٣٠ من الحواري وهي زوارق صغيرة تحمل على ظهر زوارق اكبر .

وبعد ان يقتطع البحارة مأكلهم ، يقسم الصيد إلى حصص متساوية تذهب إحداها إلى شيخ الجزيرة واخرى إلى صاحب الزورق وواحدة إلى القبطان ثم واحدة لكل من البحارة .

وعندما يكون منسوب الميـاه جيداً تكون المحاصيل من القمح والشعير ناجحة . ويقال انه يزرع في الجزيرة سنوياً حوالي عشرة آلاف رطل من القمح ، وان المحصول الاجمالي من الحبوب يبلغ ٥٠ طناً . وبعد ان تؤخذ الضرائب يقسم الباقي بين الزارع من جهة وصاحب البـذار ومواشي الفلاحة والعلف من جهة أخرى . يبدأ الزرع في تشرين الأول ويبدأ الحصاد في نيسـان . ويزرع أهالي الجزيرة ايضاً البطيخ والعدس وخضار عادية كالبصل والجزر والفجل .

وفي زيارة قامت بها زوجتي للجزيرة سنة ١٩٤٦ وجدت ان هنـاك أشجار نخيل فتية في زور وقربنيه وكلها مثمرة . ووجدت كذلك أشجار التين والكينا

والبمبر والسدر والحنة . وهناك أنواع من السدر لا توجد نواة في ثمرتها . ولكن أشجار النخيل اليوم وأغلبها نحو الجهة الجنوبية الغربية من الجزيرة ، ليست بحالة جيدة .

أما الأزهار في فيلكه فتشبه تلك التي تنمو في بوشير بإيران . وهنالك أربعة أنواع على الأقل ليس لها وجود في البر . وهنالك أيضاً عدة شجيرات من الورد الجوري ، والطحالب البيضاء الكبيرة المسماة زبيدي تنمو بكميات كبيرة حيث يوجد النبات الصحراوي المسمى رقرق الذي ينمو في بعض الأماكن على بعد ١٠ أو ١٥ ياردة من البحر .

وليس في الجزيرة أفاع أو ثعالب أو ذئاب والسكان لا يقتنون الكلاب . وتمتاز فيلكه بخرائبها القديمة وبقبورها ومزاراتها . ومن القرى المهدمة صبيحيه التي تقع على الشاطىء الجنوبي الشرقي على بعد حوالي ميلين ونصف الميل من طرف الجزيرة الجنوبي . وعلى بعد ميل ونصف الى الشمال الشرقي من زور يوجد مكان مهجور يدعى سعيدي وأبعد من هذا المكان بميل واحد يوجد مكان مماثل يدعى دشت .

وينتشر حول زور ٦٠ أو ٧٠ قبراً من قبور الأولياء الذين يشكلون جزءاً كبيراً من قوات الجزيرة وتقاليدها . فإلى مسافة ميل جنوبي زور يوجد قبرا سعد وسعيد . ويقع قبر سعد الى غرب قبر سعيد .

وكلما اقترب المرء من جزيرة فيلكا بالزورق قادماً من الكويت تبين له القبران بصورة ظاهرة مميزة .

ويقال ان هذين القبرين بنيا تخليداً لذكرى اخوين واختهما قتلوا في ذلك المكان . ويقصدهما الحجاج من اليمن والهند ومن افغانستان وبلوخستان . وهنالك قبر آخر يقصده الحجاج وهو قبر محمد البدوي الذي يحظى بهذا التقدير فقط لأن اصبعه قاومت انتزاع الخاتم منها بعد مماته .

واخيراً ، وعلى بعد ثلاثة ارباع الميل الى الشمال الشرقي من زور ، هنالك مزار يدعى مقام الخضر . ويختلف العلماء المسلمون حول ما إذا كان الخضر نبياً

أم لا ، حتى ان بعضهم ينكر وجوده أصلا . ويقول بعض المعلقين ان الخضر ما هو إلا النبي الياس الذي يعتقد انه كان حياً زمن ابراهيم ورافق موسى ولا يزال حياً متى شرب ماء الحياة .

ومن الروايات المحلية التي تروى في الجزيرة أن الخضر انتقــل من صخرة في المكان الذي تقع عليـــه اليوم الإرسالية الأميركية ، الى مكان المزار في خطوة واحدة . ويقال إن آثار قدمه والمكان الذي غرز فيه عصاه لا يزالان مطبوعين في الصخر على الشاطىء قرب المقام .

وقد وجدت زوجتي على الصخر هناك فعلاً آثار أقدام جمل ، وثلاثــة آثار لقدم لرجل حافية وواحدة لرجل منتعل ، وعدة آثار لأقدام أطفـــال . والى جانب ذلك وجدت اربعة آثار تبدو كأنها لحيوانات مـــا قبل التاريخ . ثلاثة منها يبلغ طول الواحدة ١٢ بوصة ويبلغ طول الرابعة ١٦ بوصة . وهنالك ايضاً آثار اقدام بشرية كبيرة يبلغ طول الواحدة منهـــا ١٨ بوصة ولكنها لم تكن واضحة .

وتعتقد زوجتي ان هذه الصخور كانت جزءاً من أرض طينية مستويـــة في وقت من الأوقات طبعت عليهـــا آثار اقدام الإنسان والحيوان وتحجرت مع العصور واحتفظت بشكلها .

وفي مقبرة قرب مقام الخضر توجد قبور ضخمة الحجم تبلغ المسافة فيها بين الأحجار الموضوعة على الرأس وتلك التي على القدم حوالي خمس ياردات ونصف .

ولا يزال بعض الشيعة من سكان الجزيرة يعتقدون بالقصة الواهية القائلة ان الخضر ينتقل من مقره قرب البصرة الى مكة كل يوم اربعاء ويقضي يوم الخميس في جزيرة فيلكه ويعود يوم الجمعة في نفس الطريق . ولذلك فالمرأة التي تريـــد أطفالاً يجب ان تحضر الى مقام الخضر في اليوم المناسب فتتحقق امنيتها . وغالباً ما تذهب فرق من النســاء في نزهة من الكويت الى فيلكه لهذا الغرض . ويقطب حكام الكويت جباههم تجاه هـــذه الاساطير ويعملون جهدهم لإيقاف هـــذه النزهات .

والغلبية سكان الجزيرة يؤمنون بوجود شيطان شرير يدعى بودريا الذي يقال انه يجوب البحر حول الجزيرة وخاصة بينها وبين مسخان يستدرج من لا حمى لهم الى الاعماق ويغرقهم .

ويؤمن آخرون بشاهو الذي يصفونه بأنه يشبه امرأة لها اقدام حمار وتشبه سيقانها الساقين الاماميتين للبقرة وشعرها كشعر الجمال . ويقول هؤلاء ان شاهو موجود في مدينة الكويت أيضاً .

وهنالك قصة ، تؤيدها آثار حصن في قرينية وبيوت حجر جيدة في وسط الجزيرة ، وهي ان البرتغاليين احتلوا فيلكه في وقت من الاوقات وأخذوا يتاجرون من هناك مع بر الكويت . ويقال ان طاعوناً من الجرذان أرسله عليهم الاولياء طردهم من دشت في البداية ثم من اواسط الجزيرة حيث تراجعوا .

الحفر الباطن

(١) وهو مكان مهم للتوقف فيه مجموعة من الآبار في قسم الباطن من وادي الرماح . والحفر جزء من المملكة العربية السعودية ويقع على بعد حوالي مئة وستين ميلاً الى الغرب فالجنوب الغربي من مدينة الكويت . ويبلغ عدد الآبار فيه حوالي الاربعين ولكن في الوقت الحاضر ١١ منها فقط فيها مياه . وهذه الآبار منتشرة في بطن الباطن وتتراوح أبعادها عن بعضها البعض بين مئة ياردة وربع ميل وهي لذلك تشكل سهلاً دائرياً قطره ثلاثة أميال . وتقع كل بئر وسط مرتفع يبلغ علوه عشرة أقدام هي الاتربة التي ازيحت عند حفر البئر (وذلك يشبه آبار الرمال في الجهة الجنوبية الغربية من الدهناء قرب الرياض) .

وقد بني جدار حجري حول الآبار ويبلغ عرض فوهة كل واحدة منها ستة أقدام . ويبلغ معدل عمقها الى المياه ١٥٠ قدماً ولكنها اذا تركت وشأنها مدة من الزمن يرتفع مستوى الماء حوالي ٣٠ قدماً . ومياه هذه الآبار حارة نوعاً ففي الصباح عندما يكون الجو قارس البرد يمكن للمرء ان يشاهد البخار يتصاعد من الآبار .

ويعود تاريخ آبار الحفر الى زمن قديم جداً وربما كانت تقع على خط التجارة الرئيسي بين مدينة جرا القديمة (عقير اليوم) وفلسطين . وليست لدى البدو القاطنين هناك فكرة عن تاريخ الآبار أو حافريها ولكنهم يقولون انها تعود الى أيام الجهل أي الجاهلية قبل الاسلام .

وفي هذه الأيام تدعي عائلة بريح من قبيلة مثير ملكية الآبار مع ان قبائل أخرى تستخدمها في بعض الاحيان . ولو ان عمقها أكثر ملاءمة لكانت تقصد أكثر مما هي اليوم .

والحفر من المراحل المعترف بها في الطريق بين الكويت والبصرة وبين قسيم وله أمير وفيها حامية من ثلاثة رجال وقلعة كبيرة حمراء اللون بنيت عام ١٩٣٦ . وفيها اليوم أيضاً مدرسة ومسجد ومحطة لاسلكي .

وفي الحفر يلتقي تجويفان بالباطن واحدهما من الشمال والآخر من الجنوب . ويدعى الأول فليج الشمالية ويسير نحو سلسلة آبار تتجه شمالاً الى طوال الظافر وأول هذه الآبار يدعى الدليميه . أما التجويف الثاني فيدعى فليج الجنوبية وهو أيضاً يسير نحو سلسلة آبار تتجه الى الجنوب الغربي وتدعى طوال المثير . وأول هذه الآبار يدعى صفا في سمن . واليوم تمر أنابيب التابلاين جنوب الحفر تماماً ، ومحطة الضخ رقم ٣ تبعد فقط ١٥ ميلاً إلى الجنوب الشرقي عن الحفر في قلب منطقة قيسومه .

الهزايم

وهي جزء من المنطقة المحايدة يضمها البحر من الشرق ومنطقة الصلو من الشمال ومنطقة الشق من الغرب ويشكل جدول المقطع حدها الجنوبي ويفصلها عن سهل لبيبه .

ويبعد وسط منطقة الهزايم حوالي ٦٠ ميلاً جنوباً غرباً عن مدينة الكويت . والهزايم عبارة عن سهل كبير بدون أشجار ولكنه لا يخلو من الأعشاب التي تتغذى عليها الجمال . وتربته جامدة قاتمة اللون وخالية من الصخور . وفي طرفه

الجنوبي قرب جدول مقطع توجد أرض سبخه وهي عبارة عن مستنقع كثير الملوحة .

وتضم الحزايم الأماكن التالية :

أقريوات : وهي آبار على مرأى من البحر قرب حـــدود الحزايم الشمالية ، يبلغ عمقها ١٢ قدماً وتختلف نوعية الماء فيها باختلاف كمية هطول الأمطار .

أطارش : وهي آبار صالحة الماء عمقها ١٢ قدمـــاً تقع الى غرب وقليلاً الى شمال أصيله .

ضلعة الأشعري : وهي آبار فيها مياه جيدة على عمق تسعة أقدام وتبعـــد مسافة قصيرة الى الجنوب عن رافعية .

مراغه : وهي تلة مخروطية الشكل وآبار تقع عنـد منتصف حدود الحزايم الغربية على بعد ٢٠ أو ٢٥ ميلاً غرباً شمالاً من مصب جدول المقطع و ١٠ أو ١٥ ميلاً الى الجنوب الشرقي من وفره . ويبلغ عمق الآبار تسعة أقدام ولكن مياهها ليست جيدة .

قمح : وهي آبار فيها مياه ذات نوعية سيئة على عمق ١٢ قدماً . وهي قريبة من شاطىء البحر وتبعد ميلين فقط عن أقريات جنوباً .

رافعيه : وهي آبار فيها مياه لابأس بها على عمق ١٢ قدماً وتبعد حـــوالي عشرة أميال غرب الجنوب الغربي من مصب جدول المقطع .

رغوه : وهي آبار ذات مياه مالحة على عمق ستة أميال وتبعد عدة أميـال إلى شمال الشمال الغربي من رافعيه .

روحيه : وهي تلة مرتفعة تبعد خمسة أميال الى الغرب من وفره .

شظلف : وهي آبار فيها مياه لا بـــأس بها على عمق ١٢ قدما وتبعد سبعة اميال الى جنوب الجنوب الشرقي من وفره وتبعـــد نفس المسافة إلى الغرب من مراغه . وبجوارها يقع تل مرتفع مخروطي الشكل .

طيب اسم : وهي آبار تقع على مسافة قليلة الى الداخل من قمح ومياهها بين العذوبة والملوحة .

اصيله : وهي آبار مياهها جيدة على عمق ١٢ قدماً وتبعد حوالي أربعـــة أميال الى الغرب مع انحراف قليل الى الشمال من رافعيه .

وفره : وهي مكان معروف تضرب فيه قبيلة آل عوازم خيامها وتبعد اكثر من ٦٠ ميلاً الى الجنوب من مدينة الكويت . وفيها آبار عديدة عمقها ١٢ قدماً ومياهها من نوعية وسط .

والذين يشكلون ام جنيب وهي منطقة صغيرة إلى غرب الهزايم ، يلحقون بها تلة روحيه وابار شظف ووفره .

جهراء

تكتب وتلفظ عادة جهاره وهي قرية وواحة كويتية تقع على أقدام خليج الكويت على بعد ميلين الى الداخل وترتفع أربعين قدماً فوق سطح البحر وتبعد عن مدينة الكويت ٢٠ ميلاً. وهي المركز الزراعي الرئيسي في الكويت وأكثر الاماكن استراتيجية بنظر البدو . هواؤها جاف ومناخها صحي ومياه الشرب فيها ممتازة من الجهة الغربية .

تقع القرية في سهل رملي مكشوف تنتشر فيه الاعشاب يبعد ثلاثـة أميال ونصف الى الجنوب الشرقي من الفجوة المعروفـة بممر مطلع في تلال الزور والتي تسير فيها السيارات وقوافل الجمال في الطريق المباشر من الكويت الى البصرة .

والى جهة الغرب والجنوب الغربي ترتفع الصحراء تدريجياً عن القرية . وعلى بعد ميل الى الشمال منها يقع سهل يدعى مريقبه يخيم فيه البدو في الصيف ويضم آبار ماء عمقها ١٢ قدماً .

وتقع جهراء داخل مدى نيران المدفعية في تلال زور ولكنه بسبب ضحالة المياه على شواطىء خليج الكويت ، يتعذر مساندتها بفتح النار من البحر .

ويملك شيخ الكويت هناك مسكناً يدعى قصر الأحمر وسمي كذلك لأن جدرانه حمراء اللون . ويبعد القصر أكثر من نصف ميل عـــن القرية الى جهة الجنوب الشرقي خارج المنطقة الزراعية وتفصله عـــن اقرب بستان من بساتين

القرية طريق فقط . ويبلغ طوله ٨٠ ياردة وعرضه ٨٠ وفيـه ابراج على الزوايا الاربع وفوق المدخل الرئيسي الذي يواجه الشمال الغربي . وتبلغ سماكة جدرانه من الاعلى قدمين وارتفاعها ١٥ قدماً ترتفع الابراج فوقها مسافة ثمانية اقدام .

وجدران القصر وابراجه مليئة بالثقوب خصيصاً لاطلاق النار ولكن تلك الثقوب صغيرة وغير منتظمة بحيث ان مدى اطلاق النار منهـا قصير محدود . ولا توجد في القلعة بئر ذات مياه صالحة للشرب مما ادى الى وقوع كارثـة اثناء القتال سنة ١٩٢٠ . وفي تلك الاثناء كان حول القصر سور عال يصل الى الطريق مما ساعد الاعداء على التواري وراءه وكان لهم بمثابة غطاء منع عنهم الرصاص . وقد دمر هذا السور منذ ذلك الوقت .

وفي القصر اسطبلات تكفي لايواء مئة حصان وهي تستخدم اليوم للاعتناء بالخيول الاصيلة التي يملكها سمو الحاكم .

وبعد معركة عام ١٩٢٠ اخليت القرية من السكان تماماً لمدة أسابيع وعندما عاد السكان اليها بني حولها سور جديد وهدمت بعض المنـــازل التي تقع وراء السور حفاظاً على شكل القرية . وهي اليوم تبدو مستطيلة الشكل تقريباً طولها حوالي ستماية ياردة وعرضها خمسماية . ويتجه الجانبان الطويلان منها الى الجنوب الغربي والشمال الشرقي .

وقبل مماته كان الشيخ سالم ابن مبارك الصباح ينوي بناء قلعة صغيرة بـــين الجهراء ورأس الخليج وذلك لحماية مكان الانزال في الخليج فيما لو تعرضت الجهراء لحصار آخر مما يسهل قدوم الامدادات من الكويت عن طريق البحر . وقـــد صرف النظر عن هذه الفكرة اليوم نظراً لاستتباب السلام بين الكويت والمملكة العربية السعودية .

وأغلبية السكان الدائمين في الجهراء هم مزارعون نجديون يزرعون الأرض التي يملكها سمو الشيخ وتجار الكويت وأقارب عائلة النقيب في البصرة . ومنازل القرية التي يبلغ عددها حوالي ١٩٠ منزلاً مبنية من الطين وتضم حوالي الف نسمة . وتكثر خيات البدو خارج جدران القرية في الصيف وتشاهد بعض الخيات

بجوارها في الشتاء .

إن محاصيل الجهراء من البيض والدواجن محدودة ولكن فيها كثير من الغنم والماعز وفيها عدد من الأبقار يكفي لسد حاجات السكان من الحليب . ووسائل النقل المحلية فيها تتألف من حوالي مئة حمار ولكنه بالامكان استئجار الجمال من البدو . وكما ذكرنا آنفاً فان جهره بالأساس مركز زراعي وكل أراضي الشيخ المزروعة تقريباً تنحصر هناك .

وليس هناك مقياس ثابت لقسمة المحاصيل بين صاحب الأرض والمزارعين . والمحاصيل الرئيسية هي القمح والشعير والعدس. وتنتج الجهراء من الشعير ضعفي ما تنتجه من القمح ويبلغ ذلك الانتاج في سنة إقبال اكثر من ٥٠٠ طن . ويزرع القمح « الذي يدعى حنطة أو حب » في أوائل ايلول ويحصد مع الشعير في أوائل آذار . ويقطع جزء من الزرع وهو أخضر « كما في الهند » ليقدم علفاً للمواشي ويدعى قصيل . وأحياناً يقطع الشعير مرتين لهذا الغرض قبل ان ينضج « ولكن القمح نادراً ما يعامل بهذه الطريقة إلا في سني الاقبال . والجت الذي يزرع هناك ذو نوعية ممتازة ويزرع في نفس الأرض لأربع سنوات متتالية تترك الأرض بعدها بوراً لمدة سنة واحدة .

ومن المحاصيل الأخرى في الجهراء البطيخ الأصفر والبطيخ الأحمر ويدعى « رقي » . وهذه المحاصيل تزرع مرة في السنة وتنضج في أواخر تشرين الأول ويستمر موسمها شهراً كاملاً . والكميات التي تزرع قليلة بحيث انها لا تكفي لتصديرها الى مدينة الكويت . ولكن القرع يبدأ في كانون الأول ويستمر مدة ثلاثة أشهر وهو يصدر الى الكويت . وتنضج الباقيلا في شباط ولا يزرع منها إلا ما يكفي لسد حاجات القرية . ويبدأ موسم البصل في نهاية كانون الأول ويستمر حتى الربيع . ويبدأ الفجل « ويدعى رويد » في وقت مبكر من السنة ويستمر الى ما بعد موسم البصل . ويزرع البقل من جديد كل سنة ويعطي ١٦ موسماً في الفصل الواحد . وهنالك مواسم قصيرة الأمد للحلبه والرشاد . أما الباذنجان الذي يدعى في الهند برنجال وفي الجزيرة العربية بيتنجان « والباميه «

والبندورة ، فتأتي في وقت مبكر من السنة ولا تدوم طويلا ولكنها تصدر الى مدينة الكويت .

وتوجد في جهره حوالي ٢٠٠٠ شجرة نخيل تعطي سنوياً حوالي ٢٥٠٠ طن من التمر يؤكل معظمها وهو رطب . ويعتبر بستان السيد خلف وهو أحد أقارب عائلة النقيب في البصرة ، انجح بساتين النخيل في القرية . وفيما عدا ذلك لا توجد أشجار أخرى باستثناء بعض شجيرات البير .

ويصدر الى الكويت سنوياً من جهره حوالي ٣٠ طناً من الحبوب فقط . ويمكن توسيع نطاق الزراعة في القرية الى حد كبير فيما لو استثمرت فيها رساميل كافية .

وكل المحاصيل التي ذكرناها تعيش على الري وتزرع في مساكب ضمن جدران واطئة من الطين . وكان ارتفاع هذه الجدران في السابق يبلغ ثمانية أو تسعة أقدام ولكنها خفضت بعد حركة جهرة عام ١٩٢٠ كجزء من مخطط الدفاع عن المكان .

وهنالك بديل اقتصادي لهذه الجدران وهو ما يسمى خدد وهو عبارة عن خندق عمقه قدمان وعرضه قدمان وعلى جانبيه حافة رملية يبلغ ارتفاعها قدم واحد . وتقع غالبية البساتين في الجهة الجنوبية الشرقية من القرية بينها وبين قصر الأحمر . ويعتمد قسم ضئيل من زراعة القمح والشعير على مياه المطر ولكن ذلك لا يقارن بالمساحات التي تروى بمياه الآبار .

ويبلغ عدد آبار الري ١٩ بئراً معدل عمقها ٢٠ قدماً . وترفع مياهها ، وهي مالحة قليلاً ، بواسطة قرب جلدية تجرها الحمير ، وبواسطة مضخات ميكانيكية . وتدعى رافعة الماء عرجية والقناة التي يجري فيها الماء تدعى ساقية . واحياناً تجمع المياه في برك مرتفعة لكي يسهل جريانها الى الأراضي المزروعة . وهنالك أيضاً ما يدعى شرب وهي عبارة عن قطعة أرض صغيرة تجمع فيها مياه الري قبل اطلاقها الى مستوى أكثر انحداراً .

وتدعى المزروعات التي تزرع في وقت متأخر صيف . أما انواع الأراضي

الزراعية الرئيسية فهي : حرا وهي أرض ذات تربة خصبة ، ودمي او الأراضي الواقعة على حافة خبرا وهي ميــاه الأمطار المتجمعة ، وحزام وهي أرض صخرية ، وسبخة وهي مستنقعات كثيرة الملوحة وغير منتجة .

ان اكثر الأدوات الزراعية شيوعاً هي محراث بدائي يدعى افدان، ومجرفة حديدية قصيرة اليد تدعى سخين وتستخدم في شق الأقنية وفتحها واغلاقها ، والمسحاة التي تستخدم لتسوية الأرض . والمخيال عبارة عن هراوة يلقي عليها الراعي رداءه المسمى بيشت ليحفظ تجمع اغنامه ويمنعها من التفرق . وتستخدم ايضاً كخيال في المناطق المزروعة لابعاد الطيور .

ولشيخ الكويت وكيل يهتم ببساتينه ويكون بمثابة أمير او ممثل خاص اذا لم يكن أحد من شيوخ العائلة مقيماً هناك . ويعتبر الشيخ في الجهراء مهماً ونافذاً في أراضيه ليس فقط لواردها الزراعية ، ولكن للنفوذ الكبير الذي يتمتع به مالكها والسيطرة التي تعطيه اياها على عدد كبير من البدو يخيمون بجواره في الصيف . وهي فضلاً عن ذلك تسيطر على طريق البصرة .

وهنالك أماكن تحمل اسماء ولكنها ليست تتبع أياً من التقسيمات المعترف بها في الكويت وهذه الاماكن هي :

مر اطراف : وهو عبارة عن مرتفعات متباعدة قليلاً وكأن ما بينها مجاري ماء جافة عميقة . ويبعد هذا المكان حـــوالي عشرة أميال الى غرب الجنوب الغربي من الجهراء ويشكل الطرف الغربي لتلال زور .

فريده : وهي تلة طويلة معزولة ومنفردة تبعد ١٢ ميلا الى غـرب الجنوب الغربي من جهره .

خبرة البعل:وهي بركة طبيعية تبعد أربعة أميال عن جهره الى جهة الجنوب الغربي ، وتتلقى المياه التي تنحدر من الصحراء باتجـــاه الجهراء . وفي المـواسم المناسبة تزرع فيها بعض المحاصيل المتفرقة من القمح والشعير .

حد السعادة : وهي سلسلة عالية من المرتفعات تمتـد من الشمال الى الجنوب وتبدو بيضاء اللون عن بعد وتقع الى جنوب طريق الجهراء – رقيع على بعد ٢٥

جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود
ملك المملكة العربية السعودية الراحل

جلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود
الملك الحالي للمملكة العربية السعودية

ميلا تقريباً عن الجهراء . ومن الجهراء الى خد السعادة المناطق كلها في ارتفاع . وفي نقطة على الخط المباشر بين جهره ورقيبع تبعد ٢٠ ميلا عن الجهراء غرباً تقع تلال كاسية بيضاء تدعى « قبلولة » أو « قبيليلة » .

روحيه : وهي تلة يبلغ ارتفاعها ٤٠٠ قدم وتبعد عشرة اميال الى جنوب الجنوب الغربي من الجهراء .

تميلة الجويسري : وهي مركز تجمع مياه معروف يبعد ستة اميال شمال غربي مر أطراف ؛ وتتحول في أيام الشتاء الى بركة كبيرة .

ام التوينيج : وهي سهل مرتفع على شكل سلسلة طويلة منحنية بين اطراف وفريده ويتجه الى الجنوب الشرقي ثم الى الشرق من فريده ، وتوجد في هـــذا السهل واحدة او اثنتان من الخباري أي البرك الصغيرة في الشتاء وبقايا مساكن .

أم روس : وهي تلة ذات ثلاثة رؤوس تشكل علامة فارقـــة على بعد ١٥ ميلاً الى جنوب الجنوب الغربي من الجهراء .

الكبد

مكان يبعد حوالي ٣٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من مدينة الكويت بين منطقة قرعه في الشرق ومنطقة الشق في الغرب . وتتألف تلال الكبد من حزام من الاراضي المرتفعة تمتد من الشرق الى الغرب على مسافة عشرة أميال .

والى جنوب الكبد مباشرة تقع سلسلة مرتفعات موازية تدعى كبيده توجد الى شرقيها آبار تدعى جاهلية وعبدلية . وهذه الآبار تمون شركة نفط الكويت بالمياه اليوم . وإلى الشرق من هذه الآبار يقع رجم الجهتان وهي مكان مميز للبدو . وعلى بعد ٢٠ ميلاً الى الجنوب من رجم الجهتان تقع فوارس في منطقة الكويت المحايدة وهي عبارة عن سهل صغير تنتشر فيه التلال الصخرية الصغيرة وهو اليوم مركز شركة النفط الأميركية المستقلة ، وهنالك خمسة تـــلال صغيرة في طرف كبيده الغربي تدعى مناقش وهي بيضاء بلون الثلج وقريبة من طريق السيارات بين الكويت والرياض تقع الى الجهة الجنوبية الغربية من حدود دولة الكويت .

أن اقصى الخدود في خليج الكويت الى الغرب من رأس عشيرج يعرف بدوحة كاظمة . والنقطة التي تمتد اليه من جهته الشمالية تعرف برأس الكاظمة .

ويخف عمق الماء فيه تدريجياً من مدخله الذي يبلغ عرضة اربعة أميال وعمقه ست قامات في وسط القنال ، الى رأسه الذي يبعد تسعة اميال غرباً جنوباً عن رأس عشيرج وميلين عن قرية جهره. وهناك مرسى بمنجى من الرياح الشمالية يتسع لعدد كبير من السفن التي يبلغ عمق غاطسها ٢٤ قدماً . ولا توجد مياه عميقة على الشاطىء لذلك فان حمولة السفن تفرغ بواسطة الرافعات او على رصيف طويل يبنى الى داخل البحر .

ورأس الكاظمة عبارة عن مستنقع منخفض يمتد نحو نصف ميل جنوباً الى داخل الاخدود ويبعد ثلاثة أميال عن رأسه . وهو لا يرتفع عن سطح البحر ولكنه تحميه ضفة رملية طبيعية من جهة مياه البحر المرتفعة .

وخلال الحرب العالمية الأولى كانت تزور مرسى كاظمة مستشفيات عائمة تنقل جرحى الحرب من سفن صغيرة تستطيع عبور شط العرب . وكانت هذه المستشفيات العائمة تنقل الجرحى بدورها الى الهند . وكانت سفن أخرى تزور ميناء الكويت محملة بمرضى في دور النقاهة .

ومما يجدر ذكره ان المحطة النهائية لخط سكة حديد برلين -بغداد- البصرة التي اثار كثيراً من اللغط قبل الحرب الأولى ، كانت ستبنى في رأس كاظمة . لأن الألمان كانوا يدركون في ذلك الوقت ان البصرة كميناء لن تكون ذات فائدة نظراً للتكاليف المتواصلة الناتجة عن استمرار جرف الأتربة من شط العرب . ولهذا تحولت أعين الألمان والأتراك إلى خليج الكويت الميناء الطبيعي للعراق . وهذا ما حدا بالاتراك سنة ١٩١٢ الى الضغط على شيخ الكويت في ذلك الوقت الشيخ مبارك الصباح لحمله على القبول .

وبما ان التاريخ يعيد نفسه أحياناً فانه قد يأتي يوم يحاول فيه العراق من جديد ، كما فعل الأتراك ، ضم الكويت اليه لجعله محطة لسكة حديد تصل البحر

بالداخل. وباتصال خط بغداد – الموصل بشبكة طوروس، وبانشاء الجسر المقترح عبر البوسفور، فان ذلك قد يحدث بأسرع مما نتصور. وهنالك دلائل على ان بعض الاشخاص يفكرون بهذا الأمر ومنهم السير جون وارد مدير ميناءالبصرة.

وقد عرفت شركة نفط الكويت اهمية كاظمة فانزلت معداتها الثقيلة هناك سنة ١٩٣٦، عندما حفرت اول بئر للنفط في بحره الى الجهة الشمالية من خليج الكويت.

اللبيبـــه

وهي سهل ذيــه أعشاب يقع في المنطقة الساحلية الى جنوب المنطقـــة المحايدة مباشرة. ويحدها من الشمال جدول مقطع ولذلك يمكن اعتبارها جزءاً من منطقة السدي. ويحدها من الجنوب جبل عمرده الذي يقع جزء منه في المنطقة المحايدة والجزء الآخر في المملكة العربية السعودية. وفي الوسط تقع تلة مرتفعة بيضاء مخروطية الشكل تعرف باسم جبل طيار.

المقطع

وهو جدول مياهه مالحة غير صالحة للشرب يقع في القسم الجنوبي من المنطقة المحايدة، ويشكل الحدود بين منطقة الحزام في الشمال وسهل لبيبه في الجنوب. وينبع هذا الجـدول من نبع يدعى عين العبد على بعـــد ١٥ ميلاً من الشاطىء ويصب في البحر شمال رأس الخفج[1] المباشرة. ويبلغ عرض مجرى الماء فيه بـــين ١٠ و ١٢ قدماً ويبلغ عمقه قدماً واحداً. وعندما تكون مياهه مرتفعة تستطيع زوارق صغيرة ان تسير فيه مسافة قصيرة. ويسمى مدخله. ويسمى الجدول احياناً مقاطع وهي جمع مقطع.

لقد زرت عين العبـد سنة ١٩٣٤ وفي السنة التـالية وفي سنة ١٩٤٣ . . فوجدت ان الف غالون من الماء تتدفق منها في الدقيقة الواحــدة. وهي عبارة عن انخفاض على شكل فنجان يبلغ قطره ٥٠ قدماً. ان رائحة مياه عين العبـد كريهة نظراً لكثرة الكبريت فيها ولكنها نقية وقليلة العمق. ويقول البدو انه

من الخطر النزول إلى وسط العين لأن رمالها تتحرك بسرعة . وهنالك خرافــة تقول ان رأس زنجي (عبد) يظهر وسط العين بعد مدة ومدة . وربما كان مرد ذلك إلى كتلة الوحول السوداء التي تقذفها الماء من وقت إلى وقت في مركز النبع . وقد شاهدت بنفسي هذه الظاهرة . ويعتقد البدو ان الأرواح تسكن المكان ولذلك يتجنبونه ويقول ان زنجياً نصفه بشر ونصفه جن يعيش في النبع وانه يشاهد مستلقياً في الشمس احياناً على ضفاف النبــع . وهذا الزنجي يهاجم كل مسافر منفرد يتجرأ ان يقترب من عين العبد .

ومقطع هو اسم جزيرة أيضاً تابعة لدولة الكويت بالقرب من شاطىء السدى وتبعد ميلاً ونصف الميل الى الجنوب من حد المشعاب . ويبلغ طرفهــا ميلين من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وفيهــا صخور يتراوح ارتفاعها بين ٢٠ و ٥٠ قدماً وذلك في طرفها الشرقي . ولا توجد بين الجزيرة والبر قناة صالحة للملاحــة وعندما يرتفع المد في الربيع تغمرها المياه الى حد بعيد .

قرعــــه

وهي ارض رملية مجدبة يحدها من الشمال خليج الكويت ومن الشرق البحر ومرتفع رأس العرض ومن الجنوب منطقة عـــدان ومن الغرب الكبد . وتضم قرعه الى جانب مدينة الكويت الأماكن التالية :

بدعه : وهي ارض صغيرة على الساحل وتبعد مسافة ميلين ونصف الميل الى الجنوب الغربي من رأس العرض .

شداديه : وهي آبار تبعد تسعة اميال الى الجنوب الغربي فالجنوب من مدينة الكويت على طريق الرياض الرئيسية . ومياه هذه الآبار ليست صالحة ويقول بعض المطلعين انها لا تقع في منطقة قرعه .

دمنه : وهي قرية كبيرة لقبيلة العوازم تقع على قاعـــدة شبه جزيرة رأس العرض في ضفة رملية واطئة تبعد ٢٠٠ ياردة فقط عن البحر وثمانية أميــال الى جنوب الجنوب الشرقي من مدينة الكويت . وفيها مسجد و ٢٠٠ منزل ومدرسة

وبعض المنازل الجميلة للشيوخ . وفيها أيضاً عدة آبار بعضها فقط فيه ماء ولكنها قليلة الملوحة . ونظراً لأنها تتمتع بمناخ طيب فإن عدداً من شيوخ وأعيان مدينة الكويت أخذوا يبنون ضاحية حديثة بين دمنه ومنارة رأس العرض . وقــد استبدل اسم دمنه باسم ساليه سنة ١٩٥٣ .

حوالي : وهي قرية كبيرة على بعد أربعة أميال الى الجنوب الشرقي مـــن مدينة الكويت . فيها مدرسة ومسجدان وحوالي ٥٠٠ منزل وشبكة تلفون . وسكانها اليوم ينتمون الى القبائل العربية المختلطة التي تقطن مدينـــة الكويت ، وكلهم يعملون في زراعة الخضار كالبطيخ والفجل والبصل التي تبـاع في أسواق الكويت . وهنالك عدة آبار تستخدم مياهها في ري المزارع والبساتين . والى جنوب القرية يقع قصر بيان الذي كان المقر الريفي لحـــاكم الكويت السابق . والقصر الذي أصبح اليوم انقاضاً يضم مجلساً واطئاً ومسجداً ومبـــاني مستقلة للضيوف وجناح للخدم ، ويقع على ظهر تلة صغيرة تشرف على القريـــة . ويملك الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح ابن الحاكم الراحل فيلا في حوالي ، وكذلــك كبار تجار الكويت الذين ينتقلون الى هنـاك في الربيع . وبسبب توسع مدينة الكويت فانها قد تتصل قريباً بحوالي التي ستصبح احدى ضواحيها .

ملح : وهي ١٥ بئراً على بعد ١٥ ميلاً الى الجنوب من مدينة الكويت وثمانية أميال الى غرب قرية أبو حليفه على الساحل . ويبلغ عمق هذه الآبار القريبة من حقل النفط في مقوى ٢٠٠ قدماً ومياهها مائلة الى الملوحة ولكنها صالحة للشرب . وكانت أراضي ملح تزرع في السابق وفيها بقايا حصن قديم .

مقوى : مكان يبعد ميلين عن ملح شمالاً فيه الحقل الأصغر من حقلي النفط التابعين لشركة نفط الكويت (٢٣ بئراً) وفيه ايضاً المستشفى الرئيسي ومركز التدريب . وهناك ايضاً عدة آبار واحد منها فقط يحتوي على مياه صالحة .

مشرف : وهي قلعة قديمة حولت الى قصر حديث يقيم فيـه الشيخ عبدالله المبارك الصباح قائد جيش الكويت . ويبعد المشرف ميلـين عن قصر السرا جنوباً .

قصر السرا : وهو المقر الريفي للشيخ عبدالله الجابر الصباح مـــدير التعليم العام . ويبعد القصر ثمانية أميال الى جنوب الجنوب الشرقي من مدينة الكويت.

قليصيه : وهي ستة آبار على بعد عشرة أميال الى الجنوب الشرقي من مدينة الكويت وعلى بعد ميلين ونصف الميل عن الساحل . وفيها مياه جيدة على عمق ٢٧ قدماً لكنها لا توجد حولها زراعة .

رأس كيفان : وهي مجموعة آبار في الجهة الجنوبية من رأس العرض وحولهـا عدد من أكواخ الصيادين .

رميثيه : وهي قرية صغيرة مأهولة تبعد ستة أميال الى الجنوب الشرقي من مدينة الكويت .

ساليه : (راجع دمنه) .

شعب : وهو قصر أبيض كبير على الشاطىء يقوم في مكان هو نصف المسافة بين رأس العجوزه ورأس العرض . وهناك يقيم صاحب السمو الشيخ عبـــدالله السالم الصباح حاكم الكويت .

صليبيخات : وهي تلال رملية بيضاء مرتفعة تبعد ستة أميال الى الجنوب الغربي من مدينة الكويت على الطريق الى جهره . وبجوارها تقع محطة الكرنتينا الجديـــدة التي اقيمت سنة ١٩٥٢ واستخدمت مؤقتـاً سنة ١٩٥٣ كمستشفى للأمراض الصدرية خاص بالنساء . وهناك أيضاً تقوم حاليـــاً ضاحية حديثة للاوروبيين .

صليبيه: وهي أربع آبار عميقة للماء على بعد ميلين الى الجنوب من شداديه، حفرتهـا شركة نفط الكويت لسد حاجات مـــدينة الكويت وحاجات البدو واغنامهم وجمالهم . ومياه هذه الآبار مالحة قليلاً ولكنها تصبح صالحة للشرب والاستعمال عندما تخلط بخمسين بالمئة من المياه المقطرة .

عديليه : وهي أرض عريضة منخفضة قليلة العمق فيها ست آبار على بعـد ثلاثة أميال من مدينة الكويت جنوباً . وعندمـــا تهطل فيها أمطار الخريف تنجح فيها زراعة القمح جداً .

ورأس العجوزه ورأس العرض أيضاً من الاقسام الساحلية لمنطقة قرعه .

قصر مشرف

وهو في الأصل حصن يبعد ثمانيـــة أميال جنوب جنوب شرقي الكويت ويحمي المسالك الجنوبية الى المدينة . وقد بناه الشيخ مبارك الصباح سنة ١٩٠٠ وكان يقيم فيه احياناً . وفي السنوات القليلة الماضية ادخل ابنه عبدالله تحسينات عليه واعاد بناء بعض أجزائه بدون حساب للنفقات لذلك فهو اليوم من اعظم القصور في الجزيرة العربية فيـــه غرف استقبال فخمة وقاعات طعام تستطيع استيعاب ٣٠٠ رجل في جلسة واحدة . وقد اضيف اليه مؤخراً مسجد رائـع وبنيت عدة غرف نوم للضيوف مجهزة بأحدث وسائل الراحة .

ويزود القصر جزئياً بمياه صالحة ووافرة من آبار يتراوح عمقها بين ٦٠ و ٧٠ قدماً . وعلى مرتفعات الظهر التي تبعد١٢ ميلا الى الجنوب وقليلا الى الشرق من قصر المشرف مقابل فنتاس[1] ، توجد آبار قليلة العتول التي سميت كذلـــك نسبة الى عائلة من قبيلة عجمان ومياه هذه الآبار أيضاً جيدة .

ويقضي الشيخ عبدالله المبارك الصباح معظم أيام السنة في قصر المشرف .

قرين

وهي اسم جزيرة صغيرة في خليج الكويت واسم تلة كبيرة معزولة في البر ، في الوقت ذاته .

وتدعى الجزيرة أيضاً جزيرة الشويخ وهي تبعد عن الشاطىء ميلا ونصف الميل في نقطة تبعد أربعة أميال عن مدينة الكويت غرباً . وفي طرفهـا الغربي مرتفع بني اللون يبلغ علوه ٢٧ قدماً . والى الجنوب الشرقي من الجزيرة بينهـا وبين شاطىء الكويت حوض يدعى بندر الشويخ تقصده الزوارق لتحتمي فيه من كل الرياح . ويبلغ عمق الماء في هذا الحوض ثلاث أو أربع قامات .

ويتصل بندر الشويخ بالخليج الكبير بمضيق طويل ضيق لا يزيد عمق الماء في مسافة منه تبلغ ٤٠٠ ياردة ، عن ١٢ أو ١٣ قدماً عندما تنخفض الماء في الربيع. ويبدو ان هذا العائق هو من الصخور التي لا يمكن ازالتها بسهولة . ولكي يتاح للسفن الكبيرة المرور في القنال يجري حالياً جرف الرمال منها (هذا الكلام سنة ١٩٥٣) وربما اتخذ الاسم الانكليزي القديم للكويت « غراين » من اسم هذه الجزيرة .

أما تلة قرين فتقع في اقصى جنوب دولة الكويت على حدود المنطقة المحايدة وتبعد عن مدينة الكويت ما يزيد عن ٤٠ ميلا جنوباً وحوالي ١٤ ميلا عن شاطىء البحر . وهذا الاسم يشمل عدداً من الآبار ومنخفضاً يعرف بخور القرين يقع الى جنوب شرق التل بينه وبين البحر .

وتنمو في هذا المنخفض الذي يمتد ستة أميال في كل اتجاه اعشاب وشجيرات كثير . ومع انه يدعى خور أي مدخل بحري ، لكنه يبدو انه ليس له اتصال بالبحر . وتتجمع فيه مياه الامطار في فصل الشتاء وتشكل مستنقعاً مالحاً قرب آبار قرين . وتقول بعض المصادر المطلعة ان تلة قرين فقط وليست الآبار هي التي تقع ضمن اراضي دولة الكويت .

القصور

وهذا الاسم يطلق على مجموعة من القرى هي : أبو حليفه ، وفحيحيل ، ونقطاس ، وفناطيس ، وشعيبه . وقد سبق الكلام عنها في معرض الحديث عن منطقة العدان .

الرقيع (١)

(١) الرقعي

وهو الاسم الذي يطلق على مجموعة من الآبار في الضفة الشرقية من الباطن في مكان يبعد عن مدينة الكويت مسافة ١٠٥ أميال في خط مستقيم الى الغرب

فالجنوب الغربي . وهذه الآبار أعلى نسبياً من قعر الباطن وهي لا تمتليء بالميـــاه دائماً إلا إذا كثرت الأمطار فتستمر مياهها طوال الصيف .

والآبار الفعلية تقع بين الصخور وتتصل بممرات جوفية ولكن تسرب المياه فيها بطيء ولذلك يتعذر وجود كميـات كبيرة من المــاء في كل الآبار في وقت واحد .

والرقيع تابعة للملكة العربية السعودية وفيها مركز سعودي للشرطة .

(١)

السلو

وهي منطقة على الساحل في الزاوية الشمالية الشرقية من المنطقة المحايدة بين منطقتي العدان والهزايم . وتحدها من الشمال قرين ورأس القليعة ومن الجنوب تلة الشظف ورأس الخفجي .

الشق

وهو واد طويل قليل العمق يمتد مئــــة ميل من الشمال الى الجنوب ويبلـغ معدل عرضه عشرة أميال . وتقع الأربعون ميلاً الشمالية منه داخل حدود دولة الكويت . وينتهي هذا الوادي من الشمال على بعد ٢٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من جهره ، ومن الجنوب بجوار وربعه . وتحـده من الشرق منطقتا الكبد وعدان في الكويت ، ومن الجنوب السلو والهزايم والسدى ، ومن الغرب منطقتا دبدبه وقرعه . وتقترب منه السمن من جهة زاويته الجنوبية الغربية .

وليس في الشق سكان ثابتون ولكنـه ينتج معظم الأعشاب والأخشاب التي تستعمل للوقد وتباع في مدينة الكويت . وفي جهته الشمالية يفصل بين الأماكن التي ينمو فيها الحمض الى الغرب والأماكن التي ينمو فيها العرفج إلى الشرق .

ويضم الوادي حيث يلتقي بطريق الكويت – رقيع على بعـد ٤٠ ميلاً الى الغرب فالجنوب الغربي من مدينة الكويت ، تجمعا للماء في مواسم هطول المطر

يدعى خبرة الفرق . ويضم كذلك تجمعاً آخر للماء على طريق الرياض وعلى بعد ٥٤ ميلاً الى الجنوب الغربي من مدينة الكويت يدعى خبرة الدويش او خبرة جلهم . وتقع خبرة الشرق داخل أراضي الكويت اما خبرة الدويش فتقع خارجها .

(١)

الشقاق

وهي منطقة تقع بين الباطن والكويت شمال غربي الجهراء. والى جنوبها مباشرة تقع منطقة كبيرة تدعى الدبدبه .

وقد اطلق عليها هذا الاسم نظراً لوجود عدة انشقاقات او انخفاضات فيها يمتد بعضها باتجاه الشمال الشرقي كشقة أم رويسات ، وشقة الجليب ، وشقة الثويجه التي يقع معظمها داخل حدود الكويت . ويمتد بعضها الآخر باتجاه الجنوب الغربي كشقة السقيح ، بينما تمتد شقة الواسيه شمالاً الى الباطن .

والشقاق ارض مجدبة اعشابها قليلة وليس عليها سكان دائمون .

السدى

وهو سهل فسيح يضم المنطقة المتنازع عليها بين الكويت والمملكة العربية السعودية والتي سبق ذكرها . ويقع هذا السهل الى اقصى الجنوب على البحر وتحده من الشمال منطقة الحزام في المنطقة المحايدة حيث يشقه جدول المقطع ويصل غرباً الى الطرف الشرقي من ضليعة المعيجل وتلة النويريه . ويضم في جهته الشمالية سهل اللبيبه . ويبلغ طول السدى من شمال الشمال الغربي الى جنوب الجنوب الشرقي حوالي ٦٠ ميلاً . اما ارضه فرملية سوداء مستوية . ولا توجد فيه اشجار ولكنه تنبت فيه اعشاب تتغذى عليها الجمال كالرمض والحنظل والعرفج والثمام . وفيما يلي بعض تقاسيمه الداخلية الرئيسية :

عرفجيه : وهي آبار عمقها ١٥ قدماً تبعد ثمانية أميال عن جبل عموده غرباً ،

ومياهها صالحة للشرب .

أرق : وهي آبار عمقها ١٢ قدماً مياهها خطرة وغير صالحة للشرب . وتبعد هذه الآبار ١٢ ميلاً الى الشمال فالشمال الغربي من تخاديد ، و ١٨ ميلاً إلى الجنوب فالجنوب الشرقي من تلة وآبار مراغـــه في منطقة الهزايم ، وحوالي ٢٠ ميلاً عن البحر . وتقع على الحدود الجنوبية للمنطقة المحايدة .

بعل : وهي هضبة يبلغ طول قطرها ستة أميال وتقع في الزاوية الجنوبيـة الغربية من المنطقة . وغالباً ما يأتي البدو الى هـذه الهضبة قادمين من النقير التي تبعد عنها ستة أميال ونصف الميل الى جهة الشمال الشرقي .

حمض : وهي آبار تميل مياهها الى الملوحة وعمقها ١٢ قدمـاً وتبعد ٢٥ ميلاً الى الشمال الغربي من تلة التعيريه . وقد شهد هذا المكان هزيمة دعيج ابن سليمان ابن صباح الفاضل في أيام حكم الشيخ سالم .

النقير أو نقير : وهي آبار مياهها صالحة للشرب تبعد ستة أميال جنوباً عن نقيره وستة أميال الى الشمال الشرقي من بعل .

نقيره : وهي آبار فيها مياه عذبة على عمق ١٢ قدماً وتبعد سبعة أميـــال ونصف الميل الى الجنوب الشرقي فالجنوب من حمض .

شظي : وهي آبار مياه بعضها صالح للشرب ومياه البعض الآخر غير صالحة . ويبلغ عمق هذه الآبار ستة أقدام فقط وهي تبعد عدة أميال عن عرفجيه غرباً .

تخاديد : وهي آبار فيها مياه عذبة على عمق ١٢ قدمـــاً وتبعد ١٢ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من أرق .

وأهم التقاسيم الساحليـــة لمنطقة السدى هي من الشمال إلى الجنوب : رأس الخنجي ، حـد المشعاب أو رأس المشعاب ، جزيرة المقطع ، دوحة الحريص ، رأس التناجيب ، ودوحة بلبول ، وجبل منيفه .

الصمان

وهي منطقة كبيرة جداً في المملكة العربيـة السعودية يقع القسم الشمالي في

المنطقة التي تدعي الكويت ملكيتها . وتقع منطقة السمن بين صحراء الدهانه في الغرب وبين الدبدبه والشق وتلال أبو ظهير وتلال الطف في الاحساء، في الشرق.

وتمتد منطقة السمن من خط العرض الذي يقع عليه حفر الباطن في الشمال الى طريق الرياض الهفوف جنوباً وربما أبعد من ذلك . ويبلغ طولها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ٢٤٠ ميلاً على الأقل .

وتشطرها الى نصفين طريق الكويت الرياض ويبلغ عرضها عند هذه النقطة ٩٠ ميلا . ويتقلص هذا العرض جنوباً إلى ٣٠ ميلا وذلك في المكان الذي تلتقي فيه بطريق الرياض الهفوف .

وعندما يدخل المرء إلى منطقة السمن من ناحية الكويت على طريق الرياض، يجدها في البداية منطقة تختلط فيها المرتفعات الصخرية بالكثبان الرملية المستوية القمة تتموج بينها وديان قليلة العمق تنبت فيها في فصل الربيع ازاهير بريــــة واعشاب وشجيرات صحراوية .

وكلما توغل المرء في المنطقة وجد ان هذه التلال تتداخل اكثر فأكثر الى أن تخرج إلى ارض مكشوفة . ووديان المنطقة عريضة مستوية البطن وتتجـــه من الشمال إلى الجنوب. أما التلال فهي واطئة واكثر انتظاماً من الوديان تلتف حول قواعدها في اغلب الأحيان احزمة قرميدية اللون. وعندما تكون التلال مخروطية الشكل يطغى اللون القرميدي على قممها .

ويلي ذلك أرض قاحلة تتبعها تشكيلة أخرى من الوديان ولكنها الطف من سابقاتها . وعندما يقترب المرء الى مسافة ٢٠ ميلاً من حدود السمن الغربية يجد ارضاً مشققة تنمو فيها خصل من الأعشاب والشجيرات البرية وتنفتح تدريجيـاً على سهول متموجة تكثر فيها الأحجار الرملية ، وتنتهي فجـــأة عند حدود الدهانه الرملية الحمراء .

وتبرز في السمن من طريق الرياض الهفوف شرقاً صخور عالية واقفة كالقضيب يتراوح ارتفاعها بين ٥٠ و ١٠٠ قدم . وبمحاذاة ذلك في القسم الأوسط تمتـــد سهول قاحلة الى الافق تنتثر فيها الحصى والأحجار الصغيرة وليست فيها ايــــة

وقود او اعشاب تتغذى عليها الجمال .

وعندما تهطل الأمطار بكثرة يتحـــول القسم الأكبر من السمن الى مراع جيدة افضل من تلك الموجودة في الدهانه ، يكثر فيها الحميض الذي يقال ان الاتراك ادخلوه إلى الاحســاء .

وفي الربيع تنمو بعض الأزهار البرية . وتوجد كذلك بعض شجيرات السدر التي تهتم بها قبيلة مطير التي تشكل غالبية العرب الذين يقطنون السمن . وفي الناحية الجنوبية يقطن بعض قبيلة عجمان بالاشتراك مع مطير . ويزور المنطقـــة أحياناً عرب من بني خـــالد وقحطان وسبيع . وأشهر الآبار في المنطقة هي : الوبره ، والحبه ، وقرعه ، والصفا والجاريتين جارية العليا وجارية السفلى .

ام الخلان

وهي أرض صغيرة الرقعة تقع بين منطقة ياه في الشرق وبين منطقة الشقاق في الغرب ، في الزاوية الشمالية الغربية من اراضي دولة الكويت المعـترف بها . ويبلغ طول قطراها ثمانية أميال وتبعد ٤٥ ميلاً الى الشمال الغربي من الجهراء .

ام جنيب

وهو تعبير عام يطلق على المناطق التالية مجتمعة :

قرعه ، الكبد ، العدان ، السلو ، الهزايم وكلها في المنطقة المحايدة ، والجزء الشمالي من الســدى في جنوب المنطقة المتنازع عليها بين السعودية والكويت .

ويحد أم جنيب من الشرق البحر ومن الشمال خليج الكويت ومن الجنـــوب ضليعة المعيجل . وهذا هو المعنى المتعارف عليه عموماً للكلمة . ولكن بعضهم يقول ان أم جنيب هي منطقة صغيرة منفصلة أعلى من الهزايم واللبيبه وتضم تـلة روحيه وآبار شظف ووفره .

الوبره

وهي مكان معروف في السمن يخيم فيه البدو لوفرة مائه . وتبعد عن مدينـة

الكويت ١٤٠ ميلاً الى الجنوب الغربي كما يطـير الغراب . وهي محط رئيسي للقبائل عندما تنتقل من الساحل الى الداخل .

وتوجـد فيها اكثر من ١٠٠ بئر تقع كلها في مساحة لا تتعدى ٤٠٠ ياردة مربعة، ولكن عدداً قليلاً من هذه الآبار يصلح للاستعمال . وهذه الآبار غائرة في أرض ذات صخور رملية على عمق يتراوح بين ٢٤ و٢٨ قدماً ، وهي قديمة العهد ويرى المرء على بابها شقوق تكونت بفعل احتكاك الحبال التي يستخدمها البـدو لادلاء الماء مع الحفافي الصخرية . ومياه هذه الآبار تميل إلى الملوحة وهي أقـل جودة عن المياه الموجودة في جاريه عليا والحبه إلى الشرق وإلى غرب الجنـوب الغربي على التـوالي ، والتي يقصدها اليوم المسافرون من الكويت إلى الرياض متفضلينها على وبره .

وريه

وهي هضبة صغيرة بين السدي والسمن وتمتد مسافة ٢٨ ميلاً من الوبره باتجاه الشمال الغربي . وسطح وريه غـير منتظم اذ ان ارضها مشققة تنتثر فيها الحصى وتنتشر فيها مرتفعات من التراب والحجار الرملية .

وفي جهتها الغربية توجد ثلاثة او أربعة مرتفعات تدعى مرباط .

ياه (او : لياه)

تقع هذه المنطقة الصغيرة على بعد ١٨ ميلاً الى الشمال فـالى الشمال الشرقي من جهره وهي تشكل الطرف الشرقي من السلسلة الواطئة المعروفة بجـل اللياه التي تمتد من ياه غرباً ثم تنعطف إلى الجنوب الغربي نحو الزاوية الجنـوبية الغربية من دولة الكويت . ويبلغ الطول الإجمالي لجل اللياه حوالي ٣٥ ميلاً .

أما الأماكن الأخرى في شرق الجزيرة العربية التي سنخصها بالذكر في فصول أخرى من هذا الكتاب فهي :

الهفوف

هي أرض ابراهيم وعاصمة المقاطعة الشرقيــة من المملكة العربية السعودية . وقد زرتها عدة مرات وجمعت روايات غريبة غير مدونة من البدو في جوارها ، روايات يبدو انها فاتت بلغريف وفيلبي وتشيزمان الذين زاروا المكان مرات عديدة .

وكل المغامرات المنسوجة هناك تتصل، بطريقة أو بأخرى، بالصيف الغريب، التلة ذات الرأس المسطح على شكل اكروبوليس المعروفــة بجبل قاره والتي تقع وسط الواحة الغنية المحيطة بمدينة الهفوف والتي يبلغ طولها ١٥ ميلاً .

وعندما كنت أسير حول سفح هذه التلة الرملية المدهشة ذات اللون الأحمر الفاتح ، تذكرت صوراً شاهدتها لصحراء أريزونا الأميركية . لأن كل مــا حول جبل قارا من وديان منحدرة وفجوات وخاصة تلك السلسلة من الأعمدة الضخمة الرائعة ، صنعتها قرون من الرياح الصحراوية الحارة وكأنها عمل جبــابرة عفى عليهم الزمن . أما شمس الغياب هناك فانها منظر في منتهى الروعـــة ، خلاب يحبس الأنفاس .

وفي الجهة الجنوبية من الجبل وعلى أقدام سلسلة من الأعمدة الجبارة والشقوق الضيقة ، يقع كهف ابراهيم . وقد حاولت استكشاف الكهف مرتين ولكنني عدت خائباً . وقد شاهدت جزءاً يسيراً من جوفه الكبير الذي يقول البدو ان الشخص الذي يدخله يفقد فيه حتماً ، ما لم يربط نفسه بحبل أو خيط على المدخل ويضع علامات على الطريق التي يسلكها لكي يضمن عودته سالماً .

والانطباع الذي يتركه كهف ابراهيم في ذهن الانسان هو عدد لا يحصى من الفجوات والكهوف الداخلية الضخمة يشبه الواحد منها كاتدرائية كبـــيرة ، والمغاور الصغيرة ، وعدد كبير من التشعبات الجانبية المتفرعة من الممر الرئيسي تشكل شبكة مدهشة ومخيفة في جوف الأرض .

وهذا الكهف العظيم شديد البرودة مكيف بالهواء طبيعياً ، بحيث أن الحاكم الحالي في الاحساء الأمير سعود بن عبدالله الجلوي الــ‍ود حول إحــدى مغاوره

القريبة من المدخل الى مجلس له ولخدمه . فبعد عمل الصباح في المدينة في حرارة الصيف الشديدة يعود اليه ليستريح ولا يخرج منه إلا بعد الغروب للصلاة .

واذا أظهرت اهتماماً بالمكان فان اهل الاحساء وخاصة سكان الواحة منهم يتبارون لاطلاعك على رواية يقولون انهم تناقلوهـا عبر العصور عن شعرائهم ورواتهم وهي أنه منذ قرون طويلة أقـام ابراهيم خليل الله في تلك الواحة . ويعود تاريخ الرواية إلى زمان طويل قبل ان يأتي ذكر ابراهيم في التوراة بأنـه نشأ في اور الكلدانيـين على الفرات الأسفل في بلاد مـا بين النهرين (العراق اليوم) .

وتقول الرواية ان ابراهيم عاش حيـاة الرعاة مع قبيلته وكان شيخاً عظيماً يملك آلاف الأغنام والجمال . ومع قدوم الصيف وحرارته اللاهبة اعتاد ابراهيم أن يسوق قطعانه وقطعان أقربائه عند الظهر الى الكهف الكبير في جبل قـارة ويبقى هناك إلى ان يحل المساء بجوه البارد فيخرج قطعانه ويسير بها الى الخيام في الجوار وهي ترعى على الطريق .

وحدث بعد سنوات من العيش الرغيد ان دب الخلاف بين إبراهيم وبين ابن عمه وهو رجل حاد الطبع . ويبدو ان الخلاف وقع على الماء، فما كان من ابن عم ابراهيم إلا ان ضرب اثنتين من أغنام ابن عمـه على رأسها بهراوة ضخمة وهي تشرب ثم ذبحها . وتلت هذا الحادث حوادث أخرى فصار من جراء ذلك شقاق في القبيلة. فاقترح ابراهيم ان يرحل احدهما عن الواحة على ان يتم ذلك بالقرعة .. وخسر ابراهيم فجمع حاجياته وشعبه والاعداد الكبيرة من الأغنام والجمال التي يملكها ، واتجه بهم الى الشمال . وهناك في اور الكلدانيين بدأت قصته كما وردت في العهد القديم

ويقول البدو اليوم : انها يد الله رعته وسارت به الى خيره .. لأن الله كان يخبىء لابراهيم ولنسله قدراً عظيماً .. وقضى الله بذلك .

انها رواية رائعة كما يرويها أهـل الهفوف بتفاصيلها باسلوب أخاذ .. ومن يقول إن هذه الرواية تخلو من بعض الحقيقة ؟

الدهانه وواحة جبرين

على بعد ١٥٠ ميلاً الى الجنوب الغربي من الهفوف ومثلها الى الجنوب الشرقي من الرياض ، تقع واحة جبرين الغامضة .

وقد اعطاني مصدر موثوق ومشهور وهو توم بارجر المقيم في الظهران قرب القطيف حيث يوجد المقر الرئيسي لشركة النفط العربية الأميركية (أرامكو) ، بعض الحقائق الهامة فيا يتعلق بحزام الدهانه الرملي المحيط بنجد الداخلية :

١ ــ ان رمال الدهانه في الشرق والشمال من نجد الداخلية تتحرك تدريجياً الى الجنوب نحو منطقة الرمال الصحراوية الواسعة التي تعرف أحياناً بالرملة أو الربع الخالي . وقد ثبت بما لا يقبل الشك أن هذه الحركة ليست من الجنوب الى الشمال كما كانت تفترض بعض المصادر في الماضي .

٢ ــ ويوجد في واحة جبرين كثير من المرتفعات الاصطناعية من النوع الموجود في البحرين والظهران وأماكن أخرى . وقد عثر على معالم طريق قديمة اتضح انها كانت تصل جبرين مع ليلى ووادي الدواسر الى غربها . ويستدل من ذلك ان طريقاً تجارية هامة كانت في قديم الزمان تنطلق من حضرموت (بلاد التوابل) عبر اليمن حيث تنقسم الطريق إلى فرعين واحد يقود الى « جرا » (عقير اليوم) على الخليج الفارسي عبر ليلى وجبرين والهفوف ، والفرع الآخر يتجه شمالاً إلى مصر بمحاذاة البحر الأحمر .

٣ ــ ان الأحواض والبرك الصغيرة في جبرين ليست كما يقترح تشيزمان بأنها ضحلة تغذيها بالمياه ينابيع طبيعية ، ولكنها في الحقيقة برك اصطناعية اقامها القدماء الذين ارادوا الحصول على الماء للري او لأشياء اخرى فحفروا مساحة كبيرة للحصول على مياه جوفية . وربما كانت هذه المياه تتصل تحت الأرض بمياه الخرج . لأنه في قعر كل بركة ثقوب عميقة حفرت في الصخور الصلبة إلى عمق ١٥٠ قدماً او اكثر الى حيث تتصل بمياه دائمة .

ويقول توم بارجر إن جيولوجيي ارامكو ومهندسيها اثبتوا ذلك عندما ضخوا مياه احدى هذه البرك في جبرين حتى جفت واعادوا حفر الثقوب العميقة

التي تمد البركة بالماء . امـــا جوانب هذه الثقوب التي يبلغ قطرها قدمين ونصف فقد حفرت بطريقة مدهشة تشير الى وجود حضارة ذكية .

٤ — ويظن بارجر ان حضارة قديمـــة أتت من مأرب في اليمن وأوجدت مستعمرات في نجران اولاً ثم في ليلى وبعدهـــا في جبرين والهفوف وثاج وواحة القطيف . ويذكر انه عثر على عدة قنوات قديمة عديمة النفع الآن تتجه من بركة لا تزال قائمة في ليلى ، مما يدل على أن المكان كانت فيه في يوم من الأيام زراعـة مزدهرة .

ويتحدث بارجر ايضاً عن قلعتين متهدمتين الى شمـــال وجنوب صرار في وسط الاحساء مباشرة ، وعن مدافن فوقها أتربة مرتفعة حول صرار نفسها . واحدى هاتين القلعتين تقوم على رأس تلة وفيهـــا بئر مليئة الآن ، حفرت على عمق ٣٠٠ قدم للوصول الى الميـــاه . كل ذلك يدل دلال قـــاطعة على وجود حضارة قديمة .

وظني ان الهفوف ليست إلا « جرّا » القديمة وليس جبل قارا إلا احيـــاء للاسم القديم . واظن ايضاً ان ميناء عقير الحديث قـــد يكون هو الميناء القديم بالنسبة « لجرّا » كما هو ميناء بيريوس بالنسبة الى اثينا .

وقد قـــام توم بارجر بصحبة المرحوم شتاينيك كبير الجيولوجيين في شركة ارامكو بعدة رحلات مدهشة بالسيارة الى قلب الربـــع الخـــالي والى اقصى اطراف وادي دواسر . ولم يكشف النقاب بعد عن وقائع هـــذه الرحلات ولا عن مجموعات الصور المدهشة والخرائط التي أخذت هناك .

الفصل الثالث

قبائل وعائلات الجزيرة العربية

البدو والحضر

العرب قسمان : بدو وحضر .

فالبدو هم قوم رحل يعيشون في الصحراء ويقطنون الخيام السوداء المصنوعة من شعر الماعز أو صوف الغنم . والحضر هم سكان المدن والقرى ويعيشون في منازل ثابتة من الحجر أو الطين ويسمى الفرد من أهل البادية بدوي ، ويسمى ساكن المدينة حضري .

وبين أهل البادية وأهل المدن جماعة تدعى عربدار وهم نصف رحل يخيمون في جوار المدن في الصيف ويتنقلون عندما يحل فصل الشتاء . وينطبق هذا الاسم – عربدار – بصورة خاصة على دولة الكويت .

ان أهل البادية الحقيقيين لا يقتنون سوى الجمال . اما الرعاة في الصحراء فيسمون شوّيه (١) أو شواوي في العراق . وفي الكويت والعربية السعودية فيسمون حقرى ، وهم في معظمهم يرعون الاغنام في المنتفق الكبير بجنوب العراق . والقبائل الأخرى كمثير والعوازم فلهم جماعة خاصة من الرعاة .

وهنالك أيضاً العشائر الذين يهتمون بالزراعة على ضفاف نهري دجلة

(١) شاويه

والفرات ، والصناع وهم جماعة من الحدادين لكل قبيلة شريفة جماعـــة منهم .
وهؤلاء موجودون في الكويت وتجد وليس في العراق .

وأهل البادية الحقيقيون هم عرب خلص ، عرب عاربـــة ، ينحدرون من نسل يعرب أبو العرب . وفي نظرهم ان غـــيرهم من العرب هم مستعربة ، أي أصبحوا عرباً ، وينحدرون من عدوان (١) من نسل اسماعيل وأمه هاجر . والعرب العاربة والعرب المستعربة كلاهما ينقسمان الى قبائل شريفة ارستقراطية أصيلة ذات دم نقي ، وقبائل أدنى منها مرتبة رضيت باختيارها ان تصنف حسب هذا التقسيم .

وأشهر القبائل الشريفة في الجزيرة العربية هي : عنيزه ، وشمّر ، وحرب ، ومثير ، وعجمان ، وظافر ، وبني خالد ، وبني هاجر ، وآل مرّه ، وقحطان ، وعتيبه ، ودواسر ، وسهول ، ومناصير ، وبني يـــأس ، وسبيع ، وقواسم ، وبني يم (٢) ، وزعب (مع عدوان) ، وبني تميم التي لم تعد توجد كقبيلة واحـــدة اليوم .

ويأتي (٣) في طليعة القبائل او الجماعات الأخرى : العوازم ، والرشايـــده ، وحتيم ، وصُلبه ، وعقيل .

عجمان

وهي قبيلة من الأشراف في شمال شرقي الجزيرة العربيـة تدين بالولاء للملك سعود بن عبدالعزيز الحاكم الحالي للمملكة العربية السعودية . وتصل قبيلة عجمان صلات قربى بآل مرّه ، ويعتبر افرادها انفسهم أمراء الصحراء ولكن القبائل الأخرى لا تشاركهم هذا الاعتبار . وهم يتزاوجون مع بني يم الذين يدعون الانتماء الى سلف واحد وهو يم . واعلى شيوخهم مقامـــاً هم الهذلان (٤) ، فخذ من معايض (٥) يدعي نجيعه . وبين هذه الأفخاذ :

الوجه — الشيخ ابن رماح

الضعاين — الشيخ الدامر

لمشليه
سحمان
(١)
مانع الحذلان
(من المعايش وفخذ نجيعه)
حزام
فلاح
وضحى (انثى)
فعران
محمد
فيصل
فهد
الجازي (انثى)
خالد (٢)
«ذيب سبهان»
خالد
محمد
ركان
الجازي (انثى)
محمد
ضيدان
نايف
«ابا الكلاب»
حزام
نايف
مشعال
ركان
ركان
فلاح
سلطان
فلاح
الجازي (انثى)

محمد ابو شويه من فرع جبلان في قبيلة مطير ومعه باز الصيد
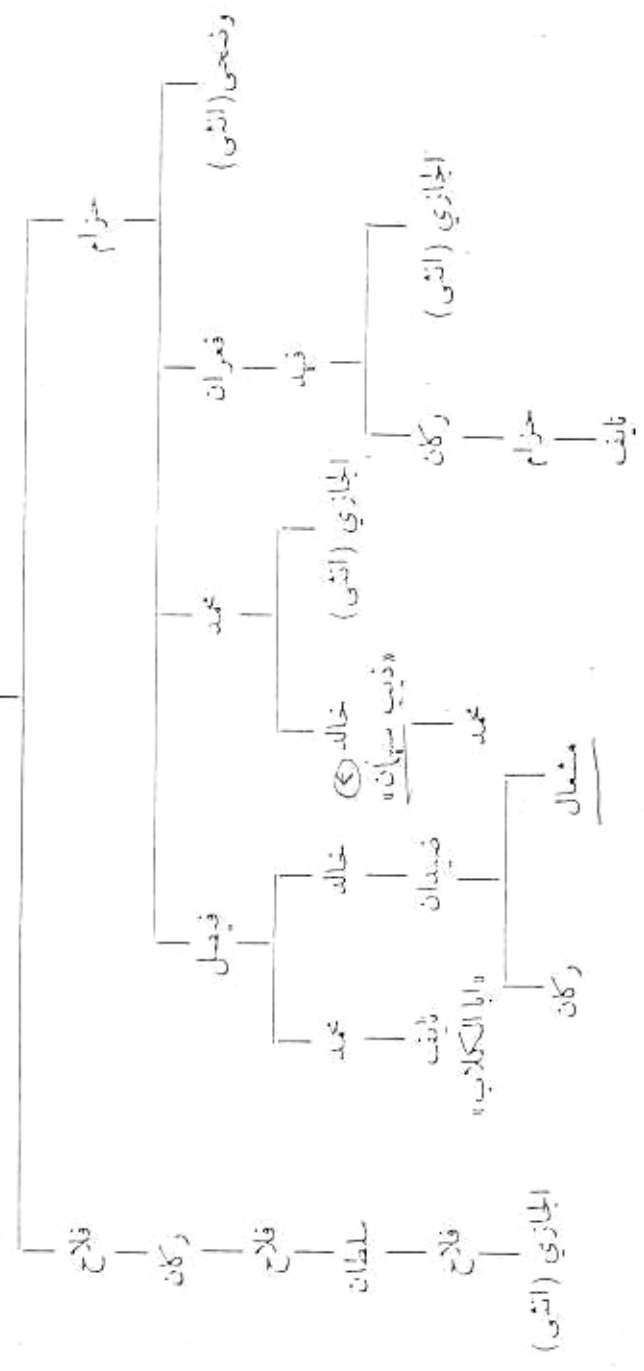
زوجة المؤلف امام احد ابواب جناح السيدات
في القصر الملكي بالرياض

نايف بن حذلان (ابا الكلاب)
الشيخ الاعلى في عجمان

فيصل بن سلطان الدويش
الشيخ الاعلى في مطير

الجبايش	—	الشيخ ابن علوان
الهادي	—	الشيخ عبيد المتلقم
الهجان	—	الشيخ ابن صباح
المتلان	—	الشيخ ابن زمامام
المحفوظ	—	الشيخ حمد ابن ركان المكراد
المعايض	—	الشيخ ركان ابن ضيدان الهذلان
الغلا	—	الشيخ ابن دبلان
المسرا	—	الشيخ محمد العذين
الصفران	—	الشيخ ابن مشخير
السليمان	—	الأمير هيف ابن هجرف (يدين بالولاء للكويت) .

اما شجرة انساب الهذلان المنشورة في الصفحة السابقة تضم فقط الأسماء المشورة في هذه الصفحات .

عندما قتل ضيدان ابن خـالد الهذلان سنة ١٩٢٨ أصبح ابنه ركان بنظر العجمان الشيخ الأعلى في القبيلة ولكن ابن سعود عين خالد ابن محمد الحزام الهذلان في مكانه . وكان خالد هذا الملقب « بذيب سهبان » ذا حظوة عنـد ابن سعود ويتمتع بمركز مرموق في مجالسه .

وتشتهر قبيلة عجمان منذ زمن طويل بجمال بناتها المدهش، وقد زوجت كثيرات منهن بين وقت وآخر الى أمراء البيت الملكي السعودي ، وإلى حـكام الكويت والبحرين وشيوخ عائلات مثير ، إلى جانب شيوخ القبيلة نفسها . وقد اشتهرت منهن في الآونة الاخيرة اربع جميلات من غريب الصدف انهن يحملن نفس الاسم « الجازي » اسبغن على القبيلة شهرة فائقة وسمعة حسنة .

وتتفوق عليهن جميعاً في الجمال والسحر وقوة الشخصية الجازي بنت محمـد الحزام الهذلان . فهي اليوم ، وان لم تكن صبية كما كانت في السابق ، تتمتـع بمنزلة عالية في قلوب قومها ، وتدير شؤون خيام زوجها الحالي الشيخ ركان ابن ضيدان الهذلان الذي يعتبره العجمان رئيسهم .

وقبل ان تتزوج هذه الملكة بين جميـــلات القبائل من زوجها الحالي كانت متزوجة من الأشخاص التالية أسماؤهم :

صاحب الجلالة المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود (بن سعود)

المرحوم الأمير محمد آل سعود شقيق الملك عبد العزيز

الأمير سعود العرفه آل سعود صهر الملك عبد العزيز

الشيخ بندر الدويش رئيس عائلة مطير

المرحوم الشيخ مطلق الجبعه وهو عضو بارز في قبيلة قحطان ويتصل بقرابة نسائية الى الدوشان وهم الفخذ الحاكم في مطير .

لقد تزوجها الملك عبدالعزيز ثلاث مرات . وفي كل مرة كان يقنع زوجها في ذلك الوقت بان يطلقها لقاء هدية كبيرة من الجمـال بحجة انه لم يستطع ان يتغلب على حبه لها . وشقيق هذه الحسناء هو الشيخ خالد بن محمد الحزام الهذلان .

اما الجازي الثانية اخت خالد المكراد وابنة عم حمد ابن ركان المكراد شيخ آل محفوظ ، فقد تزوجت على التوالي من الشيخ خالد ابن محمد الحزام الهذلان ومن فلاح ابن سلطان الهذلان .

والجازي الثالثة وهي ابنة فـلاح ابن سلطان الهذلان فقد تزوجت من نايف ابن محمد الهذلان المعروف بابي الكلاب الذي توفي في السجن سنة ١٩٣٤ لأنـــه قام بثورة ، ومن مشعال ابن ضيدان الهذلان .

اما الجازي الرابعة ابنة فهد الفعران الهـذلان فقد تزوجت الشيخ ركان ابن ضيدان الهذلان ولكنها توفيت بعد عدة سنوات .

وقد زودني بهذه المعلومات كلها الشيخ نايف ابن حزام الهذلان .

اما وضحى بنت حزام الهذلان فهي والدة سعود العرفـــه آل سعود الذي تزوج نورا اخت الملك عبد العزيز الشهيرة .

وقد اخبرني المرحوم الشيخ أحمد الجابر الصباح في سنة ١٩٣٢ ان العجمان يتكلمون اصفى لغة عربية بين قبائل الجزيرة العربية . وربما كان كلامهم ولفظهم شبيهين بمـا كان يتكلمه عرب الجزيرة قبل الاسلام . وقال ان العجمان يستعملون

تعابير والفاظاً تختلف كلياً عن تلك التي تستعملها القبائل في اماكن أخرى .

وخلافاً للقبائل الأخرى ، فان العجمان مولعون باطلاق الألقاب على أطفالهم وتظل هذه الألقاب ملاحقة لهم طوال حياتهم . وقد قدمنا مثلين على ذلــك وهما : خــالد « ذيب سهيان » وتايف « ابو الكــلاب » . ومنهم ايضاً منصور « خير الذيب » وسعود « ابو الشمرين » وهذا اللقب هو لقب الملك الحالي سعود ابن عبد العزيز . وعندما تولد فتــاة للعجمان تقطع من اذنها قطعة صغيرة تأكلها الأم . وتلقب هذه بالجدع .

وصرخات الحرب عند العجمان هي : « مفرس الحديــد ، وانا ابن العجم ، لو ما طعنا ما حدن خلانا سكنى الديره . »

عنيزه

هي أكبر قبيلة بين القبائل العربية تقطن نجد والعراق وسورية . ويبلغ عدد الذكور فيها ٣٧ الفاً وعدد جمالها حوالي المليون. وتنقسم هذه القبيلة الى عدة أقسام نذكر منها ما يلي :

عمارات : كان شيخها الأعلى المرحوم فهد بك الهظل . وقد خلفه بعد موته ابنه مهروط الهظل. وينتسب آل الصباح العائلة الحاكمة في الكويت الى عمارات (سبط الداهمشاه) وكذلك آل خليفه حكام البحرين . ويدعي مهروط انــه الرئيس الاسمي لهاتين العائلتين وقد صرح بذلك اثناء زيارة صاحب السمو الشيخ عبدالله الصباح الأخيرة الى بغداد . وعندما اخبرني سموه بذلك قــال وهــو يبتسم : « قال مهروط ذلك بصورة جدية » .

ومن العائلات المرموقــة في عمارات من الذين يسكنون الكويت آل صالح (رئيسهم الملا صالح) ، وآل شملان (رئيسهم محمد الشملان) ، وآل غانم وآل زايد سابقاً (رئيسهم الحاج أحمد الغانم) . وقــد ذكرنا سابقاً عدداً من أفراد هذه العائلة . أما الشيخ الحالي للداهمشاه في عمارات فهو ابن مجلاد .

فدعان : شيخها الحالي ابن مهير

الرولا : الشيخ الأعلى لهذه الجماعة الشهيرة في جوار دمشق هـو فواز ابن نوري الشعلان. وهنالك شق من هذه الجماعة يدعى المساليخ يدين بالولاء لسورية. وينحدر الملك ابن سعود من المساليخ . ويـدعي الحظل والشعلان اللذان يعتبران أنفسهما رئيسين اسميين لقبيلة عنيزة كلها ، انهما اعلى منزلة من ابن سعود وابنـه الملك الحالي .

سباع : يقول كارل رسوان مؤلف كتاب « الخيـام السوداء في الجزيرة العربية » ان فهد المسراب شيخ السباع الحالي ينحدر مباشرة من الشيخ مجوال المسراب زوج الليدي دغبي الشهيرة وهي الليدي اليثبورووه سابقاً .

لا يزال الكثيرون من عرب الصحراء يذكرون بالتقـدير والاحترام « الست البيضاء » الليدي دغبي . وفي أواخر ايامها سكنت مـع زوجها الشيخ مجوال المسراب في بيت كبير بدمشق بجانب البيت الذي كان والداي يسكنانه في ذلك الوقت . وتقول الآنسة اودي التي الفت كتاباً عنها انها ماتت هناك في آب سنة ١٨٨١ . ولكن الاقرب الى الصواب انها ماتت سنة ١٨٨٣ لأنني ولدت في بيروت سنة ١٨٨١ وعندما انتقلنا الى دمشق بعد ذلك كانت أمي تأخذني اليها مرتين او ثلاث مرات في الاسبوع . وقد دفنت في مقبرة الأرمن خـارج باب الشرقي في دمشق وكتب اسمهـا على القبر « هيلين مسراب » وقليلون هم الأشخاص الذين يعرفون هذه الحقيقة .

ويقول رسوان ان المسراب لا يزالون انقى القبائل العربية دماً .

ولد علي : وهم قسم هام من قبيلة عنيزة يعيشون في نجـد الغربية . وتعرف عائلة شيوخهم بالسميد .

عقيل

وهم جماعة يتعاطون تجارة الجمـال ومراكزهم الرئيسية في دمشق وبغداد. وهؤلاء ليسوا قبيلة من البدو لأنهم أقرب الى الحضر . وتعتبر العائلات الرئيسية فيهم من الأشراف .

عوامر

وهم قبيلة شرسة في جنوب شرقي الجزيرة العربية ويدعون انهم من الأشراف.

عوازم

وهم قبيلة كبيرة من غير الاشراف في شمال شرق الجزيرة العربية .

بني هاجر

وهم قبيلة من الاشراف في وادي دواسر الى جنوب الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ولكن بيئتهم الأصلية في قطر بجوار القطيف ، وشيخهم الأعلى هو شافي ابن شافي .

بني كعب

وهي قبيلة من الاشراف تسكن عربستان في ايران ولكنهـــا لا تعد ضمن قبائل الجزيرة العربية وسنذكرها هنـا لمجرد استيفاء الموضوع . وبنو كعب هم الذين هددوا الكويت في أيام مريم ووالدها عبدالله الصباح ، وذلك بقيادة آل نصار العائلة الحاكمة فيهم .

وفي الحديث الذي اشرت اليــه في الفصل الأول ابلغني سمو الشيخ عبدالله السالم ان آل نصار عائلة عـربية أصيلة تتصل بقبيلة سبيع في الاحساء ووسط الجزيرة العربية . وقال أيضاً ان القبائل على الشاطىء الفارسي الى الشمال والجنوب من بوشير ، كانت جميعها من أصول عربية نقية تضم أقساماً من عجمان ومشـــير وسبيع ، ولكن قبائل الجزيرة العربية لا تزوج بناتهـــا لهؤلاء لأنهم تزاوجوا واختلطوا بالاعاجم .

بني خالد

وهي قبيلة كبيرة من الاشراف في الاحســاء . وقد اشتهرت هــذه القبيلة في

التاريخ العربي ، والبيت الحاكم فيها هو ابن عراعير .

بني صخر

وهي قبيلة من الاشراف في الاردن .

بني تميم

وهي قبيلة عريقة من الاشراف في الجزيرة العربية تقطن اليـــوم في قطر .
وحكام قطر الحاليين هم من بني تميم .

بني يم

وهي قبيلة من الاشراف تقطن في نجران على حدود اليمن الشمالية الشرقية .
وبنو يم أخوة بالدم لآل عجمان وآل مره .

بني يأس

وهي قبيلة من الاشراف في عمان حـــول ابو ظبي وشرق قطر على الخليج
الفارسي .

بلي

قبيلة في شمال الحجاز قائدها ابن رفاده .

دواسر

قبيلة من الأشراف في وادي دواسر جنوب الرياض .

حرب

قبيلة من الأشراف في نجد العائلة الحاكمة فيها هم آل فرم .

حسويه

قبيلة من الزراع في الهفوف .

حتيم

قبيلة قوية من غير الأشراف في شمال الحجاز .

آل خليفه

وهم حكام البحرين وينحدرون مع آل الصباح في الكويت من قبيلة عمارات المتفرعة من عنيزه . ومع أنه كانت لآل خليفه علاقات مباشرة مع البريطانيين منذ سنة ١٨٠٥ ودخلوا معهم في معاهدة سنة ١٨٢٠ ، إلا انهم لم يوقعوا مع البريطانيين اتفاقات ملزمة كتلك المعقودة مع عمان إلا في سنة ١٨٦٧ في زمن الشيخ عيسى ابن علي آل خليفه . والشيخ عيسى مدين للبريطانيين بتوليه الحكم لأنهم نصروه ضد فرع آخر من العائلة اعلى مقاماً ظلوا يحاولون الاستيلاء على الحكم في الجزيرة .

وقد حكم الشيخ عيسى حتى سنة ١٩٢٣ حين عزله الوكيل البريطاني الميجر دالي الذي كان يأتمر بأمر حكومة الهند وعين ابنه حمد خلفاً له على العرش . وظل الشيخ حمد بن عيسى آل خليفه في الحكم حتى وفاته في سنة ١٩٤٢ وخلفه ابنه الحاكم الحالي الشيخ سلمان بن حمد آل خليفه وهو من اكثر الحكام في الجزيرة العربية حكمة ويتمتع بحب واحترام الشعب . ولا زالت البحرين حتى اليوم ترتبط باوثق المعاهدات مع الحكومة البريطانية .

مناصير

قبيلة من الأشراف في عمان .

آل مرة

قبيلة قوية في وسط وجنوب شرقي الجزيرة العربية لم تعرف كثيراً مع انه

كتب عنها الكثير . فقد كتب عنهـــا برترام توماس ، وبول هاريسون في كتابه « العرب في ديارهم » وسانت جـون فيلبي في كتابه « الربـــع الخالي » ، وكلهم أشاروا إلى البيئة الغـــامضة التي تعيش فيها هذه القبيلة ، وإلى رقصاتها الشعبية ، وخرافاتها ، وقوة بأس أفرادها وشدة مراسهم . ومع هذا فلن يكون هنالك ضير من إضافة بعض المعـــلومات التي حالفني الحظ في الحصول عليها من رجال ونساء آل مره الذين صادفتهم في بعض الأحيان . وسآتي على ذكر عدد من القصص والحوادث في فصول أخرى من الكتاب ، وسنحصر حديثنا هنـــا بتلك التفاصيل المتعلقة بطريقة حياتهم وديرتهم وتاريخهم .

انهم قوم أشداء معتدون بأنفسهم اشتهروا بالولاء لمن مالحهم (أي أكل من أكلهم وأكلوا من أكله) ، او لمن قدموا له الطاعة والخضوع ، او تحالفوا معـه وقطعوا له عهداً . وهذا ما يفسر تمسكهم بعبد العزيز آل سعود وبخلفه الملـــك الحالي . ويدعون ان خيامهم يبلغ عددها عشرة آلاف . ومع انه قد يكون في هذا الرقم بعض المبالغة إلا أن عددهم اكبر من التقديرات السائرة . وبما انهم من الاشراف فانهم لا يزوجون ولا يتزوجون إلا من الاشراف . وهم بنو عم قبيـلة عجمان القوية التي تعيش ابعد منهم الى الشمال . فجد آل مره الأول علي بن مره هو اخ يم جد العجمان . وامهم أيضاً اسمها مره وهي قحطانية شهيرة .

وديرة آل مره التي يسكنونها هي اواسط الربع الخالي والمناطق الشماليـــة والشرقية منه . وهم ينظرون إلى واحة جبرين بأنها ملكهم الخاص يخيمون فيها في الصيف . ولكن قادتهم ، بسبب وجود الملاريا في جـــبرين ، بدأوا مؤخراً يفضلون الانتقال الى الهفوف على بعد ١٨٠ ميلا إلى الشمال الشرقي من جـــبرين ، ويضربون خيامهم في رقيجه وهي منطقة خاصة بالبدو خارج المدينة . وهـــذا المكان الجديد يسهل عليهم التزود بالطعام كما يساعدهم على الاتصال المباشر بممثلي الملك سعود .

ومنذ عدة سنوات اخبرني رجال من آل مره ان هنالك واحة أخرى اجمل من جبرين يحبون زيارتها والاشتراك فيها مع أصدقائهم من الاشراف مثل العوامر

والمناصير وبني يأس . ويقولون ان فيها ينابيع غزيرة واشجار نخيل كثيرة ، وانها تبعد سفر اسبوعين على الجمال الى الشمال الغربي من البريمي ومثل هذه المسافة الى الجنوب فالغرب من ابو ظبي ، وان اسم هذه الواحة تدعى عجوه .

ولم أجد لهذا الاسم مرجعاً الى ان تعرفت اليه بأنه جوه وهي واحة او مجموعة من الواحات في داخل ابو ظبي . وقد زارها فريق من موظفي شركة ارامكو في احدى حملاتهم الاستكشافية العلمية المدهشة قبل الحرب العالمية الثانية : وكان دليلهم في تلك الرحلة صديقي المشهور خميس بن رمثان وهو من آل عجمان. وزوجته هي أخت محمد بن تاهوس رئيس حرس شركة نفط الكويت في منطقة برقان .

وفي سنة ١٩٤٣ التقيت انا وزوجتي لحسن الحظ بعضو بارز من آل مره اسمه محمد بن سالم دراهم المري وهو من فخذ عضيبه المتفرع من نقدان . وقد جاء محمد إلى الكويت بأمر من وزير مالية ابن سعود الذي طلب منه اختيار مري يتقن اقتفاء الآثار ليمثل دور شرلوك هولمز في الكويت . وقد رفض محمد بن سالم هذا المنصب لان المرتب كان صغيراً فبقي عدة ايام في الكويت وتناول معنا مرة طعام الغداء وزارنا بعد ذلك عدة مرات . وقد سمعنا منه قصصاً وروايات هامة منها ما هو حقيقي ومنها ما هو محض اختلاق .

ومن بين الأشياء التي رواها الأمور التالية :

١ – ان صرخة الحرب عند آل مره هي « اولاد الشبيي » .

٢ – إن آل مره يخفون دائماً وفي كل الظروف لنجدة العجمان لأنهم من أصل واحد . فاذا تعرض العجمان لهجوم فما عليهم إلا يطلقوا بين الجمال جملاً حول عنقه صفيقة حمراء وعندئذ يهب جميع آل مره لنجدتهم . ويقول محمد ابن سالم ان هذا التعاون في ايام الطوارىء والمحن لا يعني ان آل مره وآل عجمان ليست لهم خلافاتهم الخاصة ونزاعاتهم الدائمة .

٣ – وقد وصف لي بالتفصيل كيف تحدث الرمال في اعماق الصحراء اصواتاً غريبة واعطاني تفسيراً معقولاً لهذه الظاهرة . فقال انه بفعل الرياح تتكون

سلاسل متموجة من المرتفعات الرملية على منحدرات الكثبان . وعندمـا تأتي رياح قوية تخترق هذه التموجات فتحدث صوتاً اشبه بصوت طائرة في الفضاء .
ويروي رجال القبائل العاديون من آل مره ان هذا هو صوت الجن في الربع الخالي وان ذلك أحياناً يصيب الانسان بمس من الجنون . ويقول محمد ان الجن هناك لها اعين مشقوقة من الأعلى الى الأسفل وليس افقياً كما في الانسان ، وان جدة القبيلة كانت جنية وبالطبع لها مثل هاتين العينين .

٤ — ان آل مره يدربون انفسهم على البقاء دون ماء . ومع ان محمد بن سالم كان في الكويت على بعد ٨٠٠ ميل من ديرته فإنه لم يذق طعم الماء لمـدة سنة كاملة الا في القهوة . والشراب المفضل لديهم هو حليب الجمال .

٥ — ان طريقتهم في الحرب هي نفسها : استدراج العدو الى الانحاء البعيدة من الربع الخالي والقضاء عليه .

٦ — ان اعظم شرف يسبغه المري على ضيفه هو ان يذبح له جمـلا صغيراً ويغليه بحليب أمه .

٧ — ليس كل آل مره من مقتفي الآثار الممتازين . ويعترف بهـذه المقدرة العجيبة للنقدان منهم .

٨ — عندما يصبح المرّي صديقاً يبقى صديقاً الى الأبد .

وأخبرني محمد القصة التالية عن أصل آل مره :

منذ عدة مئات من السنين وقبل زمن ابراهيم حين لم تكن هناك ديانـة ولم يتعود النـاس على الصوم والصلاة ، كان يعيش في جنوب الجزيرة العربية فارس شهير يدعى عـلي بن مره أخو يم جد قبيلة عجمان . (هنالك من يقول ان عجمان ينحدر من مرزوق ابن علي ابن مره) .

وذات يوم من أيام الربيع كان علي بن مره حزيناً لأن الجرب تفشى في جماله الاربعين فلم يبق منها على قيد الحياة إلا أربعة كانت مريضة تتألم . فلم يطق علي ان يرى هذا المنظر المؤسف فحمل نفسه يائساً وتوجه الى الربع الخالي . وهناك وفي مكان منفرد وقع نظره على فتاة حسـناء تصارع مـن أجل حياتها مع ذئب

كبير ، فهرع الى نجدتها ونجح في قتل الذئب . وشكرته الفتاة على جميله وسألته ان يطلب اي شيء فتمنحه أياه . فاعرب لها عن رغبته في الزواج منها . فاجابته ان ذلك غير ممكن ما لم تحصل على موافقة والدها واخوتها الذين يعيشون مع شعبها من الجن في بطن الأرض .

وعندئذ تأكد علي بن مره ان تلك الشابة ليست انساناً عادياً بل هي من جنية .

ولما وجدته لا يزال حزيناً سألته عما يؤلمه فأخبرها قصته بأنه ترك جماله الأربعة الباقية وراء تلة تتألم فلم يطق ان يراها تموت أمامه فهجرها .

ــ تعال معي ، قالت له الجنية ، وانا آخذك الى والدي فهو يعرف كيف يداوي جمالك ويمكنك ايضاً ان تطلب منه يدي .

وبعد ذلك طلبت من علي بن مره ان يغمض عينيه وشدت عليهما بيديها واعطت اشارة فانفتح كهف عظيم في بطن الأرض بجانبهما فنزلا فيه الى العالم السفلي لمقابلة شعب الجن .

وعندما ازاحت يديها عن عينيه دهش علي بن مره عندما وجد بلاداً جميلة أمام ناظريه ينساب فيها الماء من كل جانب وتنبت فيها الاعشاب والازهار في كل مكان . ورأى أيضاً ان عيني الفتاة اصبحتا مشقوقتين من الأعلى الى الأسفل بعد ان كانتا فوق الأرض كعيني البشر . ولكن ذلك لم يفقدها شيئاً من جمالها .

واقتادت الجنية علي بن مره الى والدها واخبرته بالقصة كاملة ، كيف انقذها علي من الذئب وكيف ترك علي جماله تموت وراء التل وانه يرغب في الزواج منها وانها ابدت استعدادها لذلك بشرط ان يعطي موافقته . فوافق الأب وأولاده في الحال على زواجها من علي وابدى جميع الجن في المكان اعجابهم وتقديرهم لعلي لأنه انقذ أميرتهم من الذئب . وتبين علي ان هذه الفتاة هي ابنة شيخ الجن .

وقد وضع الجن شرطاً واحداً على علي بن مره وهو انه لن يسمي بعد ذلك باسم الله بل باسم الجن ، وان لا يقوم بأي نوع من العبادة والصلاة باسم الله بل

بأسم الجن . وابلغوه انه اذا فعل ذلك فان اموراً رهيبة ستحدث له .

فوافق علي بن مره، وقد تيمه الحب ، على هذه الشروط . فاحتفلوا بالزفاف بفرح عظيم وقدموا للفتاة مهراً غاليا .

وعاش علي مع الجن بعـد الزفاف سبعة أيام وجد فيهـا ان الجن يعيشون كالبشر لهم جمالهم واغنامهم وماعزهم وخيامهم السوداء . والفرق الوحيد هـو ان اعين الجن مشقوقة من الاعلى الى الأسفل وأن طعامهم يطهى بدون ملح .

وبعد سبعة أيام سمح اهلي ان يصطحب عروسه ويخرج الى العـالم الفوقي . وبعد وداع أهلها وأصحابها وضعت الجنية يديها على عيني زوجها علي واقتادته الى فوق الأرض من المكان الذي انحدرا به . وسر علي سروراً لا حد له عندما رأى أمام باب الكهف، جملا تتمتع بالعافية . وعندما تطلع بزوجته ليشكرها وجد ان عينيها تحولتا الى عيني بشر وانها أصبحت كغيرها من النساء ولكنها أجمل نساء الأرض. فابلغته ان هذه الجمال هي هدية من والدها بمناسبة الزفاف.

واقتاد علي زوجته وجماله الى نجران حيث تعيش أمه مره وهي من أشراف قبيلة قحطان . وهناك عاش سعيداً مع زوجته الجنية التي أنجبت له طفلة جميلة .

ومرت الأيام وأصبح عمر ابنته سبع سنوات كانت أحوال علي بن مره خلالها تتحسن باستمرار . وفي يوم من الأيام خرج في رحلة طويلة متعبة بحثاً عن جماله التي تشتتت واستغرقت رحلته عدة أيام عاد بعدها منهكاً. ولم تره زوجته قادماً لانها كانت تدير ظهرها الى المكان الذي قـدم منه فوقف وراءها يتأملها وكانت هي تجلس القرفصاء نازعة شعرها الذي وضعته في حضنها تمشطه . ولم يكن علي يعرف ان تلك هي عادة من عادات الجن فأثاره رأسها العاري تماماً من الشعر فصرخ من الدهشة « باسم الله » . .

عندئذ ابرقت السماء وأرعـدت وانفتحت الأرض وابتلعت زوجته وخيمته وكل مقتنياته . وانقذ علي نفسه بان ارتمى إلى الوراء ممسكاً ابنته بـين ذراعيه بقوة حتى لا تختفي مع أمها .

وكبرت الفتاة وتزوجت أحد اقرباء والدها . وهذه الفتاة هي جدة آل مره

الذين يبلغ عددهم اليوم اكثر من ٢٠ الف نسمة .

هذه هي القصة التي أخبرني إياها محمد ابن سالم ابن دراهم المرّي .

واذا سئل أحد آل مره عن اسمه يقرن اسمه باسم أمسه كأن يقول « انا علي ابن نورا » . وقال لي عدد من الأشخاص الذين بحثت معهم هذا الموضوع إن سبب ذلك وقائي فلا يكني واحدهم نفسة بأبيه أمام الغرباء بسبب الثارات الكثيرة في تلك المنطقة .

ولكن السبب في اعتقادي ان آل مره يفعلون ذلك تيمناً بجدتهم الجنية .

ويشتهر آل مره كما ذكرت سابقاً بقدرتهم على اقتفاء الآثار . وكثيرة هي القصص التي يروونها عن هذه الموهبة الخارقة . وهم يفتخرون بذلك ويتحدثون عنه دائماً . وتبلغ قدرتهم في الاستدلال الى حد يستطيعون فيه معرفـة ابن من هذا الشخص أو ذاك الجمل دون ان يروه ولكن بمجرد التطلع الى آثار اقدامه . ويدعون ان هذه المعرفة موروثة من الجن والأرواح التي تسكن باطن الارض .

وفيما يلي أقسام قبيلة آل مره :

آل بحيه(١) : شيخهم الصعق وينقسمون الى قسمين آل سمره وآل سنيت .

الفهايده : شيخهم ابن شريم وينقسمون ايضاً إلى قسمين آل بريد وآل دوّيه .

آل جابر : شيخهم الجابر المراضف المعروف براعي جبرين إشارة الى ملكيته لواحة جبرين .

آل مهنا : شيخهم طالب المهنا .

آل نقدان : شيخهم الأعلى فيصل ابن نقدان من فرع آل عضبه الذي ينتمي اليه صديقنا محمد ابن سالم ابن دراهم المرّي الذي أعطاني كل هذه المعلومات بمـا فيها أسماء الشيوخ التي ورد ذكرهـا في هذه الفقرات . أما الفروع الأخرى من نقدان فهي : آل غفران وآل غياثين وآل جرابعه .

وقد حالفنا الحظ انا وزوجتي والتقينا بالشيخ محمد ابن صالح ابو ليـلى شيخ آل غفران عندما قدم مع اخته نورا لشراء بعض الحاجيات من الكويت . وقد قمنا نحن بزيارتهم في خيام آل عجمان على تلة الشامية خارج الكويت وهي مكان

يخيم فيه البدو في الصيف. ولم يكن لدى الشيخ محمد واخته خيمة بالمعنى الصحيح لأنهما مسافران بل كانا يقيمان في مكان مكشوف وحوائجهما وماشيتهما في زريبة حولهم. وفي اليوم التالي جاءا لزيارتنا في المنزل وأظهرت لنا الفتاة وداً وصداقة كبيرتين . وقالت انها لأول مرة ترى امرأة انكليزية او رجلا انكليزي وبدى عليها بعض القلق لوجودها داخل منزل خوفاً ، كما قالت فيما بعد ، من ان ينهار عليها السقف ويسحقها . ولم تشاهد مدينة إلا مرة في حياتها وهي الهفوف ولكنها لم تدخلها . وقد سررنا بالحديث معها . وهذه الفتاة تبلغ من العمر ٢٤ عاماً بسيطة دائمة الابتسامة كثيرة الفضول ولكنها أقل عصبية من غيرها من بنات مثير(١) أو عجمان . وقالت انها ترغب في البقاء معنا دائماً .

وكان شقيقها أيضاً رائعاً ويتكلم كأخته لغة عربية جميلة يسهل فهمها أكثر من لغة العجمان والقبائل الشمالية . وفي البحث عن الأنساب وخاصة فيما يتعلق بمصر قبيلة آل مره ذكر لي بدون تردد وبأقل من لمح البصر أسماء اثنين وعشرين من أجداده حسب التسلسل – أي الى حوالي القرن الثاني عشر – وقال إنه نسي البقية . ووافق الشيخ محمد ان الجد الأول لقبيلة آل مره هو علي ابن مره (الملقب بعلي الكاثر) وأعرب عن اعتقاده ايضاً ان آل عجمان لا ينحدرون من عم شقيق علي بل من مرزوق ابن علي .

مثير(١)

ان قبيلة مثير من ابرز قبائل الجزيرة العربية ولهم تقاليد رائعة . وتنقسم هذه القبيلة الى ثلاثة أقسام : آل دوشان وهم الحاكمون في القبيلة ، وآل علوه ، وآل بريج(٢) . ويمتد هؤلاء من الكويت في الشمال الى حزام الدهانه الرملي في الجنوب ويلتزمون الجانب الشرقي من الباطن ويتجنبون بلاد العجمان والعوازم . وكانت مراعيهم دائماً في الاماكن المجاورة للكويت . وهم يهتمون بصورة خاصة بتربية الجمال والخيول . وقد اشتهروا في الحروب بقدرتهم على شن هجمات مفاجئة من قواعد بعيدة .

(١) مطير
(٢) بريه
(٣) الدهنا

٤ وطبان
عائلة آل دويش
درشان
فيصل
عبدالله
عمار
محمد
عماش
وثبان
شقير
الحميدي
محمد
ماجد
محمد
سلطان
فرع آل وثبان
فرعا آل شقير وآل فهد
فرع آل ماجد
فرع آل محمد
فرع آل سلطان
فرع آل عماش

فرع آل سلطان

سلطان

- مزيونه (انثى)
  زوجة عبدالله
  من فرع آل ماجد
- فيصل
  زوجته عمشا
  بنت محمد
  من فرع آل محمد
  - هسا (انثى) [1]
    زوجة هزا [2] ابن بدر
    من فرع آل محمد
  - بندر
    زوجته الثالثة
    الجازي بنت محمد
    الحزام آل مذلان
  - عبد العزيز
    يعرف باسم عزيّز
    مات عطشا في معركة [3]
    ام الرضما سنة ١٩٢٩
- غاليه (انثى)
  زوجة فيصل
  من فرع آل ماجد
- وضحى (انثى)
  زوجة بدر
  من فرع آل محمد
- محمد
- بندر

عمشا
هزاع
م/مهنا

وينقسم الدوشان الى عدة اقسام ولكنها كلهـــا فروع من عائلة الدويش . وهذه الاقسام مع رؤسائها هي كما يلي :

آل عماش	—	محمد ابن عماش آل دويش .
آل سلطان	—	بندر ابن فيصل بن سلطان آل دويش .
آل محمد	—	محمد ابن بدر آل دويش .
آل ماجد	—	عبد العزيز ابن عبدالله الماجد آل دويش .
آل شقير	—	تراحيب ابن بندر الشقير آل دويش .
آل فهد	—	ماجد الاسقى آل دويش .
آل وثبان	—	محمد ابن بندر الوثبان آل دويش.

وعلى الصفحة ٨٦ يرى القارىء النسب المشترك لهذه الفروع .

وشيخ الدوشان الاعلى وشيخ جميع مطير هو اليوم بندر ابن فيصل ابن سلطان آل دويش وهو ابن فيصل آل دويش الشهير . وهؤلاء من فرع آل سلطان كما يبدو على الصفحة ٨٧ . وقد تزاوج آل دوشان مع عائلة آل جبعه .

أما فيما يتعلق بالفروع الآخرى فيظهر ذلك من الانساب الواردة في هـــذه الصفحة والصفحات التالية والتي حذفت منها الاسماء التي لا علاقة لهـا بالبحث وهذه الانساب ذات فائدة للالمام بالاحداث التي سنسجلها .

فرع آل عماش

فيحه
زوجة عبد العزيز ابن عبدالله
من فرع آل ماجد

عمشا
زوجة هزا ابن بدر من فرع
آل محمد ، زوجة سعود
ابن مزيد من فرع آل ماجد
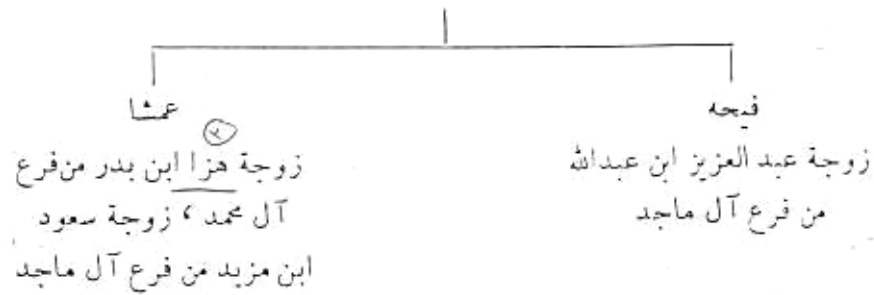
فرع آل محمد
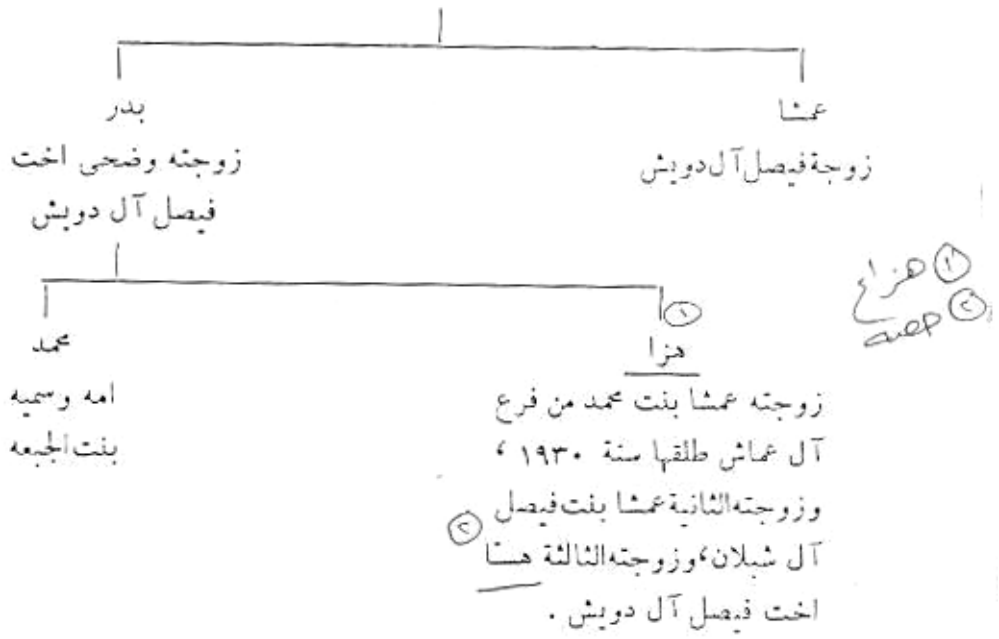
فرع آل ماجد

فرعا آل شقير وآل فهد
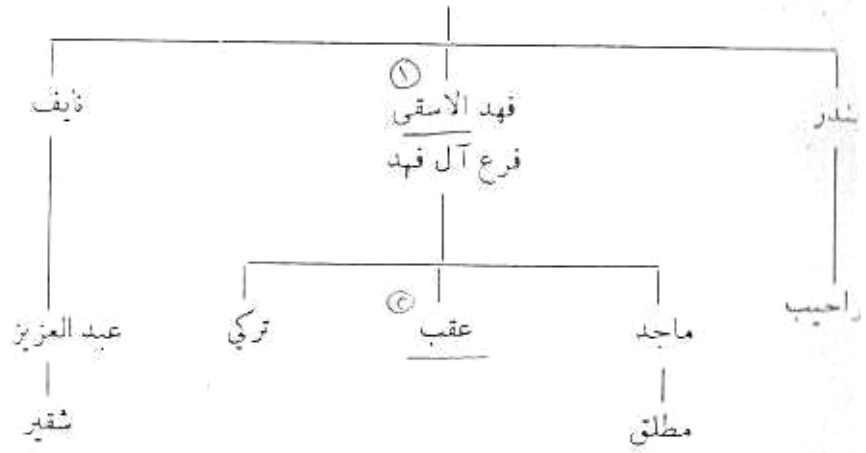
فرع آل وثبان
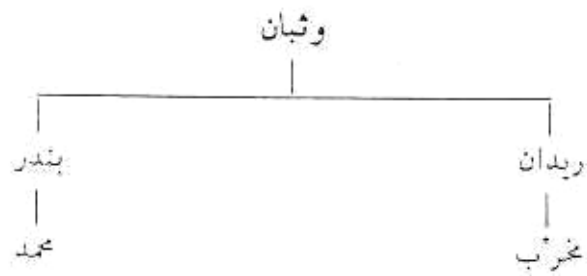
أما الجماعة الثانية من مثير آل علوه فينقسمون الى الفروع التالية :

ال مواهه

شيخهم الأعلى بنـــدر آل دويش ويتفرع عنهم آل رخمان (شيخهم ابن جريان) .

آل سحبه

شيخهم الأعلى جفران الفقم ويتفرع عنهم آل ضاوعون الذين اعتقد انهم في الأصل من بني عبدالله. وابن جبرين هو شيخ الضاوعون مع ان البدو يدعون ان غيره احق منه بالزعامة.

آل جيلان

شيخهم الأعلى سهود ابن لامي ويتفرع عنهم آل لحايه (او يحيى) وكان شيخهم فيصل آل شبلان احد زعماء ثورة الاخوان على ابن سعود سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠. وبعد موته اصبح ابن أخيه المدعو مسيار شيخاً على لحايه.

اما الجماعة الثالثة من مطير، آل بريج، فتتفرع عنهم ثلاثة فروع: أولاد واصل (شيخهم ابن عشوان)، وأولاد علي، وبني عبدالله.

ويشترك أولاد واصل بنفس الأرض مع اغلبية مطير، ولكن أولاد علي فيقطنون الى الجنوب والغرب من حزام الدهانه الرملي وخاصة في قسيم ونحو الحجاز بينما ينحصر بنو عبد الله في داخل نجد.

ومن فروع اولاد واصل: آل دياهين وشيخهم الأعلى أباد المسترقي، وآل برزان وشيخهم الأعلى ابن شويربات. وقد احدثت هذه العائلة المرموقة مشاكل كثيرة في أيامها. وتعتقد قبائل شمال شرق الجزيرة العربية ان انجع دواء لداء الكلب هو كأس من دم برزاني ولذلك فان افراد هذا الفرع من مطير مطاردون من أولئك الذين عضتهم الكلاب المسعورة والذئاب. ومن الفروع المعروفة ايضاً آل شعران وشيخهم ابن بسيس، وآل مسامح وشيخهم سلطان ابن مهيلب. وهنالك فرع من بني عبدالله يدعون آل ميمون فيهم عدة اشخاص يدعون المشيخة.

وهنالك اثنتان من القبائل غير الشريفة في مطير هي الرشايده وشيخهم آسي ابن مسيلم الذي توفي سنة ١٩٥٤ وأولاد عمهم آل هرشان، تدينان بالولاء للكويت.

سلالة آل الرشيد
الحكام السابقون لحايل وجبل شمر
علي
رشيد
عبدالله
الأمير الأول سنة ١٨٣٥
عبيد
حمود
محمد (الكبير)
الأمير الخامس
قتل بندر الأمير
الرابع . توفي ١٨٩٧
متعب
الأمير الثالث
قتله بندر ونايف اولاداخيه طلال
طلال
الأمير الثاني سممه ابن
سعود ولم يمت ولكنه لما
يئس من الشفاء قتل نفسه سنة ١٨٦٧
سعود
الأمير التاسع
قتل محمد سعود الأمير
العاشر في ايلول ١٩٠٨
سلطان
الامير الثامن
قتله أخوه سعود
في كانون الثاني ١٩٠٨
عبد العزيز
الامير السادس قتل صدفة
عندماصادف جيش ابن سعود
ليلا سنة ١٩٠٦
نايف
طلال
قتل الامير الثامن
سلطان ابن حمود
بندر
الامير الرابع
طعن سنة ١٨٧٢
محمد سعود
الامير العاشر
قتله عبدالله ابن
طلال سنة ١٩٢٠
متعب
الامير السابع قتله
سلطان ابن حمود الامير الثامن
سنة ١٩٠٦ أو ١٩٠٧
عبدالله
الامير الحادي عشر
تولى سنة ١٩٢٥
وهرب الى الرياض سنة
١٩٢١ حيث توفي سنة ١٩٤٧
محمد
الامير الثاني عشر
تولى سنة ١٩٢١
عبدالله
قتل محمد سعود الأمير العاشر
فقتله فوراً محمد عبد سعود

أهل نجران

هكذا يدعى سكان مقاطعة نجران في جنوب غرب الجزيرة العربية . وقد كانوا في السابق تحت حكم امام اليمن ولكنهم اليوم تابعون للملك سعود عاهل المملكة السعودية .

قحطان

وهي قبيلة من الأشراف في جنوب غرب الجزيرة العربية تنحدر منها عن طريق آل شمر عائلة آل رشيد الملكية التي كانت تحكم حايل وجبل شمر . وتتفرع عائلة جبعه ايضاً من قحطان . وقد سكن هؤلاء منذ وقت طويل مع الدوشان (من مطير) وتزاوجوا معهم وزعيمهم اليوم هو محمد ابن مطلق الجبعه .

قواسم

قبيلة من الأشراف على سواحل عمان .

آل رشايده

وهم قبيلة من غير الأشراف في مطير يدينون بالولاء لشيخ الكويت . ومنهم كثيرون يعملون في تدريب الصقور او البزاة للصيد الخاصة بالبلاط الملكي . بينما يعمل قسم آخر منهم فداويه . ويتفرع الرشايده الى ١٥ فرعاً وهم متحالفون مع أولاد عمهم آل هرشان .

آل رشيد

وهم الحكام السابقون في حايل وجبل شمر وينحدرون من فرع آل جعفر المنحدر من آل عبده من قبيلة شمر . وقبل نشوء أميرهم الأول عبدالله ابن رشيد ، كانت عائلة ابن علي — من فرع آل جعفر ايضاً — هي الحاكمة في حايل باسم آل سعود الذين كانوا يسيطرون على وسط الجزيرة العربية . واليوم فان محمد آل

رشيد الأمير الثاني عشر رهينة في بلاط الملك سعود .

آل رشيد

قبيلة صغيرة في جنوب الجزيرة العربية لا علاقة لها بآل رشيد في حايل .

آل صباح

لقد اتينا على التفاصيل فيما يتعلق باصل هذه العائلة الحاكمة في الكويت اليوم ، في الفصل الأول من الكتاب . وسنلحق في آخر الكتاب شجرة لهـــذه العائلة لاطلاع القارىء وقد حذفت منها الأسماء التي لا علاقة لها بالبحث .

سهول

قبيلة من الاشراف تتصل بقبيـلة سبيع وديرتها في الاحساء ووسط الجزيرة العربية .

سيّار

قبيلة تسكن داخل حضرموت في جنـــوب الجزيرة العربية . وقد اخبرني صديقي محمد ابن سالم ابن دراهم المري ان قبيلة سيار من أسوأ القبائـل في الغزو ولكنهم يخافون من آل مره .

آل سعود

حكام المملكة العربيــة السعودية وكانوا في القرن الخامس عشر امراء ضرعيه عاصمة نجد القديمة . وهم ينتمون إلى قبيلة المساليخ في عنيزه التي هي نفسها فرع من ولد علي في عرب نجد وينحدرون من اسماعيل عبر عدوان . وبناء على ما يقوله آل سعود فانهم ينحدرون من بني بكر وائل عبر مهنا ابن ربيـــعه ملك نجـد والاحساء وعمان في القرن الخامس عشر . وسننشر شجرة نسبهم في

آخر الكتاب لاطـــلاع القارىء . وعند توفي الملك عبد العزيز آل سعود في ٩ تشرين الثـاني سنة ١٩٥٣ خلفه ابنه الأكبر سعود ، واعلن ابنه الثاني فيصل ولياً للعهد ورئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع .

سبيع

قبيلة من الاشراف في الاحساء ووسط الجزيرة العربية (راجع بني كعب) .

شمر

قبيلة من الاشراف في الجزء الشمالي من وسط الجزيرة العربية حـــول حايل وجبل شمر ويدينون اليوم بالولاء للملك السعودية . وهم ثلاثة فروع : آل عبده ، وآل أسلم ، وآل سنجاره . وينحدر بيت آل رشيد الملكي من آل عبده من قحطان . وفروع آل شمر الثـلاثة ينحدرون من قحطان ولكن الشيخ ضيدان ابن عقلة وهو الشيخ الأعلى في آل زعب اخبرني ان آل عبده فقط يحق لهم التظاهر بهذا الانتساب .

آل سديري

عائلة مرموقة في نجد . وسنذكر تـــأثيرها على إدارة الحـــكم السعودي في شجرة نسبهم على الصفحة التالية .

صلبّه

مرشدون وصيادون مهرة ولكنهم يقـــال عنهم انهم ينحدرون من بقايا الصليبيين ، ويحتقرهم البـــدو في الصحراء كثيراً . وهم أقرب الى مجتمع منهم إلى قبيلة وهم يقيمون بمجموعات سكنية ثابتـــة خارج أسوار المدن كالكويت وزبير . ونساؤهم لا يتقنعن ولا يضعن الملفع على الجزء الأسفل من الوجه .
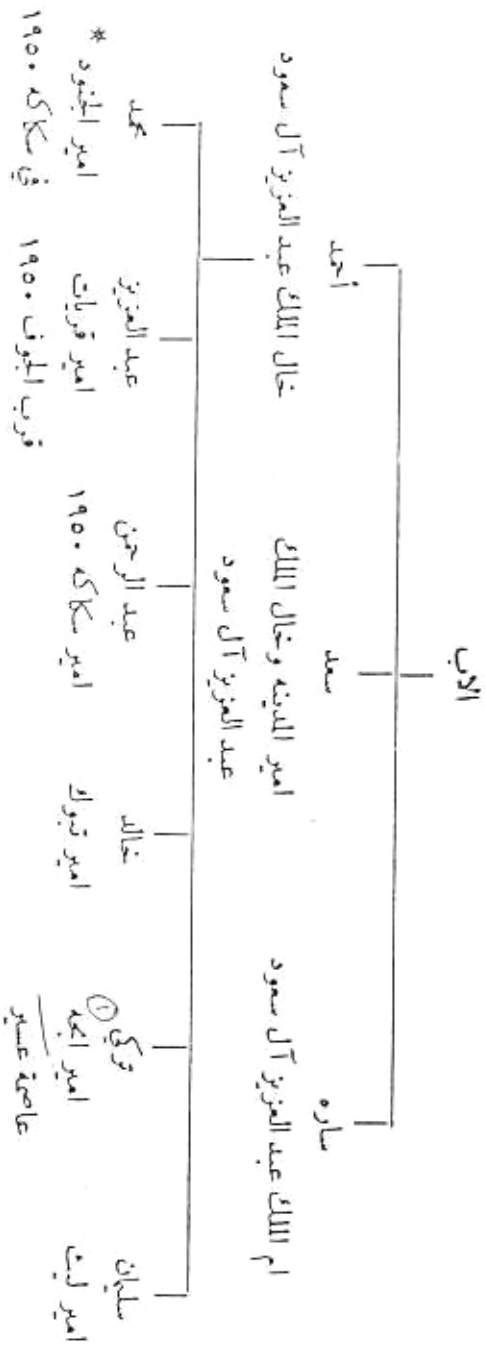
* امير الجنود هو قائد فرقة الهجانة المتمركزة في سكاكه قرب الجوف لحماية خط انابيب التابلاين الممتدة من الاحساء الى صيدا في لبنان .

عتيبه

قبيلة من الاشراف في الجزء الغربي من وسط الجزيرة العربية . وتنقسم هذه القبيلة إلى فرعين : آل حميد وآل روقه . وكانت قبيلة عمار في وقت من الأوقات فرعاً قوياً من عتيبه .

آل زعب (وعدوان)

قبيلة صغيرة من الاشراف ليس لها موطن محدد وهي شقيقة قبيلة صغيرة أخرى تدعى عدوان . وهاتان القبيلتان دائماً ترحلان معاً وتقيمان معاً ، واخبرني الشيخ ضيدان بن عقد من كبار شيوخ آل زعب في الاحساء ان عدوان ، وهي القسم الأقل شأناً اليوم ، كانت قبيلة عظيمة في زمن الرسول ﷺ وكانوا يستطيعون تجنيد الف خيال عدا عن الهجانة . وهم قبيلة من اشراف العرب المستعربة (من نسل اسماعيل) .

اما اليوم فان آل زعب منتشرون في كل مكان ويستطيع المرء ان يجد منهم ٢٠ او ٣٠ خيمة بين كل قبيلة تقريباً في الجزيرة العربية . وهم لا يستطيعون الاتحاد لأن لعنة الرسول حلت عليهم بسبب ضبط أحدهم وهو يسرق حذاء الرسول .

واشتهرت نساء آل زعب بجمالهن الخلاب وقد روى لي الشيخ ضيدان مثلاً قديماً يقول : لا تتزوج امرأة من زعب ولا تركب جملاً عمانياً ، فالاولى تفسد بيتك والثانية تفسدك .

القسم الثاني

لا يقدم القوم الا خيارها

* الاحداث التاريخية التي سردها المؤلف في هذا الفصل تحتاج الى مراجعة فهي كثيرة الخلط
أما الاسماء فقد تم تعديلها

الفصل الرابع

نشوء وانهيار الوهابية *

١٧٤٢-١٨٩٣

① العيينة
② العارض
③ يحتاج تعليق

في حوالي نهاية القرن السابع عشر ، انقسمت نجد والجزيرة العربية عموماً ، باستثناء عمان واليمن والحجاز ، الى مقاطعات ومدن مستقلة يحكم كل واحدة منها أحد زعماء القبائل بحماية البدو. أما الدين فقد نسي ، إلا باشكاله البدائية ، بين أهل المدن وانتهى من الوجود عملياً بين رجال القبائل .

ويقول ويليام بلغريف في أحد كتبه عن الجزيرة العربية : ولا تزال الطقوس الدينية والخرافات المتصلة اتصالاً وثيقاً بالصابئية ، كعبادة الشمس والقمر والنجوم ، كما كان الحال قبل الاسلام ، تجد من يفضلها ، بينما اصبح الطهور ومراسم الزواج المقدسة شيئاً ميتاً . ①

وفي سنة ١٦٩١ ولد في مدينة عيانه ② في جنوب العريض احدى مقاطعات نجد ، شخص يدعى محمد ابن عبد الوهاب . وكان والده من قبيلة تميم التي كانت يقودها بيت ابن علي وسيطرت على كل جبل شمر في ذلك الوقت . ③

وعندما بلغ محمد سن الرشد بدأ يتعاطى التجارة كما يفعل معظم شبان نجد

الى اليوم . وكانت رحلته التجاريـــة الأولى الى البصره فبغداد . وبالنتيجة الى دمشق حيث التقى بعدد من علماء الدين المتزمتين وكانوا من السنة وبعضهم يدين ، مثله ، بالمذهب الحنبلي وبعضهم الآخر بالمذهب الشافعي .

وكان هؤلاء العلماء يعارضون المفكرين غير الملتزمين في الشمال ، ويعارضون الخرافات التي يمارسها الدراويش وما شابه ذلك ، ويعارضون كل مـــا ادخله الفرس والاتراك من افكار الى الشرق العربي .

[ويقال ان محمد ابن عبد الوهاب زار البنجاب في الهند قبل ان يتوجـه الى البصره ، وهناك التقى بؤسس الجماعة التي تميـل الى الحرب والقتال ، السيخ . ولكن هذه الرواية مشكوك بصحتها .]

وبعد ان اكمل محمد ابن عبـــد الوهاب دروساً في الشرع بدمشق ، حج الى مكة والمدينة وعاد بعد ذلك الى موطنه نجد حيث تزوج وأقـــام في قريـــة حريلاما قرب ضارعيه عاصمة نجد في ذلك الوقت. وهناك وفي عيانه بدأ تعاليمه . ومظاهر هذه التعاليم الاساسية هي :

١ — اعادة تركيز المعتقدات المحمدية كما وردت في القرآن ورفض كل مـــا عدا ذلك من المعتقدات والتقاليد التي قبلها السنة .

٢ — عدم الاعتراف بأي سلطة روحية للعثمانيـــين ، أو أي خليفة آخر ، وبأي احترام خاص يتوجب اداؤه لاشراف مكة (السادة الذين ينحدرون من الرسول) ، أو للقديسين والاولياء ، أو للدراويش وغيرهم من الاشخاص .

٣ — اعادة الانضباط في قضايا الصلاة والصوم والحج .

٤ — تحريم الخمر ، والتبـــغ ، والعاب القمار ، والسحر ، ولبس الذهب والفضة ، واقامة احجار تذكارية على قبور الأموات .

وكان محمد ابن عبد الوهاب يتمتع بحيوية جسدية وفكرية ، وساعدته تجربته في دمشق ، كما قال بلغريف ، على جمع آرائه وبوتقتها وتحديدها بوضوح . وقـــد كانت قبـــل ذلك في ذهنه بصورة مشوشة غير منتظمة . فقد تعلم ان يميز بين عناصر الاسلام الأساسية وبين ما طرأ عليها من بدع حديثة . وأخيراً وجـــد

نفسه بتلك الفكرة الأولية نقطة انطلاق الرسول وصحبه في الحجاز قبل اثني عشر قرناً .

وفي سنة ١٧٤٢ نجح محمد بن عبد الوهاب في اقناع وتحويل محمد ابن سعود حاكم العريض. وكان محمد ابن سعود ينتمي الى قبيلة المساليخ من عنيزه ، فلما اعتنق افكار محمد بن عبد الوهاب ، تبعه الكثيرون من سكان ضارعيه والمناطق المجاورة فأصبح رأس هذه الديانة المستصلحة ، وكما يدعي الوهابيون ، رأس الاسلام كله .

وبفضل توجيهات مجالس محمد بن عبد الوهاب ، والموجة الجديدة العارمة من التعاليم الجديدة ، استطاع محمد ابن سعود ان يبسط سلطانه على كل العريض ثم على القسم الأكبر من نجد ، فأصبح بذلك سنة ١٧٤٥ أول أمير وهابي في تلك المقاطعة . وكان اشد خصومه أهل الرياض الذين صمدوا طويلاً بقيادة الشيخ محمد ابن دوس تسانده ابن عراعر العائلة الحاكمة في قبيلة بني خالد الشريفة . وهؤلاء ـ أي بني خالد ـ يشبهون الى حد كبير آل السعدون في المنتفق الكبير بالعراق . فهم يملكون منطقتي الاحساء والقطيف . ومع انهم اجبروا على دفع الجزية ، فقد كانوا دائماً على عداء مع آل سعود ولا يزالون كذلك حتى اليوم .

وكان من اشد خصوم الوهابية ثنيان ابن سعود شقيق الأمير محمد الذي لا يزال نسله ينتمي الى معارضي الوهابية في العريض . ولكنه تجدر الاشارة هنا الى ان احمد ابن ثنيان رئيس هذا الفرع المعارض من آل سعود ، قام سنة ١٩١٩ بزيارة لندن مع فيصل ابن عبد العزيز آل سعود وضل الى يوم موته من أشد مؤيدي هذا الحاكم .

توفي محمد ابن سعود سنة ١٧٦٥ وخلفه ابنه عبد العزيز . اما محمد ابن عبد الوهاب فقد عاش عمراً طويلاً وتوفي سنة ١٧٨٧ .

علي باشا يهاجم الاحساء

وكان الأمير الثاني في نجد رجلاً قوياً طموحاً. فبعد أن أخضع نجد والاحساء

أخذ يتوسع بقوة السلاح شمالاً حتى البصرة والأراضي العراقية التي كانت تضم ثلاث ولايات عثمانية هي بغداد والبصرة والموصل وكانت تشكل جزءاً من الأمبراطورية العثمانية .

وقد افزعت هجمات عبدالعزيز على تلال سنجار قرب الموصل في شمال العراق الحكومة العثمانية بحيث انها جردت عليه حملة سنة ١٧٩٨ بقيادة علي باشا . وكانت هذه القوة التي سارت من بغداد الى الاحساء تضم اربعة أو خمسة آلاف من المشاة تدعمهم المدفعية ومفارز كبيرة من البدو الذين تم جمعهم من المنتفق والظافر[1] والقبائل الأخرى المعادية للوهابية . واستطاعت هذه القوة التي اتخذت طريقها على الساحل ان تخضع القسم الأكبر من الاحساء ولكنها فشلت في احتلال العاصمة المحصنة ، الهفوف .

وعندما اضطر علي باشا الى التراجع شمالاً اصطدم بقوات سعود ابن عبدالعزيز آل سعود (ابن الأمير) الذي كان مركزه قرب آبار ثبج[2] . ولم يكن هناك بد من وقوع معركة طاحنة بينهما ولكن وساطة البدو القاطنين هناك افلحت في تجنب وقوع المعركة بشرط ان يسمح لقوات علي باشا ان تعود الى البصرة دون ان يتعرض لها أحد . ونتيجة لذلك عاد سعود فاستولى على الاحساء وانزل العقاب بأولئك الذين خضعوا للأتراك .

وأسهم هذا الحادث اسهاماً كبيراً في انتشار الوهابية وامتدادها واخذت تنهال عليهم عروض الخضوع والولاء من كل جانب . ووجد الأمير عبدالعزيز انه من الحكمة ان يصالح بغداد فأرسل هدايا ثمينة وقطيعاً من الخيول الأصيلة كعربون لاسترضاء الوالي سليمان باشا .

ويظهر ان الأمير كان رجلاً محباً للسلام متواضعاً بسيط المظهر والعادات ومخلصاً أشد الاخلاص . ولكن ابنه سعود كان محارباً وهو الذي دفع بالوهابية الى التوسع والانتشار . وتجدر الملاحظة هنا كيف ان طباع هذا الأمير وابنه تنعكس تماماً في الأمير عبدالرحمن وابنه الملك الراحل عبدالعزيز آل سعود والد الملك الحالي .

واصبحت الوهابية دولة لها حكومة ثابتة وادارة مركزية ونظام للضرائب بدلاً من الجزية وجيش على أهبة الاستعداد بقيادة سعود .

وكانت هنالك، كما في الوقت الحاضر ، معارضة شديدة للوهابية في الصحراء حيث يتمسك البدو بتقاليدهم واستقلالهم. وزاد تلك المعارضة ضراماً الانضباط الديني الصارم الذي فرض عليهم .

فقسيم (1) وجبل شمر حيث تتركز حياة البداوة ، لم تقبلا المعتقدات الوهابية بحماس ، بينما قبلتها الاحساء بالاكراه لأن سكانها شعب عامل تربطه بالهند وبلاد فارس علاقات تجارية . ويبدو ان جنوب نجد وحده هو الذي أقبل على الوهابية بتعصب . وكان هذا التعصب قوة للوهابية وسبباً في انتشارها .

وفي سنة ١٧٩٩ حج سعود إلى مكة لأول مرة على رأس أربعة آلاف من اتباعه المسلحين . وقد تكرر هذا العمل سنة ١٨٠٠ . وحتى وقت قريب كان طريق الحج من بغداد والبحرين إلى مكة عبر نجد ممنوعاً على الشيعة الذين ينظر اليهم الوهابيون بأنهم كفرة لمعارضتهم السنة . وقد اثار ذلك شعور العداء للوهابية في العراق وايران حيث اغلبية السكان هم من الشيعة بحيث ان ايرانياً من كربلاء اقدم على اغتيال عبدالعزيز . ويقول الكولونيل روس المقيم البريطاني في بوشير في ذلك الوقت ان هذا الحادث وقع سنة ١٨٠٣ . ولكن آل سعود يقولون انه حدث سنة ١٨٠٠ . وهذا التاريخ اكثر انطباقاً على الواقع . ومثلاً على ذلك ، جردت حملة سنة ١٨٠١ على عمان بقيادة سليم (2) الحرق احد ضباط سعود . وفي نفس السنة زحف سعود نفسه على رأس عشرين الف رجل الى الفرات في ٢٩ نيسان وهاجم كربلاء ، وأعمل السيف في رقاب كل الذكور من سكانها ونبش قبر الحسين وعاد محملاً بالغنائم .

وكان نجاح هذا الهجوم ، باسم الاصلاح الديني ، على مدينة ضمن خراج السلطان ، مبعثاً للرعب والدهشة في جميع انحاء العالم الإسلامي .

وقد فرضت الجزية على جزر البحرين سنة ١٨٠٢ . وامتدت الوهابية على طول الشاطىء الشرقي الى الباطنة على خليج عمان . واعتنقت عدة قبائل عمانية

(1) القصيم
(2) سالم

المذهب الوهابي ودفعت الزكاة للأمير سعود . وبعض تلك القبائل وعلى رأسها القواسم ورأس الخيمه لا تزال على المذهب الوهابي الى اليوم .

وفي سنة ١٨٠٣ نشأ خلاف مع غالب شريف مكة . فزحف سعود الى الحجاز على رأس جيش قوي واحتل الطائف ودخل مكة في اول أيار فعزل غالب وعين مكانه شريفاً على مكة من اتباعه . ولم يظهر سعود في تلك الحملة بمظهر العدو بل بمظهر الحجاج ومنع جنوده من السلب والنهب والاعتداء .

والحادث الوحيد الذي سمح به وتميز بالعنف هو تحطيم بعض القبور الكبيرة في المدينة بحيث انهم هم أنفسهم قالوا : لم تعد هنالك أصنام في هذه المدينة الطاهرة .

وألغى سعود الضرائب والجمارك وحطم أدوات شرب التبغ ومساكن اولئك الذين يبيعون الحشيش والتبغ ، وأماكن الدعارة . وعاد بعد ذلك الى نجد حيث قبل خضوع كل وسط الجزيرة العربية بما في ذلك المدينة المنورة .

ويمكن اعتبار هذه المرحلة ذروة سيطرة الوهابية . فقد عم النظام وحكم القانون الجزيرة العربية باشراف حكومة مركزية . وعند عودته الى ضارعيه وعد سعود ، وشدد الوعد ، بحماية الارواح والممتلكات والتجارة في جميع أنحاء امارته . وقد استمرت هذه الحال عدة سنوات .

بدء العلاقات البريطانية ــ الكويتية

بدأت العلاقات بين بريطانيا والكويت سنة ١٧٧٥ أيام حكم الشيخ عبدالله والد مريم عندما كان الايرانيون يحاصرون البصرة ، فاضطر البريطانيون الى ارسال بريد الصحراء من الخليج الفارسي الى حلب من الكويت . وقد استمر هذا الوضع حتى سنة ١٧٧٩ .

وفي سنة ١٨٠٥ طلب الشيخ عبدالله وحاكم زباره ، الدولة الحديثة التي انشأها آل خليفه على الشاطىء الغربي لشبه جزيرة قطر عندما تركوا الكويت ، من البريطانيين ضمانات تكفل لهم ملجأ يتراجعون اليه في البحرين في حالة

انقطاع وتوتر العلاقات بينهم وبـــين الوهابيين الذين كانوا يمثلونهم والذين قـــد يجبرونهم على القيام بعمليات تعرقل التجارة البريطانية . ولكن هذه المقترحات لم تلاق ترحيباً .

وفي سنة ١٨٠٧ جرد سعود حملة ثانية على الفرات وحاصر مدينـــة النجف الاشرف المسّورة ولكنه فشل في دخولها فاضطر الى التراجع . وبعد سنتين من هذه الحملة جهز جيشاً قوامه ٣٠الف رجل ليهاجم به بغداد ولكنه صرف النظر عن هذه الخطة عندما وقعت اضطرابات في داخل نجد . وبدلاً من ذلك زحف الى الحج في مكة وعاد بطريق المدينة التي ضمها الى امبراطوريته .

وظلت قوات الوهابيين تحرز تقدماً في عمـــان . ويظهر ان اسمهم عرف في الهند لاقترانه باعمال القرصنة التي ارتكبت في المحيط الهندي . وهذا مـــا دفع البريطانيين بالاتفاق مع سلطان مسقط ، الى تجهيز حملة ضد معاقل قبيلتي رأس الخيمه والقواسم على مدخل الخليج الفارسي . وقـــد عرض على الشيخ عبدالله حاكم الكويت الاشتراك في هذه الحملة لكنه رفض . ونجحت الحملة وكان من نتائجها الزام القواسم بمعاهـدة تفرض عليهم احترام العلم البريطاني وممتلكات البريطانيين ومساعدة السفن البريطانية التي ترسو على شواطئهم .

وقد نقض القواسم الاتفاقية عدة مرات مما اضطر البريطانيين الى تجريد حملة عليهم سنة ١٨١٩ ادت الى هزيمة رأس الخيمه والى عقد سلسلة معاهدات جديدة مع القواسم وقبائل الساحل العماني . وظلت هذه المعاهدات سارية الى اليوم .

ولم تفت هذه العمليات البريطانية من عضد الوهـــابيين ، فتقدموا في السنة الثانية الى مطره على بعد عدة اميال من مسقط ومنها الى البحرين فاحتلوهـــا وعينوا عليها حاكماً عسكرياً يدعى ابن اهفيصان . ولا تزال القلعة التي بناهـــا قائمة الى اليوم ويستخدمها سمو الشيخ سلمان آل خليفه الحاكم الحالي مقراً رئيسياً للشرطة .

وبعد ذلك هاجم سعود العراق وفي سنة ١٨١١ وصل ابنه عبدالله في حملته الى ضواحي بغداد ، بينما هاجم قائده ابو نقطه ، وهو بالاصل عبـــد ، سورية

وفرض الفدية على دمشق . وقد انقذت المدينة بفضل التفاف بدو الشمال تحت قيادة ابن شعلان شيخ فرع الروله من قبيلة عنيزه الذي هزم ابو نقطه على العاصي مما دفع جيوش الوهابيين الى التراجع مرة ثانية الى نجد .

الاجراءات التركية ضد نجد

وبالرغم من ذلك كان من المحتمل ان تمتد امبراطورية الوهـــابين الى البحر المتوسط ويشتمل مذهب محمد بن عبد الوهاب الشعب العربي كله ، فاتضح الخطر على الدين الاسلامي الحنيف .

وقد ظهر الاتراك لأول مرة في الجزيرة العربية سنة ١٥٢٤ بعد ان فرغ السلطان سليم الاول من غزو مصر واغتصب الخلافة من العباسيين واحتل مكة والمدينة وضم اليمن الى ممتلكاتـــه . ولكن الاتراك لم يستطيعوا في وقت من الاوقات ادعاء ملكية تلك الأراضي من الجزيرة العربية الواقعة وراء المناطق المحيطة بالبحر الأحمر مباشرة . وفي القرن التالي دفعتهم الحركات الوطنية حتى من هناك فلم تتعد سيطرتهم على الجزيرة العربية طرق الحج من دمشق والقاهرة .

ولم يكف رعايا السلطان محمود الثاني عن تذكيره بان ادعاء اجداده من البيت العثماني للخلافة انما ارتكز على سيطرتهم على المدينتين المقدستين مكة والمدينـة . ونتيجة لحثه على استعادة هاتين المدينتين بالقوة ، عقد السلطان محمـود العزم على اتخاذ اجراءات خطيرة ضد نجد . ويمكن القول ان الأوضاع والمصالح المعقدة التي نشأت في أوروبا خـلال السنوات التي سبقت ذلك هي التي أخرت اتخـــاذ مثل هذا الاجراء الحاسم .

وممـــا ساعد الوهابيين على تحقيق نجاحاتهم غزوة نابليون بونابرت لمصر وما تبعها من تفكك في تنظيمات الامبراطورية التركية . وعندما آل الحكم في مصر الى ايدي عامل قوي هو محمد علي باشا ، ائتمنه السلطان على واجب معاقبـــة آل سعود .

وكان غياب جيوش سعود وانشغالها في الشمال ، الفرصة الذهبية أمام الجيش

المصري . فقد أرسل محمد علي باشا جيشاً قوامه ثمانية آلاف رجل الى الحجاز بقيادة ابنه طوسون باشا .

واحتل الجيش المصري مكة بدون مقاومة . ولكنه عندما توغل في الداخل التقى بجيش عبدالله آل سعود الذي هزم جيش طوسون في الصحراء وأفنى نصفه . ولم يجد القائد المصري بداً من التراجع إلى مكة وتحصينها بانتظار الامدادات من مصر .

وغضب محمد علي باشا لفشل ابنه فذهب بنفسه الى مكة سنة ١٨١٣ والقى القبض على شريف مكة لاعتقاده بأنه يساند الوهابيين وارسله رهينة إلى القاهرة . وفي ربيع سنة ١٨١٤ كلف طوسون باشا ثانية بقيادة حملة على نجد . فقابله الوهابيون بين الطائف وترابه وهزموه مرة ثانية .

وبينما كانت الاستعدادات تجري لتجهيز حملة جديدة ، توفي الأمير الوهابي الكبير سعود ابن عبد العزيز آل سعود في نيسان من تلك السنة . واعترف الوهابيون بابنه عبدالله خلفاً له دون معارضة .

وفي كانون الثاني سنة ١٨١٥ – السنة التي وقعت فيها معركة واترلو – انزل طوسون باشا بالجيش الوهابي أول هزيمة خطيرة . واغتنم القائد المصري الفرصة وتابع انتصاره فاحتل المدينة المنورة وتقدم الى قسم المقاطعة الشمالية من نجد حيث استولى على عاصمتها راس وبدأ يعد العدة من هناك للقيام بحملة جديدة .

وتراجع عبدالله آل سعود الى مدينة عنيزه . ومن هناك طلب فتح مفاوضات مع المصريين انتهت بخضوعه لطوسون باشا . وقد اثار ذلك دهشة الكثيرين لأن عبدالله كان لا يزال يملك جيشاً قوياً يستطيع المقاومة . وربما كان السبب في استسلامه انه شعر بأن مركزه في نجد مزعزع . فالمعروف عن أهل البادية انهم يخافون وان قاعدتهم التي لا تتغير هي اتباع الرجل القوي ولذلك خضعوا لحكم الوهابيين دون ان يقبلوا به بملء ارادتهم . وبعد ذلك انضم الكثيرون منهم إلى صفوف الاتراك بينما فقد سكان المدن من أهل نجد على اثر هزيمة سيدهم كل ثقة بامكانية الانتصار من جديد .

ومهما كان الأمر فقد قبل ابن سعود ان يتقيد بالشروط التالية :

١ – ان يعترف بالسلطان العثماني سيداً .

٢ – ان يقدم رهائن ضماناً لتصرفاته في المستقبل وان يكون هو مستعداً للمثول بنفسه في الآستانة اذا استدعي .

٣ – ان يسلم عاصمته ضارعيه الى حاكم يعينه السلطان .

٤ – ان يعيد الجوهرات التي سلبت من المدينة المنورة اثناء زيارة والده لها سنة ١٨٠٩ .

وبموجب هذه الشروط عقد الصلح بين عبدالله وطوسون باشا . واعطى عبدالله الرهائن المطلوبة لكنه لم يسلم عاصمته ضارعيه بل على العكس استعد للحصار . ولم ينقض محمد علي اتفاقية الصلح عندما علم ان عبدالله يرفض ان يذهب إلى مصر .

واستدعي طوسون إلى مصر وعين اخوه البالغ من العمر ٢٦ عاماً في ذلك الوقت قائداً للجيش في الجزيرة العربية مكانه . وتروى قصة طريفة فيما يتعلق بذلك .

يقال ان محمد علي عندما يئس من قدرة ابنه طوسون على الوصول إلى قلب نجد وتحطيم قوة الوهابيين إلى الأبد ، عقد اجتماعاً لهذا الغرض في منزله بالقاهرة.

وأخذ القادة العسكريون في هذا الاجتماع يشجعونه على المضي بالحملة ويتبارون بتبسيط امكانية النجاح كل واحد منهم يريد ان يكون هو قائد الحملة. وعندئذ طلب محمد علي بساطاً وتفاحة فاحضرا له . وبسط محمد علي البساط على الارض ووضع التفاحة في وسطه .

وقال محمد علي لقادته : والآن أيها السادة ان غزو نجد من الصعوبة بحيث انه يشبه هذه التفاحة وسط هذا البساط . فالرجل الذي يستطيع ان يمسك بالتفاحة دون ان يخطو خطوة واحدة على البساط هو الرجل الجدير بغزو نجد .

وتروي القصة كيف ان القادة عجزوا واحداً بعد الآخر في الامساك بالتفاحة محتجين على غرابة الامتحان . وعندئذ نهض الشاب ابراهيم وطلب ان

يجرب حظه . ورغب محمد علي ان يرى كيف سيحل ابنـه (أو ابنه بالتبني) ابراهيم المسألة التي بدت مستعصية الحل على القادة العسكريين ، فوافق . وهنـا امسك ابراهيم بطرف البساط وأخذ يلفه بيده بهدوء الى ان اصبحت التفاحة في متناول يده فامسك بها . وسر محمد علي بذكاء ابنه سروراً كبيراً بحيث انه عينه على الفور قائداً لجيوشه .

وغادر ابراهيم باشا مصر على رأس قوة كبيرة في ايلول سنة ١٨١٥ وتقـدم الى مواقع القتال . وكانت أول معركة بينه وبين النجديين في موّيه حيث هاجم عبدالله آل سعود الجيش المصري الذي انزل به هزيمة شنعاء اقـدم ابراهيم باشا على اثرها على قتل جميع الأسرى .

وتقدم ابراهيم باشا على رأس أربعة آلاف من المشاة وألف ومايتين من الخيالة الى جانب قوات من القبائل العربية الصديقة كبني خالد ومطير وحرب وسهول وسبيع ، الى مدينة راس التي كان قد اخلاها طوسون باشا فعاد اليها الوهابيون ووضعوا فيها حامية .

وواجه ابراهيم باشا وضعاً سيئاً وخطيراً أمام المدينة . فبعـد ان حاصرها لمدة ثلاثة اشهر ونصف فقد خلالها ثلاثة آلاف رجل ، تخلى عن الحصار وقبل الهدنة مع الوهابيين .

وبالرغم من ذلك ، اوهم ابراهيم باشا سكان المدينة بانهم لا يزالون محاصرين وتقدم خفية باتجاه الشرق نحو مدينة عنيزه فتراجع الأمير عبدالله منها جنـوباً الى مدينة بريده . وبعـد ستة ايام من القصف المتواصل انهارت قـلاع عنيزه واستسلمت فخضعت منطقة القسيم كلها على الأثر لابراهيم باشا . وتراجع عبدالله الى شقرا عاصمة مقاطعة وشم فاحتـل ابراهيم بريده وتوقف فيها شهرين لتعزيز الجيش وامداده .

وكانت سياسة ابراهيم باشا خلال هذه الفترة خطب ود النجديين المـوالين للوهابيين . ولم تغرب عن باله قصة البساط فبدأ يلف قبائـل نجد بتصرفاته الجريئة مكشوفة بحيث انه نال اعجابهم . فـأصدر اوامـر مشددة ضد اساء

معاملة سكان قسيم او نهب منازلهم . وكان يدفع ثمن مؤن الجيش نقداً وبسخاء .
وعلى الطريقة العربية ، أقام ابراهيم باشا مجالس دائمة لم يكن يسمح لزائره فيها ان يخرج خالي اليدين. فكان يقدم الهدايا للكبار والصغار كل حسب منزلته. وبذلك استطاع ان يستميل اليه اولئك الذين ظلوا مخلصين لآل سعود .

وبين أولئك الذين كسبهم ابراهيم باشا الى صفه ، فيصل آل درويش الشيخ الأعلى في مثير في ذلك الوقت الذي كان يضمر حقداً مزمناً لآل سعود فكان من السهل اقناعه بالانضمام الى ابراهيم باشا مع وعده بأنه سينصب حاكماً على نجد . ولم يكن في نية الباشا تنفيذ ذلك الوعد . ويقال ان آل سعود اقدموا فيما بعد على قتل فيصل لخيانته ، ويرجع ذلك العداوة المزمنة بين قبيلة مثير وعائلة آل سعود .

وبعد ان تلقى ابراهيم باشا في بريده امدادات من الرجال والبنادق والمؤن والذخيرة ، تابع زحفه إلى شقرا على رأس قوة نظامية قوامها اربعة آلاف وخمسماية رجل من الأتراك والألبانيين والمغاربة بالاضافة إلى مفارز عربية . ورافق الجيش عشرة آلاف جمل كان كل اثنين من المشاة يركبون واحداً منها . وفي هذه الاثناء عاد عبدالله آل سعود الى عاصمته ضارعيه تاركاً البلاد وراءه خراباً بعد ان أرسل قطعانه وماشيته الى الاحساء .

حدث ذلك في اواخر شهر كانون الأول سنة ١٨١٧ . وفي الشهر التالي ظهرت قوات ابراهيم باشا امام شقرا التي بدأ يقترب منها باشراف مهندس فرنسي يدعى فيسيير . واستسلمت شقرا في ٢٢ كانون الثاني فلم تهدر دماء افراد حاميتها ولكنهم جردوا من سلاحهم على ان يتعهدوا بأن لا يقاتلوا ثانية ضد القوات المصرية ــ التركية . وبعد عدة أشهر عندما سقطت ضارعيه أمر ابراهيم باشا بتهديم جميع أسوار وتحصينات شقرا .

وبدأ عبدالله آل سعود يحصن مدينة ضارعيه ويعدها للدفاع . وقبل أن يتبعه ابراهيم باشا اليها وجد انه من الأفضل أن يعرج عن الطريقة المباشرة وذلك لكي يحتل مدينة الضرما في طريقه . ولقي ابراهيم هناك مقاومة شديدة

مما أفقده عدداً كبيراً من رجاله . وانتقاماً لذلك أعمل السيف في رقاب سكانها من الذكور تاركاً نساءها تحت رحمة الجنود الاتراك القساة بعد ان دمرت المدينة ونهبت .

وبسبب الأمطار لم يستطع ابراهيم باشا ان يصل قبل آذار إلى ضارعيه التي حاصرها في نيسان بقوة مؤلفة من خمسة آلاف وخمسماية رجل من المشاة والخيالة واثني عشر مدفعاً . وبعد ذلك بوقت قصير وصلت مؤن من المدينة والبصرة الى المعسكر التركي .

ومضت مدة على عمليات الحصار لم تلاق القوات المصرية – التركية خلالها اي نجاح . وفي اواخر شهر ايار حدث انفجار افقد ابراهيم باشا ذخائره الاحتياطية الأمر الذي اوقعه في مأزق حرج، ولم ينقذ الجيش من الكارثة سوى شجاعة ابراهيم باشا التي لا تقهر . وكان الجنود يعانون من الامراض كالزحار (الديزانتري) والرمد . وفكر عبدالله ان يخرج بجنوده ويهاجم القوات المصرية في محاولة لفك الحصار ولكن المصريين ردوا هجومه وافقدوه الفرصة . وبعد ذلك بوقت قصير وصلت إلى المعسكر التركي قوافل جديدة محملة بالمؤن والذخائر تبعتها امدادات عسكرية من المشاة والخيالة . وفوق ذلك وصلت انباء مشجعة تعلن اقتراب خليل باشا قادماً من مصر على رأس فرقة من ثلاثة آلاف رجل .

وفي اوائل ايلول رفع عبدالله آل سعود الاعلام طالباً الهدنة لكي يتمكن من الاجتماع بابراهيم باشا . فوافق الباشا على ذلك واستقبل الزعيم الوهابي بالترحاب وابلغه ان الشرط الأول الذي لا مفر منه لعقد الصلح هو ذهابه شخصياً إلى القاهرة .

فطلب عبدالله آل سعود مهلة عشرين ساعة ليفكر بالامر فامهله إبراهيم . وبعد انتهاء المهلة عاد عبدالله إلى معسكر ابراهيم ليبلغه موافقته على الشروط التي فرضها بشرط ان يضمن له حياته . ويقال ان ابراهيم اجابه بأنه ليست لديه سلطة تلزم السلطان وعامله محمد علي ولكنه يعتقد انهما اكرم من أن يبخلا عليه بمثل هذا الطلب . ويعتقد عرب نجد إلى اليوم ان ابراهيم باشا اعطى عبدالله

وعداً قاطعاً بأنه لن يصاب بأي أذى .

وتوسل عبدالله إلى ابراهيم باشا ليحفظ حياة اتباعه وافراد عائلته فأجابه إلى طلبه وعقد الصلح .

وسار الأمير عبدالله السيء الحظ فوراً إلى القاهرة تحت حراسة مشددة . وعندما وصل استقبله محمد علي بحفاوة وسلمه إلى الآستانة مع استعطاف شديد بالعفو عنه . ولم يكن السلطان محمود ذا طبيعة سمحة . فطوف عبدالله آل سعود الأمير الرابع في نجد لمدة ثلاثة ايام في شوارع المدينة اعدم بعدها هو ورفقاؤه في الأمر في الساحات العامة .

وهكذا انتهت المرحلة الأولى من حكم الوهابيين في نجد .

نجد مقاطعة مصرية

وخلال السنوات الثلاث والعشرين التي تلت تـدمير ضارعيه ، ظلت نجد مقاطعة مصرية . احياناً يحتلها جنود مصريون وأحياناً تدفع الجزية . وأصبح مشاري (الأمير الخاص) شقيق عبدالله أميراً على نجد في ظل الحكم المصري .

وعندما ظهر ابراهيم باشا لأول مرة في نجد اكتسب عطف النـاس وثقتهم باستقامته ورجولته وتواضعه ، وخاصة في جبل شمر وقسيم والاحساء ، حيث استقبله الناس على انه منقذهم من النير الوهابي لا كمحتل اجنبي .

ولم يسبق لاواسط الجزيرة العربية ان شاهدت جيشاً تركياً من قبل . ولم يكن عرب الداخل ليضمروا لهم الشر والعداء اذا لم يتحدوهم ويسيئوا معاملتهم . فبعد مغادرة ابراهيم باشا بقليل استعدى الجنود الاتراك والالبانيون بشراستهم السكان ، وحدثت اول مذبحة سنة ١٨٢٢ عندما انقض السكان على الحـامية التركية في الرياض عاصمة نجد الجديدة (لان ضارعيه لم تبن من جديـد) . وتبعت تلك المذبحة انتفاضة ناجحة قام بها العرب سنة ١٨٢٣ و ١٨٢٤ بقيادة تركي بن عبدالله آل سعود ابن عم الامير مشاري الذي أعـاد سيادة العائلة في العريض[1] . واحتـل تركي الرياض وطرد منها القوات المصرية الباقيـة في نجد

فاعترفت به أغلبية قبائل وسط الجزيرة العربية أميراً عليها بدلاً من ابن عمه ، ليقود الحركة الشعبية ضد الاحتلال الاجنبي .

وظل تركي عشر سنوات (من ١٨٢٤ الى ١٨٣٤) يستجمع قواه في نجد والاحساء وحتى في عمان وعلى طول الشاطىء العربي من الخليج الفارسي الى رأس الحد ، وكلها اعترفت به وقدمت له خضوعها ودفعت الجزية . وفعل هو بدوره نفس الشيء بالنسبة للحكومة المصرية التي وافقت على تصرفاته في الجزيرة العربية .

وفي سنة ١٨٣٤ اغتاله مشاري ابن خالد الذي قتل في الحين على يد فيصل ابن تركي . وقاتل تركي هو ابن خالد بن سعود آل سعود شقيق الامير الخامس مشاري ، وأحد المطالبين بالعرش .

واعترف بفيصل أميراً خلفاً لوالده .

فيصل الكبير

وفي السنة التي تلت ارتقاء فيصل – الذي اصبح يعرف بالكبير – الى العرش ، أهمل أو رفض ان يدفع الجزية للمصريين . فارسل محمد علي باشا قوة بقيادة جميل بيه ليعزله وينصب خالد على العرش مكانه . وعندما اقتربت قوات جميل هرب فيصل الى الاحساء .

واغتصب خالد العرش بتأييد قسم من أهل الرياض وبمساندة خورشيد باشا الذي خلف جميل في القيادة المصرية . ولكن القائد المصري لم يلبث ان وضع خالد جانباً وأعاد تأسيس الحكم المصري في انحاء نجد . فاستسلم فيصل وأرسل سجيناً الى القاهرة .

ولم يدم الاحتلال المصري الثاني لنجد أكثر من سنتين استدعيت بعدها معظم القوات وترك خالد آل سعود والياً باسم الحكومة التركية .

وفي سنة ١٨٤٢ تزعم عبدالله بن ثنيان آل سعود ثورة ضد خالد وطرده من الرياض مع ما تبقى من القوات المصرية . وظل عبدالله حاكماً على نجد الى السنة

التالية عندما هرب فيصل من سجنه في القاهرة وظهر في العرض فاعترف بـه الجميع اميراً بدلاً من عبدالله .

ومنذ ذلك الوقت وحتى نهاية حكم فيصل الطويل الذي امتد احدى وثلاثين سنة لم تمارس الحكومة المصرية أو الحكومة التركية أي سلطة على نجد . وفي ايامه استعيدت جميع المناطق التي كانت تشكل الامبراطورية الوهابية . وجبل شمر الذي استعاد استقلاله بزعامة عائلة ابن علي من بني تميم اثناء غزوة ابراهيم باشا ، انضم ثانية الى الدولة الوهابية . فقد نصب عبدالله ابن رشيد من فرع عبده في قبيلة شمر نفسه في حايل أميراً على كل شمر بمساندة فيصل لقاء جزية معينة . ولم تفشل قوات فيصل إلا في البحرين التي كان شيوخها يتلقون التأييد والمساعدة من الانكليز .

وفي آخر سني حياته اصبح فيصل كفيف البصر فانتقلت ادارة شؤون الدولة الى ابنه البكر عبدالله الذي عرف بتعصبه وتهوره وقساوته فجمع حوله البدو الذين لهم نفس ارائه وأخذ يجهز نفسه للدخول في جولة ثالثة مع الاتراك .

وبعد وفاة فيصل سنة ١٨٦٥ دب الانقسام من جديد في الدولة الوهابية بعد ان استجمعت قوتها السابقة في عهده .

وكان عبدالله الامير الحادي عشر وهابياً شديد التعصب بينما كان شقيقه الاصغر سعود منفتحاً ذا افكار متحررة ، قومية أكثر منها دينية . فوضع كل منهما نفسه على رأس فريق : عبدالله على رأس الحضر أو أهل المدن في العريض ، وسعود على رأس أهل البادية في الصحراء . أما شقيقهما الثالث محمد فقد انحاز إلى عبدالله . ولمدة من الزمن أقتسم عبدالله وسعود تركة فيصل بينهما تماماً كما حدث لمنتفق الكبير في العراق عندما قسم الى قسمين اثر وفاة ناصر باشا آل سعدون .

ومن الطبيعي في مثل هذه الحالات ان يصطدم الشقيقان . ففي سنة ١٨٧١ اضطر سعود شقيقه عبدالله الى الهرب من العريض ونصب نفسه اميراً اوحد هناك . فاصبح جبل شمر وقسيم منطقتين مستقلتين ورفضت الاحساء ان

تدفع الجزية .

وجمع عبدالله عدداً من أتباعه وشق طريقه الى حايل حيث كان متعب ابن عبدالله آل رشيد الأمير الثالث في شمر هو الحاكم هناك ، فأحسن وفادته . ومن حايل اتصل عبدالله بمدحت باشا حاكم العراق العام في بغداد .

الاحتلال التركي الثالث

وقبل ان ندخل في تفاصيل المرحلة الأخيرة من الاغتصاب التركي للجزيرة العربية يجب ان نذكر لمحة مقتضبة عن نظرة سلاطين بني عثمان الى الجزيرة العربية .

إن حملة ابراهيم باشا سنة ١٨١٥ لم تكن تأكيداً لحق السيادة وإنما عملا انتقامياً وردا على فئة معادية . وعندما قضي على الحكم الوهابي لم يبدر أي اهتمام للاحتفاظ بنجد كجزء من ممتلكات الامبراطورية . ففي ذلك الوقت كان سلاطين بني عثمان ينشغلون بأوضاعهم في اوروبا بحيث انهم لم تخطر لهم احلام الغزو والتوسع في آسيا ، وكانوا من الناحية العسكرية اضعف من ان يخوضوا حروباً ليست ضرورية .

ولكن في نهاية حرب القرم سنة ١٨٥٦ أعاد الأتراك تنظيم جيشهم وتجهيزه بأحدث الأسلحة وذلك بفضل القروض والمساعدات البريطانية .

ووجد السلطان عبدالعزيز الذي حكم تركيا من سنة ١٨٦١ الى سنة ١٨٧٦ نفسه يملك قوة لم يسبق لها مثيل ، فقرر أولاً اخضاع المناطق النائية من الأمبراطورية التي تمردت على حكمه ، وثانياً – وهو الغزو الأسهل بنظره – اخضاع القبائل على حدوده .

وبدأ بإعادة اخضاع سورية وكردستان الى سلطانه ، واحتل منطقتي وادي دجلة ووادي الفرات اللتين كانتا تتمتعان بالاستقلال بصورة عملية منذ أيام تيمورلنك (١٣٣٦ – ١٤٠٥) ، وأعاد العراق الى النظام الأمبراطوري التركي بما في ذلك الضرائب والتجنيد .

وبعد شق قناة السويس اصبحت الجزيرة العربية التي لم يكن يمكن اقتحامها إلا من البر ، في متناول القسطنطينية (الاستانة) من جهة البحر .

وهذا الاحساس بالقوة المتزايدة وبوجود جيش منظم مجهز ، أعاد الى ذاكرة الحكومة العثمانية احلام الفتح والتوسع . وتذكر السلطان عبد العزيز انه وريث الخلافة العربية الأمر الذي بنى عليه ادعاءه لملكية الجزيرة العربية . فضاعف عدد حامياته في مكة والحجاز ، وجرد حملة على اليمن ، وعين مدحت باشا الرجل الشديد الطموح حاكماً عاماً في بغداد وأطلق يده في بسط نفوذ السلطان بأي اتجاه يراه مناسباً .

وجاء طلب عبدالله آل سعود مواتياً لمدحت باشا فاستجاب له ، وأصدر قراراً بوضع نجد كلها تحت راية السلطان وتعيين عبدالله آل سعود قائمقاماً عليها . وأعلن ايضاً أن قوة تركية سترسل الى هناك لإعادة الأمن والنظام وتثبيت سلطان القائمقام الجديد ضد أخيه المتمرد .

وبالرغم من معارضة حكومة الهند التي كانت دائماً تلح على وجوب احلال السلام في منطقة الخليج الفارسي الأمر الذي وافق عليه جميع زعماء القبائل العربية في الخليج بما في ذلك اهل الاحساء والحكومة الوهابية ، فقد أرسل مدحت باشا حملة بطريق البحر من البصرة الى الاحساء قوامها خمسة آلاف جندي نظامي بقيادة حافظ باشا . ووصلت الحملة الى القطيف في حزيران سنة ١٨٧١ .

وفي هذه الأثناء عاد عبدالله آل سعود الى نجد وجمع انصاره ، وبالاتفاق مع قبيلة قحطان هاجم شقيقه سعود من الغرب . وهزم عبدالله في هذه الموقعة فلجأ الى المعسكر التركي .

ووقع انقسام في الرياض مما اضطر سعود ان يقاتل عبدالله ابن تركي آل سعود نجل الأمير السادس ، فهزم وأجبر على التراجع الى قطر .

واحتل الأتراك ساحل الاحساء كله ومدينة الهفوف واتصلوا بعبدالله ابن تركي الذي عين مديراً للرياض بانتظار وصول عبدالله ابن فيصل .

وقبل نهاية السنة أعلن مدحت باشا انه بناء على عريضة قدمها اهل نجد الى

السلطان ، فإن عائلة آل سعود ستخلع من الحكم وسيعين مكانها حاكم تركي .

وعين حافظ باشا متصرفاً على نجد . وعندما وجد عبدالله نفسه في هـذا الوضع هرب من المعسكر التركي الى الرياض .

وبعث رؤوف باشا الذي خلف مدحت باشا في بغـداد يفاوض سعود سنة ١٨٧٢ ويحثه على إرسال شقيقه الأصغر عبـدالرحمن ابن فيصل آل سعود الى بغداد ليحتفظ به رهينة . وفي السنة ذاتهـا عاد سعود الى الرياض وطرد شقيقه عبدالله منها مرة ثانيـة . وتراجع عبـدالله الى الكويت تاركاً سعود سيداً في الرياض .

وسحبت القوات التركية من الاحساء سنة ١٨٧٣ ، بعـد ان عين بازي ابن عراعير الخالد شيخ قبيلة بني خالد المعروفة بعدائها التقليدي لآل سعود ، حاكماً على المنطقة تاركين معه ضابطيه (اي حامية صغيرة) من الشرطة .

وفي سنة ١٨٧٤ اطلق سراح عبدالرحمن آل سعود من سجنه في بغداد فجاء الى الاحساء واشعل الثورة . وانضمت اليـه قبائل آل مره وعجمان وبني هاجر فسار بهم الى الهفوف حيث حاصر بازي والحامية التركية التي قتل معظم رجالها. عندئذ أرسل الوالي التركي في بغداد فيلقاً نظامياً بطريق البحر بقيادة ناصر باشا آل سعدون والي البصرة والشيخ الأعلى في المنتفق الكبير ، وقوة كبيرة من عرب المنتفق اتجهت الى الهفوف براً .

ولما علم عبدالرحمن بقدوم ناصر باشا تراجع الى الرياض . وتوجه ناصر الى الهفوف ففك الحصار عن الحامية المتمركزة في إحدى القلاع وترك جنوده يعملون في المدينة نهباً وتخريباً . وظل الجنود الأتراك ومساعديهم عدة أيام يرتكبون المجازر والاضطهاد في سكان المدينـة الى ان احتج الضباط الأتراك الى ناصر باشا الذي أجابهم ان اجراءات مشددة يجب ان تتخذ للعبرة .

وبعد هذا الحادث بقليل توفي سعود في الرياض ويقال إنـه مات مسموماً . وفي سنة ١٨٧٥ عـاد عبدالله الى نجد حيث وجد الحكم في يـد شقيقه الأصغر عبدالرحمن . وبعد نزاع بين الأخوين توصلا الى اتفاق يكون عبدالله بموجبه أميراً

ويصبح عبدالرحمن الوزير الأول .

وفي سنة ١٨٧٣ اصبح مدحت باشا الوزير الاكبر في الباب العالي وكانت له اليد الطولى في عزل السلطان عبد العزيز في ٣٠ ايار سنـــة ١٨٧٦ . وبعد ذلك بخمسة أيام انتحر عبد العزيز بان شق ذراعيه بالمقص. وخلفه في ٣١ آب من السنة نفسها السلطان مراد الخامس الذي أعلن انه مجنون فخلفه في اليوم التالي شقيقه السلطان عبد الحميد الثاني .

وانجب عبد الرحمن آل سعود اول ولد حوالي سنة ١٨٨٠ (التاريخ الصحيح غير مؤكد) اسماه عبد العزيز واسمه الكامل عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، الذي أصبح يعرف في ايامنـا هـــذه بالملك ابن سعود والد الملك الحالي .

وفي سنة ١٨٨١ اتهم السلطان عبد الحميد الثـــاني وزيره مدحت باشا بقتل السلطان عبد العزيز، فقدمه للمحاكمة وصدر عليه الحكم بالاعدام في ٢٨حزيران. وبعد تدخل بريطانيا والدول الاوروبية نقض حكم الاعدام ، ونفي مدحت باشا الى الطائف قرب مكة حيث ظل سجينـاً الى ان توفي بحادث عنف في السادس من نيسان سنة ١٨٨٣ .

آل رشيد يسيطرون على الجزيرة

كان عبـــدالله ابن فيصل آل سعود اميراً على نجد بالاسم فقط . فسلطته لم تتعد حدود اسوار الرياض او منطقة العريض على أبعـد حد . وتوفي في الرياض في اواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٨٨٩ . وبعد ذلك بسنتين استولى عبدالرحمن على العاصمة فحاصره فيها محمد آل رشيد . وبعد اربعين يوماً ارسل عبد الرحمن أخاه الاصغر محمـد ابن فيصل آل سعود ليفاوض ابن رشيد حـــول شروط الاستسلام .

وأرسل عبد الرحمن واولاده الاربعة وبقية أفراد عائلته الى المنفى في البحرين. في سنة ١٨٩٣ طلب من الشيخ محمد الصباح ان يسمح له بالانتقال الى الكويت

فقبل . وانتقل الامير السعودي مع عائلته الى الكويت . اما شقيقه محمد الذي لم يبرز كثيراً إلا كوسيط في الخلافات العائلية وفي الصراع مع آل رشيد فقد توفي سنة ١٨٩٤ دون ان يعلن ذلك .

وقد كتبت الليدي آن بلانت التي رافقت زوجها في رحلاتها بآسيا وافريقيا تقول :

يمكن بكل تأكيد القول ان سلطة آل سعود في الجزيرة العربية قد انتقلت الى آل رشيد في حايل . ان كل شخص يفكر تفكيراً وطنياً حقيقياً ويشعر شعوراً صادقاً التف حول محمد آل رشيد امير حايل وجبل شمر العظيم .

ان ممثلي عائلة آل سعود اصبحوا مجرد دمى وأدوات اما الحكام الرشيديون فقد تسلموا زمام المسؤولية في غالبية المستوطنين في قسيم وسدير والعريض ووشم .

الفصل الخامس

قصص وروايات جدّي

كان جدي الأكبر جون ديكسون طبيباً جراحاً في البحرية الملكية وشهد مع نلسون معركتي كوبنهاغن وترافلغار . وبعد الحروب النابليونية أقام في طرابلس حيث اصبح كبير الاطباء في مقر الباشا العثماني هناك (منصب الباشا في طرابلس كان وراثياً) . وتزوج من اليزابيت الابنة الوحيدة للسير ارشيبالد دالزل القائد والحاكم العام للقلاع الساحلية في الكاب .

ولد جدي ادوارد دالزل ديكسون في طرابلس ، بربري ، في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨١٥ . وبعد سلسلة من المغامرات قضى حوالي ٦٠ سنة في القسطنطينية عمل خلالها ضابطاً في الفرقة الطبية في الجيش التركي وقضى القسم الاكبر من هذه السنوات طبيب السفارة البريطانية هناك . وخلال تلك الفترة كان ايضاً الطبيب الخاص لثلاثة من السلاطين هم : عبد المجيد ، وعبد العزيز ، ومراد الخامس . وانتهى كرئيس لأطباء السفارة البريطانية ، وكرئيس للهيئة الدولية للاطباء التي كان مركزها في العاصمة التركية . وظل في هذا المنصب الى ان تقاعد وخلد إلى الراحة في القسطنطينية .

وتزوج جدي ثلاث مرات . كانت زوجته الأولى لويزا بوينا باري وارنغتون وهي جدتي . ولدت في طرابلس وتوفيت هناك . وكان والدها الكولونيل هانمر

وارنغتون قنصلاً عاماً في طرابلس لعدة سنوات . وهو ينحدر من سلالة تريفور تيودور المعروف باللورد هير فورد سليل عائلة تيودور المالكة .

لقد ذكرت كل ذلك للاشارة إلى ان تاريخ اجدادي يمت بصلة إلى شمـال افريقيا ، إلى العرب والاتراك ، مما ترك اثراً في حياة والدي وفي حياتي أنا .

وقضى والدي معظم حياته في الخدمة القنصلية في الشرق وخاصة في سورية التي كانت تشمل لبنان وفلسطين في ذلك الوقت .

اما انا فقد ولدت في بـيروت في الرابع من شباط سنة ١٨٨١ وقضيت أيام صباي في دمشق والقدس حيث كان والدي يخبرنا عن مغامرات جدي والاحداث التي مرت في حياته .

ولم اقابل جدي إلا مرة واحـدة وكان ذلك سنة ١٨٩٩ عندما كان والدي قنصلاً عاماً لبريطانيا في القدس التي كان يحتلها الاتراك . وعندما انهيت دروسي في كلية سانت ادوارد باوكسفورد ذهبت في رحلة الى القدس برفقة ابنة خالتي هيـلدا مالتبي ، لكي اشاهد والدي وشقيقتي قبل ان ادخل كلية وادهام في اوكسفورد . وقد ابدى جدي رغبة ملحة في مشاهدة حفيده الوحيـد . فقر الرأي على ان احضر إلى مرسيليا ومن هناك بحراً الى القسطنطينية ثم إلى القدس . وتولى والدي أمر ترتيب الرحلة التي كنت اترقبها بشوق بالغ . وصرت اتطلع بشغف لمقابلة جـدي ذلك الرجـل الشهير الذي طالما سمعت عن مغامراته . ومن المؤسف حقاً انه لم يكتب قصة حياته .

ووصلت انا وهيلدا الى القسطنطينية حيث لاقانا جدي ونزلنا ضيوفـاً عليه في منزله في بيرا . وكان المنزل قديماً ولكنه فخم الأثاث . وكان جدي أشيب الشعر يلبس نظارتين . وقد رحبت بنا زوجته الثالثة وهي سيدة يونانية تدعى ايرين تبلغ الثلاثين من العمر . ولم تكن تعرف من الانكليزية إلا القليل ولذلـك كانت التركية هي لغة المنزل .

وكان عثمان غازي باشا الذي اشتهر بدفاعه البطولي عن قلعة بلفنا خـلال الحرب التركية — الروسية الثـانية ، صديقاً حميماً لجدي . وقد تداول عثمان

باشا الطعام مرتين معنا خلال الاسبوع الذي قضيته في القسطنطينية . ولقد كان اعجابي شديداً بالباشا المسن عندما كان يتحدث لجدي وينقل جدي الحديث اليّ بدوره . وعلمت ايضاً ان جدي اشترك في ذلك الحصار وشهد تسليم عثمان غازي باشا للقيصر نقولا الاول قيصر روسيا . ولكن بما انه كان طبيباً للسفارة البريطانية سنة ١٨٧٦ عندما اقدم السلطان عبد العزيز على الانتحار فانه من الصعب تصديق هذه الرواية ما لم تكن السفارة البريطانية قد امرته بمرافقة جيش عثمان الى بلفنا . ولكنه من المؤكد ان صداقته مع عثمان نشأت في ذلك الوقت .

وسواء كان حاضراً المعركة ام لا فان وصفه لها كان مدهشاً . اعلنت روسيا الحرب على تركيا في ٢٤ نيسان سنة ١٨٧٧ . وقد وضع عثمان غازي باشا نفسه على رأس جيش قوامه اربعون الف رجل في قرية بلفنا التي تقع على خط مواصلات الجيش الروسي عبر رومانيا في تقدمه نحو القسطنطينية الامر الذي جعل من المستحيل على القيصر نقولا ان يتابع سيره ما لم يزل هذا التهديد التركي . وظل عثمان يرد الهجوم تلو الهجوم طوال اربعة أشهر ضد جيش يفوق جيشه بكثير ، مما اعطى فرنسا وبريطانيا الوقت الكافي لتخفا لنجدة الاتراك. وروى لي جدي كيف ان عثمان قام بمحاولة اخيرة لشق الحصار والخروج من طوق الاعداء ، وكيف استسلم في النهاية بتاريخ ١٠ كانون الأول سنة ١٨٧٧ . ومع انه كان مصابا بجرح بالغ فقد استسلم للقيصر نقولا شخصياً الذي رحب به واعاد اليه سيفه قائلا : لقد دافعت عن مواقعك دفاعاً بطولياً رائعاً وها أنا أعيد اليك سيف رجل شجاع .

وسررت كثيراً بما سمعت من أن الروس سمحوا لجدي ان يعتني بالجرحى الكثيرين بعد الاستسلام .

وقال عثمان باشا : تلك هي الأيام التي كان فيها الجنود الأتراك وخاصة الضباط منهم من النوع الجيد . اما اليوم فإنهم يذهبون الى برلين بالعشرات لدراسة الشؤون العسكرية ولكننا هل نجدهم وراءنا ؟ إني اتجرأ على الإجابة

بالنفي . انهم يتعاطون السكر والقمار وحياة اللهو . لقد فقدوا روح الولاء القديمة بين الضباط والجنود كما فقدوا روح الانضباط التي تميز بهـــا الجندي العثماني في السابق .

وهكذا تبين لي انـــه حتى في ايام جدي كانت هنالك انتقادات لمحاولات إدخال الأساليب الغربية إلى روح الشباب الشرقي .

وكل مساء من ذلك الأسبوع الذي قضيته في العاصمة التركية كان جدي يتحفنا بتلك القصص والذكريات والمغامرات . وقال انه لم يكتب قصة حياته لأنه لم يكن لديه الوقت الكافي . لذلك كان متلهفاً لإلقـــاء تلك الحكايات على مسامعي على أمل ان أدونها اعتقاداً منه بأنه لن يراني ثانية قبل موته .

وأبلغني انه بعد نيله شهادة الطب من لندن وادنبره ساورته الفكرة بأن يكتب بحثاً عن الرق في افريقيا . وكيف كان العبيد يجلبون من داخل القـارة ويباعون في أسواق تركيا ومصر وشمال افريقيـــا وآسيا الصغرى والجزيرة العربية . كان يريد ان يشتهر ويصنع لنفسه اسماً كبيراً في وقت كان العالم الغربي يستفيق سريعاً على بشاعة تجارة العبيد ، وكانت فكرة عتق العبيد تملأ الأجواء. ولذلك فقد عاد الى طرابلس بعد تخرجـــه بقصد الحصول على معلومات حول الموضوع من مصادرها رأساً :

ولكي يفعل ذلك انضم الى قافلة من تجار العبيد وعبر معهم الصحراء الكبرى التي لم تكن معروفة لدى الأوروبيين في ذلك الوقت . وبعد عـــدة شهور من الصعوبات والحرارة لا تطاق والعواصف الرملية الشديدة ، وصل جدي مع قافلة تجار العبيد الى بحيرة تشاد في اقاصي نيجيريا . واعتقد ان اسمه وارد في أرشيف وزارة المستعمرات على انه قام بهذه الرحلة الشاقة ، وانه التقى ببعض الموظفين البريطانيين على حدود البحيرة . ولكنني لست متأكداً من ذلك .

ومن بحيرة تشاد رافق جماعة اخرى من تجار العبيد الذين توغلوا في رحلتهم جنوباً إلى الكونغو وبلاد الأقزام . واخيراً ، وبعـــد ثلاث سنوات من السفر المتواصل عاد إلى شواطىء المحيط الهندي وشاهد في طريقـه شلالات زمبيزي

العظيمة. وخلال عودته انضم الى فرقة ثالثة من تجار العبيد تعمل باتجاه مومباسا. وقال انــه قطع القسم الأخير من رحلته الى السويس بحراً بزورق مكتظ بالعبيد للأسواق المصرية .

وابلغني بقوله : لقد حصلت على المعلومات التي اريدها ولكن بعـــد ثلاث سنوات من اقسى واعنف التجارب التي يمكن للانسان ان يتحملها . وقد جلبت معي رجلاً من الأقزام اصطحبته الى طرابلس .

حدث ذلك عدة سنوات قبل ان يعثر ستانلي على ليفينغستون في داخـــل افريقيا ويدهش العالم بقصته .

ويقول جدي : منذ ثلاثين عاماً وأنا ممتنع عن اطلاع العالم بانني كنت هناك وذلك لعدة أسباب أهمها تلك الاضطرابات التي صادفتهـــا في الشرق الاوسط وتركيا عندما عدت الى مصر وطرابلس .

ثارت مصر على تركيا وأعلن محمد علي باشا استقلاله وزحفت جيوشه بقيادة ابنه اللامع ابراهيم باشا . واستجابة لطلب السلطان محمود الثاني للمتطوعين توجه جدي الى القسطنطينية وانضم الى الفرقة الطبية في الجيش التركي . وبعد عــدة تقلبات وجد نفسه في اوائل سنة ١٨٣٩ تحت امرة حافظ باشا الذي كلفه السلطان بالتصدي لزحف ابراهيم باشا الناجح نحو القسطنطينية . وكان من اصدقاء جدي الاعزاء رفيقه في خيمته الضابط الالماني الشاب فون مولتكه .

وبضربات ماهرة استطاع ابراهيم باشا ان يحتل فلسطين ولبنان وسورية ، وأخذ يستجمع قواه في حلب للزحف شمالاً حين تصدى له الجيش التركي في نزيب بالقرب من الفرات على بعد ٧٠ ميلاً الى الشمال الشرقي من حلب .

وحسب ما قال لي جدي ان حافظ باشا لم يكن قائداً كفؤاً بالمرة وكان يؤمن بالتنجيم والتفاهات الاخرى ، فأخذ يقوم بمناورات ومناورات معاكسة الى وقت تحمل النجوم ، حسب زعمه ، اليــه حسن الحظ حتى يخوض المعركة . وقد أثار ذلك اشمئزاز الضباط الذين كانوا يعملون تحت امرته بحيث انهم توقعوا حدوث كارثة منذ البداية .

وجاءت النهاية سريعة . فبعد سلسلة من المناورات البارعة التي قام بها ابراهيم باشا الذي كان عدد جيشه نصف عدد الجيش التركي ، سدد القائد المصري ضربة خاطفة للجيش التركي وهزمه هزيمة نكراء في ٢٤ حزيران . ويقول جدي ان الذعر الذي حل بالجيش التركي لا يوصف اذ لم يعد من المستطاع تجميع الصفوف وتشكيل جبهة ثانية ، لأن كل الجيش لاذ بالفرار طلباً للنجاة .

وهرب جدي من الميدان مع فون مولتكه ولجأ الى قرية أرمنية . وأصيب فون مولتكه بحمى التيفوئيد فتولى جدي امر العناية به مدة طويلة حتى تماثل للشفاء . وفي سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ قاد الجيش الألماني الذي احتل فرنسا .

وفي رسائله إلى شقيقته اشار فون مولتكه إلى الطبيب الانكليزي الذي انقذ حياته . ولا زلت اذكر كيف كان جدي يضحك وهو يقول : ماذا كان يعطيني الفرنسيون لو تركت فون مولتكه يموت بعيداً عن أرمينيا التركية ؟

وتوفي السلطان محمود بعد هذه المعركة بستة أيام فخلفه عبد الحميد . وكانت الحالة تعيسة مزرية بحيث ان السلطان الجديد استنجد بفرنسا وبريطانيا وحتى روسيا لانقاذه من مصر . وقد استجابت فرنسا وبريطانيا بسرعة لنداء السلطان فانزلا قواتهما في بيروت ودمشق واوقفا زحف ابراهيم باشا . وقطعت القوات البريطانية والفرنسية خط مواصلات ابراهيم فقبل الشروط التي عرضت عليه وتراجع جنوباً إلى لبنان الذي ظل في حوزته مدة من الزمن .

تلك كانت الايام الشهيرة لليدي هستر ستانهوب ابنة شقيقة بيت (Pitt) التي آوت في منزلها بجون قرب بيت الدين عدداً من القوات والجنود الاتراك والالبانيين الذين لاذوا بالفرار بعد المعارك العنيفة في سورية ولبنان ، بالرغم من كل احتجاجات ابراهيم باشا .

وقد وصف جدي بالتفصيل انتحار السلطان عبد العزيز في سنة ١٨٧٦ ، كما وصف محاكمة مدحت باشا سنة ١٨٨١ الذي اتهمه عبد الحميد زوراً بقتل السلطان عبد العزيز . وكان جدي واحداً من سبعة عشر طبيباً الذين استدعوا لوضع تقرير عن وفاة السلطان عبد العزيز .

وسأنقل فيما يلي مقطعاً من كتاب « حياة مدحت باشا » بقلم ابنه علي حيدر مدحت :

واعطيت الأوامر لاقتحام غرفة عبد العزيز فوجدوا السلطان وسط بركة من الدماء الذي سالت من جرحين في ذراعيه . ومن الواضح ان الجرحين احدثا بواسطة مقص عثر عليه على الأرض بجانب الجثة . واكد الاطباء الذين استدعوا ان السلطان فقد الحياة بسبب النزيف الشديد . ولكن الوزراء ارعبتهم تلك المأساة فأمروا ان يعاد فحص الجسم من قبل جميع الاطباء الموجودين في القسطنطينية . وثم جمع سبعة عشر طبيباً من مختلف الجنسيات ، يعتبرون اشهر الاطباء في المدينة وفي سفارات الدول الكبرى . وقد وقع هؤلاء الاطباء بالاجماع تقريراً يقول ان الموت ناتج عن الانتحار بدون ادنى شك » .

وعندما طلب تقرير عن حالة السلطان مراد العقلية كان جدي واحداً من ستة أطباء استدعوا لمعاينته ، أربعة منهم من سفارات بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا . وبعد الفحص أعرب هؤلاء الاطباء عن اعتقادهم بأنه بالرغم من ان السلطان مراد ، يستطيع التماثل للشفاء بعد فترة طويلة من الزمن ، بعكس ما كان متوقعاً ، إلا ان قواه العقلية لن تعود إلى حالتها الطبيعية » .

وفي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليل ٦ نيسان ١٨٨٣ قتل مدحت باشا مع صديقه ورفيقه بالسجن في الطائف ، خنقاً وهما في الفراش بناء على أوامر مباشرة من السلطان عبد الحميد خليفة السلطان مراد إلى الميجر بكير من الفرقة الثالثة الذي تولى العملية بنفسه .

واخبرني جدي انه منذ ذلك الحين لم يعد يتعاطى بأي شيء مع السلطان عبد الحميد لأنه رجل سيء ويزداد سوءاً . وقبل ذلك كان جدي دائماً وباستمرار طبيب السلاطين الخاص . وفي عدة مناسبات كان يعود مدحت باشا ويطببه وكان من أعز أصدقائه .

هذه بعض القصص التي سمعتها من جدي ودونتها في وقتها . وقد توفي في ٢٧ آذار في السنة التالية .

الفصل السادس

نجد والكويت

١٨٩٦ - ١٩١٧

مبارك على عرش الكويت

قبل عبدالله ابن صباح آل صباح شيخ الكويت من سنة ١٨٦٦ حتى وفاته سنة ١٨٩٢ ، من الأتراك لقب قائمقام . وخلفه اخوه محمد وكان ضعيفاً غير راغب في معارضة الأتراك فسلم شؤون الحكم في مملكته الى رجـــل عراقي ذكي يدعى يوسف ابن عبدالله الابراهيم من الدوره على بعـد مسافة قصيرة من عبادان على الضفة اليمنى لشط العرب .

وكان يوسف رجلاً ثرياً موالياً للأتراك يقبض منهم راتباً بدون شك على أمل ان يأتي يوم يخلع فيـــه آل الصباح ويضع نفسه وعـائلته في مكانهم . ولم يكن جراح شقيق محمد افضل من أخيه بشيء بل كان اكثر منـــه تقاعساً . ولكن شقيقهما الأصغر (من والدهم فقط) كان ذكياً نشيطاً يحب بلاده حتى العبـــادة وآلمه ان يراها تسير الى خرابها .

وتحمل مبـارك كل تلك الأوضاع حتى سنة ١٨٩٦ . ففي شهر أيار من تلك السنة ذبح شقيقيه ونصب نفسه على العرش . وهرب يوسف الذي كان يعلم ان

الانقلاب كان موجهاً ضده شخصياً ، الى البصرة بطريق البحر وهناك بدأ يحيك الدسائس ضد مبارك بالاتفاق مع الأتراك .

وكان موقف الاتراك تجاه مبارك حيادياً في البداية . ولكنهم في سنة ١٨٩٧ وبناء على نصيحة يوسف الابراهيم عينوا مبارك قائمقاماً على الكويت . ولم تنطل الخدعة على مبارك لأنه علم انه خطوة للسيطرة على بلاده .

وفي شهر شباط أرسل الأتراك موظفاً صحياً من قبلهم الى الكويت . عندئذ طلب مبارك مقابلة المقيم البريطاني في الخليج الفارسي او من ينوب عنه . ووصل أحد مساعدي المقيم البريطاني الى الكويت في ايلول فأبلغه مبارك انه وشعبه يرغبون في وضع انفسهم تحت الحماية البريطانية تجنباً لاغتصاب الأتراك لبلادهم . ولم توافق الحكومة البريطانية على هذا الطلب ، فأعاد مبارك الكرة في السنة التالية ورفض البريطانيون من جديد .

وفي كانون الثاني سنة ١٨٩٩ وقّع مبارك اتفاقية مع الحكومة البريطانية تلزمه فيها وخلفاءه ان لا ينقلوا ملكية اي جزء من اراضيهم بدون موافقة الحكومة البريطانية التي ستأخذ على عاتقها ، مقابل ذلك ، حمايتهم وتأييدهم وحفظ مراكزهم طالما هم متقيدون بالاتفاقية .

وفي أيار من تلك السنة انشأ الشيخ مبارك نظاماً دائماً للجمارك وبدأ يتقاضى رسوماً فورية مقطوعة قدرها خمسة بالمئة على جميع البضائع المستوردة بما فيها تلك القادمة من الموانيء التركية . وعندما أرسل الأتراك أحد مديري الموانيء ومعه خمسة جنود ليتسلم ادارة ميناء الكويت ، رفض الشيخ مبارك ان يستقبلهم فعادوا الى البصرة . وفي أيار سنة ١٩٠٠ وافق الشيخ مبارك على منع استيراد او تصدير السلاح واصدر امراً بذلك . وكل سفينة كان يشك بأنها تحمل سلاحاً كانت تفتش ويصادر السلاح الذي تحمله اذا وجد .

وكان عبد الرحمن ابن فيصل آل سعود واولاده الأربعة لا يزالون في المنفى في الكويت في ذلك الوقت . ويعود الفضل الى الشيخ مبارك في تدريب عبد العزيز آل سعود وفي ميله نحو الانكليز .

وفي خريف عام ١٩٠٠ سار مبارك شوطاً بعيداً في تحقيق مصالح آل سعود بأن قام بغزوة مفاجئة الى قلب الجزيرة العربية حيث كان عبد العزيز آل رشيد الأمير السادس في حايل ، سيداً . وفي أوائل سنة ١٩٠١ اشتبك مع قوات آل رشيد في موقعة صريف قرب بريده . وهزم مبارك في تلك الموقعة وقتل اثنان من افراد اسرته هما شقيقه الأصغر حمود ابن صباح آل صباح ، وابن حمود الأكبر صباح .

وكان الوضع الذي نجم عن هذه الموقعة خطيراً بحيث ان مبارك أسرع مرة أخرى للاتصال بالمقيم البريطاني في الخليج الفارسي وطلب منه ان يبلغ الحكومة البريطانية رغبته في جعل الكويت محمية دائمة بأسرع وقت ممكن ولكن طلبه رفض من جديد .

ابن سعود يحتل الرياض

ووقع سنة ١٩٠٠ حادث أعاد عائلة آل سعود الى الحكم في نجد والجزيرة العربية . وكان الشاب عبد العزيز آل سعود وهو بعد في العشرين من عمره ، راغباً في إنشاء مملكة بمساعدة الشيخ مبارك ، فتوجه الى نجد مع ٤٠ رجلاً فقط من اتباعه بينهم شقيقه الاصغر محمد واولاد عمه عبد العزيز ابن جلوي آل سعود وعبد العزيز ابن مسعد آل سعود .

واستطاع عبد العزيز آل سعود ان يتجنب بنجاح قوة لآل رشيد جاءت تحاول اعتراضه في الباطن على بعد ٢٠٠ ميل الى الغرب من الكويت . ووصل عبد العزيز الى الرياض مع رجاله سراً واختبأوا بين بساتين النخيل لمدة يومين .

اما قصة استيلاء عبد العزيز على القلعة العظيمة وسط المدينة فتبدو وكأنها من الاساطير ، مما يدل على قوة شخصية هذا الرجل الخارق .

واكتشف عبد العزيز اثناء تخفيه بين أشجار النخيل ان لعجلان حاكم الرياض زوجة يسكنها منزلاً على بعد ٥٠ ياردة من القلعة عبر ساحة مكشوفة ، وكان يزورها كل يوم لمدة نصف ساعة بعد صلاة الصبح .

وبعد ان تأكد من ذلك دخل عبد العزيز بهدوء الى منزل السيدة عن السطح مع ٢٣ رجلاً تاركاً بقية رجاله الاربعين بين البساتين مؤكداً لهم ان كل شيء سيسير على ما يرام إذا هم لزموا الهدوء والصمت بانتظار الفجر .

[هذه القصة اكدها لي الملك عبد العزيز بنفسه في تشرين الأول سنة ١٩٣٧ . ولم يكن قد بقي في ذلك الوقت من الرجال الذين قاموا بهذه الغزوة سوى الملك عبد العزيز وشقيقه محمد وعبد العزيز ابن مسعد ورجل مسن من قبيلة عجمان]

وحسب عاداته ، خرج عجلان الحاكم من القلعة متوجهاً الى منزل زوجته . فانتظره عبد العزيز الى ان وصل الى منتصف الساحة بين القلعة والمنزل فهجم عليه مع رجاله الثلاثة والعشرين . وبدلاً من ان يبقى واقفاً في مكانه هرب عجلان عائداً الى القلعة يصرخ آمراً بفتح البوابة الجانبية له . ورماه عبد الله ابن جلوي بحربة صغيرة كان يحملها ولكنه اخطأه . واخترقت الحربة خشب البوابة وانكسرت ولا يزال مكانها ظاهراً حتى اليوم .

وفتحت البوابة الجانبية التي لم يكن ارتفاعها سوى قدمين وعلوها عن الارض قدمين ونصف فقط مما اتاح لعجلان الدخول الى القلعة ولمهاجميه كذلك . وأمسك عبد الله ابن جلوي عجلان من رجله واوقعه أرضاً داخل البوابة وقتله . وكان عبد العزيز يتبعهما فضرب رأس عجلان بسيفه وصرخ بأعلى صوته : من منكم الى جانبي ؟ ها قد عاد اميركم اليكم .

وظل رجال عبد العزيز يحرسون البوابة بينما دعا هو حامية القلعة الى الاستسلام ، فاستسلمت وتبعها أهل الرياض . ولم يتباطأ عبد العزيز في تعزيز دفاع المدينة . وعندما ظهرت قوات ابن رشيد امام المدينة بعد يومين ووجدتها منيعة اضطرت الى الانسحاب فظل عبد العزيز يطاردها حتى قسيم .

وانتشرت هذه الاخبار في نجد كالنار في الهشيم فاسرع الجميع الى اعلان ولائهم لآل سعود . وتنحى عبد الرحمن وكان في ذلك الوقت رجلاً مسناً وقبل بابنه عبد العزيز أميراً .

واخبرني أحد اشهر الرجال الثلاثة والعشرين الذين احتلوا القلعة ، في آذار

سنة ١٩٣٥ بقوله :

آه يا ابا سعود*، تلك كانت ايام عظيمة اجدر بالانسان ان يشهدها ولو خسر حياته . انني لا ازال ارى امام ناظري ابن سعود وهو يتهيأ للخروج من منزل زوجة عجلان على الجانب الآخر من الساحة . كان هادئاً بارد الاعصاب فرمى عقاله وربط كوفيته فوق رأسه وحول عنقه ثم طوى دشداشته وربطها في مؤخرة رقبته وهجم .

* [انني اكنى بابي سعود لأن ابني اسميته سعود عند ولادته بناء على طلب الملك عبد العزيز وتدعى زوجتي ايضاً أم سعود]

توثيق الروابط بين بريطانيا والكويت

وفي كانون الأول سنة ١٩٠١ وصلت الى الكويت بارجة تركية « زحف » ، وسامت الشيخ مبارك انذاراً طالبة منه اما أن يقبل بنزول فرقة عسكرية تركية في الكويت ، او ان يغادر عاصمته ويتقاعد في القسطنطينية . فأعطى مبارك جواباً مهذباً بالنفي انسحبت على اثره البارجة التركية .

وحوالي نهاية الشهر نفسه كان هنالك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن دسائس المحظي السابق يوسف ابن عبدالله آل ابراهيم أوشكت ان تعطي ثمارها . لأن كل الدلائل كانت تشير الى أن هجوماً من البر على الكويت كان يدبر وتشترك فيه قوة تركية من البصرة ، مع رجال قبائل شمر التابعين لعبد العزيز آل رشيد من حايل .

وأبدت القوات البحرية البريطانية في الخليج الفارسي على الفور استعدادها للاشتراك في الدفاع عن الكويت ، الأمر الذي اجبر ابن رشيد على التخلي عن خطته والانسحاب الى مواقعه في الصحراء . ولم يكن الاتراك راغبين في القتال لوحدهم فتراجعوا الى البصرة .

وكان اخطر هجوم مباشر يتعرض إليه مبارك هو ذاك الذي دبر لخريف عام ١٩٠٢ . ويقال ان الذي وضع الخطة هو يوسف ابن عبدالله آل ابراهيم .

وكان الغرض من هـــذه الخطة الاستيلاء على الكويت بهجوم صاعق سريع ، يقوم بـه ابن أخ مبارك حمود ابن جراح آل صباح الذي قتله مبارك عندمـــا استولى على العرش ، وقسم من قبيلة شريفات وغـيرهم من العرب في الدوره على شط العرب . وعلم القائد البريطاني بالحملة في الفـــاو في الثالث من كانون الأول فأسرع الى الكويت ليعطي الانذار فوجد المدينة واقفة على سلاحها .

وبدأ البحث عن العدو ولكن دون جدوى في البداية . ولكن في الخامس من كانون الأول اكتشف أن رجـــالاً مسلحين ينزلون في رأس العجوزه شرقي المدينة . وقامت السفن الحربية البريطانية بطاردة سفينتين تحملان ١٥٠ مسلحاً واشتبكت معهم في قتـــال عنيف تمكنت بعده من الاستيلاء عليها فوجدتها محملتين بالأسلحة والذخائر والمؤن والسلاح . وبعد هـــذه الموقعة لاذت زوارق أخرى مساعدة يبلغ عددها ١٥ بالفرار في خور عبدالله وتمكنت من النجاة .

وهكذا انتهى هذا التهديد بالغزو الى لا شيء كما انتهى من قبله في ايام مريم الجميلة وسالم الشجاع .

وتركز النفوذ البريطـــاني في الكويت على اثر الزيارة التي قام بهـــا اللورد كيرزون حـــاكم الهند للكويت في تشرين الثـــاني سنة ١٩٠٣ ، فتوطدت بذلك العلاقات الوديـــة بين الشيخ مبارك والحكومـــة البريطانية . وتم تعيين مقـيم سياسي بريطاني في الكويت في حزيران سنة ١٩٠٤ وتسلم هـــذا منصبه في شهر آب من السنة نفسها .

ووافق مبارك في سنة ١٩٠٧ ان يعطي الحكومة البريطانية قطعة ارض تبعد ميلين عن مدينة الكويت غرباً بـــين بندر الشويخ والمدينة بعقد ايجار مستمر لقاء ٦٠ الف روبية سنوياً .

وأراد البريطانيون تلك الأرض لتكون مرسى اميناً لسفنهم . ومن المشكوك فيه ان تكون تلك الخطوة رداً لمجابهة فكرة خط سكة حديـد برلين — بغداد المقترح الذي كان سيمتد إلى البصره والكويت عندما تسنح الفرصة . ولكن مما لا شك فيه ان تحصين الأرض المؤجرة وتحويل بندر الشويخ الى قاعدة بحريـــة

بريطانية او محطة للتموين ، كان سيضع السفن القــادمة إلى رأس كاظمه حيث كان من المقرر اقامة محطة سكة الحديــد الى الجهة الشمالية من الكويت ، ضمن مدى نيران المدفعية البريطانية .

وفي نفس الوقت اكدت الحكومة البريطانية للشيخ مبارك انها تعــترف بملكيته للكويت بحدودها الحاضرة له ولورثته من بعده ، وان كل التــدابير التي يتخذها كفرض الجمارك وغيرها تبقى في يده وفي ايدي ورثته من بعده ، وان الحكومة البريطانية لن تتقاضى رسوماً جمركية في المنطقة المؤجرة او في غيرها من الأراضي التي قد تستأجرها منه أو من ورثته . وكان للحكومة البريطانيــة الحق في ان تفسخ عقد الإيجار في أي وقت تشاء ، وقد فعلت ذلك سنة ١٩٢٢ عندما مات الخطر التركي – الألماني موتاً طبيعياً . وإذا ما اعاد التــاريخ نفسه ، كما يفعل احياناً ، فــان بريطانيا ستتذكر دون ريب الاخطار السابقة وستتخذ اجراءات وقائيــة بالاتفاق مع حليفتها الكويت .

احتلال قسيم

وبعد ان ضمن ابن سعود اعتراف جميع مقاطعات نجد الجنوبية به ، زحف سنة ١٩٠٤ الى قسيم . ومع ان قوة تركية بقيادة احمــد فيضي باشا ارسلت لمساندة ابن رشيد ، اضطرته الى التراجع مؤقتاً ، لكنه استطاع ان يكمل مهمته بنجاح سنة ١٩٠٦ بعد ان اضطر احمد فيضي الى التراجع الى المدينة . وقد عين ابن سعود شقيقه الاصغر سعد حاكماً في قسيم .

وقتل الامير عبد العزيز آل رشيد صدفة في نيسان سنة ١٩٠٦ عندما التقى ليلاً بجيش ابن سعود ، فخلفه ابنه الاكبر متعب . وتتضح حــالة الفوضى التي سادت في حايل على أثر هذه الحادثة من شجرة العائلة التي نشرناها في مكان سابق من هذا الكتاب .

وفي سنة ١٩٠٨ ارسى محمد سعود قواعد ثابتة لحكمه في حايل وظل يحكمها حتى سنة ١٩٢٠ حين اغتاله عبدالله ابن طلال آل رشيد .

وفي سنة ١٩١٠ واجه ابن سعود أخطاراً خارجية وداخلية . فقد قــام احفاد عمه سعود المعروفين بآل عرفه الذين يدعون الملك ، بثورة في الحرج وحريق . وفي نفس الوقت ظهر عبدالله ابن الحسين شريف مكة في قسيم واعداً بنصرة حقوق قبيلة عتيبه التي ادعى ان ابن سعود انتهكها .

وأودع عبدالله سعد آل سعود السجن ، ولكنه عندما وجد ان محمد سعود آل رشيد الذي اعتمد عليه لم يتعاون معه تراجع الى الحجاز ولكن بعد ان انتزع وعداً من ابن سعود بان يدفع هذا الاخير سنوياً الى خزائن مكة اربعة آلاف جنيه ، وان يسمح لقسيم ان تنتخب حاكمها .

ووعد ابن سعود ان يلبي هذين الشرطين ولكنه نكث بهما فوراً بحجــة ان عبدالله املاهما في وقت كانت الثورة تجتاح جنوب نجد ، مما اضطره للقبول .

وبعد مغادرة عبدالله صب ابن سعود كل اهتمامــه الى الحرج وحريق فاخمد الثورة هناك بقسوة وطارد الثوار من مدينة الى مدينة في نجد بحيث لم يبق منهم أحد . وصب ابن سعود جام غضبه ونقمته ايضاً على عتيبه لأنهــا استدعت عبدالله ونكل بها بحجة انها آوت الثوار الذين كان يطاردهم .

وبعد ذلك فرض ابن سعود الجزية على قسيم بالاخضاع والاكراه حينــاً وبالحنكة والدبلوماسية حينــاً آخر . ووضع قوة عسكرية في القلعة الشمالية الواقعة على الطريق الى جبل شمر حيث لا تزال حتى اليوم .

كنز اسرائيل

وبعد ان تخرجت من كلية وادهام في جامعة اكسفورد عينت في الفرقة الاولى في ايرلنده سنة ١٩٠٣ ، وبعد سنة نقلت الى الفرقة الثانية في الهنــد . وفي سنة ١٩٠٨ التحقت بالجيش الهندي .

وفي سنة ١٩١١ حصلت على اجازة ستة أشهر قررت ان اقضي نصفهـا في انكلترا والنصف الثاني مع امي وشقيقتي في القدس حيث ظلوا يقيمون بعد وفاة والدي سنة ١٩٠٦ . وقد دفن والدي في المقبرة الانكليزية على جبل صهيون .

وعندما وصلت الى عدن في طريقي الى انكلترا في اواسط نيسان سنة ١٩١١ وجدت امامي برقية من والدتي تحثني فيها ان اقطع رحلتي في بور سعيد واعود الى القدس ، لأن أموراً غريبة وبالغة الاهمية تحدث هناك قد يكون لها ابعد الأثر في حياتها وحياة شقيقتي .

وعملت حسب رغبة والدتي . فلما وصلت الى بور سعيد استقليت زورقاً مصرياً الى يافا ومن هناك توجهت بالقطار الى القدس . ووجدت العائلة بخير وكانوا يسكنون في منزل كان يشغله الاسقف الانجليكاني في القدس ويقع خارج مبنى القنصلية الروسية التي لا أزال أذكرها منذ طفولتي قبل ان اذهب إلى المدرسة في انكلترا .

وكانت مدينة القدس في حالة اضطراب وهيجان . فقد اقيمت المتاريس في جميع الشوارع الجانبية . وكان الجنود الاتراك في دوريات دائمة داخل المدينة القديمة بينا كانت الاستحكامات الرئيسية ليل نهار خارج اسوار المدينة التي بدت وكأنها في حالة حصار .

ولم يطل بي الوقت لاعرف كل شيء لأن والدتي كان لها أصدقاء كثيرون يرغبون في اطلاعي على ما يجري . ومن بين هؤلاء راهب انكليزي ، وكاهن يوناني كان يعلم شقيقتي اليونانية ، واحد رجال الدين المقيمين في كنيسة المسيح ، واسقف كاتدرائية القديس جورج ، والعاملين معه وعائلته . واخيراً وليس آخراً المدير المحلي لشركة توماس كوك واولاده ،الذي شمل امي وشقيقتي برعايته وعطفه في السنوات العصيبة التي تلت وفاة والدي .

واخبرني هؤلاء جميعهم ان السبب في كل هذه الأحداث هو الكابتن « ب » الذي لن اذكر اسمه لئلا يحدث ذلك بعض الأسى بالرغم من مرور زمن طويل على الحادث .

وقد عرض هذا الضابط مع اثنين من المغامرين البريطانيين خدماتهم وأموالهم على اديب فنلندي يدعى الدكتور والتر جوفيليوس ومساعده المهندس السويدي المدعو ميلاندر . وكان جوفيليوس وميلاندر يعتقدان انهما اكتشفا رموزاً سرية

في سفر حزقيال تبين موقع كنز اسرائيل الذي دفنه كهنة الهيكل قبـــل ان تسقط القدس في ايدي الغزاة البابليين سنة ٧٥٠ قبل الميلاد ، وادعيا ان الرموز التي اكتشفاها توضح طريقة ايجاد الكنز .

وادعى الرجلان انهما عثرا على رسالة سرية توضح مكان القبور الملكية لملوك اسرائيل ويهوذا وقبري داود وسليمان اللذين لم يعثر عليهما . ويقال ان الكـــنز يضم فلك نوح وسيف سليمان وعرشه والواح الشريعة وثلاثة آلاف قطعة ذهبيـــة وغيرها تساوي جميعها ما قيمته ٥٠ مليون جنيه .

وظل الباحثون عن الكنز يعملون طوال سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ دون ان يلفتوا الأنظار لان ابحاثهم كانت كلها خارج اسوار المدينة . والذين كانوا يعرفون ما يفعله هؤلاء كانوا يهزأون ويقولون انهم مجرد هواة وإذا ما عثروا على شيء فلن يستطيعوا الهرب به بسبب المراقبة التركية الشديدة .

ولما يئس هؤلاء المغامرون ، بعد ان انفقوا مبالغ طائلة ، فكروا بالسطو على مسجد عمر وهو مكان مقدس عند المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وعندما ضبط هؤلاء يحفرون نفقاً قديماً تحت قبة الصخرة نفسها كادت تحدث ثورة دينية يذهب ضحيتها المسيحيون واليهود وخاصة الرجال والنساء الانكليز لولا تدخل الاتراك وارسالهم قوة كبيرة للمحافظة على الأمن والنظام في القدس لا سيما وان ذلك صادف يوم عيد الفصح والعبور والنبي موسى في وقت واحد .

وقد هرب الكابتن « ب » ورفاقه الى يافا واستقلوا يختاً خاصاً بهم وتسللوا به ليلاً .

وبعد أن قضيت شهراً في القدس غادرتها لقضاء اجازتي في انكلترا .

الارسالية الأميركية ـــ العربية

انشأت الارسالية الاميركية – العربية فرعـاً لها في الكويت سنة ١٩٠٩ . والوصف الذي سأدرجه ادناه يعود الفضل فيه إلى الدكتـــورة السيدة ايليانور تايلور كالفرلي التي تعيش اليوم في هارتلاند بولاية كونكتيكت الأميركية ، وإلى

ناشري مجلة الاتحاد الطبي النسائي الاميركي التي ظهرت مقالة السيدة كالفرلي فيها في آب سنة ١٩٥٠ .

وقد كتبت السيدة كالفرلي تقول : كم اتـذكر الكويت بوضوح وقد رأيتها لأول مرة سنة ١٩١٢ . فقد رأيتها من الباخرة التي نقلتنا في رحـلة استغرقت يومين من البحرين شمالاً على شاطىء الجزيرة العربية الشرقي من الخليج الفارسي . وكنا ثلاثة مبشرين : الدكتور بول هاريسون وزوجي وانا . وبعد ان نجحنا بامتحانات السنة الثانية في اللغة العربية عينا في المركز الجديد للارسالية العربية. ووقفت اجول بنظري من على ظهر السفينة إلى أول بقعة ارض .. فرأيتها .

وفي الافق ظهرت مدينة في الصحراء منازلها واطئة بلون الرمال . وفوقها كانت السماء زرقاء صافية . وتحتها كانت مياه الخليج الفارسي الزرقـاء تحتضن السفن الشراعية . وعلى الشاطىء ترسو مجمـوعة من الزوارق تنتظر موسم صيد اللؤلؤ صناعة البـلاد الرئيسية في ذلك الوقت . وفي كل تلك الـلوحة لم تكن هنالك شجرة او بقعة خضراء . ومع ذلك فـان الكويت لها جمالها الخاص . جمال الرمال والسماء والبحر – في تلك المدينـة الصحراوية كنا سنعمل ونعيش لعدة سنوات مقبلة .

ونزلنا إلى الشاطىء ورحنا نمشي في طرق غير معبدة . كنا نحيد جانباً حتى تمر الجمال والحمير حاملة قرباً جلدية مليئة بماء الشرب لأن ماء المدينة مالح لا يشرب . والنساء الـلواتي صادفناهن كن محجبات من أعلى الرأس حتى أخمص القدم بالسواد . والرجال كانوا يلبسون الأثواب الطويلة تغطي رؤوسهم كوفيات متدلية وكأنهم صور الشيوخ الاجلاء في العهد القديم .

باب بني موصد في جدار متواصل من الطين كان هو مدخل البيت الذي سنقيم فيه ونستخدمه كمستشفى . وككل البيوت العربية لم تكن له نوافذ خارجيـة . وكانت غرفه تفتح على باحتين . واخترنا القسم الأكبر ليكون مقر عمل الدكتور هاريسون والغرفة القليلة الباقية احتفظنا بها كغرف نوم خاصة بنا جميعاً .

اما الباحة الصغرى فقد استخدمت كعيادة للنساء . وقسمنا إحدى الغرف

بستار من القماش فكان قسم مكتباً للطبيب والقسم الآخر غرفـــة للعمليات . وفرشنا أرض الغرفة المتبقية بالحصير لتكون غرفـة نوم المرضى ولم تكن فيها أسرة فالعرب معتادون ان يناموا على الأرض .

ولم يكن في الكويت مدارس طبية او نساء طبيبات بل كانت فيها قابلات وحلاقون ماهرون باستنزاف الدم والكي . وكان هنالك رجال ونساء يعرفون استخدام الاعشاب والعقاقير الأخرى . وفي اعتقادهم تنقسم الامراض إلى أربع فئات : ساخنة وباردة ، رطبة وجافة ، حسب النظام الاغريقي القديم . ولكن من يثق بهؤلاء « الانكليز » الاجانب فيضع نفسه تحت رحمتهم ؟

وقد جاءت إلى عيادتي عـــدة نساء اجرأ من الاخريات ولكنهن جميعاً كن يرمين الأدوية التي اعطيهن خوفاً من ان تكون سما .

وكانت ادوات التوليد جاهزة في حقيبة ولكنني عندما استدعيت اخـــيراً لتوليد امرأة ردوني عن الباب . فقد اقنعت القابلات المعاديات العائلة بعـــدم استقبالي .

وبالرغم من كل المعارضة والمضايقة اخذت عياداتنا تتسع تدريجياً . فأصبحت العمليات التي نجريها في العين من جراء التراخوما بالبنج الموضعي معروفة ورائجة .

وقد استطعنا إعادة النظر لامرأة بدوية من الصحراء بعملية تصحيح عدسة العين بحيث تتمكن من استقبال الأشعة الضوئية . ولكن اكثر عملية اعطتنا شهرة هي عملية فلانة التي كانت تشكو من كرة لحمية في بطنها بحجم البرتقالة . فجاءت الينا وسألتنا هل تستطيعون ازالتها دون ان تجعلوني أتألم ؟

وكانت لدينا ادوات جراحة كاملة . وقبل العملية كنا نعقد اجتماعاً للتشاور بغياب المريض . وكان مساعداي أم موظف سوري في الارسالية وشقيقته . وقد تعلمت الأم كيف تعطي الكلوروفورم « البنج » بواسطة التنفس . أما أنا والفتاة فكنا نغسل ايدينا لمدة عشر دقائق بالضبط ثم نبللها بمحلول مطهر .

وقد اعطيت تعليمات مشددة لمساعدتي ان لا تمس احدى الأدوات إلا بـأمر مني . وفي اليوم التالي جلس زوج فلانة خارج الباب ليتأكد ان احداً من الرجال

لن يدخل الغرفة فيرى وجه زوجته . وعندما انتهت العملية بنجاح انتشرت الاخبار في طول المدينة وعرضها . وتضخمت الاخبار حتى ان امرأة قالت : ماذا تظنون فعلت الطبيبة الانكليزية؟فتحت بطن فلانة واخرجت لها احشاءها التي اخذتها فغسلتها في البحر واعادتها إلى مكانها .

وسأعود في أماكن اخرى من الكتاب فأنقل بعض فقرات من مقالة السيدة كالفرلي . واكتفي في الوقت الحاضر بتسجيل الملاحظات القصيرة التالية عن الأمراض :

الجذام او البرص : هذا المرض لا وجود له تقريباً في الجزيرة العربية . وفي الكويت توجـد حالة او حالتان معروفتان . ولكنه اكثر انتشاراً في العراق حيث توجد مستعمرة للجذام ومستشفى في العماره على نهر دجلة كانت حتى وقت قصير تديرهما الارسالية الاميركية .

البرقه : وهذا المرض شائع بين المسنين من البدو وعلاجه الوحيد الحك بدهن الغنم الساخن . ولكن هناك طريقة تعطي نتائج أفضل فاذا انجبت امرأة توأمين لأول مرة وداست على ظهر المريض بكل ثقلها فانه يشفى لا سيما إذا ما اجرى هذا العلاج لمدة ثلاثة أيام متتالية . ففي تموز سنة ١٩٤٠ اجري لي هذا العلاج ونجح تقريباً .

الفالج : علاجه الوحيد هو الطبيب . ويقدر البدو ذلك . وتمنع النساء من الاقتراب من المريض .

حدود الدولة

ان مسألة وضع شيخ الكويت وحدوده كانت موضع مفاوضات بين الحكومة البريطانية والباب العالي سنة ١٩١٣ . ونتيجة لتلك المفاوضات وقعت اتفاقية بين الجانبين في ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ لكنها لم تصدق .

وبموجب هذه الاتفاقية اعترف باستقلال شيخ الكويت فوق مساحة من الأرض تشكل حدودها نصف دائرة مركزها مدينة الكويت ، ونهاية شعاعها من الشمال حيث يلتقي خور زبير بخور عبدالله ، ونهايته من الجنوب تلة قرين ،

هذا بالاضافة إلى جزر وربه ، وبيبان ، ومسكان ، وفيلكه ، وعوحه ، وكبر ، وقارو ، ومقطع ، وام المرادم ، والجزر الصغيرة الاخرى المجاورة .

واعترف لشيخ الكويت بانه سيد القبائل هناك وله الحق في فرض جزية على منطقة واسعة تبدأ حدودها من ضفة خور زبير الجنوبية حيث يلتقي بخور عبدالله ، مروراً بجنوب أم قصر ، وصفوان وجبل صنم فالى وادي الباطن . ومن هناك تنعطف الى الجنوب الغربي وتتبع وادي الباطن إلى آبار حفر الباطن حيث تنعطف إلى الجنوب الشرقي فتضم آبار صفا وقرعه وحبه ووبره وقربة انطا ، وتتصل بالبحر عند جبل منيفه .

ونشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فلم تصدق هذه الاتفاقية .

نشوء الاخوان

اجتاحت الجزيرة العربية بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٣١ حركة دينية عرفت بحركة الاخوان قال عنها بعضهم انها غضبة وهابية جديدة . وقد كتب وحاضر عن هذه الحركة مشاهير الكتاب في الجزيرة العربية مثل فيلبي ورايتر وفؤاد حمزه وامين الريحاني وحافظ وهبه وغيرهم .

والاحداث المتعلقة بهذه الحركة وخاصة ثورة الاخوان سنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ واندحارهم النهائي ، كانت بالنسبة لي ذات أهمية بالغة لأنني عشت على حدود الوهابيين عدة سنوات بدون انقطاع إلا لفترة قصيرة ، وتتبعت كل فصل من فصول هذه المأساة ، مستقياً كثيراً من المعرفة والمعلومات الداخلية الخاصة من بطل هذه الأحداث الملك عبد العزيز آل سعود ، ومن كثيرين من قادة الاخوان بعد ان اصبحوا ثواراً متمردين على ملكيهم ، وبذلك استطعت ان الم بجوانب القصة وخاصة فيما يتعلق بالثورة . ولا يمكن ان انسى افادات النساء الشجيعات زوجات قادة الاخوان اللواتي أنعمن علي وعلى زوجتي بثقتهن وصداقتهن .

وبالرغم من ان الكثير قد كتب عن قسوة الاخوان وفظاظتهم ، ولكن رأيي هو أن ذلك مبالغ فيه بقصد لكي يتلاءم مع الغايات السياسية في ذلك

الوقت .

ولا اخفي اني كنت معجباً بالاخوان. وربما كان ذلك تحيزاً مني لأنني كنت صديق عدد كبير منهم ، او قل هو جاذب عجيب عند هؤلاء الرجال المخلصين الذين يؤمنون بصدق بإله واحد ، او لأنهم كما يدعون جاءوا ليخلصوا الديانة من الشوائب الكثيرة التي التصقت بها .

واعترف انني عندما اتعرف على احد من الاخوان لم اكن لأجد فرقاً بينه وبين اي بدوي طيب في اي مكان آخر. انهم كغيرهم مولعون بنسائهم واطفالهم وجمالهم وخيولهم . ونساؤهم ، كغيرهن من النساء العربيات ، كن ذوات أخلاق طيبة .

ويمكن القول بصورة عامة ان « الاخوانية » هي احياء للوهابية . ولم تكن بأي حال من الأحوال هرطقة ولكنها حركة جمالية قامت بين مسلمي نجد وتهدف الى احياء المذهب السني الشافعي كما علمه الامام احمد الحنبلي (٧٨٠ — ٨٥٥) .

وقد بدأ هذه الحركة العالم المتدين الشيخ عبد الكريم المغربي الذي كان المعلم الأكبر للمرحوم فالح باشا السعدون شيخ المنتفق . واصبح بعد ذلك معلماً لمزعل باشا السعدون والد ابراهيم بك السعدون .

وعندما ترك الشيخ عبدالكريم خدمة مزعل باشا غادر العراق الى نجد حيث أظهر نفسه كمعلم ومصلح ديني فيمدينة ارناوية التي كانت وكراً صغيراً للوهابية .

ويحكى انه في سنة ١٨٩٩ ذهب مزعل باشا الى الحج في مكة وقرر العودة الى العراق عن طريق نجد لكي يتسنى له رؤية صديقه القديم الشيخ عبدالكريم . ولكن الشيخ عبد الكريم بدل ان يحسن استقباله كما كان يتوقع طرده وشتمه واتهمه بانه كافر ومشرك .

ومن بين قادة الاخوان الآخرين : عبدالله بن عبداللطيف بن عبد الوهاب ، قاضي الرياض وسليل مؤسس الوهابية ، والشيخ عيسى قاضي الاحساء .

انه من الصعب تحديد الوقت الذي نشأت فيه الحركة بالضبط . ولكن من

المؤكد ان كلمة اخوان بمدلولها الجديد لم تعرف قبل سنة ١٩١٢ . ومن المؤكد أيضاً ان الحركة لم تلعب اي دور في استعادة عبد العزيز آل سعود لنجـد سنة ١٩٠١ . كذلك لم يكن لابن سعود اي علاقة بنشأة الحركة . ولكن الحركة اول ما استرعت انتباه عبد العزيز ، بعد ان استعاد الاحساء من الاتراك .

ولم تظهر حركة الاخوان الى العلن في نجد قبل سنة ١٩١٤ . فبينما ظل أهل المدن وهابيين مخلصين ، انضم جميع أهل القرى والبدو الى الاخوان .

وفي اوائل سنة ١٩١٤ احتل ابن سعود منطقة الاحساء التي كان يطمع بها لأنها كانت تابعة لنجد في السابق ، ومن جهة اخرى طمعاً في دخلها الذي اصبح ابن سعود بحاجة متزايدة اليه .

واغتنم ابن سعود فرصة انشغال تركيا في حرب البلقان وحالة الانحلال الداخلي والخارجي التي كانت فيها ، يضاف اليها لجوء اقاربه المتمردين الى الهفوف ، فقام بهجوم في الليل على رأس الف وخمسماية رجل يركبون جمالاً سريعة من الرياض الى الهفوف فدك الاسوار الخارجية للحصن الذي يقع في الجهة الشمالية من المدينة ، واجبر الحامية التركية وعدد رجالها الف من المشاة على الاستسلام . وبعد عشرة أيام احتل القطيف وسمح للحاكم التركي وحاميته ان يخرجوا من المدينة معززين مكرمين ورافقهم وفد رسمي الى مرفأ عقير ومن هناك ذهب بعضهم الى البصره وبعضهم الآخر الى قطر .

الكويت تنضم الى الحلفاء

وعندما نشبت الحرب بين تركيا والحلفاء سنة ١٩١٤ اعلن مبارك انضمامه الى الحلفاء فوراً معرضاً نفسه للخطر لأن القوات البريطانية لم تكن قد وصلت بعد الى العراق . وكلف الشيخ مبارك منذ البداية باحتلال المواقع العسكرية التركية في صفوان وام قصر وتلك الواقعة في الجهة الجنوبية من جزيرة بوبيان . وكان عليه ان يهدد البصرة من جهة البر واحتلالها اذا امكنه ذلك بشرط المحافظة على ارواح وممتلكات الرعايا الأجانب .

ومع انه لم يوفق في احتلال البصرة ، لكن وجوده على رأس قوة كبيرة من البدو في الداخل حول انظار الاتراك عن الجنرال آرثر باريت وجيشه الذي نزل على شط العرب في الجهة المقـــابلة لعبادان وزحف إلى البصره عن طريق الضفة اليمنى .

ومكافأة له على جهوده العسكرية وعلى دخوله الحرب الى جانب الحلفـــاء ، فقد اعطت الحكومة البريطانية الشيخ مبارك وعداً خطياً تضمن الأمور التاليــة في حالة خروج الحلفاء من الحرب منتصرين :

١ – ان تعفى بساتينه الخمسة على شط العرب من الضرائب .

٢ – تثبيت ملكيته لتلك البساتين (لأن الأتراك حاولوا نزعها منه) .

٣ – تضمن الحكومة البريطانية في كل الأزمان بقاء الشيخ مبارك وورثتـه وخلفائه شيوخاً على الكويت .

ومنذ اللحظة التي احتلت فيها القوات البريطانيةالعراق حتى انتهاء الانتداب البريطاني على العراق ، ظلت الحكومة البريطانية محافظة على تعهداتها والتزاماتها تجاه شيخ الكويت . ولكن بعد ان نال العراق استقلاله رفضت الحكومـة العراقية التقيد بالعهود التي قطعتها الحكومة البريطانية لشيخ الكويت ، بـــل فرضت على بساتين الشيخ مبارك على شط العرب مزيداً من الضرائب ، وتحـدت ملكيته لبساتين النخيل تلك امام المحاكم ، وأخذت تقوم بدعاية يفهم منها انهـا تعمل على ضم الكويت إلى العراق .

وبالرغم من ان بريطانيا منحت العراق استقـلاله وانها تربطها به صداقــة ومعاهدات ، فان الحكومة العراقية كانت تتصرف تصرفاً معادياً تجاه الكويت لا لتحرج بريطانيا فحسب بل لتفقدها ايضاً نفوذها في جميع انحاء الشرق الأوسط وخاصة منطقة الخليج الفارسي .

ولكن الحكومة البريطانية قررت ، حفاظاً على اسمها وسمعتهـا ، ان تلتزم بوعودها تجاه الكويت مهما كلفها ذلك .

وكان المقيم البريطاني في الكويت سنة ١٩١٤ الكابتن شكسبير . وفي تشرين الثاني بينما كانت القوات البريطانية لا تزال في سيهان تجاه المحمره ، قـام الكابتن شكسبير بزيارة السير برسي كوكس المقيم البريطاني في الخليج الفارسي، والسير آرثر باريت في مقر القيادة ، وتلقى منهما الاوامر بالسفر الى نجد طلباً لمساعدة ابن سعود ضد الاتراك .

وفي تلك الاثناء كان من المقرر ان يزور اللورد هاردينج حاكم الهند الكويت بعد ان زار البصره وتفقد القوات البريطانية هناك . وحاول الشيخ مبارك ان يثني شكسبير عن عزمه على السفر الى الرياض الى ما بعد زيارة اللورد هاردينج، فرفض شكسبير وتوجه الى الرياض قبل وصول حاكم الهند .

ووعد ابن سعود ان يقدم مساعدات فعالة وجهز نفسه للدخول في عمليات عسكرية ضد ابن رشيد الذي دخل الحرب الى جانب الاتراك . والتقت قوات الطرفين في كانون الثاني سنة ١٩١٥ في جمع[1] (وتعرف احياناً بجراب) في سدير . وكان من المفروض ان يربح ابن سعود المعركة ولكن قبيلة عجمان التي كانت تشكل ميسرة جيشه تركت الميدان ولم تقاتل ، فانسحب ابن سعود من المعركة، وقتل الكابتن شكسبير وهو يساعد على حشو مدفع نجدي .

وكان الشيخ مبارك قد سعى كثيراً من قبل ليجمع بين ابن سعود وبين اللورد هاردينج فلما حدثت هذه الواقعة كان يقول مخاطباً ابن سعود : لقد قلت لك ذلك فلم تسمع نصيحتي، ولم تقابل حاكم الهند ولكنك خسرت المعركة وافقدتني المقيم السياسي .

وتخلت الحكومة البريطانية عن فكرة التعاون مع ابن سعود في تلك الفترة ولكنها ظلت تحتفظ بمعاهدة صداقة معه .

وفي صيف سنة ١٩١٥ ارسل الشريف حسين في مكة ابنه عبدالله الذي اصبح فيما بعد ملكاً على شرقي الاردن على رأس قوة لا بأس بها ليقوم ، في

(1) الجمعه

الظاهر ، بمساع للصلح بين ابن سعود وابن رشيد وفي الوقت نفسه ليقوم بتنفيذ اتفاقية سنة ١٩١٠ وخاصة الجانب المالي منها . وصيغت اتفاقية للصلح لم تنفذ وعاد عبدالله تاركاً وراءه شعوراً بالمرارة .

وفاة الشيخ مبارك

وحدث ان قامت قبيلة عجلان (؟) بثورة في الاحساء في شهر تشرين الثاني . وعجز ابن سعود عن اخمادها ووجد نفسه محاصراً ومطوقاً في مدينة الهفوف . وقد اظهر الشيخ مبارك اخلاصه واهتمامه بابن سعود بأن أرسل جيشاً لنصرته . ونجحت القوة الكويتية في مهمتها . وقد كان بينها اثنان أصبحا حكاماً على الكويت هما : الشيخ سالم الابن الثاني للشيخ مبارك ، والشيخ أحمد حفيد الشيخ مبارك .

وبعد ان تمكنت القوة الكويتية من رفع الحصار تعاونت مع قوات ابن سعود لضرب تجمعات قبيلة عجمان في معركة رضا قرب القطيف .

وبعد ان اعطت القوة الكويتية للمهزومين من عجمان حق اللجوء والحماية عادت الى الكويت . وقد أغضبت هذه البادرة ابن سعود ولم تناسب طموحه ومزاجه الحربي فبدأت بينه وبين الشيخ سالم سلسلة من الثارات والخصومات طويلة .

وكان جيش الكويت المنتصر على بعد عدة اميال من العاصمة عندما بلغه نبأ وفاة الشيخ مبارك وارتقاء ابنه الأكبر جابر الى العرش .

وقد بعث اللورد هاردينج حاكم الهند الذي كان قد زار الكويت في شباط من السنة السابقة ، برسالة الى الشيخ جابر يهنئه فيها بارتقائه مؤكداً تأييد الحكومة البريطانية له كما كانت تؤيد والده طالما حافظ هو من جهته على الاتفاقات المعقودة مع الحكومة البريطانية .

ان الشيخ مبارك في الواقع هو الذي رفع الكويت من مكان قليل الأهمية إلى مكان مزدهر مرموق . واصبحت الكويت خلال ايام حكمه ، بنظر العربي ،

هي المكان المنشود للعيش وبذلك تضاعف عدد سكان المدينة .

اما الشيخ جابر فقد كان شاباً لطيفاً مهذبـاً اكسبه لطفه وتهذيبه شعبية كبيرة خلال حكمه القصير الذي لم يدم اكثر من سنة .

قائد للاخوان

وفي اواخر سنة ١٩١٥ او اوائل سنة ١٩١٦ وجد ابن سعود ان اليد الطولى في شؤون نجد أصبحت للاخوان مما وضعه أمام حلين : اما ان يكون حاكماً زمنياً فيجابه الاخوان ويسحقهم ، واما ان يصبح الرئيس الروحي لهذه الوهابية الجديدة .

وربما كان ابن سعود قد فكر في البداية في استغلال هـذه الحركة لتدعيم مركزه ، ولكنه اضطر في النهاية أن يقبل تعاليمها ويصبح قائدها لئلا يفلت الزمام من يده .

ويقول بعضهم انه على أثر انتهاج ابن سعود لهـذا الخط تلقى تحذيراً خطيراً من عبدالله ابن جلوي آل سعود امير الاحساء بأن يتخلى عن هـذه الحركة التي شبهها بالنار التي تلتهم كل شيء .

ولكن مما لا شك فيه ان ابن سعود بذلك قد زاد من قوته كثيراً لأنـه صهر جميع العناصر المتخاصمة المعادية لبعضها البعض في نجد منذ أقدم الأزمان .

وبعـد ان تبنى ابن سعود الحركة الجديدة وجد انـه من الضروري تنظيم افرادها وضبطهم ، لأنه كان يخشى قيامهم بهجمات دموية مسعورة باتجاه الحجاز والعراق . وتبعـاً لذلك أصدر امره المشهور سنة ١٩١٦ الذي يقضي بانخراط جميع القبائل العربية ، شاءوا ام ابوا ، في صفوف حركة الاخوان ، وان يدفعوا له الزكاة بصفته امامهم الشرعي. وإذا لم يفعلوا فإنه سيهاجمهم ويخضعهم بالقوة .

أما طريقة اخضاع القبيلة التي لم تكن راغبة في دخول الحركة فكانت كما يلي: يستدعي ابن سعود شيخ القبيلة ويبلغه بعبارات جافية أنه وقبيلته لا يدينون بأي دين وانهم جهلة . ويأمر شيخ القبيلة بحضور الدراسات في مدرسة العلماء الملحقة

بمسجد الرياض الكبير وهنـــاك يجري تلقينه مبادىء الدين واسسه . ولم تكن تلك التعاليم ، باستثناء عامل الاكراه فيها ، تختلف بشيء عن الوهابية .

وكان يطلب من كل أخ ان يتقيد قبل كل شيء بأمرين اساسيين: اولاً، عبادة إله واحد ، وثانياً الأخوة بين جميع المؤمنين الصادقين .

ويتضمن الأمر الأول :

١ — الايمان بعدم انقسامية الله .

٢ — اعطاء الزكاة .

٣ — الصوم في رمضان .

٤ — الصلاة خمس مرات في اليوم .

٥ — الحج الى مكة .

ويتضمن الأمر الثاني :

١ — حب الوطن .

٢ — إطاعة الامام (ابن سعود) طاعة عمياء .

٣ — ان يساعد الأخ أخاه في الصعوبات المالية وغيرها .

وعلى المؤمن ان يقول دائماً « لا إله إلا الله محمـــد رسول الله » . ولكنه يمنع منعاً باتاً من التفكير بمحمد او ذكر اسمه كوسيط مع الله . الله هو المهم وما محمد إلا رجل أعطى توصيات الله للمؤمنين . اما وقد توفي وانتهى فإنه لم تعد له اهمية خاصة إلا ان يذكر اسمه بالاجلال والاكبار وان تبقى ذكراه حيــة في الاذهان من قبيل عرفان الجميل .

اما ان يقرن المرء اي اسم مع اسم الله فتلك خطيئة لا تغتفر يعتبر مقترفهـا مشركاً كافراً تحل ممتلكاته وحياته ونـساؤه . والنذر ايضاً يعتبر خطيئة مميتة . وهـــذه العادة منتشرة كثيراً بين الشيعة ولا يقدم النذور إلا قلة من السنة — فواجب الاخوان ، اذن ، تحطيم هذه الاشياء أينما وجدت .

ويعتبر تدخين السجاير والحشيش والافيون وغيرها من الخطـــايا الكبيرة . وفي اولى ايام الحركة كان اذا رأى أخ رجـلاً يدخن فإنه يهاجمه وربمـــا قتله .

والتدخين في مملكة ابن سعود ممنوع رسمياً ، حتى اليوم ، باستثناء الاحساء حيث يسمح للشيعة بالتدخين في الأماكن الخاصة . ومن الممنوعات أيضاً شرب الكحول ولبس الزينات الفضية والذهبية ، وقص الشاربين واللحية إلا كما فعل الرسول ، والقمار ، والتبصير ، والتنجيم ، واعمال السحر .

وتقضي الزكاة بأن يدفع كل شخص جزءاً من اربعين من جميع ممتلكاته للامام . وبحسب القواعد الواردة في القرآن الكريم فإن الامام يوزع المال الذي يتقاضاه في ثمانية اتجاهات : على الفقراء ، والمحتاجين ، والمديونين ، والاسرى ، والمسافرين ، والذين يجمعون الزكاة ويقسمونها ، والراغبين في سماع كلمة الحق ، وفي سبيل الله .

وإذا فقد احد الاخوان ماشيته في الغزو او ماتت في المرض او تعرض لصعوبات مالية ، فما عليه إلا إبلاغ صحبه الذين يهبون رأساً لجمع المال الضروري له ليقف على قدميه من جديد ، او ليدفع ما ترتب عليه من ديون .

هذه هي معتقدات الاخوان .

وبينما يكون شيخ القبيلة في الرياض يتلقى العلوم الدينية ، يتوجه اثنا عشر عالماً من العلماء بإشراف أحد قادة الاخوان المتزمتين كفيصل آل درويش الشيخ الأعلى في مطير، إلى القبيلة نفسها . وهؤلاء العلماء المتجولون ينتقيهم ابن سعود من الموالين له . ومن التعاليم التي يرسخها هؤلاء العلماء في أذهان القبائل ان الاخوان فقط هم المسلمون الحقيقيون وان بقية المسلمين كفرة وهراطقة . فكانوا يعقدون الحلقات الدراسية يومياً يعلمون فيها الناس كل شيء عن الاسلام في بساطته الأصلية كما نشره محمد .

وكانوا يغرسون افكاراً مدهشة في عقول الناس عن الامام ابن سعود الذي سيصبح في المستقبل أباً للشعب وقائداً روحياً وشيخاً في وقت واحد . وهكذا كانوا يثيرون الحماس في نفوس افراد القبيلة. وكانوا يبلغون المتدينين انهم أصبحوا اعضاء في الحركة الجديدة ولذلك يطلق عليهم اسم الاخوان .

وكان العلماء يصرون على ان الاعضاء الجدد يجب ان تعتمر رؤوسهم

بالكوفية فقط بدلاً من العقال ، وان يلتزموا البساطة في العيش والملبس ولذلك كان معظم الاخوان يبـــدون بمظاهر التقشف . وليس من المفروض ان يرد الأخ السلام إلا للأخ . فاذا ما صادفت جماعة من الاخوان في شوارع المدينة رجـــلا أوروبياً او عربياً من العراق او من سواحل الخليج الفارسي، فالمفروض فيهم ان يغطوا وجوههم بأيديهم لئلا يدنسهم منظر الغرباء .

لقد لاحظت هذه العـادات عندما كنت في الاحساء سنة ١٩٢٠ ثم سنة ١٩٣٢ . وكان رفاقي في الرحـلة سنيين من الكويت والبحرين وكانوا يلقون السلام على كل واحد من الاخوان يصادفونه في الصحراء وفي الهفوف ولكنني لم اسمع جواباً إلا مرة واحدة حين قال احدهم وعليكم السلام . وفي عـــدة مناسبات كان الناس في الهفوف سنة ١٩٢٠ يغطون وجوههم عندما يقتربون مني . وحدث مرة ان دخلت إلى مجلس ابن سعود نفسه ، عندئذ نهض جماعة من الاخوان دفعة واحدة وخرجـوا من المجلس وهم يغطون وجوههم لئـــلا يروني وكانوا يتمتمون يصبون اللعنات علي مع انني كنت ضيفاً على امامهم .

وعندما يعتبر شيخ القبيلة انه تلقى علوماً وتوجيهات دينية كافية يعطى بيتاً في الرياض – خاصة إذا كان قوياً – ويدعى للبقاء في جـــوار الامام . وهذه الطريقة ايضاً كانت من اساليب السيطرة على القبائل . فــــاذا اراد ابن سعود في اي وقت ان يعبىء قوات الاخوان فما عليه إلا ان يبلغ حرسه الخاص والشيوخ المحيطين به ، وفي ظروف أربعة أيام تلتهب البلاد او هكذا يقال .

ولم يكن الشيخ يستطيع مغادرة الرياض والعودة إلى قبيلته إلا بـــإذن من الامام . ولم يكن ذلك ليمنح في اغلب الأحيان .

وكانت تعلق أهمية بالغة على اداء الصلاة اثنـــاء ارشاد القبيلة . واصبح من معتقدات الاخوان ان يتجمع الرجال للصلاة وبنادقهم مصفوفة امامهم في خط طويل جاهزة للاستعمال . وكان تأثير ذلك في النفوس مدهشاً . وعندما يحـين موعد الصلاة يصرخ أحدهم: «انهضوا ايها الكسالى . . قوموا للصلاة » . فيتجمع

عدد من الاشخاص ويعينون قائداً لهم ، ويصفون بنادقهم رأس الواحـــدة إلى قدم الأخرى في خط منتظم ، وتتـلى الصلاة على الطريقة العسكرية النظامية .

ولقد شاهدت حرس ابن سعود اكثر من مرة وعددهم حوالي ثلاثمائة شخص يتجمعون لاداء الصلاة وقد ادهشتني فيهم الدقة العسكرية في الحركة . ولم يبـد ابن سعود او اي من الأخوان ادنى اعتراض على اقـــدامي على تصوير هـذه التجمعات . واظن انهم كانوا يفتخرون بهذا النظام الذي توصلوا اليه بحيث انهم يعتبرون صوري دعاية جيدة لهم .

وكان اجبار الناس على الدخول في الحركة من مقومات الايمـان عند الاخوان في الايام الأولى للحركة . وقد اثارت اساليبهم مخاوف الناس في الحجاز والبلدان المجاورة .

ومن الثابت انهم عندما وجـدوا طريقهم إلى الهفوف لأول مرة أخـــذوا يضربون ضرباً مبرحاً كل امرأة يجدونها تسير في الشارع ، ويطلقون النار ببرودة دم على عدد من الأشخاص لا ذنب لهم إلا أنهم يدخنون التبغ . وقـــد اضطر ابن سعود وعبدالله بن جلوي الى التسامح والعفو عن الذين اعماهم التعصب ، قبل ان استطاعا كبح جماح الآخرين واعادتهم الى رشدهم .

وغني عن القول ان الأمر الذي اصدره ابن سعود سنة ١٩١٦ اثار كثيراً من النزاع مع القبائل وخاصة قبيلة عجمان في الاحسـاء . ويمكن القول حقيقة وبكل امانة ان ابن سعود شغل طيـلة سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ في سلسلة طويـــلة من الحروب مع القبائل التي لم تكن متحمسة للاخوان . ولم يكن يستطيع زيـارة الرياض للراحة إلا نادراً .

الحسين ملك الحجاز

اعلن الحسين شريف مكة استقلال الجزيرة العربية وانضم إلى الحلفـــاء في تموز سنة ١٩١٦ بعد ان ازاح عن كاهله الحكم التركي . وفي الشهر نفسه احتـــل الحسين ينبع ميناء المدينة المنورة ، وفي شهر تشرين الأول اعلن نفسه ملكاً على

البلاد العربية . ولم يكن ذلـــك مقبولاً لدى الذين اعترفوا به ملكاً على الحجاز فقط .

وتطلع ابن سعود إلى هذه التطورات بقلق متزايد ولكنه لم يقم بأي عمـل فوري ضد الحسين او ضد آل رشيد اعداء بيته التقليديين .

الشيخ صباح الاحمد الصباح

الشيخ جابر الاحمد الصباح

الشيخ عبدالله الجابر الصباح

الشيخ صباح السالم الصباح

الفصل السابع

سوق الشيوخ

١٩١٥ - ١٩١٦

سنترك الجزيرة العربية فترة ونلفت انتباهنا الى العراق حيث قضيت عدة سنوات في الخدمة تحت قيادة السير بيرسي كوكس الذي كان في ذلك الوقت رئيساً للدائرة السياسية في جنوب العراق .

وسأبدأ ببعض الملاحظات عن السكان العرب على الفرات الأسفل وخاصة في سوق الشيوخ والناصرية حيث عملت في البداية .

بني أسد

قبيلة قوية من غير المنتفق تعيش في مستنقعات جنوب العراق . وشيخ هذه القبيلة هو سالم الخيون ومقره الرئيسي في شبيش .

ضافر (١)

(١) الظفير

وهي قبيلة صحراوية شريفة تقطن بين السماوه والزبير جنوب الفرات . ولها فروع كثيرة متعددة منها بني حسين وآل عرايف . ويشتق اسم القبيلة من ضفر اي خصلة الشعر اشارة إلى ان القبيلة نمت وتأسست من وحدات صغيرة في الصحراء .

وقد اشتهرت قبيلة الضافر بين قبائـــل الصحراء بالطريقة التي تـدافع فيها

وتحمي بها القسارى اي جيرانها في الخيام من اي قبيلة كانوا ، حتى اذا اضطرها ذلك الى معاقبة افرادها والجماعات التي تنتمي اليها .

وقد أمر أحد شيوخ ضافر مرة ان يذبح ابنه بحضوره لأنه قتل قسيراً في حمى نزاع لا مبرر له .

والمشيخة في هذه القبيلة لآل الصويت وشيخهم الأعلى حالياً عجيمي الصويت .

المنتفق

وهو اسم يطلق على اتحاد القبائل العراقية التي تقطن على ضفتي القسم الجنوبي من نهر الفرات في بحيرة حمار ، وشطرا ، وقلعة سكر ، والناصرية ، ومدينة سوق الشيوخ . وهنالك ثلاثة أقسام رئيسية لا تربطها رابطة إلا قبولها المشترك لسلطة عائلة السعدون . وهذه الاقسام التي ليست قبائل بل مجرد تجمعات هي : أجود ، وبني مالك ، وبني سعيد .

وبني سعيد هم القسم الأصغر والأكثر تماسكاً ويقطنون المنطقة الصحراوية بين دجلة بالقرب من مدينة العماره وبين شط الحي في شطرا .

أما أجود فهم أقلهم تماسكاً ويسكنون الغراف وهو الاسم الذي يطلق على المنطقة الزراعية الواقعة على ضفتي شط الحي ويسكنون ايضاً على ضفتي الفرات فوق الناصرية وتحتها . وهم بين مزارعين مقيمين وبين اصحاب ماشية رحل . والمشيخة فيهم حالياً في عائلة المناع وشيخهم الأعلى اليوم هو فيصل الزامل المناع .

أما القبائل الرئيسية التي يضمها قسم أجود فهي :

العبوده : قبيلة زراعية قوية في منطقة الغراف بالقرب من مدينة شطرا . وشيخها هو خيون العبيد .

الأزارج : قبيلة زراعية في المنطقة بين شطرا والناصرية شيخها محمد القطا البوتي .

الفزّي : قبيلة زراعية قوية على الضفة اليمنى للفرات بين بثا والناصرية. وشيخها اليوم محمد الحبيِّب . ويتفرع منها آل غليظ .

الحسونه : قبيلة من السيّاد المزارعين بين شطرا والناصرية وشيوخها هم : السيد حمود بن عبد الحسين والسيد محمد بن عبد الحسين .

الحسينات : قبيلة زراعية على الضفة اليمنى للفرات قبالة الناصرية وشيخها عجيل الخضيري .

الابراهيم : قبيلة زراعية الى شرق آل حسونه وشيوخها بلهول الشايد وجبار المطشر .

الخفاجه : قبيلة زراعية قوية في منطقة الغراف بين شطرا والناصرية وشيخها شعبان العلي .

المهاينه : قبيلة زراعية صغيرة على الضفة اليمنى للفرات قبالة العاشرة وشيخها قيطان العجيل الشويِّد .

أما القسم الثالث من المنتفق اي بني مالك فهم في الأصل من المعدان (اسم يطلق على ساكني المستنقعات والأهوار في العراق) ويعيشون في الدلتا التي يشكلها نهر الفرات عندما يدخل بحيرة حمار . وتعتبر قبيلة البوصالح وشيوخها زعيمة قبائل بني مالك .

وقبائل بني مالك الرئيسية هي :

العساشره : قبيلة زراعية في منطقة سوق الشيوخ على الضفة اليسرى من الفرات ، شيخها سبرو الدرغي .

الحكام : قبيلة زراعية على جانبي المجرى الرئيسي للفرات بالقرب من سوق الشيوخ . وهي قبيلة قوية كانت مصدر قلق للاتراك في الايام الغابرة. وكان لها في يوم من الأيام اربعة شيوخ رؤساء هم : حجي مزبان ، وقاصد الناحي ، وفرهود الفندي ، وحجي ناصر العبايل الذي سنروي قصته فيما بعد . والشيخ الأعلى على الضفة اليمنى من الفرات اليوم هو مزهر القاصد الناحي ، وعلى

الضفة اليسرى فرهود الفندي .

ويتفرع من قبيلة الحكام فئة تدعى البوحميدي .

الحسن : قبيلة في اهوار منطقة الدلتا من سوق الشيوخ وشيخها الأعلى اليوم هو حموده ابن مزعل البشاره . اما ذلك القسم من قبيلة الحسن الذين يعيشون على الضفة اليمنى من النهر فان شيخهم هو مريهج الفيصل اليامر ولكنه يخضع لحموده بن مزعل البشاره .

الجويبر : قبيلة في الأهوار غرب بحيرة الحمار وشيخها حاتم الموزان .

بني خيقان : قبيلة في أهوار منطقة الدلتا من سوق الشيوخ . شيخها اليوم هو الحجي تشوّيد المغشغش شقيق المرحوم فرهود المغشغش .

النواشي : قبيلة في الاهوار قرب سوق الشيوخ .

البو صالح : قبيلة قوية إلى شمال بحيرة الحمار قسم من أفرادها مزارعون وقسم من سكان الأهوار . والشيخ الأعلى في هذه القبيلة الزعيمة في بني مالك كان بدر الرميض ، اما اليوم فهو محسن الرميض . ويتفرع من هذه القبيلة آل سلمان وشيخهم محمد النصرالله .

الشدّود : قبيلة صغيرة في منطقة سوق الشيوخ على الضفة اليسرى من الفرات .

البوشامه : قبيلة في الاهوار شمال بحيرة الحمار .

وهنالك مجموعة قوية من قبائل الرعاة المهاجرين تشكل جزءاً من اتحاد المنتفق . وينتقل هؤلاء في الشتاء والربيع الى الكويت وحدود العراق الجنوبية مع المملكة العربية السعودية . والقبائل الرئيسية في هذه المجموعة هي الآتية : (سنشير إلى القبائل التي تدعي بانها من اصول شريفة بعلامة « × ») .

العبّاده . . . . بني مالك

العونان (×) . . . . أجود

البدور (×) . . . . أجود

الغليظ (الغزي) . . . . أجود

المندال (×) . . . . بني مالك
الجميعان . . . . بني مالك
الجوارين (×) . . . . بني مالك
الرقيعات (×) . . . . أجود
الشريفات . . . . أجود
الزيّاد . . . . من قبائل السماوه
الزوبا (×) . . . . اصلها من شمر
الزهيريه . . . . من قبائل الزبير

وتقع جميع قبائل العراق تحت ثلاثة اسماء عامة هي :

١ — اهل الجزيرة : وهم القبائل التي تسكن المنطقة الواقعة بين دجلة والفرات من الموصل الى الخليج الفارسي .

٢ — اهل الشاميه : اسم عام يطلق على قبائل منطقة سوق الشيوخ التي تقطن على الضفة اليمنى من الفرات بين الناصرية وسوق الشيوخ .

٣ — الجزّه : اسم عام يطلق على قبائل منطقة سوق الشيوخ التي تسكن على الضفة اليمنى من الفرات بين سوق الشيوخ وبحيرة الحمار .

وتجدر الاشارة هنا الى ان جميع نساء قبائل المنتفق سافرات ووجوههن وأذرعهن وأقدامهن مزينة بنماذج متعددة من الوشم .

عائلة السعدون

ان تاريخ اتحاد المنتفق جزء لا يتجزأ من تاريخ عائلة السعدون التي تدعي انها تنحدر من سلالة الرسول ولذلك فهم ينتسبون الى شرفاء مكة وقد هاجروا من الحجاز الى بلاد ما بين النهرين في أوائل القرن السادس عشر .

وفي ظل عائلة السعدون حافظ اتحاد المنتفق على استقلاله من الأتراك حتى سنة ١٨٦٣ عندما حاول والي بغداد ان يحطم قوة القبائل بأن اقتطع اراضي معينة من المنتفق وعين كبير آل السعدون قائمقاماً ذا صلاحيات محدودة لم تتعد

سوق الشيوخ .

وقد ثار الشيخ الأعلى في ذلك الوقت وهو منصور بك السعدون ضد هـذه الإجراءات وحاول ان يثير انتفاضة عربية عامة ضد الأتراك ، مما اضطر الوالي ان يتخلى عن سياسته الجديدة . ويقول المقيم البريطاني في بغداد انـه لو كانت للأتراك القدرة على تنفيذ سياستهم لكانت جميع قبائل المنتفق والتهم لانهم كانوا يقاسون كثيراً من الظلم على أيدي رؤسائهم .

وفي سنة ١٨٦٤ و ١٨٦٥ كان منصور بـك وشيخ آخر هو فهد السعدون لا يزالان في حالة ثورة مقنعة ضد الأتراك . وأخيراً لجأ منصور بك الى الضافر بينما اعطيت المشيخة لأخيه ناصر سنة ١٨٦٦ لأنه زايد على الشيخ فهد .

وقد نال الشيخ ناصر حظوة خاصة عنـد الأتراك ويبدو انه وقع تحت تأثير مدحت باشا الذي استدرجه سنة ١٨٧١ الى التخلي عن الموقف الذي اتخـذه شقيقه مع الشيخ فهد ، والى القبول بامتداد النفوذ العثماني الى قبائل المنتفق .

وبتلك الخطوة يبدو ان الشيخ ناصر الذي أوجد الناصرية قـد خان المنتفق الى الأتراك .

وحاول الأتراك إقامة موطن ثابت لهم هناك فرشوا آل السعدون واقنعوهم بقبول التحول الجديـد ، وان ينتقلوا من رؤساء يتقاضون الجزية الى ملاك للأرض . وبذلك فقدت القبائل ملكيتها للأرض وأصبح أفرادها مزارعـين بالقسم ، وقسمت أراضي الناصريه وسوق الشيوخ بين آل السعدون والبـاب العالي .

وفي سنة ١٨٧٢ استخدم الأتراك الشيخ ناصر لتوطين قسم من جماعاتـه في الاحساء والقطيف المنطقتين اللتين كان الأتراك قد احتلوهما في ذلـك الوقت . ومكافأة له على خدماته عين والياً على ولاية البصرة التي انشئت سنة ١٨٧٥ ومنح لقب باشا . وعندما قوي ناصر باشا بعد ان جمع بين حاكمية البصرة وبين رئاسة المنتفق ، نفاه الأتراك الى القسطنطينية سنة ١٨٧٧ .

وفي سنة ١٨٨١ وبينما كان ناصر باشا لا يزال في السجن ، قامت جميع قبائل

المنتفق بثورة ضد الاتراك. ويبدو ان أسباب تلك الثورة تعود الى تصادم القبائل مع الجنود الاتراك الذين تمركزوا في معسكرات انشأوهـا في الناصرية ، والى محاولة الاتراك تنفيذ خطتهم الجديدة وحمل رجال القبائل على دفع الضرائب لهم ولآل السعدون . ولم يتمكن الاتراك من اخماد تلك الثورة فاضطروا الى التخلي عن جمع الضرائب والى إعطاء مزيد من السلطات الى فالح باشا الابن الاكبر لناصر باشا الذي استأنف الى حد ما سياسة والده الموالية للعثمانيين .

وفي تلك الاثناء أصبح المنتفق موزع الولاء بين فالح باشا وسعدون باشا ابن الشيخ منصور . وكان ينظر الى سعدون بأنه يمثل المبادىء القبلية القديمة .

فأنصار فالح كانوا يقطنون المنطقة مـا بين دجلة والفرات ، بينما الجماعات القبلية الموالية لسعدون باشا كانت تقطن الضفة اليمنى من الفرات .

وعندما توفي فـالح باشا في سنة ١٩٠٨ اصبح سعدون باشا سيداً على المنتفق كله . وبدأ سعدون بذلـك عهداً من الطغيان والاستبـداد في المنتفق فقتل عدداً من صغار الشيوخ وأخذ ينشر حالة من التهديد والوعيد والقسر ، وفي سنة ١٩١١ ضجت منه جميع البلاد فتخلى الاتراك عن تأييدهم له في تموز من تلك السـنة وأرسلوه تحت الاقامة الجبرية الى بغداد ، ونقل في الشهر التالي الى حلب حيث توفي فجأة في ٢٥ تشرين الثاني . وصدر تقرير رسمي يقول ان سعدون باشا توفي بداء النقطة والذبحة القلبية ولكن الرأي السائد هو انه توفي مسموماً . وظل ابنه عجيمي بك طريد العدالة خارجاً عن القانون في جوار الناصريه .

وفي الفترة بين سجن سعدون باشا ووفاته ارتـد عطف قبائل المنتفق ، بمن فيهم اعداؤه عائلة فالح ، عليه ربما لانه لم يعد موظفاً في الدولة العثمانية وبسبب كره القبائل للأتراك .

فرجال القبائل لم يتدرجوا من مـلاك للأرض الى مزارعين بالقسم ، وكذلك لم يستطع آل السعدون ان يفرضوا الحقوق التي اكتسبوها من الدولة العثمانية .

ومع ضعف السلطة المركزية منذ بداية العهد الدستوري في تركيا سنة ١٩٠٨ ، والاضطراب العـام في الادارة المحلية الذي جاء في اعقاب الحروب مـع

ايطاليا والبلقان ، اثبت الوضع الرسمي الذي بادله آل السعدون بامتيازاتهم القبلية القديمة انه عديم النفع . فقبل الاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٥ بعدة سنوات تمنعت القبائل عن دفع ربع الارض . ومع ذلك قام اتحاد المنتفق ضد الانكليز في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ . ويرجع ذلك الى ما تبقى من نفوذ آل السعدون ، والى تعاليم السادة التي تدعو للجهاد ، وكان الترغيب بغنائم الحرب او بمكافآت الاتراك .

ان شجرة عائلة آل السعدون تضم أكثر من مئة اسم ولكننا على الصفحة السابقة حصرناها بفرع واحد لاظهار فروع سعدون وفالح التي سيرد ذكرها مع بعض الاسماء الاخرى والنبذات التي سنذكرها في الروايات التالية :

عبد العزيز الراشد السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة وهو رئيس عشيرة الراشد في سوق الشيوخ (متوفى) .

عبدالمحسن السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . تولى رئاسة الوزارة في العراق اربع مرات. انتحر أثناء ولايته الرابعة في ١٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٩.

عبدالله بك الفالح باشا السعدون : الشيخ الاعلى لقبائل المنتفق التي تقطن بين دجلة والفرات . (متوفى)

عجيمي بك السعدون : سابقاً رئيس قبائل المنتفق التي تقطن الضفة اليمنى من الفرات . وهو يعيش حالياً في تركيا .

عجيل بك السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . وهو زعيم مرموق وتعيش عائلته في الناصرية .

بندر السعدون : والد علي ابن بندر السعدون ومحمد ابن بندر السعدون . (متوفى) .

ضاري بك الفهد السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . عضو بارز في فرع آل محمد من العائلة . كان سابقاً يسكن في الناصرية وهو الآن متوفى .

فهد بك السليمان السعدون : كان يقيم على الضفة اليمنى من الفرات . (متوفى)

فالح باشا السعدون : سابقاً رئيس جميع القبائل القاطنة بين دجلة والفرات .

عائلة السعدون
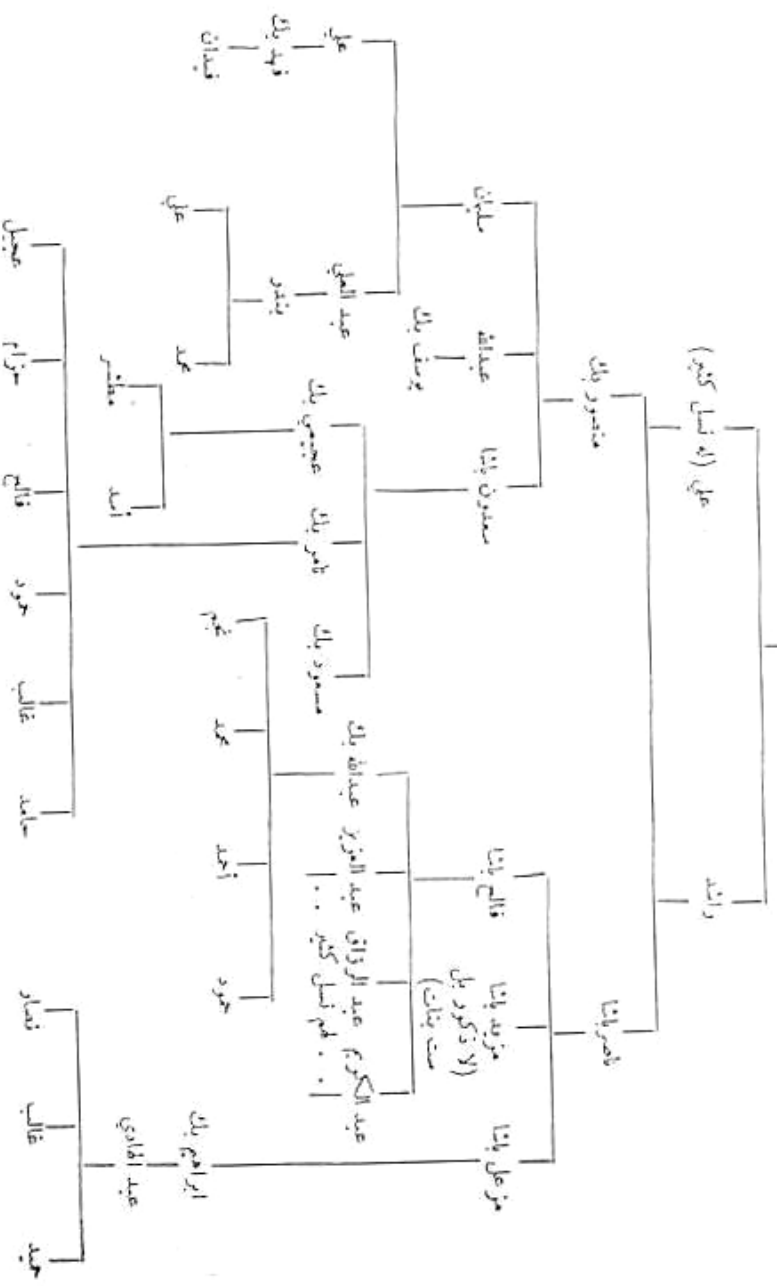
والد عبدالله بك الفالح باشا السعدون الذي تولى الزعامة بعد وفاة والده .

حزام بك المشاري السعدون : لم يرد ذكره في الشجرة . عضو بارز في العائلة كان يقيم بالقرب من الناصرية وهو الآن متوفى .

ابراهيم بك ابن مزعل باشا السعدون : عضو بارز في العائلة ويقيم حالياً في البصرة .

مزعل باشا السعدون : والد ابراهيم بك ابن مزعل باشا السعدون . وهو الآن متوفى .

محمد ابن بندر السعدون : ابن بندر السعدون .

ناصر باشا السعدون : آخر والي من آل السعدون على البصرة (متوفى) .

سعود بك السعدون : الأخ الاصغر لعجيمي بك وثامر بك .

ثامر بك السعدون : يقيم حالياً في سوق الشيوخ .

يوسف بك العبدالله المنصور السعدون : ابن عم عجيمي بك وثامر بك وسعود بك .

أنا أدير سوق الشيوخ

عند اندلاع الحرب العالمية الاولى مع المانيا ، أرسلت كتيبتي الى فرنسا . وبما أنني كنت أجيد اللغة العربية التي تعلمتها منذ الصغر ، فقد ارسلت الى الهند ومنها الى العراق في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حيث اشتركت في كل العمليات التي أدت الى احتلال البصرة والقرنة والناصريه بما في ذلك معركة شعيبه قرب الزبير.

وبعد ان احتل الجنرال جورينج الناصريه في تموز سنة ١٩١٥ ، أرسلت كضابط استخبارات الى سوق الشيوخ المدنية العربية الصغيرة على الفرات في وسط قبائل المنتفق . ولم تكن القوانين تسري هناك حتى في أيام الاتراك قبل سنة ١٩١٤ . فقبائل المنتفق عنيدة متمردة ، وكانت في حالة من الفوضى بحيث اضطرني ذلك الى حث الدائرة السياسية التي يرئسها السير بيرسي كوكس الذي كان ينظم الادارة المدنية في جنوب العراق ، على ارسال ضابط لادارة المنطقة .

وكم كانت دهشتي عندما تلقيت برقية عيني فيها السير بيرسي مساعد ضابط سياسي بالاضافة الى واجباتي الاخرى في سوق الشيوخ .

ومع انني سررت بهذا المنصب لكنني رأيت أمامي كثيراً من المتاعب لان قبيلتي بني حيقان ومجره الكبيرتين اللتين تقطن الاولى منهما على الضفة اليسرى من المجرى الرئيسي للفرات والثانية قبالتها على الضفة اليمنى ، كانتا على وشك الدخول في حرب . وكانتا قد اختلطتا بشكل خطر في الدلتا بين سوق الشيوخ وبحيرة الحمار ، فكان أفراد القبيلة الواحدة يقتنصون افراد الاخرى والعكس كلما عبر هؤلاء النهر ذهاباً أو إياباً لقضاء اشغالهم العادية .

ومما زاد الامور صعوبة عدم وجود شبانه (أي شرطة النهر) ولا سواري (أي شرطة خيالة) ولا جنود بريطانيون او هنود .

وهكذا كنت انا الانكليزي الوحيد في ذلك المكان اعيش وحدي بكل امجادي بينما كان الجيش الانكليزي يصارع ليشق طريقه على دجلة . وكان كل يوم يمر يجلب معه مفاجآت مثيرة حتى لم يعد يعرف المرء ماذا سيحدث في الليل او في الصباح الثاني . وبقيت انا على قيد الحياة بفضل الحجي حسن حمداني وحسن نيته . وكان الحجي حسن ، رجل المدينة القوي ، يحتفظ بقوة مسلحة قوامها ٢٠٠ رجل اشداء وذلك لفرض ارادته وفرض هيبة الامن والقانون . ولكنه خارج حدود المدينة لم يكن له أي نفوذ على الاطلاق .

وفي الوقت الذي كنت فيه ضابط استخبارات فقط اعيش في ظل الحجي حسن واقيم في منزله ، كنت مكتفياً تماماً . ولكنني كنت اضحك في نفسي عندما بدأت افكر بأن اجرب حظي في انشاء قوة شرطة برية ونهرية ، وايجاد شرطة للمدينة ، واقامة ادارة ، مما يعني ، أولاً وقبل كل شيء ، جباية بعض الضرائب من القبائل التي لم تدفع فلساً واحداً للاتراك طوال السنوات العشرين التي سبقت قدومي .

كنت اعلم ان عقبات كثيرة ستعترضني ، وان امامي صراعاً ليس أقله تحطيم سلطة الحجي حسن في المدينة ، وفرض هيبة القانون والامن بين بني خيقان

وبجره .

وانتقلت الى منزل عربي صغير يواجه النهر وتفصله عنه ساحة عرضها ٢٠٠ باردة. وكانت في وسط المنزل باحة وأربع غرف في الطابق الارضي استخدمت ثلاثاً منها كمكاتب والرابعة كمطبخ . اما الغرفتان في الطابق العلوي ، فكانت واحدة للنوم والاخرى للجلوس .

والمدخل الوحيد لهذا المنزل بوابة حديدية صغيرة محكمة الصنع يصعب خلعها. ولم تكن فيه اي ثغرات خارجية وكل نوافذه تطل على الساحة الداخلية. وكان السطح الذي يصل الغرفتين العلويتين محاطاً بجدار (حاجز) سماكته ٩ بوصات وارتفاعه أربع اقدام وست بوصات . لقد كان بيتاً مثالياً للدفاع في حالة تعرضة لهجوم فهو متماسك على بعضه وفيه فتحات على ثلاث جهات .

واستملت الحجي حسن الى جانبي وعرضت عليه ان اتولى امور رجاله وادفع مرتباتهم ، وعينت شقيقه الأصغر كاظم حمداني مساعداً لي، وابنه الاكبر سالم جابي للضرائب في المدينة . اما الحجي حسن نفسه فقد منحته منصباً غير رسمي وهو مستشار مساعد الضابط السياسي . وقد منحت هذا اللقب الفخري ايضاً للحجي عباس الصنيث ، والحجي علي الدبوس ، والحجي ابراهيم العماري وهم من زعماء المدينة ويمثل كل واحد منهم ربعها . وقد زاد إعجابي وتعلقي بمستشاري الاربعة فكنت اقضي معهم ساعات طويلة اتحدث معهم اما في حوانيتهم أو في منازلهم ، أو أدعوهم كل يومين تقريباً لتناول القهوة والمرطبات في منزلي عند الصباح .

وكانت للأربعة احقاد وثارات على بعضهم البعض ولكنهم لم يجرؤوا على اظهارها أمامي . وكانوا يفضلون العمل معي لا ضدي ، ويحرص كل واحد منهم ألا يصبح أي من الآخرين اكثر نفوذاً لدي . وكنا نعمل معاً ، كفرقة ، بصورة رائعة مما أتاح لادارة سوق الشيوخ ان تنجح بفضل مستشاري الأربعة ونواياهم الحسنة وتعاونهم .

وعندما سيطرت على المدينة وضبطتها اتجهت نحو القبائل المحيطة ، فبدأت

بإنشاء قوة شبانه قوامها ٢٠٠ رجل نصفهم من بني خيقان والنصف الآخر من الجره . واعطيت هؤلاء الشرطة بنـــادق تركية وألبستهم زيـاً واحداً انيقاً وأسست لهم مراكز يبعد الواحد عن الآخر ثمانية أميـــال على طول النهر - الى بحيرة الحمار شرقاً ، وغرباً الى مضيق الشيخ تشويد ابن مهاينه وبرجـــه الحربي الذي يشكل نصف الطريق الى الناصريـه ، حيث كانت تنتهي حدود مملكتي الصغيرة .

وكقوة ضاربة كنت احتفظ بمئة شبانه اطول مدة ممكنة في المقر الرئيسي . وللقيام بدوريات في الصحراء باتجاه خميسيه ومـــا بعدهـا ، اعطيت ثامر بك السعدون الذي كان يعيش في ام البطوش ، سلطات مـدير والاموال الضرورية للاحتفاظ بثلاثين من السواري وشراء الخيول لهم . وقـد زودت هؤلاء ببنادق مارتيني – جيدة ولكن مضى زمنهـا – وكان رجال الصحراء يحبون هـــذه البنادق ويسمي الواحد منهم بندقيته « أبو موزر » او « دكسان » وقد انتقل هذا الاسم الأخير إليّ لأن ديكسون ودكسان متشابهتان في اللفظ تقريباً .

وبعـــد ان عينت مديرين على قرمة بني سعيد والخميسيه وحكيكه وشمال بحيرة الحمار ، اصبحت إدارتي جاهزة لجبايـة الضرائب . وقـــد أشار عليّ مستشاري ان ان أسير بالعملية ببطء ، فأفرض أولاً ضريبة على أشجار النخيل (روبيـــة على كل شجرة) ولكن ليس على الأرز والقمح والشعير . وأشاروا ايضاً ان اهمل في الوقت الحاضر جباية الكودا وهي ضريبـة على الماشية أدخلها الأتراك . وقالوا لي ايضاً ان الاتراك لم يتركوا أيـة سجلات على الاطلاق ، فإذا كنت ارغب في العدد الصحيح ، فعليّ ان اقوم بعملية عد للاشجار في كل مكان الأمر الذي تقاومه القبائل .

ونصحوني بدلاً من ذلك ان افرض ضريبة اسميـة في السنة الاولى واضاعفها في السنة التالية ثم اضاعفها في السنة الثالثة ، فإذا مـــا اعترض اصحاب البساتين وشكوا الغبن اعرض عليهم عد الأشجار شخصياً وأحدد الضريبة . وعلمت ان عدد الأشجار المغروسة منذ ان تقاضى الأتراك آخر ضريبة أي قبـــل عشرين

سنة كان كبيراً بشكل ان أحداً لن يطلب عد أشجاره قبل مضي خمس سنوات من عملية المضاعفة .

وقبلت الاقتراح لأنني لم أكن ارغب في عرقلة رئيسي الذي كان يقوم بحملة ضد الاتراك على دجلة ، عن طريق إثارة ثورة او أي حـــادث في منطقة سوق الشيوخ .

ان جباية ضرائب النخيل من رجال القبائل الذين ليست لهم حقوق شرعية كثيرة في ملكيتهم ، كانت أمراً مضحكاً . فكان على المرء ان يلجأ الى الخداع والمزاح والدعوات الى حفلات غداء عامرة وأحيانــاً الضرب بيد من حديد على احدهم وسجنه قبل أن يأتي اصدقاؤه لنصرته .

وأول ما استرعى انتباهي ، قبيلة آل شدود من جهة بني خيقان على الفرات على بعد اثني عشر ميلاً الى الغرب من السوق . وكان شيخ القبيلة وقتذاك الحجي فيصل الشدود وهو رجل طوله ست اقـــدام واربع بوصات وله خمسة أخوة بطوله وبجماله . وابلغته انني آت اليه لاحدد مقدار الضريبة المطلوبة منه لتلك السنة ، فرد علي بأن دعاني الى حفلة غـداء عامرة تحت اشجار النخيل . وقلت له قبل تناول الطعام انني سأقدر اشجاره بصورة عفوية بستة عشر الفاً، ولكنه اذا رغب عددت الاشجار بالضبط . وأرغى الحجي فيصل وأزبد وأقسم بأنني أفرض عبئاً كبيراً عليه وعلى قبيلته . وتشبثت انا بموقفي فيما بـــدأت الامور تأخذ طابع التحدي لان كل رجال القبيلة مسلحون ويحيطون بنا .

وبعد ساعتين من الجدال تنازلت عـــن الف شجرة وجلسنا على الغداء وانا مصر على تقاضي ضريبة عـــن خمسة عشر الف شجرة . ولم تكن حفلة الغداء ناجحة خاصة وان كل واحد منهم كان يأكل والبندقية في يده . وكان وجودي هناك مصدر ازعاج شديد ، وكانت شرارة واحدة كافية لأن تلهب المكان . وكان الشقيق الثالث لمضيفي واسمه الحجي حمد الشدود يضع بندقيته على ركبته وفوهتها تبعد ست بوصات فقط عن صدري . وطلبت منـــه ان ارى البندقية فوجدتها محشوة وغير مقفلة وفيها أربع طلقات اضافية في مخزنها . وبكل هدوء

انتزعت الطلقات منها ، فبدت على وجه الحجي فيصل بوادر عـدم الارتياح . وعندئذ قلت له انني لا استطيع ان اتمتع بالغداء وبندقية اخيـه تكاد تخترق ضلوعي . واحاطني مضيفي بكرمه وترحيبه فافترقنا بدون خصام مع اعتقادي بأنني نجوت صدفة .

وتجدر الاشارة هنا الى انني في السنة التاليـة تقاضيت من الحجي فيصل ضريبة على ٣٠ الف شجرة وبدون تذمر من أحـد . وفي السنة الثالثة ضاعفت الضريبة الى ٦٠ الفاً . وعندما وصلت الضريبة الى ١٢٠ الفاً طلب الحجي فيصل في السنة الرابعة ان يجري عد الاشجار . وقد قمت انا بنفسي بعد الاشجار فكان عددها أكثر بقليل من ٢٤٧ الف شجرة . ومما لا شك فيه ان الشيخ خشي ان اضاعف الضريبة ايضاً في السنة التالية فجاء بطلب العد .

ولم احمل حقداً أو كراهية ضد الحجي فيصل او الحجي حمد اطلاقاً . بـل ان آل شدود اصبحوا من افضل دافعي الضرائب . وبعد مضي ٢٥ عاماً عندما كنت مقيماً سياسياً في الكويت شرفني الحج مغامس الأخ الثـاني للحجي فيصل بزيارة سررت بها كثيراً .

محمد العايل يبيض وجهي

كان الحجي مري شيخاً مساعـداً مع الحجي دوغي في قبيلة العـاشرة . وافراد هـذه القبيلة قوم اشرار تتصل اراضيهم مباشرة باراضي آل شدود . وكانت هذه القبيلة تحتل حوالي ثمانية اميال من واجهة النهر مع حزام من اشجار النخيل الممتازة بحدود مجرى النهر ، ومنطقة ممتازة لزراعة القمح والشعير .

وكان الحجي مري يملك عدة مئات من الفدادين الصالحة لزراعـة الرز وراء اماكن زراعة القمح . وتقع قريته الرئيسية على بعد ميلين عن المجرى الرئيسي للنهر . هي محاطة بخمسة مفاتيل اي ابراج حربية ذات ارتفاع لا بأس بـه . وكان الحجي دوغي يكره الحجي مري ويأمل ان يأتي يوم يعترف به وحـده شيخاً اعلى وزعيماً في قبيلة العـاشرة .

وكان الحجي مري رجلاً قصير القامة صغير الحجم سيء الطباع وذو عينين حادتين وابتسامة لئيمة .

وفي تلك الفترة كان السفر في النهر ليلاً غــير مأمون العواقب وخاصة في الاميال الثمانية التي يحتلها العساشرة باتجاه الناصرية . ولم اكن انا قــد سيطرت السيطرة التي كنت اهدف اليها، فكان العساشرة يفرضون رسوماً على كل زورق يمر في النهر نهــاراً ، ويطلقون النار ويصادرون كل زورق يجتاز منطقتهم من النهر ليلاً. ولم انشىء مركزاً للشبانه في منطقة العساشرة خوفاً من وقوع حادث، فانتظرت الوقت المناسب .

وجاء ذلك الوقت باسرع مما توقعت . فقد تلقيت من السير ارنولد ويلسون الذي كان ينوب عن السير برسي كوكس في البصره لانشغال الأخــير بقيادة الحملة العسكرية على نهر دجلة ، قارباً بخارياً جديداً وقوياً . وقد اعطاني ذلــك قدرة أكبر على الحركة ومكنني من ان اظهر بنفسي في اقصى الاماكن النائية من دلتا سوق الشيوخ . وقد قوى ذلك مركزي كثيراً لأنه ليس اصدق على القبائل من المثل القائــل « عقلهم في عيونهم ». فاصبحوا الآن يرون الضابط السياسي في كل لحظة بينما كانوا يقولون من قبل انه خائف أو لا يستطيع التجول بينهم .

وذات مساء ، عند الغروب ، اتت امرأة من المدينة لمقابلتي ومعها ابنتهــا وهي فتاة جميلة هجرها زوجها . وقالت المرأة انها ارملة تاجر نجدي وان لديهـا ولد في الثانية والعشرين من عمره وابنتها التي تصحبها وعمرها عشرين عامــاً . وكان زوجها قد اقرض مبلغاً من المال للحجي مري الذي تمنع عن دفعه عنــد الاستحقاق ، فشكا الرجل أمره للحجي حسن حمداني . ولما قدم الحجي مري لشراء بعض الحاجيات من السوق قبض عليه الحجي حسن وسجنه في مكان قذر الى ان دفع الدين المستحق . ولما مات زوجها استأنف ابنهــا عمل أبيه طوال السنوات الثلاث السابقة ولكن على نطاق ضيق .

وقبل زيارتها لي بعشرة أيام ، كان ابنها متوجهاً الى الناصرية بالبلم (زورق نهري) فهاجمه رجال قبيلة العساشرة واختطفوه . وظنت المرأة اسوأ الاحتمالات

فارسلت من يبحث عن ابنها ويتسقط أخباره ، فعاد هؤلاء ليقولوا لها ان ابنها سجين في قرية الحجي مري وان عينيه قد سملتا . واخبروها كذلك ان الحجي مري علق له النير في رقبته جنباً الى جنب مع حماره وفلح عليه الارض لمدة خمسة ايام متتالية . وقد أثرت هذه القصة في نفسي وشعرت بالقرف .

وبعد ان أخذت عهداً من الامرأة وابنتها ان لا تنبسا ببنة شفة امام أحد عن زيارتهما لي ، شجعتهما آملاً ان افعل شيئاً من اجلهما . لم استطع ان اقول لهما ما هو الشيء الذي كنت سأفعله لانني نفسي لم أكن أعلم . وبعد ساعة فقط قررت ان اخرج في حملة . فابلغت محمد العايل رئيس الشبانه ان يتنقي ٢٠ من اشد رجاله ويقوموا باستعراض في تمام الساعة الحادية عشر ليلاً . وكان محمد شجاعاً مرحاً .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً ركبنا جميعاً زورقي البخاري وتوجهنا الى أرض العسامرة . وكان الظلام حالكاً والهدوء مخيماً . ووصلنا الى مكان في مواجهة قرية الحجي مري حوالي الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل . وخففت سرعة الزورق الى الربع حتى لا يحدث صوتاً قوياً وسرت به الى الشاطىء في مكان تكثر فيه الاشجار وكأنه مخبأ طبيعي .

وبعدئذ استدعيت محمد وشرحت له خطتي وهي ان يبقى خمسة رجال في الزورق للحراسة وان أزحف انا مع الخمسة عشر رجلاً الآخرين الى جوار قرية الحجي مري. وبعد ذلك تقدم محمد مع ثلاثة رجال مختارين الى الامام ويتسللون على طريقة الهنود الحمر الى اسطبل الحجي مري حيث قالت الامرأة ان ابنهـا محتجز في الليل ، فيفكوا قيوده بهدوء وينقذوه وفي حالة النجاح يطلق أحدهم صرخة واحدة شبيهة بصوت البوم. واذا تم ذلك يأتون الي باقصى سرعة ممكنة وبعد ثلاثة اصوات متتالية كأصوات البوم نعود جميعاً الى الزورق باذن الله .

وكان نجاح الخطة طبعاً يعتمد على الصمت المطبق والتسلل الحذر . ولكن بما ان رجالي كانوا منتقين من سكان الاهوار ولهم موهبة خاصة في التسلل كالاشباح ، فقد كنت واثقاً من النجاح .

وكانت أول عقبة هي اعتراض محمد على ذهابي معهم بحجة انني لا اجيـــد سلل مثلهم وقد يفضح ذلك الخطة كلها قبـــل ان نبتعد مسافة نصف ميل من زورق .

وهمس محمـــد في اذني قائلاً : يا صاحب ، انت لا تستطيع ان تتحرك بهدوء صمت مثلنا ، ولا تستطيع ان تسبح مثلنـــا القنوات الثلاث العريضة التي تحمي ريـــة الحجي مري ، ولا تقدر ان تتحرك كالكلب وتمشي على رجليك ويديك ترفع إحدى رجليك لتبدو كأنها النيل ، مثلمـــا اعتدنا أن نفعل نحن عنـــد ضرورة . فابق أنت في الزورق مع خمسة عشر رجـــلاً وأذهب انا مع خمسة رجال أنتقيهم . سلم الأمور إليّ وسأبيّض وجهك .

ووافقت بحكم الضرورة ولكن رغم إرادتي . وخلع محمد ورجـــاله الخمسة الذين يشبهون الثعابين جميع ملابسهم ، وربطوا على خصورهم خناجرهم الطويلة الملتوية التي يستخدمها رجال الأهوار . وتركوا بنادقهم وذخائرهم في الزورق . وقـــال محمد انهم إذا لم يعودوا قبل الساعة الثالثة والنصف فمعنى ذلك انهم قتلوا أو أسروا وما علينا نحن إلا أن نعود الى سوق الشيوخ . وحانت مني التفاتـــة سريعة الى محمد على ضوء مصباحي الكهربائي فكان جسمه العاري رائعاً ووجهه يطفح بشراً وسعادة وعلى فمه ابتسامة مرحة بانتظار الدخول في مغامرة مثيرة . وبلحظة اختفى الرجال الستة في الليل بصمت وهدوء .

وكان الانتظار مشوباً بالقلق . وأمرت جميع الرجـــال بالبقاء في الزورق باستثناء اثنين نزلا على بعد ٥٠ ياردة بين الأشجار ليرقبوا ما إذا كان هنالك أحد يتربص بنا . وفي الساعة الثالثة والربع سمعنا فجأة نباح كلاب بعيدة في القرية . واستمر النباح مدة خمس دقائق ساد بعدها الهدوء الى أن سمعنا طلقاً نارياً تبعته ٢٠ أو ٣٠ طلقة أخرى متتالية وصراخ من مكان بعيد . وكان من المستحيل ان نعرف ما إذا كان ذلك تحذيراً ، او ان رجالنا افتضح أمرهم وحوصروا . وبدا التوتر على وجوه رجالي في الزورق ولكنهم كانوا يكبتون قلقهم فحشوا بنادقهم بصمت استعداداً لأي طارىء .

وأتت الساعة الثالثة والنصف ولم يظهر محمد ولم نعد نسمع أية أصوات من جهة القرية . وفي الساعة الرابعة إلا الربع بدأت تساورني المخـــاوف . ووسط هذا التوتر المشوب باليأس قررت الانتظار فترة قصيرة . وكان الصمت مطبقاً ومرهقاً إذ لم يكن المرء يسمع إلا صوت انفاسه . وفي الرابعـة إلا عشر دقائق أصدرت أوامري بالتحرك ، وفي تلك اللحظة سمعت أصوات بوم أطلقت ثلاث مرات متتابعة من مكان قريب وبعد لحظة أطل من الظلام خيـال محمد ، وتبعه رجاله الذين كانوا يحملون حزمتين ألقوهما على الشاطىء قرب الزورق .

واقترب مني محمـــد وهمس في أذني قائلاً : لقد جلبت لك الفتى الأعمى .. والحجي مري أيضاً !

وكان الرجلان محزمان ومكممان حتى لا يحدثا أي صوت ولكي يسهل حملهما. ولم يستغرق نقل الرجال الى الزورق ، والاقلاع من المخبـــأ تحت الأشجار وقتاً طويلاً . وسرنا باتجاه المدينة أولاً ببطء وبعد أن قطعنا أرض العساشرة سرنا بأقصى سرعة ممكنة .

ووصلنا الى المدينة مـــع الفجر وقبل ان يخرج الناس من منازلهم . وأودع الحجي مري سجنه القديم وبعد ساعة سلمت الفتى الأعمى الى امه واخته .

وانكر الحجي مري طبعاً انه سمل عيني الفتى مدعياً ان اعداء آخرين فعلوا ذلك . وأمرت ان يظل الحجي مري في السجن الى ان يدفع الفصل (دية الدم) وقدره ثمانماية روبية حسب القوانين القبلية في المنتفق ، وأضفت إليها أربعمايـة روبية أخرى لأنه نصب نفسه قاضياً يحكم على هواه .

وظل الحجي مري في السجن خمسة عشر يوماً الى أن جاءني وفـد من نساء العساشرة على رأسه زوجة الحجي مري . فأخذ النسوة يبكين ويقسمن أيمـاناً مغلظة بأن الحجي لا يملك المال الكافي ليدفع الفصل ، وانني لم أفعل حسناً بأن تدخلت في العادات القبلية وقوانينها ، وعليـــه يتوجب إطلاق سراح الحجي مري . وعندما وجدت زوجة الحجي انني لم ألن سلمت بالأمر الواقع ، وفكت منديلاً قديمـاً يحتوي على مجوهراتها وهي عبـــارة عن مدالية للعنق من الذهب

والصدف ، وعقد من النقود الذهبية ، وخاتمين ذهبيين جميلين مثلثي الشكل في وسط كل منهما فص . واعطتني إياها قائلة انها تكفي لدفع الغرامة التي فرضتها ، وانها ستدفع مـال الفصل بعد ان اطلق سراح زوجهـا . وسألتني بسذاجة : كيف يستطيع الحجي مري ان يجمع المبلغ من رجـاله وهو في السجن ؟ وشرح لها بطول بال ان قصدي ان يدفع الحجي مري المـال لا رجال القبيلة . وعادت هي تشرح لي انني لا أفهم عادات القبائل وانه مـا لم افرج عن زوجها فإن شيئاً لن يحدث . وساومتها بأن احتفظ بزوجهـا على ان يدفع الحجي دوغي الشيخ الآخر في قبيلة العساشرة المال المطلوب .

وهكذا انتهت مغامرتي الصغيرة مع الحجي مري . أما بالنسبة لوالدة الفتى الأعمى فقد أفسدت الأمور بعض الشيء عندمـا جاءت لزيارتي بصورة مفاجئة بعد حلول الظلام وقالت ان ابنتها تريد ان تعبر عن عرفانهـا بالجميل تحوي بالطريقة الوحيدة التي تقدر عليها وهي ان تقضي الليل معي حينما أريـد . ولم تقتنع السيدة عندما قلت لهـا استغفر الله وأضافت تقول : كان الأتراك يفعلون ذلك دائماً قبل ان تأتوا أنتم الانكليز وعلى كل فليس من الضروري ان يعرف أحـد .

وحدث بعد ست سنوات عندمـا كنت ضابطاً سياسياً في الفرات الأوسط ومقري مدينة الحلة ، ان قامت زوجة الحجي مري بزيارتي وهي في طريقها الى الحج في كربلاء . وكانت قد تغيرت قليلا فذكرتني بأنهـا أعطتني مجوهراتها في يوم من الأيام ورجتني ان أردها إليها . وقالت أن الحجي مري قـد توفي قبل سنتين دون ان يشتري لهـا بديلا لمجوهراتها . ولم استطع إجابة طلبها لأن المجوهرات بيعت منـذ وقت بعيد وأدخل ثمنهـا الى خزينة سوق الشيوخ . ولكنني شعرت بأنني يجب ان أفعل الشيء المناسب لأظهر أن دكـان لا يفتقر الى روح الشهامة ، فدفعت لها من جيبي اربعماية روبيـة وهي قيمة الغرامـة الأساسية . فذهبت تغمرها السعادة .

مستشار حكيم

وكانت إحدى الصعوبات الأساسية التي واجهتني في سوق الشيوخ ، حـــل النزاعات القبليـــة . واكتشفت ان شهادة الزور هي القاعدة وان الكذب هو الخبز اليومي لأهل المنتفق . وفي أحد الأيام عندمـــا يئست من حل نزاع صعب طلبت نصيحة كاظم حمداني فأجاب :

لماذا لا ترسل المتنازعين الى النجف الأشرف حيث يقوم السيد كاظم اليزدي باستحلاف الطرفين بالعباس في مسجد علي ؟ انه أمر معروف بين هؤلاء ان الذي يحلف بالعباس كذباً في مسجد علي الكبير في النجف، فإن قوة إلهية تقطع رأسه ويظل معلقاً في القبة الكبرى . ان رأس آخر رجل حلف كذباً لا يزال معلقـاً هناك بسلسلة وقد جف وتقلص حتى يراه الآخرون فيهابون .

وكانت هذه مشورة حسنة . فقـــد أرسلت أهم الشهود في القضية ، تحت الحفظ ، مع رسالة رقيقة مهذبة الى السيد كاظم طالباً مساعدته . وخلال عشرة أيام تلقيت رسالة تقدير من السيد كاظم يخبرني فيها أن القضية قـد حلت بأمانة ويروي لي طريقة الحل بالتفصيل ويحدد أصحاب الحق .

ومنذ ذلك اليوم والأمور تسير معي على مـا يرام . وزاد عدد القضايا التي كنت أحيلهـا على السيد كاظم وبذلك أصبح عملي أسهل من السابق بكثير لأن رجال القبائل أصبحوا يعلمون انني على استعداد لإحالة أية قضية صعبة تواجهني على النجف فوراً ، ولذلك أخذوا يتصرفون بحذر خاصة وان الذي يعلن السيد كاظم اليزدي بطل ادعائه يتحمل جميع مصاريف السفر الى النجف وهي رحلة يبلغ مداها ٢٥٠ ميلاً بواسطة الزوارق او على ظهور الخيل .

وقد أصبح السيد كاظم اليزدي المجتهد الأكبر للشيعة ، كما يعلم ذلك الشيعة في العراق وإيران ، في سنة ١٩١٠ . وهو رجل له مكانته ضليع وواسع المعرفة بشؤون الدنيا . وكان معجباً بالبريطانيين وخاصة السير بيرسي كوكس . وقـد رفض ، وهو الرجل المتفوق بين جميع الزعماء الدينيين في العراق وإيران ، خلال الحرب العالمية الأولى كل المحاولات والمساعي التي بذلها الأتراك وعلى رأسهم انور

باشا لحمله على تحويل الصراع الى جهـــاد او حرب مقدسة ضد الحلفاء فيما يتعلق بالطوائف الشيعية التي يمتد نفوذه إليها . ووجـد الجيش البريطاني في العراق ان السكان ليسوا معادين له بل على العكس فقد كان أربعة أخماسهم من المؤيدين ، كل ذلك بفضل مهارة السيد كاظم اليزدي في مواجهة الوضع .

المضيف

ولكي اتمكن من استقبال الضيوف والزائرين ، حصلت على ترخيص رسمي ببنـــاء مضيف أو دار للاستراحة . وقد كلف البنـاء الضخم الفني وتسعماية روبية ويبلغ طوله ٧٠ قدماً وعرضه ١٨ قدماً وارتفاعه أيضاً ١٨ قدماً . وقـد بناه رجال من أهـــل الاهوار من قبيلة بني أسد اتوا من شويش وهي نقطـــة متوسطة في المستنقعات الكبيرة المحيطة بسوق الشيوخ .

وقد استخدمت ٦٠٠ حصيرة من اوراق البردي التي تكثر في بحيرة الحمار لبناء سقف المضيف وجدرانه فقط . ووضعت هـــذه الحصر فوق هيكل من اقواس كبيرة صنعت من حزمات من اوراق البردي ربطت ببعضها البعض بشدة واتصلت عند الرأس . اما اساسات المضيف فقد حفرت في الارض ويبلغ طول قطرها قدمين ونصف ، ويبلغ ارتفاع الباب الضيق خمسة اقدام وهو في مواجهة النهر .

ولأن الضيوف كانوا سيجلسون على الارض ، فان التهوية كان ينبغي ان تكون على مستوى منخفض ، ولذلك فقد تركت فجوات بـــين الاقواس على ارتفاع قدمين . وفي الايام التي يشتد فيها الحر كانت تنزع الحصر عـن جوانب المضيف ويترك مفتوحاً من جميع الجهات. وفي الايام الاخرى كانت الحصر توضع مكانها من الخارج باستثناء فتحة أو فتحتين من الناحية الفوقية حيث كان يجلس الزائرون ويشربون القهوة . وكانت تغطي ارض تلك الجهة سجاجيد زاهيـــة الالوان . اما الوجاق الذي كانت تصنع عليه القهوة فقد وضع في الجهة الأخرى بالقرب من المدخل . وكان الخدام والحراس يجلسون حول الوجاق بينما كان

الزائرون الاكثر اهمية يسيرون الى داخل المضيف ويجلسون في الجهة المخصصة للاستقبال .

ونظراً لموقع المضيف على شاطىء النهر وتحت ظلال عدد من اشجار النخيل، فقد كان ابرد مكان يمكن المرء ان يتقي فيه حرارة ايام الصيف الشديدة . ويسترعي انتباه الداخل الى المضيف بالاضافة الى كبر حجمه الضوء الخافت الذي يسوده . وهو بذلك اشبه بكاتدرائية .

في ذلك المكان كنت اقوم بأعمالي وادعو ضيوفي العرب الى حفلات غداء أو عشاء . وهناك كنت ادعو شيوخ القبائل ووجهاء المدينة الى مجلسي الاسبوعي . وهناك ايضاً كنت اتشاور مع مستشاري الحجي حسن حمداني ، والحجي عباس الصنيت ، والحجي علي الدبوس ، والحجي ابراهيم العماري .

وليمة عامرة

وقبل حلول عيد ميلاد الملك بعشرة أيام قررت الاحتفال بهذه المناسبة باقامة مأدبة غداء فخمة في المضيف على الطريقة العربية . فارسلت دعوات الى ابرز شيوخ عائلة السعدون الذين كان يرئسهم تامر بك السعدون ، والى جميع شيوخ المجره وبني حيقان وعددهم ٧٠ ، والى الشخصيات البارزة في سوق الشيوخ بالاضافة الى مستشاري . وكانت وليمة عامرة : ٣٠ خروفاً مسمناً حمرت ووضع كل منها فوق كومة من الارز على طبق . وحول هذه الاطباق صف مئة صحن وصحن فيها اوز محمر ، ودجاج ، وسمك مقلي ، ومرق ، وكباب ، وتمور ، ومهلبية ، وقطع من البطيخ ، وطبق كبير عليه خبز عربي مرقوق بدونه لا تكتمل اية وليمة عربية ، وقدور اللبن .

وقد اعددت ايضاً كل شيء لصنع القهوة والبيضان (شراب اللوز) للذين يحبونه . واستعرت عدداً من الجرار والاوعية لكي يتمكن ضيوفي من غسل ايديهم . ولهذا الغرض اشتريت دزينة من الواح الصابون وعدداً مماثلاً من المناشف .

ويرجع الفضل في شراء الحاجيات والمأكولات واعداد الطبخ لكاظم حمداني. وقد قمت انا باستعارة عدد من البسط يكفي لتغطية ارض المضيف كلها ، وعدد كاف من المساند ليتكيء عليها الضيوف .

وقد قبل الجميع دعوتي ما عدا واحداً وهو الحجي مزبان احد أربعة شيوخ في قبيلة الحكام اما الثلاثة الآخرون فهم : قاصد الناحي وفرهود القندي والحجي ناصر العايل . وهذا الأخير لا يمت بأية صلة الى محمد العايل رئيس الشبانه .

وبعث لي الحجي مزبان برسالة اعتذار يقول فيها انه لا يستطيع القدوم لأن طريقه يمر في ارض أعدائه . ويقول انه مستعد للحضور اذا اعطته الحكومة حظ وبخت ويقصد بذلك الحماية والتكريم .

ولهذا الغرض ارسلت للحجي مزبان وثيقة موقعة مني ومهورة بالخاتم الرسمي تقول ان الشيخ مزبان قادم بمهمة رسمية ضيفاً على الحكومة ، ولذلك فان أي تعرض له في الطريق يعتبر اساءة للحكومة البريطانية . وقالت الوثيقة أيضاً ان قدوم الشيخ مزبان يتعلق بدعوة لمناسبة عيد ميلاد الملك وعليه فان الحكومة ترغب ان يتناسى الجميع بهذه المناسبة نزاعاتهم وخصوماتهم لمدة ثلاثة أيام .

وجاء اليوم الموعود وبدأ ضيوفي يفدون بعضهم على الاقدام وبعضهم على ظهور الخيل وبعضهم الآخر بواسطة المشاحيف (جمع مشحوف وهو زورق نهري مطلي بالاسفلت) . وكان يصحب كل منهم عدد من الاتباع والحراس يختلف عددهم حسب منزلة ومقام الرجل بنظر نفسه . ونظراً لوجود حالة حرب بين البريطانيين والاتراك ، وبسبب اضطراب الاوضاع ، فقد جاء كل منهم مسلحاً ببندقية وعلى صدره جناد او اثنان مليئان بالذخيرة .

وكان واحدهم يدخل المضيف ويحييني ثم يجلس في المكان الذي يتناسب مع مكانته . ففي مثل هذه المناسبات يعرف اعيان عائلة السعدون وشيوخ القبائل العاديين مكانهم واين يجلسون فلا يحاول أحد ان يحشر نفسه في غير مكانه . وكان الجميع باحلى حللهم وكان منظرهم رائعاً وقد اسند كل واحد منهم بندقيته الى جدار المضيف خلفه . وجلس ثامر بك السعدون على يميني ويوسف بك المنصور

على يساري . وعلى جهة اليمين ايضاً جلس الحجي مزبان الذي طلب الحماية بين قاصد الناحي الذي كان متقدماً في السن ولم تكن له إلا عين واحدة ، وبين فرهود الفندي . وعلى مسافة منهم جلس الشيخ ناصر العايد الى جانب الشيخ فرهود المغشغش الرئيس الاسمي لبني خيقان .

وكانت وليمة رائعة شهد لها الجميع . ولا عجب لأنها اقيمت باشراف كاظم حمداني ومجموعة كبيرة من الخدم وامتدت على طول المضيف بين صفوف الشيوخ الجالسين . وبعد ان أكمل الضيوف طعامهم وعادوا الى الجلوس بعد ان غسلوا أيديهم جاء دور الخدم والحراس والاتباع وهم مجموعة من الزنوج والبدو ورجال الاهوار كانوا يلتهمون الطعام بطريقة عجيبة .

وبعد ذلك جاءت القهوة وسط احاديث المجاملة التي تسود في مثل هذه المناسبات . وبدأ الضيوف بعد ذلك يغادرون المكان بصمت وعلى رأسهم تامر بك ويوسف بك . فكان كل واحد منهم ينهض بدوره يصافحني ويشكرني بعبارات تقال في مثل هذه المناسبات مثل : انعم الله عليك ، وكثر الله خيرك . وكنت أنا أرد عليها بعبارات اعتيادية مثل : حلا لكم ، وشرفتوا المحل .

وعندما جاء دور مزبان ليودعني سألته مازحاً عن عدوه الذي يخاف أن يلحق به الأذى فقال : يادكسان ، بين الذين صافحوك هو الثالث بعد قاصد الناحي .

وعرفت انه يقصد الحجي ناصر العايد .

فقلت له : لا تخف يا صديقي .

فضحك مزبان وكان رجلاً طويلاً جميل الطلعة يبلغ من العمر ٣٥ عاماً يلبس زبوناً ازرق داكن من الحرير المطرز الذي يعرف بالعراق باسم « بشا » ، وقال : لن يصيبني شر ما دام حظ وبخت الحكومة في جيبي .

وكانت تلك آخر كلمات سمعتها منه . فبعد عدة ثوان عندما كان مزبان يهم بالخروج من باب المضيف انطلقت خمس رصاصات متتالية فخر مزبان على الأرض صريعاً .

كان الحجي ناصر ينتظره خارج المضيف وكان خادمه يمسك بحصانين تحت ظل شجرة نخيل على بعد عشرة ياردات . وعندما خرجت كان الحجي ناصر وخادمه قد امتطيا حصانيهما وتواريا عن الانظار بمحاذاة النهر . وحاولت بصورة جنونية ان انظم فوراً فريقاً لمطاردتهم ولكن الذين معهم الخيل قد غادروا المكان .

وانحنى عبد مزبان مشدوهاً فوق جثة سيده وهو يتمتم بعبارات هستيرية وأخذ يفتح رداء سيده . وتبين ان مزبان المسكين اصيب برصاصتين قرب القلب ، وبرصاصة في بلعومه اما الرابعة والخامسة فقد اخطأتاه .

وفي هذه الاثناء تجمع ما تبقى من الضيوف أخذ بعضهم يعربد بصوت عال وبعضهم الآخر يحتج بصمت وقد حشا الجميع بنادقهم بطريقة تنذر بالشر .

وقام الشيخ قاصد يخاطب المشاعر الملتهبة بصوت هائج مضطرب قائلاً انه ما لم اتخذ اجراءات سريعة في اخضاع القاتل للعدالة ، فان أحداً من شيوخ القبائل لن يتمكن بعد اليوم من زيارتي . لو لم اعط مزبان وثيقة الامان هل حدث ذلك ؟ ماذا سأفعل بعد هذا الخرق السافر لقوانين الضيافة ؟ اية ضمانة تمنع قتل أي شيخ يأتي الى سوق الشيوخ ليقابل الحاكم ؟

وبعد ساعة حذرني الحجي حسن حمداني وعلى وجهه علامات الأسى ان وراء الجريمة اكثر مما تراه العين . وربما كانت الاشارة لانتفاضة تقوم بها قبائل سوق الشيوخ يحاول الاتراك منذ وقت طويل اشعالها . قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون ولكن الثابت هو ان القبائل الموالية للاتراك في ذلك الوقت كانت أكثر من تلك الموالية للبريطانيين . والحقيقة هي ان محاولاتي لجمع الضرائب على التمور والقمح والارزّ والشعير لم تكن مستحبة . ومعنى ذلك ان سلطتي خارج سوق الشيوخ قد انتهت ما لم اقوم بعمل سريع حاسم لأن انباء الحادث ستنتشر في كل المنتفق خلال ساعات معدودات . وكنت أكثر ما أخشى ان يزداد الوضع سوءاً فتنقطع المواصلات ويسود الاضطراب على نطاق واسع ، فتذهب خططي لجمع الضرائب ادراج الرياح .

والمشكلة هي انه لم تكن لدي قوة تدعمني باستثناء ٢٠٠ من الشبانه وثلاثين من الخيالة بقيادة ثامر بـــك . فالجيش البريطاني كان بعيداً . ولم تكن القيادة العامة في الناصرية لتشكرني اذا طلبت مساعدات عسكرية لأنها لم يكن لديها من القوات إلا ما يكفي لتثبيت مركزها في الناصرية .

وبقيت افكر ساعـــة من الزمن ثم اتخذت قراراً باصدار نشرات في المدينة وفي كل ناحية من النواحي تقول ان هنالك مكافأة قدرها عشرة آلاف روبيـــة لمن يأتي بالحجي ناصر حياً أو ميتاً . وابرقت للسير بيرسي كوكس بذلـــك فجاءت الموافقة سريعة مما شجعني قليلاً .

عدالة قاسية

وحدث ما كنت أتوقعه . فقد ازدادت الحالة سوءاً ولم أعد استطيع التنقل خارج المدينة بأمان . وقد غامرت وخرجت مرتين وفي المرتين كان رجـــال القبائل ينصبون لي كمائن ويطلقون عليّ النـــار ولكنني نجوت بأعجوبة . ومرة ثالثة ابتعدت ميلين خارج سوق الشيوخ ولولا حكمة الحجي حسن حمداني لكنت قتلت على الفور . فقد أرسل الحجي حسن ورائي أربعة من الشبانه برئاسة محمد العايل وأمرهم ان يراقبوني دون ان يدعوني أراهم . وفجأة انقض عليّ ثلاثـــة رجال من وراء الأشجار الكثيفة وأطلقوا النار من بعد ١٠٠ ياردة وقد فوجئت عندما رأيت أربعة من رجالي يبادلونهم إطلاق النار فيصرعون واحـــداً منهم ويضطرون الآخرين للفرار . وعندما تفحصنا جثة الرجل الميت تبين أنـــه من قبيلة الحكام التي يرئسها الحجي ناصر .

وتملكني شعور باليأس والانقباض لا سيما وانني كنت أعرف انه من المستحيل ان أطلب النجدة من السير بيرسي كوكس او من الناصريـــة لأنهم لا يستطيعون التخلي عن رجل واحد . وكنت اعلم انني يجب أن اجد خلاصي بيدي . ولكن كيف ذلك وقـــد تقلص نفوذي واخذت المقاومة السلبية تتزايد بين القبائل المجاورة . وقـــد امتد ذلك الى قوة الشبانه فأخذ بعضهم يطلب إجازات طويلة

بحجة ان لديهم أعمالاً خاصة وقدم آخرون استقالاتهم .

ومر شهران قاسيان مليئان بالقلق . لم أعــد احصل على شيء من الدخل وأخذ اصدقائي ينفضون من حولي واحداً بعد الآخر . وذات يوم وكان الوقت ظهراً لمحت زورقاً مسلحاً يرفع راية بيضاء ويتبعه زورق آخر يحمل جنوداً ، على منعطف في النهر قرب سوق الشيوخ . واقترب الزورقان من منزلي وبعـــد دقيقتين كنت أرحب بالضابط قائد الزورقين وأعددت له طعام الغداء . وأبلغني انه قــادم مع فصيلة من الجنود تابعين للواء د كنت ، المشهور لشراء المؤن من سوق الشيوخ ومعهم أربعة مدافع رشاشة .

وفي المساء تناولت طعــام العشاء على ظهر الزورق المسلح واخبرت مضيفي الضابط المشاكل التي تعترضني . وشرحت له انـــه من الضرورات القصوى في الوقت الحاضر معاقبة الحجي ناصر واستعادة نفوذ الحكومة ونفوذي الشخصي ، وانني لا املك من القوة إلا عدداً ضئيلاً من الشبانه موزعين على مراكز متباعدة في النهر بينما على بعــد خمسة أميـــال من سوق الشيوخ فقط يقف الحجي ناصر ووراءه سبعمائة من المسلحين يتحدى الحكومة ان تأتي لمعاقبته .

وأنهيت قصتي بأن طلبت من الضابط الشاب ان نخرج في حملة لاستعادة هيبة الحكومـــة ونفوذها بين القبائل على أن لا يصل ذلك الى مسمع القيادة في الناصرية .

وكانت خطتي اشعال برج الحجي ناصر الحربي ومضيفه وقريته التي تبعـــد نصف ميـــل عن ضفة النهر وراء حزام من اشجار النخيل ، وبعد ذلك أشعل النيران في مزروعاته التي تغطي عدة مئات في الأفدنة . وشرحت للضابط انني سأقوم بالمهمة بنفسي وكل ما اطلبه منه التعاون لتأمين حمايتي في حـــال تعرضي لهجوم أثناء اشعال النار وتمكيني من الفرار سالماً من أرض قبيلة الحكام .

ووافق الضابط على الفكرة بحماس وبعدها أخذت اشرح له الخطة بالتفصيل. وتقضي الخطة بأن نسير بعـــد يومين في السابعة والنصف صباحاً بالسفينتين على طول الضفة اليمنى من النهر ونتوقف قبـــالة قرية الحجي ناصر بالقرب من شجرة

سدر كبيرة يجتمع تحتها عــادة ٤٣ من رؤساء فروع قبيلة الحجي . وفي الوقت الذي اقفز فيه انا الى الشاطىء تصوب المدافع الرشاشة فوق رؤوس الأشخاص المتجمعين . وكنت آمل انه تحت غطـاء من نيران المدافع الرشاشة استطيع ان أجرد هؤلاء من سلاحهم واقتيــادهم الى احدى السفينتين كرهائن الى وقت استطيع فيه تنفيذ برنامجي .

كنت أعـلم ان الخطة قذرة وفيهـا الكثير من أساليب الأتراك ولكنني لم اقصد اذية احد وكان مبرري للقيام بتنفيذها النتائج التي أتوخى الحصول عليها . واكثر من ذلك كنت أعرف طبائع رجـال القبائل الدموية فإذا نجحت خطتي فإنهم سيمتدحونني لأنني أخذتهم بأساليبهم .

وبإضفاء طابع الكرم وحسن النية على العملية اقترحت إقامــة مأدبة من الدرجــة الأولى على ظهر ناقلة الجنود لتكريم الضيوف القادمين بالرغم منهم ، واقتيادهم بعد ذلك الى سوق الشيوخ واطلاق سراحهم بعد اتخــاذ الإجراءات اللازمة وإعطاء كل واحد منهم عباءة جديدة كهدية .

وفي اليوم التالي ابلغت الخطة لكاظم حمداني وطلبت منه ان يحفظ السر وان يحضر غداء فاخراً لثلاثة واربعين رجلاً وان يشتري ٤٣ عبـاءة جديدة على ان يكون كل شيء جــاهزاً على ظهر السفينة في السابعة والنصف من صباح اليوم التالي . وبعد ذلك ارسلت صديقي ذا العين الواحدة الشيخ قاصد الناحي الذي اشتهر بقيادة عــدة انتفاضات ناجحة ضد الأتراك في الماضي ، إلى قرية الحجي ناصر واعطيته تعليمات ان يقول ان حــاكم المنطقة سيصل بسفينتين حربيتين في الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التــالي ويحط بالقرب من شجرة السدر الكبيرة ، وان هدفه من ذلك اقامة هدنة بين قبيلة مزبان المتوفى وقبيلة الحجي ناصر وتحديد الدية التي يتوجب على الحجي ناصر دفعها .

وابلغت قاصد الناحي ان ينــذر جميع رؤساء قبيلة الحكام بالحضور الى المكان المحدد والذي يتخلف يضع نفسه تحت طائلة العقــاب الشديد . وكنت اعرف ان الحجي ناصر لن يحضر . فقد سرت شائعات قوية مفادها انـه اتصل

بالاتراك في شطرا ليجمع منهم المال الكافي لحمل قبائل سوق الشيوخ على القيام بثورة ضد البريطانيين .

وكنت واثقاً ان قاصد الناجي يؤيدني تأييداً كلياً لوجود ثارات قديمة بينه وبين الحجي ناصر وليس أحب إلى قلبه من اذلال الحجي ناصر وخضوعه لشروط الحكومة . وكانت هناك عقبات كبيرة . فشقيق الحجي ناصر كان مسيطراً على القبيلة ومن المتوقع أن يخرج ومعه عدد آخر من الشيوخ لمنع تأثير كلام قاصد الناجي في النفوس .

كل ذلك كان نوعاً من المقامرة ومع ذلك قررت تنفيذه بأي ثمن . ولكن الشيء الوحيد الذي كنت أخشاه ان تطلق النار على السفينتين وهما تسيران في النهر بمحاذاة ارض قبيلة الحكام لأن المنطقة كانت تغلي ، وتحدي سلطة الحكومة كان ظاهراً في كل مكان .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي سارت السفينتان حسب الخطة الموضوعة وكان الجنود يتمتعون بروح عالية وكذلك قائدهم الشاب الذي بدا متفائلاً وانا اقف بجانبه على دفة القيادة . وأعترف انني لم اكن بمثل ارتياحه لأنني كنت اعرف اكثر منه مدى خطورة هذه المغامرة لأنها قد تكون سبباً في اشعال الثورة بين جميع قبائل الجزيرة القوية . وعندئذ ستظهر الأشياء وتتصل المضاعفات والنتائج السيئة الى المقامات العليا . وكذلك لم أكن ارغب توريط الضابط الشاب في مشاكل هو في غنى عنها .

وظهرت الامور بمظهرها المشرق عندما رأينا بعد عشرين دقيقة من السفر مجموعة من العرب تحت شجرة السدر وبينهم قاصد الناجي الذي نجح في اقناع الرؤساء الثلاثة والاربعين بالقدوم .

ورست السفينتان على الشاطىء بعد أن عكستا الاتجاه وقفزت انا الى الشاطىء ومعي أربعة من جنود البحرية بسلاحهم الكامل . وحييت الشيوخ الواقفين قائلاً : السلام عليكم ثم دعوتهم للجلوس . وفي الحال أخذت نيران المدافع الرشاشة تنطلق فوق رؤوسنا فصرخت بأعلى صوتي مطمئناً الجميع بأنه لن

يصاب احد منهم بأذى اذا سلموا بنادقهم وساروا معي الى السفينة . وبعد ذلك قام قاصد الناحي واخذ يمتدحني ويمتدح الحكومة ويطمئن الجميع واعداً الجميع بأن يضع نفسه كفالة لسلامتهم . واضفت على ذلك قائلاً ان غداء سخياً ينتظرهم على ظهر السفينة وانهم سيكونون ضيوفي حتى صباح اليوم التالي وبعدها أعيدهم الى عائلاتهم معززين مكرمين .

وباشارة مني قام قاصد الناحي واخذ يجمع البنادق منهم واحداً بعد الآخر ويفرغها من الطلقات ويسلمها لجنود البحرية الذين نقلوا الاسلحة الى السفينة ودعوت الجميع ان يتبعوني ففعلوا بعد ان اسقط في يدهم .

وعندما بقيت لوحدي على الضفة مع قاصد الناحي امرت السفن ان تنتقل وترسو في وسط النهر . لأنني كنت اعرف ان عدة مئات من رجال القبائل يختبئون بين الاشجار والاقنية القريبة وشاهدت بعضهم ينتقلون من مكان الى مكان في حالة هياج وربما كانوا يعدون العدة لهجوم مفاجيء . ولكي يسمع هؤلاء ناديت ضيوفي بصوت عال باللغة العربية قائلاً انني سأحرق قرية الحجي ناصر ومضيفه ، واذا مسني أحد بسوء او اذا لم اعد خلال ثلاث ساعات فإن القائد البريطاني الشرس سيقتلهم جميعهم .

وفي الوقت الذي تحركت فيه السفن اطل الضابط قائد السفينتين من ظهر السفينة وتمنى لي حظاً سعيداً . ولكي اشجعه قلت له : انتهى الفصل الأول الأكثر خطورة والآن بقي الفصل الثاني .

وبدت على وجه قاصد الناحي علائم الدهشة عندما ابرزت خطتي الى العلن التي حجبتها عنه وبعد ذلك ضحك بصمت ومد يده ليصافحني وقال: ان شاءالله لا خطر علينا الآن يا دكسان ولكن في المستقبل الله كريم . ذاكرة العرب طويلة. يا الله فلنمضي .

وكان قاصد الناحي رجلاً شجاعاً. فتبعته بعيداً عن النهر في أرض معشوشبة ثم عبر حزام من اشجار النخيل يمتد مسافة ربع ميل . وعلى طرف الحزام وصلنا الى حقول واسعة فيها محاصيل ناضجة تنتظر الحصاد وبعدها بميل واحد

تقع قرية كبيرة مبنية من اوراق البردي والحصر ومحاطة بسور في احدى جهاته بني برج حربي (مفتول) .

« هذه هي قرية الحجي ناصر » قال قاصد ، « وتلك هي قلعته وعلى اليسار مضيفه » .

وكان المضيف الصغير الجميل الذي يشبه الى حد ما مضيفي في سوق الشيوخ ولكن اصغر منه ، قريباً منا وراء اشجار السدر على ضفة قناة صغيرة . وبجانب المضيف الجديد هذا يوجد مضيف قديم أكبر منه قـال قاصد ان الحجي ناصر يستخدمه حالياً مخزناً للحبوب .

وسرنا الى الامام . وبدون أي تأخير اخذت عود ثقاب واشعلت النار في المضيفين وبعد لحظات ارتفعت السنة اللهيب عالياً في الفضاء . وبدا قاصد عندئذ وكأن الرعب قد دب في نفسه ولكنه عاد وابتسم واظنه تذكر ان بينه وبـين الحجي ناصر احقاداً قديمة .

وصرخ قاصد بي « تعال » واخذنا نركض بسرعة نحو القرية .

وفي هذه الاثناء كانت اعمدة الدخان قد ارتفعت عالياً فوق اشجار النخيل وتطلعت الى الامام فرأيت رجالاً منهمكين في جمع امتعتهم وحوائجهم وبنادقهم في ايديهم . وكان هؤلاء يبتعدون على مسافة منا ولم يقترب أحدهم اكثر من ٥٠٠ ياردة منا . وعندما اقتربنا من القرية اشار قاصد الى جماعة من النساء والاطفال يخلون الجهة الأخرى من القرية . وقال قاصد : ها هم عيال الحجي ناصر يرحلون لقد علموا ان العقاب لقتل مزبان قد اتى ولذلك فقد هيأوا مصاغاتهم الذهبية الثمينة استعداداً للهرب فوراً .

وشعرت بالأسى والانقباض الاضطراري الى حـرق منازل هؤلاء الناس المساكين الفقراء لأنني كنت أحبهم . وربما رآني قاصد قد تلكأت فأخذ يركض بسرعة نحو القرية فوصل اليها قبلي بوقت قصير وهو يصرخ بعبارات والفاظ لم استطع سماعها بالضبط . وعندما لحقت به كان قد اشعل حزمة من سعف النخل وبدأ يضرم النار في الاكواخ وفي لحظات كانت القرية تحترق وكأنها اتون من نار .

وكان حرق المقتول في الجهة الاخرى من القرية اصعب بكثير من حرق الاكواخ ولكن قاصد وجد سلماً وصل بواسطته الى حافة البرج العليا واشعل فيها النار .

ولم يكن لدينا وقت نضيعه . فقد مضت ساعتان أو ثلاث وكان علينا بعد ان نحرق المحاصيل كلها أو نهرب بأمان الى النهر الذي يبعد عنا ميلاً ونصف الميل وساعدتنا الريح في حرق المحاصيل ، التي اعتقد انها قد دمرت جميعهـا ولكنني لست متـأكداً من ذلك لأن الريح كانت تهب باتجـاه النهر وكان علينا ان نسبق امتداد النار . وعندما اقتربنا من حزام النخيل كانت البلاد وراءنا ملتفة بالدخان الاسود . وشعرت بهذه المأساة في اعماقي بشدة ولكن قاصد كان يرقص فرحاً ويصرخ صرخات الحرب كلما اقتربنا من النهر .

واخيراً وصلنا الى شجرة السدر . وباشارة منا انزل لنا عـن ظهر السفينة قارب صغير وبعد ان صعدنا رفعت المراسي وسرنا الى سوق الشيوخ ببطء بينما كانت على ظهر السفينة الأخرى تقام وليمة اعتقد ان رهائني الثلاثة والاربعين قد استمتعوا بها جداً . وقد أخذ كاظم حمداني مجده في ذلك اليوم .

وبعد الغداء وشرب القهوة اعطي كل منهم عباءة جديدة وسمح لهم بالنزول الى سوق الشيوخ احراراً . وودعونا بدون كثير من الكلام واظنهم قد ارتاحوا لما آلت اليه الامور .

وظل الناس عدة ايام يتحدثون كيف انتقم دكـان لقتل ضيفه . اما بالنسبة لي فقد كان الامر مغامرة ضرورية وانتهت . وفي اليـوم التالي ودعت الضابط الشاب الجريء وقد اختلطت المشاعر في نفسي لأن أحداً غيري لم يكن ليعرف مدى خطورة هذه المغامرة التي لم تكن لتنفذ وتنجح بدونه .

واعطي قاصد مكافأة مناسبة واتفقنا على عدم ذكر هذه الحادثة . ومع ذلك اظن ان السير بيرسي كوكس قد علم بالأمر لأنه بعد عـدة اشهر في صيف سنة ١٩١٧ تلقيت منه وساماً بغير مناسبة .

ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد .

قاصد يدفع ضريبة الدم

وساد الأمن والنظام في منطقة سوق الشيوخ . وانتشرت الانباء بأن مساعد الضابط السياسي له طريقة خاصة في انزال العقاب بالمخالفين . فوجد رجال القبائل ان الطريق الاسلم هي دفع الضرائب والحضور عند استدعائهم .

اما الحجي ناصر فقد اختفى . منهم من يقول انه هرب الى الصحراء ومات هناك ، ومنهم من يقول انـه انضم الى مزهر باشا الضابط السياسي التركي الذي كان مقره الرئيسي في شطرا ، وآخرون يقولون انه على علاقة وثيقة بعجيمي بك السعدون الذي كان مع القوة التركية المسيطرة على السماوى .

ومضت اربعة اشهر اخذ يدور خلالها الهمس بأن عملاء تركيا ظهروا بين قبائل بحيرة الحمار ويعملون سراً من الاهوار لاشعال نار الثورة في منطقة سوق الشيوخ وغرضهم من ذلك قطع خطوط مواصلات البريطانيين مع الناصرية .

ولم تتأكد هذه الشائعات إلا انها بدأت بأن الحجي ناصر كان بين هؤلاء العملاء الذين كانوا يتخفون بشكل رجال الأهوار .

وأخذ الحجي حسن حمداني وابراهيم العماري هذه الشائعات على محمل الجد وطلبوا مني ان أكون حذراً . وهذان الرجلان يلفهما الغموض بشكل مزعج فلم يعطيا من الاثبات على صدق مـا يقولون إلا مثلاً دارجاً بين اهل الاهوار وهو : هب الشمال وبعد قليل سيشتد حتى يصبح عاصفة هوجاء .

وتفسير الرجلين لهذا كله ان رجـال القبائل يقصدون به ان الاتراك سيتحركون للعمل المضاد ، وان الاضطرابات ستنشأ في منطقـة سوق الشيوخ .

وفي ذلك الوقت تلقيت دعوة من الشيخ المسن مزعـل البشاره رئيس قبيلة الحسن لحضور المأدبة التي أقامها بمناسبة زواج ابنه حموده . وكان مركز القبيلة الرئيسي الى غرب بحيرة الحمار على قناة أم النخلة احد ثلاثـة فروع من الفرات تصب في البحيرة . وذلك يعني انني سأسافر مسافة ٢٠ ميلاً في النهر بالزورق وبعدها اقوم برحلة طويلة مضنية حتى اصل الى المكان . ومع ذلك قبلت الدعوة بالرغم من التحذيرات الخطيرة التي وجهها الحجي حسن حمداني وابراهيم العماري

والحجي علي الدبوس . حتى ان الحجي حسن جاء إليّ ليلاً وحاول بكل جهده ان يثنيني عن عزمي في الذهاب وقــال : هنالك خطر محدق لا استطيع ان احدد طبيعته وزمــان حدوثه . ولكن نحن العرب لدينــا طريقة في تحسس الأشياء . اقبل نصيحتي ولا تذهب .

وأجبته على قوله بأنه لم يعد من الممكن إلغـاء قبولي لدعوة الشيخ مزعل ، وإذا كان قد كتب ان يحدث لي شيء في اليوم التالي فلن استطيع ان امنع ذلك سواء ذهبت الى ام النخلة ام لم اذهب . وهنا نصحني الحجي حسن ان اصطحب معي ثلاثة على الأقل من شيوخ القبائل التي تسكن على ضفاف النهر حيث سأمر بزورقي . لأنه حسب العادات القبلية إذا اصطحب المرء رفيقاً او دليلاً (يدعى في العراق تسيار) في ارض قبيلة ذلك الدليل فإنه يصبح في مأمن من رجــال تلك القبيلة فكيف إذا اصطحب معه ثلاثة شيوخ .

واستحسنت اقـتراح الحجي حسن فطلبت منــه ان يهيء لذهاب كل من الحجي فيصل الياسر من قبيلة الحسن ، وفرهود الفندي من قبيلة الحكام (الضفة اليسرى) ، وقاصد الناحي من قبيلة الحكام (الضفة اليمنى) ، الذين فهموا تماماً لماذا اخترتهم للذهاب معي .

وبالإضافة الى هؤلاء رافقني ثمانية من رجــال الشبانه المسلحين . ولم يعكر صفو رحلتنا الى ام النخلة اي حادث وكانت وليمة الزفاف ناجحة للغاية . ومع أن الشيخ مزعل يبلغ اكثر من مئة عــام من العمر فقد كان يمثل منتهى اللباقة والظرف والكياسة وكان ابنه حموده كأحسن ما يكون الشباب .

وعندمــا انتهت الاحتفالات بدأنا طريقنا في العودة . وكان زورقي كبيراً وقوياً تمتد على سطحه ألواح خشبية مثبتة بقوة تستطيع حمل ثقل كبير . فعندما حل المساء واصبح الطقس لطيفاً مددت البسط والمساند فوق سطح غرفة القيادة ودعوت اصدقائي الثلاثة للانضمام إليّ .

وجلسنا نشرب القهوة وندخن السجاير ونقص الحكايات . وعندمـا قطعنا ارض قبيلة الحسن بالقرب من المكان الذي تفترق فيه أم النخلة عن مجرى الفرات

الرئيسي الى اليمين ادرت الزورق الى الضفة ودعوت فيصل اليـــاسر ان ينزل ويذهب إلى منزله . فوجوده معي خارج أرضه لم يكن ليفيد شيئاً في حمـايتي ، فوافق وشكرني بحرارة لأنني اصطحبته معي الى الوليمة ونزل .

وفعلت نفس الشيء بفرهود الفندي . فبعد ان تخطينا ارضه بسلام انزلنـاه على الشاطيء عند الحدود الغربية . وصرنا بعد ذلك في ارض قاصد الناحي التي تمتد تقريباً الى سوق الشيوخ . وهنا شعرت بالاطمئنان فجلست اتجاذب اطراف الحديث مع قاصد على ظهر الزورق . وقبل سوق الشيوخ بأربعة أميـال وصل بنا الزورق الى منعطف ضيق في النهر يبلغ عرضه ١٥٠ ياردة فقط يجري فيـه تيار قوي مما اضطرنا الى تخفيف السرعـة الى خمس عقد فقط . وعلى ضفتي النهر هناك تنمو اعشاب كثيرة وكثيفة . فلمـا اقتربنا من المنعطف لمحت بريق سلاح بين اوراق البردي قرب حافة المـــاء . ووقف رجل واخذ يلوح بعباءته ببطء وكأنه يعطي اشارة الى شخص او اشخاص مختبئين .

وبعد لحظات اطلقت علينا النار من بين الأعشاب الكثيفة على بعد ٨٠ ياردة فقط . وبلمح البصر دفعني قاصد الى الوراء لئلا اظل جالساً ولكن ذلك لم يمنع اصابتي بجرح في رجـلي وآخر تحت شفتي السفلى . وقذف قـــاصد بنفسه فوقي وغطاني بعباءته حتى لا يراني أحـد واخذ يصب الشتائم واللعنات على المعتدين الذين يريدون الأذى للشخص الذي يرافقه في ارضه . وصرخ بهم قـــائلاً : ألا تعرفون من أنا يا كلاب وأولاد الكلاب ! انا قاصد شيخكم .

وكنت اتخيل قاصد وهو يلوح بهراوته (مقوار) على اعداء غير منظورين . فلما رأوا شيخهم منبطحاً فوقي لم يتجرأوا ان يطلقوا النار عليّ ثانيـــة فصبوا نيرانهم على النخاده[1] (قائد الزورق) وعلى الذين يديرون المحرك على أمـل أن ينحرف الزورق الى الشاطيء . وسمعت أزيزاً هائلاً إذ بـــدأ رجالي الثمانية من الشبانه يردون على النار بالمثل ولكن على اهداف غير منظورة بينما أعطى النخاده أوامره بزيادة السرعة لكي يتخطى المنعطف بأسرع وقت ممكن .

وبعد ان عبرنا المنعطف توقف إطلاق النـار مثلما بدأ .. فجأة . فشكرت

قاصد الذي بدا عليه الانفعال لأنه أنقذ حياتي بهذه الجرأة . أمـا الزورق فقد اصيب بحوالي ٥٠ طلقة على جوانبه . وعلمت فيما بعـد ان الضحية الوحيدة التي قتلها رجالي كانت بقرة تقف على جانب النهر فسقطت فيه ميتة .

وسمـع سكان سوق الشيوخ صوت اطلاق النـار لأن المدينة لم تكن تبعد عن المكان إلا اربعة اميال كما يطير الغراب ، فتجمهر عـدد من الرجال والنساء والأطفال ينتظرون وصولنـا بالقرب من مرسى الزورق . وكانت شفتي تنزف بشدة وقد تبللت مقدمة قميصي بالدم مما أثار هؤلاء الناس . وأخذت عدة مئات من النسوة تجمهرن هناك تولولن . وانقلب العويل الى صرخات فرح عندمـا قفزت إلى الشاطىء مطمئناً الجميع بأنني بخير .

وأثرت هذه العواطف التي اظهرها سكان سوق الشيوخ نحوي تأثيراً عميقاً في نفسي لأنني كنت وحيداً بينهم . وألقيت فيهم كلمة قلت فيها أنني ما دمت حيـاً لن انسى استقبالهم لي وشعورهم نحوي . ولا يزال حب هؤلاء النـاس يتملكني حتى اليوم .

ولزمت الفراش ثلاثة او اربعة ايام لأن رجلي كانت تؤلمني . وخلال هـذه المدة جـاء قاصد لزيارتي وتبدو على وجهه علامات الغضب لوقوع هذا الحادث . وقال : يا صاحب . اصبح الآن بيني وبينك دم . فقـد سفك دمك في ارضي وانت تحت حمايتي ورعايتي . انه عار عليّ كبير . ومن الآن وحتى امسح هـذا العار يجب ان يرتفع فوق سطح منزلك علم أسود لكي يعرف الجميع .

وأخذ قاصد يلف علماً صغيراً اسوداً حول عصـا قصيرة ليعلقه فوق المنزل بينما كنت أحاول التخفيف عنه والتقليل من أهمية الحـادث فتركني والدموع في عينيه وكأنه طعن في قلبه ، وراح يبحث عن رجال قبيلته الذين نصبوا الكمين .

وعاد قاصد بعد خمسة ايام ليضع امامي كيساً فيه ثمانمائة روبية قال ان اربعمائة منها ثمن دمي والاربعمائة الاخرى حشم (بدل الشرف) لأن الاعتداء وقع عليّ وانا تحت رعايته . ولم يصغ قاصد قط إليّ وانا أحاول ان اقنعه وقال انه بهذه الطريقة فقط يستطيع ان يرفع رأسه عالياً بين قومه .

وخرج قاصد ليستدعي جماعة من النساء اتى بهن معه . فدخلن وبعد حديث قصير قدمن لي ابنة أخ قاصد وهي فتاة صغيرة طيبة تبلغ من العمر اربعة عشر عاماً . وقال قاصد ان الفتاة ستكون زوجتي لأن هذه هي طريقة القبيلة في الفصل . واخذ يشرح لي انه حسب عادات قبيلة الحكام ، إذا اعتدى احد أفراد القبيلة على رجل من قبيلة اخرى ، واعتبرت القبيلة ان رجلها مخطىء ، تعطى فتاة من اقرباء المعتدي ، بالإضافة الى التعويض المالي ، الى المعتدى عليه . فإذا كان المعتدى عليه قد قتل في الحادث فإن الفتاة تعطى الى اقرب الذكور إليه . والفكرة من ذلك هي ان الاطفال الذين سينتجون عن هذا الزواج يكونون وسيلة لإزالة الضغائن والأحقاد بين القبيلتين .

وكان معظم رجال قبائل سوق الشيوخ من أهل الاهوار ويعيشون حياة بدائية جداً . وكنت انا الرجل الانكليزي الوحيد الذي وقع نظرهم عليه ولذلك فلن يفهموا ان عاداتنا تختلف عن عاداتهم . وكان قاصد شرساً حاد الطبع ولكنني كنت أحبه لأنه كان مصلحاً ويرغب في احلال السلام . ولكي ارضيه اخذت منه المال ووزعته على الفقراء واهديته بدلاً منها زبوناً وعباءة جديدين من أجود الأنواع التي وجدتها وذلك لكي اطيب خاطره . اما بالنسبة للفتاة فقد ارجعتها الى اهلها بعد ان استشرت الحجي حسن حمداني وبعد ان اهديتها ثوبين جديدين . فقد أشار عليّ الحجي حسن ان اردها مع عبارة مجاملة تستعمل في مثل هذه الظروف وهي : قبلناها ورديناها لكم .

ولن انسى منظر اولئك النسوة اللواتي جلبن الفتاة معهن الى منزلي .

وبعد ذلك جاءني قاصد بنتيجة تحقيقاته في الحادث . فقال ان الاعتداء جاء من ارض البوحميدي وهم فرع من قبيلة الحكام . وقد انكر ياسر الشولان شيخ البوحميدي معرفته بالامر وقال ان غرباء قدموا الى أرض قاصد ليقترفوا الجريمة هناك حتى يشينوا قاصد المعروف بصداقته للحكومة .

وقال قاصد ان ياسر يكذب وانه يعرف جيداً ان مدبري الحادث هم من قبيلة الحكام ينتمون الى الحجي ناصر الذي وعده الاتراك باعطائه خمسماية ليرة

عثمانية مقابل تصفية مساعد الضابط السياسي البريطاني في سوق الشيوخ . (وانا اشك في صحة هذه الراوية) . وقال قاصد ايضاً ان الكمين كان يتألف من اثني عشر رجلاً برئاسة احد رجال القبائل قتل والده على يد البريطانيين في معركة شعيبه قرب الزبير منذ سنتين ، وقد الهب الحجي ناصر مشاعره ضدي . اما الحجي ناصر فلم يقترب من مكان الحادث بل ظل بعيداً في المستنقعات الشمالية من بحيرة الحمار حيث كان ينتظر انباء مصرعي التي ستكون الشرارة الأولى لاندلاع الثورة بين قبائل الاهوار وجيرانهم قبائل الجره . (وهذه راوية معقولة) .

والح قاصد على معاقبة اقربائه البوحميدي . فارسلت تقريراً بالموضوع الى القيادة العامة في الناصرية فارسلت لي فرقة من المشاة مزودة بزوارق مسلحة . وقطع هؤلاء الجنود حوالي ثلاثمائة شجرة من اشجار النخيل التي يملكها ياسر الشولان وعادوا الى الناصرية دون وقوع أي حادث لأن قاصد عمل على ان لا تكون هناك مقاومة لهم . وكان ذلك بنظر أهل المنطقة عقاباً صارماً .

وما ان انتهى هذا الحادث حتى وقع حادث آخر مكمل له . فبعد شهرين كنت في مجلسي الاسبوعي وانا اشعر بسعادة مفاجئة . وكنت قبل ان احضر الى المجلس قد شربت زجاجة من البيرة الانكليزية الفاخرة تلقيت صندوقاً منها من البصرة . وكان من بين الرؤساء المجتمعين في المجلس جماعة من شيوخ آل السعدون يرئسهم ثامر بك ويوسف بك المنصور ورجل من يدعى راشد الصقر وينتمي الى فرع غامض من آل السعدون . وكانت تظهر في وجه راشد آثار جرح بالغ على طول خده . وكنت انا قد انقذت ابنه الجريح في معركة شعيبه التي كان يقاتل فيها ضدنا . واصبح ابنه صديقي منذ ذلك الوقت .

وقطعت علينا حديثنا ضوضاء من خارج المضيف اندفع بعدها الى الداخل ستة من رجال الشبانه يجرون رجلاً أوثقوا رباطه ورموه على قدمي . وقد استغرب الجميع هذا المشهد وبدت على وجوههم علامات الفضول والدهشة .

وانفجر محمد العايل رئيس الشبانه قائلاً بانفعال ان هذا الرجل المكتوف

هو رئيس العصابة التي نصبت لي الكمين ، وانه قد القي عليه القبض في أرض قبيلة الحسن باشارة من قاصد الناحي . وأخذ الحاضرون في المجلس يتمتمون ويترقبون ما سأفعله بالرجل .

واوقف الرجل على قدميه . ويبدو ان رجال الشبانه قد اوسعوه ضرباً بحيث انه لم يستطع الوقوف إلا بصعوبة . واعترف بصراحة بالتهم الموجهة اليه وقال انه يشعر بالأسف لانه اخطأني ولم يستطع قتلي . ولما سألته عن الدافع لقتلي أجاب بتحد ان والده قتل على يد الانكليز في معركة شعيبه ولذلك فقد شعر من واجبه ان يقتل اي رجل انكليزي يصادفه . ولما سألته عما سيفعله اذا اطلقت سراحه فرد بوقاحة متناهية انه سيحاول قتلي مرة ثانية ، وانه ان شاء الله سينجح في المرة التالية . وأخيراً اعترف بان الحججي ناصر قد أدخل له هذه الافكار في رأسه بعد ان وعده بمكافأة جيدة اذا نجح في مهمته .

وكانت القضية واضحة تماماً ولكنني شعرت بالأسف على هذا الرجل خاصة وانني كنت أعرف انني اتناول شخصاً شرساً وبدائياً للغاية ويشعر في قرارة نفسه ان الحق الى جانبه . واتخذت قراراً سريعاً وأمرت ان يفك وثاق الرجل ويطلق سراحه . وقلت له : اذهب ولا تفعل مثل هذه الأعمال ثانية لئلا يكون عقابك شديداً .

لا أعرف ماذا دفعني لاتخاذ مثل هذا القرار . ربما كان البيره الانكليزية الفاخرة . وقد سمعت عبارات الاحتجاج والاستهجان من جميع الحاضرين وخاصة راشد الصقر الذي احمرت الندبة التي في خده وازرقت وصرخ فيّ غاضباً : هذا تصرف مجنون يا حضرة الصاحب .

ومع تقديري لراشد الصقر اصريت على تنفيذ ما أمرت به . ودهشت عندما فك وثاق الرجل فانفجر باكياً وركض نحوي وركع على ركبتيه أمامي وأخذ يقبل قدمي وركبتي . وكان كل ذلك مؤلماً واكد اعتقادي بان الرجل التعيس يحمل في نفسه كثيراً من الطيبة .

وجاء هذا الرجل بعد يومين الى منزلي وأخذ يتوسل الي ان اعينه سايساً

عندي لأنه يعرف بشؤون الخيل ولأنه يريد خدمتي . فأعطيته الفرصة وظل الى يوم موته بعد ست سنوات من الحادث أخلص خادم عرفته في حياتي . وهـل يعجب أحد بعد لماذا احببت رجال قبائل المنتفق ؟

وغضب مني قاصد طبعاً . وبعد مقابلة عاصفة بيني وبينه تركني وذهب الى عشيرته .

الفارس المتخفي

بعد هذه الاحداث التي رويناها سارت الامور على ما يرام في سوق الشيوخ. وقد استحدثت نظاماً لاعطاء المساعدات للشيوخ صغارهم وكبارهم مما ساعد على حفظ الهدوء في المنطقة . وبلغني ان الحجي ناصر العايل توجه شمالاً ورمى بنفسه نهائياً بين أحضان الأتراك . ويبدو ان ذلك فيه شيء من الصحة لأنـه لم تعد هنالك مشاكل وساد السلام بين قبائل الحكام وبني خيشان والمجره . وظل قاصد الناحي ينق كالضفدع ان الحجي ناصر لن ينسى احراق قريتـه ولا الدور الذي لعبه هو (اي قاصد) في ذلك . وكان حديثه المفضل ان الحجي ناصر يتقاضى راتباً ضخماً من الاتراك ويفاخر امامهم بانه يستطيع اشعال الثورة ضد الانكليز في لحظة .

ومرت ثمانيـة أشهر . وبعد ظهر أحد الايام ركبت حصاني واصطحبت كلبي السلوقيين وسرت في الفلاة مسافة ثلاثة أميال وراء سوق الشيوخ ولم أكن مسلحاً . ورأيت على مسافـة بعيدة فارساً وحيداً يتجه نحوي وتطلعت الى كل الجهات فلم أجد أثراً لبشر غيره . وظل الفـارس يسير ببطء ولم اكترث له في البداية ولكنه عندما اقترب مني لاحظت على وسط سرج حصانه بندقية تركية وكان وجهه ملثماً مما يثير ، في عالم القبائل ، مكامن الشك . وحاولت جهدي ان أظهر عدم اكتراثي فبقيت سائراً في اتجاهي . واتجـه الفارسي نحوي وتوقف قريباً مني . فتوقفت أنا ايضاً وحييته وسألته ما يريد . وبدون ان يتكلم ازاح الغطاء عن وجهه فتبينت انف الحجي ناصر المعقوف ووجهه الصارخ الجمـال .

فبادرني قائلا : هل عرفتني يا دكسان ؟ فأجبته : نعم ، اهلا بك يا حجي ناصر إن الله الذي يدبر كل شيء قد رماك بين يدي . قلت ذلك ولم أكن اعرف لماذا تفوهت به ولكن شعوراً بالهلع تملكني .

ورد عليّ الحجي ناصر قائلاً : على العكس يا دكسان ان الأقدار رمتك أنت بين يديّ . قل لي ماذا يمنعني من قتلك انتقاماً ؟ ألم تحرق منزلي ومضيفي وقريتي ومحاصيلي ؟ ألم تشترك مع قاصد النـــاحي بإنزال الخراب والعذاب على عائلتي وقبيلتي ؟

وكان وهو يتكلم ببطء يستل بندقيته من جانب السرج والقمها طلقـة وهو لا يزال هادئاً على ظهر حصانه . ورفض دمـاغي ان يعمل كما اريده واستبد بي الخوف ولكنني حاولت قدر المستطاع ان أحـافظ على هدوئي ورباطة جأشي وقلت له : يا حجي ناصر ان الله بالحقيقة أرسلك إليّ وكأنه كتب ان يتم هـذا الامر في هذا اليوم بالذات . فـلا تنس ان هنالك مكافأة قدرها عشرة آلاف روبية ثمناً لرأسك حياً او ميتاً . ماذا يضرك لو دفعت أنت المبلغ وسلمت نفسك للحكومة ؟ ان ذلك أفضل من ان يقتلك أحد وينال المكافأة .

فضحك الحجي ناصر هازئاً وقال : لا . لا لقد جئت آخذ حقي . لقد جاء يومك أخيراً .

ويبدو ان كلمتي أصابت هدفاً في نفس الحجي ناصر لأنه بدا عليه الجد فجأة وانحنى إلى الأمام وسألني :

— ماذا تقصد ؟ انني لا افهم . أنت تتكلم بالاحاجي يا دكسان .

وقد شجعتني ولا شك فوهة البندقية المصوبة الى ممدتي فبدأ دماغي يشتغل بأقصى سرعته .

فقلت له بهدوء وتأن : يا حجي ناصر قصدي ... انك لو تدفع أنت العشرة آلاف روبية وتسلم نفسك دون قيد او شرط ، فان ذلك سيرضي الحكومـــة ويقنعها ويستميلها الى الاصغاء لنصيحتي . أمـا انا من جهتي فانني سأحاول حل قضيتك على الطريقة العشائرية ، فيذهب القسم الأكبر من المال دية لعائلة الشيخ

مزبان . والباقي يكون بمثابة غرامة للحكومة بعد اقتطاع الحشم منـه المستحق لي لأنك قتلت ضيفاً تحت سقفي . اعمـل بنصيحتي يا حجي ناصر وثق انني سأحصل لك على عفو من الحكومة لكي يتسنى لك العودة الى ارضك وقبيلتك .

ونظر إليّ نظرة امتزج فيها الشك بالأمل وسألني : كيف سأدفع المـال ؟ وأنا لا احمل قبل هذا المبلغ ؟

فأجبته : انت تعرف أين وكيف تجده . اذهب واجلب المال وسألتقي بك عند الغروب بعد يومين عند البوابة الجنوبية من المدينة . ويجب ان تخفي وجهك بعناية وسأوافيك الى هناك لأضمن مرورك بسلام بين الحراس. انها كلمة شرف ولن أخدعك .

وصمت الحجي ناصر فترة ثم تنهد وادار وجهه إليّ وقـال : بالحقيقة ان الله كتب ذلك . سأكون عند البوابة يا دكـان بعد غد عند الغروب ان شاء الله ولكن قبل ان اذهب أحلف بوجهك انك ستحافظ على كلمتك .

فأكدت له ذلك بقولي : بوجهي يا حجي ناصر تجي سالم ان شاء الله بعد تسليم الفصل والحشم على موجب قواعد العشاير .

ويبدو ان الحجي ناصر اقتنع بذلك فـأدار فرسه وانطلق ، دون ان ينبس ببنت شفة الى الجهة الشمالية الغربية .

وحافظ الحجي ناصر على كلمته فوافيته الى البوابـة الجنوبية عند الغروب بعد يومين ومر وسط استهجان الحراس واستغرابهم فاقتدتـه الى منزلي رأساً . وهناك سلمني المبلغ المطلوب وكان معظمه اوراق نقدية من إصدار حكومـة الهند . اما من اين حصل عليهـا فسيظل ذلك لغزاً . ولمقتضيات الأمن ظل الحجي ناصر في منزلي الى ان تمكنت من عقد مجلس عشائري حضره جميع شيوخ قبيلة الحكام بإشراف ثامر بك السعدون والسيد عوده .

وهنا يجدر بي ان أعرف صديقي ذو العمامة الزرقاء السيد عوده . انه يعيش في عزلة كالناسك بالقرب من سوق الشيوخ بين قبيلة النواشي الصغيرة . وكنت استخدمه كثيراً في حل النزاعات العشائرية التي تتطلب حلف اليمين لأن أهل

المنطقة كانوا ينظرون إليه كأنه قديس او ولي بحيث انهم يعتقدون ان من يقسم يميناً كاذباً امـــام السيد عوده فإنه يتعرض لأن يصاب بمرض من الامراض او للانتقام او لفساد محاصيله او موت ماشيته او أيـة مصيبة اخرى ، ليس فقط على الشخص الكاذب نفسه بل على افراد عائلته ايضاً . وكان السيد عوده بذلك نافعاً لي أشد النفع .

وبمـا ان قضية الحجي ناصر كانت مهمة فقد قررت ان أجعلها عبرة . فأصريت على ان يدفع الفصل مضاعفاً لأقارب مزبان وان يدفع مبلغ مماثل لي كحشم . وما تبقى من العشرة آلاف روبية يذهب الى الحكومة كغرامة .

وقـد ساهم نفوذ نامر بك في قبائل الجره التي تشكل قبيلة الحكام جزءاً منها ، كثيراً على وضع حل مرض لهذه القضية الشهيرة . ولن انس ان اخص بالذكر المساعدة القيمة التي اسداها السيد عوده في هـذا المضمار . امـا الحشم ومقداره ألفان واربعماية روبية فقد انفقت قسماً كبيراً منه على مدرسة انشأتها ووزعت الباقي على فقراء المدينة ، ورضي الجميع .

وابلغت السير بيرسي كوكس بالامر في الوقت المناسب فأرسل إليّ برقية فيها بعض الملاحظات عن قبولي عشرة آلاف روبية ثمناً لحيـاة الحجي ناصر ولكنه في النهاية وافق على الطريقة التي حلت بها القضية . وازداد بذلك نفوذي في المنطقة . فالعالم دائماً يحب الرجل المخادع وكان الحجي ناصر شهيراً .

الفصل الثامن

سوق الشيوخ

١٩١٧ - ١٩١٨

انهيار سد المجاشيه

واجهتني حالة صعبة أثناء موسم الفيضان سنة ١٩١٧ . فسوق الشيوخ تقع في وسط الدلتا التي يشكلها الفرات حيث يجري الى الناحية الغربية من بحيرة الحمار . وفوق المدينة وتحتها مباشرة ينقسم النهر الى قناة الحكيكة وقناة ام النخلة وقناة المزلق ، بينما تتفرع أربع أو خمس أقنية منه على الجانبين ، وبعد ان تروي مساحات شاسعة من الأرض تجد طريقها الى بحيرة الحمار عن طريق المستنقعات . واكبر هذه الأقنية الجانبية تدعى قناة المجاشية . وفي الوقت الذي كتبت فيه هذا الكلام كانت هذه القناة تتسع يوماً بعد يوم لانها تتفرع من النهر وسط منعطف واسع على شكل هلال . وقد تصبح في يوم من الأيام المجرى الرئيسي للفرات .

لم تكن لدينا دائرة للري في ذلك الوقت وكانت القبائل تفعل ما تشاء بالنسبة لاقامة السدود في الأماكن المناسبة لري أراضيها . وخطة القبائل هي جني موسمين من الارض : موسم قمح أو شعير وموسم أرز . أما الموسم الأول فيزرع

في الخريف ويحصد في أيار حين يرتفع نهر الفرات بسبب ذوبان الثلوج في تركيا وتغطى الأرض التي كانت مزروعة قمحاً بالمـاء عن قصد وذلك لأجل زرعها بالأرز الذي يحتاج الى كثير من الماء من وقت زراعته الى وقت نضوجه .

ويعتبر موسم الأرز الموسم الأفضل والأغلى وكانت طريقة القبائل كما يلي : يزرع القمح او الشعير اعتماداً على مياه الامطار . وعندما ينضج الزرع يروى بجر المياه اليه في وقت يكون النهر في أقصى انخفاض . لذلك كانت تبذل الجهود في كل مكان ، أما بالتعاون او بتنازع المصالح ، لبناء السدود عبر القنوات الكبيرة المتفرعة من المجرى الرئيسي ، وذلك لرفع مستوى المياه فيها ليصبح ري حقول القمح ممكناً بطريقة الجر .

ومع حصاد الموسم الاول يأتي الفيضان السنوي وتهدم معظم تلك السدود للتخفيف عن النهر الرئيسي . واذا لم يفعل ذلك فان مياه الفيضان لا تمنع زراعة الأرز فحسب ، بل تغرق القرى والأماكن المأهولة بمن فيها .

والوقت بين حصاد المواسم الشتوية وموسم الفيضان ضيق ويمكن حسابه بدقة في السنوات العادية . ولكن هذه الحسابات تخطيء احياناً . فاذا تساقطت الثلوج على الجبال الشمالية البعيدة بكثرة وذابت بسرعة في وقت مبكر ، فان الفرات سيرتفع ، قبل حصاد القمح او الشعير ، الى درجة غير طبيعية . وتمنع السدود القائمة المياه من الانحدار الى بحيرة الحمار عبر القنوات الفرعية فتتعرض بذلك الى الخطر جميع المساحات الشاسعة المزروعة . ويتأثر بذلك اكثر من غيرهم القبائل القريبة من بحيرة الحمار ويشعرون بالحاجة الى الانقاذ والغوث اكثر من أولئك الذين يعيشون قرب مدينة سوق الشيوخ حيث تعلو ضفاف الفرات .

ان الطريقة الوحيدة لانقاذ المحاصيل الزراعية في حالة طارئة كهذه هي فتح المجال للنهر ان يجري الى بحيرة الحمار بسرعة . ولتحقيق ذلـك يتوجب هدم واحد أو اكثر من سدود القبائل . وهنا تنشأ المشكلة . فكل قبيلة لا تريد هدم سدودها وترغب ان ترى سدود جاراتها تهدم أولاً . ونتيجة لذلك في مثل هذه الظروف ، كانت القبائـل تحاول هدم سدود بعضها البعض لاسيما واذا كانت

الحكومة المحلية ضعيفة او لا وجود لها كما كانت الحال في السنوات الخمس عشرة التي سبقت دخول الانكليز . وغالباً ما كان يدفع ذلك بالقبائل الى الاقتتال ويكون النصر عادة حليف الأقوى .

وشهدت سنة ١٩١٧ فيضاناً غير عادي. ففي نهاية شهر نيسان ارتفع الفرات الى درجة مخيفة . ولم يكن القمح قد نضج في كثير من المناطق ويحتاج الى سقاية بعد ، ولذلك كانت جميع السدود سليمة . وأسرع رجال القبائل وأصحاب البساتين من قريب ومن بعيد الى ضفاف النهر وبدأوا بتعلية الاتربة عليها على أمل انهم قد ينجحون في منع الماء من التدفق قبل قدوم الفيضان الرئيسي .

وكنت كل ساعة أتلقى في سوق الشيوخ طلباً باتخاذ اجراءات رسمية لمنع الكارثة . فاذا لم يفعل شيء ولم استخدم سلطتي فمعنى ذلك ان محاصيل المنطقة كلها ستتلف وستغرق معها مدينة سوق الشيوخ . اما نصائح مستشاري فكانت متناقضة . كل يبدي الرأي الذي يلائم اغراضه لأنهم جميعهم لديهم اصدقاء بين مختلف القبائل ووجدوا في ذلك فرصة لزيادة نفوذهم عن طريق اقناع الحاكم بهدم ذاك السد بدلاً من السد الذي قد تكون لهم فيه مصلحة . فوجدت انني سأتحمل اللوم مهما كانت النتيجة. وكان الوقت حرجاً وليس من يساعدني والمنطقة بأسوأ أحوالها .

وظلت مياه النهر الصفراء المحملة بالاتربة ترتفع في دلتا سوق الشيوخ حتى أصبحت أعلى من الأرض المحيطة بها بعشرة أقدام ، وبدأت تتدفق من فوق الحافة الترابية على الضفتين . وكان أي تصدع في أي مكان يعني اغراق المنطقة جميعها بالماء وتلف المحاصيل الزراعية . ومما زاد الامور سوءاً ظهور روح المقامرة العربية بأجلى صورها . فتهديم اي سد من السد سينتج عنه اغراق مئات الأفدنة المزروعة بالقمح وراء السد وعلى جانبيه . ولذلك كان اصحاب السدود على استعداد ان يدافعوا عن سدودهم الى الرمق الاخير . وكان هنالك حراس مسلحون يقومون بحراسة هذه السدود في الليل والنهار ، وكان الرأي السائد هو : فليتحمل الجميع النكبة افضل من ان تتحملها قبيلة واحدة .

وكان علي ان افعل شيئاً حاسماً وبصورة سرية للغاية . وفي حالة من اليأس قررت هدم سد المجاشيه الكبير الذي يبعد عن المدينة خمسة أميـــال . وكنت أعرف انه ليس عليّ إلا فتح ثغرة صغيرة في اعلى السد ، ومياه النهر المتدفقة كفيلة بالباقي . اما المشكلة هي كيف استطيع القيـام بذلك وحراس مسلحون يحرسون السد . فركبت زورقي البخـاري ورحت استكشف المكان وعرجت على عدة سدود اخرى حتى لا ألفت إليّ الانظار ، فوجدت ان اربعة حراس فقط يقومون بحراسة سد المجاشيه وكلهم من الجهة الشرقية ولم تكن حراستهم يقظة .

وعدت الى سوق الشيوخ متفائلاً لأضع خططي . وكنت على يقين انني إذا عرضت الفكرة على أصحاب السد سيعارضون ويقاومون ولذلك صرفت النظر عن محاولة هدم السد بالقوة في وضح النهار وقررت اللجوء إلى خطط سرية تنفذ تحت جنح الظلام .

وفي الليل ركبت مشحوفاً مع محمد العايل واثنين من الشبانه واخذت معي معولاً ، واتجهنا إلى مدخل قناة المجاشيه من الجهة اليمنى . وكان السد يبعد عن مدخل القناة حوالي ثلاثمائة ياردة . وكان الظلام شديداً عندما اسرعنا الى السد من الجهة الغربية للقناة ويبدو أن الحراس على الجهة الشرقية كانوا يغطون في النوم .

وتسلقت أنا ومحمد العايل الى ظهر السد الذي تبلغ سماكته ١٢ قدماً وبدأنا نحفر على طوله خندقاً عرضه قدمين . ولم يكن العمل صعباً وكان بالامكان حفر الخندق باليدين لأن تلك السدود مصنوعة من الطين المجبول بالقش . والعمـــل الاصعب كان فتح الثغرة في القسم الاعلى من السد وهو القسم المصنوع من الطوب المشوي . ولذلك استخدمنا المعول بحذر دون ان نتمكن من الضرب بشدة لئلا يستيقظ الحراس على الصوت .

واستمرينا في العمل بصمت مـدة ساعة كاملة حتى لم يبق أمامنا إلا ثلاثـة أقدام تقف في وجه ضغط الماء . وعندما فتحنا فجوة عميقة في السد حفرنا الاقدام

الثلاثة المتبقية بسرعة البرق واسرعنا الى المشحوف وهربنا فيه بأقصى سرعة ممكنة الى نقطة تبعد مئة ياردة عن السد ووقفنا هناك نرقب النتيجة .

وسار كل شيء حسب الخطة المرسومة . فبعد ان تدفقت الماء في الثغرة التي فتحناها سمعنا هدير مياه نهر وهي تشق السد لتنفذ منه . وعرفنا عندئذ ان الخطة نجحت اذ ان شيئاً لن يستطيع منع المياه من شق السد وجرفه في طريقها. وعدنا الى المدينة قبل ان يشتد التيار الناتج عن تدفق المياه عبر السد لئلا نعجز عن التجديف .

وطرح الحراس الصوت ولكن بعد فوات الأوان . وسمعنا عن بعد أصوات رجال القبيلة وصراخ النساء في القرية المجاورة وهم يحاولون عبثاً منع المياه المتدفقة .

ووصلنا الى المدينة في الساعة الثالثة صباحاً وهناك طلبت من محمد والرجلين ان يكتموا السر .

وأنقذت مدينة سوق الشيوخ من الغرق . ففي الصباح كانت مياه النهر قد انخفضت قدمين كاملين . وقد جاء الحجي حسن حمداني باكراً في الصباح ليبلغني ان سد المجاشيه قد تصدع أثناء الليل وجرفته المياه ، وقال : انه لطف الله ... رحمة الله هي التي قررت اي سد يجب ان ينهار .. شكراً لله .

وكنت لا أزال في فراشي في ذلك الوقت اغالب النعاس ومع ذلك نهضت لأستقبل وجهاء المدينة وأتقبل منهم التهاني والاخبار مع قهوة الصباح في المجلس.

وظل الأمر سراً . فلم يعرف احد الدور الذي قمت به في تهديم السد حتى بعد ان غادرت مدينة السوق . وظل رجال الشبانه الثلاثة عند كلامهم فكتموا السر أيضاً . ومع انني بذلك انقذت المدينة وعدة آلاف من الافدنة المزروعة قمحاً على مسافة عشرات الاميال من الضفة اليمنى للفرات ، فقد غرقت كل المنطقة الواقعة وراء سد المجاشيه على الضفة اليسرى من النهر وتلفت المزروعات فيها حتى بحيرة الحمار . ولم استطع تقدير الاضرار التي نجمت عن ذلك ولكن مما لا شك فيه انها كانت جسيمة للغاية . ولم أحاول ان احصل على تعويض عن ذلك من

الحكومة لانها سابقة لم يكن قد سمع بها أحد في تلك المنطقة .

وكرهت نفسي مدة من الزمن لأنني قمت بذلك الدور ولم أقدر ان انسى أولئك المساكين الذين حل بهم الدمار والخراب نتيجة لذلك العمل ولكنني اضطررت الى التضحية بالاقلية لأنقذ الاكثرية . فهل هذا مبرر ؟ القبائل تقول « لا » حتماً !

وتلقى مساعدو الضباط السياسيين على الفرات، بما فيهم أنا ، دعوة الى العشاء ليلة عيد الميلاد سنة ١٩١٧ من الميجر يونغ (توفي سنة ١٩٥٠) مساعد الضابط السياسي في الناصرية .

وحتى ذلك الوقت كان كل منا يحكم منطقة منفصلة ويتعامل مباشرة مع السير بيرسي كوكس في البصره . ولكن الميجر يونغ كان طموحاً ، فأبلغنا ، بعد ان تناولنا طعاماً شهياً وشربنا كثيراً من الشمبانيا ، انه من أجل ان تكون الادارة أكثر فعالية ومن اجل الضرورات المالية ، سيقترح على السير بيرسي كوكس تعيينه (اي الميجر يونغ) ضابطاً سياسياً على الفرات وان نكون نحن تابعين له . فرحبنا بالفكرة دون أن نفهم ما وراءها ودون ان نهتم بمعرفة ابعادها وقد طغى علينا لسان مضيفنا الناعم وسخاؤه المنقطع النظير .

وإنصافاً للميجور يونغ أقول انه في زمن الأتراك كانت الناصرية هي المركز الاداري للواء المنتفق كله . وليس امراً سيئاً ان نحذو حـــذو الأتراك في مثل هذه القضايا لأنهم كانوا دائماً يحاولون ضم جميع القبائل التي تشكل اتحاداً واحداً، تحت إدارة واحدة . ولم يكن الخطأ في طريقة الاتراك هـذه ، بل في اساليب الموظفين الذين كانوا يتولون شؤون الادارة .

وكانت القيادة العامة للفرات في الناصرية . وربما كان الميجر يونغ قد فكر ، وليس بدون أسباب موجبة ، انه من الاسهل إدارة منطقة سيئة منقطعة تماماً عن البصره ، من المكان الذي توجد فيه القيادة العامة لا سيما وان تلك القيادة كانت مسؤولة عن المنطقة كلها وعن خطوط المواصلات حتى القرنه .

ولم نظن بعد حفلة عيد الميلاد العامرة أن الميجر يونغ كان جاداً في الموضوع

او انه سيقوم فعلاً بتقديم اقتراحه الى السير بيرسي بصورة رسمية . ولكنه فعل ودفعنا نحن الثمن .

وغضب السير بيرسي عندما تلقى الاقتراح وبعد اسبوع امر بنقلنا جميعاً . وكنا ستة بما في ذلك الميجر يونغ الذي نقل مكاني الى سوق الشيوخ . وتلقيت برقية من السير بيرسي يبلغني فيها دون إعطاء الأسباب انه قرر اعادتي الى الجيش وامرني بالالتحاق بدائرة المشتريات في العمارة . وكنت أحب عملي في سوق الشيوخ والناس الذين كنت اتعامل معهم ولكنني لم أكف عن التفكير بأنني اعتبرت غير كفء وغير جدير بتحمل المسؤوليات . ولم أعرف حقيقة ما حدث إلا عندما وصل الميجر يونغ الى سوق الشيوخ وكيف ان تصرفه الأحمق سبب كل هذه المشاكل وهدم كل ما بنيته طيلة السنوات الماضية . وقد لمت الميجر يونغ لأنه هدم مستقبلي في الدائرة السياسية .

ولكن الأوامر هي الاوامر . فبعد ان سلمت اعمالي ، وأنا منكسر القلب ، الى الميجر يونغ ، جمعت حوائجي ونقلتها الى زورق صغير وودعت جميع الشيوخ وسرت في طريقي الى البصرة حيث كان علي ان اثبت وجودي قبل الانتقال الى العمارة .

واستغرقت رحلتي الى البصرة خمسة أيام اذ اعاقت سيري في بحيرة الحمار الامطار الغزيرة والرياح الشديدة ، فبقي زورقي غارقاً في الوحل يومين وليلتين خارج قناة المزلق . ولم يستطع صديقي حاتم المزان شيخ الجوابر الذين يقطنون على ضفتي المزلق ، ان يحركني خطوة واحدة من مكاني بكل ما لديه من خيول ورجال . ولم أستطع استئناف السفر إلا عندما هبت ريح جنوبية فارتفعت مياه البحيرة قليلاً .

وفور وصولي الى البصرة توجهت الى الدائرة السياسية لاثبات الوجود وتلقي الاوامر . ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت هناك جميع شيوخ سوق الشيوخ تقريباً وقد جلسوا في باحة مبنى الدائرة السياسية ومعهم امتعتهم . ولقد تضايقت من ذلك لانني سأتهم بأني دبرت الأمر . والحقيقة ان هؤلاء سبقوني الى

البصرة دون ان يخبروني . وقد جاء بعضهم على الخيل وبعضهم الآخر بالمشاحيف عن طريق ام النخلة والغبيشية ، اي مسافة مئة ميل تقريباً . وكان عددهم حوالي ٥٠ شيخاً بينهم ثامر بك وعجيل بك ويوسف بك وعبدالعزيز الراشد (وكلهم من عائلة السعدون)، وجميع شيوخ بني خيقان والجره تقريباً يرئسهم قاصد الناحي.

وكانوا مجتمعين كلهم في الباحة عندما دخلت فهرعوا لتحيتي ، منهم من صافحني بالأيدي ومنهم من قبلني على الوجنتين . وعندما سألتهم عن سبب قدومهم ، أجاب قاصد الناحي بانهم أتوا ليرجعوني الى سوق الشيوخ وقال : ان شاالله كوكس ما يقصر . ويقصد بذلك انهم يأملون ان لا يخيب كوكس طلبهم.

وتركتهم ونزلت الى مكتب جيرترود بل فأبلغتني ان الشيوخ أتوا في اليوم السابق وقدموا عريضة تطالب باعادتي ، كما انهم رفضوا العودة او الخروج من الدائرة السياسية إلا اذا حصلوا على جواب مرضٍ . ولم تنفع في اقناعهم ايـة حجة ، وذهبت عبثاً كل المحاولات لحملهم على الانتقال الى فنادق العشار او مقاهيها .

وأخبرتني الآنسة بل ان السير بيرسي ابدى انزعاجه لكل ما حدث ويعتقد انني انا الذي دبرت كل شيء ، ولذلك طلب ان اقابله فور وصولي .

ووجدت السير بيرسي بأسوأ حالاته . فسألني ببرود مـاذا أقصد بالسماح لجميع شيوخ السوق بالقدوم الى البصره دون استئذانـه ، وأمرني باعادتهم من حيث أتوا فوراً ، وقـال انه يرفض مقابلتهم أو مناقشتهم حول العريضة التي قدموها ، وأنه من الافضل ان اطيع الأوامر .

وعندما تمكنت من الكلام اقسمت له بشرفي انني لم أكن اعرف بقدومهم وإنني تأخرت على الطريق ، وأبلغته انني سلمت أعمالي الى الميجر يونغ الذي كان من واجبه ان يمنع الشيوخ من المجيء الى البصرة . وقلت له انني جندي مخلص وأعرف كيف اطيـع الاوامر ، ولكنني أود أن اعرف اي خطأ ارتكبته أو ذنب جنيته في سوق الشيوخ استدعى نقلي بهذه السرعة من الدائرة السياسية الى الجيش بدون اي تفسير ، وأنه يجب ان يعرف ان هذا العمل قد يقضي على جميع

آمالي ومطامحي . وأخيراً توصلت اليه ان لا يصب غضبه على الشيوخ لأنهم قوم طيبون ويسيرون على سجيتهم ، وأن تصرفهم هــذا ناتج عن جهلهم لعادات البريطانيين وعن شعورهم بالولاء والاخلاص لي ، وطلبت منه أن يقابلهم ويصغي الى ما سيقولونه .

وأخيراً اقتنع السير بيرسي وأمرني ان ادعو الشيوخ اليه وان اطلب اعداد القهوة لهم . ودخــل الشيوخ جميعهم الى الغرفــة وقدمت كراسي لشيوخ آل السعدون بينما جلس الباقون على الأرض يحتسون القهوة التي قدمت لهم على الفور .

وكان موقفي صعباً اذ انني كنت سأقوم بالترجمــة وانقل وجهة نظر السير بيرسي الذي كان لا يزال متوتراً . وعندمــا بدأت الامور تتعقد نهض قاصد الناحي فجأة والدموع تنساب على خديه وخلع كوفيته وعقاله واندفع نحو السير بيرسي وطوق بهما عنقه وقال له : نحن داخلين على الله وعليك . اعطينا دكــان .

وكان منظراً غريباً ان يشاهد المرء كبير الضباط السياسيين في العراق وقـد تجمع حوله عدد من رجال القبائل يطوقون بكوفياتهم رأسه ويديه وحتى رجليه . وانكسر الجليد وبدأ السير بيرسي يضحك وهو يحــاول التملص من قبضتهم فاستنجد بي . وبعــد جهــد ليس بقليل اقنعت قاصد والآخرين ان يعودوا للجلوس في أمــاكنهم . كان منظراً مضحكاً بالفعل ولكن علامات الأمــل والاستبشار كانت بادية على الوجوه .

وطلب السير بيرسي ان تحضر القهوة والسجاير وأبلغ الجمع بهدوء انه سيفكر بالأمر وانه مستعد للنظر بعطف على عريضتهم وسيعمل جهده لتحقيق رغباتهم ، ولكن هنالك بعض الصعوبات . وطلب منهم ان يذهبوا الى المدينة ويعودوا في اليوم التالي فيجتمع بهم ويعطيهم الجواب . وعندما رأى السير بيرسي التلهف في نظراتهم قال لهم انه يأمل ان يكون الجواب على خاطرهم .

وانتهت المقابلة وكلفت ان ابعد الشيوخ عن باحة الدائرة ففعلت وعدت الى مكتب السير بيرسي فواجهني بنظرة تأمل وقال : الى هنا كل شيء على ما يرام يا ديكسون ولكن كيف سأتراجع عن أوامري الى يونغ ؟ إنه الآن مسؤول عن

سوق الشيوخ .

فألمحت اليه بكياسة بأنني أعرف ان يونغ يكره فكرة البقاء في سوق الشيوخ واعتقد انه يقبل ان يبادلني المنصب فيأتي هو الى دائرة المشتريات في العمارة وأعود أنا الى سوق الشيوخ .

« حسناً جداً » قال السير بيرسي . « إذا كنت تستطيع أن تنهي الموضوع بهذا الشكل فسأصدر امراً بالتبادل بينكما . ولكن عليك انت ان تقترح ذلك على يونغ ، فأنا لا أقدر ان اتراجع عن أوامري فقد أبلغت قائد الجيش بها . »

واستأذنني دقيقة واخذ ورقة وكتب عليها شيئاً ثم سلمها إليّ قائلاً : أظن أن هذه ستسوي الأمور .

وكانت تلك الورقة مسودة برقية الى يونغ مكتوبة عن لساني تقول انني قد وصلت الى البصرة وقابلت كبير الضباط السياسيين ، وانني أعتقد انه نتيجة لذلك سينظر السير بيرسي بعين العطف إذا تقدم يونغ بطلب لتبادل المناصب معي ، وتتطلب البرقية في النهاية جواباً على جناح السرعة .

وفي اليوم التالي عندما تجمع الشيوخ في غرفة السير بيرسي ليستمعوا الى قراره ، أبرز لي السير بيرسي برقية كتب عليها « مستعجل » ويطلب فيها الميجر يونغ السماح له بالانتقال الى دائرة المشتريات في الجيش مكان ديكسون الذي فهم انه يرغب في العودة الى سوق الشيوخ . وأعطاني السير بيرسي ايضاً جوابه بالموافقة لأقرأه .

وابتسم السير بيرسي والتفت نحو الشيوخ وبعد أن سألهم عن صحتهم وعما إذا كانوا قد قضوا ليلة مريحة في فنادق المدينة ، أبلغهم انه فكر ملياً في طلبهم المتعلق بالكابتن ديكسون وقرر إعادته الى سوق الشيوخ . ولا يمكنني وصف الحماس الذي استقبل الشيوخ به القرار .

لقد كان السير بيرسي زكريا كوكس رجلاً عظيماً . ومن السهل ان يفهم المرء أسباب تمتعه بشعبية كبيرة بين أهل العراق ، والاحترام الكبير الذي لا يزالون يكنونه له حتى اليوم . وستمر سنوات كثيرة قبل أن يمحى اسمه من

اذهان هؤلاء الناس .

وكانت عودتي الى سوق الشيوخ نصراً لا ينسى . وحاولت ان تتميز بالهدوء وعدم التظاهر ولكن ذلك لم يكن بيدي . فقد كان ذلك يوماً عظيماً عند قاصد الناحي .

وبقيت في سوق الشيوخ بعد ذلك سنة واحدة أصبحت بعدهـا ضابطاً سياسياً على كل المنتفق وكان مقري الرئيسي في الناصرية على بعد ٣٠ ميلاً فقط من سوق الشيوخ .

حسين القبيح والبرج الحربي

حسين القبيح رجل مسن وهو شيخ الجوارين . والجوارين قوم شبه رحل من رعـاة الأغنام في منطقة سوق الشيوخ يقيمون في الصيف بجوار أم البطوش ، ويتوجهون في فصل الخريف إلى الصحراء الجنوبية بين العراق والكويت حيث يقيمون لمدة ستة أشهر . وهم عرب أقحاح يفاخرون دائماً بأنهم من فرع أجود في المنتفق ، ولكنهم كانوا فقراء . وكان حسين القبيح يزرع بعض الارض عنـد ثامر بك السعدون بين ام البطوش ومدينة السوق . ومع انـه محبب للنفس ، لكنه كان شرس الطبع ولم يكن يتورع عن اغتصاب املاك غيره إذا سنحت له الفرصة ووجد في ذلك فائدة له . اما أتباعه فكثيرون ومسلحون جيداً .

وفي يوم من ايام صيف سنة ١٩١٨ جاء ثامر بك مسرعاً ليقابلني ومعه كاتبه الكردي الملا أحمد . وشكا لي وهو هـائج متوتر ان حسين القبيح استولى على أحد الابراج الحربية التي تحمي ارضه . ويشرف هذا البرج على مساحة من الأرض كان قد زرعها حسين أرزاً لحساب ثامر بك .

ورفض حسين ان يخلي المقتول واكد نواياه واصراره على ان يصبح مـالكاً للارض كما فعل غيره في الايام الأولى حين لم يكن احـد يقيم في تلك المناطق . وجواباً على احتجاجات ثامر بك اعلن حسين نفسه في خدمة الاتراك ، وأبلغ رسل ثامر الذين ذهبوا لإقناعه بأنه لا يتعرف على ثامر بك ولا على دكسون ولا

على حكومة الانكليز ، وانه يتحدى أي شخص ان يزحزحـــه من مكانه او يجبره على إخلاء المكان .

وأعترف انه عندما كنت أصغي لتامر بك وهو يصب غضبه على « سركاله » السابق ، كانت مشاعري وعواطفي مـــع حسين القبيح ، لأن تامر نفسه سرق الارض التي لم تكن ملكه في فترة الفوضى بين مغادرة الاتراك وقدوم الانكليز . وأخذت اهدىء تامر بك واطيب خـاطر الملا أحمد واعداً ان افعل كل مـــا أستطيـع .

ويبعد المقتول المستولى عليه ثلاثة أميال فقط عن مدينة السوق على الطريق الى الحميسية ، ويمكن رؤيته بالعين المجردة من سطح منزلي .

وأرسلت في طلب حسين القبيح رسمياً فحضر الى مكتبي في الوقت المحدد . وكان في حوالي الستين من العمر رث الثياب ، وقـــد لفحته الشمس وتتطاير الشرر من عينيه . ويبدو انه لم ينتعل حذاء قط في حياته ، فكان قدماه اشبه بقدمي جمل . ويدل ذلك على انه رجل من الصحراء قبل كل شيء قضى معظم حياته يسير حافياً على الرمال الساخنة .

وكان يضحك ضحكة فيها الكثير من التمرد فلم اقدر إلا ان احبه . وقـال ان والده من قبله كان يزرع الارض التي استولى عليها ، وان تامر بـك السعدون حاول ان يطرده ويسلم الارض الى سركال آخر . ونظراً لوجود حـالة حرب فإن الكثيرين يستولون على املاك ليست لهم ، ولذلك فكر حسين أن الفرصـة مواتية ليحذو حذوهم . وبما ان المقتول كان يشرف على كل الارض التي زرعهـا لذلك كان لا بد من الاستيلاء عليه لتأمين حمايته .

وبعد ان أصغيت الى كل ما قاله حسين ذكرته بهدوء أن هنالك حكومة لها سلطة أمثلها انا ، وانه من واجبي ان امنع الافراد من اخـذ حقوقهم بأيديهم . وعليه ، يجب ان يخلي البرج بدون تأخير ويقدم بعدها الى محكمتي أيـة شكوى ضد تامر بك .

وبغمزة خبيثة من طرف عينه شكرني حسين لنصيحتي ووعدني ان يفعل كما

طلبت منه ، ولكنه طلب مهلة ثلاثة ايام ليقنع رجال قبيلته بالأمر .

وبعد ان تركني حسين توهمت ان القضية قد حلت . وبعد ثلاثة ايام تلقيت من حسين رسالة شديدة اللهجة يقول فيها ان رجـــاله لم يوافقوا على قراري . ويقول ايضاً انه نظرا لفقدان النظام عموماً فانه لم يستطع ان يفرض سيطرتـه عليهم ، ولذلك ، اذا كان بامكاني ان اثبت لهم هيبة الحكومة وسلطتها ، فـان الجوارين سيسلمون المقتول ، دون شك ، بدون اية مشاكل . واقترح في رسالة شفهية ان اسير على رأس جنودي ومدافعي الثقيلة واهـدد قبيلته بنسف البرج ، وبعد ذلك يستتب الأمن . وكان الثعلب العجوز يعرف جيداً انــه ليس لدي جنود ولا مدافع، مما يعني انه سيظل مستولياً على المكان الى الوقت الذي اتمكن فيه من عمل شيء .

وفي تلك الاثناء جاءني تامر بك ثانية وسألني عما انوي عمله ، واكد لي أنـه في اليوم السابق اطلق النار على رجاله من المقتول وقتل اثنين منهم . وقال انـه ما لم اتخذ موقفاً حـازماً لإثبات سلطتي فان الامور ستسير من سيء الى أسوأ ، وان جميع سكان المنطقة يرقبون الاحداث باهتمام وسيفترضون انه ليست هنالك حكومة تدعمني ، الأمر الذي سيشجعهم على الاقتداء بحسين والجوارين .

ووضعني الحاج تامر في موضع حرج يستوجب التفكير الشديد . فقـد جعل من القضية امتحاناً لي وأراد ان يدفعني لعمل غير مأمون العواقب ممـــا افقده احترامي وحبي . فقد كان بامكانه الانتظار الى وقت تكون فيه الظروف أكثر ملاءمة . اذ انه كان من الواضح انني لا استطيع ان افعل شيئاً بدون مدفعية ضد برج محصن مؤلف من ثلاث طبقات . فاذا حاولت حصاره فلن ينتج عـن ذلك إلا تعرض رجــال الشبانة الذين سيقومون بالمهمة الى الهجوم من الخارج . وفي الوقت نفسه لا استطيع ان اتراجع كما انني لا استطيع الحصول على قوات من الناصرية في الوقت الذي كانت فيه تلك القوات تعمل على مراقبة قبائـــل الغراف باتجاه شطرا .

وحاولت المماطلة فكتبت الى حسين القبيح طالباً اليـــه الحضور لمواجهتي

فرفض مدعياً ان جماعته لا يسمحون له بزيارتي لئلا انتقم منه واسجنه . وكانت تلك حجة واهية لأن جميع سكان المنطقة يعرفون تماماً ان أحداً من الجوارين لا يتجرأ على الانتفاض من سلطة حسين في القبيلة لكونــــه في الواقــع من اقوى شخصيات المنطقة .

وكتبت رسالة أخرى وأرسلت الحجي حسن حمداني يقنع الرجــل العجوز بأن يثوب الى رشده ويأتي عليه الأمان (حظ وبخت الحكومة) لبحث القضية، ولكن دون جدوى . وعـــاد الحجي حسن ليبلغني ان حسين كان في اشرس طباعه ورفض كل حجة ، وانه (اي الحجي حسن) تعرض لمخاطر كثـيرة في ارض الجوارين وكاد يلاقي حتفه .

وبذلك تطورت القضية فاصبحت امتحاناً عسيراً من اشد ما قـــد يتعرض له انسان . وكنت في حيرة من امري احاول يائساً ان اجـــد مخرجاً للقضية . وجاءني الحل من البحرية الملكية في دجلة والفرات على غير موعد كالعادة . ففي زحمة متاعبي ومشاغلي برزت سفينتان مسلحتان بالمدافـــع كانتا متجهتين من الناصرية الى البصرة ورستا بالقرب من مضيفي في مدينة السوق ومدافعها القوية تصعد زفرات القوة والعزم .

ولعبت ورقتي الأخيرة فأرسلت كتاباً مستعجلاً الى حسين القبيح قلت فيه ان الحكومة أرسلت سفناً حربيــة لفرض سلطتي وان رجاله وبرجـــه الحربي سيتعرضون للقصف في مدة قصيرة . وأبلغته ان الحكومة ، رفقاً منها ، ستعطيه فرصة أخيرة فاذا حضر خـلال أربع ساعات واعلن تسليم البرج فعلاً ، وأعلن خضوع رجاله ايضاً لسلطة الحكومة ، فان السفن ستحجب نيرانها عنهم .

انني أشك فيما اذا كانت السفينتان قادرتين على القصف في مثل ذلــك المدى البعيد . ولكن خدعتي ، على كل حال ، نجحت . فبعد ثـــلاث ساعات فقط ارتمى حسين على اعتابي طالباً الرحمة . وعندما وقع نظره عـــلي لف كوفيته حول عنقي طالباً الأمان والغفران وقال : يكفي .. يكفي .. لقد اثبتت ان هنالك حكومة في هذه البلاد .. لقد اقتنعت .

وابلغني حسين ان رجاله قد أخلوا المقتول وطلب مني أرسل رجال الشبانه لاستلامه ، ففعلت . واحتل رجالي الشجعان المكان خلال ساعة بينما بقي حسين في مكتبي تحت الحراسة .

وانتهى كل شيء . ولكن الطريف في الموضوع هو ان سفن صاحب الجلالة لم تعرف شيئاً عما حدث . وقد ابلغت قائدي السفينتين بالخدمة الجلى التي اسدياها لي عن غير قصد او معرفة ، عندما كانا يهمان بمغادرة سوق الشيوخ بعد حفلة الغداء العامرة التي اقمتها على شرفيهما .

اما حسين القبيح فقد اطلق سراحه بعد ان قبل يد تامر بك في مجلس عام وطلب منه الصفح ، وبعد ان انذرته بأن لا يعود الى سوء السلوك . وقد زارني بعد ذلك عدة مرات واصبح أحد أخلص اصدقائي عندما انتقلت الى الناصرية. وتوفي حسين بعد ثمان سنوات وخلفه ابنه ناصر في رئاسة قبيلة الجوارين. واثبت ناصر انه عضو محترم في المجتمع القبلي أيام الحكومة العربية بقيادة فيصل . وكان يزورني في الكويت كلما انتقل رعاة المنتفق الى هناك في الخريف .

حرز ميرزا عنايه

ميرزا عنايه رجل متدين من اتقياء الشيعة كان يعيش بين قناة أم النخلة وقناة المزلق . وكان يتمتع بنفوذ كبير بين قبائل الحسن والجوابر وبني سعيد وغيرهم ممن يدينون بمذهب الاخبارية وهم أقلية اذا ما قيسوا بالقسم الأكبر من الشيعة وهم الاصولية . ويقطن ميرزا مع اثني عشر آخرين من العلماء على مرتفع من الارض بين القناتين المذكورتين وبعيداً عنهما ، حيث كانوا يؤلفون ما يشبه كلية قبائلية يلجأ اليها كثيرون طلباً للنصح فيما يتعلق بقضايا الشريعة .

وقد ساعدني ميرزا عنايه في حل عدد غير قليل من القضايا العشائرية المعقدة في كثير من الاحيان تتعلق بالنزاع على الحدود ، والطلاق ، والارث وما شابه ذلك . وكان اتصالي به عن طريق المراسلة .

ولم اطلب منه أن يزورني لأن مثل هذه الزيارة يقوم بها عالم ديني كبير

ضابط سياسي أجنبي تعني فقدان هيبته وجلاله في أعين إتباعه .

وفي خريف سنة ١٩١٨ قررت أن أتوجه لزيارة ميرزا عنايه لأنني كنت بأمس الحاجة إليه ليقف بجانبي في قضية هامة . فقد قررت الحكومة شق قناة للملاحة عبر بحيرة الحمار وعبر مساحة من الأرض تقع الى جنوب المزلق . وكانت هذه القناة ستتصل بالفرات بالقرب من قرية بني سعيد على بعد مسافة قصيرة من المكان الذي يقيم فيه ميرزا عنايه أي حيث تنفصل أم النخلة عن المزلق .

وقد أقلق هذا المشروع قبائل الجوابر وبني سعيد والحسن ظناً منهم ان قناة عميقة كهذه تجر معظم مياه النهر وتجفف أم النخلة والمزلق مما يجعل زراعة الأرز في أرضهم غير ممكنة . ولم يكونوا يريدون قناة للملاحة هناك لأنهم يعتقدون ان قناة مفتوحة دائمة تمنعهم من إقامة السدود المؤقتة عبر ام النخلة والمزلق لرفع مستوى المياه وتسهيل عملية زراعة الأرز . وفي رأيهم ان عملا « طائشاً » كهذا تقوم به الحكومة يعتبر انتهاكاً لأساليبهم وطرقهم التي درجوا عليها منذ أقدم الأزمان .

ونتيجة لذلك انتشرت الشائعات والهمس واللغط وعقدت اجتماعات معادية يومياً في مقر ميرزا عنايه . ومما زاد الأمور تعقيداً أن جرافة حكومية أنهت شق القناة في بحيرة الحمار وانتقلت لتشق الأرض في منطقة قبيلة الجوابر باتجاه قرية بني سعيد . وأخذت العرائض والاحتجاجات تنهال عليّ يومياً في سوق الشيوخ تبعتها بعثات غاضبة من رجال الاهوار . فخشيت انتشار هذا القلق وانقلابه الى اضطرابات وما ينتج عنها من مضاعفات ، فقررت القيام بعمل ما . وأشد ما كان يقلقني ان يتحرك المهووسون من رجال القبائل فيطلقوا النار على عمال وموظفي الجرافة إظهاراً لعدم موافقتهم على العمل .

وكان من البديهي ان ينظر ميرزا عنايه بعين العطف الى وجهة نظر القبائل . وكان من الواضح ان الطريقة الوحيدة لاستعادة الثقة ومنع نشوء وضع خطير في المنطقة هي إقناع ميرزا ان القناة الجديدة من شأنها ان تسهل انتقال العرب عبر بحيرة الحمار الى سوق الشيوخ والناصرية ، وانه يمكن إقامة سدود مؤقتة عليها عندما

تأتي مواسم زراعة الأرز كل سنة .

وكتبت الى ميرزا عنايه طالباً مقابلته في يوم محدد ، فرد بأن دعاني الى الغداء . ووجدته رجلا ذكياً متقدماً في السن ويتمتع بشخصية منيعة . وتبين لي انه ذو عقل راجح وذو نفوذ كبير بين السكان المحليين . فشعرت انه بهذا النفوذ الكبير الى جانب الحكومة بصورة دائمة في منطقة من الاهوار لم تعرف الانضباط ، يساعدني كثيراً في العمل . فحاولت جهدي ان أكتسب صداقته وثقته .

وشرحت له في حديث طويل قبل الغداء وجهة نظر الحكومة وسبب إقدامها على شق هذا الممر المائي . وأكدت للعالم المحترم انه ليس لدى الحكومة أي اعتراض على إقامة سد لحصر الماء في موسم زراعة الأرز بشرط ان يزال السد بعد انتهاء الحاجة إليه . وفي تلك الفترة يتحول سير السفن الى طريق المزلق القديم الى ان يعاد فتح القناة . واقتنع ميرزا بوجهة نظري وأخبرني انه سيستعمل نفوذه لدى القبائل لإقناعهم ووعدني بأن كل شيء سيسير حسب الأصول . وكنت أعرف تماماً انه سيظل عند كلامه .

وقعدنا بعد ذلك على مائدة الغداء ، وكان مزيجاً فاخراً من الطعام العربي والفارسي ، لأن ميرزا عنايه ايراني الأصل ، كما يستدل من اسمه .

وبعد الغداء ، وأحاديث المجاملة ، نهضت لأودعه ولكنه استوقفني وربط حول ذراعي حرزاً هو عبارة عن اسطوانة فضية صغيرة طولها بوصتان ، قال انها تضم كتابات من القرآن الكريم كتبها بنفسه ، وانها تجعل من المستحيل على حاملها ان يتعرض للأذى أثناء سفره في النهر او في البحر .

ومما لا شك فيه انه عرف بالكمين الذي نصب لي في النهر سنة ١٩١٦ عندما أنقذ قاصد الناحي حياتي ، فأراد بدافع من عطفه ان يؤمن سلامة الضابط السياسي من وحشية القبائل في المستقبل .

وشكرته على حفاوته واهتمامه وأقلعت بزورقي عائداً الى المدينة حاملاً الحرز ، مما ادخل السرور الى نفوس اتباع ميرزا ورجال القبائل الذين تجمعوا

على ضفاف النهر لوداعي .

وبعد شهرين بالضبط قررت زيارة قنـاة بني سعيد التي انتهى العمل فيهـا والتحدث الى المسؤول عن الجرافة قبل ان يغادر الى البصرة . وكانت الجرافة راسية على الجهة اليمنى من القناة عند نهاية بحيرة الحمار ، وكان القائد ينتظرني .

كان الطقس بارداً عندما أقلعت بزورقي في الصباح الباكر ، وكنت مرتدياً سترة من جلد الخروف التي لم أنس ان أضع في جيبها الحرز الذي أعطانيه ميرزا عنايه ، إذ كنت أحمله دائماً معي منذ اللحظة التي سلمه إليّ العالم المحترم . وربما كان ذلك إيماناً مني فطرياً بالخرافات، ولكن السبب الاهم هو انه يرضي اتباعي من العرب . حملته معي ولم أعره بعد ذلك أي انتباه .

وكان الزورق مغطى ويجلس البحارة في غرفة المحرك ، بينما احتفظت لنفسي بغرفة خاصة فيه ذات نافذة مربعة .

ولم أكد انهي فطوري حتى دخلنا قنـاة بني سعيد الجديدة ولاحظت ان التيار كان شديداً مما دفع الزورق الى السير بأقصى سرعته . وكنت أعرف اننا سنصل إلى الجرافة بعد دقائق معدودات .

وفجأة ، وبدون تخفيف السرعة ، انقلب الزورق بعنف . فقد ربط قائد الجرافة أسلاكاً عبر النهر على ارتفاع خمسة أقدام فوقه . ولم يشاهد سائق الزورق الهندي الأسلاك إلا عندما وصل إليها ، فاصطدم بها وانقلبت مائدة الطعام في غرفتي وتحطمت بشكل مخيف . فقفزت من مكاني ولمحت الجرافة من النافذة . وفي تلك اللحظة انقلب زورقي الصغير واخـذ يتدحرج في النهر عبر الاسلاك . ووصلت الى النـافذة بصعوبة ومنهـا خرجت الى النهر وتعلقت بالاسلاك وبعد لحظة اختفى الزورق وبقيت معلقـاً بالاسلاك نصفي في المـاء والنصف الآخر في الهواء . ونظراً لشدة التيار كانت رجلاي تتأرجحان مـع التيار في زاوية مقدارها ٤٥ درجة . وكان تمسكي بالاسلاك يؤلمني ، فقد أحسست أن يديّ تجمدتا وان جسمي أصبح ثقيلاً كالرصاص .

وبعد فترة قصيرة خلتها ساعات أنقذني بحارة الجرافة وانا على وشك الهلاك .

فقد بلغ مني الاعياء مبلغاً عظيماً بحيث انني كدت أسقط في النهر في اللحظة التي وصل البحارة لإنقاذي .

وبعد ان اعطيت جرعة من البراندي استعدت وعيي فسألت أول ما سألت عن زورقي فأبلغت انه غرق بسائقه وبحارته الاربعة وخادمي . فقد تدحرج الزورق وغرق كالحجر دون أن يعطي البحارة المساكين فرصة للنجاة . ولم ينج من الغرق إلا قبعتي وعليها شريط أبيض وشارتي السياسية .

وقلق قائد الجرافة وأبدى انزعاجه من الحادث ، وتدبر امر عودتي الى سوق الشيوخ في زورقه الخاص . وكان عذره انه ربط الاسلاك عبر القناة لأنه أراد ان يدير سفينته . وهو عمل لا يغتفر نظراً لكثرة الزوارق التي تسير في المنطقة .

وعلم ميرزا عنايه بالحادث فأرسل بعد يومين ابنه ليستفسر عن صحتي . وأرسل لي معه كتاباً قصيراً يشكر فيه الله لأنني كنت أحمل حرزه في تلك اللحظة . ولكن كيف عرف انني كنت أحمل الحرز .. لست أدري ، لأنني لم أخبر أحداً بذلك .

ومنذ ذلك الوقت لم أعد اهزأ بأي حرز او تعويذة يعطيها أي سيد .

في ربيع سنة ١٩٥٤ جاء ابن ميرزا عناية المذكور الى الكويت ليقابلني وطلب مني أن أحصل له من الحاكم على تبرع لإعادة بناء مسجد والده الذي لحقت به أضرار من جراء الفيضانات في تلك السنة . وقد تمكنت من الحصول له على مبلغ متواضع . وأخبرني حينذاك ان والده توفي قبل خمس عشرة سنة .

الفصل التاسع

الناصرية

١٩١٨ - ١٩١٩

عبدالله بك الفالح باشا السعدون يقدم خضوعه

انتقلت من سوق الشيوخ الى الناصرية في شتاء سنة ١٩١٨ بعد وقت قصير من توقيع الهدنة . وقد اصبحت ضابطاً سياسياً على كل لواء المنتفق ومسؤولاً عن اتحاد القبائل الذي يحمل نفس الاسم . وخلفني في سوق الشيوخ الكابتن ديتشبورن .

والقصة التي سأرويها الآن بدأت عندما كنت لا ازال في سوق الشيوخ . فقد مضت أربع سنوات، تقريباً من الحرب العالمية الأولى ولم يقبل عبدالله بك الفالح باشا السعدون ولا عجيمي بك السعدون وهما من زعماء شيوخ المنتفق ان يعلنا خضوعهما للبريطانيين . وكان عبدالله بك رئيساً على أهل الجزيرة بينما كان عجيمي بك رئيساً على أهل الشامية .

وكانا كلاهما يقفان الى جانب الاتراك . ولما تحولت وجهة الحرب واتضحت معالمها لغير صالح الاتراك أخذ عبدالله بك وعجيمي بك يفكران في تقرير ما

اذا كانا يستسلمان للبريطانيين أو يتراجعان الى الفرات مع فلول الجيش التركي وبتركان له تدبير امريها بعد ان تضع الحرب أوزارها. وكان الرجلان يملكان مساحات شاسعة من الارض على الفرات وفي منطقة البصرة مما يعني ان تخليهما عن الصراع واستسلامهما للبريطانيين يرجح كفة الميزان . وقرر عجيمي بك ان يبقى الى جانب الاتراك وظل على موقفه الى نهاية الحرب . وبعد ان عقدت هدنة مادروس في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩١٨ ، كافأه الاتراك بتعويض كبير ووهبوه اراضي في ماردين بتركيا .

اما عبدالله بك فكان متردداً بطبيعته وحاول التوصل الى اتفاق مع السير بيرسي كوكس . وجرت بينهما مراسلات سرية طلب فيها عبدالله اعطاءه ضمانات وغيرها . ولم يجلب له ذلك سوى الضرر لأن السير بيرسي فقد صبره ورفض استئناف الحوار معه . وأخيراً أبلغه السير بيرسي بصورة نهائية قطعية ان يستسلم دون قيد أو شرط او ان يذهب مع الاتراك الى غير رجعة .

ولم يناسب ذلك ما يصبو اليه عبدالله بك . فاختفى فترة يفكر في خطوته المقبلة موقناً ان البداية كانت سيئة لأنه اغضب السير بيرسي وقائد الجيش دون ان يحصل على شيء .

هكذا كان الوضع في كانون الثاني سنة ١٩١٩ بعد انتقالي الى الناصرية بوقت قصير وبعد ان احتليت شطرا بحركة سريعة قمت بها على رأس اربعمائة جندي جمعتهم من السكان المحليين وسرت بهم عبر اراضي الازارج وخفاجه وعبوده . ولم اكن في ذلك الوقت على علم بالمفاوضات السرية التي جرت بين عبدالله بك والسير بيرسي خلال السنة السابقة . وكان كل ما اعرفه هو ان عبدالله بك وعجيمي بك اختارا ان ينضما الى صفوف الاتراك ، وهو أمر مؤسف ، لأنه كان باستطاعتهما تحويل ولاء قبائل المنتفق التي كنت مسؤولاً عنها والتي كانت على استعداد لاثارة المشاكل في اية لحظة . ولكنني كنت اعرف انه ليست لي في الأمر حيلة .

وذات يوم فاجأني ضاري بك الفهد السعدون برسالة يقول فيها انه يريد

مقابلتي لبحث قضية مهمة وانه يفضل ان تتم المقابلة ليلاً حتى لا يرانا أحد .

وكان ضاري بك نموذجاً للدبلوماسيين من مدرسة السعدون القديمة وكانت معرفته ببواطن الأمور خارقة . وكان يحلم باحياء عائلة السعدون تحت رعاية الانكليز وإقامة دولة لآل السعدون بحماية بريطانيا على الفرات الأسفل ، على غرار دولة الكويت والبحرين ، وان يكون هو رئيسها او صاحب النفوذ فيها . فوافقت على طلبه لأنني كنت دائماً اشتاق الى أحاديث ضاري بك المبطنة اللاذعة والى معرفة رأيه في آخر التطورات السياسية والعسكرية .

وبعد الأحاديث والمقدمات التقليدية أبلغني ضاري بك ان عبدالله بك الذي هو أمل عائلة السعدون مختبىء في ضواحي الناصرية ويريد ان يبحث معي في مقابلة سرية أمر استسلامه . وقد ألهبت هذه السانحة حماسة ضاري بك بحيث أخذ يشرح لي كيف أنها عطية من الله لانتزاع هذا الزعيم من ايدي الأتراك ، وكيف انها ستكون هزيمة لهم ، ثم انه إذا تم التسليم على يدي كيف سأنال حظوة وشهرة وشرفاً عند السير بيرسي كوكس .

وأعربت لضاري بك عن سروري واغتباطي وترحيبي باستقبال عبدالله بك وأخبرته انه إذا كان قلقاً على سلامته فأنا على استعداد ان أعطيه الأمان لكي يتمكن من التجول . وقلت له ايضاً ان نصف ساعة من الكلام تساوي كل كتابة الرسائل في العالم ، وانني إذا استطعت اقناع عبدالله بك بالانضمام الى البريطانيين فيكون ذلك خير على خير . وفي الحقيقة ان عبدالله بك لم يقاتل البريطانيين واكتفى من موالاته للاتراك بالوقوف عند طرف السياج .

وسر ضاري بك كثيراً ووعدني أن يأتي بعبدالله بك في تمام الساعة العاشرة من الليلة التالية ولكنه ألح عليّ ان يكون الاجتماع سرياً للغاية لكي لا يعلم به أحد حتى خدامي وموظفي . وكان ذلك سهلاً لأن جميع خدامي ينامون خارج منزلي باستثناء طباخ هندي . ولكن الأمر يمكن تدبيره بحيث انني أستطيع إدخال الزئر الى المنزل بنفسي . وقد اتخذت جميع الاحتياطات لأمنع أي شخص من الاقتراب من المنزل وبلغ بي ذلك الى حد إلغاء تقديم القهوة للضيوف .

وفي مساء اليوم التالي وصل ضاري بك ومعه رجـــل طويل أخفى رأسه بدقة . فاستقبلتهما بنفسي واقتدتهما الى غرفة الاستقبال حيث قـــدم لي ضاري بك صاحبه عبدالله بك الفالح باشا السعدون . وكان عبدالله بك نحيلاً بهي الطلعة ويبدو واضحاً على وجهه انه من أصل عريق ، وكل شبر منه يدل على انــه شيخ عظيم . وأخذت به على الفور فوجدت ان الطريقة التي يجب أن أتناوله بهـا هي اللعب على كبريائه وتفخيمــه . أليس كل آل السعدون كذلك ؟ ولم لا ؟ أليسوا يدعون بأنهم من سلالة الرسول ؟ فمنذ قـــديم الزمان وهم لا يزوجون بناتهم إلا لأفراد قبيلتهم .

وارتحت عندما تبين لي أن عبدالله بك جـاد في عرض استسلامه . ولكنه كان يخشى ان يرسله السير بيرسي ، بسبب حنقه عليـــه ، سجيناً الى الهند . وأبدى استعداده لدفع اي مبلغ كغرامـــة للحكومة إذا كان في ذلك تسهيل للأمور . وبعد مناقشة وجيزة وافقت على التوسط مـــع السير بيرسي كوكس بشرط ان يسمح لي عبدالله بك بإرسال برقيـــة الى بغداد أعلن فيها استسلامه دون قيد او شرط ، وانه سلمني مبلغ عشرة آلاف روبيـــة كهدية لمستشفى الناصرية الذي تديره الدائرة السياسية ، تدليـــلاً على نواياه الحسنة . وعرضت ايضاً أن أختتم برقيتي بالقول ان عبدالله بك يأمل من كبـير الضباط السياسيين أن يسمح له بالرجوع الى ممتلكاته ، إذ وعد انه سيخلد هناك الى الراحـــة والهدوء .

وأيد ضاري بك اقتراحي واستطاع ان يقنع عبدالله بك بالموافقة على ارسال البرقية . أما بالنسبة للعشرة آلاف روبية فقد وعد عبدالله بك أن يرسلها في الصباح مع ضاري بك في الوقت الذي أكون فيه قـــد رتبت الأمور مع السير بيرسي . وهكذا كان . فقد تلقيت العشرة آلاف روبية في الموعد المحدد ووافق السير بيرسي على قبولهـــا كهدية للمستشفى ووافق أيضاً على اقتراحي بعودة عبدالله بك كبير شيوخ المنتفق الى ممتلكاته في كتيبان التي تبعد عدة أميال عن البصرة على الضفـة اليسرى من شط العرب . فالسير بيرسي لم يكن ليرفض أي

اقتراح معقول ومنطقي .

انه من المدهش كم من الأشياء يستطيع أن يحققها سياسي صغير حذر !

رجل الاهوار الشرير

رجل آخر لم يعترف بسلطة الحكومة البريطانية وهو بـــدر الرميض شيخ قبيلة البو صالح المشهورة في الاهوار الى الشمال من بحيرة الحمار . وكان بدر أشبه بشخصية اسطورية ، ويبلغ من العمر أكثر من ثمانين عامـــاً وعنده حوالي ٢٤ زوجة . واستطاع هذا الرجل ان يكتسب لنفسه نفوذاً كبيراً في مجـــاهل الاهوار الممتدة من بحيرة الحمار الى شطرا والعمارة . وتروى حكايات كثيرة عن شدة بأسه في الحروب وعن نزعته الاستقلالية وشخصيته المنيعة التي تحدى بهـا الأتراك سنوات طوالاً قبل سنة ١٩١٤ .

ويقول رجال الاهوار ان ذلك أمر طبيعي إذ ان أحداً لا يستطيع الوصول إليه في الاهوار .

ويقال انه في مناسبات عديدة ردد على مسامع بعض زائريه قوله : لم أعرف الأتراك في حياتي قط لا ولا الانكليز . فإذا أراد كوكس ان يراني فليأت لزيارتي في منزلي على قناة البدعه بين أوراق البردي . أما انا فلن أذهب إليه .

وعندمـا كنت في سوق الشيوخ قمت بعدة محاولات بواسطة الحجي حسن حمداني لأجتمع ببـدر الرميض ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل . ومرة واحدة فقط كدت اوفق في مسعاي . وعرضت عليـه مراراً وتكراراً ان اعطيه الامان ليزورني ويقدم خضوعه . وكان جوابه في كل مرة انـــه لا يثق بالانكليز الذين قـد يخونون الوعد ويسجنونه . وأعتقد ان موقفه هذا ناتج عن خطة ذكية . فقوله لرجـال الاهوار المتوحشين ولقبائل المنتفق التي تقطن على حدود البو صالح ، انه لم ير رجلاً انكليزياً في حياتـه ولم يقابل اي ممثل عن البريطانيين منذ قدومهم الى العراق ، وانه لا يرغب في ذلك، يظهره أمـامهم بمظهر الشجاع الذي يتحـدى سلطة الأجنبي وبذلك يكتسب شهرة ونفوذاً

ويعظم في أعين اتباعه .

والحقيقة انه أرسل ابنه الأكبر حسن لمقابلتي مرتين في الناصرية بعد أن نقلت إليها ولكنه لم يقترب أكثر من ذلك . وبلسان ينطلق بالكذب أخذ حسن يشرح لي ان لوالده أعداء كثيرين وانه رجل طاعن في السن أحنى ظهره الروماتيزم وإلا لكان ، دون شك ، قام بزيارة الحكومة منذ زمن بعيد . ولم أحاول دفع الأمور لإحراجه اعتقاداً مني بأنني أستطيع كسب الثعلب الكبير عن طريق التودد الى الثعلب الصغير .

وحدث مرة ان جاء حسن الى الناصرية لينقل إحدى رسائل والده المعتادة عن حسن نواياه . وفي الوقت نفسه وصلني تقرير من سوق الشيوخ يقول ان سفينة كانت في طريقها من البصرة الى شطرا محملة بالبضائع مرت في بدعه ، فأطلقت عليها النار من مكان قريب من قرية بدر ، فقتل نصف عدد بحارتها واستولى بدر على السفينة وعلى البضاعة . وأرسلت في طلب حسن على الفور فتظاهر بأنه لا يعرف شيئاً عن الحادث وأقسم ان قبيلة البوشما هي التي قد تكون ارتكبت هذا الجرم وليس رجال قبيلة البو صالح .

وساورتني ظنون بأن حسن يعرف كل شيء عن الحادث وان والده أرسله إليّ من قبيل ذر الرماد في العيون ، ولكي تكون له حجة أن يقول عندما يكتشف الأمر : كيف أتجرأ على ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة وولدي حبيبي فلذة كبدي كان في الناصرية وقت الحادث يؤكد النوايا الحسنة لممثل الحكومة البريطانية ؟ كيف يمكنني أن أعرض سلامة ابني الأكبر للخطر بهذا الشكل ؟

الخداع والاحتيال كانا من الوسائل الشائعة في تلك الأيام فكان على المرء ان يمارسها . لذلك وضعت حسن في السجن . وبعد ان قضى أسبوعاً كاملاً في السجن جاءني ثامر بك السعدون يصحبه الحجي حسن حمداني من سوق الشيوخ وتوسلا إليّ ان أطلق سراح حسن على ان يعدني بشرفه ان لا يغادر الناصرية إلا بإذن مني . وأشارا الى ان حسن هو ابن شيخ كبير ، وتحقيره بوضعه في

السجن يشبه أساليب الأتراك ، التي لا يمكن ، لا سمح الله ، ان تلجأ إليهـا الحكومـة المعظمة . واشترك معها في الاحتجاج ضاري بك الفهد السعدون فأقنعوني بإطلاق سراح حسن .

وأرسلت في طلب حسن وافهمته ان اصدقاءه توسطوا لدي بشأنه ، وانني سأطلق سراحه اذا اعطاني كلام شرف انه لا يغادر المدينة بدون اذن مني ، على ان يقيم في منزل ضاري بك . فوافق حسن دون تردد واسرع ضاري الى كفالته بمبلغ ٥٠٠ روبية .

وهرب حسن بعد يومين

وأخذت أتساءل في نفسي الى أي مدى يقف بـدر وراء زيارة اصدقائي الثلاثة ، وما اذا كان ضاري قد دبر الأمر بأن أخذ المبلغ من حسن قبل ان يفلت من يده لأن ضاري جاء ودفع المبلغ فوراً وهو يشتم « ذلك الكلب القذر » الذي كذب عليه . ولن أسيء الظن بضاري لأنه انتقل الى رحمة الله وكان رجلاً طيباً وصديقاً مخلصاً للانكليز .

ولم يكن هنالك حـل مرض مع بدر الرميض بشأن الاستيلاء على السفينة إلا قصف مفاجيء لقريته وبرجه الحربي . فكان لا بد لي من طلب مساعـدة الجيش لأن بدر وقبيلته بلغوا حداً كبيراً من العناد وإيواء كل مجرم فار من وجه العدالة .

وساعد السير ارنولد ويلسون في بغداد على ترتيب الأمر مع قائـد الجيش . وفي ٢٦ شباط سنة ١٩١٩ هاجمت فرقـة من الناصرية قريـة بدر واحتلتها وأحرقت مزروعاته . ولكن العجوز الشرير أفلت من بـين اصابعنا بالرغم من سد كل الطرقات في وجهه من جهة شطرا ومن جهة العمارة وقد قام بهذه العمليات جنود من الجيش والشبانه بقيادة الكابتن برترام توماس مساعد الضابط السياسي في شطرا والميجر روبرت مارش الضابط السياسي في العمارة .

وتمكن بدر من الفرار الى داخل الاهوار حيث قيل انه أخـذ يستعد لإثارة

المتاعب بشن هجمات باتجاه الغراف حيث الأرض مكشوفة . وكانت لديـــه ، بالاضافة الى رجال الاهوار ، قوة متحركة قوامها اربعماية خيال ، يستطيع معها وبنفوذه الذي لا شك فيه ان يثير كثيراً من المتاعب .

وبعد احتلال منزله وقريته وارضه تقرر بناء حصن هناك تقيم فيــه كتيبة من المتطوعين . وزيادة في الحذر تقرر الاحتفاظ بقوة عسكريـة في المكان ريثما يتم البناء الذي انجز بسرعة باشراف الكابتن ديتشبورن مساعد الضابط السياسي في سوق الشيوخ . وبقيت مخيماً بجوار قرية بدر مع قائد الجيش الذي استخدم مجلس بدر ذا الاعمدة السبعة كمكتب وكغرفة للاجتماع .

وبعد عشرة أيام من احتلال قريته بعث بدر برسالة شفهية يقول فيها انه على استعداد لأن يستسلم لقــائد الجيش ولكنه ، تمهيداً لذلك ، يرغب في مقـابلة الضابط السياسي المرافق للجيش – أنا – لكي يستطلع منه رغبات الحكومـــة ويقف على شروط الاستسلام .

وبعثت له بجواب شفهي أبديت فيــه استعدادي لمقابلته في أي وقت يشاء وفي أي مكان يختار ، وأبلغته انــه إذا كان بإمكانه الحضور لبحث الأمور فإن قائد الجيش يضمن مجيئه وعودته سالماً بعـــد المقابلة . وبعث له الحجي حسن حمداني أيضاً رسالة مقنعة .

وبعد يومين أرسل بدر رسالة باللغة العربيــة يقول فيها انه يريد مني ان أقيم خيمة في وسط سهل واسع مكشوف يبعد ثلاثة أميـــال عن قريته بالقرب من شجرة تقف وحدها في ذلك السهل . وقال ان الاجتماع سيتم هناك بشرط أن أصطحب معي رجلين فقط وان نكون نحن الثلاثة غير مسلحين . اما من جهته فقال انه سيحضر مع ولديه وبدون سلاح أيضاً . فإذا وافقت على اقتراحه فإن أنسب وقت للاجتماع هو ظهر اليوم التالي .

ووافقت انا وقائد الجيش على الاقتراح وأمرنا بإقامة الخيمة في المكان المحدد. وفي صباح اليوم التـــالي بينما كنت أحضر نفسي وأتأهب للخروج الى الاجتماع زارني في خيمتي حزام بك المشاري السعدون قـــائد خيالة المنتفق ، وفهد بك

السليمان السعدون وأخذا يقنعاني بأن لا أخرج الى الاجتماع بدون قوة ترافقني وقالا إنهما يعرفان غدر بدر وفظاظته أكثر مني. وعندما اصطدما بعنادي لأنني كنت قد أعطيت كلمتي، ألحّا عليّ ان أصحبهما معي او على الأقل ان تختبىء قوة بجوار مكان الاجتماع لئلا يقدم بدر على اختطافي. وقالا بالحرف الواحد: ان بدر لا يتورع عن ارتكاب أفظع الجرائم ويعرف كل حيلة.. لا تذهب وحدك.. نرجوك.

وأخبرت هذين الصديقين انه لم يعد بالامكان تغيير الخطة. وتوجهت بعد ذلك الى مكان الاجتماع برفقة الكابتن ديتشبورن وحسن حمداني. وكنا نحن الثلاثة غير مسلحين. واعترف أنه بعد تحذيرات حزام بك وفهد بك، وكلاهما متزن يدرك الأمور، تسرب القلق والخوف إلى نفسي.

ووصلنا الى الخيمة قبل الوقت المحدد بربع ساعة. ولم يكن هناك، وعلى مد النظر، أثر لأي مخلوق. ولم نشاهد إلا السراب الذي خدع رؤيتنا فتوهمنا أن هناك بركة واسعة من الماء فيها أشجار باسقة من الشمال الشرقي، وهي الجهة التي كنا نتوقع قدوم بدر الرميض منها. وكنا نعرف طبعاً انه لا وجود للماء وان الأشجار الباسقة ليست إلا شجيرات لا يزيد ارتفاع الواحدة منها على قدمين.

وكانت الشمس محرقة فدخلنا الى الخيمة بعد أن ربطنا الخيول بحبالها. وقد أحضرت معي بساطاً فكان لنا ما نجلس عليه. ومر الظهر وأصبحت الساعة الواحدة ولم يظهر بدر.

وبدأ الشك يتسرب الى نفسي وظننت اننا سنذهب ضحية خدعة. ولاحظت ان الحجي حسن حمداني بدا قلقاً مضطرباً ولكنه كان يستجير بالصبر ويعلل نفسه بأن بدر لا يعرف شيئاً عن الوقت وضبط المواعيد. وأخيراً عندما بلغت الساعة الثالثة بعد الظهر رأيت حركة غريبة وسط سراب بعيد. وبدت تلك الحركة وكأنها تلة مخروطية الشكل تسير نحونا بالمقلوب. وأخذت أراقب هذا المشهد بمنظاري فقررت انه عمود من الغبار يسير بسرعة مذهلة ويتجه نحونا. وأخيراً عرفنا الحقيقة. فقد خرج من وسط السراب حوالي ٢٠٠ خيّال

أطلقوا العنان لخيولهم باتجاهنا . وأخذنا نراقبهم وهم يقتربون منا حتى وصلوا وكانوا جميعهم مسلحين . وكان على رأسهم رجل بديع القوام ذو لحية حمراء طويلة . وتوقف هؤلاء الرجال على بعد ٢٠ ياردة منا. وبخفة ترجل قائدهم واتجه نحونا وهو يبتسم .

هذا إذن هو بدر الرميض العجوز المنحني الظهر الذي يبلغ من العمر ٨٠ عاماً !

لقد صعقت عندما وجدته رجلا أنيقاً يبلغ طوله حوالي ستة أقدام وعلى رأسه عقال محلى بالذهب وعلى جنبه سيف طويل مذهب الغمد . وفي يده اليسرى كان يحمل بندقية « موزر » وعلى صدره تتقاطع أحزمة الذخيرة . وكانت مشيته تدل على حيويته وعلى انه شاب حذر في مقتبل العمر . ولم يكن شيء يدل على كبر سنه سوى تلك اللحية الطويلة التي تمتد الى خصره . ولم أعرف عربياً في حياتي له مثل تلك اللحية . وكان لونها أحمر برتقالي مما يدل على انها صبغت بالحنة . وكان بدر الوحيد الذي يرتدي عباءة بين رجاله الذين اكتفوا بلبس الدشاديش التي تزينها أحزمة الذخيرة مما يدل انهم متهيئون للحرب أكثر منه للسلم .

وبخطى ثابتة ، تقدم بدر نحونا وبصحبته ابنه الأكبر حسن وابنه الأصغر حميدي الذي يبلغ من العمر ثمان سنوات . وعندما وصل اليّ أخذني بين ذراعيه وقبلني على الوجنتين وقال بصوت عال وهو يضحك : السلام عليكم . وبعد ذلك صافح الكابتن ديتشبورن والحجي حسن ، بينما ظل رجاله يراقبون ما يجري من مسافة قليلة .

ويمكن لأي واحد ان يتصور مشاعري في تلك اللحظة فقد كنت متوتراً لأنني بقيت انتظر كل هذه المدة ، وكنت في نفس الوقت خائفاً من أن اكون قد وقعت فريسة لخدعة وضعتني تحت رحمة الرجل . ولكن فوق كل ذلك كنت غاضباً لأن الثعلب المحتال نكث بوعده .

وسألته حانقاً عن السبب الذي دفعه الى المجيء مسلحاً مع هذا العدد الضخم

من الرجال بينما كان الشرط ان يأتي مثلي وحيداً أعزل . واخذت أكيـل له الاتهامات. ولا أدري لماذا فعلت ذلك ولكن ربما شعرت بدون وعي ان الهجوم هو الفرصة الأخيرة .

وكان بدر يسمع مـا أقول بصبر وطول أناة وضحك ضحكة عريضة وفعل شيئاً عجيباً لم أعهده بأي عربي من قبل .

وسألني : هل انتهيت ؟

وأخذني من يدي وقادني الى الخيمة فأجلسني وجلس قبالتي . وفجأة أمسكني من رقبتي بكلتا يديه وطبع قبلة على فمي وقال : والله انت رجل. . والله أحبك.

وبعد ذلك أمر احد رجاله ان يبتعد ببقية الرجال الى مسافـة ٢٠٠ يارده وقال له : دكـسان لا يحب ان يرى رجالاً مسلحين ويقول انه كان ينبغي ان احضر بمفردي معه .

أما وقد انكسر الجليد ، فقد بـدأ الحجي حسن حمداني الحديث . فأخذ ، بلباقته المعهودة ، يهدىء من روعي ويطيب خاطري . وقـد حذا بدر حذوه فأضفى على الجلسة طابعاً من المرح والانشراح . ولم يمض وقت طويل حتى كنا كلنا نقهقه ونحكي الحكايات، ولكن ليس قبل ان يضمني بدر مرة أخرى ويقبلني على شفتي ووجنتي ويقسم ألف إيمان انه يحبني . كان اجتماعاً غريباً حقاً .

وشعرت أنني أقوى موقعاً عندما بدأ الحديث الجدي . فشرحت لبدر انـه هو كان السبب في المتاعب التي وقعت بينه وبين الحكومة . وذكرته بالجهود التي بذلتها طيلة السنوات الاربع السابقة محاولاً اقناعه بأن يقدم خضوعه، وبالرسائل الودية الكثيرة التي أرسلتها اليها عارضاً عليه الأمـان بشرفي وبوجهي . وأبلغته أن الحكومة لا تريد منه شيئاً سوى القيام بخضوع شكلي ، وأنه اذا كان يود أن يذهب معي ذلك المساء ليسلم على قائـد الجيش ويقدم خضوعه له ، فإنني أضمن عودته سالماً الى رجاله ومرافقيه .

لقد نال الرجل جزاءه فأحرق منزله ودمرت محاصيله . وكنت أعرف انـه عندما تعود العلاقات طيبة ، فان الحكومة ستكون سعيدة بالتخلص منـه ،

الأمر الذي يحقق وعودي .

وفي الواقع كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء من شأنه ان يحمل الحكومة على العفو عن بدر ونسيان الماضي ، لأنني كنت اعتقد انني أعرف الاسباب التي جعلته يتصرف بتلك الطريقة تجاه الانكليز .

وعندما لاحظت أن بدر تردد برهة عرضت عليه ان أبقى مع رجاله كرهينة ، ويذهب هو مع الكابتن ديتشبورن والحجي حسن الى قائد الجيش في المخيم . ولكنه رفض ذلك ووعد انه اذا قابلته في المكان ذاته في صباح اليوم التالي فسيذهب معي الى قائد الجيش ويعلن استسلامه له دون قيد او شرط . وحرصاً مني على الفوز بتقدير السيد ارنولد ويلسون ، وافقت على الاقتراح . وافترقنا عند هذا الحد بعد أن تعانقنا فذهب بدر ورجاله في طريقهم وعدت أنا مع ديتشبورن والحجي حسن الى المخيم .

وبعد أن ابلغت القائد بكل ما حدث عدت الى خيمتي وأنا واثق بأن كل شيء سينتهي في الصباح التالي . ولكنني في ساعة متأخرة من الليل تلقيت رسالة ودية قصيرة من بدر يقول فيها انه مسرور جداً لأنه قابلني ، وأكد انه سيظل يحبني الى الأبد . وطلب في الرسالة أن أرسل له كتاب الامان فوراً لكي يحضر بموجبه الى الناصرية ويعلن خضوعه هناك . وأرسلت له الوثيقة التي طلبها باكراً في الصباح يوم ١٢ آذار سنة ١٩١٩ .

ولم أر وجه بدر الرميض منذ ذلك الوقت . وعلمت في وقت لاحق انه عندما تسلم رسالتي ركب حصانه وانطلق الى أرض بني سعيد . أما ماذا أفزعه في الامر فسيبقى لغزاً من الالغاز . وربما كان ذلك لأنه أحس بتحركات توماس من شطرا ومناورات مارس ليقطع عليه الطريق من العمارة .

كان بدر الرميض ، بين جميع العرب الذين قابلتهم ، أغربهم واكثرهم لفتاً للنظر . واعتقد ان الكابتن ديتشبورن وأنا الانكليزيان الوحيدان اللذان قابلهما بدر في حياته . ولا أظن انه قابل أحداً من ابناء بلادي بعد ذلك . وبعد أربع وعشرين عاماً زارني ابنه الأصغر حميدي في الكويت واخبرني ان والده توفي منذ

زمن بعيد ، وطلب مني أن أساعده في جمع مبلغ من المال ليقدمه مهراً لفتاة يريد ان يتزوجها . وساعدته إكراماً للأيام الماضية .

بنيـــه

وفي يوم شديد الحرارة من أيام صيف سنة ١٩١٩ عدت إلى بيت الحكومـة من مهمة قمت بها باكراً خارج المنزل . وبعد أن تناولت طعام الافطار في الطابق العلوي نزلت مكتبي في الطـــابق السفلي الكائن في الجهة الباردة من الباحـة الرئيسية . وبسبب حرارة الشمس ووهجها كنت احتفظ بغرفة المكتب مظلمة بواسطة حاجز من الخيزران على الباب . أمـــا النافذتان فكانتا مسدودتين بشجيرات العقول الخضراء ينساب فوقها الماء بصورة متقطعة لكي يحفظ جـــو الغرفة بارداً . ولم يكن قد حضر أحد من الكتاب ساعة وصلت .

ولأنني دخلت من مكان يشتد فيه نور الشمس الى مكان مظلم، لم أعد أرى شيئاً على الاطلاق وجلت وراء مكتبي انتظر فترة يعتاد فيهـا بصري على ضوء الغرفة الخافت . وبعد مضي ثلاث دقـائق أحسست بيدين تمسكاني من ركبتي فقفزت مذهولاً . وتطلعت تحت المنضدة فتبينت شكل امرأة تحـــاول تغطية وجهها ورأسها بعباءتها . فأخرجتها من مكانها ورأيت أنها فتاة في مقتبل العمر ترتعد من الخوف حتى خانها النطق . وظلت ترحف ملتصقة بمقعدي وانا أحاول ان أطمئنها بكل العبارات الودية التي أعرفها . وطلبت منهـا أن لا تخاف شيئاً وان تخبرني ماذا جـــاءت تفعل في مكتبي . وأخبرتني بصوت متقطع مرتجف وهي تبكي ان اسمها بنيّه وانهـا من قبيلة الغزي التي يرئسها الشيخ منشد الحبيب وهو رجل أعرفه جيـداً وكانت له سمعة عطرة بين شيوخ المنتفق . وقالت لي انها لجأت الى مكتبي لأنها تخاف ان يقتلوها .

وتمكنت في هذه الاثناء ان أتميز وجهها فوجدتها فتاة جميلة تبلغ من العمر حوالي ستة عشر ربيعاً . ولاحظت أيضاً ان بشرتها ناصعة البيـــاض تكسوها آثار خفيفة من الجدري . وعندمـــا تطلعت إليّ بوجـه عليه علامات الرعب

وبعينين واسعتين تنساب منهما الدموع ، تحركت مشاعري وعواطفي بصورة غريبة لأنني كنت أعلم انه لا بد من أن يكون الأمر بالغ الخطورة حتى رمت نفسها عليّ بهذه الصورة طالبة الحماية .

وأخذت أقنعها شيئاً فشيئاً ان تقص عليّ قصتها . فعلمت ان أهلها يعيشون في بنا وهي قرية على الفرات تبعد عشرين ميلاً عن الناصرية . وظلت بنيّه تعيش سعيدة مع والديها في خيمتهم السوداء الى أن أبلغت أنها ستتزوج ابن عمها ، وان الزفاف سيتم عندما يهل القمر . ونزل عليها هذا النبأ نزول الصاعقة لأنها كانت تحب شاباً آخر من القبيلة وكان يبادلها الحب . وبنفس كئيبة أخبرت فتاها ان والدها سيزوجها الى ابن عمها عندما يهل القمر ولذلك جاءت تطلب نصيحته ومساعدته . وأخبرته أنها تفضل الموت على أن تتزوج أحداً سواه . وتلقى الفتى هذه الأخبار بهدوء ولكنه غضب في قرارة نفسه ووضع الشر نصب عينيه . وأبلغ بنيه انه يجب ان يفكر بخطة ما على ان يفضي إليها بتفاصيلها بعد ثلاثة أيام . واتفقا على ان يلتقيا على ضفة النهر حيث اعتادت بنيه ان تحضر الماء وقت الظهر .. وهناك سيخبرها كل شيء .

وأمضت بنيّه ثلاثة أيام طويلة في حيرة ويأس . ما هي فرص النجاح أمام حبيبها؟ وأي أمل لها أن تنجو من الزواج الذي هيأه والدها ؟ وفضلاً عن ذلك، ان لابن عمها ، بموجب العادات العربية ، الحق في أن يتزوجها ولا تستطيع ان تتزوج شخصاً آخر إلا إذا سمح هو بذلك . وكانت تعلم أنها إذا تزوجت شخصاً آخر بالرغم من إرادة الجميع ، يهدر دمها ويحق لابن عمها قتلها مسحاً للعار . فرصتها الوحيدة – ونجاحها ضئيل – هي أن تهرب مع حبيبها الى مكان بعيد عن أهلها وعشيرتها وتقطع كل أمل في رؤيتهم ثانية . وإذا هربا فإنهما سيطاردان والويل لهما إذا وقعا في أيدي المطاردين. فقوانين العشائر لا ترحم في مثل هذه الحالات .

وبعد ثلاثة أيام حضرت في الموعد المحدد على شاطىء النهر . وكانت هنالك عدة نساء ينقلن الماء ولكن حبيبها تمكن أن يكلمها وهي عائدة . كانت لديه

خطة واحدة وهي أن يهربا تلك الليلة بالذات . وقال انه سيأتي إلى وراء خيمتها بعد منتصف الليل ومعه فرس سريعة . وعندما يطلق ثلاثــة أصوات تشبه أصوات ابن آوى ، تنسل هي من الخيمة وتنضم إليه على ظهر الفرس ، وينطلقان بها الى سوق الشيوخ ويلجآن الى قبائل الجزيرة حيث يتزوجان . وإذا لم يجــدا أماناً هناك ينتقلان الى البصره .

إنها نفس القصة القديمة قدم الانسان . فكانت بنيه تواجــه اختياراً قاسياً بين الهرب والمطاردة وربما الموت ، وبين التخلي عن حبيبها والقبول بمــا أعده الوالدان . وبسرعة الرأي المعهودة في الفتيات العربيات ، قررت بنيه أن تهرب تلك الليلة حسب الخطة . إنهــا مغامرة عقوبتها الموت ونتيجة نجاحها السعادة . كانت تعرف كل شيء ولكن ماذا ؟ إنها كغيرها من بنات القبائل ولدت لتغامر وخاصة إذا كانت سعادتها في الميزان .

وافترقا ليعدا للهروب : هي لتجمع حوائجهــا وهو ليعد فرسه وسلاحه . وجمعت بنيه ما تحتاج إليه من أمتعة دون ان تلفت النظر ، أما الفتى فقد نظف مسدسه وخنجره لأنه لم يكن يريــد أن يعرقل نفسه ببندقية ، ولم ينس أن يطعم فرسه وجبة إضافية ويحملها كيساً من الحبوب ليطعمها إياه في الطريق .

وجاء منتصف الليل فتسللت بنيه من مؤخرة الخيمة عندما سمعت أصوات ابن آوى . وهرب الحبيبان بصمت دون أن يراهمــا أحد واتجها نحو حزام أشجار النخيل قبالة الناصرية .

ولكن نباح كلب أيقظ أهلها النائمين . ولم يطلع الفجر إلا وكان فريق من الخيالة يطارد الحبيبين الفارين واصبح على قاب قوسين او ادنى منهما .

وكانت أمامهما مسافة ثلاثة أميال يجب أن يقطعاها بسرعة فائقة ، لأن أملهما الوحيد بالنجاة هو الوصول الى بساتين النخيل قبــل مطارديهما . وهناك يتركان الفرس ويكمنان بعض الوقت في الاختفــاء بين الأقنية المتشعبة حتى يتمكنا من الوصول الى ضفة النهر قبــالة الناصريه ، فيعبران النهر بعد حلول الظلام ويلجآن إلى المدينة .

ونجحت الخطة وسار كل شيء على ما يرام الى أن بلغا ضفة النهر . ولاحت لهما فرصة النجاة مع أنهما كانا يسمعان أصوات الباحثين عنهما ، فأيقنا ان البحث لا يزال جارياً بكل قوة وإصرار ، فقد اكتشفت آثار أقدامهما في الأقنية ، وأصبحت المسألة مسألة وقت فقط . وكانت فرصتهما الوحيدة أن يتجنبا الوقوع في أيدي مطارديهما قبل حلول الظلام ، ولذلك اتجها على شاطىء النهر الى أن وصلا الى مكان كثيف الأشجار قبالة الحي الصابئي من المدينة ، واختبآ هناك .

وغابت الشمس وبدأ الليل يرخي سدوله وشعرت بنيه بسعادة غريبة . ولكن سرعان ما خاب أملها دفعة واحدة . فقد فكر الشاب أن بنيه تعيقه ، وانه معها قد لا يستطيع الفرار والنجاة . فأخبرها فجأة أنه سيتركها ويهرب بمفرده قائلاً انه لا فائدة أن يقتلا كلاهما في الوقت الذي يستطيع فيه الهرب إلى سوق الشيوخ ومن هناك الى البصرة عن طريق بحيرة الحمار . ولم يعط بنيه فرصة لتناقشه او لتتوسل إليه ، بل أدار ظهره واختفى في الظلام تاركاً المسكينة لحظها التعس . أليست الحياة لذيذة ؟ فلماذا يفقدها من أجل امرأة ؟

وانهارت بنيه عندما ابلغتني هذا القسط من حكايتها وغصت بدموعها وهي تتنهد وكأن قلبها قد تمزق . وبعد ان هدأ روعها أخذت تصف لي كيف قضت الليل بطوله بين الاشجار ، وكيف انها تمكنت عند الفجر من العبور الى الحي الصابئي من المدينة حيث استدلت على بيت الحكومة ، لأنه قيل لها ان الانكليز قوم في غاية اللطف ، وأن دكسان يستطيع ان يحميها . وعندما وصلت الى منزلي سألت عن الحاكم السياسي فأدخلها الحاجب الى الدار . ولما رآها الحاجب كئيبة عطف عليها وطلب منها أن تجلس وراء الحاجز المخصص للنساء اللواتي يأتين لتقديم الشكاوى ، وتنتظر حتى يأتي الصاحب . وظلت خائفة ان يتبعها المطاردون الى بيت الحكومة ويختطفوها من هناك . فلما أدار الحاجب ظهره انسلت من مكانها ودخلت الى مكتبي حيث اختبأت تحت المنضدة .

وعندما طلبت من الحاجب أن يحضر دهش عندما رأى الفتاة في مكتبي ، لانه لما بحث عنها فلم يجدها حيث أوصاها ان تنتظر ، ظن انها ذهبت لتعود فيما

بعد . واخبرته انها فتاة من القبائل لجأت الى غرفتي خوفاً على حياتها ، وان عليه أن يسكنها مع عائلة السايس إلى أن أبتّ في قضيتها.

ولم أكد انهي كلامي ، ونبيه لا تزال أمامي ، حتى دخل حاجب آخر يعلن وصول الشيخ منشد الحبيب في مهمة عاجلة .

وارتعدت الفتاة من الخوف عندما سمعت ذلك . ولكنني أدخلتها بسرعة غرفة داخلية كنت احتفظ فيها بأوراقي السرية واغلقت الباب ، وأمرت بالسماح للشيخ منشد بالدخول .

وكنت أحب منشد اكثر من غيره من الشيوخ لأنه ذو اخلاق عالية ، ويتناول القضايا المعقدة بكثير من الكياسة والحنكة والتعقل . وبعد التحيات المعتادة وشرب القهوة دخل منشد في الموضوع ، وأخذ يقص علي كيف ان فتاة من قبيلته هربت من منزل ذويها في الليلة السابقة بعد ان خدعها شاب طائش ، وان رجال القبيلة طاردوهما فأمسكوا بالشاب بين أشجار النخيل اما الفتاة فقد عبرت النهر وهربت الى المدينة ، ويعتقد انها لجأت الى منزلي. وطلب مني بلطف ان اسلمه الفتاة اذا كانت لا تزال عندي بصفته شيخ قبيلة الغزي . وقال إنه سيحتفظ بها بين نسائه الى ان يستطيع تسليمها بأمان الى والديها . وأكد لي أنه لن يدع ان يلحق بالفتاة اي أذى نظراً لأنها غرر بها ولا تتحمل تبعة هربها . وكان يتكلم بدون أي انفعال وبلهجة تدعو الى الارتياح والاقناع ، ومع ذلك ظلت تساورني الشكوك .

وجواباً على كلامه ، اعترفت له ان نبيه جاءت الي في الصباح ، وطلبت منه ان يقسم بشرفه ان الفتاة لن تعاقب اذا ما سلمتها اليه . وتلكأ منشد وتردد ، عندئذ اقترحت ان نسأل الفتاة ما اذا كانت ترضى ان تضع نفسها في عهدته ، فوافق في الحال . ودخلت الى الغرفة حيث توجد نبيه واغلقت الباب ورائي . وأمسكت الفتاة المسكينة بيدي وشدت عليها . وهمست في أذني وهي تبكي ، انه اذا سلمتها له فمعنى ذلك موت محتم .

وأخذت تتوسل الي قائلة : لا تصدق منشد .. ولا يغرنك لسانه الطلق .

انه يريد ان يأخذني من بين يديك ومن حماية الحكومة وبعدئذ يسلمني الى ابن عمي لينتقم مني .

وكنت أعرف معنى ذلك كله ، فاقتدت الفتاة الى مكتبي وقلت لها :

– يا بنيتي ، ان شيخك منشد قد جاء ليعيدك الى القبيلة . وقد وعدني انه سيحتفظ بك بين نسائه الى ان يحل القضية مع والدك واخوتك. وأخبرني انه يغار على مصلحتك ، فاقترحت عليه أن يسألك بنفسه لأن الكلمة الاخيرة هي لك وحدك ولن يجبرك أحد ان تفعلي شيئاً ضد إرادتك .

ولاذت الفتاة المذعورة بالصمت ولكنها قعدت على الأرض بيني وبين منشد الذي أخذ يخاطبها بلهجة رقيقة تنم عن كثير من الاحترام . وسألها ما إذا كانت تود أن ترافقه الى منزله ، وان لا تخشى شيئاً لأن سلامتها مضمونة عنده . وقال لها انها ستعيش سعيدة مع عائلته .. أما في الناصرية ماذا سيحل بها ؟ فالحكومة لن تحميها الى الأبد وحتى دكسان لا يستطيع إيواءها الى أبد الدهر .

ومضت عدة دقائق قبل أن ترد عليه بنيه وأخيراً قالت له : لا أقدر .. لا أجرؤ أن أعود معك يا منشد .

وهناك أجهشت بالبكاء وهي تقول : أنت تعرف قوانين العشائر .. انها لا تغفر لفتاة خاطئة مثلي .. وأنت تعرف جيداً انك ستسلمني عندما يطلبني والدي واخوتي منك .. أخاف أن أموت .. فأنا ما زلت في مقتبل العمر .

وقلت لها عندئذ : يا بنيه ، لا تخافي أبداً . لن يسلمك أحد رغم إرادتك لأنك الآن في ذمة الحكومة ولكن هنالك سؤالاً أود ان أسألك إياه بحضور شيخك . هل حدث شيء مخجل بينك وبين الفتى قبل أو بعد هروبكما ؟ سألتك بالله ان تجيبي بصراحة وتخبريني الحقيقة .

ولم تكد بنيه تسمع هذا الكلام حتى انتفضت ورفعت رأسها ووجهها المبلل بالدموع وأجابت بصراحة قائلة : الست أنا من بنات قبيلة الغزي ؟ كيف أسمح بأن يحدث مثل هذا الشيء ؟ يشهد الله انني لم أرتكب خطأ .

وصدقتها .

وقلت لمنشد : أرأيت الحقيقة بعينك . لقد كنت أرغب أن تسمع من فمها أن شرفها وشرف بيتها لم يدنسا . ولكنها لا ترغب في العودة معك .

وهز منشد كتفيه واخذ يتمتم أشياء لم أفهمها عن « عقل الحرمه ». ووعدته انني سأرسل في طلبه إذا استطعت ان أقنع بنيه بتغيير رأيها ، وأنها في هذه الأثناء ستكون في عهدة نساء من المدينة . وودعني منشد متردداً وأعتقد أنه لم يكن مرتاحاً . أما بنيه فلم تغير رأيها أبداً . وفي احاديثي معها كانت تردد على مسامعي كل مرة انني إذا اعدتها الى منشد فإنها ستذبح كالنعجة بهدوء .

وقالت لي أنها لن تغادر الناصرية أبداً من اليوم فصاعداً لأنها ستكون تحت المراقبة .

ولكي أجد حلا عادلاً لقضيتها ، أخذت أستشير بعض وجهاء الناصرية ، عما يحدث لفتاة في مثل وضع بنيه ، ولكن دون أن أذكر بنيه بالذات . وأكد لي الجميع أنهـا تقتل . هذا ، بالاضافة إلى انني لم أستطع الحصول على جواب مقنع من منشد أو من رجال قبيلة الغزي عما حدث للشاب الذي فرت بنيه معه، مما دفعني الى التمسك بعدم إعادة الفتاة الى شيخ قبيلتها .

وفي بحثي عن حل لقضيتها ، توجهت لاستشارة ضاري بك الفهد السعدون ، وأخبرته القصة كاملة . وأشار ضاري بك أن الأمل الوحيد للفتاة هي أن تزوج من مواطن محترم من أهل المدينة . ورأيه أنها إذا تزوجت واستقرت في المدينة، فإن أهلها سيكفون عن ملاحقتها وقد يغفرون لها خاصة إذا استرضاهم زوجها بمبلغ من المال كتعويض لابن عمها الذي يعتبر ان شرفه قد طعن .

ووافقت بنيه على هـذا الرأي ، وعملت انا بموجب نصيحة ضاري بك . وبعد عدة أيام وجدت رجلا محترماً يدير مقهى على مسافة من منزلي ، وافق ان يتزوج بنيه . وتم عقد القران بهدوء وكان زواجاً سعيداً . واحتفاء بهذا الحدث السعيد تبرعت للعريس بمبلغ ٦٠٠ روبيه على ان تدفع الى ابن عم العروس .

ما أتعب هؤلاء القوم !

فتاة صويج الكردية

وهنا قصة مشابهة ولكن نهايتها مؤسفة .

الصويج قرية صغيرة تقع بين النــاصرية وشطرا على بعد ٢٠ ميلاً تقريباً . ولأنها تقع في منتصف الطريق فقد كانت مكاناً ملائماً ليقضي فيه المرء ليلته إذا كان يقوم برحلة طويلة على ظهر الخيل . وقبـل أن يصبح بإمكان السيارات ان تصل الى شطرا ، اعتدت ان أتوجه الى الصويج بعيد الظهر فأقضي الليل عند الحجي شعبان ، وفي الصباح الباكر استأنف السير إلى شطرا .

والحجي شعبان رجل كردي متقدم في السن استقر في الصويج قبل عــدة سنوات ويعيش على الاعتنــاء بالمسافرين وعلى بيع الأرز والسجاير والحاجات الأخرى التي يستحضرها من المدينة ، الى قبائل عبوده وخفاجه . وبالاضافة الى ذلك كان يدير « شايخانه » (أي مقهى يسقى فيه الشاي) وكانت عـائلته تقيم وراء الحانوت . وكانوا يستقبلونني وكأنني واحد منهم ، فلم يعاملوني قط كأي مسافر عابر .

وتتألف عائلة الحجي شعبان من ربة بيت أنيقة ، وابنة يافعة جميلة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عــاماً . وللحجي شعبان ابن آخر في كردستان البعيدة لم أقابله قط .

كنت دائماً أتوق الى البقاء مع هذه العائلة المتواضعة ، لأنني كنت أعــامل كفرد منها حالما أصل . وكانت الأم والابنة تجلسان معي سافرتين وتشتركان في الأحاديث المتنوعة . وكان الحجي شعبان مضيفاً كريمـاً بشوشاً ، يحث زوجته دائماً أن تقدم لي أفخر الأكل عندمـــا كنت أمر في جولة تفتيشية مرة كل أسبوعين . ولم أكن أهتم باحضار فراشي معي لأن زوجة الحجي شعبان كانت تقدم لي أنظف الشراشف في الصيف ، ولحافاً دافئـاً في الشتاء . وكان ذلك يناسبني لأنه يسهل سفري في أية لحظة .

وكنت أقضي أمسيات ممتعة مع العائلة تشكل أجمــل واسعد ذكرياتي في الفترة التي كنت فيها ضابطاً سياسياً في المنتفق .

كان أهل القرية ورجال القبائل المجـــاورة يكنون للحجي شعبان احتراماً كبيراً ممزوجاً بالخوف منه لكونه كردياً . أما الحجي شعبان فكان يعيش لعمله وللحفاظ على شرفه وسمعته بين جيرانه العرب . وأحياناً كان مملاً لكثرة مـــا يتحدث عن هذا الموضوع .

وكان حسون يساعـــد والده في تجارته فكان يذهب من وقت لآخر الى شطرا والناصرية لابتيـــاع بضائع جديدة . أمـا الأم وابنتها فكانتا تهتمان بالشؤون المنزلية ، وتخيطان الملابس في أوقات الفراغ كأي عائلة انكليزية . إن هذا الجو هو الذي اجتذبني الى هذه العائلة الكردية الرائعة في أرض غريبة .

وأحبهم إليّ كانت الابنة ، لأنها مزيج من المرح والجدية . وكانت تذكرني بفتاة انكليزية أعرفها . وكلما حللت ضيفاً على العائلة كانت تريدني ان أعلمها أسماء الأشياء باللغة الانكليزية وان أخبرها عن انكلترا او لندن .

وفجأة نزلت المأساة كالصاعقة . وأية مأساة ؟ لقـد غيرت كثيراً من نظرتي الى الحياة ، وزرعت في نفسي بذوراً من الانتقام وعلمتني كيف يصبح الشرقيون في لحظة من الزمان مخلوقات كاسرة إذا مـــا تناهى إليهم أي طعن بشرف نسائهم .

وذات يوم كنت أصرف أعمالاً كثيرة تراكمت عـــليّ في مكتبي بالناصرية عندما دخل الكابتن هول مساعدي المسؤول عن خيالة المنتفق وأبلغني ان أحد رجـــاله قدم من صويج وأخبره ان ابن شعبان أطلق النار على شقيقته في اليوم السابق ، وهي لا تزال ملقاة في الشمس على كومة من القمامة والدماء تنزف من جرحها البالغ بغزارة ، وان أحداً لم يجرؤ على نجدتها .

وبعد ان حصلت على بعض التفاصيل الاخرى امرت الكابتن هول ان يتوجه الى صويج على جناح السرعة ، ويأخذ معه الجراح الهندي وعدداً من الرجال مع حمالة ، فاذا وجدوا الفتاة على قيد الحياة فلينقلوها الى المستشفى ، وامرته ايضاً ان يلقي القبض على الفتى فوراً .

حدث ذلك في الساعة التاسعة صباحاً . وفي الساعة الخامسة مساء جاءني

الكابتن هول متعبا ليقول ان الفتاة قد نقلت الى المستشفى الصغير الذي تديره الدائرة السياسية ، وان حسون قد اعتقل وأودع السجن . وأكد هول ان الفتاة ألقيت في الشمس على كومة القمامة مدة لا تقل عن خمس عشرة ساعة قبل أن يخف لإنقاذها . وقال إن الرصاصة مزقت فخذها الأيمن ، ولكنها لا تزال على قيد الحياة في حالة سيئة . وأخبرني ان الوالدين المفجوعين طلبا منه أن يرافقاه وأنهما يجلسان بالقرب من ابنتهما . وقال ان الجراح الهندي فعل كل ما في وسعه لتخفيف الآلام المبرحة التي تشعر بها الفتاة .

وكتبت رسالة مقتضبة الى الضابط المسؤول عن المستشفى العسكري في الناصرية طالباً منه أن يزودني بتقرير فوري عن حالة الفتاة . وكنت ممنوناً لهذا الضابط لأنه جاء بنفسه عندما تلقى رسالتي . وقال لي ان جرح الفتاة بالغ وان الغنغرين بدأ يتسرب إليها نظراً لإهمالها مدة طويلة . وقال ان الأمل الوحيد هو بتر الساق كلها ، ولكن حالة الفتاة سيئة بحيث ان عملية من هذا النوع ستودي بحياتها . وأضاف ان الفتاة ليست فاقدة الوعي وتلح في أن تراني بأسرع وقت ممكن . ومع انها لا تزال تحت تأثير المخدر لكنها تستطيع أن تفهم الكلام الموجه إليها .

وبدون إبطاء صحبت الضابط الى المستشفى الصغير السيء التجهيز على ضوء قنديل خافت لأن الكهرباء لم تكن قد وصلتنا في ذلك الوقت . وكانت غرفة الفتاة تقع في الباحة الخلفية . فقادني مساعد الجراح إليها ، ولا زلت أذكر انه أخذ يشرح لي ان الرائحة الكريهة التي تنبعث من المستشفى ناشئة عن الغرغرين الذي أصيبت به الفتاة .

ولما دخلت عرفتني على الفور . وكان وجهها الجميل قد تغير وتشوه . فأشارت إليّ ان أجلس بجانبها وطلبت من الطبيب أن يعطيها مزيداً من المخدر . وكانت والدتها منكفئة في زاوية من زوايا الغرفة تذرف دموعها بصمت . وحقنها الطبيب بالمخدر وخرج مع مساعده من الغرفة .

وأخذت يد الفتاة بين يديّ وسألتها ما إذا كانت تشعر بألم شديد . فقالت

ان الألم ليس شديداً ، ولكنها كانت تعرف انها ستفارق الحياة ولذلك أرادت أن تطلعني على شيء .

وأخبرتني ان امرأة في القرية ظنت ان الشخص الذي تحبه انصرف عنها بسببها ، وبدافع من الغيرة أخذت تنشر الشائعات عن ابنة الحجي شعبان . وكانت كل تلك الشائعات كاذبة ولكنها كافية لتحمل شقيقها على الانتقام لشرف العائلة . فأخذ بندقيته وأطلق النار على شقيقته وهي جالسة على الأرض تخيط مع والدتها بعض الملابس . فأصابتها الرصاصة في فخذها . ولم يكتف شقيقها بذلك بل جرها الى كومة القمامة خارج المنزل وألقاها هناك . وهدد كل من يقترب منها باطلاق النار عليه . ولم يكن والدها هناك لينقذها لأنه كان قد سافر الى شطرا في اليوم السابق .

وقصت علي قصتها ببطء وبصورة متقطعة لأن الالم أخذ يشتد عليها . وكنت أرقب وجهها الحزين على ضوء القنديل الخافت . وكانت الرطوبة تنز من أرض الغرفة وجدرانها ، والرائحة التي تنبعث من جرحها مزكمة للأنف . وبعد الجهد الذي بذلته في اطلاعي على قصتها ، ارتمت في السرير منهكة القوى وهي لا تزال تشد على يدي .

وبعد قليل عادت تكلمني ولكن بصوت أشبه بالهمس . فطلبت مني ان أعدها ان افعل شيئاً من أجلها قبل ان تفارق الحياة . وعندما سألتها عن الشيء الذي يجب ان افعله ، تنهدت بعصبية وطلبت مني أن لا أسألها قبل ان أعدها بشرفي .

ولما أقسمت لها واكدت انني سأفعل طلبت مني ان أمد يدي تحت وسادتها واخرج نسخة من القرآن كانت تحتفظ بها هناك . وأمسكت بيدي ووضعتها على القرآن الكريم وقالت : أقسم بهذا الكتاب المقدس انك ستفي بوعدك .

ففعلت .

وعادت الى الكلام بصوت لا يكاد يسمع والدموع تنهمر على وجهها ، وقالت : أريد منك يا دكسان ان تطلق سراح أخي ساعة أفارق الحياة ، لأنه فعل

الذي فعله بدافع من حبه لشقيقته وحرصه على شرفها . وعندما تطلق سراحـه اخبره انني طلبت ذلك منك ، وان شقيقته كانت فتاة طيبة لم ترتكب خطأ في حياتها ، وانها سامحته قبل ان تموت .

وعندما انهت كلامها دخل الطبيب وطلب مني أن ادع الفتـــاة تستريح . ولكنه جاء متأخراً . فقد شعرت بقبضة الفتـــاة على يدي ترتخي شيئاً فشيئاً وأخذت ترتعش ويهتز جسمها وغابت عن الوعي . وانحنى الطبيب فوقها وجس نبضها .. ثم هز رأسه قائلاً : انتهت .

وأحست الأم بما يجري وكأن قلبها دليلها فقفزت من مكانها وحضنت ابنتها وأخذت تصرخ وتولول . وكان منظراً مريعــاً لم أستطع ان اتحمله فتسللت من الغرفة دامي القلب . ودفنت الفتاة تلك الليلة ، لأن الامور تتحرك بسرعة في الشرق !

وكان اليوم التالي يوم الخميس وهو اليوم الذي اعقد فيه مجلسي . وتجمع عدد كبير من الشيوخ ومن اعضاء عائلة آل السعدون وفي مقدمتهم ضاري بك وابراهيم بك ابن مزعل باشا . وحضر المجلس ايضاً الحجي شعبان وكان حزينــاً ولكن مرفوع الرأس .. ولم ينبس ببنـة شفة . وبعد ان تداولنا بالامور العامة طلبت من الجميع ان يعيروني انتباههم . فأخبرتهم بحـادث الصويج وبقصة ابنة الحجي شعبان وكيف طلبت مني ان اعفو عن شقيقها . وعندما انتهيت قلت للمجتمعين: هل رأيتم أبشع من هذه الجريمة .. وأنبل من طلب كهذا يطلبه انسان على فراش الموت ؟

ولاذ الجميع بالصمت فترة طويــلة . وأخيراً تكلم ضاري بــك فقال : يا دكـسان .. لا يحدث إلا ما كتبه الله . ان الفتى فعل ما ظن انه واجبه . وليس من الحق ان تعاقبه .

وحزنت لدى سماعي ذلك من ضاري بك ولكنني لم افاجأ . واجبته بقولي: لا تخف .. سأطلق سراحه ولكن ليس بالطريقة التي تفكر بها .

وبعد ربع ساعـــة كان الفتى حسون يقف امامنا مكبل اليدين والرجلين .

وكان وجهه شاحباً كالاموات لا ينم عن اية مشاعر . وأخبرته بهدوء مـا حدث في الليلة السابقة أثناء مقابلتي لشقيقته ، وعن طلبها الأخير .

وخاطبته بقولي : يا بن الحجي شعبان ، وعدي سأفي به مع أنـك حقير لا تستحق الشفقة . ساطلق سراحك لأنني أقسمت ان افعل ذلـــك ، ولكن اذا سمعت ، بعد ثلاثة ايام ، انك في اي مكان من لواء المنتفق سأطاردك اينما كنت ، واصطادك كأي جبان حقير على شاكلتك .

وفكت الاغلال من يديه ورجليه فيما بدا عليه الذعر والدهشة ، واندفـــع خارج الغرفة دون ان ينطق بحرف . وخيم السكوت على المجلس فـــترة طويلة وقطعته بأن طلبت القهوة ثم اعلنت انتهاء الاجتماع .

وكان آخر من غادر المجلس ضاري بك الذي توجه الي وشد على يدي قائلاً : يا دكسان ، اعتقد أنك كنت قاسياً على ابن الحجي شعبان وعلى والده . ربما قد تكون فعلت عين الصواب ولكن يجب ان تتذكر يا دكسان انه لا تحدث إلا الاشياء التي يرتضيها الله . ولسنا نحن إلا مجرد ادوات . انها نصيحة رجل عجوز .

مسكينة ايتها الفتاة الكردية . لقد انتهيت اشرف نهاية . ولسوف اذكرك ما دمت حياً .

انتقام الحجي ناصر

وفي صيف سنة ١٩١٩ عدت الى انكلترا . وهنـاك علمت من السير بيرسي كوكس ان صديقي الشيخ قاصد الناحي قد قتل على يـــد عدوه الحجي ناصر العايل . ولم استطع معرفة التفاصيل في ذلـــك الوقت ، ولكنني عندما عينت وكيلاً سياسياً في البحرين في خريف تلـــك السنة ، عرفت كل شيء من شيوخ وأعيان المنتفق الذين قدموا لزيارتي . انهـا قصة محزنة اعادت الى ذهني كلمات قاصد يوم احرقنا سوية مضيف الحجي ناصر ، وهي ان ذاكرة العرب طويلة .

ويبدو ان الحجي ناصر رتب أوضاعه واستكان لمدة سنتين ، ولكنه لم يغفر لقاصد اشتراكه في حرق مضيفه . فكان ينتظر مغادرتي للمنتفق حتى يثأر من

قاصد . وكان قاصد من جهته يضمر الكراهية للحجي ناصر ولكنه لم يكن بينهما خصام مكشوف .

وذات يوم دعـــا الحجي ناصر الشيخ قاصد الى وليمة احتفالاً ببناء مضيفه الجديد . وارتكب قاصد الذي لم يتطرق الخوف الى قلبه قط خطأ مميتاً عندما قبل الدعوة . واثناء المأدبة ، وعندما كان قاصد يرفع يده بقطعة لحم الى فمه ، اطلق عليه الرصاص من الخلف . وكان احد عبيد الحجي ناصر قـــد صوب بندقيته نحو قاصد من ثقب في جانب المضيف ، واصابه في مؤخرة رأسه .

وتبع ذلك لغط كثير ، واختفى الرجل الذي ارتكب الجريمة مـــدة من الزمان . واستاءت قبيلة الحكام كلها من هذا الغدر الرهيب لا سيما وان قاصد كان ضيف الحجي ناصر مما يشكل انتهاكاً فظيعاً للعادات والاعراف العربية . ونشب قتـــال متقطع بين اتباع قاصد واتباع ناصر ، وانضمت قبيلة المرحوم الشيخ مزبان الى جماعة قاصد .

واستطاع الشيخ فرهود الفندي رئيس قبيلة الحـــكام على الضفة اليسرى من النهر ان يقيم هدنة بين الطرفين بمساعدة الحكومة . ولكن ناصر أصبح منـــذ ذلك الوقت محكوماً بالموت ، لأن مزهر وريسان ابني قاصد الصغيرين صمما على قتله وأخذا يتتبعانه ليلاً نهاراً . ولم يمض اسبوعان حتى تمكنا من قتله وهو عائد الى مضيفه في مكان كثيف النبات .

واعتبر جميع أهل الجوار الأمر انه جزاء عادل وكان عطفهم على أولاد قاصد ظاهراً . واعتقد ان الحكومة اعتقلت الشابين وسجنتهما فـترة قصيرة . ولكن مزهر في النهاية اصبح شيخاً على القسم الأكبر من قبيلة الحكام على الضفة اليمنى من النهر . وقد قابلته مرة سنة ١٩٤٣ فوجدتـه رجلاً فهيماً . وسررت كثيراً بلقائه لأنه أتاح لي فرصة التحدث عن الايام الماضية وعن صداقتي لوالده . واستطعت ان اكتب له رسالة امتدحت فيهـــا ولاء قاصد لي وللحكومـــة البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى . وذكرته فيهـــا كيف ان والده خاطر بحياته لإنقاذي .

وكتبت الرسالة اعتقاداً مني بأنها قد تكون ذات فائـدة في المستقبل لمزهر وشقيقه ربسان . وفي سنة ١٩٥٣ أصبح مزهر نائب منطقة سوق الشيوخ في البرلمان العراقي .. بينما كان ربسان يدير شؤون القبيلة .

الفصل العاشر

الاخوان يشنون الحرب على الكويت ١٩١٧ - ١٩٢١

وقبل ان أسترسل في قصصي الشخصية ، يجب ان أسجل بعض الاحداث التي وقعت في الجزيرة العربية اثناء اقامتي في لواء المنتفق .

في الخامس من شباط سنة ١٩١٧ توفي الشيخ جابر ابن مبارك الصباح حاكم الكويت بعد ان حكم مدة تزيد عن سنة بقليل . وخلفه شقيقه سالم والد الحاكم الحالي . وكان سالم ابن مبارك الصباح يختلف كل الاختلاف عن شقيقه الراحل . فقد كان مسلماً متعصباً وعنيداً . وقبل ان يأتي الى العرش ، قضى حياته في الصحراء ، وكان يكره الاختراعات الحديثة . ولكنه كان فائق الشجاعة ، وعليه يقع اللوم في النزاع الذي نشأ مع ابن سعود .

وفي نهاية سنة ١٩١٧ قاد سان جون فيلبي من الدائرة السياسية في حكومة الهند والذي كان في ذلك الوقت يقوم بمهمة خاصة في بغداد ، بعثة سرية الى نجد بقصد اقناع ابن سعود باستئناف التحرشات بابن رشيد. وسبق هذا الاجتماع، ارسال ضابطين الى الرياض من البصرة هما : الكولونيل هاميلتون ممثل السير بيرسي كوكس ، والكولونيل كانليف – اوين ممثلا الاستخبارات البريطانية في العراق . وقد عاد الضابطان فور وصول فيلبي .

وفي شباط سنة ١٩١٨ فرض الاسطول البريطاني حصاراً على الكويت ، لأنه تبين ان المؤون والذخائر تهرب الى الاتراك في دمشق من الكويت عبر الصحراء .

وفي شهر تموز من السنة ذاتها انذر الشيخ سالم بأن التأكيدات المعطاة له ولوالده من بريطانيا ، والصداقة والحماية والمساعدات التي كان يتمتع بها والده ، لن تستمر إلا اذا أخذ على عاتقه شخصياً منع كل الاعمال المضرة بمصالح بريطانيا في أراضيه ، وسواء ارتكبها رعاياه او غيرهم .

وفي تلك السنة اجبر ابن سعود جميع البدو في نجد ، باستثناء عجمان ، ان يعتنقوا الاخوانية ، وان يعترفوا به اماماً عليهم . ولكي يضمن ولاء تلك القبائل وبقاءها تحت سيطرته ، استدعى ابن سعود الزعماء الوهابيين الى الرياض لإصدار فتوى تقضي بأن يقوم المؤمنون من الاخوان ببناء القرى والمدن ، وان يتعاطوا الزراعة ، لأن ذلك فريضة من الوجهة الدينية ، ولأنه يتيح تقسيم الاتباع الى نخبة وجهلة . والجهلة في معظمهم هم البدو الذين اعتنقوا المذهب الجديد . وفرض على الاخوان ان لا تزيد البيوت التي يبنونها عن طابق واحد . وربما كان ذلك لضمان عدم استخدامها كحصون في المستقبل .

ونتيجة لزيارة فيلبي الى الرياض استأنف ابن سعود مناوشاته مع ابن رشيد في خريف سنة ١٩١٨، فزحف على جبل شمر ولكنه فشل في اقتحام حايل مع انه وصل الى اسوارها . وكان ذلك كافياً لإجهاض حملته .

وفي تلك الاثناء عاد عبدالله ابن الشريف حسين الى التدخل في شؤون نجد ، فادعى ملكية مدينتين على الحدود هما : ترابة وخرمه . وجهز عبدالله قوة كبيرة من المشاة تدعمها المدافع وظهر فجأة امام خرمه التي احتلها بعد فترة من القتال . وبعد ثلاث ليال شن عليه الاخوان بقيادة الامير خالد بن لؤي هجوماً صاعقاً ودمروا معسكره ، واستولوا على مدافعه وبنادقه وذخائره . ووقعت في يد ابن سعود غنائم كثيرة . ونجا عبدالله الشريف من الموت بأعجوبة . وظلت بريطانيا بعد ذلك الحادث بعدة سنوات تعمل جاهدة لحفظ السلام بين الملك

حسين وابن سعود .

وفي ٢٦ كانون الأول سنة ١٩١٩ اتفق ابن سعود مع الحكومة البريطانية حول الاتفاقية الانكليزية ــ التركية المعقودة سنة ١٩١٣ . وتنص الفقرة الرابعة من الاتفاقية الجديدة على ان قضية الحدود بين الكويت والسعودية يجب تسويتها فيما بعد .

مستشفى للنساء في الكويت

وكتبت السيدة اليانور تايلور كالفرلي تقول : ومع مرور الزمن أخذت الثقة تنمو . . وكذلك عائلة كالفرلي . . . فقد رزقنا ثلاث بنات شاركتنا البيت الجديد الذي بني لنا خلال اجازتنا الأولى . ويقع هذا البيت على شاطىء البحر في الصحراء الممتدة عند طرف المدينة . وكانت نوافذه العديدة وشرفاته الواسعة مريحة وخاصة في ايام الصيف الشديدة الحرارة . وكان هنالك منزل آخر للارسالية يشغله الدكتور ميلري وزوجته اللذان عينا في الكويت لدى نقل الدكتور هاريسون الى مقر آخر . وهنالك ايضاً المستشفى الجديد الذي عملت فيه مع الدكتور ميلري عدة سنوات . واثناء اجازتنا كانت زوجة الدكتور ميلري تعاونه في معالجة النساء المريضات . ونادراً ما كانت اولئك النسوة يسمحن له بفحص اي شيء ما عدا النبض واللسان الذي كان غالباً يمد من ثقب في الحجاب الذي يغطي الوجه .

وفي سنة ١٩١٩ انشأنا مستشفى للنساء من طابق واحد ، الى جانب مستشفى الرجال .

واقمنا فيما بعد جناحين للعائلات بين المستشفيين . وهناك كنا نحتفظ بالمرضى القادمين من مسافات بعيدة ومعهم عائلاتهم . ولم يكن الا نفر قليل من اهل المدينة يسمحون لنسائهم بالاقامة في المستشفى . وحتى هؤلاء يفضلون ان تتم المعالجة في المنزل إلا في حالات المرض الشديد او العمليات الجراحية الكبرى . وغالباً ما كان الناس يشاهدون « السيدة الطبيبة » راكبة حمارها الابيض وسط

شوارع المدينة . وكانت بعض العمليات تجري على سطح منزل المرأة المريضة في الصباح الباكر حين يكون ضوء النهار جيداً والحرارة ليست شديدة . وكان يشارك في العمليات بعض المساعدين الذين يمكن للمستشفى الاستغناء عنهم .

واذكر اني اجريت عملية على السطح ، وعمليتان في العين في غرفة الطابق العلوي . وفي ليلة شديدة الحر أنقذت حياة امرأة تعسرت ولادتها ، على ضوء قنديل . ولم يكن الطبيب يستدعى في قضايا الولادة إلا عندما تعجز القابلات المحليات عن اداء المهمة .

ووجود المستشفى قرب المنزل كان يساعدني على تلبية احتياجات العائلة اثناء اوقات العيادة . واحياناً كان يتجمع في الصباح اكثر من مئة امرأة للمعاينة . وكان لدينا في المنزل طباخ ماهر من غوا ، وخادم ايراني ، وممرضة عربية . وفي الحالات الطارئة كانت السيدة ميلري والنساء الاخريات في المقر يساعدن على الاعتناء بالاطفال اثناء غياب او انشغال امهاتهم . وكان الدكتور ميلري ، كالدكتور هاريسون من قبله ، على استعداد ان يساعدني كيفما استطاع. ولكن عطف وتعاون زوج « السيدة الطبيبة » اكثر من اي شيء آخر هو الذي جعل انسجام الحياة المهنية والحياة العائلية ممكناً .

اما وصول الممرضة رافا موني التي تلقت تدريبها في مستشفى الارسالية مدانا بالي بجنوب الهند ، الى الكويت فقد كان يوماً عظيماً . وبعد ذلك ارسلت لنا سيارة فورد لتحل محل الحمار . وعينت كذلك الآنسة جاين سكاردفيلد لتعيش معنا وتعاوننا في مستشفى النساء . وقد اكتسب العمل الطبي قوة وفعالية بتعيين الآنسة ماري فان بيلت رئيسة ومشرفة على المستشفيين.

« ميريلاي »

ولد تشارلز ستانلي غارلاند ميلري في لندن في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٧٦. ودرس الطب في اميركا . وبعد ان تخرج من فيلادلفيا انضم الى الارسالية الاميركية وجاء الى البحرين مع زوجته الاميركية بسي اوغوستا سنة ١٩٠٧ .

وقضى في البحرين اربع سنوات تعلم خلالها اللغة العربية ونقل بعدها الى الكويت سنة ١٩١١ .

وكان عرب الخليج يسمونه « ميريلاي » تحبباً . وكان اهل الكويت بصورة خاصة يكنون له حباً واحتراماً كبيرين . وشاركته زوجته كل تلك السنوات الاولى واكتسبت بذلك حب واحترام العائلات العربية التي كانت تقطن بجوارهم.

وغالباً ما كان ميلري يروي القصة التالية :

بينما كان الشيخ سالم في رحلة صيد سنة ١٩١٦ ، استدعي ميلري فجأة لمعاينة ابن الشيخ . وركب ميلري حصانه فوراً وفعل كل ما باستطاعته لمعالجة الفتى المريض ، تاركاً للخدم الذين وقفوا على خدمة الفتى تعليمات واضحة في كيفية استخدام الدواء الذي وصفه له . وعندما عاد الى القصر في اليوم التالي لمعاينة المريض وجد ان تعليماته لم تنفذ وان الفتى لم يعط الدواء الذي وصفه ، فترك القصر غاضباً ورفض ان يعاين الفتى او يعالجه .

واخبر ميلري زوجته بتصرفه الطائش وعن خوفه من غضب الشيخ سالم عندما يعود من الصيد . وبعد عدة ايام شاهد ميلري جماعة من الجنود تقترب من منزله فظن انهم قادمون للانتقام منه ومن عائلته . وتعجب عندما عرف ان الشيخ قدم للاعتذار اليه من سوء تصرف الخدم وابلاغه انهم عوقبوا بالجلد . وقد احضر الشيخ معه بعض الهدايا « للحكيم » هي عبارة عن سجادة عجمية وعقد من اللؤلؤ لزوجته . ولم يكن في وسع ميلري ان يرفض الهدية . اما الفتى فقد تماثل للشفاء وعادت العلاقات مع الشيخ الى طبيعتها .

زيارتي للهفوف

كان اول اتصالي بالاخوان في كانون الثاني سنة ١٩٢٠ ، عندما كلفتني الحكومة البريطانية ان ازور الهفوف واحل ضيفاً على ابن سعود . وكنت يومها وكيلا سياسياً على البحرين . وكان علي ان اقوم بمهمة صعبة وهي معرفة كل ما يمكن معرفته عن الحركة الجديدة . واينما حاولت ان استفسر عن الحركة كنت اصطدم

بجدار من الصمت والكتمان . واستنتجت من ذلك ان ابن سعود لا بد وان يكون قد اصدر تعليماته بعدم الافصاح عن شيء فيما يتعلق بالحركة امام الغرباء .

ولم تكن اسباب هذا التصرف بعيدة عن التصور . واعتقد ، اولاً ، ان ابن سعود الذي اقترن اسمه بحركة الاخوان، كان يخشى الفكرة التي قـد ترتسم عنه في اذهان العالم الخارجي . وثانياً ، كان قلقاً من الدعايات غير الضرورية عن الحركة ، والتي اطلقتها تقارير مبالغ بها صادرة عن مصادر مغرضة . وثالثـاً ، كان يعلم ان بعض الجهات ، وخاصة القاهرة وبغداد ولندن ، تنظر الى الحركة بعين الخوف وعدم الائتمان . ورابعاً ، لم يكن يريد ان يعرف أحد انه يشجع الحركة ويقودها تنفيذاً لغاياته ومآربه الخاصة .

وعندما قـابلته في الهفوف أصر على ان حركة الاخوان ليست الا نسخة جديدة عن الوهابية القديمة . وقال لي بالحرف الواحد : ان الوهابية القديمة اليوم ممزوجة باندفاع الاخوان ، هي اصفى وانقى الديانات في العالم .

وفي المناسبة ذاتهـا قال لي : يا ديكسون لا تخف . الاخوان هم انا ولا احد غيري .

ويمكنني الاستنتاج بصورة عامة من كل ما رأيته وسمعته من ابن سعود ومن مساعده الامين فيصل الدويش الشيخ الأعلى في قبيـلة مطير، ان حركة الاخوان ليست في كليتها حركة سيئة كما اريد لها ان تكون في البداية . فهي اولاً احياء ديني حقيقي للوهابية القديمة ، ومحاولة من قبل جماهير اواسط الجزيرة العربيـة لتحسين اوضاعهم الاخلاقية والدينية . وهي خاصة تبدو وكأنها محاولة جديدة لتطهير الاسلام من الشوائب التي علقت به بفعل النفوذ الاوروبي . ومما لا شك فيه ان الحركة ذات طابع دفاعي قومي لا تثق بكل ما هو اجنبي ، وتحـاول باصرار اعادة الجزيرة ونجد الى العرب بأي ثمن .

ومهما تكن المطامح والافـكار السياسية التي سيرت رجالاً كابن سعود في البداية ، فالثابت هو ان الجماهير كان يحركها شعور طافح بالعداء للأجانب .

ان صفوف الاخوان كانت في الايام الاولى للحركة مؤلفة كما ذكرت سابقاً من

القرويين الجهلة السذج في نجد. وامتدت فيما بعد الى قبائل البدو في داخل الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها .

اما الطبقات المثقفة من اهل المدن والتجار في نجـــد فقد كانوا وهابيين في الاصل . ومع ان هؤلاء لم يوافقوا على بعض نزعات الاخوان ، وخاصة عـــدم التسامح، لكنهم اعتبروا ان الحركة جديرة بالتأييد لأنها تعطي الوهابية المحتضرة دافعاً جديداً نحـو اسلام اصفى ، ولانها تعطي ابن سعود السيطرة اللازمة على قبائل نجد التي كان كبح جماحها ضرورياً .

ان احداً من الذين عرفوا ابن سعود معرفة جيدة لا يستطيع ان يتهمه هـــو شخصياً بالتعصب الوهابي ، او بالهيجان والاندفاع الديني الأعمى الذي كان يحقن به اتباعه من الاخوان . فقد كان في المناسبات ، وحسب ما يـــلائم اغراضه ، يتظاهر امام اتباعه بان له نفس نظرتهم وافكارهم ، لا سيما عندما يحتك بالجنــود عشية غزوة من الغزوات ، او عندما يرغب في ترك انطباع لدى بعثة انكليزيـــة او اجنبية . وعلى كل حال ، فان اوليفر كرومويل كان يتبع نفس الاساليب !

وليس أدل على أن ابن سعود لم يكن متعصباً متهوساً في سريرته من الحادثة اللطيفة التي واجهتني اثناء زيارتي للهفوف. كانت حركة الاخوان في عز تأججها ، وعندما يجتمع شيوخ القبائل في كل المناسبات ، وحتى في حضوري ، كان ابن سعود يندد بالاجانب ويتكلم ضدهم . ومثالاً على ذلك ، قـال مرة ان المساعدة الشهرية ومقدارها ٧٥ ألف روبيـــة التي كانت تقدمها له الحكومة البريطانية ، والتي حملت قسطاً منها إليه أثناء زيارتي ، هي جزية كان يدفعها المسيحيون الى قادة الاسلام الأوائل بدلاً من الخدمة العسكرية . وقد حذرني في المجلس ان التبغ حرام وخطيئة مميتة ، وان من يدخنه في نجد يكون قـــد خرق القانون وبذلك يعرض نفسه الى الاذى . ومع ذلك ، وتبعاً لقواعد الضيافة العربيـــة والاعتناء براحة الضيوف ، أرسل إليّ ابن سعود الموقر بعد حلول الظلام علبتين من أفخر السجاير المصرية بيد الدكتور عبدالله سعيد الدملوجي ، طالباً مني أن أدخنها ضمن جدران غرفتي .

وكان نجاح حركة الاخوان وتقدمها من خطوة إلى خطوة ، يدل على عبقرية ابن سعود ومهارتـه في وضع خططه . فلم تأت سنة ١٩٢٠ حتى كانت الحماسة للمذهب الجديد قد بلغت حداً كبيراً بين البدو بحيث انه لم يبق أحد إلا وانضم إليه .

وتجاوب الجميع بحماسة مع الأمر الذي أصدره ابن سعود ببناء القرى والمدن لتوطين القبائل . وأصبح البدوي يفاخر بأنه سيصبح من أهل الحضر .

وأخبرني ابن سعود ان اثنتين وخمسين حاضرة قد بنيت في نجد نتيجة لهذا الأمر الشهير . وقد اظهرت الطريقة التي لفت بها القبائل وحملت على الاستيطان والعمل في الزراعة دون ان تشعر بأي نفور ، أن ابن سعود ليس قائداً عادياً . فأخذ يفاخر انه أعطى القبائل الرحل حصة في الأرض وجعلهـا قبائل مقيمة . وفي الوقت ذاته جعل هـذا النظام الجديد مرناً لكي يسمح لقسم من كل قبيلة ان يبقى في الصحراء خلال السنة يرعى الجمال والمواشي .

أما اختيار الحاضرة التي كانت ستقطنها هـذه القبيلة أو تلك من الاخوان ، فكان من اختصاص ابن سعود نفسه . فكان يقربهم من الرياض او يبعدهم عنهـا حسب سهولة او صعوبة مراسهم .

ولم تكن قبيلة عجمان في ذلك الوقت قـد انضمت الى الحركة . وليس ذلك لأنهم يعترضون على الاخوان وحركتهم ، بل لأنهم كانوا يعرفون نوايا ابن سعود في اخضاعهم على طريقته الخاصة . وهي ، للذي يعرف رجل الصحراء ، عقوبة صارمة . فقد كان ابن سعود ينوي نقل قبيلة عجمان من منطقة الاحساء الساحلية موطنها الأصلي، الى داخل نجد، حيث يقسمها الى الاقسام العشرين التي تتألف منها، ويضع كل قسم في حاضرة من حواضر الاخوان ، وذلك لكي يشتت شملهـا . وقد اخبرني ابن سعود بنفسه ان هذا هو مقصده لأن عجمان خانته مرتين : مرة أثناء القتال مع ابن رشيد في مجمع (جراب) في كانون الثاني سنة ١٩١٥ ، ومرة في تشرين الثاني من نفس السنة عندما هاجمته في الاحساء وكادت تتغلب عليه . ومنذ ذلك الوقت ، قال ابن سعود ، وعجمان تلعب عليه بخفة ونجـاح . فهي

تارة تقطن في الكويت وتارة في العراق . وفي الوقت الذي كنت فيه ضيفاً على ابن سعود كانت عجمان قد ضربت خيامها في الزبير ، وكانت على وشك الوصول الى مصالحة مع ابن سعود .

ومن أحاديثي المختلفة مع ابن سعود استنتجت انه على استعداد لأن يتساهل مع عجمان ويخفف العقوبة التي ذكرتها ، علماً بأنه ربما يستطيع أن يكون قاسياً الى أبعد حدود القسوة .

مسألة الحدود مرة ثانية

شهدت سنة ١٩٢٠ اضطراباً شديداً في العلاقات بين ابن سعود والشيخ سالم حاكم الكويت .

وكان هذا الأخير قد وضع الحصار البحري البريطاني للكويت على أبواب ابن سعود . وقد فرض ذلك الحصار بشدة حتى تم توقيع الهدنة مع تركيا . وظن الشيخ سالم ان ابن سعود كان أذكى منه مع الحكومة البريطانية التي خدعها ابن سعود بملء إرادتها ، وان ما قاسته الكويت من خسارة في التجارة والنفوذ لا يمكن تفسيره إلا بأن البريطانيين اعتقدوا ان ابن سعود هو صديقهم ، فلما اقترح عليهم ان الشيخ سالم موال للاتراك ، صدقوا الحكاية .

وظن الشيخ سالم انه ليس من غير المحتمل ان يهاجم ابن سعود الكويت ، او على الأقل يحاول ان ينقض الاتفاقية الانكليزية - التركية المعقودة سنة ١٩١٣ .

وكانت تلك الاتفاقية قد أعطت الكويت سيطرة إدارية مباشرة على مساحة صغيرة حول مدينة الكويت ، وسيطرة غير مباشرة مع حق فرض الضرائب على القبائل في منطقة واسعة جنوباً ، تمتد من جبل منيفة على البحر الى حفر الباطن في الغرب ، وحتى الباطن مقابل جبل صنم في الشمال . وكان من المقصود ان تشمل هذه المساحة الكبيرة نطاً والجاريتين والصفا وحبت ووبره وغيرها .

واحتياطاً للمستقبل وخوفاً من مطامع عبد العزيز آل سعود ومساعدة

الأحدب فيصل الدويش القائد الروحي للاخوان ، أخذ الشيخ سالم يعد العدة لأسوأ الاحتمالات . فاقترح بناء حصن في دوحة بلبول على الشاطىء شمال جبل منيفه لتكون بمثابة حدود له في أقصى الجنوب . واعترض ابن سعود مدعياً ان دوحة بلبول تقع ضمن أراضيه ، ورد بأن أمر ابن شقير قائد قبيلة مطير ان يستولي على جاريه عليا التي يدعيها الشيخ سالم .

وبدأ ابن شقير في بناء قرية للاخوان في جاريه عليا الامر الذي دفع الشيخ سالم الى إرسال الشيخ دعيج ابن سليمان ابن صباح الفاضل قائد قوات الكويت الى حمض التي تبعد خمسة عشر ميلاً إلى الشرق من جاريه عليا ، حاملاً راية الحرب بقصد دب الخوف والذعر في مطير .

وبينما كان دعيج مخيماً في حمض مع قوة لا بأس بها ، ضرب فيصل الدويش ضربته مفاجئاً دعيج بهجوم عند الفجر على رأس قوة كبيرة من الاخوان في مطير . وهزم جيش الكويت هزيمة شنعاء واستولى الاخوان على المخيم وعلى عدد كبير من الجمال . وكان عدد القتلى في صفوف جيش الكويت كبيراً ، ولم ينج دعيج ومعه الشيخ عبدالله الجابر الصباح من الأسر والموت إلا بأعجوبة .

ولما عادت فلول جيش دعيج إلى الكويت تحقق الشيخ سالم من خطورة الوضع المحدق به ، فأمر ببناء سور دفاعي حول مدينة الكويت دون ابطاء . واشترك جميع سكان المدينة ببناء السور الذي انتهى العمل به خلال شهرين .

وطلب الشيخ سالم مساعدة الحكومة البريطانية مدعياً بأن فيصل الدويش اقدم على الهجوم في حمض دون ان يستفز . وانكر ابن سعود ذلك في عدة رسائل وجهها الى الحكومة البريطانية ووضع اللوم كله فيها على الشيخ سالم . وعندما طلب منه ان يحدد الأراضي التي يدعي ملكيتها أصر على أن حدوده تمتد الى أسوار مدينة الكويت . وعندئذ أبلغته الحكومة البريطانية انها تعترف فقط بالحدود المنصوص عنها في الاتفاقية الانكليزية — التركية المعقودة سنة ١٩١٣ .

وفي أول حزيران أرسل الشيخ سالم بعثة الى الرياض لتبلغ ابن سعود ما

حدث في حمض ، وتطلب منه إعادة الجمال والممتلكات المستولى عليها ، ودفع تعويض عادل الى عائلات الذين قتلوا في المعركة .

وعادت البعثة في الثاني من تموز يصحبها ناصر ابن سعود الفرحان حاملاً رسالة مطولة من ابن سعود الى الشيخ سالم . وتضمنت الرسالة سلسلة من الاخطاء قالت إن الشيخ سالم ارتكبها ضد ابن سعود وشعبه ، وأكدت ان الشيخ سالم ليس له ادنى حق في جاريه عليا أو أي منطقة أخرى يدعيها ابن سعود .

وضمن ابن سعود رسالته وثيقة طلب من الشيخ سالم ان يوقعها ويعيدها إليه متعهداً فيها بالتنازل عن المناطق التي يدعي ملكيتها إلى الشرق والى الغرب من جاريه .

ووجد الشيخ سالم ان لا سبيل الى تفاهم شريف مع ابن سعود إلا عن طريق بريطانيا . فاتصل فوراً بالحكومة البريطانية لاستشارتها بشأن الرد على ابن سعود ، مشدداً على ان المناطق المتنازع عليها هي ملك صريح له بموجب الاتفاقية الانكليزية – التركية المعقودة سنة ١٩١٣ .

وطلبت الحكومة البريطانية من الشيخ سالم في جوابها على طلبه ان لا يوقع وثيقة التنازل التي أرسلها إليه ابن سعود ، وان يطلب رسمياً التحكيم الودي من قبل الحكومة البريطانية . وفي الوقت ذاته أشارت الى أن الاتفاقية الانكليزية – التركية المشار اليها لا يمكن للشيخ سالم ان يعتمد عليها لأنه ليس طرفاً فيها ، ولأن الفقرة الرابعة التي اتفقت عليها الحكومة البريطانية مع ابن سعود في ٢٦ كانون الأول سنة ١٩١٩ ، قد حلت محل الاتفاقية ، وأصيب الشيخ سالم بخيبة أمل مريرة .

وبعد مراسلات طويلة بين الكويت وابن سعود والمندوب السامي البريطاني في العراق ، وافقت الحكومة البريطانية على تعيين حكم بشرط ان يتعهد كل من ابن سعود والشيخ سالم خطياً نيابة عن شعبيهما بقبول مسبق لما قد يسفر عنه التحكيم والالتزام به مدى الحياة .

واشترطت الحكومة البريطانية كذلك على الطرفين ان يحافظا على السلام في

تلك الأثناء . وبعد سيل من المراسلات الأخرى قبل الشيخ سالم هذه الشروط في السابع عشر من أيلول مؤكداً ادعاءاته السابقة . وحذا ابن سعود حذوه فبعث بموافقته في الخامس من أيلول معلناً انه ليس للشيخ سالم اي حق خارج أسوار مدينة الكويت .

وفي تلك الأثناء بعث ابن سعود برسالة الى ابن شقير في جاريـة عليا يأمره فيها ببناء حصن هناك . ووقعت الرسالة في يد الشيخ سالم ممـا اثار الغضب في الكويت ، نظراً لأن الرسالة ارسلت بعد قبول شروط التحكيم التي وضعتهـا الحكومة البريطانية .

معركة جهرا

وتلقى الشيخ سالم معلومـات خاصة تفيد ان فيصل الدويش يتحرك شمـالاً إلى صبيحية جنوب غربي تلال برقان بناء لأوامر ابن سعود . وخشي الشيخ سالم ان يكون ذلك مقدمة لهجوم صاعق على جهرا التي يعلق عليها اهمية استراتيجية كبرى ، فسار اليها بما لديه من قوات وبدأ يعد للدفاع عنها .

ووصل فيصل الدويش الى صبيحية في التـاسع من ايلول، وأمر الشيخ سالم بدوره بتحصين أسوار مدينة الكويت وتجنيد جميع الرجال القادرين جسدياً لهذا الغرض .

وكان السير بيرسي كوكس قد عين مندوباً سامياً على العراق . وفي طريقه إلى الخليج الفارسي التقى بابن سعود في عقير وأجرى معه محادثات حضرتها بنفسي ، ونقل اليه خلالها أوامر الحكومة البريطانية ، ووصل السير بيرسي إلى بغداد في العاشر من تشرين الاول .

وفي الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم شن الاخوان بقيادة فيصل الدويش هجوماً على جهرا . وكانت قوات الشيخ سالم تحمي الجهة الجنوبيـة الغربية من القرية بينا كانت الميمنة من خيالة شمر بقيادة ابن طوالة وكان قائد خيالة الميسرة دعيج الفاضل . وشن الاخوان هجومهم على المواقع الغربية، وبعد ان شتتوا خيالة

شمر استداروا نحو المواقع الشمالية الغربية . ولم تأت الساعة التاسعة حتى كانت القرية كلها بأيديها . وحوصر الشيخ سالم وغيره من الشيوخ ومعهم ستمائة رجل في الحصن الواقع جنوب غربي القرية ، بينما تشتت قواته الباقية . وبعد الظهر بعث فيصل الدويش برسالة الى الشيخ سالم يعرض عليه الصلح اذا أخلى الحصن وتنازل عن طلب الجمال التي استولى عليها الاخوان . ورفض الشيخ سالم . وخلال الليل شن الاخوان ثلاث هجمات مركزة على الحصن ولكنهم فشلوا في اسقاطه .

وتوترت الأعصاب في مدينة الكويت على اثر الشائعات الكثيرة المثيرة التي سرت فيها، وبدأ الجميع يتخوفون من هجوم مفاجىء على المدينة ، فأرسل جميع الرجال الموجودين فيها الى السور لتدعيم الدفاع عنه . وفي صباح الحادي عشر من تشرين الأول أرسل الشيخ أحمد الجابر الصباح آمر مدينة الكويت حينذاك نجدة الى جهرا قوامها ستمائة رجل توجهوا الى جهرا بطريق البحر في سفينة الشيخ الخاصة المسماة « مشرف » . وتوجه ابن طوالة على رأس فرقة من الخيالة بطريق البر .

وقبل أن تصل هذه الامدادات أرسل فيصل الدويش الى الشيخ سالم عالماً يدعى ابن سليمان يعرض عليه مقترحات محددة لعقد الصلح . وطلب ابن سليمان من الشيخ سالم منع التدخين والمشروبات الروحية ولعب القمار والدعارة في الكويت . وأجاب الشيخ سالم انه لا يقر هذه الموبقات وهو على استعداد أن يمنع رعاياه من ممارستها علناً . ولكنه لا يستطيع ان يمنع الناس من ان يفعلوا ما يشاءون داخل بيوتهم ، كما انه لا يستطيع تحمل مسؤولية ما يفعله الاجانب الذين لا يخضعون لسلطته .

وعاد الشيخ سالم الى مسألة الجمال والسلائب الاخرى قائلاً انه اذا كان الاخوان على استعداد لأن ينسحبوا ويتركوا خلفهم كل شيء أخذوه ، فهو لن يعترض سبيلهم . وكان رد ابن سليمان على ذلك ان الاخوان لهم حق الاحتفاظ بغنائم الحرب ، ولا يستطيع الموافقة على التخلي عنها دون الرجوع الى فيصل الدويش . وعاد ابن سليمان الى خيمة فيصل الدويش في الطرف الآخر من القرية.

وبعد هذه المقابلة بوقت قصير انسحب الاخوان دون قتال آخذين معهم كل شيء . وبعد مسيرة ثلاث ساعات ذلك اليوم ، استأنفوا السير نحو صبيحيه في الثاني عشر من تشرين الأول .

وكانت خسائر الكويتيين في الأرواح قليلة نسبياً اذ لم يتجاوز مجموع القتلى مايتي رجل. اما الاخوان الذين قاموا بهجوم مكشوف دون ادنى اهتمام بسلامتهم فكانت خسائرهم جسيمة . وقد ابلغني الميجر مور الوكيل السياسي في الكويت آنذاك انهم تركو ثمانماية قتيل على ابواب جهرا . ويقال ان عدد الجرحى منهم كان اكثر من ذلك بكثير ، وقد مات منهم حوالي اربعماية رجل قبل ان يصلوا صبيحية ، واكثر من مائة رجل ماتوا بعد ذلك .

وهكذا انتهت معركة جهرا التي يرى فيها العرب انتصاراً مبيناً للكويت في صراعها الطويل مع ابن سعود أيام الشيخ سالم .

تدخل الحكومة البريطانية

وعاد فيصل الدويش فأرسل رسالة الى الشيخ سالم من صبيحية في ١٤ تشرين الأول، طالباً منه ارسال صديقه هلال المطيري احد كبار تجار الكويت ليجري معه مفاوضات حول حل النزاع . ورفض الشيخ سالم هذا الاقتراح ، وأبلغ الدويش انه اذا كان يرغب في اجراء محادثات معه فليرسل بعثة خاصة الى الكويت لهذا الغرض .

ونتيجة لذلك أرسل الدويش بعثة برئاسة جفران الفقم في ١٨ تشرين الأول . ولكنه بدا واضحاً منذ البداية ان شروطها لن تقبل . وتتلخص هذه الشروط في ان ينضم جميع أهالي الكويت الى حركة الاخوان .

وامتنع الشيخ سالم عن مقابلة الوفد لمدة اسبوع طلب خلاله رسمياً مساعدة بريطانيا . وأخيراً استقبل الوفد في ٢٤ تشرين الاول بحضور الميجر مور الذي نقل اليهم بلاغاً، كتابة وشفاها، كانت نسخ منه قد القيت من الطائرات مسبقاً.

وينص البلاغ على انه ما دامت النزاعات محصورة في الصحراء وفي جهرا ،

فإن الحكومة البريطانية لا تملك ان تفعل اكثر من استخدام الجهود الودية لصالح السلام. ولكنه اذا تعدى الامر ذلك وشملت التهديدات مدينة الكويت والرعايا البريطانيين القاطنين فيها ، وتعرضت تأكيدات بريطانيا الى شيخ الكويت للخطر ، فإن حكومة صاحب الجلالة لا تستطيع ان تبقى مكتوفة الايدي او ان تقف موقف المتفرج .

ومضى البلاغ قائلاً : ان الحكومة البريطانية على ثقة ، كما يستدل من تصريحات ابن سعود المتكررة ، ان اعمال الاخوان العدوانية جاءت خلافاً لرغباته وأوامره . ومما لا شك فيه انه أوضح ذلك فور سماعه بانباء الهجوم على جهرا .

واكد البلاغ انه اذا ما حاول الاخوان مهاجمة الكويت ، فان ذلك يعتبر تصرفاً معادياً للسلطات البريطانية ولشيخ الكويت ، الأمر الذي لن يترك امام حكومة صاحب الجلالة خياراً سوى معارضة الاعمال العدوانية بكل الوسائل الممكنة .

ورد جفران الفقم على ذلك بقوله ان تصرفات الاخوان المعادية للشيخ سالم جاءت بناء لأوامر مباشرة من ابن سعود . وقال الميجر مور انه لا يصدق اقوال جفران.نظراً لأن ابن سعود صديق للبريطانيين وأكد لهم أكثر من مرة انه ليست لديه اية نوايا لاجتياح الكويت ، وان ابن سعود رجل شريف يحافظ على كلامه .

وكرر الميجر مور تحذيراته بان بريطانيا ستقاوم أي هجوم على الكويت ، وانسحب من الاجتماع .

وغادرت البعثة الكويت في اليوم ذاته وعادت الى صبيحيه يصحبها مبعوث من قبل الشيخ السالم . وعاد المبعوث في الثامن والعشرين من الشهر حاملاً رسالة فيصل الدويش يؤكد فيها انه صدق وعود الشيخ سالم التي قطعها لابن سليمان في جهرا ، ولذلك امتنع عن متابعة القتال وحاول ايقاف زحف قوات ابن سعود. واستطرد قائلاً ان الشيخ سالم خدعه ولم ينفذ وعوده . وبهذا انتهت الهدنة .

وقال الرجل الذي حمل الرسالة انه عندما غادر صبيحيه كان الاخوان يحملون المـــاء استعداداً للسير نحو الصفا في صباح السادس والعشرين لانتظار الذخائر والمؤن التي ستصلهم الى هناك . وقـــد ثبتت صحة هذه الاقوال . ولم يكن منظر الطائرات والسفن البريطانية في خليج الكويت بدون اثر على قرار فيصل الدويش بالانسحاب .

وفي ٣٠ تشرين الأول ابلغ الشيخ سالم ان المنـدوب السامي البريطاني السير بيرسي كوكس يعتبر وقف سفك الدماء الى ان تحل القضية بـين الكويت وابن سعود بصورة ودية ، مـسألة ملحة للغاية . ونقل اليه ايضاً ان آبار صبيحيه يجب ان لا يستولي عليها أحـد من الطرفين المتنازعين ، وان أي عمل في غير هـــذا الاتجاه يعرض مرتكبه الى قصف الطائرات الملكية البريطانية . وقـد ارسلت رسالة مماثلة الى ابن سعود عن طريق البحرين .

على بعد ثلاثين ميلاً الى الشرق فالجنوب الشرقي من البصره تقع مدينة محمره الايرانية . وفي كانون الثاني سنة ١٩٢١ عرض خزعل خان شيخ المحمره ان يرسل ابنه الاكبر الى نجد برفقة الشيخ أحمد ابن شقيق الشيخ سالم ، لكي يحاول ايجاد صيغة لإقامة هدنة بين الشيخ سالم وابن سعود .

وقبل هذا العرض ، وتوجهت البعثة الى نجد عـــن طريق البحرين في شهر شباط . وقد وصلت البعثة الى معسكر ابن سعود في الخفس الى الشمال من الرياض في الثاني من آذار . وبعد يومين من ذلك التاريخ بلغتهم انباء وفاة الشيخ السالم . وقد توفي الشيخ سالم في السابع والعشرين من شباط بعد ان فاجأه المرض في جهرا في الثالث والعشرين .

وقد قال ابن سعود لدى سماعه النبأ انه لم يعد هنالك نزاع حله ، ولم تعـد هنالك حاجة للحدود بين بلاده والكويت .

حاكم جديد للكويت

كان من عـــادة شيوخ الكويت ان يحكموا شخصياً وبصورة اوتوقراطية ،

ويتجنبون دائماً تفويض غيرهم بالسلطة . ومن الامور التي يباهون بها ان مقابلتهم متوفرة لجميع رعاياهم بدون استثناء . وكان من عادتهم ايضاً تقبل الظلامات والمطالب شخصياً لمدة ساعتين أو ثلاث في سوق المدينة ، ويقررون حل جميع المشاكل ، صغيرها وكبيرها ، بطريقة الحكم المباشر .

ولما توفي الشيخ سالم ، كان أهل المدينة قد تعبوا من الحرب التي فرضت عليهم ضد ارادتهم ، فقرروا ان تكون لهم في المستقبل كلمة في شؤون الدولة والحكم . فأبلغوا عائلة الصباح انهم لا يقبلون إلا بالحاكم الذي يقبل بإنشاء مجلس استشاري.

وقع الاختيار على احمد الجابر الصباح ، الابن الاكبر للمرحوم الشيخ جابر ابن مبارك الصباح . وكان أحمد يتمتع بشعبية كبيرة الى جانب رضا عبد العزيز آل سعود. وقد ارتقى أحمد العرش اثر عودته من نجد في التاسع والعشرين من آذار.

وقد تم الاتفاق بين الحاكم الجديد وبين اهالي الكويت على ان يحكم في جميع القضايا الجنائية بموجب الشريعة الاسلامية . وفي حال الاستئناف يجب على كل من الطرفين ان يرفع طلباً مرفقاً بصورة عن حكم القاضي إلى العلماء الذين يكون حكمهم نهائياً. أما اذا اتفق الطرفان المتخاصمان مسبقاً على رفع القضية الى فريق ثالث للتحكيم بينهما ، فيكون قرار الحكم ساري المفعول .

وعلى الحاكم ان يطلب المشورة في القضايا الداخلية والخارجية التي تهم اهل المدينة . واذا كان لأحدهم اقتراح لمصلحة المدينة ، يرفعه الى الحاكم الذي يستشير بشأنه الشعب ، ويتبناه اذا وافقوا عليه .

وتم انتخاب مجلس استشاري من اثني عشر عضواً برئاسة حمد بن عبدالله الصقر احد كبار تجار المدينة . وكان ستة من الاعضاء يمثلون المنطقة الشرقية من المدينة ، والستة الباقون يمثلون المنطقة الغربية . ولكن هذا المجلس لم ينعقد الا نادراً ، وكان الشيخ أحمد يحكم بنفس الطريقه القديمة المتبعة من قبل .

وكان الشيخ أحمد قوياً ، مرحاً ، وبهي الطلعة ، يشبه والده الى حد بعيد .. وكانت ابتسامته الجذابة المرحة تجعل منه شخصاً لائقاً بمركزه وخاصة القسم الاحتفالي منه . ويقول عنه النقاد المغرضون انه لا يملك قوة حقيقية ويتميز

بالعناد اكثر منه بالقوة . اما انا فأقول عكس ذلك تماماً نظراً لانني عرفته عن كثب مدة عشرين سنة استطاع خلالها ان يبدد كثيراً من الغيوم التي تلبدت في الجو السياسي . وقد عرفت فيه رجلاً هادىء الطباع حازماً وقادراً على اتخاذ قرارات سريعة خاطفة . وكان طموحه في الحياة ان يسير على خطى جده الشهير وعلى خطى الملك عبد العزيز آل سعود .

لقد كان قطعاً ذا عقل مصيب راجح ، ويعتمد عليه في عمل الشيء الصحيح في المكان الصحيح . ولكنه ككل عربي أصيل ، كان شديد الاعتزاز بنفسه . فبينما كان يستجيب للمعاملة الطيبة الكيسة ، لم يكن يستطيع تحمل عدم اللباقة او نسيان الأذى والتغاضي عنه . وهو صعب المراس اذا تناوله المرء بصورة خاطئة .

وكان دائماً يتمتع بشعبية كبيرة بين اهالي الكويت مع انه اشتهر بالبخل والتقتير ، وخاصة بين البدو ، عندما حاول وضع امور الدولة المالية في نصابها في الفترة ما بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٣٧ ، عندما حظر ابن سعود التجارة بين نجد والكويت . ولكنه في الواقع لم يكن كذلك .

وكان حريصاً على تنفيذ وتطبيق روح الدين الاسلامي ، فتشدد في منع الخمر واخماد البغاء والدعارة . ولم يكن هو يدخن التبغ اطلاقاً .

وتصرف تجاه البريطانيين بصورة حسنة ، فأعطوه جميع التأكيدات التي أعطيت لأسلافه من قبل . وكان يحب الاستقبال والترفيه على الطريقة البريطانية فخصص جناحاً في قصر دسمان وأثثه على طريقة المنازل الاوروبية . وكان مولعاً بالبنادق والمسدسات والصور السينمائية وآلات التصوير والسيارات وغيرها من المخترعات الحديثة . وغالباً ما كان يشاهد وهو يقود سيارته بنفسه . وكان قناصاً ماهراً يجيد الرماية . ويمكن التدليل على أفكاره الغربية في الرياضة من تشدده ضد صيد الغزلان بواسطة السيارات .

ولد الشيخ أحمد سنة ١٨٨٥ وكان في السادسة والثلاثين عندما ارتقى الى العرش وظل فيه حتى وفاته سنة ١٩٥٠ .

حب سعود العرافه لنورا

السيدة نورا امرأة رائعة ، تشبه بشخصيتها واخلاقها وكرمها وجاذبيتها شقيقها الكبير ابن سعود . وكان شقيقها يقيم وزناً كبيراً لأفكارها وآرائها السياسية . وعندما كانت تتعقد امور الدولة ، كان يختلي بها ساعات طويلة ليتلقى منها النصح والرأي .

وكانت نورا متزوجة من سعود العرافه آل سعود حفيد سعود بن فيصل آل سعود الامير الثاني عشر في نجد . ويقال ان هذا الزواج كان وليد حب جارف بالنسبة لسعود العرافه ، ولكنه بالنسبة لابن سعود كان ذا ابعاد سياسية . الم يكن فرع عرافه من آل سعود مصدر خطر دائماً ؟ وأخيراً وليس آخراً ، أليست هنالك اواصر قربى بينهم وبين قبيلة عجمان التي كانت دائماً شوكة في جنب الحاكم ؟

فقد كانت قبائل عجمان ومره تنظر بعين العطف الى سعود العرافه لأن أمه وضحى تنتسب الى بيت الشيوخ الحاكمين في عجمان. فهي ابنة الشيخ حزام الهذلان . وكانت هذه القبائل تعتبره شيخها وتتبعه على بكرة أبيها اذا ما نشأ خلاف في العائلة المالكة . وفي حياة ابن سعود كانت القبائل اذكى من ان تظهر كثيراً من الولاء لسعود العرافه ، لان الملك يعرف كل شيء ولا يخطىء شيئاً . ومع ذلك كانوا يلقبونه بسعود الكبير ولا يزالون الى اليوم .

وكان سعود العرافه شديد التعلق بنورا فكان أحياناً يصرح أمام اصدقائه في عجمان بقوله : نورا .. لا استطيع ان أعيش بعيداً عنها . . انها الضياء في ناظري .

وفي صيف سنة ١٩٢١ جهز ابن سعود نفسه لإخضاع اواسط الجزيرة العربية لسلطانه بالاستيلاء على حايل وتحطيم سلطة آل الرشيد الى الابد . وفيما يتعلق بذلك اخبرني ظنيفر ابن حويلة من عجمان القصة التالية قال :

عندما خرج عبد العزيز لغزو ابن رشيد في حايل ، امر القوم ان يتجمعوا على بعد عدة أميال من الرياض تأهباً للسير نحو الحرب الجديدة . ومعه ذهب

سعود العرفه بعد ان ودع زوجته الحبيبة نورا .

وشاء الله أن يتأخر الزحف عدة أسابيع . وقبل المسيرة النهائية ، اشتاق سعود العرفه لنورا وأراد أن يلقي عليها نظرة أخرى ، فتخلف عن الجيش سراً وامتطى حصانه عائداً الى الرياض على بعد ثلاثين ميلاً ، فوصل الى المدينة عند غروب الشمس . وهناك تنكر لئلا يعرفه الحراس عند الباب ويكتشفوا انه تخلف عن الجيش .

ترك سعود حصانه بين أشجار النخيل خارج المدينة ، واقتطع عدة شجيرات حملها على رأسه ودخل المدينة بجرأة كأنه حطاب . وغطى وجهه جيداً فاستطاع أن يمر دون أن يشعر به الحرس . ولكنه سمع رجلاً شيخاً يقول لآخر في الشارع : يا لله . . ان مشية هذا الرجل تشبه مشية الامام أو مشية سعود العرفه .

وأسرع سعود نحو قصر زوجته فوصله عند حلول الظلام ، فاستقبل بصرخات الفرح وسرت نورا بقدومه كثيراً . وقبل أن تستفسر عن سبب قدومه أمرت بإغلاق جميع النوافذ والأبواب حتى يبقى قدوم زوجها سراً . وأمرت جميع خدامها وعبيدها بعدم التفوه بحرف واحد تحت طائلة الموت ، ومنعتهم جميعاً من مغادرة القصر مهما كانت الظروف . وعندما سألته عن سبب مجيئه قال : يا نورا لم استطع الذهاب دون ان أقضي ليلة أخيرة معك .

وتضاجعا تلك الليلة . وعند الفجر نهض سعود العرفه ليغادر القصر . ولم تسمح له نورا بالذهاب إلا بعد أن أتت بخادمين مخلصين ليشهدا أن زوجها عاد تلك الليلة وضاجعها . ولم تكتف بذلك بل حملته على توقيع ورقة يقول فيها انه تخلف عن الجيش تلك الليلة وعاد الى زوجته متنكراً ليقضي الليل معها . وبررت نورا له ذلك بقولها : ذلك يا سعود يثبت لأخي وللعالم أجمع انني إذا حملت ، تكون أنت والد الطفل وحتى لا يظن بي السوء .

وعاد سعود العرفه وانضم الى قوات ابن سعود . وسقطت حايل في شهر آب . واغتصب ابن سعود لقب أمير جبل شمر وأرسل من بقي حياً من آل الرشيد الى الأسر في الرياض .

الفصل الحادي عشر

تخطيط الحدود

١٩٢١ - ١٩٢٣

عودتي الى العراق

بعد القيـــام بواجبي في البحرين ، أعدت الى العراق ضابطاً سياسياً في لواء الحلة . وكانت معي هذه المرة زوجتي فيوليت بنلوب لوكاس - كالكرافت التي تزوجتها في بومبـــاي في كانون الاول سنة ١٩٢٠ . ووصلنا الى البصرة في أول كانون الثاني سنة ١٩٢١ ، توجهنا بعدها الى بغداد حيث قضينا عشرة أيام مـــع عائلة فيلبي قبل أن أتسلم مهام منصبي في الحلة .

مهمتان كبيرتان كان علي انجازهما في الحلة : أن اعيد تنظيم الادارة المحليـة بعد ان دبت فيهـا الفوضى على اثر الثورة ضد البريطانيين سنة ١٩٢٠ ، وان أحاول لأم الجراح واصلاح الامور بين البريطانيين والعرب بعـد المعاملة القاسية التي تعرضت لها القبائل العربية حول الحلة على يد الجيش البريطاني .

وبدأت أبحث عن موظفين عرب اكفاء ليشغلوا المناصب الادارية الشاغرة . وكان بين الذين عرضوا خدمـاتهم ، عبدالله ابن أحمد باشا السنا الذي كان والده أحمد باشا ، وهو نجدي الأصل ، اول متصرف في البصره بعد الاحتلال البريطاني

(1) - عبدالله بن أحمد باشا الصانع

سنة ١٩١٥ . وبرهن انه صديق مخلص للانكليز حتى وفاته . وقد كتب لي أحمد باشا رسالة يوصيني فيها بابنه ، تاركاً لي الحرية ان أتصرف به كما أشاء .

وأصبح عبدالله السنا[1] قائمقاماً على الحلة وأظهر منذ البداية مقدرة فائقة . وقد نال تقدير المندوب السامي والحكومة المركزية لأنه استطاع حل عدة مشاكل معقدة وخطرة بين القبائل ، أظهر خلالها شجاعة شخصية نادرة . وقد دفعته الى كل ما يستحق .

قصف مسجد الإمام علي

وحدث مرة أن توجهت الى بغداد لمقابلة المندوب السامي السير بيرسي كوكس . وفاجأني حال وصولي بسؤال عما اذا كنت أعرف السيد كاظم اليزدي الذي سعيت الى مشورته كثيراً عندما كنت في سوق الشيوخ. وأجبت المندوب السامي بانني لم أقابل الرجل ولكنني كنت أراسله فترة طويلة من الزمن .

« ذلك يكفي » قال السير بيرسي وسلمني على الفور رسالة شخصية منه الى المجتهد الاكبر ، أمرني ان احملها بأقصى سرعة الى النجف الاشرف وأسلمها بيدي الى السيد كاظم .

وأبلغني السير بيرسي ان حادثاً مؤسفاً وقع عندما كان احد الطيارين البريطانيين يقوم بحملة تأديبية على فرع المشخاب من الفرات بالقرب من قرية ابو صخير . وقد ألقى الطيار المذكور صدفة قنبلة سقطت فوق الكوفة وهي مدينة على النهر تبعد اثني عشر ميلا عن النجف . وقد أصابت القنبلة الجدار الخارجي لمسجد الامام الاعلى ففتحت فيه ثغرة كبيرة . ومع إن هذا الحادث المؤسف كان خطأ غير مقصود النية، لكنه كان كافياً لإشعال نار الثورة بين الشيعة في مقاطعة أود الهندية ، وأوشك ان يحرك جميع الشيعة في العالم ضد الانكليز. وقد نشأت اضطرابات بالفعل في كل مكان ، وكانت إيران ، بصورة خاصة ، تغلي .

وشرح السير بيرسي في رسالته الى السيد كاظم ان القنبلة ألقيت عن غير قصد ، وان الضابط الطيار قد عوقب لفعلته . وخلص الى الاعتذار نيابة عن

حكومة صاحب الجلالة وعن نفسه لما حدث ... الخ

وحملت الرسالة دون ابطاء وتوجهت الى النجف. وهناك ذهبت الى المتصرف حميد خان وطلبت منه ان يأخذني لمقابلة السيد كاظم اليزدي على الفور . ولم تمض نصف ساعة حتى كنا في غرفة الاستقبال عند المجتهد الأكبر . ولم يكن السيد كاظم قد حضر بعد . وكانت الغرفة عبارة عن حجرة صغيرة لا مقاعد فيها ولا مساند باستثناء حصيرة خشنة من أوراق البردي . وقد ترك ذلك انطباعاً رائعاً في نفسي عن الرجل الذي يقود نصف العالم الاسلامي .

وجلست أتحدث الى حميد خان والى كاتب شاب لمدة عشر دقائق قبل ان يدخل علينا الرجل الكبير . وكان السيد كاظم صغير الحجم ، طاعناً في السن ، وعلى رأسه عمامة خضراء . وكانت لحيته طويلة صبغها بلون الحنة .

وقـد حيانا بأدب جم واستقبلنا بعينين تطفحان بشراً بالرغم من السنوات السبعين المحفورة فيها . وبعد ان تناولنا الشاي المصنوع على الطريقة الفارسية ، استأذنته في الكلام . فقلت انني أحمل اليه رسالة من صديقه المندوب السامي في العراق ، أبلغت ان أسلمها يداً بيد مع فائق الاحترام والتبجيل . وتناول السيد كاظم الرسالة ووضعها امامه على الأرض دون ان يفتحها وسألني :

من أنت ؟ إنك تتكلم العربية جيداً .

وأجبته بقولي :

– سيدنا،أنا تلميذك ، حافظ جميلك، في سوق الشيوخ.أنا الانكليزي المسمى بدكـان وقد ساعدتني قدامتك مراراً في حل المشاكل المستعصية منذ عـدة سنوات .

وغمرني الرجل الشيخ بيديه ونظراته قائلاً :

– يا بني .. يا بني .. انه سرور عظيم .

وانتقل بعدها الى التكلم بلغة فارسية رفيعة وظل لمدة ثلاث دقائق يطرب اذني بالمديح والاطراء الذي بلغ الجوزاء . ولكنني لم أفهم إلا فحوى كلامه لا أكثر . وبعد أن انتهى من الكلام تجرأت وقلت له :

ـ يا سليل النبي ، اعذرني لأنني لا افهم الفارسية جيداً فهل تسمح بإعادة ما قلته باللغة العربية ؟

وضحك السيد كاظم طويلاً وغمز بعينه مازحاً ثم أعاد مـا قاله من قبل بلغة عربية فصحى من صميم القرآن وهي اللغة الكلاسيكية المعروفة بـين الكتاب والأدباء بالنحو . وبعد نهاية حديثه قلت له وقد لفني الخجل والاحراج :

ـ أعذرني وسامحني يا سيدنا .. لم أفهم ما قلته بعد. فهل تزعج نفسك وتلقي على مسامع تلميذك ما قلته باللغة العربية العادية ؟

وضحك الرجل ثانية وقال :

ـ سأفعل جهدي يا بني .. ولكن يجب أن تتعلم أجمل لغتين في الدنيا:الفارسية والنحو .

وأخذ يخاطبني بأجمل العبارات وألطفها بلغة أهل الاهوار في سوق الشيوخ وبحيرة الحمار . لقد كان كلامه أشبه بكلام امرأة من الاهوار تخاطب ابنهـا . وفهمت كل كلمة قالها وعجبت كثيراً . ورأيت أنـه أراد ان يختبرني ببلاغته والآن أراد ان يجعلني أشعر انني من أهل البيت . ومنذ احساسي بهـذا التملق شعرت براحة كبيرة .

وبعد ذلك أخذ السيد كاظم رسالة السيد بيرسي ففتحها وقرأهـا . وكنت أنا أراقب تقاطيع وجهـه وهو يتأمل الرسالة ويفكر في مضمونها . وأخيراً التفت إليّ وقال لي بهدوء :

ـ لم تلق أية قنبلة على مسجد الإمام علي في الكوفة.من قال ذلك؟انها كذبة يقصد بها الإجحاف بالإنكليز . يجب أن أعرف .

وأكدت له بكل تواضع ان ما ورد في الرسالة صحيح مع الأسف ، وان السير بيرسي لم يكن ليكتب له رسالة بهذا المعنى لو لم يتأكد من صحة الخبر .

وانتفض قائلاً :

ـ لا . لا انها أكذوبة شريرة. إن شيئاً من هذا لم يحدث.سأكتب الى السير بيرسي كوكس بهذا المعنى .

وعندئذ غامرت وقلت :

ـ إذن، لماذا لا تصدر فتوى أيضاً تعلن فيها ان القصة مصطنعة من أولها الى آخرهـــا .. وانه لا خوف أبداً من ان تكون هنالك نية للتعرض للدين الاسلامي ؟

فضحك ونص على كاتبه الصيغة التي يجب ان تكتب بهـا الفتوى . والتفت إليّ بعد ذلك وأخذ يشيد بالسير بيرسي كوكس قائلاً انه رجل عظيم جـــداً يعرف كيف يتصرف في المسائل الشائكة . وخاطبني قائلاً : أبلغه انني أشكره لمعرفته بكلام الله في القرآن الكريم وقوله تعالى مخاطباً بني الانسان : ادخلوا البيوت من أبوابها .. لا تنزلوا من السطح . وفي هذه الحالة يكون السير بيرسي قد فهم تماماً أين هو باب هذا البيت .. ولذلك أقول انــــه لم تلق أية قنبلة في الكوفة لا صدفة ولا غير صدفة .

وحملت الرسالة والفتوى وعدت مسرعاً الى بغداد . وقد سر السير بيرسي كوكس سروراً عظيماً بالفتوى . فصورها وطبع عنهـــا مئات النسخ وأمر بتوزيعها في لكنو وغيرها من مدن الهند ، وفي طهران ، وفي مـــدن العراق الرئيسية . وقد كان اسم السيد كاظم اليزدي وخاتمه المعروف في اسفل الفتوى كافيين لإخماد كل اضطراب .

وتبقى حقيقة صارخة وهي ان القنبلة ألقيت ودمرت الزاوية الشمالية الغربية من جدار مسجد الامام علي في الكوفـة . ولكن تلك هي حكمة السير بيرسي كوكس وعظمة صديق بريطانيا السيد كاظم اليزدي .

معاهدة محمره

وفي ربيع سنة ١٩٢٢ قامت قبائل نجد بعدة غزوات على الأرض العراقية . وكذلك قامت قبائل شمر ، التي لم ترض بسيادة ابن سعود فلجأت الى لواء الحلة في العراق ، بغزوات معاكسة ، مما أوجب اتخاذ إجراء لوقفها . وقـد تكررت هذه الغزوات ، والغزوات المعاكسة ، والدعايات المناوئة لابن سعود في العراق .

في خريف وشتاء سنة ١٩٢٧ - ١٩٢٨ .

وأعتقد ان بعض المسؤولين البريطانيين والعرب في العراق لم يعرفوا ان المشكلة في أساسها اقتصادية بحتة ، زادها سوءاً العداء الشخصي المستحكم بين الملك فيصل الأول وابن سعود .

انه لأمر معروف جيداً ان القبائل الشمالية والشمالية الشرقية في نجد، وخاصة عجمان وحرب ومطير وشمر وعوازم وظافر الأقرب الى العراق ، لا تستطيع أن تكتفي نفسها في بلادها . ولذلك ، ومنذ قرون ، ترحل كل سنة في أشهر الخريف نحو الفرات والكويت، حتى تحصل على ضرورات الحياة، وهي بالنسبة لها ثلاث : التمر، والأرز ، ومراعي الجمال. وهنالك مراع غنية تقع إلى الجنوب من الفرات وتمتد من كربلاء الى الخليج الفارسي . وهذا الكلام ينطبق أيضاً على قبائل عنزة الشرقية - عمارات والداهمشاه - . ولكن بعض شيوخ هذه القبائل كانوا يملكون أرضاً في جوار كربلاء ، فلذلك يصنفون ضمن القبائل العراقية ولا حاجة إلى التعرض لهم هنا .

أما الطرق والسبل التي كانت تسلكها قبائل شمر وغيرها في هجرتها السنوية، فقد كانت منذ أقدم الازمان كما يلي :

شمر وحرب تتجهان نحو الشنافيه (قرب النجف) ونحو السماوى . أما الفروع الشرقية فكانت تتجه نحو الزبير .

ظافر كانت تتجه نحو السماوي والناصريه وسوق الشيوخ .

مطير نحو الكويت والزبير

عجمان وعوازم نحو الكويت .

والطرق المتبعة هي نفسها . يقوم البدو بتقديم الهدايا الى القبائل القوية المسيطرة على المنطقة (كشيوخ آل السعدون في المنتفق مثلاً) ويطلبون السماح لهم بأن يخيموا قرب النهر . ومن تلك المخيمات كانوا يندفعون كسيل واحد نحو المدن والقرى المنتشرة على الفرات لشراء حاجياتهم .

ولم يكن يرد مثل هذا الطلب لأن الفريقين يستفيدان : فالبدوي من

الصحراء يجلب معه الجمال والمال ، بينما كان ابن الفرات يبيعه ما لديــه من تمور وشعير وارز . فيجدد بندقيته وذخيرته .

وكانت مدن الفرات وقبائله – والكويت ايضاً – ترحب بهـذه الهجرات السنوية . وكان البـــدو من شمال نجد ينظرون الى العراق والكويت على انها سوقهم الطبيعية في نهاية كل صيف وبداية كل شتاء ، عندمـــا تقل المراعي في اوطانهم ويصبح الرحيل امراً لا بد منه . واذا ما رفضت قبائـــل النهر السماح للبدو بالمرور الى الفرات للمسابلة فإن ذلك يكون بمثابة اعـلان الحرب ، وتنتج عنه مشاكل كثيرة . ولكن ذلك لم يحدث إلا نادراً وفي الاحوال التي يستفحل فيها العداء بين رؤساء الدول كأمراء حايل ، وآل سعود، وشيوخ آل السعدون في المنتفق وغيرهم .

وقد بدأت سنة ١٩٢٢ بمثل هذا الوضع المشحون بالعداء مما ادى الى قيـام تلك الغزوات والغزوات المعاكسة التي اشرنا اليها .

وفي الخامس من ايار وقع ممثلون عن الحكومة البريطانية وممثلون عـن نجد معاهدة محمره التي نصت على وجوب معاقبة القبائل التي تبـدأ الغزو ، كما نصت على وجوب تأمين سلامة طريق الحج ، وتطرقت الى مشكلة الحدود بين العراق ونجد . وظلت تلك المعاهـــدة خاضعة لاقرار المندوب السامي في العراق وابن سعود .

« اميرال » القطيف الاسود

في ايلول سنة ١٩٢٢ ارسلني السير بيرسي كوكس الىالبحرين في مهمة خاصة وهي الاتصال بابن سعود واقناعه بالمجيء الى عقـــير على الساحل للاجتماع بالسير بيرسي وبحث مسألة الحدود. وأبلغني السير بيرسي انه لن يغادر العراق الى عقير الا إذا أبرقت له بأن ابن سعود غادر الرياض فعلاً الى مكان الاجتماع .

وكان الميجر دالي الذي خلفني كوكيل سياسي على البحرين يقضي اجـازته وقتئذ فيالهند ، فنزلت انا وزوجتي في ضيافة عبد العزيز القصيبي الممثل التجاري

لابن سعود في البحرين . وأحسن عبد العزيز القصيبي وفادتنا في منزله الكائن على شاطىء البحر شرقي مبنى الجمارك. وقد ابلغت القصيبي اسباب زيارتي للبحرين. واحتللت انا وزوجتي غرفتين واسعتين مريحتين في الطابق العلوي. ولما كنا نفرغ من كتابة التقارير ، كنا نقوم برياضة ركوب الخيل التي صحبناها معنا الى البحرين ، في أرض منامة وبديعة .

وبدأت عملي بمراسلة ابن سعود وأخذت أستميله شيئاً فشيئاً الى قبول فكرة المؤتمر في عقير . ولكن الصعوبة كانت في استدراجه الى تحديد موعد لعقد المؤتمر.

وأذكر أنني كنت قد تقربت من ابن سعود عن طريق العمل الممتاز الذي ادته زوجتي التي كانت تعمل سكرتيرة خاصة لي وتطبع رسائلي . فكانت تترجم له الى الفرنسية برقيات رويتر اليومية التي كانت تردني ، وترسلها بأسرع ما يمكن الى الرياض حيث كان يترجمها الى العربية الدكتور عبدالله سعيد الدملوجي الذي كان بمثابة وزير خارجية ابن سعود .

وبعد وصولنا الى البحرين بشهرين قصدني عبد العزيز القصيبي وقال ان رجلاً يدعى الميجر فرانك هولمز وهو مهندس تنقيب ، وآخر يدعى الدكتور مان وكلاهما ينتميان الى الشركة الشرقية العامة المحدودة في لندن ، سيتوجهان قريباً الى خارج البحرين للعمل ، وسيحفظان الفضل لي اذا قبلتها في منزلي طوال مدة اقامتهما في البحرين . وقد قدم الرجلان الى البحرين بناء على تعليمات ابن سعود وسيخرجان الى البر حالما يتلقيان كلمة منه .

وقد أثار هذا الكلام شكوكي رأساً. فعندما كنت وكيلاً سياسياً في البحرين قبل سنتين سرت شائعات قوية مفادها ان هنالك منابع للنفط وراء واحة القطيف على بعد ستة أميال الى الشمال الشرقي من مدينة القطيف . وقمت في ذلك الوقت بعدة جولات تفتيشية في المنطقة بحثاً عن تلك المنابع ولكن لم الاق اي نجاح .

وقمت بعد ذلك بإذن من ابن سعود بجولة على ظهر الجمال والحمير في كل منطقة

جبل الظهران ظناً مني ان الشائعات التي أطلقها البـــدو قد أخطأت المكان .
وكنت على يقين ان تلك الشائعات ليست بدون أساس ، لأنني عندما كنت في القطيف عبرت الى دارين عـاصمة جزيرة طاروت حيث اطلعني الشيخ جاسم بن عبد الوهاب باشا الذي يقيم هناك على نسخة من تقرير تركي يفيد بأن منابع للبترول موجودة فعـــلاً وراء القطيف . اما التقرير الاصلي فقد أرسله المتصرف التركي في الاحساء الى استانبـول عندما كان الاتراك يحتـــلون المنطقة قبل عدة سنوات .

وقد بدا واضحاً ان ابن سعود علم بالتقرير التركي فأرسل في طلب الميجر هولمز للبحث عن البترول ، ولذلك كان يتهرب من تحديد موعد للمؤتمر لأنه يريد ان يقابل الميجر هولمز اولاً . واتضح لي ايضاً ان الميجر هولمز قد يحاول الحصول على امتياز للتنقيب عن البـــترول من ابن سعود اذا كانت ابحاثه الأوليـة تبشر بأي نجاح .

وفي الوقت الذي كنت فيه أفاوض ابن سعود للوصول معه الى موعد محـــدد لمؤتمر عقير ، كنت أقضي بعض الوقت في الكتابة الى السير بيرسي عن آرائي في قضية البترول،ووصفت له مفصلاً زياراتي الى البر بحثاً عن المنابع.وكانت زوجتي تطبع كل تلك الرسائل والتقارير ولذلك كانت مطلعة على القضية من أولهـا الى آخرها ، فشاركتني شكوكي عندما علمت بالزيارة المقترحة التي سيقوم بهـا ممثلا الشركة الشرقية العامة الى منزلنا .

وأرسلت برقية بالشيفرةالى السير بيرسي اخبرته فيها عن زيارة الميجر هولمز وضمنتها شكوكي بان الميجر هولمز قـــدم ليطلع ابن سعود على امكانيات وجود البترول في جوار القطيف وجبل الظهران ، وان ابن سعود قد يثير هـذه القضية اذا جاء الى عقير لحضور المؤتمر الخاص بتخطيط الحدود. وبذلك تكون رسائلي السابقة أساساً مفيداً للتطورات الجديدة .

وفي اليوم التالي وصل الميجر فرانك هولمز والدكتور مان الى منزلي بصحبة القصيبي ليقيا معنا . وقد استرعى انتباهي وانتباه زوجتي امران مسليان للغاية

أولها مظهر الميجر هولمز . فقــد كان يحمل مظلة كبيرة بيضاء ذات خطوط خضراء ، وعلى رأسه قبعة بيضاء كالتي يلبسها الجنود الفرنسيون في افريقيا ، وفوق قبعته ووجهه كان يضع قناعاً شفافاً أخضر اللون تماماً كالصور التي يشاهدها المرء للسياح الذين يذهبون لزيارة الاهرام. والشيء الآخر الذي استرعى انتباهنا هو ذلك العدد الضخم من الهدايا التي حملها هولمز الى ابن سعود . فقد حمل معه ما لا يقل عن خمسين حقيبة وصندوق وبنادق .

ولم يمض وقت طويل حتى شعر الضيفان وكأنهما في منزلهما . وكان الميجر هولمز رجلاً لطيفاً ومرحاً للغاية ويروي قصصاً أشبه بالخيال . وكان يضفي جواً من المرح وخفة الظل ولكنني اكتشفت انه مريض يعاني من ألم في المرارة. وظل دائماً يتساءل كيف سيستطيع القيام برحلة على ظهر الجمل الى الهفوف وربما الى أبعد من ذلك . وقد أعطيته بعض المعلومات والملاحظات التي تفيده اذ انني قمت بمثل هذه الرحلة من قبل عندما كنت وكيلاً سياسياً في البحرين .

وبعد اسبوع من الزمان حان موعد رحيلهما فأحضر لهما زورقان بخاريان ربطا أمام منزلي . وبينما كنا نتناول طعام الافطار سألت الميجر هولمز عن سبب حاجته الى زورقين اثنين فأجاب قائلاً :

– واحد للدكتور مان الذي سيذهب عن طريق عقير والآخر لي لأنني سأقوم برحلتي عن طريق القطيف .

وأبديت دهشتي قائلاً :

– ولكنك مريض ! لماذا تركب مئة ميل على ظهر الجمل في الوقت الذي لا تحتاج فيه إلى الركوب أكثر من خمسين ميلاً إذا سافرت عن طريق عقير ؟

وفجأة اعترته الدهشة وبدأ يطلق كلاماً غامضاً وقال :

– يا دكسون انني من هواة جمع الفراشات . وقد أبلغت ان مجموعة من الفراشات السوداء عجيبة لا يوجد نظير لها في العالم يمكن العثور عليها في واحة القطيف ، ولذلك فقد أطلقت عليها اسم « اميرال القطيف الأسود » وسأتوجه للحصول على عينة منها ستكون سبب شهرتي وارتفاع شأني !!

وكان هولمز منهمكاً في أكل قطعة من البيض ولحم الخنزير عندمـــا فجرت زوجتي قنبلتها . فقالت بصوت هادىء :

— يا ميجر هولمز ، إنها المرة الأولى التي أسمع فيها ان منابع البترول تسمى باسم الفراشات .

وكان تأثير كلمات زوجتي سريعاً ، فقفز هولمز من مقعده وقال مذعوراً :

— بربك ماذا تقصدين يا سيدة ديكسون ؟

— الذي قلته تماماً .

وارتد هولمز الى الوراء قليلاً ثم اندفع حول المائدة وأمسك زوجتي من يدها وقال متعجباً :

— يا لله .. انك امرأة رائعة .. سأبرق اليوم إلى مدير حدائق الحيوان في لندن وأطلب منه أن يضمك الى مجلس إدارة الحدائق .

وقد حافظ هولمز على كلامه ، فبعد فترة قصيرة تلقت زوجتي رسالة لإعلامها بأنها انتخبت عضوة في المجلس .

وتركنا الرجلان وسافرا في الزورقين على ان نلتقي بالميجر هولمز ثانية .

مؤتمر عقير

في العاشر من تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ أبلغني ابن سعود خطياً أنه سيصل الى عقير في الحادي والعشرين من الشهر نفسه ، فأبرقت إلى السير برسي كوكس لإعلامه . وتلقيت من السير برسي جواباً يفيـــد بأنه سيحضر الى البحرين على ظهر إحدى السفن الملكية طالباً مني ان أدبر أمر سفره الى عقير . وقـال إنه سيصحب معـــه صبيح بك الوزير العراقي للمواصلات والأشغال ، والميجر مور الوكيل السياسي في الكويت الذي سيمثل الشيخ أحمد الجابر حـاكم الكويت ، والشيخ فهد بك الهذال رئيس فرع عمارات في قبيلة عنيزه ، ومساعده الشخصي وهو ضابط سابق في سلاح البحرية البريطانية ، وعـــدد من الموظفين والكتبة العرب .

وقد وصل هـذا الفريق في الموعد المحدد واتجهنا جميعنا إلى عقير في زورق بخاري يملكه عبد العزيز القصيبي .

وكان ابن سعود قد وصل قبلنا فأقام خياماً بيضاء من كل حجم على بعـد نصف ميل الى الغرب من الحصن القديم حيث توجد دائرة الجمارك .

واصطحب ابن سعود معه صهره سعود العرفه آل سعود الذي كان في يوم من الأيام ثائراً على سلطته ، وعبد اللطيف باشا المنديل ، وهو تاجر نجدي مرموق له أعمال مصرفية في البصره ، والشاعر والمؤرخ اللبناني أمين الريحـاني ، وعدد من الموظفين بينهم الدكتور عبدالله سعيد الدملوجي ، وحرسه الخاص المؤلف من حوالي ثلاثمائة رجل . وكان هنـاك أيضاً الميجر هولمز الذي التقى ابن سعود في الهفوف وجاء معه .

ونصبنا خياماً مريحة للاقامة فيها ، وخيمة كبيرة على الطراز الأوروبي كما يسميها الهنود لتكون بمثابة غرفة للاجتماع وقاعة للطعام . وقد أقـام ابن سعود خيمتين بيضاوين عليهما مظاهر الفخامة ، واحـدة للاستقبال وأخرى للنوم والراحة .

واستقبلنا ابن سعود جميعنا استقبالاً ملكياً رائعاً باستثناء فهد بـك الهذال الذي أزعج وجوده ابن سعود الذي تصرف بشكل يراد منـه اطلاع الحاضرين على أن فهد بك شخص غير مرغوب فيه . فمـا كان من فهد بك إلا أن انسحب الى خيمته وظل قابعاً فيها طوال فترة انعقاد المؤتمر وهي سبعة أيام بسبب تلك الإساءة .

لقد أخطـأ السير بيرسي في إحضار فهد بك معه ، لأن فهد بك ونوري الشعلان زعيم فرع الرولي في قبيلة عنيزه يعتبران نفسيهما زعيمي اتحاد قبائل عنيزه كلها، ويدعيان أنهما أعلى منزلة من آل الصباح في الكويت ومن ابن سعود نفسه . إذ انـه أمر طبيعي ان يتعض عبد العزيز آل سعود سيد الجزيرة العربية من وجود احد أفراد القبيلة مهما علا شأنه في مخيمه او في المؤتمر ، ينظر إليه وكأنه أوضع منه نسباً .

كان هم المؤتمر الاساسي تخطيط الحدود بين العراق ونجد . وكان يمثل العراق صبيح بك ويمثل نجد ابن سعود . اما السير بيرسي فكان بمثابة الحكم الذي ظل دائماً كأبي الهول صامتاً صبوراً رحب الصدر يضفي على الجو انفاساً من المرح والهدوء ، ولكنه كان مصمماً ان لا يذهب إلا وقد وضع صيغة للاتفاق في جيبه .

وكانت المحادثات مثالاً رائعاً للمساومات المتبعة عندما يلتقي ممثلو دولتين شرقيتين كبيرتين لحل مشكلة من المشاكل . فلم يكن هنالك أخذ ولا عطاء من اي نوع منذ البداية ، اذ أن كلا الطرفين ظلا طوال الوقت يعرضان مطالب عجيبة غريبة . ومثالاً على عقم تصرفات المفاوضين الرئيسيين سأذكر حادثة وقعت بعد فترة قصيرة من ابتداء المؤتمر . فبعد ان القى الجانبان خطباً ترحيبية تقليدية ، ألقى السير بيرسي كلمة أعرب فيها عن رغبة حكومة صاحب الجلالة ، صديقة الطرفين ، في الوصول الى حل ودي ، وطلب من صبيح بك ان يعرض وجهة نظر العراق فيما يعتبره خطاً عادلاً للحدود . ونهض صبيح بك وقال :

« منذ ان خلق الله العالم ومنذ بدء تدوين التاريخ وحدود العراق تمتد جنوباً الى بعد اثني عشر ميلاً عن الرياض عاصمة ابن سعود . وتلتف هذه الحدود غرباً الى البحر الاحمر فتشمل حايل والمدينة وينبع ، وشرقاً فتضم الهفوف والقطيف على الخليج الفارسي . ويشهد الله ان هذه وهذه فقط هي الحدود الصحيحة بدون منازع .

« لست أعرف شيئاً عن الخليقة ولكنني أعرف انه منذ أيام ابراهيم ، جدي الأكبر ، واراضي نجد وعالم البادية يمتدان شمالاً الى حلب ونهر العاصي بشمال سورية ويضمان كل البلاد الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الفرات حتى البصره على الخليج الفارسي .

بمثل هذا الكلام بدأت المناقشات واستمرت خمسة أيام كاملة .

ومع ان ابن سعود كان يعتبر نفسه حليفاً وصديقاً لبريطانيا ، إلا انه كان يشعر بأنه مطوق من جميع الجهات بعدد من الدويلات الدمى التي خلقتها حليفته .

إن عواطف ابن سعود الحقيقية كانت مع شعبه الذي يرغب في طرد الملك حسين من الحجاز في الغرب، واجتياح شرق الاردن في الشمال الغربي ، والغزو في أرض العراق والكويت شمالاً كما في السابق. ولكنه كان يعرف تماماً ان تحدي بريطانيا سيكون كارثة عليه . فقد تصرف في مؤتمر عقير على أساس ان ممثليه في محمره عملوا بعكس تعليماته في موافقتهم على امكانية وضع خط ثابت للحدود بين العراق ونجد .

وقد عمل ابن سعود المستحيل لحمل المؤتمر على وضع حدود عشائرية بدل خط تحكيمي يرسم على خارطة ، على اساس تصنيف القبائل التي تذهب الى نجد وتلك التي تذهب الى العراق والكويت . فبدا بالإصرار على أن ظافر وهي قبيلة من البدو في العراق هي له ، ولذلك فانه من الضروري ان تمتد حدوده الى الفرات ، لا لأنه يرغب في السيطرة على النهر بل لأن ظافر والقبائل البدوية الكبيرة الأخرى تنتقل سنوياً الى الفرات ولا يمكن ان تحرم هذا الحق لأنه مسألة حياة أو موت بالنسبة لرجال الصحراء .

ولما أشار السير برسي ان هذا الادعاء غريب ولا يمكن أن يجري بحثه ، تخلى ابن سعود عن قبيلة ظافر وتبنى خطاً أكثر تعقلاً على أساس الحدود العشائرية يضمن حقوق القبائل العائدة له ويمنع قيام اضطرابات في المستقبل . وقال انه من السهل وضع نظام للآبار والمراعي التي تملكها كل قبيلة لأنه منذ أيام ابراهيم وكل قبيلة تعرف آبارها ومراعيها من تلك التي ليست لها .

واقترح ، على سبيل المثال ، ان تشكل الحدود الآبار الواقعة الى أقصى الجنوب والتي تدعي ملكيتها عنيزه وظافر وقبائل الكويت (باستثناء مطير وعوازم وعجمان التي أكد ابن سعود انها تقع تحت سيطرة حكومته) ، اما الآبار التي عرفت بانها ملكية مشتركة كتلك التي بين عنيزه وظافر وبين ظافر ومطير ، فيجب ان تعلن منطقة محايدة .

ولما سئل كيف يستطيع اثبات ملكية هذه الآبار أجاب بأن جميع أهل الصحراء يعرفون ذلك كضوء النهار ، فضلاً عن ان هنالك وصمات قديمة العهد

موجودة على جدران الآبار الداخلية . وفي حال حدوث نزاع فان أهـل الخبرة يستطيعون تصحيح الأمر .

والى جانب ذلك اصر ابن سعود على حق قبائل نجد في الوصول الى الفرات لشراء حاجياتهم كل سنة .

وأعلن صبيح بك عندما سئل عن رأيه في تلك المرحلة من المحادثات ، ان العراق لن يقبل بأي تخطيط للحدود يعطيه أقل من مائتي ميل الى الجنوب من الفرات .

وفي اليوم السادس للمؤتمر تدخل السير بيرسي في الأمر وأبلغ الطرفين انـه اذا استمرت المفاوضات على هذا الشكل فإنهما لن يتوصلا الى أي اتفاق قبل سنة من الزمان . ففي اجتماع خاص ضم السير بيرسي وابن سعود وانا فقط ، فقـدَ السير بيرسي صبره واتهم ابن سعود بأنه تصرف تصرفاً صبيانياً في اقتراح فكرة الحدود العشائرية . ولم يكن السير بيرسي يجيد اللغة العربية فقمت أنا بالترجمة. ولقد ادهشني ان ارى سيد نجـد يوبخ كتلميذ وقح من قبل المنـدوب السـامي لحكومة صاحب الجلالة الذي ابلغ ابن سعود بلهجة قاطعة انه سيخطط الحدود بنفسه بصرف النظر عن كل اعتبار .

هكذا انتهى هذا الفصل من المسرحية فانهار ابن سعود واخذ يتودد ويتوسل معلناً ان السير بيرسي هو أبوه وأمه ، وأنـه هو الذي صنعه ورفعه من لا شيء الى المكانة التي يحتلها ، وانه على استعداد لأن يتخلى عن نصف مملكته بل كلهـا إذا أمر السير بيرسي بذلك .

وحسبما أذكر لم يلعب ابن سعود دوراً يذكر في المحادثات تاركاً الأمر للسير بيرسي ليقرر حل مشكلة الحدود. وفي اجتماع عام للمؤتمر أخذ السير بيرسي قلماً أحمر ورسم بعناية فائقة على خارطة للجزيرة العربية خطاً للحـدود من الخليج الفارسي الى جبل عنيزان بالقرب من حدود شرق الأردن . وبذلك يكون قد أعطى العراق مساحة كبيرة من الأراضي التي تدعي نجد ملكيتها . وارضاء لابن سعود حرم الكويت بدون شفقة من ثلثي أراضيها تقريباً وأعطاها لنجـد

بحجة ان سلطة ابن صباح في الصحراء أصبحت أقل مما كانت عليه يوم وضعت الاتفاقية الانكليزية ـ التركية . والى الجنـوب والغرب من الكويت رسم منطقتين اعلن انها ستكونان محايدتين سميت الأولى منطقة الكويت المحـايدة وسميت الأخرى منطقة العراق المحايدة .

وجواباً على اعتراضات عبداللطيف باشا المنديل على وجـود منطقة محايدة للكويت قال السير بيرسي ان قبائل الكويت يجب ان يكون لديها مزيـد من المراعي .

وعندما الح الباشا في الاعتراض استشاط السير بيرسي غيظاً وقال له :

ـ بربك ، لماذا تصر على ان تكون تلك المنطقة لنجد ؟ .

فأجابه الباشا بقوله :

ـ بصراحة لأننا نعتقد انـه يوجد نفط في تلك المنطقة .

ورد السير بيرسي قائلاً :

ـ وهذا بالضبط هو سبب جعلها محايدة حتى يكون لكل واحـد حصص متساوية .

وحوالي الساعة التاسعة من ذلك المساء حدثت مقابلة مدهشة . فقـد طلب ابن سعود مواجهة السير بيرسي على حدة . وصحبني السير بيرسي معه فوجدنا ابن سعود واقفاً وحده وسط خيمة الاستقبال بادي الاضطراب .

وبادر ابن سعود السير بيرسي قائلاً بصوت كئيب :

ـ ياصديقي لقد حرمتني من نصف مملكتي. الأفضل ان تأخذها كلها ودعني اذهب للمنفى .

وظل ذلك الرجل القوي العظيم واقفاً رائعاً في حزنه وانفجر باكياً . وتأثر السير بيرسي كثيراً وامسك بيد ابن سعود وأخذ يبكي هو الآخر والدموع تنحدر على وجنتيه . ولم يكن حاضراً تلك اللحظة سوى نحن الثلاثة . وأنا أقص هنا ما شاهدته بكل امانة .

ولم تدم تلك العاصفة العاطفية طويلاً فقال السير بيرسي وهو لا يزال ممسكاً

بيد ابن سعود :

ـ يا صديقي انني أعرف حقيقة شعورك، ولهـذا السبب اعطيتـك ثلثي الكويت ولست اعرف كيف سيتلقى ابن صباح هذه الصدمة .

وكما قلت في فصل سابق من هذا الكتاب ، لقد كان السير بيرسي رجـلا عظيماً . وكذلك كان عبد العزيز آل سعود رجـلا عظيماً وممثلا عظيماً ايضاً وكلاهما الآن في ذمة الله ـ رحمهما الله . وظـل خط الحدود الذي رسمه السير بيرسي قائماً لم يتغير الى اليوم .

واعادة لما ذكرته في الفصل الأول فإن حـدود الكويت الجديدة تبدأ في الغرب عند ملتقى وادي العوجا بوادي الباطن . ومن تلك النقطة ، تاركة رقبع في حوزة نجد ، تمتـد في خط مستقيم الى ملتقى خط العرض ٢٩ بنصف الدائرة الحمراء المشار اليها في الاتفاقية الانكليزيـة ـ التركية ثم تتبع نصف الدائرة الحمراء الى نقطة على الساحل الى جنوب رأس القليعة تماماً .

والى جنوب خط الحدود هذا تقع منطقة الكويت المحايـدة التي يحدها من الغرب المنخفض الواسع المسمى الشق ، ويحدها من الشرق البحر ، ومن الجنوب خط يتجه من الشق عبر عين العبد الى نقطة على الساحل شمالي رأس المشعاب .

وهذه الحدود مع حدود العراق ونجد ثبتها جميعها السير بيرسي بالاضافة الى بعض المقترحات هنا وهناك قدمتهـا انا والدكتور عبدالله الدملوجي والميجر مور . وقد أرخت الاتفاقية بين نجد والكويت باسم الله الرحمن الرحيم في الثاني من كانون الأول سنة ١٩٢٢ ووقعها الدكتور عبدالله الدملوجي نيابة عـن ابن سعود كما وقعها الميجر مور نيابة عن شيخ الكويت . وقد مهر ابن سعود الاتفاقية بخاتمه الرسمي .

وكان الدافع الى مثل هذه الاتفاقية الغريبة التي سلمت دولة صغـيرة ضعيفة بكل بساطة الى دولة قوية ، المصلحة والرغبة في ارضاء حاكم قـوي مشاكس كابن سعود . وبذلك تكون الحدود الجنوبية المعترف بها للكويت قـد اقتطع منها مئة وخمسون ميلا مما جعل مساحة الكويت تتقلص الى ستة آلاف ميـل

مربع فقط .

ومما يذكر ان الميجر مور المفروض فيه ان يدافع عن مصالح شيخ الكويت لم ينطق بكلمة واحـدة طيلة المحادثات . فقد سيطر السير بيرسي على كل شيء وعلى كل شخص وكسب الجولة . واشك ان أي شخص آخر يستطيع ان يحقق النجاح الذي احرزه ولكن على حساب السمعة العطرة التي اكتسبها بين العرب على مر السنين . فالشيخ الشاب أحمد الجابر الذي لم يكن قد مضى على ارتقائـه العرش أكثر من سنة تلقى على يد السير بيرسي ضربة زعزعت ثقته ببريطانيا ولم يشف منها ابداً .

وقد وقع البروتوكول الخاص بين نجد والعراق في الثاني من كانون الاول أيضاً . وقـد حـدد البروتوكول خط الحدود ومنطقة العراق المحايدة وسمح للقبائل الرحل بحرية التنقل عبر الحدود كما سمح لقبائـل البلدين استخدام الآبار القريبة من الحدود .

وللتغلب على الصعوبات التي كان ابن سعود يعتقد انها ستنشأ في حـال وضع خط ثابت للحدود بين البلدين، فقد حظرت المادة الثالثة من البروتوكول المذكور اقامـة الحصون والحشود العسكرية في منطقة الحدود . ولكن الكلمات التي صيغت بها تلك المادة كانت مطاطة بحيث انها قادت الى نزاع كبير بعـد خمس سنوات .

ان الحدود الاعتباطية التحكيمية بين العراق ونجـد كانت في رأيي خطأ كبيراً . اذ ان ابن سعود حصر تنقلات قبائل نجد السنوية ، ربمـا لأول مرة في التاريخ ، باتجاه الشمال . فكان يشعر ، بدون شك ، ان مندوبي العراق والسير بيرسي كوكس تغلبوا عليه ، وان المشكلة قد حلت حسب المقاييس الأوروبية وليس حسب تلك المقاييس المفهومة في العالم العربي . ولذلك يبدو أنـه قرر اتباع سياسة تحويل انظار شعبه ، بصورة بطيئة ولكن محكمة ، عـن خط اتصالهم القديم بالعراق والكويت ، محاولاً بدل ذلك دفعهم الى الحصول عـلى ضروريات الحيـاة اليومية من عقير والقطيف وجبيل ، موانئه عـلى الخليج

الفارسي .

ومما لا شك فيه أنه كان يعتقد ، لأسباب سياسية ومنعاً للتآمر ، أنـــه من الأفضل ان يمنع القبائل التابعة له من الاتصال المباشر بدول يظن أنهـا معادية . ولكن خطوط التجارة الطبيعية لا يمكن تحويلها بسهولة أو اهمالهــا ووضعها جانباً . ولذلك لم ينجم عن تلك السياسة سوى المشاكل والمتاعب .

فلو ان ابن سعود ترك وشأنه فانه من غير المحتمل ان تقوم ثورة الاخوان في سنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ ، أو الاحتكاك الذي سبقها بين العراق ونجـــد ، أو مرارة مقاطعة الكويت الطويلة التي استمرت أربعة عشر عاماً .

وبصرف النظر عن خط واحد طويل مستمر يشكل المنطقة المحايدة بـين العراق ونجد ، فان الحل الأنسب من ذلك الذي توصل اليه مؤتمر عقير ، هـو الحل الذي اقترحه ابن سعود على أساس حدود عشائرية . فعندما كنت ضابطاً سياسياً في المنتفق كانت لي تجربة مريرة بسبب الحدود الاعتباطية التي وضعهـا لاتراك بين الالوية . ولم اكن ارتاح من اقتتال القبائل بـــين الألوية إلا عندما كنت اقنع السير بيرسي كوكس بالسماح لي في اتباع الحدود العشائرية . ولكان فعل حسناً لو أنه اتبع نفس الخطة في عقير .

اما الميجر هولمز فلم يلعب أي دور إلا في اليوم الأخير للمؤتمر . ففي محادثات خاصة بين ابن سعود والسير بيرسي حضرتهـــا انا فقط ، اثار ابن سعود مسألة منح امتياز للنفط الى الشركة الشرقية العامة . واخبر ابن سعود السير بيرسي كل شيء عن زيارة الميجر هولمز للاحساء ، وابلغه ان الميجر هولمز قـــدم له تقريراً ايجابياً اعرب له فيه عن رغبته في الحصول عـــلى امتياز فوراً . واستوضح ابن سعود ما اذا كان لحكومة صاحب الجلالة أي اعتراض على ذلك .

واجابه السير بيرسي قائلاً :

– لا يوجد أي اعتراض . اعطه الامتياز ولكنني احذرك من ان الشركة الشرقية العامة ليست شركة للنفط وأخشى ان تبيع الامتياز لغيرها .

وشكره ابن سعود وقال انه فهم كل شيء . وبعد ذلـــك استدعي الميجر

هولمز وقدم الى السير بيرسي ثم عرض قضية النفط وآماله فيها . وذكر ايضاً ان هنالك امكانية للعثور على النحاس ، ثم اشار على الخارطة مدى اتساع رقعة الأرض التي يطلب ان يشملها الامتياز الذي يسعى اليه . وكانت تلك المنطقة أشبه بمستطيل طويل تحده من الشمال منطقة الكويت المحايدة ، ومن الجنوب سلوى التي تقع في داخل أراضي قطر ، ومن الغرب خط مستقيم بمحاذاة البحر ويبعد عنه ستين ميلاً فيشمل وادي المياه وصلعة الكبريت في منطقة الجوف على بعد خمسة وعشرين ميلا الى الجنوب الغربي من منطقة الكويت المحايدة .

اما الميجر هولمز فلم يحظ باعجاب السير بيرسي الذي اعتبر وجوده هناك ضد مصالح حكومة صاحب الجلالة . فقد دخل هولمز ، اذا جاز التعبير ، من الباب الخلفي. ومما لا ريب فيه ان السير بيرسي كان يمكن ان يدينه هو واعماله أمام ابن سعود لو استطاع ان يفعل ذلك بصورة سليمة . ولكنه لكونه معجباً اعجاباً شخصياً بابن سعود ورغبة منه في عدم اغاظته بعد قضية الحدود ، طيب خاطره بجره الى الاعتقاد ان حكومة صاحب الجلالة تريد مساعدته على تطوير بلاده وافساح المجال أمامه للحصول على دخل محترم .

وبعد عدة سنوات عرفت كيف انني لم استطع العثور على منابع النفط . فقد كانت مغطاة بكثيب هائل من الرمل هو واحد من عدة كثبان تتحرك باستمرار الى الغرب من حزام النخيل في القطيف . فعندما بدأت شركة النفط العربية الاميركية (ارامكو) وهي فرع من شركة ستاندرد اويل ، العمل واكتشفت حقل النفط الكبير في جبل الظهران ، لم يمض وقت طويل قبل اكتشاف حقل أصفر وراء القطيف تماماً في المكان الذي تمنيت العثور فيه على المنابع من قبل . ويضم هذا الحقل اليوم على ما اعتقد ست آبار .

ردود الفعل في الكويت

وعدنا الى البحرين بينما اكمل السير بيرسي والميجر مور طريقهما الى الكويت .

وبعـد وقت قصير تبعتها أنا وزوجتي وبصحبتنا الشيخ فهد بك الهذال والوفد العراقي . وأذكر اننا وجدنا صعوبة فائقة في الصعود إلى ظهر السفينة التي أقلتنا بسبب العواصف الشديدة . وقد عانى أكثر من الجميع الشيخ المسن فهد بك لأنه كان علينا جميعاً أن نتسلق على سلم من الحبال وعلى خصورنا أحزمة النجاة .

ولدى وصولنا إلى الكويت ، وكان ذلك بعـد يوم واحد فقط من وصول السير بيرسي والميجر مور ، نزلت أنا وزوجتي فيما أكمل فهد بك والوفد العراقي طريقهم إلى البصره .

كنت أنا والميجر مور حاضرين عندما أفضى السير بيرسي بالنبأ الى حـاكم الكويت معتذراً لأنه اضطر الى إعطاء ابن سعود ثلثي مملكة الشيخ أحمـد . وسأله الشيخ أحمد وقد بلغ به التأثر حداً كبيراً ، لماذا فعل ذلك دون استشارته على الأقل . وأجاب السير بيرسي انه في تلك المناسبة السيئة كان السيف أقوى من القلم ، وأنه لو لم يسلم تلك الأراضي لابن سعود لكان بكل تأكيد أخذهـا وربما أخذ أكثر منها بقوة السلاح . وكما هي الحـال ، فقد أرضى السير بيرسي الجار القوي للشيخ أحمد وزرع في نفسه شعوراً ودياً تجـاه الكويت . وسأل الشيخ أحمد ما إذا كانت بريطانيا قد دخلت في حروب دفاعاً عن حقوق الدول الصغيرة ، فأجاب السير بيرسي بالايجاب معترفاً بأن ما قاله الشيخ أحمد صحيح .

وقال الشيخ أحمد :

— إذا توفي ابن سعود في يوم من الأيام وأصبحت انا قوياً كجدي مبارك ، فهل تمانع الحكومة البريطانية إذا رفضت خط الحدود غير العادل واستعدت أراضيّ التي فقدتها ؟

وضحك السير بيرسي وقال :

— لا .. وليبارك الله جهودك .

ولما وجد الشيخ أحمد نفسه أمـام الأمر الواقع وافق على الاتفاقية ووقـّع عليها . ولكنه ظل الى يوم وفاته شاعراً بالغبن معتقداً انـه عومل معاملة سيئة وكان يدلي أمام أخصائه بكلام من هذا النوع كأن يقول لهم :

– انني لم أحضر محادثات عقير على بعد ثلاثمائة ميل من هنا كما انني لم أطلع على ما كان يجري هناك . لقد كنت أثق بالسير بيرسي كما أثق بوالدي . ولم أكن لاعترض لو أن بضعة أميال من أرضي اقتطعت مني ، ولكن أن أسلب من ثلثي مملكتي دون أن يكون لي رأي في الأمر وأرى بعيني تلك الأرض تعطى لغيري ، فذلك أمر يصعب عليّ تحمله .

وفي السنوات التالية ظل الشيخ أحمد يقول لي إنه يعتبر كل منطقة الكويت المحايدة جزءاً من أراضيه ولن يوافق مطلقاً على اقتسام امتيازات النفط مع ابن سعود . وكان ابن سعود قد منح فعلاً امتيازاً للشركة الشرقية العامة المحدودة في شهر أيار سنة ١٩٢٤ ، يشمل منطقة الاحساء . ولكنه اعتبر الامتياز لاغياً لأن الشركة لم تف بتعهداتها في بدء العمليات خلال ثلاث سنوات من توقيع الاتفاق .

وقبل وفاته سنة ١٩٥٠ بوقت قصير وافق الشيخ أحمد مع ابن سعود على منح امتياز لشركة النفط الأميركية المستقلة (امينويل) . وقد فعل ذلك ، على حد قوله ، رغبة منه في المحافظة على صداقة ابن سعود الذي أصبح تأييده للكويت أجدى من تأييد بريطانيا . ذلك لأن استثمار بريطانيا للنفط في أراضيه، وسياستها التي كانت تميل الى إسرائيل أكثر مما تميل الى العرب ، حملاه على تغيير خطته تجاه بريطانيا تمشياً مع الشعور العام في العالمين العربي والاسلامي .

وفي نيسان سنة ١٩٢٣ أبلغ الشيخ أحمد ان بريطانيا تعترف بالحدود التي يراها هو صحيحة بين العراق والكويت والتي تعطيه جزر وربا وبوبيان ومسكان وفيلكه وعوحه وكبّر وقارو ومقطع وأم المرادم وغيرها من الجزر المجاورة .

وقد كتب السير بيرسي كوكس الى الميجر مور طالباً منه أن ينقل ذلك الى الشيخ أحمد . ويقول السير بيرسي في رسالته الى الميجر مور :

– وكما تعلم ، ينطبق ذلك مع الحدود المشار إليها بالخط الأخضر في الاتفاقية الانكليزية التركية الموقعة في ٢٩ تموز سنة ١٩١٣ ، ولكنه ليس من الضروري ان تذكر ذلك أمام الشيخ أحمد أو أن تشير الى الوثيقة من قريب او من بعيد في حديثك معه حول الموضوع ...

الفصل الثاني عشر

مقدمة للثورة

١٩٢٣-١٩٢٨

كان المتعصبون من الاخوان ما زالوا يشيعون جواً من الرعب عن طريق ضم الناس الى مذهبهم بالقوة . وقد أخبرني ابن سعود بصورة خاصة في عقير في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ ، انه لم يؤيد أبداً تلك الأعمال ولكنه لم يتمكن من ان تكون له يد في كبح جماحها إلا مؤخراً . واضاف انه في صيف سنة ١٩٢٢ أصدر أشد الأوامر حول هذا الموضوع وأخذ يعظ يوماً بعد يوم بين الناس شاجباً تلك الأعمال التي قال انها تجلب غضب الله والدول الصديقة . وقد اضطر الى تنفيذ احكام الاعدام في عدد من الاخوان لعدم امتثالهم للأوامر المتعلقة بهذا الشأن .

وقال لي ابن سعود ان الشيعة من أهل الأحساء والقطيف منعوا من التدخين حتى في منازلهم ولم يكن يسمح لهم اداء فرائضهم الدينية في حسينياتهم . وكانت تنزل أقصى العقوبات بكل من يخالف ذلك، وقد قتل الاخوان عدداً من البحارنة ومن الشيعة في القطيف لمحاولتهم خرق القانون . اما الآن وقد آلت الأمور أكثر فأكثر الى سيطرة ابن سعود فقد امكن التساهل في تطبيق القانون . فقد سمح للشيعة بالعبادة والتدخين في منازلهم الخاصة شرط ان يحافظوا على القوانين في الأماكن العامة . وأشار ابن سعود الى ان حالة الشيعة اصبحت في عهده أفضل

بكثير مما كانت عليه زمن الاتراك . ففي ذلك الوقت لم يكن الشيعي يستطيع الادعاء بان اي شيء بما في ذلك حياته هي ملك له . أما في عهد ابن سعود فقد أصبحت الطائفة الشيعية آمنة وازدهرت تجارتها وتحسنت اوضاعها كما لم يعرف من قبل .

واعتقد ان ابن سعود قصد الدعاية في ابلاغي ذلك ظناً منه انني سأنقل ما قاله للسير بيرسي كوكس لإعطائه فكرة بأن التنكيل ليس من شيم الاخوان كما انه ليس من سياسة ابن سعود .

وقد نفذ الاخوان الأمر الخاص ببناء الحواضر للاستيطان فيها تنفيذاً دقيقاً في نجد والاحساء بحيث انه لم تأت سنة ١٩٢٢ إلا وكانت الهجرات التالية قد تمت فعلا . أما القائمة الواردة ادناه فليست كاملة بشكل من الأشكال وقد وجدت ان الارقام التي أعطانيها اصدقائي البدو لعدد الرجال المقاتلين في كل حاضرة مبالغ فيها فاقتطعت منها كثيراً – الثلثين في أغلب الأحيان . ويمكن ان أكون قد تطرفت بعض الشيء .

اسم القبيلة	الهجرة	عدد الرجال
مطير	ارتوائية	١٠٠٠
	الغريضان	٦٠٠
	مقيظ	٩٠٠
	مليح	٧٠٠
	العمير	٧٠٠
	العذله	٦٠٠
	جارية عليا	١٨٠٠
	جارية سفلى	١٦٠٠
	نقير	١٢٠٠
	الشعب	٣٠٠
	ضريعه	٦٠٠
	مشاع	٤٠٠

عوازم	ثاج	١٦٠٠
	الهنات	١٠٠٠
	الهيسي	٧٠٠
	العتيقي	٨٠٠
عتيبه	غطغط[*]	٧٠٠
	الدمانه	٨٠٠
	الصوح	٣٠٠
	السجر	٧٠٠
	عرجه (او العرج)	١٠٠٠
	أصيله	٣٠٠
	نفيع (أو النفع)	٩٠٠
	هجرة خالد بن لؤي	٤٠٠
	عرمه	٧٠٠
	الغبا	٢٠٠
	الروضه	٧٠٠
	العرق	١٠٠٠
حرب	عجيبه	١٠٠٠
	دخنه	٦٠٠
	الشبيكيه	٩٠٠
	الدليميه	٧٠٠
	الصادقه	٦٠٠
	القرين	٤٠٠
	حنيظل	٥٠٠
	البروق	٨٠٠

* – دمرها ابن سعود بعد معركة سبيله سنة ١٩٢٩ .

	ابو حليفه حليفه	٩٠٠
عجمان	صرار	١٦٠٠
	الشافي الصماف	٥٠٠
	الحنين حنيذ	٨٠٠
	عوينه	١٢٠٠
	عريره خريعه	١٠٠٠
	عقير	٥٠٠
قحطان	الحياضين الهياثم	١٨٠٠
	الجفير	١٠٠
	الحساة الحصاة	٧٠٠
	الغل الغيل	٥٠٠
	هجرة ابن غنام	٥٠٠
	هيف زهران	٤٠٠
	الصبحه صبحا	٥٠٠
	العبره ؟	٦٠٠
	رهيان (العيا) الريم العليا	١٢٠٠
	رهيان (السفلى) الريم السفلى	١٠٠٠
آل مره	عميق ؟	٩٠٠
	عبيرق ابيرقه	١٠٠٠
بني هاجر	الظهر	٧٠٠
دواسر	مشيريم مشيرفه	١٥٠٠
	الوسيطه الوسيطى	٨٠٠
بني يم	أهل نجران	٤٠٠٠
عمار (عتيبه)	الجفر	٢٠٠٠
	روض العيون	١٠٠٠

حطيم	بن وان	١٥٠٠
منطقة الخرج	المنيصفه	٥٠٠
	الضبيعه	٦٠٠
	البدعه	٥٠٠
	الاخضر	٥٠٠
	الطيب اسم	٤٠٠
	الرويضه	٤٠٠

لقد كنت في الهند من سنة ١٩٢٣ حتى تعييني سكرتيراً للمقيم السياسي في الخليج الفارسي سنة ١٩٢٨ ، وبذلك فقدت الاتصال الشخصي بالاحداث في الجزيرة العربية . وفي تلك الفترة أيضاً رزقت ولدي الاثنين ابني هانمر يورك وارينغثون سعود الذي ولد في تريتات بسويسرا في الثاني عشر من حزيران سنة ١٩٢٣ ، وابنتي ايرين زهرة التي ولدت في ببكانير بالهند في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٩٢٥ . ولدى عودتنا الى الجزيرة العربية أخذ البدو ينادون زوجتي بام سعود وأصبحت انا معروفاً بأبي سعود .

ان اعتقاد ابن سعود بأن تحدي بريطانيا هو بمثابة كارثة تنزل عليه تأكد عندما قام حوالي الف وخمسماية رجل من الاخوان بغزوة على بعد خمسة عشر ميلاً من عمان عاصمة شرق الاردن بعد ان ساروا مسافة الف ميل في منتصف شهر آب سنة ١٩٢٤ . وقد تصدى لهم سلاح الجو البريطاني ويقال انهم قتلوا جميعهم باستثناء عدد لا يتجاوز المئة رجل . وقد ساهم رجال قبيلة بني صخر في انزال الهزيمة بالاخوان الغزاة .

وفي تلك الاثناء كان الملك حسين ملك الحجاز ، بعناده ورعونته ، يكتب نهايته بيده . فعندما زار شرق الاردن واعلن نفسه هناك خليفة في العالم الاسلامي ، اعلن ابن سعود عليه الحرب . وقد احتلت قوات الاخوان الطائف في ايلول سنة ١٩٢٤ باسرع مما كان يتوقع ابن سعود . وفي الخامس من تشرين الأول تنازل الملك حسين عن العرش الى ابنه الأكبر علي وذهب ليعيش في العقبة .

وانسحب علي من مكة وتراجع الى جده . واحتلت قوات الوهابيين مكة في كانون الأول وحاصرت جدة والمدينة .

وتوجه جيش سعودي آخر الى ما وراء وادي سرحان قرب الحدود السورية قاطعاً الطريق بين شرق الأردن والعراق . وأوفدت الحكومة البريطانية السير جيلبرت كلايتون الى الحجاز ليلفت نظر ابن سعود الى ان امتداد حدوده التي تقع عبر خط الانابيب المقترح في الصحراء والطرق البرية والجوية الى بغداد والشرق ، لا يمكن ان يحتمل .

وتراجع ابن سعود تحت الضغط البريطاني مظهراً بذلك بعد نظره وقدرته على ضبط النفس وهما امران يعود اليهما نجاحه الى حد كبير . وعقدت بعد ذلك معاهدتا جده وبحره . فمعاهدة بحره التي وقعت في أول تشرين الثاني ١٩٢٥ تنص على اقامة محكمة خاصة للنظر في شكاوى قبائل نجد والعراق على بعضهم البعض .

وكان الملك علي بن الحسين يخوض حرباً خاسرة فقد استطاع ان يثبت لحصار جده ولكن سقوط المدينة بأيدي قوات الاخوان بقيادة فيصل الدويش في الخامس والعشرين سنة ١٩٢٥ ، ادى الى تنازله عن العرش . وفي الثامن من كانون الثاني سنة ١٩٢٦ نودي بابن سعود ملكاً على الحجاز في المسجد الكبير بمكة المكرمة . وظل يحمل لقب سلطان نجد الى السنة التالية عندما أصبح يحمل لقب ملك الحجاز ونجد وتوابعها.

وفي سنة ١٩٢٦ ايضاً اصبحت منطقة عسير في غرب الجزيرة العربية والتي يحدها من الشمال والشرق والجنوب على التوالي كل من الحجاز ونجد واليمن ، تحت سيطرة ابن سعود . وحتى سنة ١٩٢٠ كان الادريسي يحكم عسير ، ولكن الاخوان في تلك السنة احتلوا ابهة والاقسام العليا من المنطقة تاركين لسعيد محمد الادريسي ما تبقى منها . وتوفي سعيد محمد سنة ١٩٢٢ وخلفه ابنه الذي طرده عمه حسن سنة ١٩٢٥ . ووجد الحاكم الجديد نفسه ضعيفاً فوضع بلاده سنة ١٩٢٦ تحت سيطرة ابن سعود وعين هو حاكماً مدى الحياة في عسير .

بوادر عدم الارتياح بين الأخوان

عمل ابن سعود كل جهده بين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٢٧ في القضاء على العصابات وقطاع الطرق في الحجاز ونجد تأميناً لسلامة طرق الحج وكبحاً لجماح قبائله الهائجة التي بدأ أكثرها يشعر أن سياسته يمليها عليه البريطانيون. وكان قبوله للمخترعات الحديثة كالسيارة والهاتف والراديو دليلاً، من وجهة نظرهم، على عدم ايمانه بمذهب الاخوان. وبدا واضحاً ان الشعور بعدم الارتياح أخذ يتفاقم.

وعندما عاد زعماء الاخوان الى نجد بعد سقوط جده كانوا يتبرمون ويشعرون بخيبة أمل لأن حملة الحجاز لم تعطهم الفرصة للنهب والتنكيل. وكانوا ايضاً غير راضين عن فكرة ابن سعود في تنظيم حكومة مدنية في الحجاز وعن منعهم من الغزو عبر الحدود.

وقد كتبت في أماكن أخرى عن طبيعة البدو وقلت ان الغزو هو وريد الحياة بالنسبة للبدوي، فاذا منع عن الغزو يصبح اكثر الرجال تقاعساً. وكما ان الرجل الغربي المتمدن يحافظ على ممارسة هواياته في الرياضة والصيد كأبواب لسعادته والابقاء على حيويته، كذلك البدوي البدائي في الجزيرة العربية لديه رغبة طبيعية في الغزو لأن فيه المجال لإثبات رجولته وفروسيته. إن الغزوات في الصحراء لا تحمل معها الكثير من سفك الدماء لان الدافع او المحرك الاساسي للغزاة هو نهبهم للجمال بالدرجة الأولى.

وكان بين اكثر زعماء الاخوان استياء فيصل الدويش قائد الحملة على المدينة والشيخ الأعلى في قبيلة مطير القوية واحد الذين يشكلون عصب حركة الاخوان. وكان الى ذلك الوقت لا يزال أقرب صديق الى ابن سعود وأكثر ضباطه حماسة واندفاعاً.

وقد حث فيصل الدويش سلطان بن حميد الشيخ الأعلى في قبيلة عتيبه، وضيدان الهذلان الشيخ الأعلى في عجمان على قسم اليمين لمساندة بعضهم البعض إذا حاول ابن سعود الاقتصاص من أي واحد منهم.

هكذا كان الوضع عندما رفضت حكومة ايران السماح للخطوط الجوية

الامبراطورية في إنشاء محطة لخدمة الطائرات المتوجهة إلى الهنـد ، على ساحل ايران الجنوبي ، فحمل الاقتراح الى ابن سعود على أساس انشاء المحطة المذكورة على الساحل العربي من الخليج الفارسي . وكما كان متوقعاً ، فان مجرد عرض تلك الفكرة كان سيصطدم بمعارضة الاخوان ونفورهم . وأعلن ابن سعود أنـــه لا يستطيع الموافقة على الاقتراح عمـلاً بنصيحة عبدالله بن جلوي آل سعود أمير الاحساء .

وبعد ذلك جـاءت قضية انشاء مخفر للشرطة العراقية في بسوه في صحراء العراق الجنوبية . وقـد ربط الاخوان ذلك في ذهنهم بقضيـــة مشروع الخط الجوي ظناً منهم أنه سيكون مركزاً ضخماً بتجميع النفط وقاعدة لإدخـــال العادات الأوروبية الى بلادهم .

وكانت معارضتهم لاقامـة المخفر المذكور قوية الى حد حمـل ابن سعود على الاحتجاج على اقامته بحجة انه يشكل خرقاً للمادة الثالثة من بروتوكول عقير . وكانت حجته واهية يصعب عليه شخصياً تصديقها لان المخفر كان سيقام على بعد ٥٥ ميلاً من أقرب نقطة الى منطقة العراق المحايدة .

وبالرغم من احتجاجه وموقفه ، فان وجود المخفر ساعد على توسيع شقة الخلاف بينه وبين زعماء الاخوان . فقد قام فيصل الدويش بحملة دعائية واسعة النطاق ضد ابن سعود مشيراً الى أن وجود المخفر دليل على ان ابن سعود قـد باع حقوق بلاده الى البريطانيين .

وقـــد فعلت حملة فيصل فعلها فبدأت القبائل تستحث بعضها للجهاد ضد العراق على اعتبار انـــه حليف البريطانيين ومتسامح بشأن العادات والاعمال المغايرة للدين .

ولم ينحصر شعور العداء لابن سعود بالأخوان فقـد تعداه الى بعض أفراد العائلة السعودية والىأهل الحجاز الذين كانوا يعتبرونه محتلاً اجنبياً مخالفاً لإيمانهم . ففي صيف سنة ١٩٢٧ اكتشفت مؤامرة في حينها لاغتيال ابنه سعود في الرياض وأخرى لاغتيال عبدالله ابن جلوي في الاحساء . وانتشر همس بين الناس بأن

محمد شقيق ابن سعود وخالد بن محمد هما اللذان حرضا على المؤامرة .

وحوالي الساعة الحادية عشرة من ليل الخامس من تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ هاجم أربعون رجلاً من قبيلة مطير بقيادة الشيخ مطلق السور أحد اعوان فيصل الدويش ، مخفر الشرطة في بسوه وهو قيد البناء وفيه ستة من رجال الشرطة وموظف مدني واحد واثنا عشر عاملاً وامرأة واحدة . وقد فوجىء هؤلاء بالهجوم تحت جنح الظلام فقتلوا جميعهم باستثناء شرطي واحد اصيب بجراح . وتمكن شرطي آخر كان يقوم بواجبه في مركز ناء من الفرار وأعطى اشارة التحذير في ابي غار .

وفشلت طائرات الاستكشاف في صباح اليوم التالي في تحديد مواقع المهاجمين الذين استطاعوا الفرار في الوقت المناسب الى ما وراء حدود نجد . وقد دبر الهجوم فيصل الدويش مع انه أنكر ذلك في محادثة اجريتها معه سنة ١٩٢٩ ووضع فيها اللوم كله على ابن سعود .

وكان من نتائج هذا الهجوم ارجاء مؤتمر كان من المقرر عقده في الكويت في ٢٠ تشرين الثاني بين وفد من العراق وآخر من نجد برئاسة الميجر مور الوكيل السياسي في الكويت ، الى أجل غير مسمى .

ونظراً لكثرة الدعاوى المقدمة من قبائل البلدين ضد بعضهم البعض ، وجد ان المحكمة الخاصة المنصوص عنها في معاهدة بحره ليست عملية . لذلك ، وبما ان نجد والعراق قد اتفقتا مسبقاً على اسقاط جميع دعاوى قبائلها ، فان مؤتمر الكويت كان سيحل محل المحكمة الخاصة . وكان الهدف من المؤتمر التوصل الى اتفاق حول اسقاط جميع الدعاوى المتبادلة ، وبحث الاجراءات الواجب اتباعها في معالجة القضايا المشابهة التي قد تنشأ في المستقبل .

وفي ١٨ تشرين الثاني وصل الى الكويت الشيخ حافظ وهبه وهو مصري قدير وذو مكانة رفيعة أصبح فيما بعد سفيراً للسعودية في لندن ، ليمثل نجد في المؤتمر . ولكن ابن سعود كان قد أبلغ في تلك الاثناء من قبل بريطانيا ان المؤتمر قد ارجىء الى أن يعاقب المسؤولون عن مهاجمة المخفر وتدفع التعويضات للقتلى

والجرحى وتعطى تأكيدات بان إجراءات حاسمة ستتخذ لمنع مثل تلك الغزوات الى داخل الاراضي العراقية .

وقد وصل الى الكويت تقرير في ٢٦ تشرين الثاني يفيد ان مخبرا لقبيلة عوازم قرب الحدود الجنوبية للكويت قد أبلغ سراً بالابتعاد الى الجنوب لإفساح الطريق امام الاخوان الذين قرروا مهاجمة الأراضي الكويتية . وفور وصول التقرير حذر جميع البدو في المنطقة وسيرت دوريات مسلحة للمراقبة .

وبالرغم من كل تلك الاحتياطات فقد نجح أربعمائة رجل من الاخوان بقيادة تراحيب بن شقير الدويش وأحد أبناء سهود بن لامي في غزو عربدار الكويت في أم رمام قرب زقلة على بعد سبعة أميال الى الشمال الشرقي من جهره وذلك في الرابع من كانون الأول .

وحالما وصلت الأنباء الى الكويت ، وكان ذلك بعد الظهر ، جمعت قوة قوامها مئة رجل وأرسلت على جناح السرعة بالسيارات للتصدي للمهاجمين ، ولكنها وصلت متأخرة وبعد أن تمكن الغزاة من الاستيلاء على عدد كبير من الجمال والفرار بها .

وأرسل الشيخ أحمد حاكم الكويت رسلاً يحملون رسائل الى ابن سعود يشكو فيها الاعتداء على رعاياه .

وقد أحدثت الحالة المضطربة في الصحراء والشائعات التي كانت تروج يومياً، موجة من القلق في مدينة الكويت . فقد أعيد بناء السور في الأماكن اللازمة وشددت عليه الحراسة ليلياً حتى نهاية السنة . وجند عدد من المرتزقة لتدعيم حامية جهرا التي زيد عددها حتى بلغ ثلاثماية رجل ، هذا بالاضافة الى البدو المخيمين في الجوار .

وفي صباح الثامن من شهر كانون الأول ، قام الشيخ حافظ وهبه بزيارة الميجر مور وأبلغه أنه تلقى برقية من ابن سعود عن طريق البحرين يطلب منه فيها أن يخبر الميجر مور – لكي ينقل بدوره الى المندوب السامي البريطاني في العراق – أن اضطرابات خطيرة قد وقعت في نجد ، وان ابن سعود علم ، بكل أسف ،

ان قوة من الاخوان بدأت تزحف نحو الشمال خلافاً لأوامره . وقد أرسل تحذير مماثل الى شيخ الكويت .

وفي صباح اليوم التـــالي تعرضت ثلاث طائرات تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني لنيران بنادق فريق من الهجانة يبلغ عدده ثلاثماية رجل بالقرب من أم العبيد ، وذلك فيما كانت الطائرات الثلاث تقوم بمهام الدورية فوق منطقة العراق المحايدة . وقد جرح نتيجة للحادث عامل لاسلكي في إحدى الطائرات . وردت الطائرات على القوة المعادية بوابل من نيران مدافعها الرشاشة .

وقد شاهدت الطائرات التي أرسلت من بسوه في اليوم ذاتــه قوة من حوالي ستمائة رجل مـــع جمالهم في الرخيميه وبالقرب من جيلده[1] في منطقــة العراق المحايدة . وكانت تلك القوة تتحرك بسرعـــة نحو الجنوب فقصفتها الطائرات وأوقعت فيها خسائر جسيمة . وكانت تلك القوة ، قبل ساعات من قصفها ، قد هاجمت مخيمات فرع الغليظ من الرعاة العراقيين في المنتفق ، ومخيمات قبيلة ظافر البدويـــة الى الشمال من شعيب الأمة . وكان هؤلاء الغزاة ، كالعـــادة ، من قبيلة مطير .

وفي الثـــاني والعشرين من كانون الأول عبر فيصل الدويش على رأس قوة من رجاله الحدود العراقية وهاجم قبيلة الزياد وقبيلة عبده شمر في جوخه على بعـــد ٣٥ ميلاً الى الشمال الغربي من بير انـــاب[2] في الزاويـــة الغربية من منطقة العراق المحايدة . وقد أعمل الغزاة السيف في رقاب القبيلتين وخاصة في قبيلة الزياد ممـــا أدى الى مقتل عدد كبير من الرجال .

وتحرك فيصل الدويش بعد ذلك الى الشمال الغربي لمهاجمـــة الداهمشاه الذين فروا أمامه هاربين . ويبدو أنه عاد بعد ذلك بالتحرك جنوباً . وظلت تحركاته حتى نهاية السنة يلفها الغموض .

إن قيام فيصل الدويش ورجال مطير بتلك الغزوات على نطـــاق واسع ، ليس فقط بدون اذن ابن سعود بل تحدياً لأوامره أيضاً ، قـــد أثار الكثير من الشائعات والأقاويل المبالغ فيهـــا حول حقيقة الأوضاع في نجد . ويظهر أن

(١) الجلده
(٢) نصاب

البعض قد ظنوا أن قبائل أخرى وخاصة عتيبه قـــد تحدت هي أيضاً سلطة الملك. ولكن المعلومات الموثوقة المتوفرة حتى نهاية عام ١٩٢٧ تشير الى أن مطير وحدها كانت خارجة عن السيطرة . أمـا القبائل الأخرى فقد لزمت الهدوء . وكان الرأي السائد بـين العرب العارفين ببواطن الأمور هو ان ابن سعود سيتمكن سريعـاً من استعادة سلطته في الصحراء ولكنه سيفعل ذلك بالطرق السلمية لأنه ليس من الحكمة معاقبة مطير .

وفي تلك الأثناء وصلت الى مراغه ، وهي منطقة مشهورة للآبار على بعـد ١٦٥ ميلاً جنوب الكويت وفيها يتجمع القسم الأكبر من قبيلة عوازم ، قوة من الاحساء كان ابن سعود قد أمرها بحفظ النظام بين القبائل . وقيل ان كتيبة أخرى قد أرسلت من حايل .

وفي أوائل كانون الثاني سنة ١٩٢٨ عاد رسل الشيخ أحمد حـاكم الكويت الذين أوفدهم الى ابن سعود بعد غزوة تراحيب بن شقير ، حاملين رسالة يعرب فيها ابن سعود عن أسفه للحادث واعداً بإصلاح الخطأ . وقد أبلغ الرسل ان ابن شقير قد ترك أمره لقوة من الاحساء بقيادة فهد بن عبدالله بن جـلوي آل سعود، ولكن هذا الوعد لم ينفذ . فقد أخلى ابن شقير موقتاً قرية جارية عليـا وانسحبت قوة بن جلوي في شهر شباط .

ووصلت أنباء الى الكويت مساء ٢٧ كانون الثاني تفيد ان علي بن عشوان من فخذ أولاد واصل من قبيلة البريح مطير ، قـــد هاجم عربدار الكويت في أم رويسات بقوة قوامها ثلاثماية وخمسون رجلاً من الهجانة وخمسون من الخيالة . ويبعد مكان الهجوم ٣٨ ميلاً الى الشمال الغربي من جهرا . وقد قتل المهاجمون ثلاثة أشخاص وحملوا معهم عدداً لا يستهان به من الجمال والأغنام

وقد استنفرت جميع السيارات في الكويت حالاً وملئت بالرجال المسلحين وأرسلت الى جهرا في الليلة ذاتها ومعها أوامر بالتقدم الى رقيع على بعد ٩٠ ميلاً الى الغرب فالجنوب الغربي ، عندما يبزغ ضوء النهار أملاً في قطع طريق العودة على المهاجمين . ونجح الكويتيون في ذلك . ففي الساعة الرابعة والنصف من بعد

ظهر ٢٨ كانون الثاني وصلت الى رقيع خمس عشرة سيارة من أصل السيارات الخمس والعشرين التي غادرت الكويت . وكان ذلك عملاً خارقاً بالفعل لأنه لا توجد طريق للسير بعد جهرا ولأن السيارات كانت مكتظة بالركاب إذ أن بعضها كان يحمل تسعة رجال .

ومع ان القوة الكويتية لم تزد عن ٧٥ رجلاً إلا أنها كانت أفضل تسلحاً من الغزاة . هذا بالاضافة الى أنهم أدخلوا السيارة كعامل جديد في الحرب . وكانت النتيجة ان القوة الكويتية كبدت العدو خسائر جسيمة وأجبرته على التخلي عن جزء كبير من غنائمه . وكانت الإصابات في صفوف الكويتيين قليلة ولكن قائدهم الشيخ علي الخليفة الصباح أصيب بجراح بالغة .

وبعد انتهاء الاشتباكات وصل الى أرض المعركة الشيخ علي السالم الصباح ابن المرحوم الشيخ سالم وهو شاب شجاع عنيد . وكان قد تأخر عن القتال بسبب عطل في سيارته الأمر الذي أزعجه جداً . ولكي يعوض عن ذلك اصر على وجوب التقدم متحدياً بذلك الأوامر المباشرة . وكانت النتائج انه حوصر مع جماعته في الباطن حيث قاتلوا حتى نفدت ذخيرتهم فاستسلموا ولكنهم ذبحوا بكل برودة دم . ولولا هذا الحادث المؤسف لكان ما قامت به القوة الكويتية عملاً خارقاً لا يضاهيه نجاح .

وكانت خسائر الكويتيين احد عشر قتيلاً وأحد عشر جريحاً توفي واحد منهم فيما بعد ، بينما تكبد العدو ٣٥ قتيلاً على الأقل . وتخلى الكويتيون مؤقتاً عن أربع سيارات عادوا فاحضروها فيما بعد. وتجدر الاشارة هنا الى ان احدى هذه السيارات وقعت في ايدي الاخوان فأرادوا تعطيلها بان حطموا أبوابها وظل محرك السيارة سليماً اذ انها اعيدت الى الكويت بقوتها الخاصة .

وفي ٢٩ من الشهر ذاته حددت الطائرات البريطانية مواقع الغزاة على بعد خمسة عشر ميلاً الى الشمال من حفر الباطن . وقد فتح الغزاة نيران بنادقهم على الطائرات البريطانيةالتي ردت عليهمبالقنابل والمدافع الرشاشة.وقامت الطائرات بمهاجمة الغزاة مرة ثانية على بعد ثمانية أميال من حفر الباطن بعد ظهر الثلاثين

من الشهر وكبدتهم خسائر فادحة في المرتين .

وفي التاسع عشر من شباط تعرض الجوارين من قبائل المنتفق وبعض القبائل الأخرى قرب جريشان في الباطن على بعد خمسين ميلاً الى الجنــــوب الغربي من الزبير ، لهجوم عنيف شنته قوة من الاخوان بقيادة فيصل الدويش يقدر عددها بألفي جمل يحمل كل منها رجلين وعدد كبير من الخيالة ربما بلغ ٢٣٠٠ رجـــل . وبلغت خسائر القبائل العراقية نتيجة لهذا الهجوم ٢٦ قتيلاً و١٨ جريحاً، وفقدت ١٣٠ جملاً وحوالي ١٨٠٠ رأس غنم .

وفي اليوم ذاته شاهدت طائرات الاستكشاف فريقين من الغزاة أحدهما كبير على بعد عشرة أميال الى الجنـــوب من جريشان والثـــاني صغير قرب رقيع . وشاهدت طائرة استكشاف أخرى جماعة من الغزاة منتشرين في منطقة واسعة قرب جريشان ومعهم الغنائم والأسلاب. وقد هاجمت الطائرات جميع الفرق التي شاهدتها وتعرضت بدورها الى نيران شديدة، فسقطت احدى الطائرات مشتعلة وقتل قائدها . وهو البريطاني الوحيد الذي قتل في تلك الحوادث .

وقد هوجم الغزاة وهم يتراجعون مرتين من الجو : في العشرين من شباط وفي الحادي والعشرين منه . وفي المرة الثانية كانت اصوات انفجارات القنابل تسمع بوضوح في الكويت . وفي صباح الرابع والعشرين توجهت طائرات من منطقـــة العراق المحايدة الى الصفا عن طريق حفر الباطن . وشاهدت تلك الطائرات على بعد عشرين ميـــلاً الى الشمال فالشمال الغربي من الصفا عــــدداً كبيراً من الخيام البيضاء تحيط بها الجمال والخيول وقطعان الغنم من كل صوب . واسقطت بعض تلك الطائرات قنابلها على الخيم بينما تقدمت الطائرات الأخرى الى الصفا وقصفتها. وفي كلا المكانين لم تكن النتائج كما كان يرتجى . ويبدو ان فيصل الدويش ظل في الصفا حتى صباح ذلك اليوم ثم غادرها الى قريته ارتوائية قبـــل وقت قصير من القصف .

وجاءت تقارير أخرى تفيد ان سلطان بن حميد الشيخ الأعلى في قبيلة عتيبة القوية دعا زعماء الاخوان الآخرين الى الاجتماع به في السابع من آذار في شقرا

سلاب
الصافه
ارطاويه

على بعد ٩٠ ميلاً الى الجنوب من ارتوائيه وذلك للقيام بغزوة كبرى مشتركة . وقد اكد ذلك أحد الأسري من فريق من قبيلة مطير اطلقوا النار على سيارات بريطانية مصفحة في حفر الباطن في الثاني عشر من آذار . وقال ذلك الاسير ان فيصل الدويش اقترح ان تكون الغزوة المشتركة بعد رمضان الذي ينتهي في ٢٢ آذار ، ولكن بن حميد اصر ان يكون ذلك فوراً . ويقال ان الغزوة تقرر ان تكون ضخمة للغاية وهدفها البصره .

ولم تتحقق تلك الغزوة على كل حال. وعلم فيما بعد انه بالرغم من ان بن حميد غادر قريته غطغط فعلا حسب البرنامج ولكنه لم يذهب الى أبعد من شمس على بعد ٧٠ ميلاً الى الغرب فالشمال من الرياض حيث لحق به خالد بن لؤي احد أفراد العائلة الشريفة في الحجاز وقائد من قادة الاخوان هناك . وكان بن لؤي قد قدم الى الرياض قبل عدة أيام فأرسله ابن سعود لكي يحاول اقناع بن حميد بالعودة . ونجح في مهمته مؤقتاً اذ ان ابن حميد عاد فعلا الى غطغط تاركاً قواته في شمس .

وقام بن حميد بزيارة فيصل الدويش في ارتوائيه بتاريخ ٢١ آذار واقترح عليه ان تبدأ الغزة المشتركة من هناك فوراً . ولكن مطير لم تكن راغبة في التعاون لان القتال كان قد انهكها في ذلك الوقت .

وفي ٢٤ آذار غادر بن حميد جراب على بعد عدة أميال الى الشمال الغربي من ارتوائيه بقصد مهاجمة مركز عراقي في سلمان . وفي ذلك الوقت كان ابن سعود قد قبل دعوة بريطانية لبحث المسائل المهمة مع السير جيلبرت كلايتون، فأرسل سعود العرفه آل سعود والرجل الموقر المعروف الشيخ الانقاري لثنيا بن حميد عن عزمه ، ونجحا في ذلك . ولحق الرجلان بابن حميد في عجيبه واقنعاه بعد جهد جهيد ان يتوقف ويعود الى التشاور مع ابن سعود .

وتحقيقاً لهذه الغاية غادر ابن سعود الرياض في العاشر من نيسان قاصداً بريده ، وفي الرابع عشر انضم فيصل الدويش الى بن حميد في جاله على بعد ٢٥ ميلاً الى الشمال من بريده . وصحب كل من الرجلين معهما قوات كبيرة من رجال

قبيلتيهما . ودعاهما ابن سعود الى الحضور الى بريده معاً ، ولكنهما رفضا وطلبا من ابن سعود ان يخرج لمقابلتهما في الصحراء . وخشي ابن سعود بدوره ان يفعل ذلك فلم يتم الاجتماع ولكن الطرفين توصلا الى اتفاق مؤقت بواسطة سعود العرفه آل سعود وعبد العزيز بن مسعد الجلوي آل سعود حاكم حايل .

وتعهد زعماء الاخوان بموجب الاتفاق ان يمتنعوا عن القيام باعمال عدوانية ضد العراق في الوقت الحاضر ، وان يطلقوا يد ابن سعود في التفاوض مع السير جيلبرت كلايتون . وغادر ابن سعود بريده الى حايل في طريقه الى الحجاز في ٢٠ نيسان ، ورجع زعماء الاخوان كل الى مقره .

وفي ١٤ نيسان حدثت غزوة صغيرة على بعد عدة اميال إلى الجنوب الغربي من وفره في منطقة الكويت المحايدة وذلك عندما قام فريق من الغزاة من العراق بمهاجمة مخيم للعوازم . ويعتقد ان قائد الغزاة هو مدبج بن شويربة الذي ينحدر من عائلة مرموقة في فرع برزان من قبيلة بريح مطير التي انفصلت عن الاخوان ولجأت الى العراق وسببت عدة مشاكل بغزواتها المتكررة الى نجد ، الى ان نقلتها الحكومة العراقية عن الحدود في سنة ١٩٢٥ .

وفرد آخر من أفراد تلك العائلة واسمه علي بن شويربة حاول إثارة المشاكل في الشهر السابق عندما تقرب الى شيخ من شيوخ عجمان يعمل في خدمة شيخ الكويت، وأوهمه انه ينطق بلسان الملك فيصل عندما أخذ يحثه على القيام بغزوات الى داخل نجد . وكان الشيخ أحمد قد أبعده في وقت سابق لقيامه بنشاط مشابه .

محادثات جده

وصل ابن سعود الى جده في السابع من أيار ليبدأ محادثاته مع السير جيلبرت كلايتون .

وقد استمرت تلك المحادثات من التاسع الى العشرين من شهر أيار . وكانت القضية الرئيسية في المحادثات حق العراق في بناء مخافر للشرطة في الصحراء على

مسافة من خط الحدود .

ولم يحاول ابن سعود ان يقدم الاعذار لهجوم فيصل الدويش على مخفر بسوه ولتحريضه على الغزوات الاخرى ، ولكنه أكد أن بناء المخفر كان نقضاً صريحاً للمادة الثالثة من بروتوكول عقير . وقال ان هذا هو السبب الذي حفز مطير على الهجوم . واعتبر ابن سعود غارات سلاح الجو الملكي البريطاني على القبائل داخل حدود نجد خرقاً فاضحاً لنصوص معاهدة بحره وبروتوكول عقير . وأضاف الى ذلك قوله ان البعثة التي أوفدها لكبح جماح مطير ومعاقبتها قد قصفت هي الاخرى من قبل الطائرات البريطانية .

وقد عرض السير جيلبرت كلايتون وجهة النظر البريطانية بكياسة فائقة ، فشرح لابن سعود ان حكومة صاحب الجلالة كان عليها ان تحافظ على المبـدأ القائل ان كلا الحكومتين لها الحرية في اتخاذ أية اجراءات ترى انهـا مناسبة للسيطرة على الصحراء والدفاع عنها كل داخل حدوده . ولكنه لم يستطع اقناع ابن سعود في تغيير رأيه من ان المادة الثالثة من البروتوكول قد انتهكت .

وطلب ابن سعود ان تدمر مخـافر بسوه وسلمان وفي غيرهـا من مناطق الصحراء . وسواء كان يؤمن بحججه الخاصة أم لا ، فلقد كان من الصعب على ابن سعود أن يقف غير هذا الموقف ، لأن رجال القبائل التابعين له كانوا يشعرون بأن تلك المخافر هي بمثابة حد للاسفين الذي سيخترق نجد نفسها ، فكان من المستحيل عليه ان يستعيد سلطته لو انه وافق على الاعتقاد بان العراق له ما يبرر بناء تلك المواقع .

وهكذا انتهى المؤتمر دون التوصل الى اتفاق حول المسألة الرئيسية . ولكن ابن سعود عاد فأكد استمرار نواياه الحسنة تجاه بريطانيا .

وتجددت المباحثات في مطلع شهر آب – من الثـاني حتى التاسع منه – . وعاد ابن سعود فرفض الموافقة على التفسير البريطاني للمادة الثالثة . وقال إنـه أعلن نص المادة المذكورة على القبائـل التي اعتمدت عليه في وجوب إزالة تلك المواقع ، فاذا تراجع فقد كل سلطته ونفوذه بين شعبه وفي صفوف الاخوان .

وقال أيضاً انه ووجه بالاختيار بين قطع علاقاتـــه ببريطانيا ، الأمر الذي لا يستطيع ان يفعله ، وبين ابلاغ القبائل أن الاتفاقيـة التي وقعها وعرضها عليهم هي غير ذات قيمة .

وتبين من تلك المفـاوضات ، بالرغم من العقبات المستعصية ، ان موقف ابن سعود من الحكومة البريطانية هو موقف صداقة حقيقية واحترام . ويبدو انـه كان يخشى فعلاً ان يؤدي عناده الظاهر إلى انقطاع العلاقات الطيبة القائمة بـــين بلاده وبريطانيا ولكنه كما قـال لا يستطيـع ان يرى حلاً من شأنه ان يضعف سلطته على القبائل .

قرارات الملك

ولم يكن أحـــد يعرف كالملك عبدالعزيز آل سعود ان الهزات المختلفة التي تعرض لها البيت السعودي في الماضي تعود الى سببين رئيسيين :

١ – قناعة رؤساء الدولة بالبقاء كحكام بدو .

٢ – عدم ضبط التعصب الديني عند أهالي نجد .

ولذلك قرر تعديل وتصحيح السبب الأول بادخال الامور الآتية :

أ – شكل حديث للحكومة مع مجلس للدولة وعـدد من الوزراء ورؤساء الدوائر والسفراء المنتدبين لدى الدول المجاورة على غرار البلدان الاكثر تمدناً .

ب – نظام لمحطات اللاسلكي مما يسهل السيطرة والاشراف على حكام الأقاليم والبقاء على اتصال دائم معهم .

ج – جيش مدرب وسكة حديـد وطائرات وسيارات ونظام واسع للنقل الثقيل في جميع أنحاء الدولة، الامر الذي اذا اضيف له افتتاح خطوط جوية وطرق برية يمكنه من تدبر أمر البدو من سكان نجـد الذين كانوا في الماضي سبب قوة أو ضعف كل حاكم .

ولكي يعالج السبب الثاني قرر في سنة ١٩٢٨ اضعاف قوة الاخوان ، السلاح الذي صنعه بنفسه، خلافاً لنصائح أقرب اصدقائه وذلك بقصد ان يصبح سيد

الجزيرة العربية . فعندما كانت هنالك مجالات للفتح كان يستطيع الهاء فرسانه وجعلهم طوع بنانـه . فقد أخضع جبل شمر وعسير والحجاز وواحة الجوف . وعندما لم يبق هنالك مجال للفتح واجهته ضرورة اخماد نار من الصعب اخمادها .

لقـد كان من الممكن معالجة المسألة بنجاح في وقت مبكر لو لم يعقد حادث بسوء الأمور . فالاخوان بـــدأوا يتمردون على السلطة اكثر فأكثر وزادت غزواتهم الى داخل العراق والكويت . وحتى هـذا اليوم يدعي زعماء الاخوان باصرار ان ابن سعود نفسه أمر بكل تلك الاعمال العدوانية عندما كان في ذلك الوقت لا يزال رئيسهم الديني والعسكري .

ومهما كان الامر فمشاعر قبائل الاخوان في نجد كانت تغـلي . وكانت مطير تمقت سياسة ابن سعود بمنع الغزوات بين القبائل والغزوات الخارجية عبر حدود الكويت والعراق . وكانت تمقت اكثر استخدامه للاسلكي والسيارات وغيرها . وأثار حنقهم قصف الطائرات البريطانية لهم، وادعوا ان امامهم قد أصبح أداة في أيدي الانكليز ، وانه لم يسمح بالغزو إلا خوفاً من الاخوان ولكنه عندما تلقى احتجاج البريطانيـــين وقف في طريقهم وأمرهم باعادة كل الغنائم التي حصلوا عليها .

وكان هنالك خطر حقيقي من ثورة تقوم بها قبائل نجد بقيادة فيصل الدويش وسلطان بن حميد ، لأن كلا القائدين كان يطالب ابن سعود علناً باثبات ايمانـــه بالله عن طريق اعلان الجهاد ضد العراق .

وضبط ابن سعود نفسه بحذر شديد . فهو لم يكن يستطيع المجازفة والتعرض لهزيمة نكراء ناتجـة عن هجوم متسرع على مطير وعتيبه وعجمان التي انضمت أخيراً الى الحركة ضده بقيادة ضيدان الهذلان[1] . ولذلك كان يكسب الوقت .

مؤتمر مع الاخوان

ولدى عودة ابن سعود الى الرياض من جـدة في ٨ أيلول ، أرسل في الحال رسلاً الى زعماء نجد وقادة الاخوان يدعوهم لحضور مؤتمر في الرياض في نهايــة

أيلول .

وقد لبى الجميع الدعوة باستثناء فيصل الدويش وسلطان بن حميد وضيدان الهذلان . لكن الدويش أرسل أبنه الأكبر عبد العزيز ممثلا عنه ، فرفض ابن سعود مقابلته في بادىء الأمر طالباً حضور الدويش شخصياً مع بن حميد وبن هذلان .

وتأخر انعقاد المؤتمر زمناً طويلاً أملاً في حمل هؤلاء على الحضور ولكنه في النتيجة عقد في غيابهم وعاقبهم بأن عزل كل منهم من رئاسة قبيلته . وكان هذا الاجراء مجرد تظاهر لم يأخذه أحد في نجد على محمل الجد .

وتقدم الاخوان بثلاثة طلبات :

١ - إلغاء جميع الضرائب التي فرضها ابن سعود مجدداً على القبائل بالاضافة إلى الزكاة الشرعية .

٢ - إلغاء السيارات واللاسلكي والبرق ومخترعات الكفار الأخرى .

٣ - تدمير مخافر الحدود العراقية في سلمان وبسوه .

ووافق ابن سعود على الشرط الأول . اما عن الثاني فقد أجاب بأنه يعتبر تلك الاشياء منافع حقيقية للمؤمنين وبالرغم من ذلك فانه على استعداد ان يدمر جميع السيارات واجهزة التلفون واللاسلكي وغيرها ويعمل بدونها في المستقبل ، بشرط ان يدمر الاخوان جميع اسلحتهم وذخائرهم التي هي أيضاً من اختراع وصنع الكفار . وقد بحثت المسألة على صعيد علماء الدين الذين اصدروا فتوى تقول ان كلا الامرين شرعي يجوز اقتناؤه .

امـا الشرط الثالث الذي كان من الصعب او من المستحيل على ابن سعود الرضوخ له ، فقد سبب معظم المشاكل . وأقصى ما كان يمكن لابن سعود فعله هو اقناع الاخوان بالمحافظة على السلام وعدم القيام بأي عمل مضاد لمراكز الحدود العراقية لمدة شهرين آخرين ، لكي يقوم بمسعى أخير لضمان ازالة تلك المراكز بالمفاوضات السلمية . ولكنه وعدهم انه اذا فشل في محاولته سيكون معهم قلباً وقالباً في مهاجمة تلك المراكز . وليس هنالك أي شك بأنه لن ينوي

تنفيذ وعده .

وطلب ابن سعود من جهته ان يحصر الاخوان تجارتهم بالاماكن التي يعينها لهم فوافقوا على ذلـك . والقصد من هـذا الاجراء منع التجارة مع الكويت لأسباب مالية . وكان عبدالله بن جلوي أمير الاحساء قد حصر مؤخراً التجارة بجبيل والقطيف لكي يحث القبائل على المجيء الى الهفوف . ولكن ذلـك أعطى نتائج عكسية منها ان القبائل أخذت تقدم بزيارات أكثر للكويت . ولم يأت تشرين الأول حتى كانت مطير والقبائل الأخرى تـذهب إلى الكويت علناً متجاهلة الخطر . وقد توقف ذلك بعد المؤتمر وزيادة في المنع أرسلت فصيلة لهذا الغرض من قبل بن جلوي .

وبعد ان نجح ابن سعود في التغلب على كثـير من المعارضة له ، اختتم المؤتمر علماً منه بأن لديه من التأييد ما يكفي لإخضاع ومعاقبة قبائـل مطير وعتيبه وعجمان الثائرة . وتفرق عبد العزيز الدويش وزعماء الاخوان بعد ان أغـدق عليهم ابن سعود هدايا كثيرة مغرية من المال والسلاح والجمال .

وابلغ ابن سعود ، عن طريق وكيله في البحرين ، الكولونل لوك الوكيـل السياسي هناك بأنه يود مقابلته في الاحساء . وقبلت الدعوة ولكن بعد ذلـك بوقت قصير ، في ٥ كانون الأول ، أرسل ابن سعود الى الكولونل لوك كلمـة يقول فيها انـه تأخر في الرياض ولا يستطيع القـدوم الى الاحساء في الوقت الحاضر . وهكذا لم يتم الاجتماع بين الرجلين .

وفي الوقت ذاته تقريباً تلقى ابن سعود رسالة عن طريق الوكيل البريطاني في جده تتعلق بمفاوضاته مـع السير جيلبرت كلايتون . وتقول الرسالة ان الحكومة البريطانية وافقت من حيث المبدأ على اقتراحـه بأن تعرض النقاط المتنازع عليها للتحكيم . وربما كان ذلـك هو الذي حمله على تأجيل اجتماعـه بالكولونل لوك – وربما كان السبب اعراض القلق والاضطراب التي بدأت تظهر بوضوح بين القبائل القوية .

وفي اوائـل كانون الأول وصلت شائعات الى الكويت تقول ان سعود بن

لامي أحد زعمـاء مطير الذي ألمح الى عدم ولائه بمغادرته مؤتمر الرياض دون استئذان، يهيء غزوة ولكن فيصل الدويش منعه من تنفيذها ضمن مهلة الشهرين المتفق عليها . وجاء الى الكويت رجل غادر الرياض في ٩ كانون الأول وقال انه سمع بعد ذلك بعدة أيام ان الدويش بعث يبلغ ابن سعود انـه سيستأنف الغزو فور انتهاء المهلة . وفي ٣٠ كانون الأول وصلت معلومـات الى الكويت تفيد ان الاخوان يخططون لغزوة كبرى . فقـد انضم بن هذلان الى جفران الفقم في جاريه ، وبدأ الدويش يتقدم من ارتوائيه ، وابن لامي بدأ التحرك فعلا .

وأرسل الشيخ أحمد حاكم الكويت دوريات الى الحدود مع انه كان يعتقد ان لا خوف من الهجوم على قبائله — إلا ربمـا من ابن هـذلان اذا تصرف بصورة افرادية — ويعتبر ان الهجوم على المراكز العراقية هو الاحتمال الاقرب الى العقل.

وقد قام ابن لامي بغزوة صغيرة على جزء من شمر في منطقة هجرة (١) الى الغرب من منطقة العراق المحايدة ، لكنها لم تترك أية ذيول سياسية . وتفسير ذلـك يمكن معرفته من رجل موثوق غادر الرياض في ٢١ كانون الأول . قال الرجل ان هنالك أحاديث جرت منذ زمن عن غزوات مقبلة . ويقول الرجل ايضاً ان ابن سعود أرسل الى ابن حميد يبلغه انه اذا كان لا يريد ان يأتي لزيارته في الرياض ، فانه سيذهب هو لمواجهته في غطغط . ورد ابن حميد بانه لا يوافق على ذلك ولكنه اذا رغب يمكنه ملاقاته في الصحراء . وتم الاتفاق على ان يتم الاجتماع في شوقي (٢) على بعد ٩٣ ميلا الى الشمال فالغرب من الرياض . وقـد دعا ابن حميـد فيصل الدويش وابن هذلان لحضور الاجتماع .

ولم يكن من المنتظر ان يحدث شيء قبل ان يتم الاجتماع ويعرف ما اذا كان ابن سعود يستطيع حمل الاخوان على المحافظة على السلام . وكان المرجح انـه سيحاول اقناعهم بذلك الى ان ينتهي التحكيم .

الفصل الثالث عشر

ثـــورة الاخـــوان

١٩٢٩ - ١٩٣٠

كان الوضع في نجد غامضاً للغاية في أوائل كانون الثاني سنة ١٩٢٩ . فقـــد تعددت الشائعات واختلفت بحيث انه كان من الصعب معرفة الصحيح من الخطأ. ولكن مما لا شك فيه ان العلاقات بين ابن سعود وزعماء الاخوان أخذت تزداد توتراً ، وصارت مهمته في منعهم من مهاجمة المراكز العراقية في الصحراء أصعب. وبلغ به الحذر حداً انه وجد معه من الضروري اصدار الأوامر لجبيل والقطيف وغيرهما من المدن بمباشرة بناء التحصينات . ومن جهة أخرى كانت هنالك دلائل تشير الى ان الفتور قد دب بين ابن حميـــد وابن ربيعان أقوى شيخين في قبيلة عتيبه . وليس أمهر من ابن سعود في استغلال مثل هذا الوضع .

وفي ٢١ كانون الثـــاني تحرك ضيدان الهذلان زعيم قبيلة عجمان على رأس قوة مختلطة باتجاه الأراضي الكويتية عن طريق الباطن مستهدفاً غزو قبائل المنتفق المخيمة في الجزء الشمالي من الكويت. وكان يصحبه في هذه الغزوة سهود بن لامي وعدد من فروع مطير ورشايده . وضرب هؤلاء ضربتهم في اليوم التـــالي فقتلوا ستة رعاة واستولوا على عدة مئات من الاغنام والحمير وغيرهـــا . ومن المؤسف حقاً انه في صباح ذلـــك اليوم بالذات كان هنري بيلكرت المبعوث الاميركي في

البصرة متوجهاً الى الكويت بالسيارة برفقة تشارلز كراين سفير الولايات المتحدة السابق في الصين. والتقى الرجلان بعدد من الغزاة اطلقوا النار على السيارة فقتل بيلكرت .

وفي أوائل شهر شباط علم ان فيصل الدويش توجه ليقوم بمصالحة ابن حميد وابن ربيعان ، ووصلت تقارير في ١٢ شباط تفيد انه نجح في مهمته . وعلم بعد ذلك انه توجه الى جراب حيث ترك قواته بانتظار ان ينضم اليه ابن هذلان والفقم وغيرهما .

وقد جعل غموض الاحداث وارتقاب وقوع أشياء كبيرة من جهة نجد حياة سكان مناطق الكويت المتاخمة لنجد غير مأمونة؛ اذ انتشر الاشقياء واللصوص الذين أخذوا ينهبون كل ما وصلت اليه أيديهم . ونظراً لاضطراب الاحوال في البلاد فقد أقفل طريق البصرة — الكويت وصار البريد يرسل بطريق البحر .

وفي ليل ١٥ — ١٦ شباط سرق لجماعة من قبيلة ظافر كانت تخيم على مسافة قصيرة من جهرا أربعة عشر جملاً وعدد من الاغنام ، فأمر الشيخ عبدالله الجابر الصباح بتنظيم فريق لمطاردة من أربع سيارات . وفي صباح السادس عشر لحق المطاردون بالغزاة وأسروهم وأعادوا البهائم المسروقة .

واستفاقت الكويت في ٣ آذار على صوت اطلاق النار على بعد عدة أميال من أسوار المدينة من جهة طريق جهرا . واتضح ان جماعة من بني مالك يقيمون في أربعين خيمة هناك قد هوجمت عند الفجر من قبل جماعة من مطير يبلغ عددها ٦٠٠ رجل بقيادة تراحيب بن شقير الفقم . وبنو مالك هؤلاء قبيلة من الرعاة العراقيين ينتقلون في الصيف على خط يمتد الى جوار البصرة والزبير ، وكانوا حينئذ قد خيموا قرب جالب[1] الشيوخ على بعد سبعة أميال من الكويت . وقد قاوم الرعاة مقاومة مستميتة وحاولوا التراجع الى المدينة فقتل منهم ٣٧ رجلاً وجرح خمسة آخرون جروحاً بالغة . وباستثناء الف رأس غنم وعدد من الحمير ، فقد بنو مالك كل بهائمهم أي حوالي ستة آلاف رأس غنم وستماية وخمسين حماراً . وقد حرمت ثلاثون عائلة من كل ممتلكاتها .

١) الشيوخ

وكانت خسائر الغزاة في الأرواح مساوية لخسائر بني مالك ان لم تكن أكثر. وقد قتل عدد آخر منهم عندما طاردتهم الطائرات البريطانية .

وقد عامل أهالي الكويت رجال القبيلة المنكوبة بالحسنى فأمدوهم بالطعام وجمعوا لهم الأموال . واعيد ١٥٠ من الذين ظلوا على قيد الحياة الى خوير بالزوارق في ١٣ آذار وأرسل الباقون بطريق البر في اليوم التالي ترافقهم سيارات البوليس .

وفي ٩ آذار هاجم حوالي ٤٠ خيالاً دورية من سيارات البوليس العراقية كانت تقترب من حدود الكويت – نجد في رقيع. وقد هزمت سيارات البوليس المهاجمين وكبدتهم خسائر جسيمة . وتراجعت السيارات العراقية الى الشمال فتبعها خيالة الاعداء .

وفي ١٤ آذار سرق فريق من الخيالة التابعين لقبيلة الزياد في العراق قطيعين من الغنم يبلغ عدد الواحد منها ٥٠٠ رأس يملكها رجال القبائل الكويتية المخيمين في ممر مطلع بالقرب من جهرا . وقد استعيد القطيعان بعد وساطة الكابتن جون غلوب(*) ضابط التفتيش البريطاني في صحراء العراق الجنوبية ، وبعد معاقبة زعماء العصابة .

والأمثلة التي قدمناها دليل على حالة انعدام الأمن والقانون فيما وراء الكويت في تلك الفترة . ولم نذكر هنا سوى الحوادث المهمة .

معركة سبيله الغامضة

وبدا واضحاً في ذلك الوقت ان ابن سعود انتقل الى قسيم عازماً على الدخول في جولة حاسمة مع ابن حميد والدويش . فقد صدرت الأوامر لابن حميد بإعادة عدد كبير من الجمال كان قد استولى عليها في عقيل . ورفض ابن حميد ذلك صراحة مع ان الدويش لم يكن يؤيده بحرارة لأنه لم يوافق على فعلته بالاستيلاء

---

* – المعروف بغلوب باشا في الاردن

على الجمال . ولما ألح الملك طلب ابن حميد الذى صار الآن يتمتع بتأييد الدويش المطلق ، ان تحل القضية حسب الشريعة المقدسة .

وكانت خطتهما وضع ابن سعود في مـأزق لكي يتسنى لهما إحراجه حسب الحجة الآتية :

يا عبد العزيز ، أنت كإمام كنت تدعو الى الجهاد ضد الكفار والمشركين . ولطالما دعوت وكررت الدعوة الى أن العراق كدولة شيعية يجب ان يدمر،وأن كل ما يؤخذ من أهله حلال . ولطالما رددت قول القرآن الكريم لإثبات ان كل الأعمال التي يقوم بها المؤمنون ضد الكفار والمشركين يجب أن يكافأوا عليهـا . والآن، وبأمر من الانكليز الكفار أنفسهم ، تدعونا نحن فرسانك المختارين سيف الاسلام ، الى إعادة ما أخذناه لأنك تعتبر ما فعلناه خطأ . فاما أن تكون انت دجال منافق تحب ذاتك وتبحث عن منفعتك ، واما أن يكون القرآن كتاباً غير صحيح . فليحكم علماء نجد بيننا .

وقرر الملك ان يقابلهم في عقر دارهم فدعا الى مؤتمر يعقد خـــارج مدينة زلفي في شمال نجد الوسطى . ومما لا شك فيه ان الرعب دب في قلبه بحيث انه لم يفكر قط في عرض القضية على أية هيئة من علماء الدين الوهابيين . وبدل ان يقرر القطيعة مع البريطانيين ، قرر ضرب الاخوان بسرعة مرة واحـدة والى الأبد . وربما كان في اعتقاده أن البريطانيين سيساعدونه لبلوغ هذا الارب .

وأقام ابن سعود معسكراً لجيشه في زلفي . ثم جـاء فيصل الدويش ومعه فرقة صغيرة وخيم في سهل سبلة[1] المكشوف قرب زلفي حيث انضم إليه بعـــد ثلاثة أيام ابن حميد الذي احضر معه قوة كبيرة وخيم بالقرب من الدويش .

وبموجب ترتيب سابق ظـــل زعيم الاخوان الثالث ضيدان الهذلان يحرس ميسرة الاخوان من أي هجوم طارىء يشنه فهد بن جلوي ابن أمير الاحساء الذي يملك قوة كبيرة في شمال تلك المقاطعة . وقد خيم بن هذلان مع بن شقير وبن لامي قرب جاريه في الطرف الجنوبي من منخفض الشق على بعد ١٣٠ ميلاً الى الجنوب من مدينة الكويت. وقد استخدم ابن سعود كل مهارته الدبلوماسية

في منع ضيدان الهذلان من ان يرمي بثقله مع الزعيمين الثائرين . وفي الحقيقة أن الهذلان رفض الاشتراك في المؤتمر لأنه اعتبره تحدياً لسلطة الملك . وظلت قبيلة العوازم القوية في الاحساء موالية لابن سعود .

أما فيصل الدويش فقد تناول طعـام الغداء مرتين على الأقل على مائدة ابن سعود قبل وصول بن حميد الذي رفض أن يفعل ذلك . وفي نيسان وصلت الى الكويت تقارير تفيد أنه بعد اجتماع أخير مع الدويش وبعد محاولة غير ناجحـة لحمل بن حميـــد على القدوم الى زلفي ، تحرك جيش ابن سعود فجر ٢٩ آذار وهاجم قائدي الاخوان في سبيله بدون سابق إنذار وأنزل بهما هزيمة نكراء .

فالدويش الذي كان يعتقد أن مفاوضات أخرى ستجري ، أخذ مع فرقته الصغيرة على حين غرة وهم يهيئون طعـــام الافطار ، فأصيب بجراح خطرة في معدته دون قتال . أما بن حميد الذي كان أكثر تهيؤاً فقد تمكن من الفرار بعـد ان شق طريقه الى التراجع بمهارة فائقة في القتال .

وقـد أظهرت وقائع هذه المعركة الغامضة التي فقد فيها الثوار حوالي ٢٥٠ رجلاً ، ابن سعود على غير ما كان يبدو به . فانه من المؤكد ان ابن سعود قبل ان يشن هذا الهجوم المفاجىء على الدويش وابن حميد ، أعطى تأكيدات جازمة بأنه سيجتمع بالدويش مرة ثانية لبحث الأمور بموجب الشريعة .

ونقل فيصل الدويش الجريح الى قريته ارتاوية بأمر من ابن سعود ، وعاد ابن حميد الى غطغط حيث تبعه عبدالله بن عبـــد الرحمن شقيق الملك فاستسلم بدون قتال . ونقل ابن حميد سجيناً الى الرياض ودمرت غطغط .

وبعد ان اطمأن ابن سعود الى أن الثورة قـد سحقت وان الدويش يحتضر متأثراً بجراحه ، ذهب لأداء فريضة الحج في مكة . ويقال إنه قبل ذهابه بعث برسالة الى ضيدان الهذلان يشكره امـــدم انضمامه الى الدويش وابن حميد في سبيلة ، وأرسل له طيها كتاب أمان لكي يتسنى له التنقل أينما شاء .

قتل ضيدان الهذلان

أخمد ابن سعود ثورة الشيوخ وشتت اتباعهم بعمل وصفه أصدقاؤه بأنـــه

عقاب حق ووصفه أعداؤه بأنه الغدر بعينه. ويمكن إرجاع ثورة الدويش التالية التي كلفت ابن سعود كثيراً الى هذه الحيلة غير الملكية ، لأن العربي لا ينسى .

إن تلك الانتفاضة كان يمكن أن لا تكون خطـيرة لو لم تستفز قبيلة عجمان القوية للوقوف ضد الملك بسبب تصرفات فهد بن جلوي الحمقـــاء الذي اشتهر بالغدر والقسوة .

ونتيجة لدسائس الأمير بن جلوي والد فهد ، فقد ابن هذلان مؤقتاً كثيراً من نفوذه في عجمان ولكنه استعاد زعامته على القبيلة كلها بعد موقعة سبيله .

لقد كانت لابن جلوي قوة مخيمة في عواينه على بعـــد سبعة عشر ميلاً من الصرار حيث كان ابن هذلان ورجاله. ودعا فهد بن جلوي قائد القوة المذكورة ابن هذلان ليأتي اليه لبحث رسالة تلقاها من ابن سعود . ولم ينس فهد ان يرسل له كتاب أمان بخط يده . وعقـــد ضيدان مجلساً لقبيلته وعرض عليهم الرسالة فنصحوه بعدم الذهاب الى عواينه لأن رائحة الغدر كما قالوا تفح من الرسالة .

وذهب ضيدان ومعه اثنا عشر رجلاً فاستقبله فهد بحفاوة بالغة ولكنه عندما نهض ليغادر المكان القي القبض عليه وكبل بالأصفاد . ولكن احد مرافقيه تمكن من الفرار لينذر القبيلة فتحركت قوة من عجمان قوامها الف وخمسماية رجل نحو معسكر فهد بقيادة حزام الهذلان في ساعات النهار الاولى . وكان ذلك في اليوم الأول من أيار .

ولما شعر فهد انه سيخسر المعركة أمر عبده ابن منصور وهو جلاد زنجي ان يقطع رقبة ضيدان ، وقتل هو نفسه على يـد شاب من عجمان يدعى عبدالله بن العيد المحيال الذي أمسك بعنان فرسه عندمـــا كان يحاول الهرب واطلق عليه النار في رأسه .

كانت الخسائر في قوة ابن جلوي جسيمة فجميع رجاله كانوا من أهل مدينة الهفوف الذين أعمل السيف في رقابهم جميعاً . اما بعض البدو الذين اذهلهم مـا صاب ضيدان فقـــد تركوا وشأنهم . واعترف بمحمد الهذلان ابن عم ضيدان المعروف بابي الكلاب زعيماً على عجمان .

وانتشرت انبـــاء الاغتيال المخجل كالنار وحركت المشاعر في شمال شرق الجزيرة العربية وانقلب الكثيرون على ابن سعود مع ان المسؤولية لا تقع عليـه بل على عبدالله بن جلوي الذي كان ابنه فهد ينفذ اوامره .

وفي الثاني من أيار وصل فرحان بن مشهور من عائلة الشعلان الحاكمة في فرع الرولى من قبيلة عنيزه وأحد زعماء الاخوان البارزين ومؤيد سابق لابن سعود ، الى آبار صبيحية في الجهة الجنوبية للكويت ومعه عدد كبير من الجمال اغتصبهما من ابن مسعد أمير حايـــل ومن شمر والداهمشاه في غزوات قريبة العهد . وفي الرابع من أيار تحرك شمالاً الى جهرا حيث قابل الشيخ أحمد . وصرح بأنه تلقى كتاب أمان من ابن سعود وانه أرسل اليه رسلاً ليستعلم عن الشروط التي سيسمح له بالدخول بموجبها .

وبموجب تعليمات الحكومة البريطانية أمر الشيخ أحمد فرحان بن مشهور ان يغادر جهرا في الثاني عشر من أيار بعد ان تزود ورجاله بمـــؤن تكفيهم حتى الوصول الى الرياض . وعبر الحدود من قرين صباح الرابع عشر من أيار ولكنه بدل ان يتوجه الى عاصمة ابن سعود كما كان مفترضاً انضم الى قبيلة عجمان في اواسط الاحساء . وهنالك قليل من الشك بأن يكون قد غير رأيه نتيجة لحادثة عوازمه .

عجمان ترفع مستوى الثورة

كان فيصل الدويش الذي تركه ابن سعود في ارتوائية ظناً منه أنه سيموت بين لحظة وأخرى ، يتماثل الى الشفاء ويتظاهر أمام الملأ بأن لا أمل من شفائـه وان وفاته هي مسألة وقت . اما ابن حميد فكان لا يزال اسيراً في الرياض .

وفور مقتل زعيمها رفعت عجمان القوية مستوى الثورة يدعمها فرحان ابن مشهور وغيره من زعماء الاخوان . ولم يمض زمن طويل حتى كان شمال نجد كله من جبل شمر الى الخليج الفارسي في يدهم .

وفي اوائل أيار تحركت عجمان بقيادة نايف الهذلان وخيمت في وفره في

منطقة الكويت المحايدة ومعها فرحان بن مشهور . وتلقى الشيخ أحمد تعليمات من الحكومة البريطانية ان لا يسمح لعجمان وغـــيرهم من الثائرين بالحصول على المؤن من الكويت ، أو ان يأتي أحدهم اليها . وابلغ ابن سعود بذلك .

في تلك الفترة الحرجة وبعد مئة من الخدمـــة كسكرتير للمقيم السياسي في الخليج الفارسي ، عينت وكيلا سياسياً في الكويت ، فتسلمت مهـــام عملي في الثاني والعشرين من أيار . وفي الثاني من حزيران أرسل ابن سعود احتجاجـــاً شديد اللهجة اتهم فيه الكويت بتزويد قوات عجمان وفرحان بن مشهور بالمؤن والذخائر خلافاً لتعليمات الحكومة البريطانية . وبعد تحقيقات دقيقة قمت بهـــا بنفسي تبين لي ان اتهامات ابن سعود لا أساس لها بالرغم من ان بعض التهريبات كانت تتم سراً عن طريق الاقرباء والمؤيدين المقيمين في الكويت . وقـد اثبت بالدليل القاطع ان الشيخ أحمد ينفذ تعليمات حكومة صاحب الجلالة بهـذا الصدد بكل امانة .

وفي ٤ حزيران تمكن غزاة من قبيلة ظافر من الاستيلاء على مئة جمل يملكها رعاة من الكويت بالقرب من جهرا . وقـــد القي القبض على أحد الغزاة وأدلى باسماء شركائه فتبين انهم جميعهم من الرعايا العراقيين. ونتيجة للاتصالات مـــع الحكومة العراقية اعيدت الجمال وعوقب الغزاة .

وفي ١٠ حزيران احتج الشيخ أحمد رسمياً على دخول سيارات الشرطة العراقية اراضيه دون ابلاغه . وكان العراقيون يفعلون ذلـــك منـذ ان اندلعت ثورة الاخوان ولكن الامر اعتبر غير مرغوب فيه من عدة نواحي . وتم الاتفاق ان الشرطة العراقية لن تعبر الحدود قبل ان تحصل عـن طريقي على موافقة الشيخ أحمد .

وفي ١٤ حزيران غادرت قوة كبيرة من ثوار عجمان معسكرهـــا في وفره الى جهة مجهولة في الجنوب . وبعد خمسة ايام كشف فيصل الدويش القناع عـن وجهه مستغلا غياب ابن سعود في مكة ، وانضم الى عجمان . فبعد ان جمـع حوالي خمـسة آلاف رجل ومئة الف جمل من مطير وعجمان وابن حميـد في قبيلة

عتيبه ، وصل الى جاريه عليا على بعد ثمانين ميلا من حدود الكويت في اليوم ذاته أي في التاسع عشر من حزيران . اما انتقاله الى هذه المنطقة الصالحة للمراعي الى جنوب الكويت يفسر حاجته الى الابقاء على قوة كبيرة .

وقد رفعت عودة الفارس الجريح معنويات الثوار وزادت في قوتهم . ولما علم ابن سعود بذلك جمع السيارات الموجودة في مكة وأسرع بالعودة الى الرياض . وجمع قوة قوامها ثمانية آلاف رجل معظمهم من منطقة قصيم . ولم يهاجم ابن سعود القبائل الثائرة فوراً اعتقاداً منه ان كل يوم يمر سيخلق صعوبات في التموين لفيصل الدويش ورفاقه من الصعب التغلب عليها . وحرص ابن سعود على ان يحصل على تأكيدات من الحكومة البريطانية للتعاون في منع فرار الثوار الى العراق والكويت في حالة هجومه عليهم . وكان ذلك يحتاج الى وقت .

وكان أول عمل قام به فيصل الدويش لدى وصوله الى شمال الاحساء هو دعوة الشيخ أحمد للانضمام الى الثوار واعداً باعادة الاراضي التي اقتطعت من الكويت في عهد الشيخ سالم . وبعث له برسالة أخرى يطلب فيها السماح له باقامة مخيم في صبيحية وبالقدوم الى الكويت لشرح خططه والحصول على مؤن. وابلغت الحكومة البريطانية الشيخ أحمد فوراً ان يضع مطير في نفس منزلة عجمان وان يمنع الدويش أو أياً من اتباعه من عبور الحدود . واذا ما حاولوا ذلك فانهم سيتعرضون للقصف .

اما القوات المشتركة لعجمان وابن مشهور التي اتجهت جنوباً من وفره فقد هاجمت العوازم في رضا بالقرب من جبيل في ٢٣ حزيران . وكان العوازم على استعداد لأن أمير الاحساء قد امدهم بالجنود ، فصدوا الثوار وكبدوهم خسائر فادحة بلغت ٥٤ قتيلا بينما لم يفقدوا هم سوى ١٥ قتيلاً بينهم عدد من النساء . ولم يقتل في الاشتباك أي من زعماء الطرفين لكن عجمان فقدت بعض رايات الحرب . اما تفاصيل المعركة المبالغ فيها والتي اذيعت في كل مكان في الاحساء والحجاز على انها نصر مبين انما تدل على سير الامور في الجزيرة العربية . ولما تلقى فيصل الدويش انباء هزيمة عجمان انتقل الى حمض في الاحساء ليوبخ ابن

مشهور وزعماء عجمان على سوء استعدادهم وطريقتهم ويبلغهم انهم يستحقون ذلك .

وحاول الدويش مرة أخرى في ٢٨ حزيران ان يحمل الشيخ أحمد على الانضمام الى الثوار ، فقد بعث له برسائل مع عدد من كبار زعماء الاخوان بمن فيهم ابنه الأكبر عبدالعزيز وذلك لاقناع الشيخ أحمد باتخاذ نهج قوي . وقد صيغت تلك الرسائل بلغة فصيحة وبيـــان بليغ تركت أثراً عميقاً في نفس حاكم الكويت وشعبه . لقد حفز الشيخ أحمد لكي يلعب دور رجل الموقف ويتصرف كما كان مبارك يمكن ان يتصرف بدون شك . وقال الدويش ان كل ما يطلبه الثوار هو المؤن والذخائر ، واذا ما اشتركت الكويت معهم فهو يتعهد بالباقي .

ومن حسن حظ جميع المعنيين بالأمر بقي الشيخ أحمد أميناً لوعوده التي قطعها لي بصفتي وكيلاً سياسياً لحكومة صاحب الجلالة بالرغم من الاغراء للقيام بهجوم ضد العائلة السعودية واستعادة المناطق الجنوبية وخاصة القبائل التي عليها كالعوازم وعجمان ومطير ، كان شديداً لا يقاوم . فلو انه انضم الى الثوار واتخذت الحكومة البريطانية موقفاً محايداً ، لكان من المحتمل جداً خلع ابن سعود لأن القوات المقاتلة في نجد كانت الى جانب الثائرين .

ونقلت قطاعات عجمان ومطير وابن مشهور عائلاتها وجمالها الى الجنوب من وفره في ١٥ تموز بسبب الجهود القوية التي بذلها الشيخ أحمد الذي كان همه الوحيد لمدة أسابيع ان يبعد الثوار عن حدوده ويبعد معهم الاغراء الذي تناديه اليه صبيحيه والمراعي الجميلة بجوارها .

ووصلت انباء في ١٨ تموز تفيد ان فرقاً من عجمان توغلت حتى ابو جيفان بالقرب من الرياض وقطعت طريق الرياض – الهفوف .

وفي تلك الفترة اخذ اللاجئون النجديون البارزون المقيمون في العراق – وكان بعضهم يتلقى مرتبات من الحكومة العراقية – يتدفقون الى الكويت في طريقهم للانضمام الى الثوار . وتعرض الشيخ أحمـــد وتعرضت أنا معه لقضية احراج في كيفية التصرف مع هؤلاء السادة . والقصة التي كان يرويها كل واحد منهم (وربما

كانت قصة مختلفة) هي ان الملك فيصل سمح لهـم بالانضمام الى الثوار ليجربوا حظهم . ولكن لابن سعود عملاءه في الكويت . وكان هؤلاء يبلغونـه عن كل دفعة جديدة تصل وعن تحركاتها ، وتعقدت القضية بالنسبة لكل من يهمه الأمر في الكويت . وأخيراً ، وبعد استطلاع رأي المقيم السياسي في الخليج الفارسي ، حصلنا على اذن باعتقال وارجاع كل شخص يصل من العراق ويشك في انه يرغب بالانضمام الى جيش الثوار .

وكان من بين أولئك الاشخاص البارزين علي بن شويربة احد زعماء بريـح مطير ، الذي زادت في مكانته زياراته السرية المتعددة بـين بغداد ومعسكر الثوار . وهنالك قليل من الشك في انه كان يحمل معه مساعدات مادية ومعنوية ، وانه كان يشجع الثوار على الاستمرار في المقاومة . وبين اولئك الاشخاص ايضاً عبيد بن حميد من قبيلة عتيبة الذي كان يقوم بدور الرسول بـين فيصل الدويش وبين نايف الهندي بن حميد زعيم عتيبة السابق الذي فر من نجد قبل ثلاثة أعوام وأقام في بغداد .

كان فيصل الدويش في ذلك الوقت يعسكر مع قوات الثـوار الرئيسية في الطوال الجنوبي وهو مكان مستطيـل في الوسط تشكله آبار الصفا ووبره وقرعه وحبه . ومن ذلك المكان كان بامكانه ان يضرب نجد والاحساء متى شاء . وفي ٣ آب شن غزوة صاعقة على قاية بالقرب من ارتوائيه ودمر قوة من رجال سبيع وسهول تدعمهم قوة صغيرة لابن سعود .

وبالرغم من أن الدويش لم يستول على الجـال في هذه الغزوة ، لكن الانباء انتشرت فاثارت الرعب في كل مكان مما حمل قوات ابن سعود المتقـدمة على الانسحاب الى الرياض من معسكرها في حفر الأتز .

ان ما يميز هذه الغزوة سلوك الثوار تجاه الأسرى والمساجين . فقد عاملوهم اطيب معاملة ورحبوا بهم خلافاً لأساليبهم السابقة .

وفي ١٠ آب تلقى الشيخ أحمد وتلقيت معه رسـائـل مطولة من ابن سعود يشكرنا فيها على جهودنا في قطع المؤن عن الثوار .

وفي اليوم ذاته ضرب محمد بن خالد الهذلان وهو قائد شاب في عجمان ، قوة نجديـة بالقرب من نطا (١) في اواسط الاحساء . وفي ١٥ آب وصلت انباء الى الكويت تفيد ان قافـلة تحمل امتعة الأمير سعود الابن الأكبر للملك ، كانت في طريقها من الرياض الى الهفوف ، تعرضت في الخامس من شهر آب لهجوم شنته عجمان بقيادة محمد الهذلان مما ادى الى تدمير ١٤ سيارة شاحنة .

وبقصد ايهام القبائل الأخرى بقوة الثوار واقناع المتشككين بانهم يفعلون حسناً اذا انضموا الى المعسكر المناوىء لابن سعود ، أرسل فيصل الدويش ابنه عبد العزيز وهـو شاب في الخامسة والعشرين من عمره على رأس غزوة طويلة الأجل الى بلاد حرب وشمر وعنيزه الجنوبية . وسار عبد العزيز في ١٥ آب على رأس قوة مختارة قوامها ٦٥٠ شاباً من الهجانة ينتمون الى مطير وعجمان ومعهم فيصل الشبلان الذي يأتي في القيادة بعد الدويش مباشرة ، وغـيره من رجال الخبرة ليكونوا بمثابة مستشارين لعبد العزيز الشاب النشيط المتسرع .

وقد استولت هذه الغزوة على قطعان كبيرة من الجمال تعود لشمر ولعمارات، واستولت أيضاً على قافلة سعودية تحمل زكاة من حايل قدرها عشرة آلاف ريال. وعاد الغزاة بعد ذلك من حيث اتوا ليحققوا غرضهم الأول وهـو الاستيلاء على آبار ام الرضمة جنوب غرب منطقة العراق المحايدة حيث يستطيعون سقاية جمالهم . وقبل ان نصف هذه الاحداث يجب ان نذكر اموراً أخرى .

وشهد شهر آب انتصارات للثوار في كل مـكان بينما كان ابن سعود في موقف المدافع وكانت سياسته في تلك الفترة الاحتفاظ بالمدن الى ان يأتي فصل البرد . تلك كانت استراتيجية صحيحة ولكنها تعني انه سيخسر أكثر فأكثر من اتباعه البدو . وكان سيد الموقف في ذلك الوقت فرع الروقة من قبيلة عتيبه الكبـيرة بقيـادة الشيخ ابن ربيعان الذي كان الملك والثوار يتنافسـان على خطب وده وكسب رضاه . فالروقـة والحميد يعتبران اقوى اتحاد للقبائل في قلب الجزيرة العربية . امـا الحميد فقد انحازوا الى جانب الثوار وأصبح واضحاً ان الغلبة بالنتيجة ستكون للجانب الذي تنضم اليه الروقة .

وفي ٢٠ آب وصل الى الكويت الرباعي العميل السري المؤتمن لابن سعود . وبعد يومين جاء الى الكويت ايضاً ابن مشهور يرافقه محمد العثين . ولم يسمح لهما بالبقاء في المدينة فخرجت انا لمقابلتهم على بعد أربعة أميال من المدينة . وتوسل ابن مشهور ان يسمح للثوار في نصب خيامهم في صبيحيه فرفض طلبه وأمر بمغادرة الكويت فوراً . وطلب ان يسمح له بزيارة بغداد ورفض هذا الطلب ايضاً .

وفي تلك المقابلة أكد محمد العثين القصير القامة العريض المنكبين الدائم الابتسامة صاحب الانف المستقيم واللحية السوداء المعقوفة ، التقارير القائلة انه هو الذي هاجم قافلة الأمير سعود . وابلغني ان جميع الشاحنات قد احرقت وان أحداً من ركابها لم ينج من الموت . ويبدو ان اعادة ذكر وقائع هذه الحادثة كان تسلية كبرى له .

وفي اليوم ذاته ، ٢٢ آب ، انتقل فيصل الدويش الى حفر الباطن واستطاع ان يستميل الى جانبه فرع البريح الكبير من قبيلة مطير ، الذين حملوا خيامهم البالغ عددها ثمانمائة خيمة وساروا نحو الاحساء وانضموا الى قوات الثوار . وبعد عدة اسابيع دخل قسم من البريح الاراضي الكويتية وخيموا في جهرا . وقد تسببت انا في طردهم من هناك .

فيصل الدويش يعطيني كلمته

ان اجتماعي الأول بفيصل الدويش الذي يعتبر أكبر مخطط عسكري بدوي بعد ابن سعود شهدته الجزيرة العربية في هذا القرن ، ذكرت وقائعه في مكان آخر . ولكنني شعرت بضرورة اعادته هنا لأنه يشكل جزءاً مهماً من الصراع من أجل السلطة بين خصمين لدودين كانا صديقين حميمين .

دفعت ضرورة ايجاد مراع جديدة للاعداد الضخمة من الجمال والاغنام فيصل الدويش واتباعه الى غزو الاراضي الكويتية من جهة الجنوب بصورة مفاجئة في الثلاثين من شهر آب ، وأقاموا لأنفسهم معسكراً ضخماً حول صبيحيه والآبار

الملاصقة لها . ولقد قدرت قوتهم بحوالي خمسة ا لاف مقاتل والفي خيمة ومئـة الف جمل . وكان ذلك منظراً رائعاً .

وبعد ان أبلغت الحادث طلب مني ان احذر فيصل الدويش من انـه اذا لم ينسحب عبر الحدود خلال يومين فـان طائرات سلاح الجو البريطاني المقيمة في شعيبه بالبصرة ، ستقصفه مع رجاله وممتلكاته .

وقد استقبل الرسول الأول الذي أرسلته الى صبيحيه باستهزاء . ولـكي اتجنب وقوع كارثة مقيتة لا سيما وان هنالك عـدة آلاف من النساء والاطفال مختلطون بالرجال المقاتلين، دعوت فيصل الدويش ليقابلني في ملح في اليوم التالي على بعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من مدينة الكويت وثلاثة اميال الى الجنوب من المستشفى القائم الآن والتابع لشركة نفط الكويت مـع مدرسة التدريب في مقوي . وتوجهت الى ملح لوحدي اقود سيارتي بنفسي بالرغم من نصيحة الشيخ أحمد الذي كان يخشى علي من الغدر . ووصلت الى ملح مساء الواحد والثلاثين من شهر آب . وفي اللحظة الأخيرة تبعني الشيخ أحمد ومعـه أربعة عبيد مسلحين وداً منه في مشاركتي نفس المصير اذا ما لحقني أي اذى. وسأذكر له ذلك بكل امتنان ما دمت حياً .

وقابلنا فيصل الدويش في الموعـد المحدد على رأس تلة تشرف على الآبار الواقعة الى الشرق من المكان الذي ينزلون فيه ومعه ابرز زعماء الاخوان وعددهم أربعون من الرجال المتعصبين الاشداء . ذلـك الرجل الذي فعل أكثر من أي عربي آخر ليساعد ابن سعود الارتقاء الى اعلى مراتب السلطة والشهرة ، كان قصير القامة عريض المنكبين له رأس وأنف كبيران . وكان يسير بعزم وثقـة وكأنه محدودب الظهر قليلاً، عبوساً صامتاً بطبيعته ولكنه لم يكن يرى الاشياء بوضوح كابن سعود من وجة نظر السياسي .

وقلت له مـا جئت لأقوله واضفت انني استطعت الحصول على موافقـة حكومة صاحب الجلالة في ارجاء عملية القصف لمدة يومـين ضناً مني بأرواح النساء والاطفال ، ورجوت فيصل من أجلهم ان يعدني بالتراجع عـبر الحدود

ضمن المهلة المحددة . وتردد ان يفعل ذلك لمدة ساعة كاملة قال خلالها انـه ليس على خصام مع البريطانيين ، وانه وقبيلته كانوا في السابق من رعايا شيخ الكويت ويريدون العودة الى ولائهم القديم، وانهم يعانون نقصاً رهيباً في الاغذية والمؤن. وكان جيشه جائعاً ولذلك كان يأمل بالسماح له ان يشتري الطعام من الكويت .

ومع انني تأثرت كثيراً بكلامه تصرفت بقساوة قلب وأقنعته اخيراً بأن يعطيني كلمته ففعل بينما كانت كتلة الشمس الحمراء تنحدر وراء تــلال مناقيش فقال فيصل انه يريد الصلاة . فدعا الى الصلاة بنفسه وقاد رجاله ومرافقيه الى صلاة المغرب واضعين بنادقهم امامهم على طريقة الاخوان . وبعد ان انتهت تلك الصلاة الهادئة استدار الزعيم الصحراوي الكبير نحو مرافقيه وهو لا يزال على ركبتيه وأدى السلام الذي يتلو الصلاة . وقبل ان ينهض واجهني وقال : اعدك بشرفي انني سأفعل ما طلبته مني . اذهب بسلام .

وحافظ فيصل على كلمته .

وفي ٤ أيلول وقع حادث غريب . وسأذكره هنـا لأظهر مدى اضطراب حبل الأمن والقانون في كل مكان . هاجم فريق من بني حسين والعرايف من قبيلة ظافر في العراق بقيـادة شويلح بن شريف مكاناً بالقرب من جهرا واستولوا على بعض الاغنام . وعلى الفور اطلق فداثية الشيخ المقيمين في جهرا النذير وطاردوا الغزاة فلحقوا بهم في القضي واستعادوا منهم الاسلاب بعد ان قتلوا منهم رجلاً واحداً وأسروا ثلاثة آخرين. وفقدت الدورية المطاردة ستة خيول وجملاً واحداً واصيب احدهم بجراح . وبموجب افادة الاسرى الثلاثة تمكنت السلطات العراقية فيما بعد من القاء القبض على بقية الغزاة . وقـد استحق فداثية الشيخ والشرطة العراقية الشكر والتهنئة على توليهم هذا الحادث بنجاح .

قتال حتى الموت من أجل الماء

ونعود الآن الى عبدالعزيز الدويش وقوته الضاربة في طريق عودتها . فلما اقتربوا من لينا شمالي حايل تناهى اليهم ان ابن مصعد الجاوي أمير حايل يحاول

قطع الطريق عليهم بالاستيلاء على آبار الماء،وانه قد تحرك فعلاً عبر خط تراجعهم بقصد قطع الماء ، الذي هم بأمس الحـــاجة اليه ، عنهم . وكانت تلـك الانباء خطيرة للغاية،لأن حرارة آب كانت شديدة وجمالهم لم تذق طعم الماء منذ أربعة أيام ، والمسيرة كانت طويلة بحيث ان الجمال التي استولوا عليها كانت تسقط ميتة من الإعياء في الطريق .

واقترح فيصل الشبلان تغييراً فورياً في الاتجاه نحو الشمال الشرقي وكان عبد العزيز يحبذ إكمال السير نحو ام الرضمه . وأتى اربعة من الكشافـــة بانباء مفادها ان آبار ام الرضمه وقعت في يـــد قوة أكبر من قوتهم بثلاث مرات على الأقل . وأعلن فيصل الشبلان في الحال انه سيتوجه الى الشمال الشرقي ودعا كل رجل ذي عقل ان يتبعه . اما عزيّز* العنيد فقـــد رفض العمل بهذه النصيحة فافترق فيصل الشبلان عنه ومعه حوالي مئة وخمسين رجلاً وعدة مئات من الجمال .

واندفع عزيّز الى الامام بسرعة ومعـه حوالي خمسماية رجل فقط بالرغم من ان جماله كانت تموت من المشقة والاعياء ، فوصل الى جوار آبار ام الرضمه عند منتصف النهار . وتبين له ان انباء الكشافة كانت صحيحة جداً لأن الآبار كانت محاطة بحوالي الف وخمسماية رجل نشيط من شمر وحرب والبـدو الحضر حفروا خنادق على مدار المنطقة باكملها . لقد كانت حالة يائسة فالرجال والجمال بحاجة ماسة الى الماء . وقد ابلغني احد الناجين فيما بعد بان قرب الماء التي يحملها الرجال للطوارىء كانت قد فرغت كلها منذ زمن ، وان احداً من رجال عزيّز لم يذق طعم المـــاء لمدة ثماني ساعات . وكانت حرارة الشمس توازي تقريباً ١٧٠ درجة فهرنهايت .

وأمر عزيّز رجاله بالتوقف على مرأى من العدو الذي كان يعرف قوته فأخذ يراقب باستهجان خطوته التالية . وبعد ذلـــك دعا عزيّز رجاله الذين انهكهم التعب الى الصلاة فركعوا جميعهم ، ولم يثنهم الجوع والعطش والحرمـان واحتمال وقوع معركة رهيبة ، عن عزمهم لحظة واحدة .

وصرخ قائدهم بأعلى صوته قائلاً :

---

* – اسم للتحبب يطلق على عبدالعزيز الدريش .

— ألسنا نحن اخوة اختارنا الله ؟ يجب ان نتقدم ونحصل على المـــاء . ان الكليّ القدرة سيساعد ابناءه .

وكان آخر أمر اصدره الى عبده ان يقود فرسه وينقذها اذا امكن ذلك ، وبدأ هجوم رهيب قام به خمسماية رجل اصيبوا بجنون العطش. وتلقى المدافعون عن المكان الهجوم بشجاعة . وقد ساعد السراب المهاجمين لأنه منع المدافعين من التسديد الجيد في الرمايـــة ، فنشبت معركة ضارية رهيبة . وكادت شجاعـة الاخوان الفائقة لمدة من الزمن ان تربح المعركة ولكن الاعداد كانت متفاوتـة ، وكان ابن مسعد يأتي بفرق جديدة واحدة بعد الاخرى . ودنت النهاية عندمـا كانت الشمس تتوارى عن الانظار . ولما فقد عزيّز ثلاثة أرباع رجاله ووجد ان المعركة انقلبت لغير صالحه اقتاده خمسة من خدامه الخصوصيين الامناء من الميدان وقاموا بمجهود أخير لانقاذ قائدهم المحبوب . ولكنهم لم يشاهدوا بعد ذلـك على قيد الحيـاة فقد عثر على جثثهم يابسة بعد شهرين في قلب صحراء هجرا وقـــد هلكوا من العطش .

وقتل اربعماية وخمسون رجلا من الاخوان على أرض المعركة. ومن بين الخمسين الذين تمكنوا من الفرار وصل ثمانية وثلاثون على قيـــد الحياة كان من سوء حظ ثمانية منهم ان يقتلوا في نقير بعد شهر عندما هاجم فيصل الدويش العوازم . اما ابن مسعد فقد فقد في معركة آبار ام الرضمه اكثر من خمسماية رجل .

وقد احضرت لي فرس عزيّز الاصيل الى الكويت بعد اسبوع من تاريخ المعركة وهي جلد وعظم وفي ظهرها جرح ينزف بحجم راحة الكف . وآويتها سراً في منزل بالقرب من منزلي حيث كنت وزوجتي نطعمها ونعتني بها حتى اصبحت على أحسن حال بعد مضي ثلاثة أشهر. وبعد ذلك ارسلتها الى مكان أمين في البصرة حيث توفيت بعد أربع سنوات . لقـد كانت من اجمل الحيوانات التي وقع عليها نظري .

الملك يهاجم

وأخيراً في ايلول بدأت الحيـاة تدب في قوات ابن سعود . وعززت العوازم

برجال من المدن وأمروا بالتحرك شمالاً لضرب الثوار عند حدود الكويت الجنوبية . وشكل تجمع قبلي آخر في حفر الأتز وجمع ابن مسعد قوة من حرب قوامها ثلاثة آلاف رجل في عجيبة الى الجنوب الغربي من منطقة بشوك . ووضعت عدة طائرات مقاتلة حصل عليها من الحكومة البريطانية وكان يقودها طيارون سابقون في سلاح الجو الملكي ، في جزيرة تاروت بمحاذاة القطيف في جنوب الاحساء . ووجه ابن سعود كل اهتمامه الى قبيلة عتيبة التي رفعت مستوى الثورة أخيراً . وقد عالج الامور بمهارة فائقة في الغرب بحيث انه نجح في غرس بذور الخلاف بين أعدائه هناك .

وفي الخامس من تشرين الاول هاجم فيصل الدويش العوازم في نقير باواسط الاحساء واحرز عليهم نصراً كاملاً . وفقد الثوار في المعركة ٤٨ رجلاً وفقد العوازم ٢٥٠ وكلاهما رقم كبير بالنسبة للمعارك العربية . واستولى الدويش نتيجة المعركة على ثمانية آلاف جمل وغيرها من الاسلاب . وهرب محمد السهلي أحد قادة ابن سعود من المعركة مع خمسة من مرافقيه . وطلبت العوازم شروط الصلح فأعطيت لها في ١٠ تشرين الأول .

وقد وافق الدويش بموجب تلك الشروط ان يسمح للعوازم ان تنتقل الى الاراضي الكويتية وتبقى هناك . وقد انكر ابن سعود ذلك فيما بعد بشدة .

لقد اعطت معركة نقير الثوار ثلاثة ارباع مقاطعة الاحساء . ولكن هذا النصر طغت عليه الانباء القائلة ان ابن سعود قد احرز نصراً ساحقاً في غرب نجد وابعد عتيبة نهائياً عن المعركة . كان ذلك نكسة سيئة للثوار الذين لم يخامرهم ادنى شك بأن عتيبة ستنتصر في النهاية . وفي ٣٠ تشرين الاول ارسل الدويش يطلب مقابلة الشيخ أحمد ومقابلتي . وأتبع هذا الطلب بأن عبر الحدود بنفسه مع عدد من مرافقيه وخيموا بالقرب من جهرا . وعملاً بتعليمات الحكومة البريطانية أبلغته ان ينسحب فوراً . واتضح انه كان يرغب في ان يوجه الاسئلة الثلاثة الآتية التي عاد فأرسلها برسالة خطية :

١ – اذا تحرك جنوباً الى نجد وترك نساءه وجماله في شمال الاحساء ، فهل

تعد الحكومة البريطانية بأن لا تقصفهم وان لا تسمح للقبائل العراقية بمهاجمتهم؟

٢ - اذا هاجم ابن سعد نساءه من الغرب اثناء غيابه فهل تسمح الحكومة البريطانية لهن باللجوء الى الكويت والبقاء هناك بحماية الشيخ ؟

٣ - اذا ما أسقط رجاله طائرة من طائرات ابن سعود التي يقودها بريطانيون فهل تعتبر الحكومة البريطانية الثوار مسؤولين عن ذلك ؟

وبعد ان أحلت هذه الاسئلة على حكومة صاحب الجلالة ابلغت ان اعطي جواباً غامضاً بالنفي على السؤالين الاولين وجواباً قاطعاً بالإيجاب على السؤال الأخير . واصيب الدويش تبعاً لذلك بخيبة أمل مريرة .

وبعث الدويش برسالة جوابية يقول فيها انه طالما ان الحكومة البريطانية تقف الى جانب ابن سعود ، وطالما انه لا يستطيع الهجوم على نجد لحسم الموقف مع الملك في الوقت الذي تكون فيه نساؤه ومؤنه وجماله تحت رحمة القبائل العراقية بموافقة الحكومة البريطانية ، فلا خيار لديه إلا ان يتوصل الى شروط مرضية مع ابن سعود .

إن مما لا شك فيه ان اجوبة الحكومة البريطانية على الاسئلة الثلاثة كانت تعني نهاية الثورة . فمنذ ذلك اليوم لم يعد فيصل الدويش يبذل أي جهد لمقاتلة ابن سعود بل كان ينصح علناً كل من يرغب في القتال في الانفصال عنه وعقد صلح منفصل مع الملك .

لقد كانت لدى الثوار كميات من الذخائر والمؤن تكفي للاستمرار في حرب طويلة الأمد . وكانت هزيمة عتيبة تحتم مهاجمة نجد وانزال الهزيمة بابن سعود في الميدان . ولكن جواب الحكومة البريطانية بأنها لا تأخذ على عاتقها منع القبائل العراقية من مهاجمة النساء والاستيلاء على المؤن في غياب الدويش ، حمل على انه يعني ان الحكومة البريطانية ستشجع على مثل تلك الأعمال ولذلك وجد الدويش انه من المستحيل عليه ان يقوم بأي عمل ضد نجد .

ولم يأت العاشر من تشرين الثاني حتى كانت فلول الثوار تتراجع الى وسط هضبة قرعه على بعد سبعين او ثمانين ميلاً من الحدود الكويتية وعددهم يتقلص

تدريجيا .

وفي ١٩ تشرين الثاني وصل الشيخ حافظ وهبه ممثـل الملك ابن سعود في لندن الى الكويت وبدأت حملة دعاية واسعة النطاق ضد الثوار . وفي ٢٣ تشرين الثاني وبعد ان بدأت مستنقعات الماء تجف في الصحراء اخذت جبال الثوار تفد الى الاراضي الكويتية للحصول على الماء من جهرا . ولكن خطوات حاسمة اتخذت لمنع ذلك في المستقبل . وفي الخامس والعشرين من الشهر نفسه حاول نايف بن محمد الهذلان ان يعبر الحدود لمقابلة الشيخ أحمد ، ولكن الشيخ أحمد رده بنفسه .

وفي التاسع والعشرين بعث ابن سعود بسيل من رسائل التهديد الى الكويت تفيد انه يقترب على رأس جيش قوي ، فاذا سمح شيخ الكويت لواحد من الثوار ان يعبر حدوده ، فإنه يحمله المسؤولية شخصياً . وقد وزع الشيخ حافظ وهبه رسائل مماثلة على زعماء ووجهاء الكويت . وفي السادس والعشرين اشتكى الشيخ أحمد رسمياً من ان الشيخ حافظ وهبه يمارس صلاحيات قنصلية بصورة غـير صحيحة وطلب من الحكومة البريطانية ان توقف نشاطه فوراً . وصدر له تحذير في الوقت المناسب وتحسنت الأمور .

وعلم ان مقدمة جيش ابن سعود وصلت في ١٨ كانون الاول الى الصفا ، وقد تأكد ذلك في اليوم نفسه بعد ان وصلت خمس من سياراته الى الكويت حاملة رسائل بهذا المعنى . وفي الوقت ذاته كانت قوات الثوار تنتقل على طول الباطن ، وقد تقلص عددها واخـذ المزيد من زعمائها ينتقلون الى معسكر ابن سعود او يجدون طريقهم بهدوء الى الجنوب ، بينما بدأ فيصل الدويش مفاوضات رسمية مع ابن سعود . وقد أرسل الدويش رسلاً الى المعسكر الملكي لطلب السماح له بالتسليم ومعرفة الشروط التي سيتم على اساسها .

كان الثوار يقيمون على جانبي منخفض الباطن من حفر البـاطن الى رقيع حيث تلتقي الحدود الكويتية – العراقية في اقصى الجنوب . وعند الغروب في الثامن والعشرين من كانون الاول تقدم محسن الفرم شيخ قبيـلة حرب التي كانت تشكل القوة الغربية او الجناح الايسر لابن سعود ، من شعيب فليج بقوة كبيرة

مختلطة من حرب وشمر وظافر وهاجم الثوار عند الفجر .

وقد أخذ فيصل الدويش بهذا الهجوم على حين غرة فيما كان ينتظر شروط الصلح من ابن سعود . وعلى كل حال ، لم تحدث خسائر كبيرة . فقد تجمع الثوار بسرعة وصدوا المهاجمين ولكن ليس قبل ان يفقدوا خمسين قتيلاً واربعة آلاف جمل .

لقد شن محسن الفرم هجومه بدون ان يتلقى اوامر من الملك ، ورد على اعقابه ، ومع ذلك صور مؤرخو مكة الحادث بأنه معركة عظيمة ونصر حاسم للحملة وذلك ليس صحيحاً على الاطلاق .

نهاية الثورة

تجمعت القوات الارضية لسلاح الجو الملكي والسيارات المسلحة وغيرها من العراق بالقرب من رقيبع لتمنع عبور الثوار الى العراق او الكويت . وفي ٣٠ كانون الاول انضمت مطير التي تحملت اذى هجوم محسن الفرم ، الى عجمان في أم عمارة المهزول حيث قابلهم قائد القوة الجوية الملكية في العراق المرحوم السير تشارلز ستوارت بيرفيت الذي خيرهم بين الاستسلام او العودة عبر الحدود . وبينما كانت المفاوضات جارية حاول الشيخ علي بن عشوان ومجموعة برزج في قبيلة مطير ان يهربوا في ٣١ كانون الاول الى الجنوب الشرقي من وراء ميمنة ابن سعود . وتصدت لهم قوة الى الجنوب من سلسلة المسناة وقتلوا جميعهم باستثناء علي بن شويربة تمكن من الدخول الى خيمة الملك ليلاً وطلب حمايته .

وبعد محادثات طويلة في أم عمارة المهزول رفض الثوار شروط السير تشارلز للاستسلام وعادوا جنوباً عبر الحدود دون ان يعرفوا مدى قرب جيش ابن سعود . وفي هذه المرحلة تمت بزيارة لمعسكر عجمان في وادي الباطن بالأراضي الكويتية وألححت على نايف الهذلان ان يرمي بنفسه تحت رحمة ابن سعود ، وقلت له بالحرف الواحد :

– اذ كانت لديك القوة الكافية للقتال .. قاتل . اما اذا لم تكن لديك

القوة فتخلى عن القتال من اجل نسائك واطفالك .

ولم يصغ لكلامي .

وبانت قوات ابن سعود في رقيع في الخامس من كانون الثاني فعاد الثوار وغيروا اتجاههم ثانية نحو الشمال الشرقي وشقوا طريقهم بصورة اضطرارية الى واحة جهرا تاركين عدة آلاف من الاغنام والجمال تموت في الطريق .

وتخفيت انا وعدد من رجال الشيخ أحمد بثياب البدو وسرنا معهم في الليل وكنت أبلغ سلاح الجو الملكي تباعاً باتجاه سيرهم . وفي اليوم التالي فاجأتهم قوة مشتركة من الطائرات والسيارات المسلحة قرب الاطراف على بعد عشرة اميال الى الغرب من جهرا فوجدتهم بحالة من الفوضى يهربون في كل اتجاه . وخشي الثوار وهم في هذه الحالة هجوماً من جيش ابن سعود ، ولم يكن لديهم علم بانه محظور عليهم عبور الحدود . وفي السابع من كانون الثاني انتقلوا الى جهرا حيث قامت الطائرات بالقاء قنابلها حول القرية في فترات منتظمة لتجميعهم .

هناك توجهت لزيارة فيصل الدويش معرضاً سيارتي لنيران الطائرات الملكية البريطانية عندما اقتربت من المكان . وتوسلت الى الدويش مدة ساعتين كاملتين ان يستسلم لسلاح الجو الملكي وان لا يحاول شق طريقه كما يريد ان يفعل لئلا يدخل في معركة حاسمة مع قوات ابن سعود التي تنتظره عند حدود الكويت الجنوبية . وتركته دون ان أستطيع اقناعه .

وفي اليوم ذاته — ٨ كانون الثاني — حاول فريق من جبلان ورشايده ومعهم عدد من عجمان ان يعبر جنوباً الى جاريه في مؤخرة قوات الملك . وتصدت لهم في الشق ، جنوبي منقاش ، قوة من السيارات يقودها ابن سعود بنفسه وافنتهم عن بكرة ابيهم .

وتمكن واحد او اثنان من كبار زعماء الاخوان من الفرار من جهرا في غمرة الفوضى التي احدثها القصف الجوي . ومن الذين فروا فيصل الشبلان رئيس عشيرة الشبلان في مطير والذي يلي الدويش منزلة في القيادة . وعلم انه توجه الى مدينة الكويت حيث كان يأمل في الاختباء عند بعض المؤيدين . وذكر في هذا

المجال انه قد يحاول الدخول على حاكم الكويت والاحتماء به الامر الذي يعرض الشيخ أحمد للإحراج لأنه سيرفض في هذه الحـــالة تسليمه الى ابن سعود عملاً بالعادات العربية . وفي تلك الفترة اختفى فيصل الشبلان .

وبعد عدة مراسلات سرية مع نايف الهذلان اقنعته ان يستسلم في التاسع من كانون الثاني الى فرقة السيارات المسلحة التابعة لسلاح الجو الملكي ، الأمر الذي دفع فيصل الدويش الى تغيير رأيه في شق طريقـــه عبر قوات ابن سعود للاستيلاء على نجد . واستسلم الدويش ومعه سهود بن لامي في العاشر من كانون الثاني . وركب معي فيصل الدويش ، بصورة احتفالية مؤثرة ، الى معسكر القيادة الجوية حيث سلم سيفه . وارسل الزعماء الثلاثة الى البصرة بطريق الجو وهناك نقلوا الى سفينة حربية بريطانية في شط العرب . (١)

وابلغ فلول الثوار من مطير ومعظمهم من الدوشان والدباهين ، والقسم الاكبر من عجمان ان ينتقلوا شمالاً الى منطقة جريشان – روضتين في دولة الكويت على بعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من مركز الحدود في صفوان حيث بقوا بحراسة السيارات المسلحة التابعة لسلاح الجو الملكي الى ان يصبح بالامكان تسليمهم الى ابن سعود .

وعدت الى مقري في الكويت ووضعت تقريراً مفصلاً للشيخ أحمد عـــن استسلام زعماء الاخوان وعن التجمع المقترح لقطعان الجمـــال في شمال البلاد . وبدأت العمل فوراً في تأمين الطعام والملابس لنساء واطفال الثوار الذين تركوا في حالة يائسة من الجوع والحرمان بين بساتين النخيـل في جهرا . وكان بين اولئك نساء فيصل الدويش : زوجته عمشا وشقيقاته الثلاث وابنتان صغيرتان وسبع وعشرون من قريباته ، وكلهم من الدوشان ومن ذوات المولد الرفيع . ومع الخادمات كان عدد هذا الفريق من النسوة سبعاً وثلاثين امرأة . وقبل ان ينقل الى البصرة ترك الدويش نساءه في عهدتي وكانت كلماته الاخيرة لي :

– اسلم حريمي لك يا ديكسون ومن ذمتي الى ذمتك .

ونقل اولئك النسوة الى قصر الاحمر في جهرا حيث اعتنت بهـــن زوجتي

وقدمت لهن المأكل والملبس الى ان يتم نقلهن الى الكويت في ضيافتي . وبالاضافة الى كل تلك الترتيبات كان علي ان اكتب تقارير لإطلاع حكومة صاحب الجلالة والملك عبر الحدود على الاحداث بصورة عامة . لقد كنت اعرف ان ابن سعود سيطلب فوراً تسليمه الثوار وجمالهم ، فكانت هنالك جهود كثيرة يجب ان تبذل قبل ان توافق الحكومة البريطانية على مثل هذا الامر .

فيصل الشبلان يشرب القهوة معي

كنت مستمراً في العمل بهذه المشاكل في مكتبي لمدة يومين بعد الاستسلام عندما اعلن رئيس الفراشين وصول شيخ غريب قال انه يود ان يقدم احترامه لي.

ودهشت عندما رأيت رجلاً طويلاً متناسب القوام على رأسه كوفية كالتي يرتديها الاخوان. وقد كنت اعتقد بانني اعرف معظم شيوخ الجزء الشمالي الشرقي من الجزيرة العربية ، ولكنني لم أعرف هذا الشيخ الزائر . كان وجهه وأنفه قد أحرقتها الشمس فأصبحت بشرته حمراء اللون متشققة عند الأنف والشفتين ، خلافاً للبدو الذين اذا لفحتهم الشمس تصبح بشرتهم سوداء .

ودعوت الزائر للجلوس وطلبت له القهوة وانتظرته ليبدأ الكلام . رفض ان يدخن قائلاً وهو يبتسم انه وهابي . وبعد ان تناول القهوة قال زائري بهدوء بان اسمه فيصل الشبلان وانه جاء يطلب نصيحتي حول بعض الامور . لقد كان يعلم كل شيء عن الاستسلام الذي تم في جهرا واعترف انه قدم الى الكويت ليتخلص من الوقوع في أيدي سلاح الجو الملكي . وأراد ان يعرف مني ما اذا كان الشيخ أحمد يقاوم ضغط البريطانيين ويرفض تسليمه اذا وضع نفسه تحت رحمته. اما اذا كنت اعتقد ان الشيخ احمد لا يستطيع حمايته ، فقد اقترح ان يغادر المدينة ويهرب بطرق جانبية الى سورية .

لقد احببت الرجل لوثوقه بي واعجبت بشجاعته لأنه جاء من تلقاء نفسه الى ما كان يمكن ان يكون عرين الاسد بالنسبة له . وشعرت بميل لانقاذه وقررت ان أقوم بخطوة جريئة .

ونصحته ان لا يدخل على الشيخ أحمد لأنه بذلـك يضعه في موقف صعب . ولكنني عرضت عليه ان يتشجع ويذهب رأساً الى مليكه الشرعي ابن سعود ، على ان يفعل ذلـك تحت جنح الظلام ويدخل الى خيمة الملك ويضع نفسه تحت رحمته . وقلت له ان جميع الناس يعرفون ان الملك وهو نفسه رجل شجاع يحب الشجعان ، ولذلك فانه سيعفو عنه منّة بالمنّة .

وفكر ابن شبلان لحظة ثم شكرني على نصيحتي التي قـال انها تبدو حسنة . وطلبت له مزيداً من القهوة لأعطيه فرصة أكبر للتفكير ، آملا ضد الأمل انـه سيفعل كما قلت له . وفي تلك اللحظة بالذات دخل الفرّاش حاملاً برقية من قائد القوة الجوية الموجود حالياً في جهرا يقول فيها انه تأكد له ان فيصل الشبلان قد هرب الى الكويت ولذلك يتوجب القبض عليـــه وارساله الى البصرة . وتقول البرقية انه يجب ان اطلب من الشيخ أحمد اجراء تفتيش دقيق في المدينة بحثاً عن الشبلان لاعتقاله وارساله مكبلاً بالاصفاد الى مقر القيـــادة الجوية في جهرا التي ترسل من يرافقه في حالة وصول انباء العثور عليه .

فكان ذلك موقفاً مؤسفاً . وبعد تفكير قلت له :

— يا فيصل سأقرأ عليك برقية تلقيتها الآن من قائد القوات البريطانية التي تسلمت الدويش .

فكان جوابه :

— اقرأ باسم الله .

ولم تتحرك عضلة من عضلات وجه ابن شبلان وانا أقرأ ، كما انه لم تبدر منه أية بادرة تدل على خوف او عصبية . إن ذلك يدل على مجهود رائع في ضبط النفس . وسألته :

— ماذا تعتقد انني سأفعل ؟

وجاء جوابه سريعاً :

— والله انت احسن العارفين .

ان أمامي رجلاً تعلق به قلبي . وقلت له :

– لا تخف يا فيصل . انت في مأمن . لقد تناولت القهوة في منزلي وبموجب قواعد الضيافة العربية ، فان ذلك يعطيك حصانة . ستغادر منزلي بأمـان لأنني أعرف عاداتكم .

فابتسم وقال :

– يا أبا سعود ، كنت اعرف انك ستقول ذلـك لأنك لم تكن لتوافق على الاعتناء بنساء الدوشان كما فعلت لو لم تكن على علم بعاداتنا وآرائنا في الفروسية والشهامة . لقد فعلت حسناً وأظهرت مشاعرك النبيلة . وقد جعلني عملك هذا اقرر ان أضع نفسي تحت رحمة الملك كما اقترحت انت . واذا قدر الله ان اكسب عفوه ورضاه فسأخبره بما فعلته من أجلي هذا النهار .

وبينما كان ابن شبلان لا يزال في مكتبي ابرقت الى القائـد البريطاني لأبلغه انني تلقيت اشارته في الوقت الذي كان فيـه فيصل يشرب القهوة في مكتبي . وفنجان القهوة بموجب العادات العربية يوازي بأهميته وليمـة كبيرة ويعطي الضيف حق الحماية وهو تحت سقف مضيفه . وتمنيت ان يفهم القائـد البريطاني وجهة نظري وعدم قدرتي على تنفيذ ما طلبه مني . وارسلت نسخة من البرقية الى المقيم السياسي في بوشير وأخرى الى السفير في بغداد .

وعمـلا بنصيحتي قضى فيصل الشبلان الهزيع الأول من الليل في منزل فرحان بن خضير وهو تاجر لؤلؤ مطيري في المدينة . واعتمدت على فرحان ان يقدم لضيفه ذلولاً سريعاً في مكان معين خارج اسوار المدينة حتى يهرب عليـه بعد منتصف الليل كما فعل القديس بولس مرة .

وعندما افترقنا قلت له :

– مع السلامة وحظاً سعيداً يا فيصل . وارجو ان نتمكن من اللقـاء مرة ثانية في ظروف أفضل .

وأبلغني فرحان فيما بعد ان كل شيء تم حسب الخطة .

اما القائد البريطاني فقد كان رجلاً طيباً وتفهم موقفي والاسباب التي دفعتني الى التصرف بهذه الطريقة ولم يفاتحني بالقضية ثانية .

شروط الاستسلام

وتقرر ايفاد بعثة الى ابن سعود الذي كان مخيماً في خباري وضحا على بعد ٩٣ ميلاً الى الجنوب الغربي من الكويت ويبلغ طول الطريق بالسيارة ١٣٠ ميلاً. وتألفت البعثة من السير هيوبيسكو المقيم السياسي في الخليج منذ سنة ١٩٢٩ ، ونائب ماريشال الجو بيرنيت وانا . وغادرنا الكويت بطريق الجو في ٢٠ كانون الثاني وذلك لبحث وسائل وطرق تسليم الزعماء الثائرين واتباعهم .

ولحق بنا في ٢٢ كانون الثاني بطريق الجو ايضاً الشيخ أحمد وافراد عائلة الصباح وذلك لكي يقدموا احتراماتهم للملك ، ثم عادوا في اليوم التالي .

كانت لهجة ابن سعود اثناء المحادثات ودية وتنم عن روح المصالحة ، كما انه أبدى أسفه للهجة التي صيغت بها رسائل وزير خارجيته . وجرت مساومات عديدة قبل ان يتمكن السير هيو في ٢٦ كانون الثاني ان ينتزع من ابن سعود الشروط التالية لقاء تسليم فيصل الدويش ونايف الهذلان وسهود بن لامي الذين اعيدوا الى الكويت وجمع اتباعهم في شمال دولة الكويت : —

١ — يحفظ ابن سعود ارواح الزعماء واتباعهم .

٢ — اذا شاء ان ينزل بهم اية عقوبة فيجب ان تكون مرفقة بالرحمة واللين مع الاحتفاظ بحقه في استعادة الغنائم والاسلاب التي أخذها الثوار من الغير .

٣ — يتعهد ابن سعود بمنع الغزوات في المستقبل التي قد تقوم بها عجمان ومطير وغيرها من قبائل نجد الى الاراضي العراقية والكويتية . واذا ما حدث مثل تلك الغزوات فانه يتعهد بوضع حل عاجل واعادة الاشياء المسلوبة الى أهلها . ففي حالة الغزو الى العراق تنفذ بنود اتفاقية بحرا . وبالنسبة للكويت يجري العمل بموجب العادات المتبعة بين بلاده وبلاد الشيخ أحمد . واعرب ابن سعود عن استعداده للتفاوض حول معاهدة على غرار اتفاقية بحرا اذا رغب الشيخ أحمد في ذلك .

٤ — تعهد ابن سعود بحل القضايا السابقة المقدمة من العراق والكويت على هذا النمط بشرط ان يعاد رجال قبيلتي عجمان ومطير الموجودين في قبضة سلاح

الجو الملكي الى نجد مع كل اتباعهم وممتلكاتهم .

٥ ــ وافق ابن سعود على دفع عشرة آلاف جنيه استرليني كتعويض للقبائل العراقية والكويتية أملا في الوصول الى حل نهائي .

٦ ــ يعين ابن سعود ممثلين عنه في أي وقت في المحكمة المنصوص عنهـــا في اتفاقية بحرا بعد أن يتلقى طلباً بأن يفعل ذلك .

وبعد ان وقع ابن سعود والسير هيوبيسكو على شروط الاستسلام ، عـادت البعثة الى الكويت في ٢٧ كانون الثـــاني . وفي اليوم الثاني انزل الزعماء الثائرين الثلاثة من السفينة البريطانية « لوبين » بعد ان خلعت عليهم زوجـتي ملابس جديدة ونقلوا الى مخيم ابن سعود بطريق الجو تحت اشرافي شخصياً .

ووجدت ابن سعود جالساً داخل خيمة مقفلة محاطاً باقاربه وبزعماء القبائل. وكان اجتماع الثوار بسيدهم مؤثراً. فقد سمح لكل منهم والدموع تنهمر من عينيه ان يقبله في انفه على طريقة البدو . ثم اجلسني بجانبه وشكرني على جهـــودي وخاصة على عنايتي بنساء الزعيم الثائر السابق وقال : ــ

ــ في الحقيقة يا ديكسـون نحن نقـدر اعمالك الطيبة . ومع ان الدويش ثار ضد ملكه وقاتلنا لكن نساءه ذوات دم نقي نبيل وجديرات بكل احـــترام وتقدير . انه واجب خاص علينا ان نستمر في العناية بهن الى ان نتمكن من ارسال سيارات الى الكويت لنقلهن من عندك .

وبينما هو يتكلم لمحت بين قادته ومستشاريه صديقي فيصل الشبلان . ويبدو ان الملك كان يتتبع نظراتي فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

ــ نعم .. لقد عفونا عنه . لقد اتى ودخل علينا وابلغنا كل شيء ويبـدو اننا مدينون لك بذلك ايضاً يا كولونيل ديكسون .

واغتنمت الفرصة لأنقل الى ابن سعود رسالة من زوجتي تتوسل اليه فيها كأم ان يرأف بأولاده المخطئين . وقد استجاب الملك لهذا الطلب بشهامة . فبدل أن يعدم زعماء الثورة كما كان اتباعه يتوقعون بالرغم من تـــأكيداته للحكومة البريطانية ، فقد فرض عليهم الاقامة الجبرية ، وذلك أمر ضروري للحفاظ على

نفوذه ومكانته . وكانت معاملته لنسائهم مثلا آخر في الشهامة والكرم .

وتعرضت قوات الثوار اثناء ابعادها في شمال دولة الكويت لغزوات ليلية قاسية قامت بها قبائل ظافر العراقية انتقاماً لغزوات سابقة ، وسلبتهم جمالهم واغنامهم على مرأى من سلاح الجو الملكي . وفي ٢٩ كانون الثاني ابلغ الثوار ان يستأنفوا مسيرة العودة الى نجد حسب شروط الاتفاق .

وقد اقتادتهم السيارات المسلحة التابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني عبر طريق معين باتجاه مناقيش على الحدود حيث تسلمهم مبعوثو ابن سعود في الرابع من شهر شباط .

ومع ان المجال لا يتسع هنا لذكر تفاصيل العقوبات التي فرضت على مطير إلا ان ملخصاً لها لا بد من ذكره :

١ — أخذت من فيصل الدويش جميع الجمال العائدة اليه شخصياً بما فيها الشروف الشهيرة وهي قطيع مطير الاسود المقدس . وأخذت منه ايضاً جميع خيوله .

٢ — أخذت من الدوشان العشيرة الحاكمة في مطير كل الاسلاب التي حصلت عليها من الغير وتوازي ثلثي ماشيتهم . أما ممتلكاتهم الشخصية فلم تمس .

٣ — أخذت من الرجال العاديين كل جمال الركوب والخيول والممتلكات الاخرى التي سلبت من الغير .

٤ — لم يؤخذ أي شيء من فيصل الشبلان ومن عبد العزيز المجيد[1] الدويش وهو زعيم معروف لأنهما استسلما طوعاً وليس عن طريق سلاح الجو الملكي .

٥ — لم تصادر أية بنادق من اي كان .

وعوملت عجمان بنفس الطريقة تماماً .

لقد سررت لان ابن شبلان نجا بنفسه . وسرعان ما نال حظوة عند الملك فعين مسؤولاً عن جمال الملك بما فيها الشروف . ويبلغ عدد تلك الجمال ٧٠ رعية والرعية ٧٠ جملاً فيكون المجموع اربعة آلاف وتسعماية جمل . وكانت عمشا ابنته الجميلة تأتي لزيارتي كلما قدمت الى الكويت وتذكرني وهي تبتسم بفنجان القهوة

[1] عبدالعزيز (handwritten margin note)

الذي انقذ حياة والدها . وتزوجت عمشا شاباً لطيفاً اسمه هزاع بن بدر الدويش الذي قابلته لاول مرة عندما حمل الى الكويت اثر اصابته برصاصة في رقبته . وكنا نعتبر عمشا حفظها الله واحدة من اعز اصدقائنا المطيريين .

وبعد ان رتب نقل الزعماء الثلاثة الى الرياض ومصادرة مواشي الثـوار كما ذكرنا سابقاً ، توجه ابن سعود الى حميدة القطا قرب جارية في ١٢ شباط . وبعد اربعة أيام انتقل الى راس كنسورة قرب القطيف ومن هناك انتقل في الثـاني والعشرين ليقابل الملك فيصل ملك العراق على ظهر الباخرة البريطانية « لوبين » خارج ميناء الفاو . وصدق الملكان على مسودة اتفاقية صداقة بين البلدين .

لقد حضنت زوجتي نساء فيصل الدويش لمدة ستة اسابيع في مدينة الكويت قبل ان يرسل ابن سعود سيارات لنقلهم . وفي تلك الفترة لم نكن نقدم لهـن المأكل والملبس على حساب الحكومة فحسب بل اتيحت لنا الفرصه ان نجتمع بهن يومياً ونتحدث اليهن . فبعد المصاعب الكثيرة والمشاق المرهقة التي تعرضن لها في المراحل الأخيرة من الثورة ، وجدت زوجتي امامها عملاً صعباً في اعادتهن الى حالتهن الصحية الطبيعية . فكنا نعاملهن كضيوف واصدقاء لا كلاجئين . ولا زلت اذكر كيف ان ابنتي شقيق فيصل الصغيرتين عمشا وفيحا كانتـا اكثرهن تردداً واقلهن خجلاً . فقد جاءتا الينا نحيلتين تكادان تموتان جوعاً وعلى جسديهما اسمال بالية ، ثم اصبحتا فتاتين رائعتين قدر لنا ان نجتمع بهما عدة مرات فـيما بعد .

وتقديراً لحياده ورفضه مساعدة الثوار تلقى الشيخ أحمد سنة ١٩٣٠ وساماً رفيعاً مع تقدير الحكومة البريطانية. ووعدته حكومة صاحب الجـلالة ايضاً انها ستعمل قصارى جهدها لحمـل ابن سعود على الغاء القيود على التجارة بين نجد والكويت . وكان الحظر قد فرض منذ سبع سنوات ومضت سبع سنوات اخرى قبل ان يرفع نهائياً .

وفاة فارس عظيم

توفي فيصل الدويش في الرياض في الثالث من تشرين الأول سنة ١٩٣١ .

وجاءت الانباء الاولى الى الكويت في ٢٥ تشرين الاول مع ابراهيم المزين الذي عمل مدة طويلة في خدمة شيوخ الكويت ثم انتقل قبل ثلاث سنوات ليعمل في خدمة ابن سعود في الرياض . وقد جاء يومها الى الكويت ليشتري بزاة الصيد لمحمد آل سعود شقيق الملك .

وقص علي ابراهيم بالتفصيل كيف ان الدويش ظل يشكو لمدة شهر من ألم بسبب تورم في حنجرته . وفيما كان يتمشى مع ابن هذلان يوم ٣ تشرين الأول في باحة السجن سقط الى الأرض والدم ينزف من فمه بسبب انفجار التورم . وظل فاقد الوعي حتى المساء وعندما استعاد وعيه لمدة قصيرة طلب ان يرى الملك ولكن ابن سعود رفض ان يأتي اليه . وارسل له الدويش تحية الوداع غافراً له الاخطاء التي ارتكبها بحقه قائلاً ان الحكم الاخير لن يصدر قبل ان يقفا كلاهما امام الخالق . ثم فارق الحياة فغسل ودفن في الليلة ذاتها .

وابلغني ابراهيم كيف ان الملك ، بعد ان شعر بتوبيخ الضمير ، ارسل الى عمشا ارملة الدويش والى شقيقته غالية ووضحى طالباً ان يعتبرنه شقيقهن مدى الحياة ، وكيف انه منح عمشا وغالية الشقيقة الكبرى مكافأة سنوية قدرها اربعماية ريال ، ومكافأة قدرها ثلاثماية ريال لوضحى والأخت الثالثة التي كانت وقتذاك في الكويت . وبعد ان اعطى كل واحدة منهن اربعة جمال سمح لهن بالعودة الى ارتوائية . وقالت مصادر اخرى ان ابن سعود اعطى كل واحدة من السيدات الثلاث بيتاً مجانياً في الرياض .

وقد نقلت اخبار الوفاة بالتفصيل بحيث انه لم يعد هنالك شك بأن فيصل الدويش قد توفي فعلاً . وبعد فترة قصيرة اعلن هلال المطيري تاجر اللؤلؤ الشهير في الكويت وصديق الدويش انه يصدق القصة وكذلك فعل الشيخ أحمد .

لقد أحس جميع البدو بأسى عميق لوفاة ذلك الزعيم الصحراوي الكبير الذي كان ملكاً بين شيوخ العرب ، والذي كان الزعيم القبلي الوحيد في الجزيرة العربية من حقه ان يقتل رجالاً من قبيلته دون محاكمة اذا وجد ذلك ضرورياً. فهو وشيوخ الدوشان في مطير من قبله يمكن مقارنتهم بصانعي الملوك في انكلترا

في القرون الوسطى. وخلال تاريخهم تجرأوا وحاولوا ان يصنعوا وان يكسروا، واحياناً بنجاح، الحكام السعوديين في نجد. ان مساعدة مطير وحدها بقيادة جد فيصل الذي كان يحمل نفس الاسم، هي التي مكنت القائد المصري ابراهيم باشا من مهاجمة واحتلال المملكة الوهابية في اوائل القرن الماضي.

ان الجزيرة العربية لم تنجب فارساً او مقاتلاً اعظم من فيصل الدويش الذي لم يكن لابن سعود من اتباعه واحد اكثر اخلاصاً الى ان دفعت السياسة، او بالأحرى نكران الجميل، فيصل الى الثورة. كانت مطير تعبده ولا يذكر رجل اسمه حتى اليوم إلا والدموع في عينيه. ويقال ان وفاة ابنه عزيز هي التي حطمت معنوياته وأقنعته بأنه لن يستطيع الانتصار.

اما ارملته عمشا فلم تعش بعده طويلاً. فقد توفيت بهدوء في ارتوائيه بعد خمس سنوات وحزن عليها رهط كبير من الاصدقاء.

وظل زعماء الثورة الاخرون في السجن بالرياض حتى سنة ١٩٣٤ حين اتهموا بمحاولة الفرار عندما كان ابن سعود يقاتل يحيى امام اليمن. ونقلوا الى الهفوف حيث سجنوا في الدياجير التركية المظلمة تحت الأرض وانقطعت أخبارهم منذ ذلك الوقت.

نهاية «الاخوانية»

أخمدت الثورة بعد ان كلفت مبالغ طائلة من المال والعتاد. ويعود الفضل في انتشال ابن سعود من الوضع السيىء الذي كان فيه الى الحكومة البريطانية.

فلولا جهودها في ابقاء الكويت والعراق على الحياد، ووضعها قوة كبيرة على حدود الكويت الجنوبية اجبرت الثوار على الاستسلام، لما تمكن ابن سعود من سحق الثورة، ولكان تعرض هو والبيت السعودي الى أخطر النتائج.

وبانهيار الثورةووفاة فيصل الدويش يمكن القول إن مذهب الإخوانالحماسي قد ولىّ الى غير رجعة. وكان ابن سعود يعرف ذلك فلم يكن يرغب في إشعال النار مرة اخرى فمذهب الإخوان القائم على الدين والتعصب، اخطر من ان

يكون لعبة في يديه . لقد أخطأ مرة ولن يعيدهـا . فقد فضل في المستقبل ان يستخدم السيارات المسلحة واللاسلكي والمدافـع الرشاشة للإبقاء على سلطته ، وربما كان بذلك يفعل عين الحكمة .

استخدم ابن سعود النقل بالسيارات لأول مرة أثناء العمليات ضد الثوار وقد زاد ذلك في قدرته على التحرك وساعده على الإسراع في تموين قواته . وكثير من نجاحه يعود الى هذه الحقيقة التي استطاع بها أن يفرض نفوذه على القبائل المترددة قبل أن تقرر الانضمام الى الثوار ، وبها استطاع ان يأخـذ قوات الثوار على غفلة في كثير من الأحيان قبل أن تكون مستعدة للقتال .

كان ابن سعود يعلم حق العلم مدى المساعدة التي يمكن للمواصلات الصحيحة أن تقدمها له لحفظ النظام في مملكته الواسعة المتفرقة . فعندما ثار عليه ابن رفاده سنة ١٩٣٢ بحوالي ستة آلاف رجل من قبيلة بيلي[1] في شمالي الحجاز ، استطاع ان يجمع عشرة آلاف رجل في الطائف ويشن هجوماً مفاجئاً على الثوار فحاهم عن بكرة أبيهم في دجه وسار مظفراً عبر الحجاز . ولم يكن ليستطيع ذلـك لولا استخدام السيارات .

وفهم عامـة الاخوان الآن أن ابن سعود أطلق صرخة الدين سنة ١٩١٤ لأغراضه الخاصة . ولذلك شعروا بالألم والندم لأنهم استخدموا كمطية ، فلم تعد لديهم رغبة في الولاء أو في الاندفاع . كان كل همهم أن يتركوا وشأنهم . ولم يعد الملك بالنسبة لهم بطلاً او أباً لشعبه . وكان المرء يجد حتى بين القبائل الموالية كشمر وحرب وسبيع وسهول وعوازم ، مع جانباً القبائل التي فشلت في الثورة ، شعوراً أشبه بخيبة أمل مريرة . واذا سئلوا عن ذلك فإنهم لا يستطيعون اعطاء جواب محدد واضح ولكن عـدم الثقة وخيبة الأمل همـا ، كما يبدو ، السبب الجوهري . ولا ريب ان هـذه الظاهرة ترجع الى واحـد أو أكثر من الامور التالية :

١ — كان الشعور السائد ان ابن سعود لم يلعب لعبته بواسطة الاخوان ولم يقف الى جانبهم كما كان مفروضاً فيه أن يفعل . فهم على كل حال ، الذين رفعوه

الى المكانة التي احتلها وكانوا أيضاً مسلمين صالحين .

٢ – طلب مساعدة البريطانيين وبمساعدتهم تمكن من سحق رعاياه المسلمين .

٣ – لقد عامل فيصل الدويش ونايف الهذلان وسلطان بن حميد العتيبه وهم ثلاثة من أعظم زعماء الجزيرة العربية، بقساوة لا داعي لها في الوقت الذي كانت طرق الشهامة كافية لمواجهة القضية .

ومع مرور الزمن لم يعد البدو يطلقون على ابن سعود لقب الامـــام لاسيما في الشمال والشمال الشرقي من صحراء الدهانه في شمال شرق الجزيرة العربية . وأصبح يعرف بعد ذلك بالوهابي وخاصة بين أولئـك الذين ثاروا ضده ، كصفة للتحقير أكثر من أي شيء آخر . وبرزت ظاهرة أخرى مهمة وهي أن الكوفية البيضاء التي كانت رمزاً « للأخ » الصالح لم تعد ترى إلا نادراً . فقد عـــاد معظم مطير ورشايده وعوازم وعجمان وشمر الى العقال القديم . أما الذين ظلوا يعتمرون الكوفية البيضاء فقد كانوا يفعلون ذلك وألسنتهم في وجناتهم أو للحصول على خدمة من الملك .

ليس معنى ذلك أن مذهب الإخوان قد انقضى، فقد بقي في الوجود ولكن على شكل احساس بـه . وما إن أتت سنة ١٩٣١ حتى كان قـــد تخلى عن كل تعصباته غير المعقولة . وظلت القبائل الكبرى في الجزيرة تحب أن تدعو نفسها بالاخوان او بالوهابيين ، وحفاظاً على الماضي ، لم تتعاط التدخين أو لعب القمار أو شرب الخمر . أما عنفهم الجنوني فقد زال تماماً إلا ربمـــا في جنوب نجد وفي بعض الأماكن الأخرى كحوطه الى جنوب الرياض وفي وادي دواسر . وانصرفت الأنفس التقيـــة الى الصلاة والى تحسين الأوضاع ، بينما لم تفكر في السابق إلا في جر الآخرين الى الحظيرة والتدخل في شؤونهم بالقوة . لقد حصلت على هـــذه المعلومات من عدد من زعماء الاخوان ومن ممثلين عن كل قبيلة . ولست أعتقد أن مذهب الاخوان سينتعش ويعود للحياة مرة أخرى ، مع إنـــه من غير الحكمة التنبؤ في بلاد أعاد التاريخ فيها نفسه مرات ومرات .

ابن سعود يقوي مركزه

أصبح ابن سعود يريد السلام لأن القتال المتواصل كلفه كثيراً . وكان بحاجة إلى المال فمنح امتيازاً للنفط في الاحساء لشركة «ستاندرد اويل اوف كاليفورنيا» وهي اليوم شركة « أرامكو » ، وطلب منها أن تبني خطاً لسكة الحديد من الدمام إلى الهفوف والرياض عن طريق الخرج . وبعد أن أقنع العلماء بأن الاسلام لم يمنع هذه التطورات بل يشجع كل ما من شأنه أن يساعد على التقدم ، لم يأل جهداً في وصل المراكز المهمة بعضها ببعض بواسطة شبكة من الطرقات ، كما نظم مواصلات لاسلكية نشيطة ، وأعطى شركة هندية امتيازاً بشق طريق من الأسفلت يصل مكة بجدة ، وشجع شركات النقل بالسيارات ، وأقام محطات للبرق في جميع أنحاء البلاد ، وشجع زراعة الأرض في كل مكان .

وفي أيلول سنة ١٩٣٢ أصبحت مملكة الحجاز ونجد وتوابعها تعرف باسم المملكة العربية السعودية .

وخلال سنة ١٩٣٣ كانت تلوح في الافق بوادر مشاكل حول نزاع الحدود في عسير . وقد بدأ ذلك بانتفاضة ضد ابن سعود كان من نتيجتها أن سكان عسير طردوا حسن الادريسي الحاكم الذي عينه ابن سعود ، الى اليمن . وأرسل يحيى إمام اليمن جنوده الى عسير ، كما ان الملك عبدالعزيز أرسل ابنه الأمير سعود على رأس قوة لإجراء مفاوضات . وفي آذار سنة ١٩٣٤ فشلت المفاوضات ولكن ابن سعود كان في تلك الفترة قد جمع جيشاً لا يستهان به قرب المنطقة المتنازع عليها .

وبدأت الاشتباكات في نيسان مع أنه لم يكن هنالك إعلان رسمي للحرب. واستطاعت قوة بقيادة الأمير سعود ان تحتل نجران ، واحتل الأمير فيصل الشقيق الأصغر لسعود ، حديدة في أوائل أيار تدعمه الآليات .

ومع اقتراب الصيف وجد الإمام يحيى ان أفضل طريقة هي إطالة أمد القتال مستفيداً من فرصة للهدنة . ومع أن القوات السعودية كانت تشعر بثقة بالنفس بعد انتصاراتها الأولى ، إلا أنها كانت في الواقع تتفسخ وتنهار . فقد دب فيها

المرض دون أن تكون هنالك وسائل للمعالجة ، كما انها كانت تعاني من نقص في الذخيرة .. وفي الرواتب . ولهذه الأسباب فقدت القوات السعودية انضباطها . وتبين لابن سعود ان استمرار القتال قد يلحق به هزيمة نكراء فمدد الهدنة وعدل شروطه . وكان له ما أراد فقد وافق الإمام على الشروط المبدئية ، وفي أواسط حزيران وقعت معاهدة بين اليمن والمملكة السعودية .

حققت هذه الحملة لابن سعود الكثير . فقد زادت في نفوذه وأعادت اليه واحة نجران الخصبة وأكدت سيطرته على عسير التي ضمت الى مملكته في السنة ذاتها . وانتهى ابن سعود من الحملة المذكورة بجيش منتصر ولكن قليل الراتب منهوك القوى من القتال . ولم يحدث أي غزو كما كان متوقعاً كنتيجة طبيعية لعودة الجيش خالي الوفاض ، مما يدل على مدى السيطرة التي توصل اليها هذا القائد الكبير على قبائله الكثيرة المتوحشة .

ولم تعد علاقات الصداقة بين الكويت والمملكة السعودية إلا في نهاية سنة ١٩٣٧ عندما رفع ابن سعود الحظر على التجارة مع الكويت . وتجدر الاشارة هنا الى أن الخطأ في ذلك يقع على ابن سعود لا على الحكومة البريطانية التي لم تكف عن المحاولة منذ سنة ١٩٣٠ للبر بوعدها للشيخ أحمد في وجه مماطلات ابن سعود الذكية .

فهرست

الكويت

وجاراتها

هـ. ر. ب. ديكسون

الجزء الثاني

القسم الثالث

ومعظمه ذكريات

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا
نحن الضيوف وأنت رب المنزل

بهذا البيت من الشعر استقبلني ابن سعود عندما زرته لأول مرة في الهفوف سنة ١٩٢٠ .

الفصل الرابع عشر

الكويت

١٩٣١ - ١٩٣٦

جريمة لها ما يبررها

اهتز العراق سنة ١٩٣١ لمقتل حاكم بغداد المحبوب عبدالله بن أحمد باشا الصانع (١) في مكتبه بالبلاط على يد عبدالله بك الفالح باشا السعدون الشيخ الأعلى في المنتفق. لقد كنت أعرف الرجلين جيداً مع أنني لم أرَ لهما وجهاً منذ عدة سنوات.

عرفت عبدالله بك عندما استسلم لي في كانون الثاني سنة ١٩١٩ عندما سمح له أن يعود للإقامة في ممتلكاته في كثيبان على بعد عدة أميال من البصرة حيث عاش بهدوء دون أن يشترك في السياسة ، ولم يكن يقصد بغداد إلا لزيارة الملك فيصل أو لحضور جلسات المحكمة المتعلقة بقضايا حول أملاكه الكثيرة . وقد قابلته في إحدى تلك المناسبات فوجدته نفس الرجل الهادىء المعتد بنفسه الذي قصدني تحت جنح الظلام في الناصريه وتوسل إليّ ان أتوسط بشأنه لدى السير بيرسي كوكس .

أما عبدالله السنا فقد كانت معرفتي بـه أكثر وثوقاً . فهو ابن أحمد باشا متصرف البصره أيام الحكم البريطاني وقـد عمل تحت امرتي كقائمقام على الحلة .

وعندما غادرت العراق الى الهند علمت انه شق طريقه بجدارة واستحقاق وترقى خطوة خطوة الى أن أصبح حاكم بغداد وحاز على ثقة الملك فيصل الى أقصى الحدود . وقد كنت فخوراً بذلك لأن بعض الفضل في ارتقاء الرجل يعود الى التدريب الذي لقيه على يدي في اوائل عهده .

ثم كانت غلطة عبدالله السنا الذي كان يتوق لطلب يد ابنة رئيس وزراء العراق الراحل عبد المحسن السعدون . فبعد انتحار عبد المحسن في سنة ١٩٢٩ ذهبت الفتاة لتعيش مع والدتها في سورية . امـا عبدالله السنا ، كما يستدل من اسمه وكما يعرف الجميع ، فقد كان من أصل متواضع . ولم يصل الى ما وصل إليه إلا بطموحه واجتهاده وقدرته ورضا الملك فيصل عليه . ومجرد تفكير هذا الرجل في الزواج من إحدى سيدات آل السعدون نخبة النخبة في الارستقراطية القبلية العربية ، كان جريمة ، ان لم نقل عملاً جنونياً صرفاً .

ان لعائلة السنا مكانة وضيعة في سلم الدرجات الاجتماعية عند البدو بحيث ان اية قبيلة شريفة في طول الجزيرة وعرضها لا تحلم بتزويج احدى بناتها الى واحد من عائلة السنا التي صنفت منذ أقدم الأزمان بانها وضيعة المولد لكون اعضائها يعملون كاسكافيين وحدادين ، وينظر اليهم بأنهم خدام عند القبائل . ان خرق هذه القاعدة يعني الموت للرجل وللفتاة ولا يمكن ان تكون هناك أسباب أو ظروف تخفيفية .

ولسنا نعرف ما اذا كان عبدالله السنا يعتقد ان مركزه أصبح قوياً وان بغداد أصبحت متمدنة ألى حد دفعه الى تحدي العادات والقواعد القبلية . ويكفي القول انه خطب ود الفتاة وطلب موافقة الملك على الزواج . ويقال ان فيصل بارك الزواج رغبة منه في مكافأة صديقه ، ويقول بعضهم — خطأ على ما اظن — ان القضية كانت سياسية وتستهدف عن قصد تحقير اسم آل السعدون في العالم العربي . ففيصل لم يكن على علاقة طيبة معهم وكان يكره ادعاءاتهم المتطاولة بانهم في مستواه ويعادلونه منزلة ، وكانت تغيظه تحدياتهم الصريحة له في كل المناسبات .

والشيء الوحيد المؤكد هو ان الملك فيصل الذي ينحدر من أعرق عائلات الحجاز والذي شب وترعرع في محيط قبلي ، كان يعرف مدى خطورة رد الفعل الذي سيحدثه هذا الزواج لا سيا في أوساط عائلة السعدون، ومع ذلك لم يمنعه. ويبدو ان البريطانيين في بغداد لم يقدروا الموقف لأنهم دائماً يفكرون ببلادهم وبمكافأة المستحق،لذلك تمنوا لعبدالله السنا حظاً سعيداً وهنأوه على حسن اختياره.

ولما لمس عبدالله السنا تشجيعاً من الملك لم يتوان لحظة واحدة بل احاط بوالدة الفتاة بنجاح وهي سيدة تركية الأصل ظنت ان موافقة الملك ضمانة كافية لسلامة ابنتها . ولما كانت تعيش في بلاد متمدنة كسورية ظنت ان العادات والاحقاد القبلية قد انقضت .

وما ان وصلت الانباء الى البصره ، معقل آل السعدون ، حتى بلغ الغيظ والرعب ذروته . وفي الحال أرسلت بعثة الى بغداد لتطلب من الملك ان يفسخ الخطبة ويمنع الزواج . وبالرغم من كل اسبابهم وحججهم فقد فشلوا في مهمتهم . وأرسلت بعثة ثانية الى الملك برئاسة ثامر بك السعدون وضاري بك الفهد السعدون وغيرهما . ويقال ان كلمات كبيرة وعادية استخدمت اثناء المقابلة . والكلام الذي وصلنا الى الكويت يفيد ان البعثة أبلغت الملك انه اذا تم الزواج فسيقتل العروسان ويتعرض الملك نفسه الى نفس المصير . وقالوا له ان آل السعدون ينحدرون من عائلة توازي عائلته مكانة، وعيروه لأنه استخدم مركزه لفرض زواج يعرف تماماً انه يلحق العار ببيتهم .

لقد استقبل الملك البعثتين بصورة سرية ومن المفروض ان لا يعلم العالم الخارجي شيئاً عما دار في الاجتماع ، ولكن الوقائع تسربت بطريقة من الطرق. ويقال أيضاً ان الملك حنق لأن مجموعة من رعاياه تحدته وهددته في قصره . وقد اتهمهم بدوره بتحدي السلطة والتطاول عليها ورفض ان ينظر فيما يسعون اليه بصورة من الصور .

اما عبدالله بك الفالح باشا السعدون فلم يذهب مع البعثة وبقي في البصره بانتظار التطورات . وقد تلقى انباء الفشل الثاني بأسى واشمئزاز . والآن أصبح

شرف العائلة في خطر والحياة لا تساوي شيئاً في مثل هذه الحالة . وقبل ان يقرر اتخاذ أي اجراء قضى عدة أيام في مدينة البصره .

بعد ذلك ظهر عجيمي بك السعدون على المسرح . فقـد اتى على جناح السرعة الى البصره قادماً من ماردين في تركيا تلبية لإلحاح عائلته . وقد اجتمع فور وصوله بشقيقه سعود بك الذي جاء من الناصريه وبعبدالله بـك وقرروا وجوب القيام بعمل فوري حاسم . وفي جلسة سرية تقرر ان يتوجه عبدالله بك وسعود بك كل على حدة الى بغداد لقتل عبدالله السنا .

وقيل أيضاً ان أنباء وصلت الى البصره تفيد ان العقد قد تم نيابة عن أهل العروس التي كانت تجهز نفسها للسفر الى سورية لا كمال العقد هناك. ولكن ذلك يصعب تصديقه . اما الذي حدث فعلاً وعجل في وقوع المأساة فهـو حادث عائلي . فقد عـاد عبدالله بك السعدون الى منزله في كتيبان ذات يوم ونادى زوجته باعلى صوته لدى دخوله المنزل . ولم تظهر زوجته من غرفتها بـل سألت عن المنادي من وراء القاطع . ورد عليها غاضباً :

— انا عبدالله زوجك .. لماذا لا تأتين ؟

واجابته على الفور :

— انا الآن لست زوجتك ، ولن أكون إلا اذ قتلت السنا الذي تجرأ وطلب يد واحدة من بناتنا .

وبدون ان ينبس ببنت شفة أخذ عبدالله بك مسدسه وغادر المنزل لوحده وتوجه بالسيارة الى بغداد حيث توجه فوراً الى البلاط وطلب مقابـلة الحاكم . وأدخل الى مكتب عبدالله السنا الذي استقبله بأدب وترحاب وسأله عن سبب تشريفه له بهـذه الزيارة؟ . ورفض عبدالله بك ان يشرب القهوة التي قدمت له وقال لعبدالله السنا — حسب رواية الفراش الذي قدم لهما القهوة — ، انـه في الوقت الذي لا يشعر نحوه بأية عداوة شخصية ، إلا انه يرى من واجبه منع زواجه المقترح من فتاة من قبيلته . ثم شهر مسدسه واطلق النار على السنا عبر المنضدة فسقط الى الارض مضرجاً بدمه . وعـاد عبدالله بك فأفرغ بقيـة

الرصاصات في الرأس السنا بصورة متعمدة . وبعد ذلك فتح الباب وطلب من الفراش ان يستدعي البوليس الذين وجدوه لدى وصولهم جالساً على المقعد يدخن سيجارة . فشرح لهم بهدوء الاسباب التي دفعته الى ارتكاب جريمته .

ان محاكمة عبدالله بك برئاسة قاض بريطاني ، حركت العالم العربي الى اعماقه . وعندما صدر حكم الاعدام بحقه كان رد الفعل لصالح القاتل شديداً بحيث ان برقيات قوية اللهجة وصلت الى الملك فيصل من شخصيات مرموقة كابن سعود وحكام الكويت والبحرين وعمان واليمن ، ومن رهط من الامراء والشيوخ في اواسط الجزيرة العربية والحجاز والعراق واماكن أخرى ، تطالبه بتخفيض الحكم . وبالفعل ابدل الملك فيصل الحكم بالاعدام الى السجن العادي ٣٠ سنة ثم عاد الملك فيصل بقرار استرحام فخفض الحكم الى سنة واحدة .

وصدف ان كنت في البصرة عندما اطلق سراح عبدالله بك وعاد الى تلك المدينة . ولم اشاهد في حياتي استقبالاً لرجل شرقي كالاستقبال الذي جرى له . فقد تجمهر آلاف الاشخاص على المحطة وآلاف غيرهم اصطفوا في شوارع البصرة والعشار . ولكي يصدق المرء ذلك يجب ان يشاهده . فالجماهير لم تكن تستقبل مجرماً عادياً بل بطلاً وطنياً .

وأعترف انني اخطأت في شق طريقي بين الجماهير في الاستقبال الحافل الذي تلا ذلك لأقدم تهاني لعبدالله بك لخروجه من السجن . وبعد هذا وذاك ، فهو رجل شجاع وفعل ما كان يظنه صحيحاً حسب القواعد التي شب عليها .

القبور التسعة

وهذه قصة أخرى عن الأحقاد القبلية .

في نهاية يوم طويل من الصيد على طول سلسلة الظهر في الكويت سنة ١٩٣١ عدت وزوجتي الى المخيم عند حلول الظلام وقد انهكنا التعب . وفي الصباح أمرت ان تضرب خيمتنا وخيام مرافقينا سالم المزين وعائلته في مكان اعد لنا كنت قد اخترته بصورة عفوية - وهو مكان جميل في الطرف الاسفل من المنحدر

الغربي لسلسلة الظهر بمواجهة تلال برقان . وفي المساء عثرت على بعد حوالي مئة ياردة من خيمتنا على تسعة قبور حفرت جنب بعضها البعض على سفح تلة جرداء . وبعد استفسارات عديدة علمت ماذا جرى هناك في شهر شباط سنة ١٩٢٦ .

اثناء الصيف واوائل الخريف من كل عام يعيش الهندال وهم فرع من بني مالك بجوار قناة الغريافيه قرب سوق الشيوخ . وفي الشتاء والربيع يهاجرون جنوباً الى الكويت مع غيرهم من الرعاة في المنتفق .

ويستطيع الذي يعيش فترة طويلة في الكويت أن يميز بين هؤلاء الرعاة الشماليين وبين بدو الكويت والسعودية . فهم عادة يلبسون على رؤوسهم كوفيات ذات بقع زرقاء داكنة وعقالاً ثخيناً أسود اللون له زاوية مائلة عند أعلى الرأس . أما البدو في ذلك الجزء من شرق الجزيرة العربية فيلبسون كوفيات ذات بقع حمراء أو كوفيات بيضاء عليها عقال أسود فاتح أو قطعة بسيطة من الحبال معقودة حول الرأس . وكما ذكرت آنفاً ، فإن نساء قبائل المنتفق سافرات الوجوه ويزين وجوههن وأذرعهن وأقدامهن بأشكال مختلفة من الوشم .

وللهندال أصدقاء كثيرون بين عجمان الكويت والاحساء وكانوا على علاقة طيبة بصورة خاصة مع عائلة مشواة من فرع محفوظ في عجمان القاطنين في منطقتي أبو حليفا وعره في الكويت . وكان هؤلاء العجمان يبلغون الهندال أثناء رحلتهم الى الكويت عن وجود غزاة من الاخوان في الجوار مما يتيح لهم أبعاد ماشيتهم الى أماكن امينة عندما يدق ناقوس الخطر .

وكان زعيم الهندال رجل يدعى فزع وهو صديق حميم لي عرفته أيام كنت في سوق الشيوخ . وقد أخبرني هو وقريباه عبد العزيز وسمير المعروف بسمار قصة مقتل تلك العائلة .

قالوا انه في سنة ١٩٢٥ هطلت امطار مبكرة في الصحراء وكانت تباشير الربيع تبدو طيبة . وكانت الأحوال لم تهدأ بعد إذ ان الاخوان كانوا لا يزالون يقومون بغزوات قريبة من مدينة الكويت ويسلبون الأغنام والجمال . ولكن ذلك لم يبدل من التحركات المزمنة نحو الجنوب ، فالخيول والماشية يجب أن

تتغذى من طحالب الربيع وأزهـــاره في الربيع . وبالإضافة الى ذلك كانت الفلاحة وزراعة المحاصيل الجديدة قــد بدأت في المنتفق نظراً لهطول أمطار مبكرة مما حتم إبعاد الأغنام والحمير .

وجاء رعاة المنتفق جميعهم كالمعتاد من الفرات في العراق ولكن أحداً منهم لم يتوغل الى الجنوب كما كانوا يفعلون في السابق . وفي شباط سنة ١٩٣٦ كان الهندال يخيمون على طول الجهة الغربيــة من سلسلة الظهر فوق آبار عرفجيه على بعد ثمانية أميال تقريباً الى الجنوب الشرقي من تلال برقان . وككل الرعـــاة العراقيين لم ينصبوا خيامهم في خط واحد كما يفعل البدو في المملكة السعودية ، ولكنهم ، حفاظاً على ماشيتهم ، كانوا يفرقونها واحدة واحدة او اثنتين اثنتين لا تبعد الواحدة عن الأخرى أكثر من مسمع طلقة بندقية في حالة الانذار .

إن رعاة المنتفق لا يقتنون الجمـال ولذلك فإن خيامهم التي تحمل على ظهور الحمير كانت صغيرة وواطئة . وكان لخيمة فزع اربعة أعمدة ولكنها أخف من النوع الذي يستخدمه البدو . أما كل خيمة من خيام رعاياه فكانت تضم على الأقل بساطاً زاهي الالوان تصنعه النساء من الصوف أثنـاء أشهر الصيف تحت أشجار النخيل في المنتفق. وكان كل واحد منهم سعيداً بقدر ما كانت تسمح له تلك الايام القلقة لأن الهجرة السنوية الى صحراء الكويت الجنوبية أمر يترقبونه سنة بعد سنة .

وأما شباب الهندال فقد كانوا ، كغيرهم من شبان قبــائل المنتفق ، رفيعي التهذيب ويتمتعون بصحة جيــدة . وكانت غالبيتهم تملك خيولاً يركبونها في رحلتهم الطويلة الى الكويت . وغالباً ما كانوا يشاهدون في أسواق الكويت يشترون حاجياتهم أو يبيعون منتجاتهم ، بينما تظل خيولهم في اسطبلات مجاورة .

ومن هؤلاء الشبان شرائب بن مضرب الهندال ابن عم فزع . وكان هـذا الشاب لعدة أشهر خلت ، يحمل سراً في طيات قلبه حبــاً جارفاً لفتاة تدعى رخيصه وتنتمي الى قبيلة زراعية صغيرة تدعى عباده . واتضح ذلك عندمـــا أبلغ مضرب الهندال ابنه أن عليه أن يتزوج ابنة عمــه لدى عودتهم الى المنتفق في الصيف . وغضب شرائيب وامتعض وأقسم انــه لن يتزوج طيلة حياته إلا

محبوبته رخيصه . ولكن صعوبات كبيرة كانت دون ذلك لأنه بالرغم من أن العباده — وهم من بني مالك أيضاً — كانوا على علاقات حسن جوار مع الهندال ، فإنه لم يسبق وأن سمح لرجل من الهندال أن يتزوج فتـــاة من العباده الذين لا يمانعون قط في تزويج بناتهم للهندال .

وبعد عدة أيام من هذه الأحداث ، وفيما كان عبدالله الهندال أحد كبـــار أفراد العائلة قد ذهب الى الكويت برفقة عدد من النساء لشراء الحاجيات ، دعا فزع معظم أفراد العائلة لتنـــاول القهوة في خيمته ولبحث الموقف . ونظراً لأن الأوضاع في المنطقة كانت مضطربة ، فقد جلس الرجال حول نار القهوة وبنادقهم المحشوة على ركبهم وأحزمـة الذخيرة على خصورهم . وكانت رخيصه حاضرة بين النسـاء اللواتي حاولن أن يظهرن لها استحالة زواجها من شرائيب .

وبعد أن دارت القهوة بدأ النقاش وأخذ يشتد نظراً لأن شرائيب أصر على الرفض في النظر بعين العقل. وفجأة وبلمح البصر وبدون أن يفكر في العواقب ، أطلق أحد الشبان نار بندقيته على شرائيب فقتله فوراً . وفي الحـــال قتل القاتل وتحولت الخيمة الى كتلة من الرجال الغاضبين يطلقون النار على بعضهم البعض . وعندما خرجت رخيصه راكضة من الخيمة تولول أصابتها رصاصة في ظهرهـــا فأردتها قتيلة . وهربت النسـاء الأخريات الى الصحراء حيث أخذن يبكين ويندبن ويمزقن ثيابهن ويلطمن على صدورهن .

ولم يبق على قيد الحيـــاة ممن كانوا في الخيمة سوى أربعة رجـــال : فزع ، والشاب عبـــد العزيز وشقيقيه شديّد ومزعل وكلهم أصيبوا بجراح . وكانت الجثث ملقاة على الأرض حولهم . وأمسك فزع زمام المبادرة فأمر عبد العزيز ، أقلهم جراحاً ، أن يذهب إلى المدينة ويحضر عبدالله على جناح السرعة . وانطلق عبد العزيز نحو فرسه وفك رباطها وامتطاها بدون سرج على أقصى سرعتها الى مدينة الكويت التي تبعد ٣٦ ميلاً عن مكان الحادث .

وجـــد عبد العزيز عبدالله والنساء ، وعـــددهم ٢٠ امرأة ، في الصفاة . وكثيرون يتذكرون ذلك اليوم الرهيب عندما وصل الخيـــال المنهك الجريح

حاملا النبأ المؤسف . وركب عبدالله المعروف بهدوئه فرسه وانطلق بها بأقصى سرعة ممكنة . أمـــا النسوة فقد طغى عليهن الحزن فأخذن يولولن ويصرخن ويمزقن شعورهن وثيابهن كالمجنونات . وانتشرت الأنباء في المدينة كالنار فاجتمع الناس حولهن . وراحت الصديقات يحاولن التعزية والتخفيف عنهن بينما راحت الايدي المحسنة تحمل لهن البضائع على ظهور الحمير . وفي وقت متأخر من بعـد ظهر ذلك اليوم غادرن المدينـــة في موكب حزين وراء قطيع من الحمير ومعهن عبد العزيز .

وقبل غروب الشمس كانت تسعة قبور قد حفرت في المخيم بجانب بعضهـــا ووضع فيها الرجال الثمانية والفتاة ودفنوا . لقد فقد فزع في الحادث عمه مضرب وابن عمـــه شرانيب . وفقد عبدالله شقيقيه جاسم ومطر وابني شقيقته كريّم ومطشر . وفقد عبد العزيز شقيقه داود . كذلك فقد الشاب فيصل ذو العينين الزرقاوين والده حسن .

وهكذا خيم عليهم الليل فاصطف الباقون على قيـد الحياة للصلاة شاكرين الله على رحماته مع ان قلوبهم كانت تتفطر أسى وأنهوا صلاتهم بالقول :

ــ الحمد لله . . الله يعطي والله يأخذ .

لقد وجدت صعوبة في انتزاع هذه القصة من فزع وغـــيره لأن المندال لا يحبون الحديث عن ذلك الحادث . ولست ادري من أطلق الرصاصة الأولى لأن المندال لا يفشون بالسر . ولم يعد أهل المنتفق يقصدون ذلك المكان المشؤوم .

وفي ربيع سنة ١٩٤٣ أيضاً اقمنا مخيمنا بالقرب من هناك . وعندمـا كانت الشمس تؤذن بالغروب كنـــا نستطيع ان نرى من الخيمة ظـــلال المرتفعات الصغيرات ملقاة على القبور . وكنا نشعر اننا قريبون جداً الى اصدقائنا المندال .

وكان فزع وسمير وعبد العزيز يقومون بزيارتنا كلما انتقلوا الى الكويت ، وكنت انا وزوجتي نرد لهم الزيارة في المخيم ونتحدث عن الأيام الماضية . وكانت زوجة سمير فتاة طيبة للغاية وصديقة حميمة لنا بصورة خاصة . وقـــد انجبت طفلها الأول عبدالله سنة ١٩٣٣ وكان طفلاً جميلاً معافى . وفي اوائل السنة ذاتها

هندال
طاهر
مرهز
مضرب
علي
مطر
جاسم
عبدالله
ونسا (انثى)
خزعل
سلمان
سعدون
فزع
عبيد
شرائيب
حسن
مطشر
كريم
علي
نايف
ذياب
سمير
(مسمار)
سرحان
عبدالله
عوض
نصار
نجم
عبد الوهاب
شديد
داود
عبد العزيز
مزعل
منشد
فيصل
طعمه
راضي
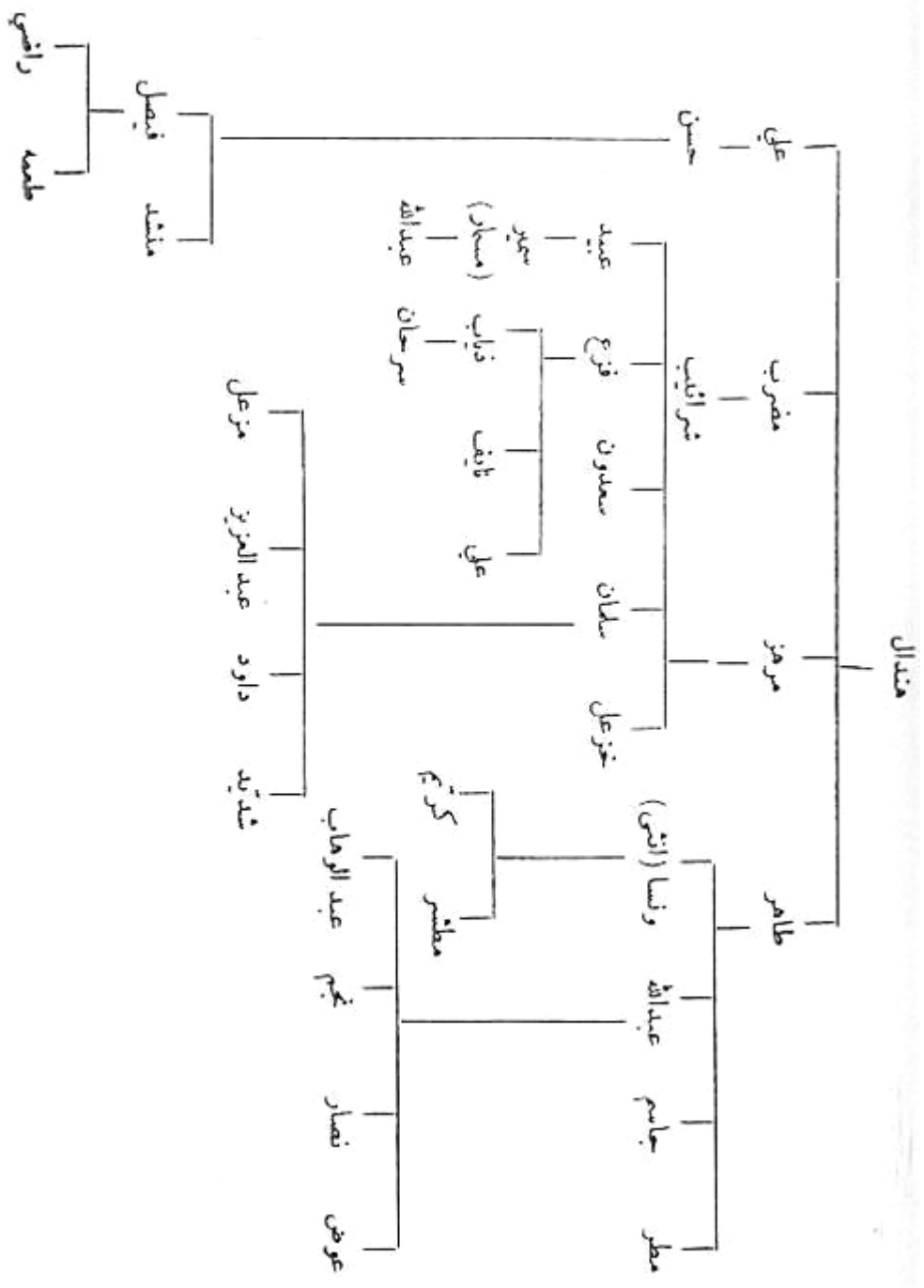
اتهم فزع زوراً بسرقة جمل فأودع سجن الكويت . وبسعدني انني تمكنت من إطلاق سراحه. وفي ربيع السنة التالية احاطت الشرطة العراقية بسمير (مسمار) قرب الرافعيه وأخذت منه سبعماية دينار . وكانت كلمة مني كافية لإعادتها اليه وخاصة انني ابلغت المسؤولين عن معرفتي الشخصية بالرجل منذ ان كنت في سوق الشيوخ ، وشهدت على حسن سيرتـه وسيرة عائلته الموالية جداً للبريطانيين .

لقد كانت صداقتنا الطويلة مع عائلة المندال مصدر سعادة لي ولزوجتي اثناء السنوات الطويلة التي قضيناها في الكويت . وادعو الله ان يبقي على هذه الصداقة .

الاتفاقية الجوية في الشارجه

ونظراً لأن الحكومة الايرانية كانت تحظر مرور طائرات الركاب في جهتها من الخليج ، ولأن ابن سعود رفض السماح لتلك الطائرات باتباع خط الجهـة العربية بتحريض من الاخوان ، وجدت الحكومتان البريطانية والهنديـة من الضروري تدبير أمر هبوط الطائرات الامبراطورية في الشارجة على الساحل في طريقها الى الهند والشرق الاقصى . ولذلك كان توقيع اتفاقية بهذا الشأن مع الشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارجة ، أمراً بالغ الأهمية .

وقد جرت اتصالات تمهيدية مع الشيخ سلطان بن صقر ولكنه رفض التعاون . وقام السير هيو بيسكو المقيم السياسي بزيارة للشارجة فوجد الحاكم صعب المراس ويضع العراقيل ، فعاد خالي الوفاض .

وفي ١٤ تموز سنة ١٩٣٢ تلقيت برقية من السير هيو يبلغني فيهـا أن احضر الى البصره ومن هنـاك أركب زوارق كرانشي السريعة لأوافيه الى مقره في بوشير . وقال انه يريـد ان يجرب حظه مرة ثانية فيما يتعلق بالامتياز الجوي في الشارجة الذي كان يطمح ان يحصل عليه . وبمـا انني كنت اتحدث العربيـة بطلاقة ، فقد ظن انه بمساعدتي يستطيع ان يصادف نجاحاً هذه المرة . وكانت

خطته ان نتوجـــه الى جزيرة تامب في وسط الخليج حيث ننتقل الى السفينة البريطانية « بايدفورد » ونتوجه عليها الى الشارجه في صباح اليوم التالي .

لقـــد كنت اعرف ان السير هيو يعـاني من ضيق في التنفس ولم يكن من المناسب ان يدخل في اية عملية صعبة في حرارة صيف الخليج الفارسي . وعندما كان في اجازتـــه في المملكة المتحدة أبلغ ان لا يعود الى الخليج ولكنه فضل الواجب على المشاعر الشخصية وعاد قبل عدة أشهر من الوقت الذي اكتب عنه .

وفي الليلة السـابقة لذهابي الى البصره حلمت حلمـــاً مزعجاً فأيقظت زوجتي وابلغتها ان لدي شعوراً بأن كارثة ستقع في هذه الرحلة . لم اكن استطيع ان اقول ماذا سيحدث ولكن شعوري وحدسي بذلك كان قويـاً بحيث كنت قلقاً طوال الطريق الى البصره وفي الزورق السريع الذي غـادر البصره في السادس عشر من تموز .

ووصلت الى بوشير الساعة الخامسة من بعد ظهر اليوم التالي ، وجـاء السير هيو الى السفينة وهو في احلى حالات المرح . وتلك الليلة تناولنا عشاء شهياً على مائدة القبطان الخاصة فزالت وساوسي . ولم يكن مع السير هيو سوى سكرتيره الخاص الكابتن تشونسي من الدائرة السياسية الهنديـة وهـــو شخصية قديرة جذابة .

كانت تلك الليلة هادئة شديدة الحرارة . وصلنا الى منارة جزيرة تامب عند منتصف الليل فوجدنا السفينة البريطانية « بايدفورد » في انتظارنا . ولم يستغرق انتقالنا الى السفينة بزورق تابع للبحرية سوى بضعة دقائق . وبعـد ان رحب بنا الكابتن دنيسون بحرارة وشربنا كأساً معه انتقلنا الى الداخـــل . ونمت انا والسير هيو على سريرين على ظهر السـفينة وبجانبي زجاجة ماء مثلجة .

وسارت بنا السفينة ببطء لكي نصل الى الشارجة في النهار . وفي السـاعـــة الثانية والنصف صباحاً احسست بقبضة يد على كتفي فاستيقظت لأجـد السير هيو بجانبي وقد مزق الألم وجهه . فقال لي لاهثاً :

— استدع الطبيب فوراً ... اظن انني سأموت .

وسقط على سريري . بينما أحضرت جراح السفينة خلال ثلاث دقائـــق . وأسند الطبيب السير هيو على كتفي وعمل ما باستطاعته لانقاذه وحقنـــه ابرة مسكنة ، ولكن عبثاً . فبعد ان تقيأ عدة مرات فقد وعيه ومات بين ذراعي خلال نصف ساعة . وأذكر ان ثياب نومه كانت تقطر ماء . الى هذا الحد كانت الحرارة والألم الذي عاناه السير هيو .

وفي المؤتمر القصير الذي تلا ذلك قرر الكابتن دنيسون ان نتوجه الى جزيرة هنجام عند مدخل الخليج حيث ترسو سفينة كبـــير ضباط البحريـة وسفينة حربية أخرى . وبعد سلسلة من الاتصالات اللاسلكية بحكومة الهند وبالسيدة بيسكو في بوشهر تقرر دفن المقيم السياسي الراحل في البحر . وتم ذلـــك في الساعة التاسعة صباحاً عند شاطىء جزيرة هنجام وسط تحية بحرية كاملة . لقد كان الاحتفال بالدفن مؤثراً .

ان وفاة السير هيو وهو في الثانية والخمسين من العمر ، كانت كارثة كبيرة اذ كان يـــدل على انه سيصبح أعظم المقيمين السياسيين الذين شهدهم الخليج اذا استثنينا ذلك الساحر السير بيرسي كوكس .

وبعد الجنازة اقترحت على كبير ضباط البحرية وعلى الكابتن دنيسون ان نتابع رحلتنا الى الشارجة لكي أعالج قضية الاتفاقية الجوية بنفسي لأنني أعرف ان السير هيو كان يرغب في ذلك . وأيدني في ذلك الكابتن تشونسي والكابتن دنيسون، فأبرقت الى سيملا وزير خارجية حكومة الهند بهذا الخصوص وبعثت بنسخة من البرقية الى لندن .

وصلنا الشارجه في صباح اليوم التالي فـــنزلت الى الشاطىء فوراً وأبلغت الشيخ سلطان بن صقر بوفاة السير هيو ، وبأنني سأدخل في المفاوضات مكانـه . وقد فعلت ذلـــك بمساعدة الكابتن تشونسي القيمة . وبقينا نعمل في نصوص الاتفاقية ثلاثة أيام وثلاث ليال نحذف من هنا ونضيف هناك متبعين في الاساس مسودة السير هيو ، الى أن اتفقنا في اليوم الرابع على كل شيء بما يرضيني ويرضي الشيخ. ولم يبق شيء إلا ان احضر الشيخ الى ظهر السفينة ليوقع الوثيقة بحضور

الكابتن دنيسون كشاهد .

ووعد الشيخ سلطان ان يأتي في الساعة الرابعة بعد الظهر ليحل ضيفاً على الكابتن دنيسون في حفلة شاي رسمية وانهاء القضية . وعدت الى السفينة منهوك القوى من الجهود التي بذلتها ومن شدة الحر الذي لا يطاق .

وفي الساعة الرابعة تماماً جاء الشيخ سلطان في زورقه العتيق فاستقبلته انا والكابتن دنيسون على ظهر السفينة واقتدناه الى غرفة القيادة حيث اعــدت له مائدة من المأكولات والحلويات الشهية المغرية .

واصطحب الشيخ سلطان معه وزيره الذي لم اعد أذكر اسمه . وظل يخبرني انه زار باريس مرة ليبيع اللآلىء فعرفت ان تلك هي مهنته في حياته العادية . وبالطبع كان يعرف فيكتور روزنتال أحد كبار التجار في عالم اللؤلؤ ، وزائر دائم لمنطقة الخليج . وفيكتور روزنتال يهودي فرنسي من أصل روسي ، وهو شخصية جذابة وصديق قديم لي ولزوجتي . وكان العرب في كل مكان يحبونــه ويطلقون عليه اسم « أبو صناعة اللؤلؤ الحديثة في الخليج الفارسي » .

واستمتعنا بالشاي ولكن الشيخ سلطان بدأ يتصرف بصورة مزعجة . فقد شاهد في الغرفة صورة للملك جورج الخامس موقعة بخط يــده ومحفوظة ضمن اطار فضي ، فقال انه يريدها . فقال الكابتن دنيسون انه لا يستطيع التنازل عنها لأنها هدية شخصية من الملك . ووقع نظر الشيخ على صورة كبيرة للسيدة دنيسون محفوظة أيضاً ضمن اطار فضي . فأصر ان يأخذها ولكن صاحبهـــا رفض شارحاً للشيخ بكل أدب وتهذيب أنها صورة زوجته ولا يستطيع ان يتخلى عنها . ولم يرتدع الشيخ سلطان بل أمسك بعلبة فضية للسجاير أهدتهـــا الملكة ماري للكابتن دنيسون عندما كان ضابطاً على اليخت الملكي . وقــال الكابتن — واعتقد انه لم يكن حكيماً في ذلك — ان الشيخ سلطان بامكانــه ان يأخذ أي شيء من الغرفة ما عدا تلك الاشياء الثلاثة .

وما كاد الكابتن يقول ذلك حتى كان الشيخ سلطان قد وضع في جيبه ولاعتين فضيتين ، وصورة للسفينة « بايدفورد » ، وعلبة سجاير فضية أخرى ، ونصف

دزينة ملاعق شاي ، وأمر عبده الاسود ان يحمل معه علبة بسكويت وكمكة لم تقطع بعد .

وكنت انا طيلة الوقت افكر في الاتفاقية وفي توقيع الشيخ الذي يجب ان أحصل عليه لذلك كنت دائماً اهمس في اذن الكابتن دنيسون قائلاً :

– دعه يأخذ تلك الاشياء .. لا تعكر مزاجه ... هذا اهم شيء .

ولم يكن الكابتن دنيسون يوافقني في قضية ملاعق الشاي فوعدته ان اعطيه مثلها . لقد كان ذلك درساً مفيداً ولكن مزعجاً .

وأخيراً جاء دور العمل . فأخرجت الاتفاقية الجوية ووضعتها على الطاولة وأحضرت القلم والحبر والاوراق وقلت موجهاً حديثي للشيخ :

– يا صاحب السعادة لقد حان الوقت انتهي المسألة القريبة من قلبينا والتي وافقت عليها سعادتك . فاذا سمحت ووقعت هنا سأوقع انا تحت اسمك ويضع صديقنا الكابتن دنيسون توقيعه تحت توقيعي . وأخـــيراً يوقع سكرتير المقيم السياسي الموقر تحت امضاء الكابتن الكريم .

واجابني الشيخ سلطان بقوله :

– لا تستعجل يا صديقي .. لا تستعجل . لقـــد وافقت فعلاً على نصوص الاتفاقية ووعدت بتوقيعها ولكنني قبل ان افعل ذلك يجب ان انتظر غروب الشمس حتى أصلي . فلربما كانت لله ارادة يمليها علي .

ولم يستجب لكل محاولات الاقناع التي بذلناها .

ثم سألني قائلاً :

– وهل هناك شيء افضل من ان يستلهم المرء توقيعه من صلاة الى الله .

انها حجة لا يمكن الاجابة عليها .

وبعد انتظار طويل ممل جلس الشيخ سلطان خلاله على بساط مده خدامه على ظهر السفينة يشرب القهوة ويتحدث الى وزيره، غابت الشمس وبدأ الصلاة. واستغرقت صلاته ربع ساعـــة نهض بعدها ليعلن أنـــه على استعداد لتوقيع الاتفاقية بشرط ان يتعهد الكابتن دنيسون بوداعه بطلقة مدفع تحية له عندما

يغادر السفينة . وتعهدت له ان كل سفينة تأتي الى مينائه ويقوم هو بزيارتهـا ستطلق مدافعها تحية له . وقال الشيخ انـه يشعر بأن الله سيذكره بشيء نسي ان يقوله قبل الصلاة وسهي عن باله .

اما الكابتن دنيسون فقد زمجر عندما علم بطلب الشيخ قائلاً :

ـ اذا طلب مني ذلك الملك جورج بنفسه فلن استجيب له .. افـلا يعلم الشيخ ان اطلاق المدافع بالتحية ممنوع بعـد غروب الشمس حسب انظمة الامبرالية ؟

على هذه الصورة كانت جميع مناقشات الضابط المتوتر الأعصاب .

وقلت له :

ـ بربـك لا تخلق لنا صعوبات الآن . اطلق جميع المدافع التي لديـك وبالذخيرة الحية اذا اقتضى الأمر ودعنا نحصل على توقيع الشيخ سلطان .

وكانت مناقشتنا سريعة غاضبة ولكنني حملته على الموافقة على اطلاق طلقة واحدة عندما يغادر الشيخ السفينة .

وزمجر الكابتن دنيسون قائلاً :

ـ سأطلق له طلقة حية من مدفع عيار أربع بوصات .

وبعد ان شعرت بالنصر اعطيت الشيخ كل التأكيدات الضرورية .. ثم وقع الوثيقة .

وكانت قد مضت ساعة كاملة على غروب الشمس وبدأ الليل يرخي سدوله . اما الحرارة فقد كانت اشد مما خبرناه في أي وقت من ذي قبل .. وكان كل شيء خانقاً هادئاً هدوء الموت .

وفيما كان الشيخ ينزل الى زورقه العتيق صوب المدفع الى جهـة البحر فوق زورق الشيخ ، وانطلق محدثاً دويـاً هائلا يصم الآذان كاد يرمينا من على ظهر السفينة ويغرق زورق الشيخ . واخترقت القنبلة جـدار الليل الى الظلـة اللامتناهية . (وبالمناسبة ، عاد الشيخ سلطان فحمل معه قـلم حبر من اقلام الكابتن دنيسون) .

أي تجربة ! لقد شكرنا الله وعدنا الى الغرفة ثانية حيث شربنا كأساً ثقيلة من الويسكي جرعة واحدة .

وأخرج الكابتن دنيسون برقية من درجه وسلمها لي . ويعود تاريخ البرقية الى أربعة أيام خلت وهي موجهة الى قائـــد السفينة « بايدفورد » ليبلغهـــا لي ، وصادرة عن وزير الخارجية سيملا . وتقول البرقية انه علي ان لا افعل شيئاً في قضية الاتفاقية الجوية الى ان يحضر المقيم السياسي الجديـد السير ترنشارد فول ويتسلم مهـام منصبه في الخليج الفارسي . وينصح وزير الخارجية في ختـــام برقيته انه من غير اللائق المضي في المفاوضات فور وفاة السير هيو بيسكو وان شيخ الشارجة سيكون أول من يفكر في ذلك .

وقال الكابتن دنيسون عابساً على طريقة نلسون : لقد حجبت البرقية عنك يا ديكسون لأنني قدرت ان وقت العمل قد حان وانه ما لم نتحرك بسرعة فان الاتفاقية الجوية لن توقع لا اليوم ولا في أي وقت آخر .

لقد صعقت .. ولكنني لم أنزعج لأنني كنت واثقاً ان حكومـــة صاحب الجلالة لن تخذلني بعد الجهود الناجحة التي بذلتها . وشككت في ان يكون الكابتن تشونسي قد اشترك في المؤامرة لحجب البرقية عني حتى انتهاء التوقيـع على الاتفاقية . واشتركت مع دنيسون في صياغة نص برقية مهذبـــة الى سيملا تشرح فيهـــا النجاح في مهمتنا وكيف ان عاصفة عاتيـــة هبت على السفينة واضطرتني الى البقاء على الشاطىء مدة ثلاثة أيام ممـــا جعل الاتصال بالسفينة متعذراً .. لقد كانت كذبة ضرورية .

لقد افزعتني فكرة طلقات التحية في المستقبل . وفيما كنا نتداول في الأمر دخل علينا ضابط الملاحة ليعلن ان عاصفة ستهب علينا ، وقال ان الميزان قـد انخفض لى الصفر ولذلـــك يتوجب علينا ان نبتعـد بالسفينة من الشاطىء الى عرض البحر .

وتحركت بنا السفينة بسرعة خارقة في اتجاه البصرة . وهبت العاصفة عنيفة عاتية بعد نصف ساعة واستمرت الى ان وصلنا الى مدخـــل شط العرب . ولم

أعرف شيئاً عن ذلك لأنني أصبت بدوار البحر ولزمت فراشي الى ان بان علينا ضوء منارة الفاو في السادس والعشرين من تموز . انني اسوأ بحار في العالم وقــد اكدت ذلك لي تلك الرحلة .

وبعد ستة أشهر تلقيت رسالة لطيفة من الشيخ سلطان بن صقر يذكرني فيها بالبندقيتين اللتين وعدته في احضارهما له من لندن .. ولكنني لم أعـد ذلــك الثعلب بشيء من هذا القبيل ، كما ان موضوع البنادق لم يبحث على الاطلاق .

عمشا وفيحا

بعـــد ان غادرنا نساء فيصل الدويش الى الرياض ، سمح ابن سعود لبعضهن بالمجيء الى الكويت لزيارتنا . وكانت قد مضت ثلاث سنوات قبل ان نشاهـد ابنتي الأخ ، عمشا وفيحا ، اللتين كانتا مصدر سرور لنـــا اثنـاء اقامتها في الكويت . وقد سمعنا انها تزوجتا .

وفي يوم من الأيام سنة ١٩٣٣ ، وبينما كانت زوجتي مع ولدينـا في انكلترا ، وصلت فيحا الى الكويت بصحبة زوجها عبد العزيز بن عبدالله المـاجد الدويش من عشيرة الدوشان في مطير . ولم تكن تحب أن تأتي الى منزلنـــا لوحدها ، فبعثت لي برسالة تطلب مني فيها ان أزورها في منزلها المكون من غرفتين والذي استأجراه بالقرب من مستشفى الارسالية الاميركية . ووجدت ان فيحا قــد أصبحت امرأة طويلة جذابة مع ان ملامح الطفولة لا تزال على وجهها . كانت لوحدها في المنزل وأبلغتني أنها حامل وتريد أن تبقى في المدينة على مقربـة من المستشفى في حال تعسر الولادة .

إن بنات البدو لا يجدن مانعاً في أن يخبرنك أي شيء عن مثل تلك القضايا الخصوصية ، إذا كن يعرفنك جيداً ويثقن بك . وقد ساعدتها بمبلغ من المـــال لشراء بعض الحاجيات الضرورية والعزيزة على قلب النساء العربيات في مثل هذه المناسبة . وفي الوقت المناسب وضعت فيحا طفلة أسمتها خزنه .

وبعد ثلاثة أيام من الولادة أخلت فيحا المنزل وانتقلت مع زوجها الى خيمة

ستأجراها في السفاط على مقربة من المكان الذي تخيم فيه نساء من قبيلتها . وقد جاء أولئك النسوة الى المدينة لشراء بعض الحاجيات فوجدن ان شيخاً من شيوخ القبيلة قد قدم الى المدينة مع زوجته . وهكذا وجدت فيحا نفسها بين أصدقائها ولكنها طلبت مني ان أحضر لزيارتها مرة ثانية لتريني ابنتها الصغيرة خزنه . وكانت خزنه ملفوفة بثياب والدتها على عادة البدو ، وعلى عينيها البراقتين كحل أسود . ووضعت في يدها الصغيرة روبية للحفظ فأطبقت يدها عليها فوراً . وقالت لي فيحا انها آسفة من أجل زوجها لأنها لم تنجب له صبياً ، وانها ستعطي خزنه عروساً لابني سعود عندما تكبر .

وبعد أسبوع عاد الأب والأم والابنة الى الصحراء مرة ثانية ولكن بعد أن أعطيت فيحا معطفاً جديداً وعباءة ، وبعد أن أعطيت زوجها كيسين من الأرز وبعض القهوة .

ووصلت عمشا بعد ذلك بوقت قصير ، ولا شك في أن فيحا أخبرتها عن الهدايا الجميلة التي قدمتها لها . وكانت عمشا أقل تحفظاً بالنسبة إلى المجيء الى منزلي فصحبت معها باخته خادمة فيصل الدويش الزنجية التي كانت تعيش في الكويت . كانت عمشا أقصر وأنحف من فيحا . وتقول باخته انها أجمل من فيحا ولكن البرقع الشديد السواد الذي كان يغطي وجهها لم يتح لي التأكد من ذلك . وبقدر ما يسمح لي وضعها ذاك بالحكم عليها ، فإن أجمل شيء فيها شعرها الطويل . وبطلب مني أخرجت من تحت برقعها وثوبها شعراً مجدولاً يصل الى ركبتيها في خصلتين تعتز بها وتقول عنها بخبث : إن فيحا لا تملك قروناً مثلي .

ولا شك في أنها أكثر حيوية من شقيقتها ولسانها أكثر طلاقة . فقد أخبرتني عدة حكايات عن بيتها في الصحراء . وقالت انها جاءت الى الكويت بدون زوجها وانها تأمل أن أكون كريماً معها كما كنت مع شقيقتها . وقالت أيضاً ان فيحا بخير وتهديني مزيد السلام ، وانها ستأتيان معاً في المرة القادمة ولكن زوجها سعود رجل شديد الغيرة ولذلك فإنها لن تستطيع زيارتي في منزلي . وأبلغتها انني سأقابلها في خيمة زيد السنا خارج أسوار المدينة لأن زيداً

وزوجته صديقان عزيزان .

وبقيت في الكويت أسبوعاً كاملاً استخلصت منها خلاله آخر أنباء الملك ابن سعود وعائلته . وسألتها عن بندر الدويش ابن فيصل . وعن مطلق بن شقير الدويش ، وهزاع بن بدر الدويش وشقيقه محمد ، وعن محمد بن وثبان الدويش وابن عمه مخرب ، وكلهم من عشيرة الدوشان وشيوخ كبار في مطير .

وأجابتني على سؤالي بقولها :

– كلهم طيبين وكلهم يسلمون .

وقبل ان تغادر الى الصحراء وعدتني انها ستأتي لزيارتي مع فيحا حالما تعود زوجتي من انكلترا .

وسألتها :

– كيف ستعرفين أن زوجتي قد أتت ؟

وكان جوابها :

– سنعرف بأسرع مما تظن . اننا نعرف كل ما يجري في الكويت وعندما تعود أم سعود تصلنا الأخبار بالرغم من بعد المسافة .

إن أهل الصحراء لا يفوتهم شيء .

وسمحت لي أن أقبل يدها قبل ان تذهب وبالرغم من أن يدها كانت قذرة إلا انها يد أميرة . إن نساء البدو مؤنسات للغاية إذا كن يعرفنك جيداً .

ولدى عودة زوجتي من انكلترا ، كانت عمشا عند كلامها فجاءت لزيارتنا مع شقيقتها فيحا . وقد قدمتا من آبار الحبه في السمن على مسيرة اثني عشر يوماً برفقة واحد من أفراد القبيلة . وقالتا ان زوجيهما سيتبعانها بعد أسبوع . ولما سألتها ما إذا كانتا لا تخشيان السفر مدة اثني عشر يوماً لوحدهما وبرفقة رجل ، دهشتا من السؤال ولكنهما عندما علمتا ما أقصد قالتا :

– بالنسبة للصحراء ليس هنالك أي خطر على الاطلاق لأن ابن سعود كفيل بكل شيء . ولكن إذا كنت تقصد كيف نجرؤ على السفر لوحدنا برفقة رجل فذلك أمر طبيعي في الصحراء . فالنساء هناك في مأمن لأن البدو عندهم شهامة

ولا يعتدون على امرأة ولو أعطيتهم ذهب الأرض . وفضلاً عـــن ذلك السنا دويشيات وأميرات في أرضنا ؟ فرافقتنا بعد أن يجد لنـــا مأوى مريحاً يذهب وينام بعيداً . ألا يفهم الرجال في بلادكم ان لمس المرأة حرام !

وأدهشني هـذا الجواب وأعجبت بتحررهما من عقدة الخوف الجنسي ممـــا جعلني أفكر كثيراً في ذلك .

كانت عمشا وفيحا طيبتين ولكنهما أصبحتا نحيلتين بعد تلك الرحلة الصيفية الطويلة الى الحبه . وكانتا أيضاً قذرتين وبحاجـة ماسة الى الثياب . مسكينات إن حياتهن هي أصعب حياة يمكن أن يتحملها بشر ؛ حد أدنى من الطعام بدون أي تشكيل ، بدون أية عناية طبية ، وبدون ملابس نظيفة ، وحرارة الشمس الشديدة التي تبلغ ١٣٠ درجة فهرنهايت تنهك القوى ولذلك تصبح لهن رائحـة كريهة وتجف بشرتهن فيصبحن كالجمـال التي تقتنيها قبائلهن . ولا عجب ، فإن حياة البدوي لا تتجاوز الخمسين عاماً . وتتحسن أحوال البدو ، كجمالهم تماماً ، عندما يهطل المطر في الصحراء أثناء الخريف والشتاء والربيع ، فيكثر حليب الجمال وينمو اللحم على أجساد البدو بصورة مدهشة .

وكان اجتماع مؤنس بعد أربعة أيام عندمـــا انضمت الى الشقيقتين عمشا الأخرى ابنة فيصل الشبلان الذي جـــاء يطلب نصيحتي قبل أن يستسلم لابن سعود . واستضافت زوجتي الفتيات الثلاث مـع سيدات أخريات من مطير في حفلة نسائية خاصة أقامتها لهن في الطـــابق السفلي من المنزل المخصص لاستقبال الزائرات من نساء البدو . وكانت هنـاك باخته مع عبدة أخرى تدعى مستوره وابنتها مبروكه ، وهن عبدات للدوشان أطلق قيدهن ويعملن في دار للاستراحة في الكويت هدية لهن من الشيخ مبارك يستضفن فيها سيدات شيوخ مطير اللواتي يأتين الى المدينة .

وكانت المائدة التي أقمناهـــا لهن تضم خروفاً كاملاً وعدداً من الدجاجات المحمرة وكومات من الأرز مع مرق البندورة . وقد انضممت إليهن بعد الغداء بينما كانت القهوة تدار عليهن . واذكر أنني طلبت من فيحا أن تعطيني خاتمها

كذكرى لتلك المناسبة . وكان خاتماً فضياً أنيقاً فيه فص صدفي أخضر بحجم قطعة نقود صغيرة لكنه بيضوي الشكل . وناولتني الخاتم وهي تبتسم فضممته الى التذكارات الثمينة التي أملكها وكنت أريها إياه كلما جاءت لزيارتنا .

وبعد يومين جاء زوجا المرأتين لزيارتنا وجاء أيضاً هزاع بن بدر الدويش ابن أخ فيصل الكبير وزوج عمشا بنت فيصل الشبلان . أما هزاع فكنا نعرفه جيداً ولكن سعود وعبد العزيز الماجد كانا غريبين وتبدو عليها ملامح الفظاظة . وقد قمنا بتكريم الرجال الثلاثة نظراً لمنزلتهم وقدمنا لهم هدايا معتادة من القهوة والمال . وبعد أن اجتمعنا بالسيدات وأزواجهن مرتين في خيمة زيد السنا غادرت عمشا وفيحا وزوجاهما الكويت وبقيت عمشا بنت فيصل الشبلان وزوجها هزاع .

وتجدر الملاحظة هنا الى ان أهل المكانة من رجال القبائل الذين يزورون الكويت لا يكتفون بزيارة الكولونيل ديكسون وزوجته بل يذهبون ويقدمون احترامات رسمية للحاكم ولشيوخ آل الصباح الذين يعطونهم كسوة وخراجاً قبل أن ينصرفوا . تلك عادة قديمة من شأنها أن توطد العلاقات بين المدينة والصحراء .

لقد قال الرسول عليه السلام ما معناه : أعطوا الهبات فتزرعوا المحبة في قلوب بعضكم البعض .

وانها لمن العادات القبيحة عند زعماء القبائل أن يغادر الضيف منزل مضيفه قبل أن يستأذن . إن حكاماً كابن سعود وشيخ الكويت وغيرهم يستخدمون طاقماً منظماً من البدو للضيافة تحت امرة « مضيفجي » شغلهم أن يعرفوا بقدوم الزائرين المهمين الى العاصمة وذلك لاستقبالهم استقبالاً لائقاً وتقديم الطعام لهم كل حسب مكانته وإفساح المجال لهم بمقابلة الحاكم لا يخرج منهما واحد خالي اليدين .

والزائرون من جهتهم يظهرون كل حشمة وأدب ، ولا يظهرون استعجالهم لزيارة الحاكم أو شغفهم بتقبل الهدايا . فمهمة « المضيفجي » إذن هي البحث عن

الزائرين الجدد والإلحاح عليهم لحضور مجلس الحاكم .

وبعد مدة من الزمان تلقينا رسالة سرية من فيحا وعمشا تقولان فيها ان مصيبة فادحة قد حلت بها . فقد أطلق زوجاهما ، عبد العزيز وسعود الماجد الدويش ، النار على سعود الجبعة وهو رجل قوي في قبيلة قحطان تربطه بالدوشان علاقة زواج ، وأردياه قتيلاً ثم هربا الى العراق للخلاص من انتقام ابن سعود . ويبدو أن الجريمة تعود الى ثارات قديمة إذ ان والد سعود الجبعه كان قد قتل جد عبد العزيز وسعود الماجد قبل عدة سنوات . وقد أمر ابن سعود الذي كانت سياسته أن يمنع عائلة الدوشان من الانقسام على نفسها ، بوقف ثارات الدم وإحالة جميع قضايا القتل الى الشريعة للحكم فيها . ومنع آل ماجد من اللجوء الى العنف ووضع حلاً معيناً . ولكن مع مرور الزمن شعر سعود وعبد العزيز أنه يتوجب عليهما مسح العار بفرض عقوبة الدم وأخذ حقهما بأيديهما.

واستشاط الملك غيظاً من ذلك الحادث فاعلن مصادرة جميع ممتلكات وجمال الرجلين ومنعهما من العودة الى المملكة العربية السعودية تحت طائلة الموت. وكاجراء احترازي فوري ، منع عائلة الجبعه من اية محاولة للثأر وانتهت المسألة عند هذا الحد . وبقيت الزوجتان الشابتان لوحدهما ذليلتين وبدون جمال،ولذلك لم يكن بامكانهما زيارتنا إلا بعد فترة من الوقت .

بقي سعود وعبد العزيز في المنفى ثلاث سنوات ظلت فيحا وعمشا خلالها متخفيتين . وسمعنا ذات يوم ان ابن سعود أصدر عفواً شاملاً عن الرجلين وانهما قدما الى الرياض لتلقي العفو شخصياً وليطلبا الغفران . ولم أدر ما هي قيمة الغرامة التي دفعاها للتسوية ولكنه تأكد لدينا ان سعود وعبد العزيز عادا لممارسة حياتهما العادية من جديد ، فكنا نأمل أن نشاهد صديقتينا الصغيرتين في وقت قصير .

ولم نخطىء في ظننا . فقد جاءت فيحا وعمشا لزيارتنا بعد وقت قصير وسررنا لمشاهدتهما . وقد صحبتا معهما اطفالهما لأن عمشا كانت في ذلك الوقت قد أصبحت أماً لطفلين ذكرين . وكانت تبدو على المرأتين دلائل الأيام العصيبة

التي مرت بها وظهرت عليها اعراض الشيخوخة قبل الاوان . وقد أرتني عمشا المسكينة ضفائرها التي كانت في وقت من الاوقات طويلة جميلة ، وقد تقلص طولها الى النصف وأصبح الشعر فيها خفيفاً .

وطيبت خاطرها قائلاً :

– لا تقلقي ، اما وقد عاد زوجك وأصبح بامكانك الاكثار من الطعام وحليب الجمال ، فإن شعرك سيستعيد نموه .

وقد عملنا كل ما في استطاعتنا لتجهيزهن بالطعام والملابس الجديدة والمال . وأعطت زوجتي لعمشا طلاء للوجه قوي الرائحة فطلت به وجهها وهي في غاية السرور قائلة انه سيجعلها رائعة في عيني سعود . واتضح لنا من ذلك ان سعود قد ملّ زوجته الصغيرة وربما كان ابتعاده عنها ثلاث سنوات في العراق، وسحر الجمال الشمالي هما السبب في ذلك .

وعاد سعود وعبد العزيز وصحبا زوجتيهما الى الكويت في سنة ١٩٤٣ . وفي تلك المناسبة سرقت بندقيته وهو مخيم في الشاميه وهي بقعة يخيم فيها البدو خارج اسوار المدينة . فاتهم رجلاً من رعاة المنتفق بسرقتها ، وبعد محاكمة استمرت أسبوعاً جلد الرجل وغرم بثمن البندقية . ولكن الرأي العام لم يكن الى جانبه وكانت زوجته تعرف ذلك . وفي تلك الاثناء لم تأت هي أو شقيقتها فيحا لزيارتنا فقمنا نحن بزيارتهن في الخيمة ويبدو ان عمشا كانت خائفة من زوجها وكنا نأمل ان لا يؤدي الأمر الى مأساة .

وقبل ان يغادروا المدينة بعد زيارتهم الأخيرة ، طلب الزوجان ان يأتيا لمشاهدة غرفة استقبالنا الانكليزية وخاصة الجلدين المعلقين على الحائط . ولم يحضرا زوجتيهما في تلك الزيارة الخاصة فاستقبلتهما زوجتي وكرمتهما . ان استقبال القتلة أمر يبدو أنه في غير محله في الجزيرة العربية . وانني أعجب متى سيأتي دورهما !

غداء في الصحراء

لقد اسرت الى الحفلة التي اقمناها للصديقتين ومعها عمشا بنت فيصل

الشبلان . ومع ان هذه الأخيرة لم تكن من منزلة اجتماعية رفيعة كصديقتينا ، لكنها كانت حالة جديرة بالدراسة. فقد كانت لها صديقة لا تفارقها اسمها وسميه وهي زوجة الشيخ محمد بن بدر الدويش شقيق هزاع زوج عمشا . ومع ان هاتين الزوجتين لم تكونا دويشيات، إلا ان عمشا وفيحا كانتا تعطفان عليها ، وكانت الأربع على علاقة صداقة وود .

وكانت عمشا بنت فيصل الشبلان تحب زوجها كثيراً وكانت مرحة وطلقة اللسان كأية فتاة انكليزية . وكنت انا وزوجتي نحبها كثيراً ، وكانت هي تعرف طبعاً كيف انني انقذت والدها من الاعتقال مما أدى الى استعادة مكانته عند الملك وكسب عطفه ورضاه . وكانت تتظاهر وكأنها في خوف دائم من ان يتخذ زوجها لنفسه زوجة أخرى غيرها ولذلك كان من السهل اغاظتها . ومن حيلها الأخرى أنها اوردت عبارة نابية غير انثوية ، ثم تنبهت لما قالته فلطمت بيدها وصرخت قائلة :

- يا ويلي .. يا ويلي .

وذات يوم جاءت الى منزلي مع طفليها وصرخت قائلة :

- يا أبا سعود ، أنني أشعر بألم شديد في صدري يهز جسدي ، اتظن انني اعاني من « البلش » .

و « البلش » مرض اجتماعي لا يجوز ذكره ولا يتحدثون عنه عادة . وطلبت منها وأنا اضحك ان تمد لسانها ففعلت بعد ان رفعت برقعها فظهر من تحت البرقع فم صغير رائع الجمال وذقن مزروعة بالوشم. وطمأنتها وأعطيتها جرعة من الكينا مع ست نقاط من الحامض . وتحت على الطاولة زجاجة فيها حلوى فظلت وراءها طيلة الوقت .

وعادت إليّ مرة ثانية وتظاهرت أن مصيبة أخرى قد حلت بها وقالت إن والدها مريض وعلى وشك الموت في مكان يبعد خمسة وعشرين ميلاً عن المدينة . وأخذت تتوسل إليّ قائلة :

- يجب أن تأخذني بسيارتك يا ابا سعود أرجوك أرجوك لأنني أعلم أنه

بحاجة إليّ ويريدني الى جانبه .

وصدف أنني كنت ذاهباً وزوجتي الى مخيمنا على بعد ثلاثين ميلاً تقريباً من الكويت ، فأخذنا عمشا معنا . ولدى وصولنا الى المخيم علمنا ان فيصل الشبلان يبعد عنا عدة أميال وانه قد استعاد صحته . ولكن ابنته على كل حال استمتعت بالرحلة في السيارة .

أما صديقتها وسميه فكانت ضعيفة واسعة العينين . وكان زواجها من محمد الدويش عن حب جارف لأنه فضلها على ابنة عمها التي كانت ، حسب قول وسميه ، دويشية عادية ذات فم قبيح وشفة سفلى متدلية . ولكن وسميه كانت جذابة تميل الى المرح عندما تشجعها عمشا على ذلك . وغير ذلك كان فيها أمران مزعجان : كانت دائماً تتكلم بصوت عال هادر ، ودائماً تفح منها رائحة الأطفال . فكانت تسمح لطفليها أن يبولا على ركبتها دون أن ترى ضرورة في غسل ملابسها . ربما لم يكن لدى المسكينة ثياب أخرى لتبدلها . وعلى كل حال كانت رائحتها أحياناً لا تطاق . وعندما شاهدناها آخر مرة أبلغتنا باعتزاز أن محمد لا يزال يحبها بصورة جنونية . وعلى حد قولها :

— هو يحبني ويموت علي .

واعتقد أن ذلك أمر لا بأس به .

لقد شاهدنا وسميه وعمشا في أحسن حال عندما قمنا بزيارة محمد بن بدر في الشق حيث كان يخيم مع شقير بن شقير . أما هزاع بن بدر الذي كانت خيمته الى جانب خيمة محمد ، فكان في الرياض يزور الملك ، ولذلك نزلنا في خيمة محمد . وقبل الغداء وبعد أن شربنا القهوة مع محمد تلقينا رسالة عاجلة من عمشا بنت فيصل الشبلان تقول فيها إنه يتوجب علينا تشريف خيمة زوجها الغائب في زيارة رسمية لتناول القهوة . ونزلنا عند رغبتها فاستقبلتنا عمشا استقبالاً رائعاً واحتفت بنا كما يفعل الرجال وأصرت على أن تصنع القهوة بيدها .

وبعد أن قمنا بواجباتنا عدنا الى خيمة محمد حيث أعد لنا غداء فاخر هو عبارة عن خروف طهي مع الأرز على طريقة البدو البسيطة . وبعد القهوة دعينا

رسمياً الى النصف الثاني من الخيمة حيث تقيم وسميه لتناول فنجان من الشاي على الطريقة العربية . وكانت عشا هنـاك طبعاً ، وظهرت المرأتان بأحلى حللها وكانتا رائعتي الجمال .

وقضينا ساعة ممتعة ، فكان محمـد يقص علي الحكايات بينما كانت المرأتان تلعبان بمجوهرات زوجتي وملابسها وحلقها وشعرهـا ، وتسألان اسئلة صعبة طوال الوقت تتعلق بالزواج والجنس والاطفال وغيرها من القضايا المحرجة . ولم توفراني اذ بـدأتا مزاحاً عنيفاً على مرأى من زوجتي . واعترف انني اشتركت بحفلة المزاح فأخبرتها انه عندمـا يطلقها زوجاهما سأستأذن الملك وأتزوجها كلاهما ، وانني قد حصلت على موافقة زوجتي بذلك . وانطلقت منها صرخات الاحتجاج قائلتين ان زوجيها لن يطلقانها .

وقلت لها :

ـ لا تكونان اكيدتين من ذلك . إنني أعرف ان هزاع قد وقع نظره على فتاة جميلة في الرياض . أما بالنسبة لمحمد فكل واحد يعرف انه يريد التغيير .

لقد قضينا بالفعل يومـاً طيباً ودهشنا لأننا رأينا أولئك السيدات ذوات الأصل الرفيع وأزواجهن في منازلهم الصحراوية ، على قسط كبير من الانسانية ولا يختلفن في الأساس بشيء عن أهل بلادنا . ولاحظت ان محمد قد اشترك في حفلة المزاح لأنه يعرف انـه يتمتع بمكانة عاليـة في القبيلة بحيث انه لا يخشى الشائعات وألسنة السوء .

هؤلاء هم أصدقائي من اهل الصحراء . لقد ذكرت كل تلك الوقائع التافهة من جملة تجاربي المشابهة لها ، لأظهر مدى بساطة حياة أولئك القوم وكيف ان نساء البدو يتمتعن بجاذبية بريئة عادية اذا استطاع المرء أن يخترق جدار الشك وسوء الائتمان الذي يفصلهن عادة عن الزائر الغربي .

سحر صلبه

سأذكر علي بن شويربة شيخ البرزان أحد فروع مطير ، لأنه قام بزيارتين
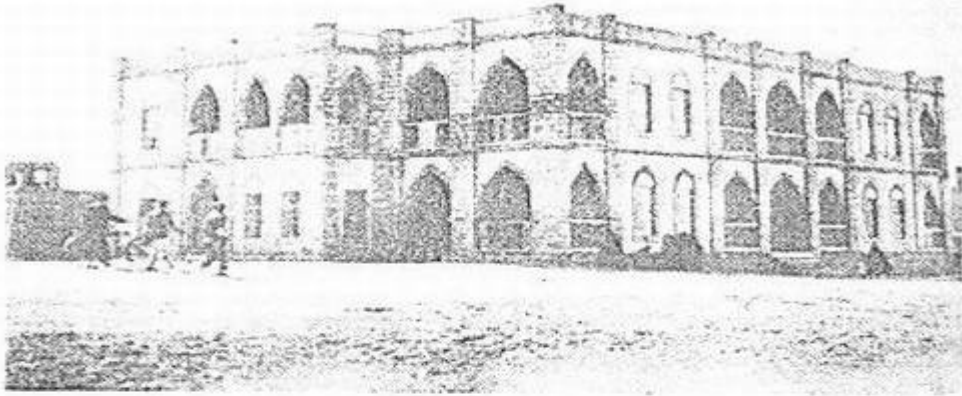
مستشفى اولكوت التذكاري للنساء في الكويت

قبر وحيد في المقبرة المسيحية بالكويت يضم رفات صديقة عزيز

الشيخ شعيا ابو شيبا من جبلان
(مطير) وابنته عجميه

منيف المنيفس من عجمان يحمل
صقر الشيخ ناصر الصباح الناصر
الصباح

خميس بن رمضان من عجمان
الذي يعتبر اعظم مرشد في الجزيرة
العربية اليوم وهـــو موظف في
ارامكو وصديق عزيز لنا

ســعيده وهي من آل مرة
وقد وضع طفلها في المزبح المعلق
على كتف المرأة التي تبدو الى اليسار

سريتين للعراق محاولاً اقناع الملك فيصل بان راية النصر معقودة للاخوان، وذلك لكي يجر العراق الى دخول الحرب الأهلية ضد ابن سعود .

وبعد انهيار الثورة السيئة الحظ لجأ علي لمدة الى العراق ثم عاد الى السعودية بعد ان عفا عنه ابن سعود . وقد نشأت اول معرفة شخصية لي به في صيف سنة ١٩٢٠ وهي آخر سنة كنت فيها وكيلاً سياسياً لحكومة صاحب الجلالة في الكويت .

وذات صباح قدم لزيارتي برفقة عمه فالح بن شويربة ، وكان يبدو انه رجل مريض . وتناول فالح الحديث وأخذ يشرح لي ان علياً ابن أخيه جاء ليقابل الدكتور ميلري طبيب الإرسالية الأميركية ، لأنه يعاني من تأثير سحر ألقته عليه زوجته ، ويعتقد انه ربما كان لدى الدكتور ميلري المشهور بمهارته ، سحر معاكس يطغى على السحر الواقع تحت تأثيره .

وقال فالح ان زوجة علي كانت تحبه حباً طاغياً الى أن تناهى اليها انه يفكر في الزواج من فتاة تنتمي الى قبيلة مجاورة ، فذهبت الى امرأة حكيمة من أخوية صلبة اشتهرت بالسحر . واخبرتها قصتها وطلبت منها ان تسلط سحراً قوياً على زوجها لاستعادته ولتحطيم احابيل غريمتها .

وبهدية مغرية من المال على حد قول فالح وضعت المرأة سحرها موضع التنفيذ . ولا يستطيع ان يقول ما اذا كان نوع من السقوى (سم سحري) قد وضع في قهوة علي ، ولكنه يرجح ان يكون قد وضع شيء شرير في وسادته او في المسند الذي يتكيء عليه عند الاستراحة . وربما كان ذلك حرزاً مكتوباً مع سحر معين ، او شعرات من لحية علي، وقطعاً متنوعة الألوان من الحرير ، وعدداً من الابر وغيرها من أنواع السحر الشرير التي لا تفهمها إلا النساء اللواتي يختلطن بالصلبه . وأياً كان نوع السحر فان نتيجته كانت مؤلمة . فالشيخ المحبوب الذي كان في يوم من الأيام جميلاً شجاعاً لا يعرف الخوف قلبه ، قد تحول الى رجل ضعيف محطم ، ولذلك يتوجب عمل شيء لانقاذه .

كان فالح يتكلم طيلة الوقت وابن أخيه جالس لم ينطق بحرف واحد لكنه

كان يهز رأسه من وقت لآخر اشارة منه الى أن ما يقوله عمه صحيح .
وسألته :
– يا شيخ علي ، ألا زلت تحب زوجتك ؟
فأجابني بقوله :
– نعم . وهي تحبني كما لم تحب امرأة في العالم من قبل . لكنها أصبحت مجنونة وسيطر عليها وهم بأن زواجي من امرأة ثانية يعني نهاية حبي لها . انها مجنونة وغير معقولة الى درجة كبيرة .. ولكن ما الحيلة مع امرأة مجنونة؟ لقد اخبرتها مراراً وتكراراً ان الزواج من امرأة ثانيـــة مسموح للرجل ولكنها لم تقتنع . وانت تعرف ان هذه عادتنا نحن العرب .

وكتبت رسالة للدكتور ميلري طلبت منه فيها ان يفحص الشيخ علي بعناية ويدخله الى المستشفى اذا اقتضى الأمر . وذكرت له ان المريض شيخ مرموق في السعودية وانني أود مساعدته في قضية نفقات المستشفى أو الاجور اللازمة . ولم أذكر له شيئاً عن مسألة السحر . وسلمت الرسالة لعلي وأرسلته مع فالـــح الى مستشفى الارسالية .

وبعد مضي يومين جاءني فالح لوحده . ولما سألته عمـا وراءه من أنباء بعد تناول القهوة ، سلمني رسالة جوابية من الدكتور ميلري قـــال فيها أنه فحص المريض بدقـة ووجده مريضاً بالسل في درجاته النهائية ، فأدخله الى المستشفى للمعالجة . وأعرب الطبيب عن خوفه من أن وفاة الرجل أصبحت مسألة أسابيع معدودة ما لم ينقل الى مصح حمانا في لبنان وحتى هناك لن تشفيه إلا أعجوبة .

وأخذت أشرح لفـالح باهتمام مضمون الرسالة . وكان يصغي إليّ بأدب الى أن انتهيت ففاجأني بقوله : – الطبيب غلطان . نحن العرب نعرف ما هو السل . إن مرض علي ليس من هذا العالم ولكنه نتيجة سحر – سحر شرير . فـإذا كان الطبيب يعتقد ذلك ، فإن عليّ أن أقوم بترتيبات أخرى وكل شيء في النهايـة بيد الله .

وأحرجني كلامه فأخذت أشرح له أن الدكتور ميلري مشهور بين البـــدو

لسعة معرفته وانــه يحظى بتقدير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وسمو الشيخ أحمد حاكم الكويت ، وتوسلت إليه أن يعطي الطبيب فرصة قبل أن يقدم على عمل متسرع .

وقبل أن يخرج فالح من مكتبي ، وكان غاضباً مسعوراً ، أشار الى أنــه إذا توفي علي سيذهب الى حفر الباطن على جناح السرعة ليذبح زوجة علي الساحرة المجرمة . وقال :

– انها لن تعيش إذا توفي علي بن شويربة .. أقسم بالله .

ولما وزنت تلك العبارة وتأملت فيهـا أرسلت بعد خمسة أيام رسالة شفهية سرية خاصة الى زوجة علي أحذرها أن تختبيء في مكان أمين . وقبلت الزوجة نصيحتي فغادرت خيمتها سراً ولجأت الى خيمة قـائد سرية الملك الذي كان مخيماً مع عائلته في حفر الباطن ، « فزبنوها » – على حـد قول العرب – أي أعطوها الحماية . واعتقدت أنها أصبحت في مأمن .

ثم تلقيت رسالة مستعجلة من الدكتور ميلري يخبرني فيهـا أن الشيخ علي بن شويربة قد نقل من المستشفى وان الشيخ فالح أتى بسيارة وأخذه . ويبدو أن ميلري انزعج من ذلك التصرف .. وهو أمر طبيعي . وبعد تحريات قمت بهـا علمت أن فالح أخذ ابن أخيه الى امرأة عجوز معروفة في المدينة بأن لهـا قدرة خاصة ، كما يقول الرجال، وتتعاطى فقط قراءة مقاطع خاصة من القرآن الكريم فوق المريض ليلاً نهاراً .

وقالت المرأة العجوز لفالح :

– تدفع لي فقط إذا شفي الشيخ .. أما إذا فشلت فلا تدفع لي شيئاً .

وعاش علي بعدها عشرة أيام فقط وأعطى عمره . فقالت المرأة :

– ما الفائدة . اراد ان يموت .

ولم أعد اسمع شيئاً عن هذه القضية طيلة فصل كامل تقريباً الى ان وصلتـني أنباء مزعجة تقول ان عجيب بن شويربة شقيق فالح قد زحف متسللاً الى خيمة قائد سرية الملك في هدأة الليـل والجميع نيام ، واطلق النار على أرمـلة علي

فأرداها قتيلة .

ويقول البدو الذين يحبون فوق كل شيء تنميق الحكايات ، ان عجيب قبل ان يقتل ارملة علي ايقظها من نومها بهدوء وهمس في اذنها ان جرائمها كذا وكذا، وان الوقت قد حان لتكفر عنها . انا لا اصدق هذا الجزء من القصة ولكنه قد يكون صحيحاً . وتمكن الشيخ عجيب ان يهرب سالماً ولم يعثر عليه بالرغم من التفتيش الدقيق في كل مكان . كانت الحدود العراقية قريبة فذهب الى المنفى الاختياري لمدة سنتين ثم أعد خطة للعودة الى السعودية تقضي بان يدخل على شخص كبير في السلطة ويطلب منه التوسط له . ووجد طريقه سراً الى الهفوف حيث انسل الى منزل سعود بن عبدالله بن جلوي آل سعود امير الاحساء ودخل عليه . وابرق سعود بن جلوي بالنبأ الى الملك الذي أرسل له امراً فورياً باعدامه لأنه قتل شخصاً آمناً تحت خيمة قائد سرية حفر الباطن .

وأخذ سعود بن جلوي يماطل بذكاء شارحاً للملك ان عجيب دخل عليه وطلب الحماية في منزله . ولذلك فان قتله سيكون له مضاعفات سياسية في كل مكان وخاصة في مطير . الم يقتل فهد بن جلوي ، شقيق سعود ، ضيدان الحذلان شيخ عجمان بعد أن دعاه الى خيمته وسقاه قهوته ... فجرّ هذا العمل عجمان كلها سنة ١٩٣٠ الى الثورة علناً ؟ ثم ألم يصب الملك عبد العزيز جام غضبه سنة كاملة على عبدالله بن جلوي آل سعود حاكم الاحساء وقتذاك ووالد فهد وسعود؟

بهذه الحجج وغيرها تمكن سعود بن جلوي من اقناع الملك الذي أمر باعفاء عجيب من عقوبة الإعدام ولكنه أصر على سجنه ستة أشهر تحصيلاً للشرف . وبعد انتهاء فترة السجن رتب عجيب الذكي بمساعدة فالح الثعلب الذي اصبح شيخ برزان مكان المرحوم علي ، أمر تزويج عبد المحسن شقيق سعود بن جلوي من سلفا ابنة علي الجميلة . وكان الكل سعداء وعلى استعداد لنسيان الماضي .

وبعد خمس سنوات من تاريخ هذه الاحداث قدم الشيخ عجيب الى الكويت وأقام خيمته قرب المكان الذي كنت مخيماً فيه في ابرق خيطان . ودعانا ذات يوم الى الغداء وهمس في اذني ان سلفا ابنة علي وزوجة الشاب عبد المحسن بن

جلوي موجودة معه في خيمته ولكنها مريضة . واراد ان تذهب زوجتي لزيارتها وان تصحب معها ان امكن الدكتورة روث كراوز طبيبة الارسالية لفحصها . وكان شديد الخوف عليها ظناً منه انها واقعة تحت تأثير السحر .

وسألته :

– الست انت عجيب الذي قتل زوجة علي بن شويربة البريئة بدون أي سبب ؟

– نعم انا قتلتها .

قيل ذلك بحضور خمسة عشر رجلاً من البدو كان يشربون القهوة معي .

واضاف قائلاً :

– وفيا بعد وجدنا السحر الذي وضعته لشيخنا علي ولذلك فان قتلها له ما يبرره .

وسألته :

– اي نوع من السحر هو ذاك ؟

– انه وثيقة طويلة مليئة بالكتابات الشريرة . لقد وجدناها مدفونة بالقرب من احدى الدعائم الخشبية التي نجر بواسطتها الماء من آبار الحفر . وكانت الاشارة الى المكان عظمة جمل .

وفك هذا الجواب السخيف عقدة لساني والقيت على عجيب والرجال الجالسين معنا محاضرة طويلة عن سخف معتقدات البدو فيما يتعلق بالسقوى والسحر وغيرها من الخرافات . واخبرتهم انه منذ ثلاثمائة سنة كان الانكليز يحملون نفس المعتقدات ولكنهم اليوم يخجلون من مجرد ذكر مثل هذه السخافات . واخبرتهم اشياء اكثر من ذلك ولكنني كنت اشعر انني اخاطب آذاناً صماء . وتحديت عجيباً ان يثبت لي ان دم رجل برزاني يستطيع ان يشفي رجلاً أو جملاً أو حصاناً أو خروفاً عضه كلب أو ثعلب مسعور ، من الجنون المميت . وذلك، كما ذكرت آنفا ، اعتقاد سائد في الجزيرة العربية . وأجاب عجيب على كل تهكماتي تلك بقوله ان العرب وحدهم يفهمون تلك الأمور . وقال بالحرف

الواحـــد :

– نحن نعرف شيء وانتم تعرفون شيء .

وفي اليوم التالي صحبت زوجتي معها من الكويت الدكتورة كراوز التي شخصت مرض سلفا الجميلة بأنه سل ربما انتقل اليها من والدها . وعـــادت المسكينة بعد عدة اشهر الى الاحساء حيث فارقت الحياة .

ويسرني ان اسجل هنا ان ليس كل البدو كالبرزان الذين عرفوا بغبائهـــم وتعصبهم وامتلاكهم لتطير خاص بهم .

دغيمه ووكر الثعلب

دغيمه هي الابنة الجميلة لمزيد الظافري احد الخدام الذين رافقونا في جولاتنا عبر الصحراء حول الكويت . وكانت ، مع صديقتيها الاكبر منهـــا ، وضحا وضحيه ، ابنتي ضويحي الحرميت احد اتباعنا من العوازم ، رفيقة هـنـا ابنـــة سالم المزين دليلنا في الصحراء ، لا تنفصل عنها قيد انملة .

وفي ذلك الوقت كانت وضحا وهـنـا تبلغـــان الخامسة عشرة من العمر بينما لم تكن ضحية تتجاوز الثانية عشرة ودغيمة العاشرة من العمر . كانت دغيمه يتيمة الأم فكان والدها مزيد يعتني بها فيطهي لها الطعام عند غروب الشمس ويعــنى بجـِماله الستة في النهـــار . ولم تكن دغيمة قوية البنية ونادراً ما كانت تبتسم .

وفي أيام العيد كان الفتيات الأربع يـأتين الى خيمتنا مع امهاتهن وعماتهن ، حيث كن عند المساء يقمن باداء رقصات واغنيات بدوية وهن في ثياب العيـــد الزاهية وشعرهن مسدول على اكتافهن . كانت رقصاتهن خاصة بهن وهي عبارة عن حركات رهز خفيفة يعمـــل فيها الرأس بشكل دائري مرة الى اليمين ومرة الى اليسار . ولم يتوقفن عن الرقص إلا عندما يطغى عليهن الاعياء والدوران ، ثم يركعن امامنا لتلقي التهاني والمدائح . وكانت دغيمة أكثر رفيقاتها خجـلاً .

وفي أواخر تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ قمنا باحدى رحلاتنا العـــادية مع سالم ومزيد وضويحي وعائلاتهم وامتعتهم ومواشيهم ، باتجاه منخفض الشق عنـــد

حدود الكويت الغربية . ووصلنا الى تلة آرحيه وأقمنا خيامنا هناك ومجموعها ست خيام بما فيها خيمتنا السوداء الجديدة التي كانت تبدو بارزة بين الخيام .

وقضيت انا وزوجتي نهارنا في الصيد مع سعود بن غران الذي يهتم بصقور الصيد الخاصة بالشيخ أحمد حاكم الكويت، في أم الشذاذين وسلسلة خد السعادة . وعدنا الى المخيم قبل غروب الشمس ومعنا كيس فيه خمس حباري ، فسلمناها الى زوجة سالم عمشا – او عطشى كما يلقبونها – لتطبخها .

وكان المساء بارداً فسرنا أن نجلس حول النار لابسين فروات من جلد الخروف نحتسي القهوة . وبعد غروب الشمس بوقت قصير تحول الطقس تحولاً ملحوظاً وهي ظاهرة عادية في قلب الصحراء في مثل ذلك الوقت . فقد تلبدت غيوم كثيفة سوداء فوق رؤوسنا من الشمال سبقتها ريح باردة كالثلج هبت بقوة العاصفة .

ووضعنا كومة من الحطب فوق النار وثقلنا الستائر الخلفية للخيام بان دفنا اطرافها في الرمل وشددنا حبالها جيداً على الاوتاد . واشتدت حلكة الليل في تلك الاثناء واذكر انني خرجت لأتفقد قرب الماء التي قيل انها تجمدت خلال فترة لا تتعدى الساعتين من وصولنا الى المخيم . وبصعوبة فائقة جمعت الأغنام في الظلمة مع جمال سالم وأوى بعضها داخل الخيام وبعضها الآخر خارجها . ومما زاد الوضع سوءاً ان المطر بدأ ينهمر بغزارة ممزوجاً بالثلج والبرد الامر الذي أضاف الى حلكة الليل حلكة جديدة ودفع الى تحت اللحاف كل من سولت له نفسه الخروج لمواجهة العاصفة .

وفجأة طلع صراخ بان دغيمة لم تأت الى الخيمة وان واحداً من جمال أبيها لم يصل بعد . وعقدنا مجلساً طارئاً ذكر فيه ان دغيمه خرجت لوحدها بعد الظهر لترعى جمال أبيها وهي ترتدي دشداشة قطنية خفيفة وبدون عباءة تقيها البرد والمطر ، وانها شوهدت آخر مرة على بعد أربعة أميال . وكان مزيد والدها قد ذهب الى الكويت لشراء بعض المؤن .

وبدأ المطر عندئذ ينهمر كالسيل . وبالرغم من أن مخيمنا كان قائماً على أرض

مرتفعة ، فانه اصبح صفحة من الماء تدخل اليه من جهة وتخرج من جهة . وكل ما كان باستطاعتنا ان نفعله هو ان نجمع الفرش والبسط على بعضها ونجلس فوقها في الظلام .

ولكن دغيمه المسكينة استأثرت بكل تفكيرنا . وقد حاول سالم واثنان من العوازم أن يقوما بجهد بطولي للوصول إليها أثناء الليل ولكنهم لم يستطيعوا التقدم كثيراً واضطروا الى العودة عند منتصف الليل منهوكي القوى . وقلقنا جميعنا قلقاً بالغاً ظناً منا أن الفتاة قد تجمدت من البرد منذ فترة طويلة .

وفي الساعة الرابعة صباحاً توقف المطر وكانت المنطقة كلها عبارة عن بركة ماء يلفها الضباب . وكانت الرؤية لا تتعدى عشر ياردات ومع ذلك أرسل فريق للانقاذ ـ كنت أنا واحداً من أعضائه ـ بقيادة سالم لنرى ما حل بالفتاة وجمالها. ووجدنا طريقنا ببطء على آثار أقدام الجمال باتجاه الكويت . وكانت الأرض على جانبي الآثار صعبة تتألف من كتل كبيرة من العشب المعروف باسم « تنـدا » تجمعت على قواعده مرتفعات من الرمل يبلغ ارتفاع بعضها أربعة أقدام ، مما جعل تقدمنا صعباً للغاية .

وعند الفجر وصلنا الى المكان الذي يقصده سالم ولكننا لم نجد أثراً لدغيمه أو لجمالها . وتفرقنا كل واحد في جهة على أمل أن نعثر على جثة الفتاة متجمدة . وفجأة سمعنا صراخاً فركضنا باتجاه الشخص الذي كان يصرخ ويلوح ببشته .

ووجدنا دغيمه وقد انطوت على نفسها داخل وكر للثعلب . لقد كانت على قيد الحياة ولكنها بالغة الاعياء وغير قادرة على التحرك من البرد . وحملناها الى المخيم بفرح عظيم . وبعد ان أدفئت بجانب النار وأعطيت شراباً ساخناً وبعض الطعام استطاعت أن تقص علينا قصتها . وبلغة الأطفال حدثتنا كيف أن جمالها ضاعت في الليل عندما بدأت تشتد غزارة المطر . ولكنها ، كفتاة بدوية ذكية ، قررت أن تجد لنفسها مأوى بالرغم من الخوف والمطر والظلام والبرد القارس . ورأت وهي مبللة بالماء وتعاند قوة الريح ، أن تحتمي وراء تلة رملية حولها فأخذت تحوم في المكان بحثاً عن واحدة كبيرة .

وقالت دغيمه :

ـ إنني لم أبك ولكنني كنت خائفة . وساعدني الله بأن قادني الى وكر للثعلب أخذت أكبره وأعمقه . ولم يكن ذلك صعباً لأن الرمل كان رطباً . ثم زحفت الى الوكر هرباً من الريح التي كانت تهب من فوق الوكر الى جذور الثندا فلم يصل الى الوكر إلا القليل القليل من المطر .

واعتنينا بدغيمه عناية فائقة طيلة اليوم التالي لا لأنها أظهرت شجاعة وروحاً عالية فقط ، بل لأنها عضو عزيز في عائلة مخيمنا . ووصل والدها الى المخيم بعد يومين وكان شبه مجمد من تعرضه للبرد ولكنه واصل سيره قلقاً على جماله . وكان تعليقه الوحيد عندما سمع قصة مغامرة ابنته :

ـ شكراً لله .. لقد فعلت حسناً .. ولكن ماذا تتوقعون من ابنتي ؟ انها شيطانة صغيرة .

ووجدت جمال مزيد سالمة كلها بالقرب من واحة جهرا ولم يصب واحد منها بأذى ولكن العاصفة قتلت تسعاً من أغنام سالم وجملا مريضاً .

حلم امرأة من عتيبه

أخبرني هذه القصة في المخيم بتاريخ ١٣ شباط سنة ١٩٣٧ شخص مرموق من رعايا الكويت التابعين لقبيلة عنيزه فور وصوله من الرياض ، وليس هنالك سبب يدعوني للشك في صحتها . والرجل يحمل سمعة عطرة واخباره موثوقة وهو رئيس احدى قرى القصور ويتمتع بثقة واحترام الشيخ . وسأحجب اسمه لأسباب معروفة .

قال ان امرأة معروفة من عتيبه عاشت خارج الرياض عدة سنوات ويعرفها الجوار بأنها امرأة حكيمة قادرة على تفسير الاحلام ، قد حلمت حلماً اثناء صيام رمضان الأخير .

لقد حلمت انها كانت جالسة تغزل الصوف خارج خيمتها عند المساء ، عندما لمحت رجلا قادماً نحوها من بعيد . وكان الرجل طويلا كبيراً رقيق الوجه . وما

وصل اليها حياها وقال لها :

– ايتها المرأة ان امام الملك عبد العزيز آل سعود ثـــلاث سنوات أخرى فقط يعيشها وقد دخل في السنة الأولى منها التي بدأت ببدء صيام رمضان . وعندما يموت سيكون هناك حزن عميق عليه في طول البلاد وعرضها وستشن كل قبيلة الحرب على الأخرى ويقوم كل واحد من أبناء الملك على أخيه . انهضي ايتها المرأة وحذري أولادك الثلاثـة ان يشتروا السلاح والذخـــيرة استعداداً للاضطرابات العظيمة لأن يد كل رجل ستمتد الى جاره ولن يكون أحـــد في مأمن . اما انا ايتها المرأة فسأموت بعد خمسة أيام لأن الملك أمر رجال حربـه بالبحث عني وقتلي . فهو قد غضب غضباً شديداً لأنني نقلت اليك هــذه الأنباء السيئة الطالع .

ولما افاقت المرأة من حلمهـــا قلقت كثيراً فأرسلت الى أولادها الثلاثـــة تقول لهم :

– يا أولادي ، ان روح الله ظهرت علي وانا نائمة وحلمت ان مــــلاك الرب حضر عـــلي وكلمني كذا وكذا . انهضوا واذهبوا الى المدينة واشتروا لأنفسكم اسلحة الحرب لأنه كتب على ابن سعود ان يموت خلال ثلاث سنوات وستحدث اضطرابات عظيمة في البلاد تشملكم وتشمل أولادكم . امــــا بالنسبة لي ، امكم العجوز ، فقد أصبحت على قاب قوسين أو ادنى من الموت لأنـــه ظهر لي انني سأقتل خلال خمسة أيام من هذا اليوم .

ودهش أولاد المرأة لكلام والدتهم فتشاوروا فيما بينهم وقرروا ان يفعلوا ما أمروا به واقسموا اليمين أن لا يخبروا أحداً بما سمعوه . ومضت أربعـة أيام دون ان يحدث شيء ، وفي اليوم الخامس شاهدوا فريقاً من الهجانـــة المسلحين يقتربون بسرعة نحو خيمتهم . ولدى وصولهم اناخوا جمالهم الى الأرض وتقدموا الى الخيمة . وصرخ قائدهم قائلاً :

– اين راعية البيت .

واجابه أولادها بقولهم :

– انها في الداخل ايها الصديق ماذا تريد منها ؟

وفي تلك اللحظة خرجت والدتهم من جناحها في الخيمة فاطلقت عليها النار فوراً وسقطت قتيلة . وكل ما قاله القائد الهازىء وهو يغادر الخيمة مع رجاله :

– ان اوامر الملك مشددة وان باعه لطويل حيث توجد الساحرات .

ابلغني محدثي ذلك بكل أسف وكأن الويلات والخراب سيحلان على نجد . وقال ان القصة طمستها السلطات السعودية ولكنها انتقلت بالهمس من فم الى فم بين قبائل البدو في الجزيرة العربية . كيف يكون الملك سمع قصة حلم تلك المرأة ؟!

الفصل الخامس عشر

الرياض
١٩٣٧

في ٢٣ كانون الأول سنة ١٩٣٤ منح الشيخ أحمد، بموافقة الحكومة البريطانية، إمتيازاً للتنقيب عن النفط لشركة نفط الكويت وهي شركة انكلو – اميركية مشتركة . وفي صيف سنة ١٩٣٥ قـام الشيخ بزيارة خاصة للندن حيث استقبل استقبالاً حافلاً . وفي أول نيسان سنة ١٩٣٧ منح لقب صاحب السمو من قبل الحكومة البريطانية وبعد ذلك بفترة قصيرة منح لقب K. C. S. I .

ولما بلغت سن التقاعد من الخدمة في الجيش سنة ١٩٣٦ وبالتـالي من منصب الوكيل السياسي لحكومة صاحب الجلالة ، اصبحت الممثل المحلي الرئيسي لشركة نفط الكويت . وحل مكاني في منصب الوكيـل السياسي الكابتن جيرالد دي غوري .

وفي تشرين الأول سنة ١٩٣٧ قمت مع زوجتي بزيارة للرياض حيث حللنـا ضيوفاً على ابن سعود وكانت المسافة التي قطعناهـا بالسيارة خمساية ميل في كل اتجاه . ولدى عودتنا سجلت زوجتي بعض الانطباعات . أما أحاديثي الخاصة مع صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود أثنـاء إقامتنا في الرياض والمسجلة

ايضاً في هذا الفصل ، فكانت مشرقة ومليئة بالعاطفة وخاصة عندما بحث قضية فلسطين . وفي الواقع ، كانت كلمات ذلـــك الرجل العظيم والصديق الصادق للحكومة البريطانية ، كالنبوءة وتنطبق على يومنا الحاضر . وبرأ بوعدي سجلت كل ما دار بيني وبينه من أحاديث بعد كل مقابلة من المقابلات الثلاث التي تكرم ومنحني اياهـا ، ولدى عودتي الى الكويت ارسلتها بظروف سري شخصي الى المستر والتون مساعد وكيل وزارة الخارجية – دائرة الهند لمعلوماته ومعلومات حكومة صاحب الجلالة .

رحلة الى الرياض بالسيارة

بقلم فيوليت ديكسون

بين بساتين النخيل وفي منخفض تحيط به الصخور الجافة ، تقع مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية .

لقد دعا الملك عبدالعزيز آل سعود صديقه ديكسون لزيارة الرياض عـــدة مرات . وذلك الصيف وبينا كنت في لندن استحصل زوجي على اذن من وزارة الخارجية ومن حكومة الهند للقيام بهذه الرحلة ولم تر شركة النفط مانعاً في ذلك. وتلقينا رسالة من ابن سعود يقترح فيها ان نأتي الى الرياض إما قبل رمضان الذي يبدأ في ٤ تشرين الثاني وأما بعد العيد مباشرة . وبما ان الرحلة كانت تقتضي مسيرة ليلة او ليلتين في الصحراء فوجدنا من الأنسب ان نذهب قبل رمضان اذ يكون الطقس لطيفاً غير شديد الحرارة ولا شديد البرودة .

ووصلت من انكلترا في ١٢ تشرين الأول فوجدت ان جميع الاستعدادات قد اتخذت لسفرة في سيارتين فجر الحادي والعشرين ، وأرسلنا برقية بهذا المعنى الى الملك . وجربنا قرب الماء وطلبنا خيمة كالتي يحملها الحجاج معهم الى مكة وغيرهـا من الأشياء الخفيفة الضرورية جداً لئلا نثقل السيارتـــين اللتين كانتا ستقطعان رمال صحراء الدهانه الصعبة .

وفي صباح التـاسع عشر جاء عبدالله النفيسي وكيل ابن سعود التجاري في

الكويت لزيارتنا وليبلغنا انه تلقى برقية من الملك يقول فيها انـــه ذهب ليخيم ويطلب منا ارجاء رحلتنا يومين ليتسنى له استقبالنا في الرياض .

وقبل ساعـة من غروب الشمس في ٢٢ تشرين الأول أحضرت السيارتان الى باحة منزلنا الخلفية حيث حملت بالأشياء والامتعة الضروريـــة والوقود الاضافي والماء وغيرها .. ما عدا الطعام الذي أعـد في الصباح ، وكان عبارة عن سبعة فراريـج طهيت مع الأرز على الطريقة العربية ، واربعة أرطـــال من اللحم ، وأربعين رغيفاً من الخبز العربي وعلبة من الحلوى وكمية من التمر ودزينة من البيض المسلوق .

ووصل الدليلان سالم المزين وسعود بن غران مع سائقي السيارتين الى منزلنا قبل شروق الشمس بساعة ، وبعد افطار سريع كنـا جاهزين للسفر وكنت انا وهارولد نرتدي الملابس العربية وركبنا في المقعد الخلفي باحدى السيارتين وجلس سعود بن غران في المقعد الامامي الى جانب السائق محمد الفذفان . أمـا السيارة الأخرى فكان يقودها عبدالعزيز الفهد وركبت في مقعدها الأمامي حمدى خادمتي العربية ، وركب في المقعد الخلفي سالم المزين وغلوم الطباخ .

لقد بدأنا السير مع طلوع الشمس . وعندمـــا وصلنا الى ابواب جهرا جاء الرجل الكبير خان بهادور ملا صالح وزير الشيخ أحمد ومعه ابنه عبد الله الملا لوداعنا والتمني لنا بأن تكون سفرتنا سعيدة . وبعد مسيرة ٤٠ دقيقة عندمـا اقتربنا من الكبد لحق بنا الوكيل السياسي الكابتن دي غوري الذي كان في رحلة صيد مع عداس صاحب الصقر . وجاء الرجلان معنا الى الحدود قرب مناقش .

وبعد أن اجتزنا الأراضي المتشققة المليئة بشجيرات العرفج حول منـــاقش وصلنا الى خبرة جلهم ومنها الى أرض منبسطة وممتدة على مساحة شاسعة تدعى قرعه ، لا يوجد فيها العرفج ولكنها مغطاة بعشب يابس وبالنـبـي من الربيـــع الفائت . وكان الطريق من هناك سهلا فسرنا فيه بسرعة كبيرة . وهناك شاهدنا غزالين كانا يقفزان في طريقنا ثم توارايا عن الأنظار الى يميننا .

ولكي يكتب هارولد تقريراً عن الطريق من الكويت الى الرياض ، أخـــذ

يدون بعض الملاحظات عن البلاد الممتدة على جانبي الطريق مستخدماً في ذلك لوحة للرسم وبوصلة وعداد السيارة . وقد أخذ معه منظار الميدان وبندقيته .

وأكملنا سيرنا عبر خباري وضحا — المكان الذي كان يخيم فيه ابن سعود سنه ١٩٣٠ وحيث قام هارولد بتسليمه فيصل الدويش والزعيمين الثائرين الآخرين — الى بلاد الحمض التي تبعتها أرض مشققة تدعى هضبة الوربعه، وفجأة لحنا في مكان منخفض الحصن الجديد في جاريه عليا . والى يمين ذلك المكان ظهرت بيوت مصنوعة من الطين يبدو انها تشكل قريه صغيره فيها عدد من اشجار الاثل بين البيوت . وفي منحدر امام القرية بانت علينا حوالي مائة وخمسين خيمة سوداء من خيام البدو .

وسرنا باتجاه الحصن الذي كانت أبوابه مفتوحة وفيه عدد من الرجال يجلسون على مقعد عند المدخل .

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام .

وبعد التحية أسرع رجلان من داخل الحصن وأغلقا البوابة الكبرى في وجوهنا !

ونزل هارولد والدليلان من السيارتين ثم جاء الأمير ودعانا لتناول القهوة في الداخل . فذهب الرجال معه الى الحصن وبقيت أنا مع حمدى في السيارة .

وانتظرنا طويلا . ماذ حدث ولماذا تأخروا ؟ ألم يتلق هؤلاء أنباء زيارتنا من الملك ؟ ألم يتلقوا إذناً بالسماح لنا في إكمال رحلتنا ؟ وحسب مـا علمت من الحراس كان الجواب بالنفي ، فكان من المرجح ان نبقى هناك حتى الثالثة أو الرابعة بعد الظهر لأن الوقت كان ظهراً .

وأخذ أحد السائقين يستعد لاقامة خيمة نستريح فيها ولكنني منعته ، فتطوع رجال الحصن وبدأوا ينصبون لنا خيمة في الظل عند الجهة الشرقية من الحصن. ولما انتهوا دعونا للنزول والاستراحة في الخيمة فسررنا بذلك لان الجلوس في السيارة والالتفاف بالبرقع والعباءة في ذلك الجو الحار كان مزعجاً للغاية .

وأمر السائقان بعد ذلك بانزال جميع امتعتنا من السيارتين ليجري تفتيشها من قبل الجمارك . فانزل كل شيء واعيد توضيبه بعد تفتيشه .

واخيراً خرج هارولد والدليلان من الحصن بعد ان اقنعا الامير بارسال برقية الى الملك للسماح لنا بالتقدم . وسمعنا بعد ذلك ان خروفاً قد ذبح مع عدد من الفراخ لاقامة وليمة لنا . ولما كنا راغبين في استئناف السفر بعد ان تلقينا اذناً بذلك فوراً ، ارسلنا سعود بسرعة الى الحصن ليرجو الرجـــال هناك ان لا يحضروا غداء لنا لأننا تناولنا غداءنا قبل الوصول الى جاريه .

وعند الساعة الثالثة جاء الامير مبتسماً وابلغنا انه تلقى امراً بالسماح لنـــا باستئناف السفر وتمنى لنا سفراً سعيداً .

وسرنا على الفور .

ولم نكن قد قطعنا ميلاً واحداً عندما لاحظنـــا ان سيارة تتبعنا باقصى سرعتها . فتوقفنا لانتظارها . وشعر محمد الغذفان بالذنب لأنه كان يحمل معه رزمة من التبغ الى الرياض ، لأنه خشي ان يكون الأمير قد علم بذلك . وفيما كانت سيارة الفورد تقترب منا انسل الغذفان الى وراء سيارتنا والقى بالرزمة بين شجيرات على جانب الطريق . ولكن مهمة سائق السيارة كانت تسليمنا برقية مع قلم وايصال . ولم يستطع احد منا قراءة البرقية جيداً ولكنه يبـدو انها كانت برقية ترحيب من ابن سعود .

وأصبح طريقنا عندئذ باتجاه الغرب فسرنا مسافة طويلة في ذلك الاتجـاه . وكان منظر الصحراء موحشاً للغاية وكانت تصادفنا كثبان الرمل تارة على هذه الجبهة من الطريق وتارة على الجبهة الاخرى . وبالتدريج أخذ الطريق يتجه نحو الجنوب الشرقي وبدأت تواجهنا أرض صخرية فيها حجارة كبيرة سوداء شبيهة بتلك التي يشاهدها المرء عند ليه قرب الكويت . وهكذا وصلنـــا الى السمّن ديرة قبيلة مطير المظيمة . قريه

وبعد ساعتين فقط من مغادرتنا جاريه نصبنا خيامنا لقضاء ليلتنا على أرض صخرية صلبة بالقرب من مجموعة من اشجار السدر تعرف بأم العصافير وتقع الى

يسار الطريق . وكان محمد الغذفان يريد ان نسير ساعتين ثانيتين لكي نقترب من الدهانه بحيث نستطيع ان نقطعها اثنـــاء برودة الصباح . ولكننا كنا متعبين ومتلهفين للاستراحة .

واقيمت الخيام في لحظات وبدأ الابريق يغلي على النار . غـابت الشمس في الساعة الخامسة والثلث ، وقبل حلول الظلام كان كل شيء جاهزاً بما في ذلـك كمية من الحطب كافية لتدفئة السائقين سعود وسالم طوال الليل . وقد استمتعنا بدفء النار ونحن نأكل الدجاج مع الخبز والتمر مع الشاي ثم شربنا قهوة سالم ونحن جالسين في الظلام حول نار أخشاب الحمض نحكي الحكايات لمـــدة ساعتين ونصف الساعة قبل ان نذهب للنوم .

وقبل ساعة واحدة من بزوغ الفجر حملنا خيامنا من جديد ثم تناولنا الشاي والبيض والخبز واستأنفنا السير مع شروق الشمس . وسرنا عبر السمن بين التلال المنخفضة المسطحة الرأس وبين المنخفضات التي تنمو فيها أشجار السدر الصغيرة التي يحبها المطيريون كثيراً . وصادفتنا واحدة من الحباري طارت عندما اقتربت السيارة منها . وأخذت التلال تتوارى وراءنا واحدة بعد الأخرى الى ان وصلنا سهلاً أرضه صخرية قاسية .

وقال سعود مشيراً الى اليمين :

– دحل الفريح .. اتريدون ان تروه ؟

– نعم .. نعم .. قلنا له .

وفي تلك الاثناء خرجت سيارتنا عن الطريق وسارت حوالي خمسماية يردة وتوقفت عند حافة فجوة دائرية كبيرة في الأرض .

يبلغ قطر تلك الفجوة حوالي ٨٠ قدماً . وبعد ان نزلنا فيهـا أكثر من ٣٠ قدماً وجدنا فجوة أصغر في الوسط يبلغ قطرها خمسة اقدام فقط .

وقال سالم :

– من هنا يأخذ البدو الماء يا ابا سعود .

والدحل الذي يعرفه الجيولوجيون بالغاطس هو بئر طبيعية مؤلفة من ممرات

وفجوات أرضية تشكلت على مر العصور بفعل المياه التي تندفع من القعر في اتجاهات مختلفة . وتنحدر بعض تلك الممرات في جوف الارض الى عمق ثلاثماية ياردة أو أكثر . وقبل ان يصل المرء الى الماء عليه احياناً ان يزحف على أربعته أو أن يعبر احياناً اخرى كهوفاً كبيرة كاتدرائية الشكل . أما ارض الممرات الصخرية فقد صقلت وتآكلت بفعل القرب الجلدية التي جرت عليها عبر القرون . ولا يجرأ رجل في الدخول الا اذا ربط بحبل لأنه قد يضل طريقه ويموت في الداخل . وبعض تلك الدحول شديد الظلمة من الداخل وبعضها الآخر يتسرب اليه النور من فجوات صغيرة .

وبحثت انا عن احجار صوانية فالتقطت منها قطعة أو اثنتين كان يمكن ان تستعمل كأدوات للحفر في زمن من الأزمان .

وبعد ان التقطت عدة صور فوتوغرافية لدحل الفريح استأنفنا سيرنا تاركين وراءنا على اليمين وعلى اليسار عدداً من الدحول الصغيرة بدون اسماء وربما لم يكن فيها ماء بانتظار هطول الأمطار . وكانت الأرض لا تزال صخرية صعبة .

وفجأة قال سعود مشيراً الى جهة اليمين أمامنا :

— شوف الدهانه يا ابو سعود .

ففي الأفق البعيد ارتفع ما بدا لنا سلسلة صخرية طويلة منخفضة . وأول فكرة خطرت لي : كيف يمكن للسيارة ان تعبر تلك السلسلة اذا كانت رملية ؟ واردت ان اقترح على السائقين ان تنزل وتقطعها مشياً على الأقدام . ولكنني لم اقل شيئاً مع ان أفكاري ومخاوفي كانت تقلقني الى درجة كبيرة .

ثم بدأت البلاد تتغير ورأينا العرفج مرة ثانية وكان قليلاً متفرقاً في البداية ثم كثيراً كثيفاً عندما اقتربنا من رمال الدهانه الخفيفة .

وعبر الطريق ظهر لنا ما يشبه غطاء خفيفاً من الرمل الأحمر على عمق عدة بوصات وفي عدة أماكن على عرض خمس أو عشر ياردات . ولكن السيارات لم تسلك ذلك الطريق وسارت على ما ظننته طريقاً ترابياً . وبدأت السلسلة الرملية الكبيرة على يميننا تقترب فرأينا لونها الأحمر يشع في نور الشمس . وكنا

في تلك الاثناء نسير باتجاه الجنوب الشرقي بمحاذاة السلسلة المذكورة تقريبـــاً . وكلما تقدمنا بدا انها تتقلص الى ان اختفت تماماً . وملأني ذلك بالأمـــل لأنني تحققت ان السلسلة أصبحت منخفضة الى درجة تتمكن فيها السيارات من العبور .

وفي الساعة التاسعة والنصف خرجت سيارتنا عن الخط الى اليمين واقتربت من الرمال المرتفعة أمامنا وتوقفت . ونزل محمد الغذفان ليملأ مبرد السيارة بالماء من القربة . وقال :

– من هنا أمر دائماً يا ابا سعود . ان الطريق من هنا أقصر من اتباع الطريق الرئيسية عبر الرمال وقد فعلت ذلك عدة مرات . ويجب ان تتماسكوا جميعكم لأنني سأنحدر بالسيارة ولا استطيع ان اخفف السرعة قبل عبور السلسلة الأولى. هذا هو عرق السرو واحد من أسوأ اثنين من مسالك الدهانه . وبعد ذلك يصبح الطريق سهلاً .

وأجبناه بقولنا :

– كما تشاء .

وبعد ان خفف السائقان ضغط الهواء من عجلات السيارتين اندفعا بالسيارتين بسرعة متسلقين الى قمـــة الكثيب الرملي متجنبين شجيرات العرته قدرمـــا يستطيعان . لم تكن هنالك طريق واضحة وانما شاهدنا أثار السيارات على اليمين وعلى اليسار . وكنا نهتز بعنف داخل السيارة وهي تندفع بنا عبر الرمال الى ان وصلنا الى القمة ونزلنا المنحدر الى أرض مستوية تكثر فيها الحصى على مسافة ستة أميال تقريباً . وسارت بنا السيارة بسرعة عبر تلك البقعة الى ان وصلنـــا ثانية الى كثيب آخر من الرمل وعبرناه .

وتنفس محمد الغذفان الصعداء وقال :

– الحمدلله .. أمامنا مسيرة سهلة الآن الى ان نصل الى العرق الثاني عرق الرويشب .

هناك ثمانية من هذه العروق لها اسماء ولكنها غير واضحة المعالم اذ ان كل واحد منها له عدة تلال تحيط به من كل جانب .

وصرخ السائقان :

– لقد قطعنا العرق الثاني الآن .. والعروق الباقية صغيرة لا تخيفنا .

كانت تجربة مثيرة ولكنها لم تكن مخيفة .

وفي الساعة الحادية عشرة توقفنا لتناول الغـــداء على مسافة قصيرة من آبار الرماح ، بعـد ان قضينا ساعة ونصف الساعة في عبور رمال الدهانه الشهيرة . وهناك وضعت الكحل على عيني وثقبت برقعي لئـلا صادفنا أحد في الرماح .

وسمعنا صوت سيارة فورد قديمة متجهة نحونا من الشمال الشرقي على الطريق الذي سلكناه نحن من قبل . وكانت السيارة تحمل عدداً من شيوخ دبي قادمـين من الهفوف عاصمة الاحساء في ثلاث سيارات فقدوا اثنتين منها في الدهـــانه . وكانوا قد قضوا يومين في الطريق من الهفوف فاستبد بهم الجوع والعطش، فكانوا بغاية السرور ان يأكلو بقايا غدائنـــا من الدجاج واللحم المطهي قبل يومين في الكويت والذي بدأت تفح رائحته ، ويطفئون عطشهم بقليل من الماء . وساروا امامنا الى الرماح ينتظرون بقية الفريق هناك .

ولم نتأخر طويـــلا في الرماح . وكان هناك عدد كبير من البدو يستعدون للانتقال الى الصحراء . وقطعنا بأمان البحيرة الرملية (مجرى ماء جاف) التي تقع شمال الرماح مباشرة ، ثم تابعنا طريقنا .

ومرة ثانية تغيرت طبيعة الأرض ولكن بسرعة . فبعد ان تركنا وراءنا كل اثر لرمال الدهانه الحمراء وشجيرات العرفج ، اتينا الى ارض صخرية ذات تلال منخفضة ومجاري للمياه جافة حواليها عدد من الاشجار هنـــا وهناك وبئر او اثنتان يقف عندها بـدوي وزوجته يمتحان الماء على جملين . والى جانب التلال الصخرية قطع ضخمة من الحجارة السوداء بين حجارة حمراء اللون، تبدو وكأن أحداً قد افرغ كيساً هائلاً من الفحم على القمة وانحـــدر الى الجوانب . وتعرج طريقنا عندئذ بين التـلال الى أن رأينا أمامنا سهلاً كبيراً ينحدر عدة مئات من الأقدام وتظلله صخور كبيرة شاهقة . ولم نجد أمامنا طريقاً واضحة في البدايـة ولكننا على يسارنا شاهدنا مجموعة من الرجال يبـــدو انهم كانوا يعملون في شق

الطريق . فاقتربنا منهم وبادرونا بالقول بأعلى صوتهم :

– الطريق ليس من هنا . . من هناك .

واشاروا الى اليسار حيث كانت جماعة اخرى من رفاقهم يعملون .

وسألهم سائقنا :

– من أين ؟

فما كان من احدهم إلا ان قفز الى عتبة السيارة ليدلنا على الطريق .

وبدأنا نتحدر من الصخور الشاهقة المعروفة باسم بويب والتي يبلغ ارتفاعها سبعمائة قدم تقريباً . وكان الطريق قد شق بصعوبة في الصخور القاسية . وعند اقدام الصخور الشاهقة أشار علينا رجل ان نتجه الى اليسار فتركنا الطريق وسرنا عبر الصخور والحجارة حول منعطف من الصخر في شعيب حجري . وطلعت علينا شجرة وارفه الظلال جلس تحتها مجموعة من الرجال بجانب سيارة . وسرنا الى هناك لنجد بعثة الملك في استقبالنا برئاسة فخري أفندي شيخ الأرض* وهو شاب سوري من عائلة معروفة يعمل في خدمة البلاط السعودي . وسلمنا رسالة من الملك ومن الأمير سعود يتمنيان لنا فيها رحلة طيبة .

كانت السجاجيد قد فرشت على الأرض في الظلال ، والشاي والقهوة جاهزان ، واللحم الطازج المقطوع من فخذ خروف معلق على غصن بعيد في الشجرة يشوى على نار الفحم . وكنا نشعر بالعطش والجوع – او على الأقل كانت رائحة شرائح اللحم تجعلنا نشعر بذلك – . وبعد القهوة التي هي في نجد أخف منها في الكويت ثم الشاي فالمزيد من القهوة والمزيد من الشاي ، قدم لنا اللحم على طبق ملون ، وكان لذيذاً فاخراً .

وقال لي سعود بن ثران بعد ذلك :

– لم استطع ان آكل ذلك اللحم . . لقد كان رهيباً والدم لا يزال يقطر منه .

وأجبته :

---

* كان شقيقه الدكتور مدحت شيخ الارض طبيب الملك الخاص ، وشيخ الارض عائلة معروفة في دمشق .

– نحن الانكليز نحبه كذلك .

لقد استمتعت باكل اللحم فعلاً . وبعد نصف ساعة من الاستراحة وشرب الشاي والقهوة نقلت جميع الامتعة والحاجيات بما فيها ما تبقى من اللحم الى السيارات . وبعد أداء الصلاة ركبنا سياراتنا لنقطع الجزء الأخير من الرحلة . وقالوا لنا :

– الرياض تبعد ساعة فقط من هنا .

وعندما انعطفنا لنخرج من الشعيب الى الطريق كانت الصخور العظيمة تظللنا . وبعيداً امامنا لاحت لنا ونحن نتجه نحو الشمال الغربي صخور على شكل وجه زنجي يبدو وكأنه يحرس مداخل نجد . وكلما اقتربنا منه تغيرت ملامحه البشرية الى ان وصلنا اليه فوجدناه جزءاً من الصخور العظيمة الملتفة في السراب الى مسافة بعيدة عن يميننا .

لقد كان من الصعب ان نتحقق من اننا كنا لا نزال على مثل ذلك الارتفاع مع اننا انحدرنا نزولاً من تلك الصخور . ويقول فيلبي ان الرياض ترتفع ٢٢٥٠ قدماً عن سطح البحر . ومما يؤكد هذه الحقيقة الهواء البارد العليل والليالي اللطيفة التي تتمتع بها الرياض .

ومن هناك وما بعد كانت الطريق واضحة المعالم وعلى جانبيها في اماكن عديدة آثار سيارات غرقت في الوحل في فصل المطر . وكانت في بعض اجزائها سيئة المسالك مليئة بالتراب والغبار ، وفي اجزاء اخرى مغطاة باعشاب خضراء كثيفة لا اذكر اسمها بالضبط . وكنا دائماً نتطلع للبحث عن ازهار او نباتات غريبة ونتوقف لنلتقط نماذج منها اذا وفقنا في ايجادها .

وبعيداً عبر السهل الصخري كانت تبدو امامنا الى اليسار تلال منخفضة ، وبعيداً عند الافق كانت تبدو تلال جبل طويق الذي بدت ملامحه واضحة في وجه الشمس .

وقال السائق :

– عندما نصل الى تلك التلال المنخفضة تشاهدون الرياض .

ولكن سيارة فخري افندي كانت تسير في المقدمة تاركا وراءهـا عموداً من الغبار تعلق في الهواء كالسحاب نظراً لانعدام النسيم وحجب الرؤية عن ناظرينا.
وبعد عدة منعطفات دخلنا بين التلال المنخفضة ثم انحدرنا قليلاً نحو سهل داخلي صغير . وفي البعيد رأيت ما ظننته يجب ان يكون مدينة الرياض : قلعة كبيرة ذات ابراج ترتفع فوق الاسوار وأعالي الابنية تظهر فوق الاسوار والابراج.والى يسار ذلك كان هنالك عمودان للاسلكي . ولم أر أثراً لنخيل الرياض .

وأشار محمد الغذفان الى تلة واطئة اصبحت وراءنا الى اليسار ، وقال :

— الخروق .. يمكن للسيارة ان تسير نحوه مباشرة وتدخل في نفق فيه ثم تخرج من الجهة الثانية .

وكانت في رأس الخروق فتحة كبيرة وكان من الواضح للناظر ان يرى عدداً من السيارات تخترقه .

ولم نكد نصل الى القلعة حتى أطلت علينا فجأة بساتين النخيل في الرياض من جهة اليسار . وما شاهدناه الآن لم يكن مدينة كما كنت اتصور ، بل قصر الملك الجديد الذي لا يزال قيد البناء وهو قصر الشمسية .

ووقفت السيارة المرافقة لنا هناك وأبلغنا ان الملك يرغب ان نذهب مباشرة الى واحد من قصوره الصيفية التي تبعد عن بعضها مسافة عدة مئات من الباردات في بديعه على بعد خمسة أميال الى الغرب من العاصمة . أما هو شخصياً فكان يقيم في قصره الشتوي داخل اسوار المدينة .

تركنا اشجار النخيل على يسارنا ودخلنا في واحة على جانبي الطريق الصخرية الوعرة الى مسافة سبعة أميال ، ثم انحدرنا نزولاً على طريق صخريـــة منحدرة ومتعرجة تتجه نحو مـا يعرف بالباطن وهو أرض مجرى كبير لوادي حنيفة .
وأمامنا هناك كان قصرا الملك ووراءهـــا مزيد من بساتين النخيل الممتدة عبر جوانب الوادي الصخرية المنحدرة ، على عرض نصف ميـــل تقريباً . ويشغل القصران وحدائقها ثلثي المساحة تقريباً أمـا الباقي فقد ترك للسيل المندفع الذي يأتي عندما تهطل الامطار . وقد اقام الملك تحت سور الحديقة عند مقدمة القصر

الذي نزلنا فيه مكاناً صغيراً للجلوس ، فيه مكان لصنع القهوة بحيث يتسنى له ان يجلس في فصل الامطار ليشرب قهوته بجانب السيل المندفع بسرعة .

يقول المثل العربي :

– ثلاثة اشياء تفرح قلب الانسان : الخضرة ، والماء والوجه الحسن .

وذلك صحيح بكل تأكيد .

وفي الجانب الآخر من وادي حنيفة ، وبعد ان عبرت سيارتنا أرض النهر الجافة وانعطفت على منعطف حاد الى اليمين وحملتنا الى طريق ضيقة جداً على جانبيها أسوار عالية ، انعطفنا أيضاً في منعطف حاد ولكن الى اليسار هذه المرة وتوقفنا أمام باب كبير مفتوح . وتسلقنا بمساعدة أيدي الحراس الممتدة الينا ، وكنت انا أتبع زوجي على العتبات الصخرية وعلى طول الممر المصنوع من الحصى الى اليسار أولاً ثم الى اليمين ثم الى الدرج العريض المؤدي الى القصر . كنت أفعل ذلك على الطريقة العربية .

كان القصر حديث البناء لأنه عندما قام صاحب السمو الشيخ أحمد حاكم الكويت بزيارة الرياض سنة ١٩٣٤ لم يكن موجوداً . ويتألف من باحتين تمتد غرف على جانبيها في الطابقين السفلي والعلوي ، وباحة اخرى أصغر للخدام . ان الجناح الأعلى من البناء الأول مخصص للسيدات وفي غيابهن لكبار الضيوف . أما المنزل الثاني فيقيم فيه الملك وهناك يصرف اعماله ويستقبل الشيوخ والبدو أثناء أشهر الصيف .

وفي الطابق العلوي توجد شرفة عرضها اثنا عشر قدماً وتمتد على مدار الباحة . وتدعم تلك الشرفة اعمدة حجرية مغلفة بالجص الابيض ، وبين كل اثنين من تلك الاعمدة تقف ثلاث ركائز خشبية صفراء باهتة رسمت عليها بالأحمر والاسود خطوط ونقط وأشكال . ويقفل الشرفة جدار مصنوع من الجص والطين ويبلغ ارتفاعه حوالي ستة أقدام يبدو أعلاه على شكل رؤوس واكتاف صف طويل من الرجال يقف كل منها فوق فتحة مثلثة الشكل بين الأعمدة المستديرة العالية المصنوعة من الحجر والجص ، والتي بدورها تدعم سقف الشرفة . ومن كل جهة

توجـد فتحة كبيرة تسمح للخدام ان يمدوا رؤوسهم منها لدعوة سقاة القهوة في الطابق السفلي .

والركائز جميعها مصنوعة من الخشب اقيمت كل ثلاث منهـا بين عمودين لتدعم فروعاً اصغر من سقف الشرفة المغلف باوراق البردي والطين . وفي اغلب الاحيان تكون تلك الركائز مغطاة بقماش ابيض مدلى من السقف. وتلك الركائز المدعمة بالاعمدة مزينة حسب الزي النجدي الحقيقي برسوم من الخطوط والنقط بالاحمر والاسود على قاعدة صفراء اللون باهتة ، كما ذكرت سابقاً .

واينما وجدت تلك الركائز تكون مزينة : في النوافذ والابواب الصغيرة .. وحتى في غرفة الغسيل . وداخل الغرف الكبيرة يوجد عمودان مستديران في الوسط يدعمان السقف . اما الجدران فهي مطلية بالجص الابيض وعليها حلقات او دوائر مختلفة الشكل .

وتصنع تلك النماذج على الطريقة الآتية : تغلف الجدران اولاً بطبقة خفيفة من طين احمر قاس ، يوضع فوقهـا جص ابيض على سماكة ثلث بوصة . ثم يقوم المعماري برسم تلك الاشكال ، والطلاء لا يزال رطباً ، ويعمق في حفر الخطوط حتى الطبقة الطينية . وفي كثير من الاحيان تترك مسافة بين سلسلة من الرسوم والسلسلة الاخرى . فالرسوم الاولى ترتفع ثلاثـة اقدام عن الارض . وتتغير النماذج حول النوافذ والرفوف الضيقة المحفورة في الحائط . وفوق سلسلة الرسوم الافقية وضعت دوائر كبيرة منفردة مقطعة باشكال هندسية مختلفة اذ لا يتشابه فيها اثنان . انه في الواقع منظر رائع ذو وقع حسن .

وتغطي النوافذ ستائر حريرية جلب قمـاشها من اسواق الكويت . وعلى مدار الجدران وضعت مقـاعد خشبية ثقيلة و « صوفات » من صنع بغداد . وتغطي الارض سجاجيد عجمية من كل حجم ولون ، وقماش السقف في غرفـة الاستقبال الرئيسية مزين بكتل ملونة من الحرير على شكل اقمار ونجوم ودوائر صغيرة وكبيرة .

ان القسم الاسفل من هذا القصر مخصص للخدام وفي زاوية من زوايا باحتـه

المكشوفة يوجد وجار مستطيل لصنع القهوة . وتغطي ارض الدار طبقة نظيفة من الرمل الابيض ، واما ابواب الغرف تحت الشرفة فطلية باصباغ زاهيـة على اشكال مختلفة بالاحمر والاسود والازرق والاصفر والاخضر ، بما يشبه الموزاييك اذ ان لون كل مربع صغير او مثلث يختلف عـن ألوان تلك التي تحيط بـه . والاقسام العليا والسفلى والوسطى من الابواب لها اطارات خشبية بارزة ملونـة على شكل مربعات كبيرة . اما الابواب الصغيرة فهي عـادة مستوية السطح حفرت فيها الرسوم حفراً عميقاً قبل طلائهـا بالالوان . ان احسن تلك الابواب من صنع قسم اما تلك المصنوعة محلياً فرسومها تشبه تلك التي على الركائز الخشبية وفيها كتل قرمزية وسوداء . ولكل باب قفل وله مفتـاح خشبي على شكل فرشاة الاسنان ويدخل في القفل على حافته ، وعند فتحه يتوجب دفعه الى اعلى عدداً مماثلا من الاسنان . اما النوافذ فكلها تفتح الى الداخل ، ومن الخـارج تجدها مزينة ومطلية كالأبواب ولكنها من الداخل لا تحمل سوى رسوم بسيطة قليلة العدد .

وعندما يصعد المرء الى الطابق العلوي من المنزل الأول تاركاً باحة الخدام الى اليسار ويتجه الى اليمين يجد نفسه أمام شرفة مؤثثة تغطي أرضهـا سجاجيد عجمية وتتدلى من السقف مروحة كبيرة ، وعلى احد الجدران وضعت ساعـة « بومباي » كبيرة مقابل مقعد الملك الخـاص . ويستدير المرء الى اليسار ليجد ان الشرفة مؤثثة تأثيثاً مشابهاً . وفي الداخل هنالك غرفة طويلة ملاصقة للشرفة يذهب اليها الملك للصلاة والراحـة وهي مفروشة على الطراز العربي بأرائك ومساند على مدار الغرفة ، وفي احدى الجهات هنالك ما يشبه العرش وحوله من كل جهة مسندان مربعان تغطي كلاً منها ثلاثة مساند أصغر موصولة ببعضها ومغطاة بالحرير . وقماش السقف في تلك الغرفة اكثر دقة وطموحاً منه في جناح السيدات اذ ان عليه صوراً لأباريق القهوة والشاي مزينة بالحرير الملون وبأعداد اكبر من الاقمار والنجوم والدوائر . وينزل بك درج سهل طويل الى مدخـل خاص يستخدمه الرجال فقط ويجعل البناء المجاور بمعزل عن ذلك الذي تستخدمـه

(١) المعصم

النساء .

ومع ان الملك كان قد غادر القصر الى المدينة منذ عشرين يوماً ، إلا ان الساعات الكبيرة في مجلسه كانت تعمل بدقة متناهية . وحتى القهوة كانت جاهزة . وبينما نحن نتجول في الغرف جلسنا لعدة دقائق في الشرفة نستمتع بالهواء البارد ، احضرت لنا القهوة . وهناك انضم الينا عبدالله المسفر احد كبار المسؤولين في بلاط الملك فيصل في العراق واخبرنا انه زار نيويورك قبل عدة سنوات مع المستر كراين .

وصعدنا بعد ذلك الى السطح حيث يتناول الملك طعام الغداء في الصيف ضمن مقصف مغلق بدعمه عمودان طويلان يرتفعان عن الأرض ثلاثة اقدام وقد زال لونها لكثرة ما يمسح بها رجال القبائل الضيوف على الملك ايديهم المليئة بالسمن بعد الطعام . (*)

ويوجد عمود او اثنان عليها خشبتان متقاطعتان تعلق عليها المصابيح ، وهنالك أيضاً عمود خاص عليه حبال لتعليق قرب الماء في الهواء الطلق لتبريدها .

والقصر الآخر أقدم عهداً لكنه بني بنفس الهندسة تقريباً . وهناك أيضاً يستقبل الملك الشيوخ والاعيان .

وللزائر العادي الى الرياض ، تبدو منازل الطبقة العالية من السكان مظلمة غامضة من الخارج وهي ذات جدران عالية من الطين وتقوم على جانبي الشوارع الضيقة المتعرجة ، ولها أبواب خشبية بسيطة . ولا تطل منها على الشوارع أية نوافذ باستثناء بعضها الذي وضعت في الطابق العلوي منه فقط نافذة واحدة ذات قضبان حديدية . ولكنها من الداخل ، ومعظمها مؤلف من طابقين حول باحة مركزية ، تبدو رائعة ومزينة بصورة فنية على شكل غرف القصر الملكي في بديعه حيث اقمنا . (اشرن جديث (مع ديكسون)

(*) هذه العادة ناشئة عن النقص في الماء . وتفتخر قبيلة عجمان خاصة بتلك العلامات على خيامها لأنها دلالة على مقدار الضيافة وتكريم الضيوف .

قطعنا حوالي خمسماية ميل من الكويت الى الرياض في سبع عشرة ساعة ونصف الساعة من السير المتواصل . وكانت الاحوال الجوية ملائمة تماماً ولكننا وجدنا ان الليالي شديدة البرد في قلب نجد . ومناظر الصحراء في الطريق كانت موحشة في معظمها ، وآثار الحياة الوحيدة التي صادفناها بعد مركز جاريه كانت ستة غزلان وحباري واحدة .

وكما ذكرت زوجتي سابقاً ، لقد دونت ملاحظات عن المناطق التي مررنا بها واكتشفت من خلالها عدة اخطاء في خارطة الجزيرة العربية ذات المقياس ١:١،٠٠٠،٠٠٠ وتمكنت من ان اجمع اسماء بعض الاماكن، كما تمكنت من تحديد معالم طريق جيدة للسيارات بين العاصمتين . وكانت معي ايضاً خارطة فيلبي ذات المقياس ٥٠٠،٠٠٠ : ١ التي طبعتها وزارة الحربية سنة ١٩٣٣ . وتظهر تلك الخارطة الطريق من الكويت الى الرياض ؛ ولكنها اذ تتوقف شمال حزام النعمان الرملي العظيم – أي ثلث المسافة من الكويت – فإنني اعتقد ان الخارطة التي اكملتها فيما بعد هي أكثر فائدة مع انها تنقصها دقة خارطة فيلبي . وقد اعادت طبعها قيادة الجيش في حكومة الهند .

لقد قضينا أربعة أيام ممتعة في الرياض ووضع لنا برنامج كامل من الاجتماعات والولائم والنزهات بالاضافة الى اننا شاهدنا العرضه الكبرى أو رقصة الحرب التي قيل انها قدمت على شرفنا ولكنها في الواقع قدمت احتفالاً بمناسبة انتهاء أحد ابناء الملك الصغار من قراءة القرآن قراءة كاملة صحيحة . والولد الذي يكمل هذه المهمة لأول مرة يسمونه هناك خاتم .

وفي الصباح التالي لوصولنا قابلت الملك مدة ساعتين كاملتين . فبعد ان حضرت الى مكتب وزير الخارجية السير فؤاد حمزه في القصر الكبير ، قادني سعادته الى مجلس الملك. وهناك وجدت صاحب الجلالة الملك عبدالعزيز آل سعود جالساً في الزاوية الرئيسية من الغرفة المشرفة على الباحة الرئيسية أمام القصر . وعلى يمينه ويساره كان يجلس كبار الأمراء وموظفو الدولة وهم كما يلي :

حاكم حايل الأمير عبد العزيز بن مساعد الجلوي آل سعود . ثلاثة من اعضاء البيت الحاكم في آل رشيد وهم : الأمير محمد بن طلال الرشيد ، الأمير فيصل بن طلال الجبار الرشيد ، الأمير عبدالله بن متعب الرشيد .

ابن شقيق الملك : فيصل بن سعد آل سعود .

اثنان من أولاد الملك : محمد ومنصور آل سعود .

حفيد الملك : عبدالله بن تركي آل سعود .

اثنان من اعضاء مجلس الملك : السيد حمزه غوث والسيد شريف شرف .

محرر نشرة أخبار الاذاعة : محمود جسور .

وفي احدى الزوايا كان يجلس ثلاثـــة من أولاد الملك الصغار وهم : طلال ومشعل ونواف آل سعود .

وبعـد التحيات الاعتياديـة قدمني الملك للحاضرين ثم طلب مني ان اجلس الى جانبه . وجلس السير فؤاد حمزه الى جانب السير حمزه غوث . وتلا ذلـك استفسارات مجاملة عن صحتي وصحة زوجتي بطريقة الملك المهذبة المعتادة . ثم أمر ان يخرج من الغرفة أولاده الصغار الثلاثة طلال ومشعل ونواف فجاءوا اليه وقبلوه مودعين قبل ان يخرجوا مع خدامهم . ولكنـه أجلس نواف الصغير ، وكان عمره ثلاث سنوات ، على ركبته لدقيقة أو دقيقتين وأخذ يلاطفه . وسأله ماذا يريد ان يقدم له هدية ، فقال نواف انه يريد صقراً لكي يذهب الى الصيد .

– وهو كذلك .

قال الملك وهـــو يقبل ابنه . ولكن الطفل لم يخرج قبل ان يمسك بذقن والده قائلاً :

– اتعدني بذلك يا أبي ؟

ووعده الملك بهدوء انه سينال صقراً واصدر اوامره بذلك . واخرج الاطفال الثلاثة من الغرفة ثم استدار الملك نحوي وقال بأدم جم :

– يا ديكسون .. لست صديقنـا وصديق العرب فحسب ، انني ارى انك تلبس كواحد منا ولذلك ارحب بك مرات ومرات .

ودخل جلالته في الموضوع العزيز على قلبه وهو موضوع فلسطين ، فانصرف الى التحدث في ذلك الموضوع ساعة ونصف الساعة . وكنت قد اوضحت ان زيارتي خاصة وشخصية بحتة مع انني حصلت للقيام بها على موافقة حكومة الهند ووزارة الخارجية .

وألمح الملك من طرف خفي انه يأمل ان انقل ما سمعته الى المراجع المختصة مع ان ذلك يعتبر شاذاً في المعاملات الرسمية .

كان أغلب الوقت يتحدث بصوت منخفض صادق كأن كلماته غير موجهة لمستشاريه الجالسين حوله ، وكان باستمرار يؤكد ما يقوله بأن يضع يده على ذراعي . وبعد انتهاء المقابلة مباشرة دونت ما قاله وانقله هنا أقرب ما يكون للكلمات التي قالها مستخدماً كلمة « نحن » عندما كان يشير الى نفسه قال :

— « نحن نعلم يا ديكسون انك لم تعد مسؤولاً في الحكومة ، ولكنه نظراً لأنك شغلت مناصب رفيعة في حكومة صاحب الجلالة لعدة سنوات ، نعرف تماماً انك تحظى بثقة حكومتك ، ولذلك لسنا نرحب بك زيادة فحسب ، ولكننا نفتح قلبنا لك ويسرنا انك تمكنت من زيارتنا في عاصمتنا .

« ونحن نتوق كثيراً الى ان ترسل لنا الحكومة البريطانية كل ثمانية أشهر موظفاً ذا خبرة تأتمنه وتثق به او موظفاً سابقاً كحضرتك يمكنه ان يصغي شخصياً لما يجول في خاطرنا وللمشاكل التي تقلق نفوسنا لا لأننا نعيش في زمن عصيب مليء بالخاطر . ونشعر أن اتصالاً شخصياً من هذا النوع أبعد أثراً من سيل من الرسائل والبرقيات التي ، بالرغم من انها كافية بحد ذاتها ، تفشل احياناً في اداء المعنى والأفكار والمخاوف وقد تولد سوء التفاهم وسوء القصد بدلاً من ان تزيلها .

« ولكن شخصاً من هذا النوع ، اذا ومتى ارسل ، يجب ان يكون عليماً بدقائق لغتنا ، فاهماً للمعاني الواسعة التي تنطوي عليها ، لأنها مليئة بالحكم والأمثال المعبرة . ولا فائدة من ان ترسل رجلاً يصغي الى ما نقوله عن طريق وسيط او مترجم . انه يجب ان يعرف ويفهم نفسيتنا العربية ويتجاوب اذا

امكنه ذلك مع عاداتنا العربية وتقاليدنا ، وفوق هذا وذاك ، يجب ان يكون ملماً باعتزازنا العربي وبآمالنا ، وان يكون قد قرأ شيئاً من كلام الله المقدس كما انزل علينا في القرآن الكريم .

« يا ديكسون ، متى تعرف حكومتك في لندن وتتحقق اننا نحن العرب بطبيعتنا ، يمكن شراؤنا جسداً وروحاً بعمل خير ، واننا ننقلب أعداء ألداء مدى الدهر لأولئك الذين يعاملوننا بقسوة ويسيئون الينا ؟

« واليوم نحن ورعايانا قلقون جداً بسبب مسألة فلسطين . وسبب قلقنا هو الموقف الغريب الذي تتخذه حكومتك البريطانية . ويزيد في قلقنا ذلك التأثير المغناطيسي الذي يسلطه اليهود ، وهم قوم لعنهم الله كما جاء في كتابه المقدس وكتب لهم الدمار واللعنة الأبدية في الدنيا والآخرة ، على الحكومة البريطانية والشعب الانكليزي بصورة عامة .

« ان القرآن يحمل كلام الله واوامره المقدسة ، واننا نقترح ان تقرأ حكومة صاحب الجلالة وتتابع بدقة تلك المقاطع منه المتعلقة باليهود وخاصة ما يتعلق بمصيرهم في النهاية . فان كلام الله لا يتغير ولا يجوز ان يتغير .

« نحن العرب نؤمن بديهياً بالكلام الذي انزله الله ونعرف ان الله أمين — يحب المؤمنين . ولا يهمنا اي شيء في هذا العالم سوى ايماننا بالله الواحد ورسوله وبشرفنا . وكل شيء سوى ذلك بما فيه الموت لا يساوي بنظرنا شيئاً . ولسنا نخشى المصاعب والجوع وعدم توفر المتاع الدنيوي . . اننا نقنع باكل التمر ولحم الجمال الى آخر ايامنا بشرط ان نتمسك ونحافظ على مبادئنا الثلاثة .

« ان كرهنا لليهود يعود الى يوم اصدر الله حكمه عليهم بسبب اضطهادهم ونبذهم لعيسى (يسوع المسيح) ، ولرفضهم فيما بعد لنبيه المختار محمد . اننا لا نستطيع ان نفهم كيف ان حكومتكم التي هي أول قوة مسيحية في العالم اليوم ، تستطيع ان تتمنى مساعدة ومكافأة اولئك اليهود انفسهم الذين اساءوا معاملة مسيحكم .

« نحن العرب اصدقاء تقليديون لبريطانيا العظمى منذ عدة سنوات ، ونحن ،

آل سعود ، بصورة خاصة ، كنا اصدقاء مخلصين لحكومتكم طيلة حياتنا . اي جنون ، اذن ، يدفع بحكومتكم للقضاء على هـــذه الصداقة التي دامت قروناً ، ومن أجل شعب ملعون كان منذ بداية العالم يضطهد وينبذ الانبيـــاء ، وبعض دائماً كل يد تمتد اليه لمساعدته ؟

« انه من الأفضل ، من كل الوجوه ، لو ان بريطانيا العظمى تجعل فلسطين ملكاً لها وتحكمها طيلة السنوات المئة القادمة ، بـدلاً من تقسيمها على الشكل الذي تقترحونه .

« ان مثل هذا التقسيم لا يمكن ان يحل المشكلة بل يزيدها تعقيداً ومن شأنه ان يقود الى الحرب والبؤس . ويبـــدو ان بعض الناس يظنون ان عيننا ، نحن آل سعود ، على فلسطين، وان حالة من الفوضى والاضطراب هناك هي لصالحنا اذ نتقدم للسيطرة عليها . ذلك حل بكل تأكيد ولكن لا سمح الله ان يحـدث ذلك لان لدينا الكثير من الأراضي ويفيض عنا .

« واليوم نحن الامام القائد الروحي والحاكم الزمني للجزء الأكبر من الجزيرة العربية ، وليس نفوذنا قليلاً والحمدلله في كل البلدان الاسلامية في العالم . ولقـد وضعنا اصدقاؤنا البريطانيون في أصعب المواقف واكثرها حرجاً . فمن جهـة ، نتلقى ملايين الرسائل والبرقيات في الليل والنهار من جميع انحاء العالم الاسلامي تتوسل الينا ان نتدخل وننقذ فلسطين للعرب . كذلك يحثنا شعبنا في نجـــد والمسلمون المؤمنون في العالم الخارجي ان نقطع علاقاتنـا مع الانكليز وننقذ فلسطين لأهلها بالحرب. ومن جهة ثانية نجد انه من غير المجدي ان نقطع العلاقات مع اصدقائنا الانكليز ، لاننا بذلك نحدث خوفاً وقلقاً لا نظير لها في العالم فضلاً عن اننا نكون بذلك نخدم اليهود اعداء العرب وأعداء الأنكليز .

« اننا قطعاً لا ننوي شن حرب عليكم وقد ابلغنا شعبنا بذلك، لاننا الشخص الوحيد بينهم الذي يستطيع ان ينظر الى الأمام ، ونعرف اننا بذلك سنفقـد حليفاً ممكناً . او ليست ايطاليا والمانيا وخاصة تركيا كالذئاب الكاسرة اليـوم يبحثون عن ضحية يلتهمونها ؟ وكلهم يتملقوننا في هذه الأيام ولكننا نعرف انهم

سيبتلعوننا فيما بعد . ونحن نعتقد ان انكلترا ، اذا كانت صديقة ، تستطيع دائماً ان تمنعهم من الوصول الى أغراضهم . ولكوننا مسلمين ، فانه ليس لنا حب خاص لاية دولة مسيحية اوروبية ، ولكن المصلحة السياسية تتطلب منا ان نبقى الى جانب افضل تلك الدول وهي انكلترا .

« ان الصعوبة هي في رعايانا العرب وفي قبائل الاخوان بنجد . فبالنسبة لقضية فلسطين ، فان حواسهم هي في عيونهم فقط ولا يستطيعون النظر أبعد من ذلك قيد شعرة . وهم اليوم يلومونني لعدم وضوح موقفي ولاطاعتي اوامر الانكليز ، ومع ذلك تتوقع حكومتك مني ضبطهم . ان حكومتك يجب ان تتذكر انني زعيم العرب الديني وبالتالي مفسر النصوص المقدسة ... وكلمة الله لا يمكن ان تحرف .

« ان كلام الله ، في الحقيقة ، يعلمنا — ونحن نؤمن بذلك يا ديكسون — ان المسلم ، اذا قتل يهودياً او قتل على يد يهودي ، يدخل الى الجنة فوراً والى بهاء وجود الله الكلي القدرة . فماذا يطلب المسلم اكثر من ذلك من هذا العالم القاسي ؟ بذلك يذكرني شعبي باستمرار . ان حكومتك بكل تأكيد تضعني في نفس المأزق الذي وضعتني فيه سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ الذي انتهى بثورة الاخوان ضدي .

« واليهود اعداؤكم كما هم اعداؤنا ومع ذلك فهم يستخدمونكم الآن . وفيما بعد سترى حكومتكم الحقيقة وتأكل اصابعها ندماً . واليهود في الوقت الحاضر يفضلون انتظار الوقت المناسب . وربما كانت حكومتكم لا تعرف ان اطماع اليهود لا تقف عند حدود فلسطين ، فهم يطمعون ايضاً بالاستيلاء على كل البلاد الواقعة جنوبيها حتى المدينة ، ويأملون في التوسع شرقاً في يوم من الايام حتى الخليج الفارسي . انهم يخدعون ذوي العقلية الاستعمارية من الانكليز بايهامهم ان دولة يهودية قوية من البحر المتوسط الى الخليج الفارسي تستطيع ضمان المواصلات الانكليزية مع الشرق عن طريق قناة السويس والعراق ، وان العرب اعداء للانكليز وسيبقون كذلك .

« وفي الوقت ذاته يلعبون بعقول الجماهير العاطفية في بريطانيا بزعمهم ان انبياء العهد القديم وعدوهم — اي لليهود — بالعودة الى ارض الميعاد ، وبقولهم ان بني اسرائيل المضطهدين المشردين يجب ان لا يحرموا رقعة صغيرة من الارض يلقون عليها رؤوسهم القلقة . كيف يا ديكسون يشعر السكوتلنديون فيما لو اعطى الانكليز اسكتلندا لليهود ؟ ولكني لا ... انه لأسهل واقل خطراً عليك ان تعطي بلاد غيرك .

« وأما ان يكون يهود فلسطين يوترون كل الاعصاب لايجاد انقسام دائم بين الشعب الانكليزي والعرب ، فأمر يمكن اثباته بما لا يقبل الجدل ، والدليل في ذلك حوادث قتل الموظفين الاخيرة في فلسطين .

انه لمن الواضح وضوح النهار ان اولئك القناصة العرب المجرمين الذين ارتكبوا تلك الأعمال القبيحة استؤجروا في الخارج بأموال يهودية . اننا نعلن ذلك كحقيقة مطلقة لأن المفتي الأكبر في القدس اقسم لنا بالكعبة المكرمة في بيت الله الحرام بمكة انه لا يلجأ الى مثل تلك الاعمال غير الدستورية في مقاومة الدسائس الصهيونية في فلسطين . ونحن آل سعود نصدق كلامه الى الآن .

« ان أهم ما نخشاه وما يجب على بريطانيا العظمى ان لا تسمح به ، هو تحول عرب الجزيرة والبلدان العربية المجاورة الى اعداء لانكلترا . فاذا حدث ذلك تكون قد ارتكبت جريمة لا تغتفر ، لأن العرب كما قلنا لا ينسون الاساءة ويظلون يترقبون الفرص للثأر مئة سنة اذا اقتضى الأمر . واعداء انكلترا لن يتأخروا ابداً في استغلال ذلك ، لأنه اذا وقعت انكلترا في مصاعب أو شغلت بحرب ، فتلك هي الاشارة للعرب ان يتحركوا .

« ان مجرد التفكير بحدوث ذلك كريه لدي ، انا عبد العزيز ، ولكن تأكد ان تقسيم فلسطين سيسبب ذلك لا محالة بالرغم من كل جهودكم الخاطئة التوجيه . وانا لا استطيع ان اساعدكم الى الأبد لانني لن اعيش اكثر من عدة سنوات اخرى .

واكرر القول ان الحل الوحيد الذي نراه هو ان تتحرك بريطانيا العظمى

لتحكم فلسطين بنفسها . فالصهيونيون طبعاً لن يعجبهم ذلك ولكن يجب ان لا يؤخذ رأيهم . والعرب سيوافقون على هذا الحل والذين لا يوافقون يجب ان يحملوا على الموافقة من قبل أشخاص مثلنا . فالأمر الاساسي هو منع اليهود بأي ثمن من إقامة دولة مستقلة لهم مقتطعة من الأراضي العربيـــة ، حيث لا ضابط لسياستهم ولتصرفاتهم في المستقبل . ومن هناك سينشأ صراع دائم بينهم وبين العرب الذين يعيشون حولهم . أولاً ، لأن اليهود بعزمهم على التوسع سيبدأون التآمر منذ البداية ولن يهدأ لهم بال إلا بخلق الاضطراب والعداء بين بريطانيـا العظمى وبيننا نحن العرب على أمل ان يستفيدوا من الوضع . وثانياً ، بما لديهم من مال يستطيعون انشاء جيش فعال بآلياته وقواته الجوية ، قد يكون صغيراً لكنهم سيستخدمونه بدون شك للاغراض العدوانية ضد العرب نظراً لأن هدفهم هو الاستيلاء على كل فلسطين وشرقي الأردن والمدينة معقلهم القديم التي لجأوا اليها عندما طردوا من فلسطين يوم دمر الرومان القدس وشتتوهم .

« وفوق كل ذلك يجب على حكومتكم ان تحـــد فوراً من هجرة اليهود الى فلسطين تاركة الذين هناك مكانهم بشرط ان تمنع غيرهم من المجيء .

وهنا استغليت توقف الملك الاضطراري عن الكلام وحاولت ان اشرح له وجهة نظر حكومة صاحب الجلالة . وقبل ان اتقدم بعيداً استوقفني بصورة حماسية وقال بانفعال :

— والله ليس لحكومتكم اية وجهة نظر باستثناء ارتكاب عمل غير عادل عن قصد . ان كل رجل يخاف الله ، مسلماً كان أم مسيحياً ، يعرف انه ليس من الصحيح ارتكاب الخطأ مهما كان ارتكاب ذلك الخطأ ذكياً حاذقاً . فاذا كنت انا ، بدوي عربي جاهل في الجزيرة ، استطيع ان أرى بوضوح كما أرى شروق الشمس ، ان الاقدام على تقسيم فلسطين عمل شرير خاطىء في نظر الله ، افـــلا يرى ذلك السياسيون الغربيون الاكثر ذكاء بكل تأكيد ، اذا كانوا يخافون الله ولو قليلاً ؟ شكراً لله لاننا نؤمن به وبوحدانيته ، ولاننا نعرف ان ايماننا هذا بالذات هو الذي يجعلنا نرى الاشياء بوضوح كما نراها . اننا لمقتنعون اننا على

حق وان الله فتح اعيننا على الحـــق ، وانه سيعاقبنا ، نحن آل سعود ، لو كذبنا عليه .

ولذلك فانه ليس هناك جانب آخر لهذه القضية اللهم إلا بالمساومة مـــع الشيطان .

وهنا بدأ الملك فجأة يتعب وكأن الجهد الذي بـذله في التحدث طويلا ، كان كثيراً عليه . وبعد ان دعا محمود جسور ليقرأ آخر الانباء بالراديو من جميع انحاء العالم للمجتمعين في مجلسه ، صرفني بلطف ولكن بثبات .

وبعد ان خرجت من حضرة الملك استوقفني في الممر رسول قـال ان الامير سعود يحب ان ازوره في مجلسه . ووجدت ولي العهد عاقداً مجلساً مع جماعة من شيوخ البدو وغيرهم . فاستقبلني باحترام وطلب مني ان اتناول طعام الغداء معه يوم الاربعاء في السابع والعشرين . ولم تُسأل اية اسئلة محرجة وتجنبنا الخوض في موضوع فلسطين .

وحدثني سعود كثيراً عن زيارته الاخيرة لانكلترا وعن العطف الذي احيط به هناك من كل جانب . ووجد من المناسب ان يخبرني ان شيئين قد تركا اكبر الاثر في نفسي وهما : العاطفة العجيبة التي يكنهـــا الشعب الانكليزي لملكه وعائلته المالكة ، والاحساس البديهي بالقانون والنظام الذي لمسه في كل مكان . واعطى مثلا على ذلك العادة الانكليزية المدهشة في الاصطفاف بانتظـام خارج المسارح ومحطات القطار ، وقال انه يعتقد ان ذلك مسلٍّ .

وجاء السير فؤاد حمزه ذلك المساء ليتناول معنا طعام العشاء في قصر بديعه . وبعد القهوة سألني ما اذا كنت اعرف شيئاً عن المشاكل بين البحرين وقطر التي قال بكل أسف انها لم تكن لتحدث في عهد السير بيرسي كوكس . وقلت انني لا اعرف شيئاً عن تلك المشاكل . ثم عـــاد وفتح موضوع فلسطين على اساس ابداء رأيه (وكان ذلك تكراراً لحديث الملك) بأن الواجب الفوري امـــام الانكليز في فلسطين هو اسقاط مسألة التقسيم ، وادارة البلاد بأنفسهم ، اذ ان ذلك يجدد الثقة ويعطي مجالاً للتنفس . وقال ان فوق كل ذلك يجب على بريطانيا

ان تحدّ من هجرة اليهود الى ان تتيسر طريقة تبقى فيهـــا نسبة السكان العرب واليهود على ما هي عليه .

ولكي استدرج فؤاد حمزه اكثر اقترحت مـــا اعتقد انه حل انسب ولكنني اوضحت منذ البداية ان تلك فكرة شخصية تمـاماً تكونت لدي نتيجة لكوني قد عشت في القدس وأنا فتى ، ورأيت كيف كان الاتراك يواجهون المشكلة . فمنذ سنة ١٨٩٢ كان الاتراك يخشون عودة اليهود فيطغون عليهم وعلى السكان العرب ، فأصدروا قانوناً يمنع اليهود الاوروبيين والاميركيين من البقـاء في البلاد اكثر من شهرين في المرة الواحدة . وعلى اساس هذه المقـارنة شرحت لفؤاد حمزة ان كل اليهود المقيمين في فلسطين حالياً يجب ان يسمح لهم بالبقاء نهائياً ومنع إقامة يهود جدد في البلاد منعاً باتاً . وفي الوقت ذاته يجب ابقاء فلسطين مفتوحة في وجه كل يهودي يرغب في زيارتها للحج بشرط ان يغادر البلاد بعد شهرين . وبكلام آخر يجب على السلطات القنصلية البريطانية ان لا تعطي يهود الخـارج تأشيرة دخول الى اكثر من شهرين . وقلت ان مثل هذا النظام يعمل تماماً كما هي الحال بالنسبة للمسلمين الاجانب الذين يحجون الى مكة . فهم بامكانهم المجيء اي وقت يشاءون ولكنهم لا يستطيعون الاقامة الا في الظروف غير العادية .

وقال فؤاد حمزه ان اقتراحي وجيه وجدير بالبحث ، ولكنه غير الموضوع فجأة وكأنه شعر انه لا ينبغي ان يبحث مثل هذا الموضوع الخطير مع شخص ليست له صفة رسمية .

زيارة للنساء الملكيات

بقلم فيوليت ديكسون

« النساء الملكيات على استعداد ان يستقبلنك في السـاعة الثالثـــة من صباح الثلاثاء » .

تلك كانت الرسالة التي وصلتني مساء الأثنين .

السـاعة الثالثة تعني بتوقيتنا السـاعة التاسعة ، فغادرت قصر بديعه مع خادمتي

حمدة في الثامنة والنصف . وكان يجلس في المقدمة مع السائق عبد من عبيد قصر الرياض الذي نتجه اليه وسالم المزين. وزحفت بنا السيارة ببطء على الطريق الصخري الذي يلف المدينــة تاركين الى يسارنا قصر الشمسية الجديد وقصر نورا شقيقة الملك ، ثم اتجهنا الى اليمين ناحية المدينة .

وبعد ان قطعنا شارعاً ضيقاً مستقيماً وجدنا انفسنا فجأة أمام قصر الملك في السوق الكبير . وكانت الساحة المكشوفة مزدحمة بالبدو والجمال وعلى مقعــد طويل كان يجلس اولئك الذين ينتظرون دورهم لمقابلة جلالتـه . ولم استطع ان المح هذا المشهد سوى لحظة واحدة لأن السيارة انطلقت بنـــا عبر الساحة الى جانب القصر حيث يقوم باب كبير تحت جسر عريض . وهناك ترجلنا فاقتادونا الى الداخل عبر عدة باحات كان بعضها يضم خيولاً يستخدمها افراد العائـــلة المالكة . وصعدنا درجاً هيناً ثم مشينـــا الممرات والشرفات الى أن أدخلنا الى غرفة كبيرة فارغة .

ولم يظهر أحد قبل خمس دقائق فأعطاني ذلك فرصة لإلقاء نظرة من حولي.. عمودان يقفان وسط الغرفة يدعمـــان السقف مع عوارض خشبية ذات رسوم كتلك التي وصفناها في قصر بديعه .. والارض مغطاة بسجاد عجمي معظمه من نوع كرمان يبدو انه بنفس العرض كالمسافة بين الجدران والاعمدة . وعلى مدار الغرفة كانت هنالك مساند مربعة الشكل ذات اغطية قطنية زرقــاء مطرزة الاطراف . وفي احدى الزوايا كان يقف وجار القهوة وفيـــه بعض الجمر عليه ابريقان واحد للقهوة والآخر للشاي. وعلى الحائط فوق الوجار كان هنالك عدد من الرفوف وضع على أحدها جنباً الى جنب صفان من اباريق القهوة النحـاسية كلها من نفس الحجم تقريباً مصقولة وذات لمعان . وتحت ذلك كان هنالك رفان آخران عليها أباريق بلورية ذات الوان أزهى . وعلى الارض كانت فناجين القهوة وكاسات الشاي جاهزة للاستعمال . وفي احدى الزوايا كان هناك فراش ملفوف وكأن احداً كان ينام فيه او يستريح عليه . ولتلك الغرفة بابان.. واحد في إحدى الزوايا والاخر في الوسط مقابله ، ولهـا أيضاً ثلاث نوافذ لهـا

مغالق خشبية على الطريقة الحجازية كما اخبروني فيما بعد .

وجلست انا وحمدة على الارض قرب النار في الزاوية اتساءل في نفسي عما اذا كان سيطول انتظارنا . وفي تلك اللحظة دخلت سيدة سافرة الوجـــه وقد علقت اكمام ثوبها الاسود فوق رأسها الملتف بقماش أسود فاخر . وكانت ترتدي تحت الثوب الاسود ثوباً آخر قرمزي اللون ذا أكمام ملتصقة بيديها تماماً .

ونهضت وقبلتها وحييتها التحية العربيـــة المعهودة . ولم أكد أجلس حتى ظهرت سيدة أخرى من الباب الآخر فنهضت واعدت الكرة في التحيـــة .. ثم دخلت سيدة ثالثة وأخذن يمطرنني بالاسئلة .

– كيف حالك .. كيف حال اطفالك .. ان شاء الله لم تتعبي في رحلتك .. متى وصلتم .. من اين اتيتم .. الى اين انتم ذاهبون .. من هذه الذي معك ..

– انها خادمتي .

وعلمت ان السيدة الاولى هي منيرة اكثر زوجات الملك حظوة وتعرف بأم منصور . وكانت الثانية رائعة الجمال ذات وجه مستدير ولا تتعدى الخمسة والعشرين ربيعاً ، وكانت ترتدي ثوباً ارجوانياً رائعاً تحته فستان بلون الزبدة .. فسألتها :

– ما اسمك ؟

واجابت الامرأتان الاخريان :

– هذه ام طلال .. وام نواف ايضاً .

– هو ابنك اذن الذي امسك الملك من لحيته أمس في المجلس .

ولم تكن تعرف .. لأنها لم تسمع عن الحادث اثناء مقابلة زوجي للملك.

والسيدة الثالثة كان اسمها بازه . وجاءت رابعة ولكنهـــا تختلف عن الأخريات .. وهي ذات وجه جميل وشعر أشقر تقريباً ملتفة بثوب اسود يخفي تحته فستاناً ارجوانياً مذهباً .

وسألت ام منصور :

– من هذه .

– هي ماضي[1] وشهرها في رمضان .

– اطلب من الله ان يرزقها ولداً .

وأخذت حمدة تتمتم بتمنيات مماثلة لبضع دقائق .

وفي تلك الاثناء دخلت احدى العبدات وراحت تصنع لنا القهوة والشاي بهدوء . وبعد قليل دارت علينا القهوة فشربنا جميعنا . وكان المكان هادئاً لا توجد فيه نساء فضوليات يتلصصن من ثقوب الابواب والنوافذ . وبدأ طفل يصرخ من بعيد فهمست ام منصور بأذن بازه ان تذهب لإسكاته فأطاعت في الحال وانقطع الصوت . وجاءوا بعد ذلك بنوع من البخور فأمسكت به العبدة تحت اكمام ثوبي العربي وملفحي .

وقالت السيدات :

– يجب ان تقفي فوقه .. الرجال يحبونه وزوجك سيحبه ايضاً .

وسروا كثيراً عندما امتثلت .

ووجدت ان الوقت اصبح مناسباً لكي اغادر ولكنني ترددت اذ كانت الساعة لا تزال العاشرة والربع وقد ابلغت انني اذا بقيت مع السيدات حتى الحادية عشرة فقد يسعدني الحظ بمقابلة الملك الذي يأتي في مثل تلك الساعة الى حريمه .. وكانت تلك فرصتي الوحيدة .

وارتحت عندما ابلغت ام منصور العبدة انها اخطأت في جلب البخور بمثل هذه السرعة .. فجلست مصممة على ان ارى صاحب الجلالة .

وكانت ام منصور تبدو قلقة وتتمتم في نفسها قائلة :

– آه .. ابن منصور ؟ لا اعرف .. لم اره منذ صباح البارحة .

وجاءها الجواب :

– انه مريض بالحمى في منزله .

– انني لا استطيع الانتظار .. يجب ان اذهب اليه .

ونهضت بصمت وخرجت . وسألت الاخريات اللواتي اخبرنها ان منصور مريض منذ يومين :

– هل تتذكرن الدكتور ترمس الذي كان هنا السنة الماضية .. انه اليوم في

الكويت .

واجابتني أم طلال :

– نعم .. انه رجل طيب . لقد سمعنا ان الدكتور دايم قد توفي .. أصحيح ذلك !

– لا أعتقد ذلك لأنه مرّ في الكويت منذ عدة أيام فقط .. هـــل تعرفين السيدة دايم ؟

– نعم أعرفها جيداً وآخر مرة أحضرت معها طفلها الصغير روب روي .

وقلت :

– انني أعرفها منذ عدة سنوات .. إنها امرأة طيبة .

وحدثتني عن رحلتهن السنوية الى مكة ، كيف يغادرن الرياض في الوقت الفلاني وكيف يخيمن واين بعـــد كذا ساعة ... الخ بكل تفصيل وإسهاب ، وكيف ان سائقي السيارات يسرن على مهل تحت طائلة العقاب بالجلد .. الى ان يصلوا الى الارض الرملية حيث يسمح لهم بالاسراع كما يشاءون .

وقالت أم طلال :

– قد لا نقول لهم شيئاً إلا ان ننبههم .. فانا دائمــة القلق على اولادي الذين لا يحبون الجلوس بل يفضلون الوقوف على المقعد قرب السائق .

– هل جاءت سيدة انكليزية لزيارتكن في السنة المـاضية ؟ وكنت اقصد بهذا السؤال الكونتيس آثلون .

– عندما كنا مخيمين في خفس جاءت الينا واحدة لا تعرف العربية .. وكان يبدو عليها الأسف لأنها لم تكن تعرف التحدث الينا فأخذت تؤشر على لسانهـا وكأنها تقول انها تود قطع لسانها لأنه لا يعرف لغتنا .

وتحدثنا بعد ذلك عن اميركا ثم سألتني عن البلاد حيث النهار ليل. فوصفت لهن القطب الشمالي ولكنني تساءلت فيما بعد عما اذا كن يقصدن استراليـا حيث يكون ليل عندما يكون هنا ليل .

كان الراديو لهن مصدر تسلية وبهجة فكن يسمعن ساعـــة المجلس الكبيرة

تدق مع ساعة لندن كاشارة لضبط الوقت . واكثر شيء كن يستمتعن به هو الموسيقى من لندن في الساعة العاشرة ليلاً .. وكن ايضاً يستلطفن إذاعة القاهرة .

— ولكنهم عندما يقرأون القرآن من هناك لا نفهم لغتهم العربية جيداً .

وهنا جاءوا لنا بصينية كبيرة عليهـا صحون من الدراق المعلب والأناناس والبسكوت مرتبة ترتيباً أنيقاً . وجلسنا حول الصينية نأكل مما فيها بالملاعق ، وكانت العبدة تحمل إبريقاً من الماء لتصب لنا المـاء منه على ايدينا لنغسلها قبل وبعد الطعام .

واقتربت الساعة من الحادية عشرة . وكانت السيدات يدخلن ويخرجن واحياناً يتركن معي واحدة فقط لتسليني . وجاءت ام طلال لتسألني :

— اتحبين مقابلة الملك ؟

— طبعاً أحب ذلك ... وهل ذلك ممكن ؟

وجاءت اللحظة العظيمة .. كما كنت اعتقد . وتركتني ام طلال واخبرتني الباقيات عما يجب ان افعله عندما يدخل الملك :

— سيأتي الى هنا ولست بحاجة الى ان تغطي وجهك ولكن انهضي واذهبي اليه وقبلي يده . فيسألك عندئذ عن حالك وكيف قضيت الرحلة ويعرب لك عن أمله بأن تكوني على أحسن حال وعما إذا كان كل ما تريدونه مؤمناً لكم في قصر بديعه . وانت يجب ان تسأليه عن صحته وعن عائلته .. ثم ينصرف .

وجعلتهن يكررن الدرس علي خشية ان اخطىء . والشيء الذي عرفته بعد ذلك اختفاء وجوه السيدات وراء البراقع فجأة لأن أفندياً سورياً ابيض اللون قد دخل الغرفة ... وعلمت فيما بعد أن الأفندي السوري هو الدكتور مدحت شيخ الارض شقيق فخري أفندي شيخ الأرض الذي جاء لملاقاتنا عندما اقتربنا من الرياض . والدكتور مدحت هو طبيب الملك الخاص . وبلهجة سورية سريعة تلا علي رسالة من الملك فلم افهمها جيداً ولكنني استنتجت ان الملك لم يكن يعرف انني سأقوم بزيارة للسيدات ذلك الصباح فبعث يعتذر انه لن يستطيع

مقابلتي . وقال الدكتور مدحت انني إذا كنت ارغب في مقابلة نورا شقيقة الملك فانها تستقبلني عند الظهر .

وتولت السيدات شرح ما قاله الدكتور مدحت من جديد بلغـــة مبسطة . وبعد ذلك خرج الطبيب وعاد من حيث اتى ليسأل نورا عن الوقت المناسب .

وقال لي بعد عودته :

ـ الشيخة نورا ستستقبلك في قصرها بعد صلاة العصر . ان سيارتك تنتظر .

وقلت : يجب أن أذهب !

وصرخن كلهن قائلات :

ـ القهوة .. القهوة .. يجب ان تشربي مزيداً من القهوة .

وبعد ان شربت ثلاث فناجين قبلتهن مودعة .. ونزل معنا الدكتور مدحت الى الدرج حيث رافقنا رجل آخر الى السيارة . وعدنا الى قصر بديعه وقد خاب املي بان فرصتي الوحيدة لمقابلة الملك قد ضاعت .

وعند دنا وقت العصر توجهت الى قصر نورا بالسيارة وبصحبتي حمدة وسالم المزين ايضاً . ووصلنا القصر بعد نصف ساعة وكان منظره مشوشاً نظراً لوجود كميات من الطوب حوله معدة لبناء الجناح الجديد الكبير . وجــــاء عبد صغير ليرشد سائقنا الى المدخل حيث ترجلت من السيارة تتبعني حمدة . ولدى عبورنا المدخل اتجهنا قليلاً الى اليسار فوجدنا أنفسنا تحت شرفة ذات اعمـــدة تحيط بباحة صغيرة .

كانت عدة نساء في استقبالنا فتبادلنا التحيات العربية المعهودة وجلسنا على السجاد واتكأنا على مساند كبيرة على طول الحائط . وتساءلت في نفسي : أين نورا تلك السيدة العجيبة التي سمعت عنها كثيراً والتي يقال انها طول شقيقهـــا الملك عبد العزيز . انها ستنضم الينا بعد قليل .. او ربما كان كل ذلك كالاسطورة والسيدة الموقرة تجلس بجانبي تتحدث كزوجة أحد شيوخ الصحراء بعربية البدو الرائعة .. أهذه هي نورا الشهيرة ؟ واطلقت طلقتي في الظلام وقلت :

ـ يا نورا ، انني سعيدة برؤيتك ، لقد سمعت عنك كثيراً .

فابتسمت وتمتمت كلاماً جميلاً بصوت خافت .. كان كل شيء على ما يرام . فقد عرفت اين اقف الآن . وبدأت بصوت أعلى تمطر حمدة بالاسئلة :

– من انت ؟ من اين انت ؟ ما اسمك ؟ ما اسم امك؟ ما اسم والدك ؟الخ..

واجابت حمدة انها مربية اولادي وانه لا فائدة من سؤالها عن والديها وعن المكان الذي اتت منه وقالت :

– انك لن تعرفينهم .

وقالت نورا بصوت آمر :

– اخبريني اخبريني .

وبعد ان اخبرتها كل شيء تريد ان تعرفه وارتاحت هوية حمدة سألت :

– كيف حال فلانة وفلانة في الكويت .. هلا تزال فلانة وفلانة على قيد الحياة ؟

وبعد ان سألت عدة اسألة تتعلق بكبار عائلات الكويت قلت لها :

– لقد مضى زمن طويل منذ كنت هناك يا نورا .. فعندما غزا شقيقك الرياض هل تركك في الكويت ؟

– نعم وبعدئذ بعث في طلبي .

وبعد ذلك قدمتني لفتاة جميلة طويلة القامة تجلس قبالتنا .

– هذه ابنتي الجوهرة .. انها زوجة فيصل بن عبد العزيز * .

فتبادلنا الابتسامات .

وابديت دهشتي قائلة :

– ما شاء الله يا نورا، انك ما زلت صبية ولديك مثل هذه الأبنة .. كانكما شقيقتان .

وقالت نورا :

---

* فيصل هو الأبن الثاني للملك عبد العزيز وقد اصبح ولياً للعهد سنة ١٩٥٣ ، وهو حالياً رئيس وزراء المملكة السعودية ونائب الملك فيها . (ملك المملكة العربية السعودية منذ تشرين الأول ١٩٦٤) . الناشر .

– كنت مريضة .. لقد مضى علي اربعـــة أشهر وأنا على فراش المرض .. ولكن الحمدلله فقد تحسنت حالتي .

– الحمدلله .

وسألتها عن السيدتين الباقيتين فقالت انهن زوجات ابنهـا محمد الذي قالت انه خرج للصيد لعدة أيام مع زوجها سعود العرفة المعروف تحبباً بسعود الكبير .

وقالت لي :

– يجب ان تذهبي معنا الى مكة .

– وهل أستطيع ؟ انني كافرة ..

– يجب ان تصبحي مسلمة مثلنا فتصلين كما نصلي وعندما تفارقين الحيـــاة تذهبين رأساً الى جوار ربك الكلي القدرة .. انني لا أستطيع ان أفكر كيف ستذهبين الى النار الابدية .. قولي انك ستصبحين مسلمة .. قولي ان شاء الله .

ولم اقل شيئاً فاحتفظت بهدوئي لأنني لم اكن اعرف مـاذا افعل . وهزتني من كتفي وقالت :

– قولي ان شاء الله .

فتمتمت قائلة :

– ان شاء الله .

والتفتت نحو حمدة وطلبت منها ان تراقب ما إذا كنت قد اصبحت مسلمة مؤمنة حقاً .

وهنا قلت لها :

– يا نورا .. فليصبح زوجي أولاً بالرغم من انني اخشى عندئـــذ ان يأخذ لنفسه زوجتين او أكثر من نساء البدو الجميلات .

– لا بأس في ذلك .. لا تقلقي .. كلهم يفعلون ذلك ولا نبالي .. انه شيء رائع ان يكون حولك كثير من النساء .. هل ابنتك متزوجة ؟

– لا، انها في المدرسة تتعلم الكتابة .

– ولماذا يجب ان تتعلم ؟

وهنا دخلت الجوهرة في الحديث وقالت :

– انا اعرف ان نساءكم ليسوا مثلنا .. فاذا لم يتزوجن يشتغلن لتحصيل معيشتهن .

واجبتها بقولي :

– هذا صحيح .. اننا ننتظر ان يأتي الينا أحد ليتزوجنا وكثيرات من الفتيات لا يطلبهن أحد فيبقين دون زواج .

واقترحت علي نورا بقولها :

– فلنتزوج ابنتك واحداً منا .

وعندئذ اخبرتها ان شيخاً من شيوخ البدو جاء الي يوماً وطلب يدها وقال انه على استعداد ان يعطيني اي عدد من الجمال اطلبه . وبعد تفكير قلت له « اعطني كل الشروف » لأنني كنت أعرف ان الملك قد أخذها كلها من قبيلته مطير .. فذهب حزيناً ولكنه لا يزال يفكر فيها ويسأل عنها .

ورن جرس التلفون فجاءت عبدة وفتحت صندوقاً صغيراً كان معلقاً على الحائط فوق رأسي .. وأخذت تتكلم وتضحك في الجهاز ونقلت رسالة الى سيدتها ثم نقلت جوابها .

وقلت لنورا :

– ان اجهزة التلفون « تقرفزني »

وردت نورا علي قائلة :

– لا .. انها رائعة .. لست أدري اذا كنا نستطيع البقاء بدونها .

وكنا طوال هذه المحادثة نتناول الشاي والقهوة .

وقالت نورا :

– الشيوخ يأتون الى هنا دائماً بعد الظهر ولذلك اتوقع ان يصلوا قريباً .. فلنذهب الى هناك لنأكل بعض الفاكهة قبل مجيئهم .

واقتادتني عبر الباحة النظيفة الى زاوية الشرفة المقابلة حيث وجدنا صحوناً ملأى بالخوخ والاناناس والاجاص والبسكوت وفاكهة من دمشق ، فغسلنا ايدينا

وبدأنا نأكل .. وكانت الفاكهة لذيذة .

وسألتني :

ــ لمـــاذا لم تأت عندما كانت لدينا فاكهة طازجة .. لقد انتهت منـــذ شهر فقط .

وأخبرتهن انه لم يمض على قدومي من لندن وقت طويل ولذلـــك لم يكن بمقدوري ان ازورهن قبل هذا الوقت .

ولم اكد انتهي من غسل يــدي حتى سمعت أصواتاً مفادهــا ان الشيوخ قد اتوا .

وقالت نورا :

ــ تعالي تعالي .

وهرعت عبر الغرفة لتحية شقيقها .

وكان الملك عندئذ جالساً على كرسي كبير في نفس المكان الذي كنا نجلس فيه منذ برهة . وكان ابنه الأكبر الأمير سعود واقفاً عند المدخل . ونهض عبد العزيز وحياني بابتسامة رقيقة وردد على مسامعي بالعربية السؤال المعتاد :

ــ كيف حالك ؟

وبعد ان سلمت عليه بالعربية سألت الأمير سعود عن صحته بالانكليزية .. وطلب مني الملك ان اجلس . وجلست على يمينـــه وجلست نورا على يساره وبدأت تخبره كل ما دار بيننا من حديث وكيف وعدتها بأنني ساعتنق دين محمد واذهب الى مكة .

وقلت له :

ــ يا عبد العزيز انك بدون شك ستقطع رقبتي اذا ذهبت انا الـــكافرة الى مكة .

فضحك وضحك طويلاً لدى سماعه هذه العبارة .

وسألته نورا :

ــ من هو زوجها ؟

– ديكسون .. صديقي منذ سنوات طويلة .

وهنا قالت نورا :

– يبدو انها تعرف كل شيء اذ طلبت مني ان اسمح لها بمشاهدة البوابة الكبرى لقصر عجلان التي لا تزال رأس الرمح فوقها .

– طبعاً يجب ان تشاهدها ولكن من أين حصلت على معلوماتها هذه ؟

وهنا تطلع الملك نحوي وضحك .

وكان جوابي :

– انك ادرى الناس يا جلالة الملك .

ففهم قصدي .

– هل زرت قصري الجديد ؟ يجب ان تشاهديه !

– اطال الله عمرك .

انه شخصية عظيمة .. اما ابنه سعود الذي كان يقف بعيداً عنا عدة ياردات ، فلم يكن شيئاً إذا قورن به .

وقالت نورا :

– لقد اخبرتني انني لا زلت ابدو صبية وكأنني شقيقة ابنتي .

فقلت لها :

– وهذا صحيح يا نورا .. فاذا طلقني زوجي فانني سآتي واعيش معك هنا دائماً .. انني اريد ان ابقى شابة مثلك .. ان كثرة العمل والضوضاء في الغرب تجعلنا نشيخ قبل الأوان .

وضحك الملك من قلبه ثانية واستأذن بالخروج وعندما غادر المكان جاء الامير سعود الي فوضعت فوراً ذراعها حول عنقه وسألتني باعتزاز :

– كيف ترين سعود ؟ مثل والده ؟

– نعم .. ما اطوله !

وهنا قال لي سعود بالانكليزية ما معناه :

– كيف حالك ؟

ـ بخير شكراً .. حسناً ، ها قد تعلمت بعض الانكليزية في لندن .

ولم يفهم شيئاً من ذلك ولكنه ضحك ولوح بيده وخرج مسرعاً لينضم الى الملك .

وجلسنا مرة ثانية لنشرب الشاي والقهوة ثم جاءت امرأة بدوية فنهض الجميع لتحيتها وقالوا :

ـ هذه زوجة الملك .

واحتجت عليهم وهي تغطي وجهاً خجلا وقالت :

ـ لا .. لا ..

ولكن نورا قالت :

ـ هذا صحيح .. انها شقيقة الشيخ فواز* من قبيلة الرولى .

وكان وجهها الصغير المستدير مليء بالوشم وكذلك يداها وقدماها ، وكانت تبدو غريبة بين السيدات الأخريات البيضاوات الوجوه . وكانت يداها متورمتين . فأخذت كل واحدة تعطيها نصيحة بشأنها .

وسألت نورا :

ـ أتسمحين لي بالذهاب .

ـ اذهبي إذا شئت. سأبعث عبدني معك لتدلك على القصر الجديد . أسرعي لأنه عند غروب الشمس تقفل جميع الابواب .

وافترقنا .. وسرت انا عبر قصر الشمسية .(انتهى حديث زوجة ديكسون)

مقابلة ثانية مع الملك

وخلال إقامتنا في الرياض قمت انا وزوجتي بجولة في جميع انحاء المدينة وضواحيها دون ان يعترضنا أحد . كما قمنا بزيارات الى مدينة ضارعية القديمة عاصمة نجد السابقة ، والى محطتي الاذاعة ، والمرآب الملكي ، ومحطة توليد

* ـ فوازالشعلان رئيس فرع الرولى في قبيلة عنيزه .

الكهرباء ، وقصر الشمسية الفخم ، ومكان السباق ، وقلعة عجلان الرشيدية التي استولى عليها ابن سعود عندما احتل الرياض في هجومه المدهش في بداية عهده ، والاسواق .

ولما سمع الملك بجولاتي الاخيرة هذه ارسل في طلبي صباح السابع والعشرين. ووجدته جالساً في نفس القاعة التي قابلته فيها سابقاً . وبعد التحيات المعتادة والاستفسارات عن صحة زوجتي سألني إذا كنت قد زرت صارعيه. ولما أجبته بالايجاب قال لي بكل أدب وتهذيب انه بامكاني ان أذهب اينما شئت في عاصمته، وسمح لي بالتقاط الصور الفوتوغرافية :

— انت واحد منا يا ديكسون وانت حر في ان تفعل ما تشاء في بلادنا .. اذهب اينما تريد ومتى تريد .

ولما شكرته على عطفه هذا استأنف كلامه قائلاً :

— ولأنه مما لا شك فيه انك تود زيارة الهفوف والقطيف لمشاهدة آبار النفط هناك ، فقد ابرقت الى ابن جلوي ان يقوم بالترتيبات اللازمة .

ووجدت صعوبة في التفسير له ان وقتي محدود لا يسمح لي بالقيام بمثل هذه الزيارة . واستأذنت بالخروج من مجلسه بعد ان قرئت نشرة الاخبار بالعربية .

وحان موعد رحيلنا الى الكويت يوم الخميس بعد الغداء في الثامن والعشرين. وفي الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم شاهدنا عرضاً كبيراً او ما يشبه رقصة الحرب استغرقت اربع ساعات في الساحة الكبرى امام القصر . فكانت زوجتي تشاهد العرض من جناح السيدات مع نورا والاميرات وكنت انا اشاهده من الطابق الأرضي عند مدخل القصر حيث كان فؤاد حمزه يتم بي . وفي الصفحات التالية تصف زوجتي هذا العرض .

رقصة الحرب

بقلم فيوليت ديكسون

تقرر ان يقام عرض في اليوم الرابع من زيارتنا فدعاني الأمير سعود لمشاهدة

العرض من النوافذ العليا في القصر . وبعد ساعة من شروق الشمس توجهت مع خادمتي حمدة الى المكان بسيارة خاصة . ودخلنا من نفس البوابة التي دخلناها من قبل ، فوجدنا الباحة مكتظة بالخيول وكلها مسرجة بسروج فخمة وأحزمة من الصوف الملوّن .

ومررنا بين الخيول متلمسين طريقنا الى الدرج ثم الى الشرفات بين الغرف كبيرها وصغيرها الى ان وصلنا الى غرفة صغيرة ازدحمت نوافذها بالسيدات عرفت منهن اللواتي استضفنني صباح الثلاثاء ، فدلوني الى مكان مناسب .

وتطلعت من النافذة الصغيرة فوجدت الباحة كلها مكشوفة تحت نظري يتراقص فيها رجال مسلحون يرتدون ملابس بيضاء وينشدون الاغاني .

وكان مسمراً فوق تلك النوافذ شريط من القماش الابيض كانت النسوة يقفن وراءه محجبات الوجوه . وفجأة أحسست انهن يتدافعنني وسمعت احداهن تقول :

تعالي .. تعالي ..

وبدون ان أعرف سبب هذا الانتقال أو اتجاهه تبعتهن عبر القاعة الى غرفة كبيرة . وهنا أيضاً كانت كل نافذة كتلة من النساء . وقد جمعت جميع المساند من الغرفة لكي يتمكن من الركوع عليها ومشاهدة الرقص دون تعب . وكانت لكل نافذة قضبان حديدية ومغالق خشبية عليها نقوش من قسيم (١) كالابواب تماماً. وكان السقف مغطى بقماش أبيض علق شريط من نوعه على طول الحائط فوق النوافذ .. ولكن قبل ان نغادر كان كل شيء ممزقاً ومرمياً على الارض .

الساعة الآن حوالي الثامنة صباحاً . وفي الساحة كانت تقرع الطبول والرجال يرقصون رافعين السيوف بايديهم ومنهم من كانت اذرعهم متشابكة يروحون ويجيئون على النغم وهم ينشدون اغنيات الحرب المليئة باخبار الحب والفروسية. وظهر الامير سعود تحتنا مباشرة وكان يلبس ثوباً من الحرير الابيض وعلى وسطه خنجر ذهبي وعلى رأسه عقال مذهب فوق كوفية (غطرة) من الحرير الابيض. وكان معه حوالي ٢٧ شاباً من اولاد الملك وأولاد مسعد الجلوي حاكم حايل

(١) القميم

وغيرهم من فتيان البيت السعودي .

وانتظم الجميع في صفوف مستقيمة بعد ان نزل سعود الى الحلبة يدفع هذا الى الوراء وذاك الى الامام الى أن أصبح الرجال السبعماية أو الثمانماية يرقصون بشكل منتظم . واشترك سعود في الرقص — يحيط به رجال يضربون طبولاً صغيرة . وقد استرعى انتباهي واحد منهم يلبس طربوشا احمر ذا شرابة سوداء مثبت تحت ذقنه بشريط .

وخرج الملك من القصر عندئذ وجلس على مقعد حجري مرتفع عند الجهة الشرقية من الساحة يحيط به المشايخ — رجال الدين الوهابيين — وصار الراقصون يتحركون ببطء باتجاه الملك الذي انضم اليهم وسيفه في يده ورقص ما يقرب من العشرين دقيقة . وكان من الصعب ان اشاهده من المكان الذي كنت واقفة فيه ، اذ كان الى يساري مباشرة تحجبه عن نظري القضبان الحديدية . والسبيل الوحيد الى رؤيته هو اشاحة الملفح عن وجهي واغماض عيني اليسرى تماماً !

وبعد وقت قصير ظننته دهراً لأن ركبتي اخذت تؤلماني من الركوع ، شاهدت الملك واولاده يسيرون بين الراقصين نحو مدخل القصر . وهناك أصبح بامكاننا رؤيتهم بوضوح لأنهم كانوا تحت النافذة مباشرة . ووقفت هناك اتطلع عليهم الى ان اختفى الملك داخل القصر . ولما نزلت عن النافذة كانت الغرفة خالية الا من حمدة وعبدة أخرى .

وهمت العبدة بالخروج إلا ان حمدة وقد بدا عليها الخوف استوقفتها وتوسلت اليها ان تدلنا على الطريق لانه لا يمكن ان نجد طريقنا بانفسنا .

وتبعناها عبر الممرات الكثيرة الى ان وصلنا الى الجسر حيث كان رجل واقفاً يبدو انه يتأكد من ادخال النساء كل الى جناحها . وقال لنا :

— أانتما الاخيرات .. هيا اسرعا .

ومررنا عبر عيادة الدكتور مدحت الصغيرة فوق البوابة والرجل يدلنا بقوله : من هنا .. من هنا ..

وأخيراً وجدنا أنفسنا وحيدات في غرفة استقبال أم منصور حيث جلسنا بعض الوقت بينما كانت إحدى العبدات تروح وتجيء الى أن جـــاءت أم طلال والسيدة المسماة بازه وبعد حين تبعتها نورا . وكانوا جميعهن لطيفات معي وتمنين ان أكون قد استمتعت « بالعرضه » وان أكون قد شاهدتها جيداً . وأخبرنني ان « العرضه » أقيمت بمناسبة انتهاء أحد الاولاد الصغار من قراءة القرآن . والذي ينهي هذه المهمة يسمونه « خاتم » . وقالت نورا انها بحثت عني فلم تجدني وكانت تشاهد الرقص من غرفة في طرف القصر أبعد من الغرفة التي كنا فيها .

والتفتت نورا الى النساء الأخريات لتستفهم عن الغريب الذي قبل يد أخيها في الساحة ظناً منها انه زوجي .

وقيل لها :

– لا .. انه ابن شيخ دبي .

وادهشني كيف عرفن وهي لم تعرف .

وسألتها :

– الم تري ديكسون ؟

– طبعاً اعرفة .. بلغيه سلاماتي .

– وهو ايضاً يسلم عليك يا نورا .

ثم ابدت إعجابها بالحلق المعلق في اذني فخلعتها لتراها عن كثب . وسألتني :

– من اين اتيت بهذا الحلق .

– حصلت عليه في القدس منذ زمن طويل .. انه من صنع بخارى التي تقع وراء بلاد العجم .

– كم ثمنه ؟

– اعتقد ثلاثة جنيهات .

– ليس كثيراً .

وعادت تتفحص خيوط الذهب في ثوبي الاسود واعجبت بالطريقـــة التي حيكت بها الاوراق في الثوب . واخبرتها ان هذاالقماش جاء الى اسواق الكويت

مؤخراً ووعدتها ان ارسل لها قطعة منه عندما أعود . وتحدثنا عن مواضيع اخرى الى ان ظهر الدكتور مدحت في الباب وقال ان الملك سيستقبلني وطلب مني ان اتبعه ، فمشيت معه عبر الممر ثم الى اليمين حيث تركني عند مدخل احدى الشرفات .

وعند نهاية الشرف كان يجلس رجل ادار وجهه الى الجهة الاخرى ويلبس قميصاً قطنياً وعلى رأسه كوفية بدون عقال. وللوهلة الاولى لم اعرف انه الملك.. إلا بعد أن نهض ليستقبلني وطلب مني ان اجلس على كرسي بجانبه. وبعدالأسئلة المعتادة عن الصحة والحال .. الخ طلب كأساً من الماء فتقدمت احدى العبدات وبيدها كأس جرعها كلها . ويبدو انه تعب وشعر بالارهاق من جراء الرقص واشتداد الحرارة لأن الوقت كان يقارب الظهر ، ومع ذلك عمل جهده ليراني قبل ان اغادر عاصمته .

وحدثني بعض الوقت عن عائلته وكيف انه يرغب في تعليم اولاده ركوب الخيل واطلاق النار منذ الصغر وقال :

ـ يجب ان يصبحوا جنوداً ... كلهم .

وطلبت منه ان يأذن لنا بزيارة السمّن في الربيع لمشاهدة الأزهار ، فابتسم وقال : « ان شاء الله » . ولم أكن اعرف ما إذا كان هو سيطلب مني الانصراف او استأذنه انا بالانصراف .. وعندئذ لمحت الدكتور مدحت يؤشر لي من طرف الممر ، فشكرت الملك مرة اخرى على لطفه وكرمه وانصرفت عائدة مع الطبيب الى الغرفة التي تركت النسوة فيها .

واخذ الدكتور مدحت يحدثني بالفرنسية واشتركت معنا بالحديث في الفرنسية طبيبة سورية دخلت علينا . وهنا انصرفت النساء الملكيات فأخبرني الدكتور مدحت انه التقط صوراً جيدة للرقص وطلب مني ان آخذ الفيلم معي الى الكويت لأحمضه واعيده اليه . وقال انه نظراً لأن زوجي لم يلتقط اية صور ، فبأمكاني ان احتفظ بنسخ من الصور بقدر ما اريد . فوافقت شاكرة . ولما كان الفيلم لا يزال يتسع لصورتين فقد اخذ صورة لي مع حمـدة ونحن جالستان في

الغرفة وأخرى، لي في الشمس أمام احد الابواب الجميلة .

وقال الدكتور مدحت :

– يؤسفني انني لا استطيع أن اصور الملكات .

وعندئذ دخلت ماضي التي شهرها في رمضان فودعتها .. ثم أمرت احدى العبدات ان تبحث عن النساء الاخريات لكي يأتين لوداعي . وبعد برهة عادت العبدة لتقول انهن لن يتمكنّ من المجيء ، فنزلت مع حمدة على الدرج الى حيث تنتظرنا السيارة .

وداع الرياض

كنت قد قابلت ابن سعود قبل مقابلة زوجتي الاخيرة له . فعندما كانت العرضه على وشك الانتهاء توجهت مع فؤاد حمزه الى مكتبه في القصر . وبينما كنا جالسين نشرب القهوة أطل الملك لوحده لاهثاً يبدو عليه التعب من الرقص . وبعد ان استراح مدة اخبرني انه سمع اننا سنغادر الرياض بعد الظهر فجاء خصيصاً لوداعي .

وأخبرني وهو يضحك انه قابل زوجتي في قصر شقيقته نورا وكيف ان نورا حاولت ان تحمل زوجتي على اعتناق الاسلام . وقال :

– ولكن زوجتك ترددت في قبول ذلك خوفاً من أن تحذو حذونا يا ديكسون فتتزوج ثلاث نساء أخريات .

واخبرني ايضاً وهو يضحك ملء فمه ان زوجته أكدت انها في حال طلاقها مني ستأتي الى الرياض لتعيش مع نورا في قصر الشمسية .

وبعد هذا الحديث الضاحك عاد يتحدث عن قضية فلسطين طيلة نصف ساعة مستعيداً كل الحجج التي عرضها سابقاً ولكن هذه المرة بصورة اكثر جدية . ويبدو انه بالفعل كان يخشى خطر الانقسام بين العرب والانكليز بسبب القضية الفلسطينية .

– « ان حكومتك تحفر هوة سحيقة بينها وبين العرب . فاذا لم تتوقف عن

الحفر فسيقعان كلاهمــا في الهوة . لا يزال هنالك جسر عبر هذه الهوة ولكن استمرار الحفر سيدمره وتكون نهايــة الصداقة العربية — الانكليزية . اليس هنالك شيء يستطيع اقناع حكومتك بالتوقف ؟ .

واستطرد يروي لي كيف كان الاتراك في زمن من الأزمان شعباً عظيماً يعرفون كيف يعاملون امراء الجزيرة العربيـــة بالتقدير والاحترام ويطلبون نصيحتهم وفوق كل ذلك يغدقون عليهم الالقاب والمكافآت . كان ذلك في الايام التي كان يتسلم مقادير الامور في تركيا رجال عظماء . ولكن في الأزمنـة المتأخرة لم تعد تركيا تنجب مثل أولئك الرجال فكانت النتيجة انها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بالجزيرة العربيـة او حتى باحترام العرب لها . ففي كل مكان كنت تجد مسؤولين وموظفين اشرار انحرفوا عن الطريق السوي فأصاب اذاهم سمعة ونفوذ الحكومة المركزية . فماذا كانت النتيجة ؟ انهارت تركيا ونخرها الضعف من الداخل . كل ذلك بسبب اخطاء المسؤولين في المنـــاطق الذين كان كل همهم في الحصول على ترقيات رخيصة وفي جني ثروات ضخمة عن طريق الرشوة بصرف النظر عن اي اعتبار آخر .

وقال الملك ايضاً :

— ان حكومتكم اليوم تسير تقريباً على نفس الطريق التي سار عليها الاتراك قديمـاً . فالمسؤولون في المواقع المهمة يقتفون خطى المسؤولين الاتراك في أواخر عهدهم ولا يقومون بواجباتهم تجاه الحكومة المركزية .

واعطى الملك مثلاً على ذلك قضية عزل الشيخ عيسى بن علي آل خليفه حاكم البحرين سنة ١٩٢٣ ، التي قال انها اضرت بمصالـــح انكلترا في الجزيرة العربية اكثر من أية قضية أخرى منذ مئة سنة .

وقال الملك :

— ان الشيخ عيسى ليس فقط ابا الخليج الفارسي بل ابا الجزيرة كلها . فنحن العرب ، وخاصة نحن وبيتنا ، ننظر اليه بعطف بالغ . وكنا على استعداد ان نموت من اجله لو انه رفع اصبعه طالباً المساعدة . فماذا حدث ؟ طرد من مملكته

الصغيرة وهو ابن التسعين احنت ظهره الأيام فمات في الغربة كسير القلب مجرداً من الشرف . كل ذلك من أجل ماذا ؟ لمجرد ارضاء طموح ضابط سياسي معين . ان مثل هذه الأشياء يجب ان لا يسمح بحدوثها ، ويجب على حكومتك انتنتقي موظفيها بصورة أفضل .

وقال ان هذا هو السبب الذي من أجله طلب ان ترسل حكومة صاحب الجلالة موظفين تختارهم من بين الاكفاء من وقت لآخر لكي يجري الحديث معهم من الرأس الى الرأس . وبعد ان شن حملة على بعض المسؤولين البريطانيين في الخليج لا حاجة لذكر اسمائهم ، اغتنمت الفرصة لأشكر جلالته على كرمه ولطفه تجاهي وتجاه زوجتي واستأذنت بالانصراف . وكان آخر شيء فعله انه أمر بان تقرأ برقيات « رويتر » بحضوري وقال :

– انني في هذه الأيام اعيش على البرقيات لان الأوضاع العالمية تتأزم في كل مكان ويجب ان أبقى على علم بكل شيء .

وبعد ذلك غادرته بكل احترام .

كانت السيارات تنتظرنا في قصر بديعه محملة بكل ما يلزمنا في طريق عودتنا . وبعد تناول الغداء انقدت كل الخدام بعض المال (عددهم ٢٩ خادماً) وودعنا الجميع . واختنقت أصوات نواعير الماء في الحديقة وراء القصر وسط هدير سياراتنا ... فشعرنا بحزن وانقباض .

طريق العودة

بقلم فيوليت ديكسون

ولما كنا قد غادرنا الرياض في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، فقد نصبنا خيامنا لقضاء الليل عند آبار رماح على بعد ٩٢ ميلاً من الرياض . كان مساء لطيفاً وكانت الأرض تبدو ملأى بجحور الجربوع مع انني لم أر واحداً منها . وبعد حلول الظلام تجولت حاملة شعلة بيدي ولكنني لم أعثر الا على عصفور صغير داخل ثقب حفره لنفسه .

وقد تسلينا كثيراً على العشاء ذلك المساء لأن السائق محمد كسر احد أسنانه الأمامية باللحم القاسي وابتلعه !

وفي صباح اليوم التالي زرنا آبار رماح والتقطنا بعض الصور . كانت هنالك خمس آبار كل واحدة على رأس تلة صغيرة . والآبار الحقيقية مبنية من الداخل بحجارة منحوتة ويبلغ قطر فوهة البئر منهـا حوالي ٢٠ قدماً . اما الماء فيقع على عمق ٣٥ باعاً اي ما يوازي ٢١٠ أقدام تقريباً .

ولاحظنا حول احدى الآبار خمس نواعير مثبتة على أعمدة خشبية ، وخمس نساء راكبات على خمسة جمال يسحبن الماء من البئر بالنزول عبر منحدر التلة . وبهذه الطريقة كانت تسقى مئات الجمال وكان المكان يردد صدى مناداة كل جمل باسمه ليخف الى شرب الماء .

ورحت اتفرج على المحمل — او « الطيارة » كما يسميه البدو — الذي تستخدمه النساء . وكان مزيناً بالاصداف وبالقماش الملون تتدلى من احد جانبيه خاتم الانف الذهبي لصاحبة المحمـل ، وفي قعره تطريزات جميلة في وسطها صدفة كبيرة وتتدلى منه سلاسل طويلة جميلة . وارادتني صاحبته ان اشتريه ولكنني لم اكن احمل مالاً . وكان كل الذين صادفناهم هناك من قبيلة سبيع .

وقطعنا الدهانة مرة ثانية بسهولة لأننا اتبعنا الطريق الرئيسية طوال الرحلة ، فكان ذلك أسهل بكثير من الطريق القصيرة التي سلكها سائقنا في الرحلة الى الرياض . وتوقفنا عند دحل الشامي حيث يتجه طريق الجمال الى الاحساء ، ونزلنا هناك . وكان مدخل الدحل صغيراً جداً اذ لا يتجاوز قطره الاربعة أقدام ، اما جوانبه فكانت وكأنها مرمر مصقول اخترقتها الحبال الى عمق عشر بوصات . يبدو ان هذا الدحل قديم العهد جداً واتصور انه كبير جداً من الداخل .

وتوقفنا بعد ذلك عند دحل قديم غير مستعمل يعرف بدحل النخل لأن شجرتي نخيل ترتفعان بجانبه . ونظراً لوجود بعض الظل هناك فقد قررنا ان نتناول طعام الغداء في الظل . وهناك جمعت عدداً من ريش البوم والبط مما يدل

على انه في الشتاء يمتلىء الدهل بالماء فتأتي الطيور لتقيم حواليه .

وقضينا الليلة التالية في مكان جميل الى الشمال من جاريه عليا على مرأى من مخيم للبدو حيث تكثر شجيرات الجنّلا والحمض . واستأنفنا السير في السادسة صباحاً فوصلنا الى الكويت في الحادية عشرة .

وخرج عبدالله الملا لاستقبالنا ما بعد بوابة جهرا فتوقفنا عدة دقائق في سوق جهرا لنرى الملا صالح فتجمهر حولي عدد من الفضوليين الذين تجمعوا لمشاهدتي بالملابس العربية .

وتبين من عداد السيارة ان طول الرحلة ذهاباً وإياباً بلغ ١٥٢٠ كيلومتراً اي ما يزيد عن ٩٤٤ ميلا . (انتهى حديث زوجه ديكسون)

انطباعات

يمكن اختصار انطباعاتي الشخصية عما رأيته وسمعته في الرياض بما يلي :

ان الشعب في المملكة العربية السعودية ولا سيما رجال الدين منهم ، في حالة تأثر شديد حول قضية فلسطين. ولكن الملك هو في مركز القوة قطعاً ويستطيع كبح جماع شعبه والسيطرة عليهم . وبالرغم من انه مشمئز وآسف للاتجاه السياسي في فلسطين ، وخاصة مشروع التقسيم ، فهو مصمم على ان لا يجازف بالعلاقات الودية القائمة بينه وبين الحكومة البريطانية . ولذلك فانه لن يقوم على الاطلاق باية حركة معادية لبريطانيا في الجزيرة العربية ، باستثناء إعطاء النصح وتقديم المقترحات .

ان سياسته في البقاء على الحياد ستضر بنفوذه في الجزيرة وهو يعرف ذلك . وشعرت لو ان الحكومة البريطانية تمنحه شيئاً مقابل ذلك في الأزمة الراهنة ، شيئاً يعود بنفع مباشر على العرب والجزيرة العربية خاصة تقدره شعوب الجزيرة ، فتكون بذلك عملت عملاً حكيماً . اما هو فسيجد طريقة في شرح فوائد تلك المنحة لرعاياه مما يؤدي كما اعتقد الى خلق جو بين العرب أقل عداء . ويجب ان يكون « الشيء المقابل » كريماً جداً لأن التباخل في مثل هذه الحال يفسد

كل شيء .

أما زوجتي التي استقبلت ثلاث مرات من قبل النساء الملكيات ، فقد اعجبت بصورة خاصة بالسيدة نورا التي وصفتها بأنها من أكثر النساء اللواتي قابلتهن جاذبية ومرحا . فهي من أهم الشخصيات في الجزيرة العربية وتشارك شقيقها الملك في كل مجالسه . لقد اعجبت نورا بالضاحية الجديدة التي ابتنتها شركة نفط الكويت في مقوى ولكنها ، حسب ما قالت لزوجتي ، تعتقد ان تلك الضاحية ليست إلا حصناً عسكرياً للدفاع عن حدود الكويت الجنوبية . ووجدت زوجتي صعوبة فائقة في اقناعها بأنه لا يوجد أي حصن من أي نوع في ذلك المكان . ومما لا شك فيه ان نورا كانت تتصور في ذهنها المركز العراقي في بسوه بالصحراء الجنوبية والذي أحدث كثيراً من المتاعب .

لقد عاشت نورا بنت عبد الرحمن الفيصل آل سعود حتى سنة ١٩٥٠ عندما توفيت بسلام في الرياض . ولا يزال كل فرد من عجمان يحتفظ لها بذكرى طيبة ليس من أجل شقيقها الملك بل من أجل زوجها سعود العرفة . انها لا شك من أجمل وأعظم وأشهر البنات في كل عصر ، ولا ينافس اسمها إلا اسم شقيقها الملك ابن سعود . وابنها ايضاً ليس رجلاً عادياً واسمه محمد ، لكن عجمان تناديه باسم شقران وهم يعبدونه .

الفصل السادس عشر

الكويت

١٩٣٩

عرس في الكويت

بقلم فيوليت ديكسون

العروس هي موزا بنت فاطمه ، ابنة شقيقة حمدة خادمتي . والدها اسمه خلف وهو رجل فقير أعرج وربما بسبب ضربة في احدى ساقيه منذ عدة سنوات . وكان يحصل على معيشته من زراعة قطعة أرض اعطاها اياه الشيوخ .. فكان يزرع فيها الخس والسبانخ والفجل والقرنابيط والملفوف ودوار الشمس وبعض الأزهار من بذور كنت اعطيها له . ولم تكن زوجته وضحا لتهتم بامور الزراعة بل كانت تفضل زيارة اصدقائها وحضور اي احتفال في الجوار .

وقبل عدة سنوات استأجر خلف شاباً يعاونه في الحديقة . وبعد مدة قصيرة توفي والدا الفتى وتركاه يتيماً . ولما بلغ سن الرشد زوج من ابنة خلف كتعويض له عن عمله خلال السنوات القليلة الماضية .

الزواج والطلاق امران في غاية السهولة في الجزيرة العربية . وحفلة الزواج بسيطة جداً اذ يأتي الملا ويسأل الرجل أمام الشهود ما اذا كان يريد فلانة

زوجة له . وبعد ذلك يسأل من ينوب عن الفتاة (عادة والدها أو شقيقها) ، فاذا كان الجواب « نعم » انتهت الحفلة . واحياناً تجلس العروس خلف ستار في الخيمة اثناء هذه المراسم وتسمع كل شيء . ولكن ذلك نادراً ما يحدث . ولكي يطلق الرجل زوجته ما عليه إلا ان يقول أمام الشهود انه لا يريدها ويردد ذلك ثلاث مرات .

وتسبق الزواج فترة قصيرة تدعى « ملفشه » أو الخطبة تستمر احتفالاتها عدة ليال . وقد دعينا الى هذه الاحتفالات في يومها الثالث .

كانت الساعة السابعة مساء في احد أيام كانون الثاني سنة ١٩٣٩ عندما توجهنا الى منزل حمدة الذي كانت باحته مزدحمة بالنساء بعضهن محجبات والبعض الآخر سافرات . وكان المنزل مضاء بسراج معلق في وتد دق في الحائط . وادخلنا الى غرفة حمدة حيث قدمت لنا القهوة ثم جلسنا كلانا عند عتبة الباب تقريباً بينما أخذ فريق من « العيدوس » معظمهن عبدات كبيرات السن يضربن على الطبول وينشدن اغنيات تليق بالمناسبة مع الاشارة الى اسماء ولدينا سعود وزهرة .

ومن وقت لآخر كانت احدى الفتيات العربيات الموجودات ، وخاصة اذا كانت ملابسها أزهى من الاخريات ، تفك ضفائرها بخجل وتتقدم الى الحلبة أمام الباب وتؤدي رقصة من الرقصات . فاذا كانت من العوازم ترقص رقصة خاصة بالبدويات من العوازم . اما اذا كانت من أهل المدينة لابسة فستاناً قصيراً وجوارب قطنية فترقص كنساء المدن رقصة اثارة مع كثير من الهز والرهز وسط تهليل الحاضرين وتصفيقهم . هذا ما كانت تؤديه راقصات الدرجة الأولى . وكان بعض الفتيات يرقصن جيداً والبعض الآخر يتظاهرن بالخجل ويدعين بأنهن لا يعرفن الرقص .

ولوحظ غياب العروس التي قيل انها لجأت الى منزل الجيران . اما والدة العروس فكانت تصدر الاوامر فتجلس هذا وتدفع ذاك الى الخارج لأنه غير مدعو . ولم تهدأ طوال الوقت لحظة واحدة . ومن فترة لأخرى كانت ترش فوق

رؤوس الراقصات بـــذور البطيخ المجففة فيتدافع الاطفال الحاضرين لالتقاطها عن الأرض ويدوسون على كل من يأتي في طريقهم .

وبعد ساعة ونصف الساعة شاهدنا خلالها رقصات متعددة وكانت تأتي الينا حمدة تخبرنا من تكون هذه السيدة أو تلك أو ماذا تعني هذه الاغنية أو تلك ، قررنا الانصراف .

وبعد ثمانية ايام بالضبط جاءت ليلة الزفاف ودعينا ثانية لحضور الاحتفالات في منزل حمدة . وقد وعدت حمدة ان تعـــير سريرها الخاص الى ابنة شقيقتها وعريسها لمدة اسبوع . ولم تأت الى العمل ذلك اليوم لأنها انهمكت منذ الصباح الباكر بتنظيف الغرفة ونقل الامتعة والملابس منها واعدادها لتكون غرفـــة الزوجية . واستعيرت من عند الجيران حوالي ٢٠ مزهرية حمراء وزرقاء وضعت في صفوف حول جدران الغرفة ، ووضعت بينها في فناجين قهوة شموع للاضاءة لأنه كما تقول حمدة ليس من اللائق اضاءة الغرفة بمصابيح النفط . وفرشت أرض الغرفة بمسانــــد واغطية من الحرير الازرق . وفوق سرير حمدة الكبير علقت ستائر بلون الزهر ربطت بشريط أزرق . وعلى السرير وضع فراش جديد فوقه لحاف جديد من القطن أحمر اللون قدمـــه العريس حسب العادات العربيـــة ، ووسائد محشوة جيداً ذات اغطية حريرية زرقاء على الجانبين ويغطيها في الوسط حزام قطني .

منذ الصباح الباكر كانت حمدة واحدى جاراتها مشغولتين باعـــداد موزا بنت فاطمة للعرس ، فغسلتـــا جسدها بالماء وشعرها باوراق السدر ووضعتا الحنة على يديها وقدميها ونثرتا « دهـــن العوض » على شعرها وأخـــيراً عطرة ملابسـها بأن وضعتا الملابس فوق موقد يحترق فيه البخور .

وقد أحضر والد العروس من حديقته سلة صغيرة مصنوعة من اوراق النخيل ملأى « بالمشمع » ، وهو نبات طيب الرائحة . وكان هذا النبات قد رش عليــه الماء ليحتفظ بحيويته وقبل بدء الاحتفال رش عليه ماء الورد ونثر تحت وفوق لحاف سرير الزوجية .

توجهنا الى المنزل في حوالي الساعة السادسة مساء فوجدنا الردهة مشعشعة بالضوء كما في السابق ومزدحمة بالنساء الى درجـة الاختناق . واستقبلتنا والدة العروس وادخلتنا الى غرفة الزوجية لنراقب النسوة يرقصن خـارج الباب . وظل الغناء والرقص مستمرين الى ان اعلن ان العريس قادم ، بعد ان توضأ وصلى في المسجد ، على رأس مجموعة من خمسين او ستين من اصدقائه وجيرانـه واقاربه تسبقهم قافلة من المصابيح المشعشعة المرفوعة عاليـاً وخمسة أو ستة من قارعي الطبول فيما كان الباقون يرقصون على اصوات الطبول طيلة الطريق .

كان الواجب يقضي ان يزور العريس وصحبه اولاً « الاسطا » الابرالي الذي قدم له هدية من المال ، لذلك مرّ الموكب عبر منزل حمـدة وتوقف خارج منزل الاسطا أحمد الذي يبعد قليلاً .. وهناك قرعت الطبول ورقص الرجـال مدة من الزمن لا تتجاوز العشر دقائق . تلك عادة قديمة وفي الاعراس الكبيرة يستغرق سير الموكب الى حيث يقصد عدة ساعات .

واخيراً وصل موكب العريس الى أمام باب منزل حمدة . وحدث في الداخل هرج لأن النسوة انهمكن في لبس عباءاتهن وتغطية وجوهن استعداداً للانسحاب الى غرفة اخرى ولكن بعضهن ممن كنّ شديدات التحجب بقين واقفات بجانب الحائط الخلفي في الباحة .

اضيئت الشموع في الغرفة فاسرعت بالخروج منها الى غرفـة اخرى اراقب من نافذتها ما يجري وبقي زوجي لوحده داخل الغرفة لا يعرف كيف يتصرف . ثم دخل العريس وجلس على الأرض بجانبه . وهذا هو الوقت المتعارف عليـه حين يختلي بالعريس اثنان أو ثلاثة من اصدقائه لاعطـائه النصائح الاخيرة والارشادات فيما يتعلق بواجب العريس ليلة الزفاف ولكن نظراً لوجود هارولد هناك فان شيئاً من ذلك لم يحدث وترك الشاب الخجول لوحده مع زوجي .

في الخارج كان الرقص على اشده لا بل كان الرجال يرقصون على اصوات الطبول بحماس كبير فيما كان ماء الورد ينثر بسخاء فوق رؤوسهم . وفي داخل الغرفة التي كنت فيها كانت العروس مضطجعة على فراش وملتفة بعباءة قديمة ،

وكانت تبكي وتشهق طوال الوقت . وجلس حولها عدد من صديقاتهـــا يحاولن ادخال السرور الى قلبها بالقاء النكات والتعليقات الوقحة مما كان يزيد في تعاستها . فبين وقت وآخر كن يخلعن عنها العباءة ويضعن ايديهن على قلبهـــا ويعلن انه يخفق بشدة .

كانت العروس تلبس فستاناً من الحرير تحت ثوب أسود مطرز بالذهب عنـد عنقه اما شعرها فكان مسرحاً تسريحة جيدة ومطلياً بالدهن والعطور ، وكانت راحات كفيها وقدميها مطلية بالحنة البرتقالية اللون .

عند الساعة التاسعة تفرق الراقصون واصدقاؤهم وذهب كل الى منزله ، واسرعت حمدة الى العريس لتهمس في اذنه الارشادات الاخيرة تمهيـداً لدخوله على عروسه . وعندما ادخلت العروس الى الغرفـــة طلب اقارب العريس من زوجي ان يخرج الى الردهة .

وغطيت موزا بعباءة واحاط بها اربع نساء كانت والدتها واحدة منهن ، وادخلنها الى الغرفة حيث نزعت عنها العبـاءة ووضعت على الأرض . وجاء العريس إلى حيث وضعت العباءة مواجهاً القبلة استعداداً لأداء الصلاة . وعندما انتهى من الصلاة بعد عدة دقائق خرج النساء من الغرفة بعد ان طبعت كل واحدة منهن قبلة على وجنة العروس ، وأغلقن البـــاب خلفهن وانفجرت شقيقة موزا الصغرى باكية وهرعت الى الباب وكأنها تريد ان تنقذها . ولكن والدتها التي كانت تبكي هي الاخرى ابعدتهـا عن الباب .

قبل ان يجامع العريس عروسه عليه ان يصلي على عباءتها. هذه هي القاعدة. ويجلس المدعوون في الباحة الخارجية او في الغرف الاخرى ينتظرون نجـــاح العريس في الدخول على زوجته .

ولم نرغب ان نبقى حتى منتصف الليل فانسحبنا مع أن الضيوف يرون ان هذه الفترة هي اهم مراحل الاحتفال .

وفي اليوم التالي قصت علينا حمدة كل ما حدث بعد مغادرتنا . فقالت انه عند منتصف الليل صدر عن العروس صراخ أدى بطبيعة الحال الى ابتهـــاج

الضيوف في الخارج . وبعد وقت قصير فتح البـــاب قليلاً والقيت منه رقعـة مبللة بالدم . . ثم اغلق الباب ثانيـة . وهرعت والدة العروس فالتقطت الرقعة ودارت بها على الضيوف . وهذه عادة قديمة اذ يراد بها ان يثبت للمجتمعين في المنزل ان العروس كانت لا تزال عذراء .

وافترق الجيران والضيوف .

وقالت حمدة انه عند الفجر خرج العريس وغسل نفسه ثم ادى الصـــلاة وخرج من المنزل . وجاءت والدة العروس وصديقاتها اليها فغسلنها وألبسنها ثياباً جديدة واعددنها مرة ثانية لزوجها الذي سيأتي اليها في ساعة متأخرة من الصباح.

هنالك اوقات معينة في ذلك اليوم واليوم التالي يدخـــل فيها العريس على زوجته . وفي مساء اليوم الثالث فقط تضع العروس كل حليها الذهبية وتأتي صديقاتها لتهنئتها . ولهذا الغرض ذهبنا الى منزل حمدة قبل ساعة من غروب الشمس في اليوم الثالث . ودعينا الى غرفة تمتلىء بالمهنئات حيث قدمت لنـا القهوة ورش علينا ماء الورد ثم احرق العود وأدير على الجميع .

ودخلت العروس وركعت أمام كل واحدة من الحاضرات لتقبـــل التهاني بمناسبة زفافها . وكانت تبدو جميلة جداً وتختلف تماماً عما كانت عليه وهي تجلس باكية في زاوية الغرفة ليلة زفافها .

كانت ترتدي فستاناً حريرياً برتقالي اللون وفوقه ثوب أسود مطرز بخيوط ذهبية ، وعلى رأسها وشاح ذهبي اللون ذو شراريب ذهبية على الأطراف تـدلى من بعضها الصدف . وكان في أذنيها قرط ذهبي وفي أنفها خـــاتم من اللؤلؤ والصدف . وتدلى على صدرها فوق الثـوب عقد من السلاسل الذهبية . وتدلت على أسفل ظهرها قطع طويلة من القماش الاسود زينت باشكال تشبه الأحـواض المقلوبة مصنوعة من خيـوط ذهبية بارزة . اما معصماها فقد زينـــا بعدة أساور ذهبية ، وزين قدماها بخلخالين ذهبيين ثقيلين .

ومن سوء حظها ان كل تلك المجوهرات مستعارة من سيدات الشيوخ اللواتي يعطين مجوهراتهن لمدة ثلاثة أو أربعـة أيام لأية عائلة تطلبها . وتعاد المجوهرات

في الوقت المحدد ملفوفة بمنديل او قطعة قماش .

وبعد ذلك تعود العروس فتصبح امرأة عادية مرة أخرى . وبعــد انقضاء سبعة أيام على الزفاف تقضيها في منزل والدتها (في حالة موزا في بيت خالتها) تعود العروس مع زوجها الى منزله .

ولم تطل حياة موزا الزوجية كثيراً اذ في نهاية عام ١٩٤١ مرض زوجها بعد وجبة من السمك وتوفي بعد اسبوع تاركاً لها طفلا صغيراً .

التزامات اجتماعية

سنذكر عبدالله بك الفالح باشا السعدون بانه الرجل الذي قتل عبدالله بن أحمد السنا حاكم بغداد سنة ١٩٣١ . فبعد اجتماعي به في البصره اثر اطلاق سراحه من السجن كنت ارسل لعبدالله بك بطاقتي تهنئة كل سنة . واحــدة في عيد الفطر والاخرى في عيد الأضحى . وفيما عدا ذلك لم أكن اكتب له أو اتصل به . فكان يعيش في عزلة تامة لا يخرج إلا الى الصحراء الجنوبيــة جنوب غرب الزبير كل ربيع مع عدد من اصدقائه للتمتع بالمراعي الخضراء والذهاب للصيد .

أما انــه كان لا يزال يهتم بمصالح أفراد عائلة السعدون ، او انه كان على استعداد لمساعدة اي منهم ، فأمر يمكن استنتاجه من القصة التالية . ان سلوكه هذا في بلد يتغير دائماً كالعراق حيث الولاء والصداقات تتصادم دائماً ، هو الذي يجعل المرء يحبه .

في سنة ١٩٣٩ وصل الى الكويت من الرياض بــدون معرفتي رجل يدعى بندر السعدون ومعه زوجته وولداه وابنته وطفل صغير . وكان بندر هذا شاباً عنيداً خدم مع الكولونيل ليتشمان في الصحراء خلال الحرب العالميــة الاولى ورافقه في عدة رحلات قام بها في الصحراء . وبعد وفاة ليتشمان منحت السلطات البريطانية بندر تقاعداً بسيطاً . ولكن بعد تسلم الحكومة العربية زمام السلطة في العراق توقفت عن الدفع لجميع الذين خدموا وقاتلوا مع البريطانيين . وكان بندر متصلفاً بحيث انه لم يبحث ان يضع شكواه في موضعها الصحيح فراح يلقي

الشتائم ضد الحكومة العراقية وضد كبار المسؤولين البريطانيين في بغداد منهما الحكومة بحرمانه من تقاعده لأنــــه ينتمي الى عائلة الـسعدون ومنهما الانكليز بنقض عهودهم والتخلي عن اصدقائهم .

وفي النهاية انتقل بندر مع عائلته من العراق وذهب ليعيش تحت لواء الملك عبدالعزيز آل سعود نصير كل عربي واقع في شدة او مأزق . وعاش بندر هناك سنتين تلقى خلالها معاملة تناسب مركزه في الحيــاة . فالملك لا يخطيء ابداً في مثل هذه الحالات . وبعد ان قضى سنتين في النفي الاختياري ظن بندر ان الوقت قد حان ليعود الى العراق ويعرض شكواه . وفي الكويت قرر ان يترك زوجته وعائلته ويذهب الى العراق لوحده ليرى وضع البلاد عن كثب وما اذا كانت الأحوال ملائمة لتقديم شكواه ضد الحكومتين العربية والبريطانيـــة . ولم يحاول ان يتصل بي قبل مغادرته الى العراق كما انني لم أعـــلم ان عائلته كانت لا تزال في المدينة . وأخشى ان يكون قد أصبح معادياً للبريطانيين .

ولكونه عنيداً ومتصلباً كعادته وقع بندر في مشاكل فور وصوله الىالعراق ولكنني لم أعرف بذلك إلا بعد وقت . والظاهر انه ذهب الى السماوي ليستوفي بعض الديون ويستعيد سيارته التي صودرت عند ذهابه إلى الرياض فاختلف مع القائمقام واتهم باهانة الحكومـة وبعدم الولاء فدك بالسجن الى أجل غير مسمى بدون أية محاكمة . ولم يسمح له بالكتابة لأحد حتى لعائلته .

أما زوجة بندر في الكويت فلم تكن تتلقى أيــــة أنباء عن زوجها او عن مكان وجوده وبدأت تتعرض لضائقة مالية . وكان بندر قد وعدها بان يعود اليها بعد شهر ويأخذها معه . وبعد مضي شهرين على غيابه بدأت تشعر بالضائقة . واخلاصاً منها لمنزلتها وكبريائها فضلت أن تبيع مجوهراتها لتتخلص من المصاعب التي وقعت فيها . وعاشت على هذا المنوال شهراً ثالثاً رافضة أن تطلب مساعدة أي كان كما أبلغت زوجتي فيما بعد .

ولكن الصدمـــــة كانت ستأتي لا مفر منها لا سيما وإن صاحب المنزل الذي استأجره لها بندر أخذ يلح في طلب ما تأخر عليها من ايجار . ولمـا يئست بعد

أن حرمت وأولادها الطعام لعدة أيام قررت ان ترسل ولديها علي ومحمد طالبين المساعدة مني ومن زوجتي . وكان الولدان يبلغان العاشرة والثامنة من العمر على التوالي ، تبدو عليهما الأناقة وحسن المظهر . واخبرنا الولدان قصتهما ومطلب والدتهما ولكن بكل تردد وخجل . وقالا ان والدتهما تلقت أنباء سرية تفيد ان والدهما سجين في السماوي. وسألاني اذا كنت استطيع ان اعطيهما ثلاثماية روبية يعيدانها فور عودة والدهما .

وأضاف علي بشجاعة انه سيستخدم مئة روبية من المبلغ المقترح ليتوجه الى بغداد لمقابلة الملك غازي . وقال انه واثق بانه يستطيع حمل الملك على إطلاق سراح والده .

وصعقت أنا وزوجتي لدى سماعنا هذه الاخبار فذهبنا مع الولدين لزيارة والدتهما . وبقيت أنا في احدى الغرف بينما دخلت زوجتي لمقابلة السيدة التي كانت لا تزال في مقتبل العمر وجديرة بتحمل المسؤوليات . واحبتها زوجتي كثيراً وعلمت منها تفاصيل حالتها ووضعها . وكان لديها خادم وخادمة ولم يكن في المنزل أي طعام على الاطلاق .

وتركنا لها مبلغاً من المال يكفيها شهراً آخر كما انني دفعت ما تأخر عليها من ايجار ونقلت الى الشيخ احمد ما عرفته عن وضع هذه العائلة فتأثر كثيراً وأمر فوراً بارسال كيسين من الأرز وكيساً من الطحين وعدة سلال من التمر الى السيدة لسد حاجة عائلتها .

وفي اليوم التالي جاءني محمد ليبلغني ان شقيقه علي سافر الى البصره ومنها الى بغداد برفقة الخادم مستخدماً بعض المال الذي اعطيته لوالدته . كان ذلك مجهوداً شاقاً على الصبي يستحق النجاح .

وبعد شهر من الزمان تلقينا رسالة من علي يقول فيها أن الخادم تخلى عنه وهرب في الطريق الى بغداد وأن علياً قابل الملك ووعده بالنظر في القضية . وفي طريق عودته عرج علي على السماوى وقابل والده لعدة دقائق . وبقي الفتى ينتظر إطلاق سراح والده عند جده فهد بك السليمان السعدون في أملاكه قرب

الناصريه . ونقلت هـذه الأنباء الى زوجة بندر التي كانت في حالة سيئة من اليأس لأنها لما لم تتلق أنباء من ولدها ظنت أنه سجن مع والده .

وقد عملت جاهداً بعد مقابلتي الأولى للسيدة ان أعرف من هم أقرب أقرباء زوجها . وكتبت لثلاثة من هؤلاء في البصرة وكلهم ذوو مكانة وبحبوحة ، طالباً منهم إما ان يرسلوا لزوجة بندر أموالاً لإعالتها واعالة أطفالها ، واما ان يأخذوها الى البصرة لتعيش معهم . وقلت في الرسالة انه من غير المعقول أن تترك إحدى سيدات آل السعدون لتموت جوعاً في أرض غريبة .

ولم أتلق جواباً من أحد . فلكونهم انتهازيين يسايرون الظروف ، يبدو أنهم خافوا مغبة مساعدة زوجة وأطفال احد أفراد عائلتهم ممن وضعتهم الحكومة على لائحتها السوداء . ولا شك أنهم وجدوا من الآمن ان يتنكروا لصلات القربى .

ولجأت بعد ذلك الى صديقي الشيخ فرحان الرحمن من هرذه الذي كان مساعدي في البحرين ، طالباً منه أن يستخدم نفوذه مع أقارب بندر ويشرح لهم الوضع . وعمل الرجل جهده واتصل بهم جميعاً ولكن دون جدوى . واعتقد أنه اتهمهم وجهاً لوجه بالجبن والخيانة .

وأخيراً خطر ببالي اسم عبدالله بك الفالح باشا السعدون في كثيبان . فكتبت له رسالة ضمنتها كلاماً هادئاً رصيناً شرحت فيها كل الظروف وحثثته على تقديم المساعدة لامرأة بائسة من عشيرته حفاظاً على شرف آل السعدون .

ولم تكن لعبدالله بك صلات قربى وثيقة ببندر او بزوجته ومع ذلك استجاب لندائي على الفور . فقد أرسل عبدالله بك إليّ خادمه الزنجي في سيارة خاصة حاملاً إليّ رسالة وكيساً فيه ثمانماية روبية . وتضمنت الرسالة عبارات رقيقة يشكرني فيها لعنايتي وعناية زوجتي بزوجة بندر وأطفاله . وقال ان زوجة بندر سيدة جليلة عظيمة القدر وان اعترافنا بهذا الامر ملأ قلبه سروراً لان تكريمنا للسيدة هو تكريم له بصفته زعيم آل السعدون .

وجاء في رسالة عبدالله بك قوله :

ـ لو كان كل الأوروبيين في العراق يفكرون ويتصرفون مثلك ومثل السيدة ديكسون لتجنبنا كل الافكار الخاطئة وسوء التفاهم الذي حدث في الماضي .

وطلب مني ان أبلغه في أي وقت عن حاجتي لمزيد من المال ورجاني ان ألجأ إليه وحده ووحده فقط في طلب المساعدة . وزف إليّ نبأ ساراً يفيد ان بندر سيطلق سراحه قريباً وانه تلقى وعداً من الملك بذلك .

ومر شهر قمنا خلاله بعدة زيارات لزوجة بندر . وبعد ذلك جاء بندر نفسه ومعه ابنه علي وكانت فرحة العائلة بجمع الشمل عظيمة جداً . وترك بندر عائلته في عهدتنا وتوجه الى الرياض ليقدم احتراماته الى الملك عبد العزيز ثم عاد وأخذ زوجته وأطفاله الى الرياض مرة ثانية . واعتقد انه عاد ثانية الى العراق ولكنني لست متأكداً من ذلك .

إن موضوع هذه القصة بالطبع هو كيف ان عبدالله بك خف للنجدة حيث تخلف كل الآخرين . وذلك يظهر أي نوع من الرجـــال هو ، وان الالتزامات الاجتماعية والشجاعة ليست مجرد كلمات فارغة بالنسبة له . وانا من جهتي سأظل حافظاً لجميله واثقاً من ان الآخرين عندما يقرأون ما كتبته عنه سيكونون فكرة أفضل عن هذا الزعيم العظيم في عائلة السعدون .

أسنان عبدالله بن حجي

عمل عبدالله بن حجي خادماً لدى أربعـة من شيوخ الكويت . وفي الوقت الذي كتبت فيه هذه القصة كان مسؤولاً عن دروازة البريصي (اسمها اليـــوم دروازة الشعب) وهي ثاني اهم بوابة للخروج من الكويت. وكان عبدالله وزوجته فاطمة صديقين من أعز أصدقائنا . فعندما كنا نخرج لركوب الخيل ، كنا نرسل جيادنا الى بوابة البريصي ونتوجه الى هنالك بالسيارة فنوقفها أمام منزل عبدالله حتى عودتنا . ولدى عودتنا كنا نترجل عن ظهر الخيل داخل البـوابة ونجلس على الأرض نتحدث مع عبدالله وفاطمة زهاء نصف ساعة في ظل منزلهما الصغير.

كان عبدالله رجـلاً شهماً مضيافاً وكانت قهوته افضل قهوة في الكويت بعد

قهوة سمو الشيخ أحمد . ان له طريقة عجيبة في المرح ، فإذا كان المرء متعباً قلقاً من شؤون هذا العالم فما عليه إلا ان يقضي ربع ساعة مع عبدالله فيزول الغم عن نفسه وتتبدل نظرته الى الحياة كلياً ويخرج سعيداً طارداً كل الهموم .

لقد كان عبدالله يحمل في رأسه مخزوناً هائلاً من النكات ويتكلم بلغة عربيـة نجدية جميلة .

فقد أبلغني ذلك العالم العظيم الدكتور فان ايس في البصره ان لغة عبدالله بن حجي العربية هي لذة للسـامعين وهي أفضل ما سمعه في حياته . وكانت فاطمة تضاهيه مرحاً وجاذبية واخلاصاً له . وكان لفاطمة طفلان بالتبني هما : جاسم ابن أخيها ومنيره ابنة اختها ، اذ لم ترزق هي أطفالاً .

كانت فاطمة تجلس دائماً قرب زوجتي في الوقت الذي كان يتحفنا فيه عبدالله بقصة من القصص بعد تنـاول القهوة . وعندما يرغب في اغاظة فاطمة يكون موضوع حديثه الفتاة التي سيتخذها زوجة ثانية له . فكانت فاطمة تنهض لتدافع عن نفسها وتقول ان اللوم في عدم انجاب الأطفال يقع على عبدالله .

– ألم تكن له زوجة قبلي منذ ست سنوات ؟ فلماذا لم تنجب له الاطفال ؟ والجميع يعرفون انها لمـا طلقها تزوجت غيره وانجبت خمسة أطفـــال في خمس سنوات فاذا لم يكن ذلك برهاناً على صدق كلامي فماذا يكون إذن ؟

في سنة ١٩٣٩ ذهبت فـاطمة مع شقيقها والأولاد الى الحج في مكة حيث مكثت اربعة أشهر انتاب عبدالله خلالها مرض شديد . ولولا مساعدة الدكتور ميلري من الارسالية الأميركية وزوجته اللذين كانا يزورانه يومياً ويرغمانه على تناول الطعام ويشرفان عليه بغياب فاطمة ، لا أعتقد انه كان سينجو من وطأة المرض . وقال الدكتور ميلري انه يعاني من حمى في الامعاء . ولكن لما انتقل الدكتور ميلري وحل الدكتور تومس محله تبين لهذا الأخير ان مرض عبدالله ناجم عن أسنانه التي أمره بخلعها جميعها .

واجريت هذه العملية فجأة وكم كانت دهشتنا عندما رأينــا صديقنا لأول مرة يخرج من منزله الصغير لملاقاتنا بدون اسنان ويبدو عجوزاً متهدلاً . وبادرنا

بقوله عندما رأى علامات الدهشة ترتسم على وجوهنا :

– لا بأس .. لقد اوصيت على طاقم اسنان جديد عند عباس الفارسي سأصبح بعده ولداً من جديد . وعندما تعود فاطمة من الحج سيزداد اعجابها بي .

وفي الوقت المحدد وضع عباس لعبدالله اسنانه الاصطناعية لقاء ٣٥ روبية ولم يكن عبدالله يضع اسنانه في فمه إلا عندما لم يكن يأكل .

وقال لي مرة :

– لماذا يا صاحب السعادة لا تظن انني يجب أن ألبسها عندما آكل ؟ لقد صنعتها لأبدو شاباً لذلك أخلعها عندما أتناول الطعام .

وعبثاً حاولت ان اشرح له انه بامكان المرء أن يأكل على أسنانه الاصطناعية تماماً كما يأكل على أسنانه الطبيعية . وكان جواب عبدالله دائماً :

– لقد فعل عباس حسناً . انه في الواقع طبيب أسنان ماهر فهو لم يتقاض سوى ٣٥ روبية لقاء طاقم اسنان كامل . ماذا أريد أكثر من ذلك ؟ فعندما رآني الشيخ ذلك اليوم اوقف سيارته وصرخ قائلا : مرحباً يا عبدالله .. ها قد عدت شاباً .. ماذا فعلت بنفسك ؟ انني أسأل سعادتك الا يساوي كل شيء في الحياة ان يسمع المرء مثل هذا الكلام ؟..

وعادت فاطمة من الحج وكان استقبالها عظيماً فذرفت دموع الفرح . وقد زين عبدالله المنزل بهذه المناسبة ودعا الى المأدبة تلو المأدبة على شرفها.. اوليست هي « نور عينيه » .. او لم يعد ولداه بالتبني لتسليته ؟

ولكن عندما استقرت فاطمة وارتاحت من عناء السفر والاستقبال أخبرت كيف ان زوجها مرض في غيابها واقتلعت جميع أسنانه . . كانت صدمتها عنيفة عندما رأت الاسنان الاصطناعية .. فقالت :

– أي مجانين هم الرجال ! ولا شك في أن زوجي عبدالله أكثرهم جنوناً على الاطلاق !

فكان هو يضحك لهذا الكلام ويقول مازحاً :

– اسمع ماذا تقول . انها تخشى ان اتخذ لي زوجة أخرى .

وعندما عدت مع زوجتي من زيارة لسورية عام ١٩٤٢ توجهت لتحية عبدالله عند البوابة وقلت له مازحاً ان امامه فرصة بعد لأنني قابلت رجلاً في شتورا يبلغ من العمر اكثر من مائة وثلاثين عاماً وله احفاد احفاد الاحفاد ومع ذلك فقد نبتت له اسنان حليب من جديد ولكنه ككل الرجال المتقدمين في السن له عقل طفل .

وهمس عبدالله في أذني غامزاً بعينه :

– بربك لا تخبر فاطمة بذلك لأنني لن اسمع نهاية ما تقول إذا فعلت .

ولسوء الحظ كانت فاطمة تصغي الى ما اقول من وراء الستار . وعندما عدنا من ركوب الخيل ودخلنا منزلها لتحيتها ولنشرب القهوة بادرتنا بقولها :

– ألم أسمع ما قلته يا أبا سعود ان الرجال عندما يكبرون في السن تصبح عقولهم كعقول الاطفال ويحتاجون الى شرب حليب الأم كالاطفال الذين يولدون حديثاً ؟ ألم أسمع من فمك ان الرجل إذا فقد اسنانه فما عليه إلا ان يتعلق بحبال الصبر لأنها ستنمو من جديد ؟ متى تظن يا أبا سعود ان اسنان عبدالله الجديدة ستنبت ؟ لا شك انه أوشك ان يصبح خرفاً .

واصابت هذه الكلمات من عبدالله مقتلاً فقال وهو يشعر بحرج :

– لا تصغي إلى كلام إمرأة مجنونة . في الحقيقة ان هذيان المرأة هو الذي يجعل الرجل قبل كل شيء يشيخ قبل اوانه . ربما لم تسمع بقصة التاجرين اللذين تنازعا مرة فنقلا نزاعهما لحله عند ثلاثة اخوة من العلماء يعيشون في منزل واحد؟ فإليك القصة .

« تنازع تاجران شابان حول مسائل تجارية ولكن بدل ان يتشاجرا قررا عرض النزاع على عائلة من ثلاثة سادة كبار يعرفون بقوانين الشريعة . وذهبا لزيارة العلماء في منزلهم . واستأذنا بالدخول فاقتادهما الخادم الى اصغر العلماء الثلاثة سناً وهو رجل متقدم في السن ذو لحية بيضاء . فسألهما عن غرضهما ولما ابلغاه قال لهما بأدب يقطر حياء :

— أنا اصغر الثلاثة سناً وليس من اللائق ان احاول حل قضيتكم . أرى من الأفضل ان تذهبوا الى اخي الثاني .

« وعمل التاجران بنصيحته فوجدا العالم الثاني اكبر سناً من الاول واكثر منه تهدلاً . واجابهم هو الآخر بانه نظراً لوجود شقيق ثالث اكبر فمن اللائق ان يستشيراه في نزاعهما . وقال لهما ان حله سيرضيهما .

« ودب فيهما الفضول لمعرفة اي نوع من الرجال هو كبير الثلاثة فتوجها نحو غرفته وقرعا الباب . وفتحت لهما خادمة صبية جميلة ذات إغراء وإصبعها على شفتيها إشارة منها لهما ان لا يحدثا صوتاً لأن سيدها يغط في النوم .

« وعند ذلك زادت دهشتهم فدخلا غرفة العالم النائم حيث جلسا على اريكة . ثم التفتا فوجدا ان الصبية الحسناء قد عادت الى حيث كانت فوق رأس سيدها ورفعت رأسه الى ركبتها بلطف وبدأت تحرك له الهواء . وقد ادهشهم أكثر من أي شيء آخر وجه الرجل النائم . فبدل ان يريا رجلاً طاعناً في السن مقعداً وجدا رجلاً يهي الطلعة في مقتبل العمر وله لحية سوداء .

« وتحرك العالم قليلاً ثم نهض من نومه وفتح عينيه وجلس في فراشه فابتسم لهما وقال :

— ماذا تطلبان أيها الصديقان .

« واجابه التاجران المشدوهان انهما قدما لحل نزاع بسيط عند واحد من الاشقاء الثلاثة ، وانهما اقتيدا الى الأخ الأصغر وهو رجل مسن مقعد ثم احيلا على الشقيق الآخر وهو رجل ذو لحية بيضاء وعلى حافة قبره ، وأخيراً ارسلا اليه ظناً منهما انه تعدى المئة عام من العمر . ولكنهما وجداه شاباً وسيماً فصيح اللسان تقوم على خدمته صبية حسناء . وقالا انهما نسيا نزاعهما تماماً وكل ما يطلبانه منه هو تفسير ما وقع عليه نظرهما . واجابهما العالم مرحباً :

— يا صديقيّ اتخذا مثلاً حياً من رجل فنوع اكتشف ان الطريق للابقاء على الشباب في هذه الحياة هي ان يتخذ المرء لنفسه زوجة صبية حسناء تكون قبل كل شيء حساسة ذات ذوق سليم ومتفانية ومحدثة لبقة يسر كلامها السامعين .

فقد كان لي مرة زوجة ثرثارة تهذي في الليل والنهار فطردتها بسرعة . اما شقيقاي الاصغر مني سناً فقد عجزا كما رأيتما وخرفا لا لشيء إلا لأن زوجتيهما ثرثارتان لا عمل لهما إلا الكلام السخيف في الليل والنهار . ان نفسيهما لم تعودا ملكاً لهما فقد اصبحا عبدين لشريكتيهما الثرثارتين ووصلا الى اسوأ حالة يمكن ان يصل اليها انسان . وهما الآن يخشيان ان يتخلصا من الحجرين الثقيلين المعلقين في رقبتيهما . فنصيحتي لكما ولكل الرجال الراغبين في السعادة والاحتفاظ بالشباب ان يطلقوا المرأة في اللحظة التي تصبح فيها كثيرة الكلام والتدخل في شؤون زوجها . ارمها في الحال وابحث عن الهدوء والسلام مع أخرى تخدمك وتدخل السرور الى قلبك في الليل وفي النهار .

«وكان اعجاب التاجرين بهذا الجواب شديداً بحيث انهما غادرا المنزل بصمت بعد ان نسيا نزاعهما والاسباب التي ادت اليه .

وهنا التفتت فاطمة بضراوة نحو عبدالله واتهمته بأنه رجل شرير يحمل بين ضلوعه قلباً اسود يقصد السوء . وقالت :

– لا تصدقا كلمة مما قاله يا أم سعود ويا أبا سعود . ان عبدالله بدأ مؤخراً يلقي شباكه حول فتاة جميلة من العوازم مخيمة مع عشيرتها قرب نقره ، وهو يبحث عن حجة للتخلص مني .

وطمأنتها بقولي :

– لا تخافي يا فاطمة . ان اية امرأة لا ترضى بعبدالله بدون اسنانه اما اسنانه الاصطناعية فلن تخدع أحداً . واذا طلقك لا سمح الله فاننا لن نشرب قهوته مطلقاً . وانت يا عبدالله انتظر حتى تنبت اسنانك من جديد قبل ان تفكر بالاقدام على الزواج من جديد .

وضحكنا جميعنا ضحكات متواصلة .

المرأة التي عطست

وهذه قصة حقيقية أخرى رواها لي عبدالله بن حجي .

كان يعيش في حي المرقاب بمدينة الكويت بائع تبغ فقير وزوجته يتمتعان بتقدير الجميع واحترامهم . ولكن الزوجة كانت ثرثارة الى حد يدفع زوجها نحو الجنون احياناً . ومع ذلك كانا زوجين سعيدين يتمتعان بسمعة عطرة . وكان الرجل ظريفاً صاحب نكتة ، الأمر الذي كان يزيد في مبيعاته لأن الجميع يحبون الرجل المرح الذي يأخذ ويعطي .

وذات يوم اصيبت زوجته بزكام شديد جعلها تعطس كثيراً مما دفع زوجها الى فقدان صوابه . وتحمل ذلك بعض الوقت ولكنه انفجر عندما فاجأته زوجته بعطسة عنيفة من خلفه دون ان يراها .

فصرخ بها مازجاً الغضب بالمزاح :

– يا حرمه يرحمك رب الكلاب والقحاب .

وهنا صرخت الزوجة متهمة زوجها بالكفر والأهانة وامسكت بعصا في متناول يدها وانهالت بها ضرباً على رأس زوجها . وخرجت من المنزل مسرعة قائلة انها لن تعود لتكون زوجة رجل يقرن اسم الله بالكلاب القذرة والمومسات .

واستخدمت عائلتها كل مهارتها لتشرح لها ان الله هو اله جميع المخلوقات بما في ذلك الكلاب والنساء المهجورات والخنازير والاشياء القذرة . وبعد جهد جهيد اقتنعت المرأة ان تعود لزوجها الذي لم ينبس رأسه المشجوج ولكنه اطبق فمه وكبح لسانه .

الباشا التركي يشتري فرساً

في الأيام القديمة عندما كان العراق مقاطعة من الامبراطورية التركية كان يعيش في البصرة باشا تركي (على حد قول عبدالله بن حجي) يدير لواء البصره . وكان الباشا مولعاً بتربية الخيول يبحث دائماً عن حيوان أصيل يضمه الى اسطبله. ولكن نقطة ضعفه انه يرغب في الحصول على خيوله بشكل هدايا بدون ان يدفع ثمنها . ويعطي هاديه مقابل ذلك الحماية والرضا وهي عادة تركية

قديمـــة .

وذات يوم توجه شيخ شاب من شيوخ المنتفق على مهر جميـــل الى البصره ليقدم احتراماته للباشا في مجلسه الصباحي . وترجل الشيخ عن فرسه وربطهـا أمام السراي في ظل شجرة توت ، فرآه الباشا من النافذة التي كان يجلس بجانبها. وبعد ان دخل الشاب الى المجلس وقدم احتراماته وشرب القهوة ، لمح الباشا الى الفرس وسأله ما اذا كانت أصيلة .

وأجابه الشيخ بقوله :

ـ أطال الله عمرك انها حمدانية أصيلة تنحدر من عائلة تملكها طيلة الأجيال العشرة الماضية .

وهنا قال الباشا :

ـ آه .. انها للبيع اذن .

وصدم الزائر قليلاً .. ولكن قصده بالمجيء الى البصره كان لعرض قضيـة أمام الباشا تتعلق بالأرض يأمل في ربحها ولذلك اجابه بقوله :

ـ يا سعادة الباشا انها لك مع انني لا ابيعها لغيرك بأقل من ثلاثمائـــة ليرة تركية واعتقد انني لا ابيعها حتى بمثل هذا الثمن .

والمتعارف عليه بين العرب انه عندما يقدم رجل هدية لشخص مهم كحاكم الولاية مثلاً ، يتلقى مقابل ذلك هدية اثمن منها. ولذلك بعد ان اشار من طرف خفي الى ما يتوقعه من الباشا شعر الشيخ بسعادة تغمره وطلب من الباشا ان يرسل احد خدمه ليقتاد الفرس . ثم نهض لمغادرة المجلس ورد الباشا عليـــه التحية بقوله :

ـ عفارم عفارم عفارم .

وهذا تعبير تركي يعرفه العرب جيداً ويقصد به الباشا ان زائره رجل طيب يستحق النجاح .

ترك الشاب فرسه في عهدة خادم الباشا وحمل السرج وعاد الى الخان الذي يقيم فيه في العشار ،احدى ضواحي البصره. وبعد اسبوع، وكأن شيئاً لم يحدث،

قام الشيخ بزيارة ثانية للباشا في مجلسه الصباحي فاستقبله استقبالاً حاراً واجلسه في مكان لائق حيث قدمت له القهوة ثلاث مرات كالمعتاد. ولاحظ بقية الزائرين الحفاوة التي قابل بها الباشا ضيفه فظنوا انه شيخ ذو منزلة رفيعة من شيوخ عنيزه أو شمّر .

وقال الباشا وهو يودع زائره :

– تعال ثانية يا صديقي .

وبعد أربعة أيام عـــاد الشاب الى زيارة الباشا ولكن شيئاً لم يحدث فأخذ يتردد على السراي يوماً بعد يوم الى أن بلغ مجموع زياراته اثنتي عشرة زيارة . ولما لم تظهر بوادر الحصول على هبـــة مقابل فرسه ، لجأ الشيخ إلى الخداع بأن عرض قضية الأرض التي جاء بصددها . ومـع ذلك لم يحدث اللهم إلا الترحيب الحار الذي كان يلقاه من الباشا ساعة قدومه .

ولما يئس الشاب فكر في خطة لنيل مأربه . فذهب إلى سوق البصرة الكبير واشترى من تاجر قماش معروف كان يراه في مجلس الباشا ، أثوابــاً من الحرير بقيمة ثلاثمائة ليرة تركية . وطلب ان ترسل البضاعة الى الخان الذي ينزل فيـه في العشار فوافق التـاجر مبتسماً ظناً منه ان الشاب صديق حميم للباشا وذو مكانة رفيعة .

وبعد مرور عشرة أيام ذهب التاجر بنفسه الى الخان ليطلب حسابه بنفسه فاستقبله الشيخ بالترحاب قائلاً :

– عفارم عفارم عفارم .

وسأله التاجر :

– مــاذا تقصد ؟ انني لا أفهم . لقد جئت أطلب ثمن البضائع التي اشتريتها مني وتستقبلني بقولك « عفارم عفارم عفارم » .

وهنا قال الشاب ضاحكاً :

– اذهب واسأل الباشا ما معنى ذلك فهو يشرح لك أطال الله عمره .

وذهب التاجر الغاضب الى الباشا وأخبره القصة وقال :

ـ كل ما أريده هو ان تعاد إليّ أموالي .. إنني لست أفهم ماذا يقصد هذا الشاب بقوله « عفارم عفارم عفارم » .

وفكر الباشا لحظة ثم أبلغ التاجر ان يعود الى حانوته قائلاً :

ـ يا صديقي ، والله انك ستستعيد بضائعك او قيمتها البالغة ثلاثمائة ليرة تركية . اذهب بسلام .

واستدعى الباشا محاسبه وقال له :

ـ اذهب بسرعة الى صديقنا الشيخ ، وضع في يده ثلاثمائة ليرة تركية وقل مرتين بعد ان تحييه « عفارم عفارم عفارم » انك أذكى مما كان يظن صديقك الباشا . فهو إذ لم ينس دينك له يطلب منك ان لا تنسى دينك لتاجر القماش . عد الى بلادك بسلام .

وقبل الشيخ المبلغ بكل سرور ثم أعاد في الحال أثواب الحرير الى صاحبها متذرعاً بأنه لم تعد له حاجة بها وطلب من التاجر ان يقبلها مع الاعتذار .

وأضاف قائلاً :

ربما أراد الباشا ان يشتريها منك .

اليهودي والنبي

قال عبدالله بن حجي ونحن نحتسي القهوة في حديقته :

ـ واعلم يا أبا سعود انه ليس جميع اليهود في العالم أشراراً . فقد رأى الله برحمته الواسعة أن يجعل قلوب بعضهم رقيقة وقد أرشد أكثر من واحد منهم عن طريق رسله الى جادة الصلاح . ان رحمة الله واسعة .

« إن القصة التالية المعروفة لدى المسلمين تؤكد لسعادتك انني أقول الحقيقة .

« في زمن الرسول ﷺ ، كان يعيش في مكة بجوار منزل الرسول يهودي يدعى خير . وكان هذا اليهودي عنيداً متعصباً كغيره من اليهود ولا يقيم وزناً لأي ديانة غير ديانته . وتطاول أكثر من ذلك إذ حاول بكل وسيلة ممكنة ان

يوجه الاهانات الى اتباع الدين الاسلامي الجديـد ويوجه اذاه بصورة خاصة الى مؤسس هذا الدين .

« وكان يعرف انه عندما تحين ساعة الصلاة كل يوم يخرج رسول الله من منزله ويمر أمام منزل خير في طريقه الى المسجد ، فخطر لليهودي ان أفضل طريقـة لإيذاء مشاعر الرسول وصحبه هي ان ينثر أمام باب الرسول أوساخ عائلته لكي يدوس عليها فيلوث نفسه قبل دخول المسجد .

« وأبلغ خدامه أيضاً ان يجمعوا يومياً الاوساخ التي يجدونها على سطح منزله وفي مرحاضه وينثروها في الطريق أمام باب الرسول . وبعد ان فعل ذلك صعد ليراقب من نافذة غرفته في الطابق العلوي كيف سيستقبل الرسول الاهانة .

« وخاب فأل اليهودي خير لان الرسول كلمـا خرج الى الشارع يرفع رداءه عالياً لكي لا يلوث ويتنقل بعناية بين الاقذار المنثورة في الطريق ويتوجـه الى المسجد للصلاة . ولكن صحب الرسول غضبوا من هذه المحاولات الشائنة لإهانة سيدهم ولم يتمكنوا من كبح جماح أنفسهم . وبعد عدة أيام دخلوا في نقاش حاد مع الرسول قائلين :

ـــ « لماذا لا تتكلم وتأمرنا بأن نذهب الى هذا اليهودي اللعين ونؤدبه او على الاقل نأمره بوقف هذه التصرفات غير اللائقة ؟

« فوبخهم الرسول قائلاً :

ـــ « يا أولادي ان خيراً اليهودي جاري ، وواجب الانسـان الاول بعـد الله أن يعامل جاره بالحسنى . دعوه وشأنه فالله يحاسبه .

« ولما ألح صحبه في الاحتجاج مستفهمين عما يقصده بواجب الأنسان الاول قال الرسول :

ـــ « يا اتباعي بعد ان يعمل المرء بمشيئة الله هنالك ثلاثة واجبات مفروضة على كل مسلم يمكن تلخيصها بهذه الكلمات : « جارهم ثم جارهم وجارهم »

« ويقصد بذلك ان واجب الانسان الاول وحتى الثاني والثالث هو تجـــاه جاره . ودهش صحب الرسول لقوله هذا وتهامسوا فيما بينهم .

« وكرت الايام ولم يكف اليهودي يوماً واحداً عن اساليبه الشريرة ولم يشعر مرة بالخجل مما يفعل . اما الرسول فلم يتأثر من جهته واستمر في أداء صلاته اليومية ، ولم يظهر منه اي شيء إن بالقول او بالفعل يدل على تضايقه من اليهودي المتعصب الارعن .

« وبعد مرور فترة من الزمان مرض اليهودي خير مرضاً شديداً . ولاحظ الرسول ان الاوساخ لم تعد توضع امام بابه فاستفهم من صحبه عن السبب . وابلغوه ان خيراً طريح الفراش وعلى وشك مفارقة الحياة . وحزن الرسول لهذه الانباء وامتلأ قلبه اسى وقال :

— « مسكين .. مسكين يجب ان نصعد اليه ونرى ماذا يمكن ان نفعل من أجله ؛ اليس هو جارنا ؟ اذهبوا أيها الأصدقاء وبلغوه تحيات محمد واسألوه ما اذا كان باستطاعتي ان أؤدي له اية خدمة .

« ولم يطق الرسول الانتظار حتى عودتهم فدخل بنفسه الى منزل خير وطلب ان يرشدوه الى غرفة المريض .

« ولما وقع نظر الرسول عليه قال له :

— « كل ما أملك وكل ما تطلب في مرضك يا صديقي هو لك . اطلب ما شئت وأنا احضره لك وليشفك الله .

« وحدق الرجل المريض بوجه رسول الله وقد بلغت به الدهشة حداً كبيراً وتمتم بشفتين ضعيفتين مرتجفتين قائلاً :

— « ألست انت الدجال المدعو محمد الذي يعيش بجوار منزلي ؟ الست انت الرجل الذي لم اكف طيلة الأشهر الماضية عن محاولة الاساءة اليه بطرح الاوساخ والأقذار أمام بابه ؟

« وقال الرسول :

— « نعم يا صديقي أنا هو . ولكن الأشياء التي تذكرها ليست شيئاً عندي وقد نسيتها كلها . اما الآن فقد اتيت بالحقيقة لخدمتك ولأفعل ما بوسعي لإنقاذك من مرضك . قل ما هي مطالبك ؟

اصيب خير بدهشة فائقة اذ اغمض عينيه فترة طويلة من الوقت . وعندما فتحها ثانية كانت الدموع تترقرق فيها وبدت على وجهه أسارير سعادة رجل فتحت في وجهه ابواب الجنة وظهر عليه مجد الله . وقال خير للرسول :

ــ « اقترب مني يا رسول الله »

ولما اقترب الرسول منه اعلن خير بصوت عال يفيض بالبهجة قائلاً :

ــ « اشهد ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله » .

« وبعد ان اعلن اسلامه اسلم الروح ونزلت ملائكة السماء . وبعد غسله وتدثيره بملابس جديدة نقل جثمانه ودفن في المقبرة الاسلامية بمكة حيث لا يزال قبره يكرم الى الآن .

« بهذه الطريقة وبقوة من عند الله تحول خير اليهودي الى الايمان الصحيح واصبح اسمه مباركاً في كل زمان عند المسلمين . وتخليداً لذكره يقول المسلم عادة بعد انتهاء صلاة الصبح « يا الله صباح الخير » لكي يتذكر تحول اليهودي خير الى الاسلام .

ان هذه القصة تفقد كثيراً من معانيها عندما تروى بالانكليزية . ولكنها تكون رائعة عندما يرويها عبدالله بن حجي بلسانه العربي الفصيح .

شفاء سعود بن عقاب

لنا صديق بدوي آخر من عنيزه اسمه سعود بن عقاب يعمل حارساً في شركة النفط . وكان رجلاً طيباً في الخامسة والثلاثين، قدمه الينا صاحب السمو الشيخ أحمد . وفي تلك الأيام كان جميع الحراس تحت امرتي مباشرة . وكان مركز سعود في الحراسة محطة ضخ الماء القديمة التي تبعد ميلاً واحداً الى الجنوب من شعيبه على الساحل . وعندما كنت انا وزوجتي نمر لزيارته كالعادة لنشرب عنده فنجاناً من القهوة ، لم يكن يسمح أن يضيفنا في الكوخ المخصص للحارس بل في خيمته السوداء القريبة التي يقطن فيها مع عائلته . تلك كانت مسألة اعتزاز بالنسبة له تسرنا نحن ايضاً .

وذات يوم من ربيع سنة ١٩٣٩ أخذ الحارس سعود يشكو من صداع شديد تبعه ضعف في النظر. ولما لم نكن نستطيع تخفيف المه بواسطة اقراص الاسبيرين، حملناه معنا في سيارتنا الى الكويت وادخلناه مستشفى الارسالية الاميركية . وعمل الدكتور ميلري جهده لمساعدته واعتنى به عناية فائقة ولكن دون جدوى . وبعد عشرة أيام ابلغني الطبيب ان ما يشكو منه الرجل هو اضطراب في الدماغ .

وازدادت حالته سوءاً مما اضطر الدكتور ميلري الى تخديره معظم الوقت لينقذه من الألم الشديد الذي كان يعاني منه . وفي صباح أحد الأيام توجهت الى المستشفى حيث اخبرني الدكتور ميلري انه أبلغ أقارب سعود ان ينقلوه الى المنزل في اليوم ذاته . وكانت أمامه عدة ساعات يعيشها فقط فرأى الطبيب انه من الأفضل ان يموت بين اقاربه واحبائه في منزله . وهذا تدبير إنساني تتخذه سلطات المستشفى ويقدره كثيراً السكان العرب في الكويت .

وقد أكد لي الدكتور ميلري ان حالة سعود يائسة وانه سيفارق الحياة خلال ساعة او ساعتين . وعدت الى البيت ونقلت النبأ المفجع الى زوجتي والى الشيخ أحمد . ولم نكن نعرف الى اين سيأخذه أقاربه . ويتعلم المرء في الكويت ان يتلقى مثل هذه المآسي بشجاعة لأن « كل شيء يأتي من عند الله » والتعليق الذي نسمعه دائماً في مثل هذه الحالات هو « الله يعطي ويأخذ . انه من الخطأ الحزن والبكاء . اختاره الله الى جواره » .

وبعد مرور اسبوعين كنت وزوجتي نركب الخيل بين خيام البدو واكواخهم في منطقة الشامية خارج اسوار المدينة وهي منطقة مخصصة ليضرب فيها البدو النازحون من الصحراء في الصيف خيامهم. وكنا نقوم بمثل هذه الرحلات من وقت لآخر لأن لنا اصدقاء كثيرين بين هؤلاء البدو. وفجأة سمعت صوتاً يناديني باسمي:

— « يا أبا سعود ! يا أبا سعود ؟ »

وكان الصوت صادراً من صريفة . وسرنا باتجاه الصوت فرأينا أمام الباب زنجية جميلة جالسة تغزل الصوف . وسألتها :

— من ناداني باسمي ؟

— انه خادمك سعود بن عقاب. انني أعالجه . انه هنا يقضي دور نقاهة هيا انزل لزيارته .

وأصبنا بدهشة لسماع هذا الخبر فسلمنا زمام خيولنـــا الى صبية كانوا قرب المكان .. وهناك رأينا الرجل الذي ظننا انه توفي ودفن منذ اسبوعين. فجلسنا الى جانبه نسمع قصته .

قال :

— « ارسلني الطبيب الانكليزي الرقيق القلب الى المنزل لأموت هناك . ولم يكن يعرف ان جناً شريراً امتلكني ليقتلني ولكن بنت الحلال هـذه (وأشار الى الزنجية) عرفت دائي حالمـــا رأتني فحلقت رأسي على الفور ثم كوتني في رأسي على شكل صليب من الأذن الى الأذن ومن الجبهة الى مؤخرة الرقبة وذلك لكي تطرد الروح الشريرة . وبعد ذلك امرت الروح الشريرة ان تخرج باسم الله فخرجت فوراً وتركتني كالميت . وعندمـــا افقت من غيبوبتي وجدت الزنجية الطيبة ترعاني وتقرأ آيات من القرآن الكريم فوق رأسي . وهي تفعل ذلـك كل يوم واني لأشكرها لأنني تحسنت وتحسن نظري ولكنني لا زلت أشعر بقليل من الضعف .

وبينا كان سعود يروي قصته كانت الزنجيـــة واقفة الى جانبنا تضحك ثم قالت بكل بساطة :

— انني أملك هذه القدرة من عندالله .

فشكرناها شكراً جزيلاً واعطيناها ثماني روبيات قال سعود انها دين عليه، وشكرنا قائلاً ان الله اقتادنا الى كوخه .

وتعافى سعود ولكنه استقـال من الحراسة . وضحـــك الدكتور ميلري ضحكة خبيثة لما اخبرته القصة واظن انه لم يكن مسروراً .

ومع ان « ميريلاي » كما يسميه العرب لم يكن معروفاً لدى العـالم الخارجي فان اعماله التي قام بها في الخليج ولا سيما في الكويت تضعه في مصاف أعظـــم

البريطانيين في هذا القرن. ويكفي ان يسير معه المرء خطوات قليلة في الأسواق ليعرف مدى احترام الجميع وحبهم له. فليس من أحد يلتقي به سواء كان شيخاً ام تاجراً ام حمالاً ام متسولاً معدماً. إلا وكان يصافحه ويذكره بمرض شفاه منه – وربما كان ذلك قبل سنوات – .

وكانت دائماً لديه كلمات رقيقة يقولها لكل انسان في السراء والضراء؛ فكان يردد جملة مناسبة من التوراة – او ربما من ديكنز – تدخل العزاء والسرور الى قلوب من حوله . كان أديباً في العربية وكذلك كانت زوجته بيسي . وكان حافظاً التوراة عن ظهر قلب باللغتين الانكليزية والعربية . وفي مساء كل أحد يخال المرء الذي يذهب الى كنيسة الارسالية انه يسمع قصة جديدة لم تذكر من قبل وهو يستمع اليه يقرأ دون ان يلتفت الى الكتاب .

وتقاعد منذ عدة سنوات وذهب ليعيش في جنوب الهند . وفي كانون الأول سنة ١٩٥١ عاد الى الكويت وقضى عطلة عيد الميلاد بصحبتي وصحبة زوجتي . وتوفي في الثالث من كانون الثاني سنة ١٩٥٢ فكتبت عنه زوجتي مقالاً تأبينياً في جريدة « التايمز » قالت فيه :

« كان يحب كل شيء حوله: منظر غروب الشمس من منزله في الشتاء، والنجوم في ليلة صيف ، البحر والزوارق الشراعية التي تتمختر فيه ، أزهار الربيع في الصحراء وخاصة ذلك البساط النرجسي . وأتى بالنرجس الى تلته الرملية فكان مع الأقحوان الصحراوي الأصفر والأبيض الأزهار الوحيدة في حديقته . ودفن في المقبرة المسيحية الى جانب الحجر التذكاري لصديقه الكابتن شكسبير الذي كان وكيلا سياسياً وهو الانكليزي الوحيد الذي كان في الكويت في ذلك الوقت وقتل في معركة جراب سنة ١٩١٥ .

كانت جنازة الدكتور ميلري مؤثرة اذ حضر الى المقبرة المسيحية عدة آلاف من العرب وهناك القى الشيخ فهد السالم الصباح شقيق حاكم الكويت رثاء بليغاً مؤثراً ومعبراً معاً .

وكل ربيع تحاول زوجتي زرع بصيلات النرجس على قبره . وهذه السنة

— ١٩٥٤ — رأيت أنبا تنمو جيداً .

نبي في الكويت

ان قصة شفاء سعود بن عقاب تذكرني بقضيتين غريبتين تجدر الاشارة اليها في هذا المكان . تتعلق الاولى منها بالسيد ياسين .

كانت الحياة في الكويت قبل مجيء شركة النفط بدائية جداً . وكانت هنالك جرائم قتل وثارات وغزوات من الصحراء والأخوان المتعصبون والجن وغيرها من الخرافات والاساطير . ولم نكن نعدم أنبياء كالذين يأتي ذكرهم في العهـــد القديم من الكتاب المقدس .

في ذلك الوقت كان « نبي » الكويت السيد ياسين وهو رجل طاعن في السن طيب شفوق لا يعرف للتعصب معنى . ففي الشتاء والربيع كان يعيش مع عدد من تلاميذه في شبه جزيرة رأس عشيرج التي تبعد خمسة عشر ميلا الى الغرب من الكويت . وفي عز الصيف كان يقيم في منزل في وسط مدينـة الكويت وليس بعيداً عن البحر الى جوار حمد الخالد أحد قدامى تجار الكويت وصديق الاتراك .

وكانت للسيد ياسين قوة خارقة للشفاء لا سيما اذا كان الأمر يتعلق بلدغـــة حية أو عقرب . ومع ذلك كان يأتي اليه المصابون بالزكام والحمى والسل على حد سواء . كان بعضهم يسمي ذلك شفاء عن طريق الايمان ولكن السيد ياسين كان يصفه بأنه يد الله التي تعمل من خلاله .

وكان يقول دائماً :

— انا نفسي لا استطيع ان افعل شيئاً ولكنني اطلب من الله ان يخفف عن المتألم فيستجيب برحمته الواسعة الى دعائي وصلواتي .

كان السيد ياسين يضع يده على رأس المريض ويقول :

— « آمن بالله وهو يشفيك من كل العلل . اذهب بسلام » .

ولم يستخـــدم دواء سوى الماء . فكان يطلب كأساً منه وينصرف كأنه سيبصق فيه دون ان يفعل ذلك ثم يطلب من المريض ان يشرب المـــاء الى

آخر د فيبرأ .

ويبدو انه كان ينجح ؛ اذ كيف نفسر شفاء العشرات ممن يأتون اليه يومياً لشفائهم ؟

ولم يكن يتقاضى عن عمله هذا أي أجر، كما انه لم يقتل قط أي حيوان سام أو مؤذ لأن تلك الحيوانات على حد قوله « مخلوقات الله فلماذا نؤذيها ؟ »

كانت له طريقة عجيبة في اجتذاب الافاعي . ولم تكن تلك الافاعي تلدغه فكان يلتقطها وكأنها اكثر المخلوقات براءة . وكان يخبر اصدقاءه ان الأفعى لا تؤذي احداً اذا افهمها انه لا يقصد بها الشر .

ـ « قل للافعى « لا اقصد بك الشر فلا تؤذيني » وهي لن تؤذيك » .

وكان له عدد من التلاميذ يسيرون على خطاه ويستطيعون التقاط الأفاعي السامة وترويضها . ومن هؤلاء التلاميذ محمد السنا الذي كان سائقاً لسيارتي في يوم من الأيام .

ولعل اكثر اساليب السيد ياسين اثارة للدهشة قدرته على معالجة الذين لدغتهم الأفاعي السامة بشرط ان يؤتى بالشخص الملدوغ اليه في الحال فيصلي عليه ويمسك بيده فيخف المه ويشفى . ومع انه كانت لدينا ارسالية واطباء وعدة انواع من المصل المضاد للسم ، لكن العرب على العموم كانوا يفضلون الذهاب الى السيد ياسين أولاً . وقد عثرت مرتين على رجال من البدو فاقدي الوعي يموتون من لدغة الأفعى وفي المرتين توسل هؤلاء الي ان لا آخذهم الى المستشفى بل الى منزل السيد ياسين .. ففعلت .

ان اعظم مثل على قدرة السيد ياسين في الشفاء من لدغة الافعى ذلك الذي رأيته بنفسي . وأعرف ابطال القضية واحداً واحداً ولذلك أريد ان أتوخى الحقيقة فقط . ولن ادعي انني سأفسر الاسباب والنتائج .

في اوائل صيف سنة ١٩٤٥ كان صديقي الشيخ لافي بن معلث من فرع الدياهين في قبيلة مطير مخيماً مع عدد من قبيلته في اربعين خيمة عند آبار الطويل على بعد ثلاثين ميلاً الى الجنوب من الكويت . وبعد غروب الشمس بقليل وبينما

كان الشيخ لافي جالساً بقرب النـــار ينتظر القهوة ، رأى على ضوء النار أفعى ذات قرون اجتذبها النور المنبعث من النار فاقتربت منهـا . وأصيب لافي بهلع مفاجىء فرفس الأفعى برجله الحافية رفسة قويـــة ولكنهـا كانت اسرع منه فغرزت انيابها في رجله وتعلقت بها .

وأخذ الشيخ لافي يصيح طالباً النجدة فهرع اليـــه اصدقاؤه بعد قليـــل ليخلصوه من انياب الأفعى بعد ان قتلوها. لقد كانت افعى مكتملة النمو ومميتة دون أي شك . واوثق اصدقاء الشيخ لافي الرباط فوق ركبته وتحتها ليحصروا مجرى الدم على طريقة البـــدو وقرروا ان ينقلوه الى السيد ياسين باسرع وقت ممكن على جمله . وكان شقيقه الاصغر أذكى من البقية فقفز على جمـله وخف الى الكويت لمقابلة السيد ياسين وطلب المساعدة منه . وكان يعرف انه اذا قـــدر للشيخ لافي ان يصل الى المدينة فلن يصلها قبـــل الصباح . وسار الشاب حثيثاً فوصل الكويت عند منتصف الليل فايقظ السيد ياسين من نومه وأخـبره قصته بسرعة وقال :

— « لا اعتقد ان أخي بامكانه ان يصل الى الكويت قبـل ثماني ساعات أو أكثر وعندها يتسرب السم الى جسده فيقتله .

وتأمل السيد ياسين برهة ثم قال بهدوء :

— « اذهب بسلام يا بني لقد شفى الله الشيخ لافي منذ هذه الساعة . عد الى ملاقاة أخيك وستجده سالماً معافى .

فرح الشاب ولكنه ظل قلقاً وعاد الى حيث اتى في ظلام الليل . وبعـــد مسيرة خمسة عشر ميلاً من المدينة التقى بشقيقه راكباً على جمـــله يسير ببطء ولكنه بصحة جيدة مع انه كان لا يزال يعاني من تأثير الصدمة .

وبادره لافي بقوله :

— « لقد زال عني تأثير السم فجأة وشعرت بالحياة تعود إلي .

ولما سأله عن الوقت الذي حدث فيه ذلك تبين ان المعجزة وقعت تماماً في الوقت الذي ابلغ فيه السيد ياسين شقيق الشيخ لافي ان شقيقه سيشفى بعون

الله .

رأيت الشيخ لافي بعد ثماني ساعات من الحادث في مجلس الشيخ عبدالله الأحمد الابن الأكبر لشيخ الكويت . وكان يصف كيف أنقذت حياته في الليل شاكراً الله . وزيادة في الايضاح اراني الجرح الذي احدثته أنياب الأفعى في ساقـه واخبرني والجمع في المجلس كيف انه بعد عشرين دقيقة من لدغ الأفعى له انتابه نعاس وخدر شديدان فقـد بعدهما الوعي كلياً بعد ان قطع مسافة ميلين نحو الكويت. وقد ربطه صحبه الى ظهر الجمل وأرسلوا معه رجلاً ليدل على الطريق ولم يكن بالامكان السير بأكثر من المشي العادي . وحوالي منتصف الليل أفاق الشيخ لافي ودعا رفاقه ان يوقفوا الجمـل وينزلوه الى الأرض ففعلوا ثم فكوا رباط الشيخ لافي بسرج الجمل فوقف ولكن ضعيفاً وقال :

- « وبعد ساعة شعرت بتحسن مذهل . بحيث اني نزعت الرباطين في رجلي لانهما كانا يؤلماني . ووصلت الى الكويت عند الفجر شاكراً الله على رحمتـه . وتوجهت رأساً الى منزل السيد ياسين لأعبر له عن شكري وعرفاني لجميله، ولكنه قال : أشكر الله وحده .. انا لم أفعل شيئاً . صليت الى الله فاستجاب لصلاتي؛ تبارك اسمه .

لقد قابلت السيد ياسين مرة واحدة وخرجت بانطباع طيب عنه . وكنت انا وزوجتي غالباً ما نراه جالساً على «دتشه» قرب البحر . وقد توفي سنة ١٩٤٨ بسبب كبر السن ولم يترك خلفه أولاداً فحزن عليه الجميـع .

اخراج شيطانين من بنتا

قصتي الثانية تتعلق ببنتا وهي زوجة معزي بن بيتل الجبيلي وهو مطـيري كان يعمل حارساً وخادماً لنا. وتتعلق القصة ايضاً بمحمد المرزوق وهو مطيري آخر كان يهتم بحصانينا في الكويت . ومحمد متزوج من مضي الزوجـة السابقة لفالح العامر . وهي امرأة ذات شخصية تنتمي الى فرع رخمان في مطير وكانت تقيم في الجهراء عند رأس الكويت . وقد تعرفنا عليهـا قبل خمس عشرة سنة

وكانت تأتي لزيارتنا وزيارة زوجها من وقت لآخر .

والحادث الذي سأروي قصته هنا وقع في آذار سنة ١٩٤٩ في الوقت الذي كان فيه ميلري قد تقاعد وأصبح الدكتور ج . هـ . نيكرك طبيب الارسالية . وكانت بتا تعيش مع ابنتها في فحاحيل بالقرب من خيمة خلف المطيري زوج ابنة معزي . وكان خلف في خدمة صاحب السمو الشيخ أحمد . وكنا نسمح لمعزي كل اسبوع ان يذهب الى فحاحيل لقضاء يوم وليلة مع زوجته بتا وابنيه فرج وعبدالله .

وأبلغنا معزي ذات يوم ان بتا تعاني من مرض لا يعرف ما هو وان حالتها تسير من سيىء الى اسوأ . وفي الاسبوع التالي ابلغنا انها أصبحت نحيلة للغاية وان حليبها قد نضب مما اضطره الى ارسال طفله عبدالله الى السمن على بعد ١٥٠ ميلاً لكي يعتني به أهل والدته .

وبعد مضي اسبوعين من الزمن على هذا المرض الغريب عاد معزي ليقول ان زوجته في حالة خطيرة ويعتقد انها ستموت قريباً . فقد بلغ بها النحول درجة كبيرة ولم يعد بامكانها ان تأكل شيئاً ولم تعد تستطيع الوقوف على رجليها . كان ذلك بعد زيارته الأخيرة لها . وتوسل الي ان اذهب لرؤيتها بنفسي عندما اقوم بجولتي التفتيشية القادمة الى ميناء الاحمدي الذي يبعد ثلاثة اميال فقط عن خيمة بتا .

وكان معزي في حالة يأس بحيث انه اشترى كفناً لزوجته . ولكي اشجعه قررت ان اذهب الى ميناء الاحمدي في اليوم التالي لزيارة بتا والاطلاع على حالتها بنفسي وحملها معي في السيارة الى الكويت اذا اقتضى الأمر لادخالها الى مستشفى الارسالية الاميركية . وابلغت عزمي هذا الى معزي فوافق في الحال! وقال انه لن يرافقني لأنه لا يستطيع رؤية زوجته الصبية بهذه الحالة .

وفي الوقت المحدد وصلت الى خيام البدو جنوب غربي ميناء الاحمدي حيث علمت ان بتا وشقيقاتها يقمن عند الطرف الغربي من المخيم . ولم تكن بتا هناك ولكنها وضعت في صريفة صغيرة ابتناها لها شقيقاتها الى جانب خيمتهن .

واخذتني اليها فصدمت عندما رأيت بتا وقد أصبحت هيكلاً بشرياً متهالكاً على لحاف قديم وسط قاذورة تهافت عليها الذباب . وكانت تئن وتتـــألم ولدى سؤالي عن حالتها جلست بصعوبة وقالت وهي تبكي وتتنهد انها ستفارق الحياة. كانت نحيلة كالعصا وتبدو اشبه بهيكل عظمي ناطق . ولما رفعت يدها لأجس نبضها لم أجد عليه لحمـــاً فكنت استطيع ان اطوق معصمها باصبعي . وكانت يدها ساخنة .

وبصعوبة ايضاً ابلغتني انها لا تستطيع ان تأكل أو تشرب شيئاً إلا وتتقيأه، وانها لا تستطيع التحرك نحو الباب إلا زحفاً على يديها وركبتيها . وقالت انها تنفث دماً في بعض الاحيان ولكن ليس بكثرة .

مسكينة بتا الصغيرة .. كيف تحولت من فتـــاة موردة الخدين الى هيكل بشري فاقد العافية ! كان يبدو واضحاً انها في حالة يائسة واعتقد انها تعاني من السل في درجة متقدمة لأنني رأيت كثيراً مثله بين رجال ونساء البدو . وقلت لبتا انني اقترح بموافقة زوجها نقلها الى المستشفى وسألتها عن اية امرأة مـــن جيرانهـــا تود ان تصحبها . وتوسلت اليّ بتا وهي تبكي ان لا انقلها في الوقت الحاضر لأنها ضعيفة وتخشى ان تموت في سيارتي . وطلبت مني بدلاً من ذلـك ان أرسل طبيب الارسالية اليها لمعاينتها وربما استطاعت ان تذهب بعد ذلك . وقد الحت كثيراً في توسلاتها فنزلت عند رغبتها .

كنت اعرف جيداً ان الدكتور نيكرك لا يمـــانع في الخروج من الكويت ولذلك فان التأخر يومين لن يبدل في الوضع . واعطيت بتا كمية من كربونات الصودا مع الماء وسررت لأنها جرعتها وتركت كمية اخرى من هـــذا المسحوق وطلبت من شقيقتها ان تعطيها منه اربع مرات في اليوم وكميات قليلة من الحليب الساخن كل ساعتين . وقبل ان اغادر المكان رفعت الفتاة من ذراعيها لأرى اذا كانت تستطيع الوقوف ، فسقطت الى الأرض حالما افلتت يديها فتأثرت بهـذا المشهد كثيراً .

وعدت الى الكويت ونقلت ما شاهدت الى زوجتي والى معزي، الذي كان

يبدو بالغ القلق . وفي مساء اليوم ذاته وقبل ان اذهب الى الدكتور نيكرك لأسأله اذا كان بامكانه ان يخرج الى الصحراء لمعاينة بنا، وصل خلف من فحاحيل حاملاً رسالة الى معزي من زوجته تطلب منه فيها ان يأخذها الى امرأة حكيمة في الجهراء لانها تشعر ان الكي سيفيدها وينقذ حياتها .

هذه هي طريقة البدو في معالجة السل . وتجري هذه العملية بواسطة اوتاد حديدية تسخن على النار الى أن تصبح حمراء ثم يجري كي المعصم الأيسر في خطين قصيرين متوازيين ، فاذا لم يحمل ذلك معه اي تحسن خلال اسبوعين تجري نفس العملية على المعصم الايمن . فاذا لم يحدث اي تحسن ايضـــاً يكوى المريض على الجهة السفلى من اللسان . وهذه العملية مؤلمة للغاية اذ يتورم الفم ولا يستطيع المريض لمدة أيام ان ينبس ببنت شفة .

وتوسلت بنا الى معزي في رسالتها ان يحقق رغبتها . وعندمـــا اعطيت موافقتي على ذلك تقدم سائسنا محمد المرزوق الذي كان قد سمع كل شيء واستأذن بالكلام . وتطوع محمد ان يتوجه الى فحاحيل صباح اليوم التالي ليأخذ بنـا الى الجهراء حيث تقيم زوجته مضى . ولم يكن يرغب ان يصحب معزي معه لأنه يعيقه وقال انه سيحضر السيارة وكل مـــا يلزم ، وانه سيعود ان شاء الله اليوم الخامس وقت شفيت بنا .

وكان محمد يبدو قوياً واثقاً من نفسه بوجهه الباسم الصبوح بحيث انني وزوجتي وافقنا على طلبه في الحال . ولم يمانع معزي في ذلك . فقد علمتني التجـارب انه في مثل هذا المناسبات لا سيما بين أناس يعتمدون كثيراً على الإيمـــان ، تعمل المعجزات عملها .

وقلت لمحمد :

— « اذهب وليوفقك الله . ربما أراد بقدرته ان تشفى بنا .

وغادرنا محمد فجر اليوم التالي ولم نسمع شيئاً عنه لمدة أربعة أيام .

وكان معزي يتمتم قائلاً : « ربما أراد الله ان يشفيها وينقذها » . وكنت أنا وزوجتي نجيبه بقولنا : « ان شاء الله » ، « ان شاء الله » ، « الله كريم » .

وفي اليوم الخامس عند الظهر عاد محمد المرزوق سعيداً باسماً وقال :
– ألم أقل لكم ان كل شيء سيكون على مـا يرام لأن الله يستطيع ان يفعل كل شيء . لقد استعادت بتا صحتها وشفيت تماماً . لقد أخذتها الى شقيقاتها في فحاحيل وعدت مسرعاً لأنقل اليكم الأخبار السارة .

وأخذ يصف لنا كيف نقل بتا وهي نصف ميتة الى المرأة الحكيمة العجوز في الجهراء برفقة زوجته مضي . وبعد ان فحصتها العجوز اعلنت ان حالة بتا لا تقتضي الكي بل طرد روح شريرة لأن الجن قد تسلط على جسدها وأخذ يعذبها وسيقتلها حتماً اذا لم يطرد . وعندئذ امرت العجوز الجن باسم الله ان يخرج .

وقال محمد :

– ولم يخرج منها جن واحد بل اثنان . وكان كل منهما يصرخ بصوت مخنوق على طريقة الجن متوسلاً البقاء داخل الفتاة ولكن العجوز المـاهرة لم تستجب اليهما وأمرتهما بكل اصرار باسم الله القدير ان يخرجا ويرجعا الى مكانهما الأصلي تحت الارض .

واستطرد محمد يصف كيف ان بتا بقيت شبه ميتة لمدة من الزمن بعد ان طردت منها الأرواح الشريرة . ولما استعادت وعيها نقلها الى منزل زوجته مضي حيث اظهرت تحسناً مدهشاً خلال يومين وليلتين بحيث طلبت ان تعاد الى منزلها في فحاحيل .

وأضاف محمد قائلاً :

– والله انها تأكل الآن كالناقة .. شكراً لله . وفي الواقع مشت هذا الصباح الى محطة شاحنات الجهراء اي مسافة ربع ميل تقريباً حاملة المكسر على رأسها، وأنت تعرف كم هو ثقيل المكسر يا أبا سعود . وقد تسلقت الى الشاحنة لوحدها أيضاً .

وقد أذهلتني هذه القصة بحيث ظننت أن الأسوأ قد حدث ، وان هذه هي طريقة محمد في افضاء نبأ وفاة بتا . وقلت له بصراحة انني لا أصدقه ما لم أرهـا شخصياً وأتأكد انها في الحالة التي وصفها لنا . وعلى كل حال ارسلت معزي الى

فحاحيل على جناح السرعة طالباً منه اذا صدق كلام محمد ان يجلب بنا معه الى منزلنا في الكويت خلال خمسة أو ستة أيام لنراها بأعيننا .

كان ذلك يوم اثنين . وفي مساء اليوم التالي أخذ محمد بن مرزوق يشكو من صداع شديد ومن حمى . فأعطيناه اقراص الاسبيرين ولكنه يوم الاربعاء ساءت حالته كثيراً فطلب ان نسمح له بالذهاب الى الجهراء حيث يمكن لزوجته ان تعتني به . فوافقنا على ذلك واستقل محمد الشاحنة التي تسير عند الظهر وهي ملك عبدالله بن خلف . ولما كان الطقس بارداً جداً حذرناه ونصحناه ان يلف نفسه جيداً ويجلس في صدر الشاحنة وراء السائق .

ولم نعد نرى محمد بن مرزوق ثانية . وجاء الينا يوم الجمعة بدوي يحمل الينا بندقية محمد وحزام الذخيرة وأبلغنا ان محمد توفي فجأة . ويبدو من التفاصيل التي حصلنا عليها فيما بعد من سعود بن تويران زوج شقيقة مضي ، ان محمد وصل الى المنزل في حالة سيئة وتلاشى بهدوء بالرغم من عناية مضي به وفارق الحياة ورأسه على حضن زوجته . وكانت شكواه الوحيدة انه يشعر ببرد في رجليه وجسده وطلب ان يضطجع في الشمس بمواجهة مكة .

وقال مخبري بدهشة :

— ماذا تظن يا أبا سعود ؟ كل الناس في الجهراء يعرفون ان محمد هو الذي أخذ بنا الى العجوز التي طردت منها الروحين الشريرتين . وانتقم هؤلاء الجنيان دخلا جسد محمد المسكين بدلاً من ان يعودا الى عالمها في باطن الأرض . ولم يكن محمد أو زوجته يعرفان ذلك ولو انهما عرفا به لأحضرا العجوز لمساعدتهما .

وحزنت أنا وزوجتي كثيراً على محمد لأنه كان سائساً رائعاً وأميناً الى أبعد الحدود . وبعد انقضاء فترة حزنها اتت مضي لزيارتنا ، وكان وضعها مؤسفاً لأنها هي الاخرى صدّقت قصة الأرواح الشريرة .

وبعد اسبوع واحد من وفاة محمد بلغني ان فتاتين بدويتين قدمتا لزيارتي فوجدتها جالستين على أسفل الدرج الذي ينزل الى الاسطبل . ورأيت معزي متكئاً على أحد الاعمدة وعلى فمه ابتسامة عريضة . ونهضت الفتاتان لتحيتي فلم

أعرفها الى ان قالت احداهما من خلف برقعها :

— « أنا بتا وهذه شقيقتي . لقد جئت لأريك انني استعدت صحتي .

والحقيقة انني دهشت فاستدعيت معزي الذي اقسم انهـا زوجته بتا الذي عادت اليها عافيتها باعجوبـة من عند الله . وسررت سروراً لا حد له وكشفت عن ذراع بتا فوجدتها سمينة مكتنزة باللحم وحاولت ان اطوق معصمها باصبعي ولكنها لم تلتف حولها سوى بوصتين ونصف البوصة ، فضحكت بتا على مـا أفعله وقالت :

— يا ابا سعود انها حقيقة .. انا هي بتا .. معزي لم يستبدلني بامرأة أخرى وهـا أنت ترى انني عدت سمينة كما كنت تعرفني من قبل . وقد عاد الي حليبي بكثرة وسوف أستعيد طفلي عبدالله من عند أهلي .

وحضرت زوجتي بعد قليل فأخذت بتا جانباً ورفعت برقعها عن وجههـا للتـأكد . وأبلغتني زوجتي فيا بعد ان القصة صحيحة وأن بتا عادت كما كنـا نعرفها .

أية اعجوبة حدثت ؟ قبل عشرة أيام فقط رأيتها هيكلاً عظمياً فاقد القوة ظننت ان السل قد نخر عظامها .

وحدث ان كانت الدكتورة غوثري طبيبة شركة نفط الكويت في زيارتنا في ذلك الوقت فهرعت الى الطابق الأعلى واستدعيتها من غرفة الاستقبال قائلاً :

— تعالي وشاهدي هذه الاعجوبة !

وبعـد أن فحصتها أعلنت الدكتورة غوثري ان بتا الصغيرة في حالة جيدة وليس فيها أثر لأي مرض صدري .

حدث كل ذلك ومعزي واقف يبتسم وعلامـات السعادة على وجهه . ولم يكن يقول شيئاً إلا « الحمد لله » ، « الحمد لله » .

ان أشياء كثيرة في الحقيقة تحدث بالجزيرة العربية لا يتصورها عقل .

مستشفى اولكوت التذكاري

نعود الآن الى سنة ١٩٣٩ . في تلك السنة شيد مستشفى اولكوت التذكاري

في نفس المكان الذي كان يقوم عليه مستشفى النساء القديم . وقـــد افتتحه في اوائل الصيف سمو الشيخ أحمد .

وقد كتبت السيدة كالفرلي التي عادت الى اميركا مع زوجها عـــام ١٩٢٩ تقــول :

« لقد عملت السيدة كايت فان سانتفورد اولكوت التي بني المستشفى تخليداً لذكرها سكرتيرة لشؤون الجزيرة العربية في مجلس ادارة ارساليتنا . وقـــد زارت الكويت مرة . وكم كنا نتمنى ان تعيش لترى الخدمة الجلى التي قدمتها لنساء الكويت عبر السنين . ان شعب الكويت لم ير من قبل بناء مثل بناء هـذا المستشفى المؤلف من طابقين من الحديد والاسمنت المسلح . ان قناطر فارسية تدعم شرفاته الواسعة والممرات التي تصل بين غرفه التي مدت اليها شبكات الماء والكهرباء . ويبلغ عدد الاسرة فيه اربعة وثلاثين سريراً باستثناء اسرة الاولاد والأطفـــال .

وقد خدم في هذا المستشفى الى جانب الدكتورة مـــاري بروتز اليسون المسؤولة حالياً عن المستشفى كل من الدكتورة استر بارني والدكتورة روث كراوز .

وظلت الآنسة فان بيليت تحمل كل اعباء العمل الطبي وحدها بعد مغادرتنا طيلة ستة اشهر الى ان وصلت الدكتورة بارني . وعندمـــا لم يكن في المستشفى امرأة طبيبة كان الدكتور ميلري وخلفاؤه الدكتور سكادور وبعده الدكتور نيكرك ونساؤهم يعالجون النساء المريضات .

ومنذ ذهاب الآنسة فان بيلت من الجزيرة العربية بعـــد افتتاح مستشفى اولكوت بوقت قصير ، لم تعد هنالك رئيسة لمرضات . ويعمل مع الدكتورة اليسون حالياً ثلاث ممرضات هنديات حديثات العهد بالمهنـــة وفتاة سورية مسيحية تتدرب على التمريض . وحتى اليوم فان العادات الاسلاميـــة كالزواج المبكر واحتجاب النساء ، تمنع تدريب الفتيات العربيات في الكويت والجزيرة على اعمـــال التمريض . ولكن هناك عشر نساء أميات يعملن كمساعدات أو

خادمات الى جانب فتى تسمح له سنه بالاختلاط بالنساء كان يعمل كاتباً . وحول المكان حيث يجلس لقطع التذاكر اقيم سياج ليمنع ازدحام النساء عليه .

ويسرني ان اسجل هنا في سنة ١٩٥٦ ان مجلس ادارة الارسالية الأميركية وضع خطة لبناء مستشفى فخم للرجال في الكويت . وسيسمى هذا المستشفى « مستشفى ميلري التذكاري » وستبلغ تكاليفه مليونين ونصف المليون من الروبيات وذلك بسبب غلاء مواد البناء في هذه الأيام . ومن الصعب على سلطات الارسالية ان تجمع مثل هذا المبلغ ولذلك فقــد اعطى صاحب السمو الشيخ عبدالله السالم الصباح مثلاً رائعاً في الكرم اذ تبرع بمبلغ محترم . ولكن الآن يحتاج بعد الى مبالغ كبيرة ينتظر ان تجمع من المحسنين والمحسنات في جميع انحاء العالم الذين لن يتورعوا عن البذل في سبيل هذا المشروع الإنساني .

الفصل السابع عشر

الكويت

١٩٣٩ - ١٩٤٢

الحرب العالمية الثانية

نجح هتلر عن طريق الدكتور غروبا سفيره في بغداد في تأسيس حزب للشباب في مدينة الكويت يعرف باسم « الشبيبة » . وباستخدام نفس الطرق والاساليب التي اتبعت في تشيكوسلوفاكيا ، نجح في اشعال ثورة مفاجئة هدفها الإطاحة بسمو الشيخ أحمد الجابر الصباح وإنهاء الحماية البريطانية على الكويت واستبدالها بالعراق على أساس انها دولة مسلمة .

وكان توقيت الحركة سيئاً ففشلت تماماً كما فشلت ثورة رشيد عالي الكيلاني الموالية لهتلر في العراق بعد أن أزهق فيها عدد من الارواح . وقد تم الاستيلاء على مستودع الاسلحة في الكويت فتحرك ابن سعود نحو الحدود الكويتية على رأس قوة كبيرة لمساعدة الشيخ أحمد في إعادة النظام .

وقد عملت الحرب العالمية الثانية على إعادة الكويت الى جانب بريطانيا الامر الذي يؤكد الثقة الكبيرة التي وضعتها حكومة صاحب الجلالة منذ زمن طويل في شخص الشيخ أحمد .

وفي أوائل سنة ١٩٤١ بعد أن احتلت فرقة بريطانيا البصرة أرسلت بطريق الجو من الهند لمجابهة ثورة الكيلاني في العراق ، رحلت شركة نفط الكويت نساء موظفيها الى الهند كإجراء وقائي . ولكن زوجتي رفضت الرحيل شعوراً منها بأنها ستكون ذات فائدة في حال وقوع هجوم جوي على الكويت ، ولأنها فضلت البقاء بين أصدقائها العرب على الهرب . وبقي في الكويت أيضاً جميع نساء الارسالية الاميركية واستمروا في العمل بالمستشفى خلال الحرب .

لقد كان ذلك الوقت عصيباً بالنسبة للجميع ولا سيما بالنسبة للفقراء في المدينة وفي الصحراء ، لان المواد الغذائية والالبسة والادوية فقدت من الاسواق وساد البؤس .

وفي نهاية نيسان سنة ١٩٤١ عندما عين الميجر غالواي الوكيل السياسي في الكويت ضابط ارتباط مع القوات البريطانية التي قدمت مؤخراً إلى العراق ، طلب مني ان أشغل منصب الوكيل السياسي ثانية الى حين تسلم الميجر توم هيكينبوثام مهام هذا المنصب في ١٦ آب من السنة ذاتها .

وفي تلك الفترة تمكنت أنا وزوجتي من الحصول على مسابق حجر مطحنة لاعطائها للبدو الجوعانين في الداخل ليطحنوا عليها الشعير الذي كنا نوزعه عليهم لسد رمقهم ، إذ لم يكن في المدينة في ذلك الوقت أية كمية من طحين الحنطة ، وكان الارز نادراً ووصلت أسعار التمور الى مستوى خيالي .

ولكنه لم يقع في الكويت في تلك الاثناء أي حادث من حوادث الحرب مما أعطانا فرصة ، بالاضافة الى مساعدة المرضى والمحتاجين ، زيادة معلوماتنا عن عرب الصحراء ومساعدتهم في الحصول على الطعام والملابس . وكانت حالة البدو أسوأ بكثير من حالة أهل المدينة .

محمد السيد يعرض قوته

لاحظت قوة آل مره الخارقة في اقتفاء الآثار لأول مرة في حادث وقع في

٢٥ حزيران سنة ١٩٤٠ على حدود الكويت الجنوبية ، كنت وقتها في جـولة تفتيشية على أحد مراكز الحراسة التـابعة لشركة النفط قرب البئر رقم ٤ في برقان .

كان ذلك اليوم قائظاً . ووصلت الى المركز في الساعة العاشرة صباحاً لأجد الحارس محمد بن وقيان من قبيلة عجمان يقوم بالواجب لوحده بينما ذهب الحارسان الآخران الى مركز واره للحصول على المـؤن . واستقبلني محمد فور نزولي من السيارة وقال انه يحضر القهـوة لرجل اشتد عليه المرض وان وصولي جاء في الوقت المناسب .

ومركز الحراسة هذا عبارة عن صريفة من غرفة واحدة لا نوافذ لها بابهـا نحو الجنوب . فدخلت وجلست الى جانب الوجار الذي تصنع عليه القهوة قبالة الباب . وفي الزاوية البعيـدة المظلمة كان شخص مضطجعاً وقد غطى نفسه من أعلى الى أسفل . وقال محمد ان المريض ينتمي الى قبيلة مره وقد وصل في المساء السابق محروراً وطلب ان يأوي الليل هناك ولم يكن محمد يعرف اسم الرجـل ولكنه ظن انه ذاهب الى الكويت يبحث عن عمل عند الشيخ أحمد .

وجلست اتحدث الى محمد حوالي عشرين دقيقة في مسائل تتعلق بواجباتـه وبسلامة المركز بصورة عامة عنـدما وقع نظرنا على اثنين من البدو قادمين من الجنوب احدهما يركب جملاً بني اللون والآخر جمـلاً أبيض اللون . وكنت أنا أراهما بوضوح من المكان الذي كنت اجلس فيه ولكن الرجل المريض لم يكن ليراهما لانه بعيد عن الباب ولأن جدران الصريفة سميكة لا تتيح له رؤية مـا يجري في الخارج . وهذه نقطة مهمة لأن لها تأثيرها على القصة التي نحن بصددها .

وبالتهذيب المعهود برجال الصحراء اناخ البدويان جمليهما الى الأرض على بعـد ماية وخمسين ياردة من الصريفة واخذا يربطان ركبتي الجملين لمنعهما من النهوض . وكان الجملان من أنواع أصيلة سريعة مما يدل على ان الرجلين قطعا مسافة طويلة . ويبدو أنهما من الشيوخ لأن سرجيهـما مصنوعان من قماش زاهي الألوان غالي الثمن .
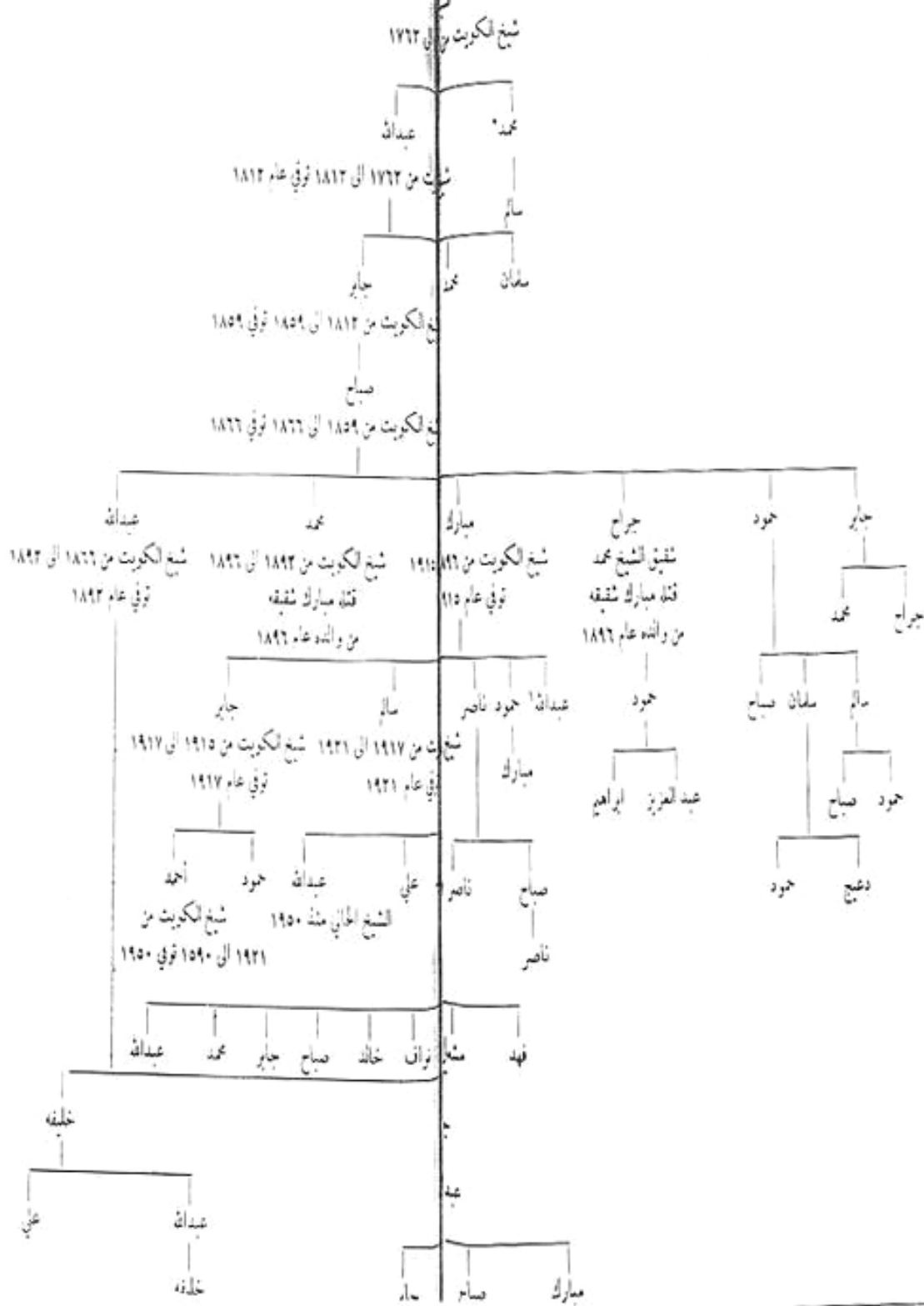
وطلبت من محمد بن وتيان ان يدعو الرجلين لشرب القهوة . وذهب اليهما ولكنه عاد ليأخذ لهما بعض الماء الذي قالا انه كل ما يحتاجان اليه ورفضا ان ينزلا لشرب القهوة . ومما لا شك فيه انهما شاهدا سيارتي قرب الصريفة فتبادر الى ذهنيهما ان رجلاً انكليزياً داخل الصريفة فقررا متابعة سيرهما . وبعد أن شربا الماء الذي قدمه لهما محمد استأنفا السير . وعاد محمد الى الجلوس بجانب الوجار واستأنف حديثه معي . وطوال هذا الوقت لم اتحرك من مكاني كما ان الرجل المريض الملفع بالغطاء لم يتململ قيد شعرة . وجواباً على سؤالي عن هوية الرجلين الغريبين قال محمد انه ليست لديه اية فكرة لان الرجلين رفضا الافصاح بذلك عندما سألهما .

وجلست مع محمد نصف ساعة أخرى تناولت خلالها غداء كنت قد احضرته معي . وعندما انتهيت من تناول الطعام نهضت استعداداً للعودة فما كان من الرجل المريض القابع في الزاوية إلا ان وقف واتجه نحوي للسلام علي بالطريقة المعهودة .

وكان الرجل يبدو مريضاً فعلاً فدعوته للجلوس وشرب القهوة ثم سألته عن حاله فقال :

– لقد فارقتني الحمى وانا أحسن حالاً الآن الحمد لله .

وتحسست معصمه فوجدته بارداً ولكنه شكا على كل حال بأنه يشعر بضعف ودوار .

ويدل مظهره على انه متوسط الطول مربوع القامة له لحية سوداء تمتد الى صدره . وبعد أن شرب القهوة شعر بأنه يستطيع الاسهاب في الحديث فعلمت منه أنه سمع بأن شيخ الكويت بحاجة الى رجل ماهر في اقتفاء الآثار ، وبما انه مرّي يجيد هذه المهنة فقد جاء في طريقه الى الكويت طلباً للعمل . وتبين لي ان اسمه محمد السيد وانه محدث ماهر اذ بدأ يخبرني قصصاً عن قبيلته وعن البلاد التي يعيشون فيها بعيداً في الجنوب .

وأحب الحارس محمد ان يطيل الحديث فاشار بخبث الى انه ربما استطاع

الرجل لكونه من قبيلة مرّة الشهيرة باقتفاء الآثار ، ان يعرف شيئاً عن الغريبين اللذين مرا بالقرب من المـــكان وشربا الماء اثناء نومه . وقال محمد السيد بصورة جدّية :

ـ انني اشك فيما اذا كان بإمكاني ان اعرف اسميهما ولكنني اذا رأيت المكان الذي أقعـدا فيه جمليهما وآثار أقدامهما ، فربمـــا تمكنت من اعطائكم بعض المعلومات .

واشرت الى المكان الذي توقف فيه الرجلان فذهب محمد السيد الى المـــكان لوحده لتفحص الآثار . وقصدت ان لا أسمح للحارس محمد ان يغادر الصريفة . وبعد فحص دقيق طال بعض الوقت عاد محمد السيد وجلس ليشرب المزيـد من القهوة فحذوت حذوه .

وسألته بقولي :

ـ حسناً . هل صادفك الحظ ؟

ـ لا بأس . يستدل من آثار الجمال انها أصيلة واحد منها وضحى (الأبيض) والآخر خضيره (البني) . لقد توجه راكب الوضحى نحو الشمال الغربي باتجـاه الجهراء، وسار الآخر نحو الشمال الشرقي وربما باتجاه فحاحيل على الساحل. وكلا الرجلين من شيوخ الدرجة الثانية في قبيلة بـني هاجر وقد قدما من شبه جزيرة قطر وربما من داخل القطيف . انـني لا أستطيع ان أعرف اسمي الرجلـــين ولكنني اظن انهما يبحثان عن عبد لهما فار وهما يقتفيان آثاره لأنني رأيت على مقربة من المكان الذي توقفا فيه آثار زنجي حافي القدمين مر من هنا خلال الليل وقد منعه خوفه من ان يلجأ الى هذا المـــكان . وكلا الرجلين في مقتبل العمر بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر وكانا متعبين جداً بعد ان قطعا مسافـة اربعماية ميل .

وسألته بدهشة بالغة :

ـ هل لك ما تضيفه على ذلك ؟

ـ لا .. ولكنهما من بني هاجر بكل تأكيد ويحمـــلان بندقيتين من نوع

« موزر » وضعاهما على الأرض وهما يشربان الماء. ومن الخطأ أن أحاول افتراض معرفة اسميها .. ان الله وحده يعرف ذلك .

ودهشت مصدقاً كل ما قاله لانني اعرف هؤلاء القوم . ثم غادرت المكان بعد ان اعطيت اقراصاً من الاسبيرين كانت معي في السيارة لمحمد السيد .

وبعد أربعة أيام ذهبت في الساعة الثامنة صباحاً الى مجلس الشيخ عبدالله المبارك الصباح ، نائب الحاكم لشؤون الأمن العام وشؤون البدو . وفي الأيام التي يشتد فيها الحر يعقد مجلس سموه في الشرفة الواسعة امام مكتبه . وكنت انا قد اتيت لاقدم احتراماتي كما كنت أفعل غالباً . وكان الزائرون في ذلك الصباح كثيرين فالقيت عليهم نظرة سريعة وكان بينهم صديقنا المري ذي اللحية السوداء الطويلة جالساً بين الحرس والخدم على الأرض . وقد رآني هو ايضاً وبعد أن ألقى علي نظرة معرفة أشاح بوجهه .

جلست الى جانب الشيخ عبدالله لمدة عشرين دقيقة عندما قدم الى المجلس رجلان يركبان جملين اصيلين رائعين احدهما ابيض والآخر بني . وبعد ان ربطا جمليهما دخلا المجلس . كانت ملابسهما تدل على انهما من بني هاجر وفي مقتبل العمر ويبدو ان صاحب الجمل الأبيض هو الأكبر سناً . ووقفا باحترام امام الشيخ عبدالله وكأنهما ينتظران السماح لهما بالكلام فحياهما الشيخ عبدالله ورحب بهما وسألهما عما يبتغيانه .

وأجاب الاكبر بقوله :

– يا عبدالله المبارك .. نحن من بني هاجر من اقارب بن شافي شيخنا الاعلى . وقد اتينا من بعيد .. من قطر بلاد بن ثاني . لقد هرب أحد عبيدنا ونحن نقتفي آثاره منذ خمسة عشر يوماً . ذهب اخي للتفتيش عنه في قرية فحاحيل وقرى القصور الاخرى على الساحل بينما ذهبت انا الى الجهراء لأتأكد ان العبد الهارب لم يمر من هناك في طريقه الى البصره . وقد فشلنا حتى الآن في تحديد مكان الرجل او الحصول على اخباره .. لذلك نعتقد انه وصل الى الكويت مدينتكم المضيافة واختبأ فيها . وبدون مساعدتك لا نستطيع ان نفعل شيئاً لذلك

نتوسل الى سموك بكل احترام ان تساعدنا في بحثنا عنه .. اطال الله عمرك .

وكانت القصة مطابقة بالضبط لتلك التي اخبرني اياها محمد السيد في الصريفة بمرقان . وتتطلع الى محمد من بين جميع الرجال واطلق على شفتيه ابتسامة كأنه يقصد بها ان يقول « ألم أقل لك ذلك ؟ »

آثار المخلب

أخبرني الشيخ عبدالله المبارك فيما بعد ان العبد الهارب لم يقبض عليه ، كما انني لم اشاهد محمد السيد ثانية . فبعد ان فشل في الحصول على عمل مع الشيخ أحمد حاكم الكويت حاول ان يلفت نظر الشيخ صباح الناصر الصباح الى مواهبه لكي يستخدمه . وكان الشيخ صباح في ذلك الوقت مخيماً قرب الشاطىء على بعد خمسة اميال الى الجنوب من قرية شعيبه . ولكنه لم يستخدم محمد بل ابقاه معه مدة خمسة أيام ثم أهداه هدية لا بأس بها قبل ان يتخلى عنه .

وابلغني الشيخ صباح فيما بعد ان سائق سيارته شكا في يوم من الايام ان ساعته قد سرقت منه وهو يستحم . كان المد قد انحسر عندما وصل السائق الى الشاطىء فخلع ثيابه ووضعها على الرمل ووضع ساعته فوق الملابس ونزل الى البحر . ولم يلاحظ السائق أحداً اقترب من الشاطىء ولكنه اعترف بأنه لم يكن يراقب باهتمام . ولما خرج من الماء وجد ملابسه على حالها ولكن الساعة كانت مفقودة .

وأعلم السائق الشيخ صباح بالسرقة في الحال وكان محمد السيد موجوداً في الخيمة ولكن احداً لم يطلب نصيحته أو مشورته . ولكنه لاهتمامه بالامر وفضولاً منه انسل بهدوء ونزل الى الشاطىء حيث كانت الملابس قد وضعت على الرمل وتتبع آثار اقدام السائق عندما نزل ليسبح . ومع ان محمد تجول في المكان ليتفحصه ، فانه لم يجد أثراً لأي إنسان آخر في المنطقة والآثار الوحيدة الموجودة هي التي تركها السرطان الموجود بكثرة على الساحل . وهذا السرطان من النوع الصغير وله مخلب اطول بكثير من المخلب الآخر . وهذا السرطان

يعيش في جحور يبني حولها جدراناً من الرمل للحماية على جانب واحد .

وكان أثر أحدثه السرطان يقود نحو المكان الذي وضعت فيه الملابس حيث يشكل عدة دوائر حولها ثم يعود باتجاه عكسي . لم يفكر محمد بهذا في بادىء الأمر وظن ان السائق يكذب وانه فقد ساعته في مكان آخر واختلق هذه القصة لسيده ليحصل منه على ساعة جديدة .

وعاد محمد الى الخيمة قلقاً يفكر بحادث السرقة . وفي صباح اليوم التالي توجه الى نفس المكان على الشاطىء وكان المد قد ارتفع هذه المرة وزالت معه جميع آثار اليوم السابق . فجلس قرب الشاطىء ينتظر انحسار المد .

وبدأ كل سرطان يخرج من حجره ويدبدب على الرمل . ومشى محمد نحوها فتفرقت واختفت في جحورها . وبعد ان تفحص آثارها فترة من الزمن تعرف محمد من بين خمسين أو ستين منها على واحد كان قد رآه قرب الملابس في اليوم السابق . وتتبع ذلك الاثر بدقة مسافة مئة ياردة الى ان وصل الى جحر السرطان فوجد في اسفله ساعة السائق كما هي .

اكد لي الشيخ صباح الناصر ان هذه قصة حقيقية ولكن الشك ظل يخامرني فقمت بتحريات حول هذا الموضوع . وقد اعطاني التأكيد الذي ابحث عنه شخص يدعى علي بن لافي وهو من رعاة العوازم في ١٠ تموز . ولم يكن لهذا الراعي اية علاقة بالشيخ ناصر أو بخيمه ولكن خيمته لم تكن بعيدة عن خيمة الشيخ . وقد مر المرّي وتوقف عنده لتناول العشاء فأخبره القصة مباشرة .

علي العريق لا ينسى

كان في خدمة الملك ابن سعود ثلاثةمن أشهر متتبعي الآثار في قبيلة آل مرّة وهم الاخوة علي ومحمد وسالم العريق . وقد اخبرني قصة تتعلق بهم الشيخ عبيد المتلقم سيد عجمان ومن أقدم اصدقاء الملك ، وذلك في ١٣ آب ١٩٤٣ . وأكد القصة علي العريق في وقت لاحق عندما قدم الى الكويت وتوجه لزيارتي . (٢)

أيام حملة اليمن سنة ١٩٣٤ توجه الشيخ جفران الفقم رئيس فرع السحابة في

(٢) الصهبه

مطير الى الرياض مع فريق من الشيوخ وأتباعهم في زيارتهم السنوية للملك ابن سعود . وكانت هذه الزيارة عادة تتم خلال الشهر السابق لرمضان . وبعد ان يقدم هؤلاء الاحترام والولاء للملك يعودون الى عائلاتهم محملين بالهدايا التقليدية من مال وثياب .

وتناهى الى جفران ذات صباح ان ذلولين من ذلوله(*) سرقا في الليل من قطيعه الصغير الذي كان يرعى خارج الرياض .

وقد وجدت آثار اقدام اللصوص الثلاثة سليمة كما هي مع آثار الجملين .

ولما علم الملك بالقصة أرسل في طلب علي وسالم العريق . وبعد ان تفحصا الآثار انطلقا على جمليهما وتتبعا آثار اللصوص من ارض الخيام في بنبان خارج الرياض الى الرماح . ومن هناك قادتهما الآثار عبر صحراء الدهناء الى السمن حتى وصلا الى جارية سفلى اي مسافة ٢٥٠ ميلا . وهنا تتبعا آثار اللصوص الى أن وصلا الى الخيمة التي كانوا يجلسون فيها مع نسائهم .

وتمكن واحد من اللصوص من الهرب . وقد اعتقل علي وسالم اللصين الآخرين وأوسعاهما ضرباً بعد ان شدا وثاقهما واقتاداهما الى الرياض مع الجملين المسروقين اللذين أعيدا الى جفران القحم . أما اللصان اللذان تبين إنهما من مطير قبيلة جفران فقد أودعا السجن حيث بقيا سنة كاملة قبل ان يطلق سراحهما .

وحدث بعد خمس سنوات في الرياض ان كان علي العريق خارج المسجد بعد انتهاء صلاة الجمعة . وكان بين الخارجين من المسجد شخص غريب على علي ولكنه لما شاهد آثار أقدامه عرف علي انه اللص الذي هرب منه في جارية فألقي القبض عليه وجلد ووضع في السجن حيث توفي بعد فترة من الزمن .

وقد أكد لي علي انه يستطيع ان يتذكر أثر أي رجل او جمل لمدة عشر سنوات ولم يحدث انه أخطأ مرة .

---

* الذلول جمع جمال تستخدم للركب .

رحمة الملك

أخبرني علي العريق القصة التالية :

في خريف سنة ١٩٤١ كان ثلاثة من شيوخ عتيبه عائدين الى مخيمهم بعد أن قاموا بزيارتهم السنوية الاعتيادية للملك في الرياض . ولحق بالشيوخ في الطريق ثلاثة رجال على جمالهم وطلبوا منهم مرافقتهم . ومع ان الشيوخ لم يكونوا يعرفون الأشخاص الثلاثة شخصياً إلا انه كان يبدو انهم من العتبان فرحبوا بهم كرفاق طريق .

وبعد ثلاثة أيام وصل الجميع الى المكان الذي يقصدونه . وبينما كانوا جالسين في الخيمة يشربون القهوة وصل خادمان من خدم الملك وترجلا عن جمليهما . والخادمان هما محمد بن دعوس من آل مرّه وخربوش بن صدحه من عجمان .

وبعد أن دارت القهوة على الجميع وتبودلت التحيات شرح محمد وخربوش للشيوخ الثلاثة كيف انهما تتبعا آثار الرجال الثلاثة الآخرين لأن الملك يطلبهم لعلاقتهما بسرقة جمال حدثت في الرياض منذ مدة قصيرة . واستسلم الرجال الثلاثة تلقائياً وعادا مع محمد وخربوش في طريق الرياض دون مقاومة ودون ان يكبلا .

وتوقف الجميع لقضاء الليل في بقعة موحشة على بعد مايتين وخمسين ميلاً الى الغرب من الرياض . وبعد تناول طعام العشاء استسلم الحارسان للنوم فسرق السجينان منهما بندقيتيهما وأحزمة الذخيرة . ولم يعرف ما اذا كان الحارسان قد استيقظا قبل أن يحاول السجينان الهرب . ولكن الشيء المؤكد هو أن السجينين أجهزا عليهما وقتلاهما ثم عرياهما من ملابسهما وفرا بالجمال الخمسة باتجاه الشمال على أمل ان يصلا الى العراق قبل ان يفتضح الأمر .

ومضت عشرة أيام قبل أن يساور الملك القلق بشأن تأخر محمد وخربوش في العودة فنظم على الفور فريقاً للتفتيش . وجهزت ثلاث سيارات كما ان فريقاً من الرجال أرسل للبحث على الجمال . وكان في كل سيارة عدد من المسلحين ومعهم واحد من مقتفي الآثار من آل مرّه .. فكان علي العريق في السيارة الاولى

واستقل شقيقاه محمد وسالم السيارتين الأخريين .

وجرى البحث ببطء لعدة أيام لأن الباحثين كانوا يتوقفون من وقت لآخر لتفحص الآثار والاسترشاد بهـــا . وأخيراً عثر الفريق على جثتي محمد وخربوش العاريتين . وذبح الرجال خروفاً للعشاء (كنوع من الضحية) وحفروا قبرين للقتيلين ثم قضوا الليل هناك .

ومن هناك اتخذت الآثار اتجاهاً شمالياً ولكنه كان من الصعب تتبعها لأنهـا بعد مضي كل ذلك الوقت أصبحت غير مرئية تقريبـــا . وبعد شهر من البحث الدقيق وصل فريق التفتيش الى قسيم ومن هناك أبرقوا الى الملك يخبرونـــه انهم عثروا على الجثتين وإن السيارات ما زالت تلاحق القتلة شمالاً . وسر الملك لهذه البرقية لأنه لم يكن قد تلقى أيـة اشارة من الباحثين لمدة ستة أسابيع . وبعث الملك بدوره برقيات الى جميع مراكز الحدود يأمرها بالتدقيق في هويات المـارة للعثور على ثلاثة من العتبان معهم خمسة جمال .

وظل المرتيون الثلاثة يتتبعون آثار القتلة الهاربـين دون هوادة الى أن لحقوا بهم في الرخاميه قرب الحدود العراقية . وكان خفر الحدود في ذلك المكان قـد القوا القبض على اثنين من الرجال المطلوبين أمـا الثالث فقد اصيب بطلقة وقتل عندما حاول الفرار . وأبلغ الملك بجميع التفاصيل ثم عـاد الفريق مع السجينين الى الرياض عن طريق السمن وتوقفوا في روضة خريم على الطريق حيث كان يخيم الملك مع عائلته . وعندما وصلت السيارات الى هنـــاك كان الملك في الصيد . وتمكن أحد السجينين بطريقة او بأخرى من ايصال رسالة الى زوجة الملك المحظية الأميرة منيره متوسلاً اليها ان تستخدم نفوذها لدى الملك لانقاذ حياتهما .

وقبل غروب الشمس في اليوم التالي عاد الملك من الصيد موفقـاً إذ اصطاد مع مرافقيه عدة غزلان وكثير من الحبارى . وفي ذلك المساء أتت الاميرة منيره بابنها الصغير بندر واجلسته في حضن والده الملك قائلة كأنما على لسان الطفل : « طلبتك » .

وعرف الملك معنى طلبها فوراً فأجابها في الحال :

نبع عين العبد الكبريتية في منطقة الكويت المحايدة
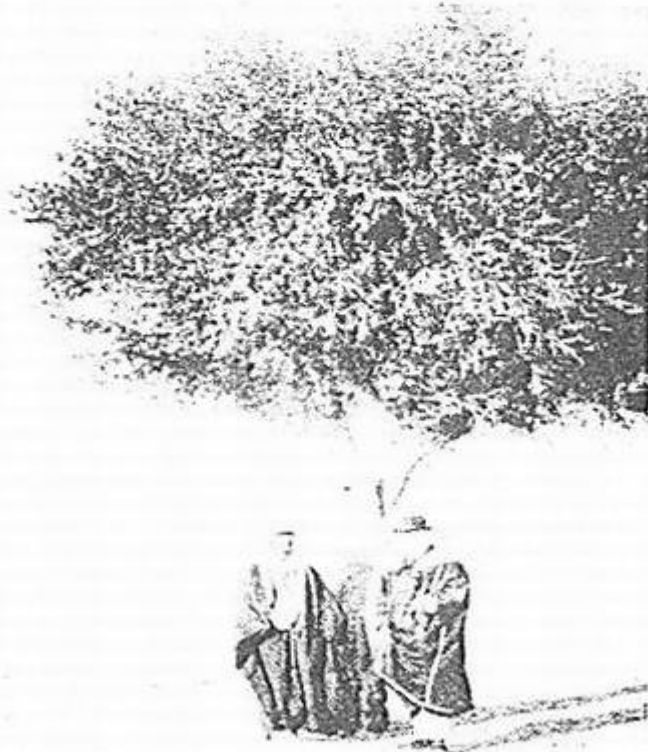
المؤلف وحارسه المرّي فهيد ـ يوم عيد الميلاد ١٩٥٢ واقفان تحت شجرة الدر
الشهيرة التي تدل على مركز آبار النفط في برقان
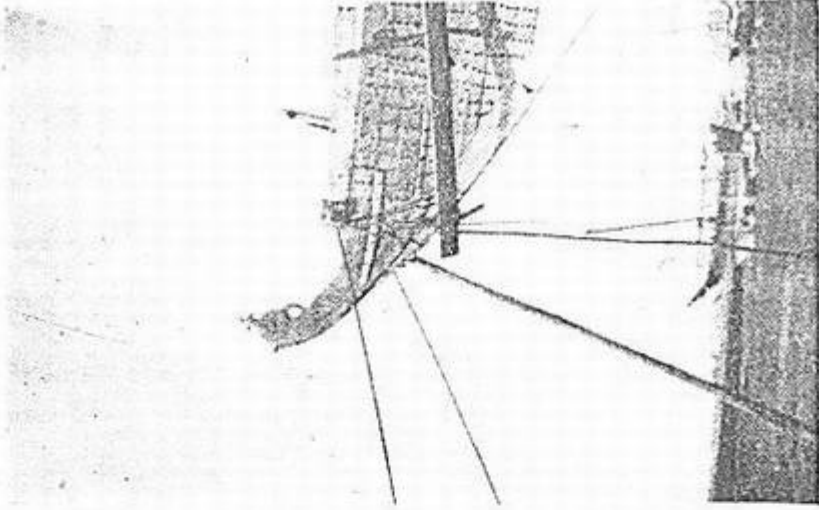
مقدمة سفينة من نوع « الخنسا »
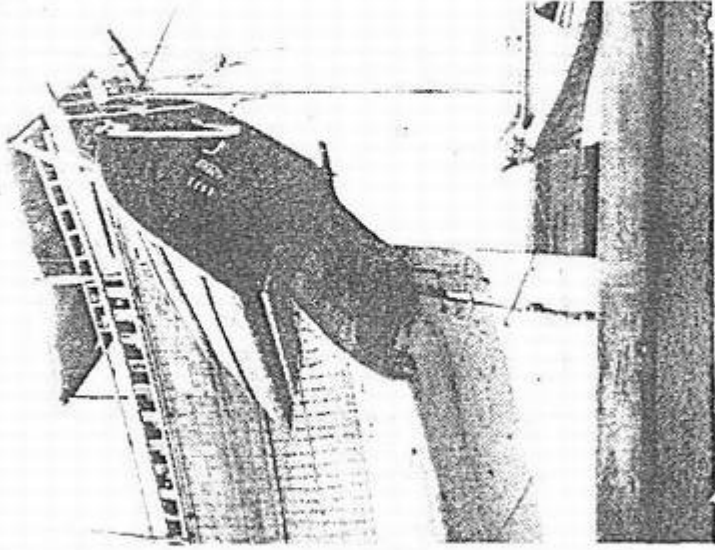
مؤخرة « الخنسا »
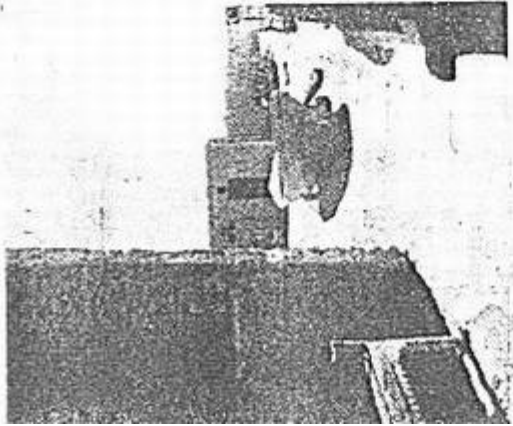
باحة صنع الزوارق الخاصة بالحجي الاطرم

– « الله أعطاهم إياك » .

ثم قبّل ابنه الصغير .

وصدرت الأوامر بعـــد ذلك بنقل الرجلين الى الرياض وإيداعهما السجن .
وفي اليوم التالي صدرت أوامر أخرى بإطلاق سراحهما وإعطاء كل منهما خمساية روبية وبشتين جديدين وجملين للركوب وملابس وارسالهما الى أهلهما . وعـاد الملك فتبرع بمبلغ ألف وخمساية روبية لعائلتي القتيلين محمـد بن دعوس وخويرش ابن صدحه .

ودهش الجميع في ذلك الوقت لهذا التصرف الغريب الذي بـــدر عن الملك ومضى زمن ليس بقليل قبـــل ان يعرف الناس قصة الأميرة منيرة وبندر .. وعندئذ فهم السبب الذي دفع الملك الى مثل هذا القرار .

التحضير للسفر

بقلم فيوليت ديكـــون

السفر هي الكلمة التي تطلق على ذلك الفصل من السنة الذي تهيـأ فيه السفن للسفر الى الهند وافريقيا وزنجبـار . ويأتي هذا الفصل في أوائل الخريف من كل عام . وفي وقت من الأوقات كانت جميع السفن الشراعية من نوع « البغلة » ذات مؤخرة مربعة الشكل ونوافذ خلفية . وكانت السفن من نوع « البوم » محصورة في تلك المتوسطة او الصغيرة الحجم .

في الخامس من أيلول سنة ١٩٤٠ كتبت ما يلي :

« لقد وضعت اللمسات الأخيرة على « البغلة » التي يملكها « النخاده » الثري عبد الوهاب القطامي الزايد قبل ان تغادر الميناء في ارتفاع المد اليوم .

« طيلة الاسبوعين الماضيين كانت الأيدي مشغولة بالعمل فيهـا . فقد كانت بحاجة الى شراع جديد ولذلك كان ما يزيد عن ثلاثين رجلاً يخيطون قطع القماش ببعضها في الطريق الواقع وراء منزل هـــلال المطيري تاجر اللؤلؤ المشهور . في البدايـة يرسم شكل الشراع على الارض بالحبال والمسامير ثم تخاط قطع القماش

ببعضها عليه . وعند المساء وفي الصباح الباكر يجري العمل على ضوء القناديل .
وهذا الشراع الذي يعتبر أكبر الاشرعـــة يعرف باسم « العود » ويحتوي على
خمس وخمسين قطعة قماش .

« أما « البغلة » ذاتها فقد جرى تشحيمها بزيت السمك وهو مـادة كريهة
الرائحة من الهند ، وسدت جميع الثقوب التي ستأتي تحت سطح الماء بالقـــار .
وأخيراً وبعد ان تمت جميع التصليحات الضرورية طلي القسم السفلي منها بطلاء
أبيض مؤلف من دهن ذيل الخروف ونوع من الكلس . وتأتي صفائح الدهن عادة
من الهند بالسفن كل ربيع . ويبلغ ثمن الصفيحة الواحدة عشر روبيات . وتحتاج
البغلة الى ثلاث عشرة صفيحة منها. أما الكلس فيجلب من مكلا أو حضرموت
أو خليج عدن ويقال انه أجود أنواع الكلس لهذا الغرض .

وفوق الجزء المطلي بالابيض مباشرة وتحت ظهر السفينة هنالك خط عرضه
قدمان لم يشحم ولم يطل بالقار. ولن يكمل هذا الجزء إلا عند الوصول الى البصره
وبعد ان تغسل « البغلة » يومياً لمدة اسبوع بمياه شط العرب العذبة .

والساعة الآن الحادية والنصف بعد الظهر. وصل المد الى ذروته وحان الوقت
لخروج « البغلة » من الميناء . لقد رفع علم الكويت الاحمر على مؤخرتها ورفع علم
آخر أصغر على طرف القوس إيذانا بالتحرك . وتوجه عبدالوهاب القطيمي سباحة
نحو المدخل الى العمود الذي ربط به حبل كان البحارة يشدونه . ولم يكن
يرتدي سوى ازار فبدا أبيض اللون وهو واقف على الصخور كالتمثال . لقد كان
جميل الطلعة ببشرته النقية وعينيه الزرقاوين .

« وشقت « البغلة » طريقها بين السفن الكثيرة التي ازدحم بها الميناء . وكانت
تجر وراءها صاريتها الرئيسية التي سترفع في البحر ، وزورقاً صغيراً .

« واعترض طريقها قوس طويل لسفينة من نوع « البوم » فقفز اليها اثنان من
بحارة « البغلة » ودفعاها قليلاً الى الوراء . وتهادت « البغلة » ببطء وكان صاحبها
يعطي التعليمات ويلوح بيديه الى ان انتهت من عبور المدخل الضيق . وعندمـا
غادرت مدخـل الميناء قفز عدة أولاد كانوا يجلسـون على جدار الميناء الى البحر

وتعلقوا بصاريتها. وكان غيرهم من الأولاد يجلسون عند مؤخرة « البغلة » . وفي سفينة كبيرة كهذه تقسم مؤخرتها قسمين قسم فيه غرفة ذات نافذة والقسم الآخر مخصص للمتقفات والمرحاض وله نافذة ايضاً .

«والآن رفعت صاريتها الصغرى ومع انه لم تكن توجد نسمات في تلك اللحظة إلا ان السفينة انحرفت جانبياً مع التيار. واخذ الأولاد يقفزون الواحد بعد الآخر من مؤخرة السفينة الى الماء وايديهم مرفوعة في الهواء وتسلق بعضهم جدار الميناء وساروا على صخور الشاطىء وكأنهم جرذان الماء . اما الذين ظلوا معلقين بالصارية فقد نزلوا الى البحر بعد لحق الريح بشراع « البغلة » ودفعها بسرعة الى داخل البحر . اما عبدالوهاب فقد نزل من مكانه وربما سبح الى الشاطىء أو الى زورق قريب استقله نحو الشاطىء .

« وستبقى «البغلة» راسية لخمسة أو ستة أيام في بندر الشويخ وهو ميناء امين للزوارق على بعد ميلين الى الغرب من مدينة الكويت في الوقت الذي يكون البحارة فيه يشترون حاجياتهم ويدبرون أمورهم قبل الابحار الى البصرة. ويأخذ كل بحار معه ثماني « دشاديش » قبل السفر لأنه سيبقى بعيداً مدة ثمانية أو تسعة أشهر . واليوم يعطى البحارة سلفة لاعالة اسرهم اثناء غيابهم ويختلف المبلغ ولكنه يبلغ على العموم ٦٠ روبية للرجل الواحد .

« في البصره تحمل « البغلة » بالتمور ثم تبدأ رحلتها الطويلة . اما وقد مضى على بنائها مدة خمس وثلاثين سنة فهي تحمل الفين وخمسماية كيس من البضاعة وطاقماً من البحارة عدده ٢٥ رجلاً – أي حسب القاعدة رجلاً واحداً لكل ماية كيس. ويبلغ مجموع ما تجنيه هذه الرحلة حوالي عشرة آلاف روبية. ويبلغ مجموع رسوم الميناء وتكاليف مؤن البحارة حوالي الفي روبية . والباقي – أي ثمانية آلاف روبية – يذهب نصفه للبحارة والنصف الآخر يعتبر ربحاً بعد اقتطاع اية تكاليف لاصلاح السفينة بما في ذلك ثمن الحبال أو الاشرعة الجديدة التي تتطلبها السفينة . والأربعة آلاف روبية التي يتقاضاها البحارة تقسم الى ثلاثين حصة بينما يخصص الربح للقبطان والى اشخاص معينين من البحارة .

ويجري التقسيم كما يلي :

	مبلغ البحارة	الربح
(١) القبطان	حصة واحدة	٣ حصص
(٢) السكان (المرشد)	حصة ونصف	حصة ونصف
(٣) استاذ (ملاح)	حصة ونصف	حصة ونصف أو اثنتين
(٤) معلم	حصتان	
(٥) سيرانغ رقم ١	حصتان	
(٦) سيرانغ رقم ٢	حصة ونصف	
(٧) طباخ	حصة ونصف	ربع حصة
(٨) البحارة (عددهم ١٩ رجلا)	حصة لكل منهم	

« واذا اعطي البحارة سلفات وهم في احد الموانىء — اذا كانت الرحلة طويلة تعطى السلفة في بومباي أو زنجبار أو موازمبيق — يحسم المبلغ من الحصة النهائية . اما الاعمال البطولية التي يبديها أحد البحارة فيكافأ عليها بربع حصة أو نصف حصة اضافية .

« لقد شعرت ببعض الحزن لأن هذه السفينة الجميلة عادت الى البحر مرة ثانية . فلقد عشت قريباً منهم جميعاً وأعرفهم شخصياً واحداً واحداً وتظهر في الميناء مشاعر الود عندما يعودون من رحلاتهم الطويلة ويتكرر ذلك سنة بعد سنة وهم في نفس الموقع . ولربما لن تعود « بغلة » عبد الوهاب وهذه رحلة الوداع . فكلما هبت العواصف في الخريف والشتاء اشعر بقلق نحوهم . ويكون الميناء في ذلك الوقت خالياً إلا من بعض زوارق الصيد العتيقة .

« مرت سنة من الزمان وعادت « بغلة » عبد الوهاب سالمة الى الكويت في أوائل الصيف . اما عبد الوهاب فاصبح يملك اليوم أكبر « بوم » في الكويت تستطيع استيعاب خمسة آلاف وخمسة أكياس. ويقال ان هذا النوع من السفينة يتسع لحمولة أكبر مما تستطيع البغلة نقله وهي اسرع لأن مؤخرتها مستطيلة دقيقة الراس لذلك تعتبر افضل للملاحة لا سيما في البحار العالية . اما مقدمتها فطويلة

مستقيمة طلي طرفها باللون الاسود ورسمت فيه حلقة بيضاء وعلى عكس «البغلة» فهي ليست فيها نوافذ عند المؤخرة .

«ووعدني عبدالوهاب ان يريني « بومه » الجديدة التي اسماهـا « الضو » ، قبل ان تنزل الى الميناء ولذلك هيأت نفسي لهذه المناسبة في صباح الثـاني من ايلول سنة ۱۹٤۱ . ولما كان المد قد انحسر فقد لبست بنطلوناً ضيقاً وحـذاء قديماً قبل ان انزل الى رمال الميناء الموحلة حيث كانت السفينة . كان البحارة ناشطين في العمل بها وينشدون الاغاني وهم يطلون القسم الذي سينزل تحت الماء باللون الأبيض . وعلى مسافة منهم كان آخرون يغلون في وعاء كبير على النـار دهن الخروف مع الكلس لاستخدامه كطلاء كما ذكرت سابقاً .

« وبينما كنت اراقبهم يعملون جاء عبدالوهاب من خلفي وحياني وقال :

– هذا اليوم سيء لقد بدأ المد في الارتفاع . انني سآخـذك « بالمشوح » (زورق تجذيف) في يوم جميل عندما تكون السفينة مستعدة للإقلاع نحـو البصرة .. ان ذلك افضل بكثير .

وكانت مياه المد بلون الحبر بسبب كثرة الاقدام المتحركة في الوحل الاسود. وبدأت هذه المياه تغمر السلم المربوط من قمته الى جانب السفينة بحبل. وشعرت بخيبة أمل .

وقلت له :

– لقد لبست هذه الملابس خصيصاً يا عبدالوهـاب لأتمكن من تسلق السلم بسهولة . ولا تهمني المياه الموحلة لأن حذائي قديم لا اخاف عليه من التلف .

واصدر اوامره لأحد الرجال الذين كانوا يعملون في طلاء جانب السفينة ان يرتب الأمر . ومع ان الرجل كانت يده اليمنى مغطسة الى مـا فوق المعصم بالدهن والكلس فقد ذهب واحضر جذعاً من الخشب ووضعه عند قـدم السلم عبرنا عليه الى السلم ومنه الى السفينة . لقد كانت رائعة بالفعل وكان ظهرها لا يزال مغطى . وتسلقنا سلماً آخر الى « النيم » حيث شرح لي عبد الوهاب جميع التفاصيل .

وقال لي عبد الوهاب مشيراً الى مكان على السطح طوله ثمانية أقدام وعرضه قدمان : هذا هو مقعدي .

ثم دلني على مقعد الملاح وراء المقود في وسط السفينة وقال :

– هنا أمـام مقعد الملاح مباشرة نضع البوصلة ونضع تحتها مصباحاً لليل . هذان هما العمودان اللذان يدلى منهما « الكعيت » (زورق صغير) وهنـاك على الظهر قرب مقعدي نضع « المشوح » وأمامه يوجد خزانان للماء العذب ، واحد من كل جهة .

وأخذنا نتجول على ظهر السفينة باتجاه القوس .

– هذا هو الصندوق المغلف بالقصدير الذي يطهي فيه الطباخ الطعام ووراءه يوجد « الكشتيل » (برج المراقبة) .

وتسلقت القوس وسألت عن اسم قطعـة الخشب التي يوجد فيهـا دولاب خشبي .

– هذه هي « الفخ » أو « البلوله » التي يدلى منها حبل المرساة . أمـا الآن فيجب ان ترى غرفتنا الرائعة التي لا يستخدمها سوى ركاب خصوصيين – لقد احتلها في الرحلة الماضية ابن الإمام يحيى إمام اليمن .

وتوجهنا الى مؤخرة السفينة مرة ثانية حيث نزلنا سلماً منحدراً من جهـة الميناء . وعند أقدام السلم يقع باب الغرفة المربعة التي يبلغ ضلعها ١٢ قدماً والتي كانت ملأى بالأشرعة والحبال وقطع الحديد . وكان في سقف الغرفة منفذان زجاجيان للنور لأنه لم يكن فيها أي نافذة من أي نوع . وبعد ان اعتاد نظري على الضوء الخافت رأيت كتلاً كثيرة من الجبزان والصراصير السمينة على الحائط .

وصرخت بدهشة : صراصير !

وأجابني عبد الوهاب بقوله : لا بدّ .. يوجد جرذان أيضاً .

إذن هذه هي الغرفة التي يعتز بها !

وأضاف قائلاً : بعض النخـاده لديهم غرف نظيفة ذات جدران مطليـة ولكنني شخصياً لا اهتم لهذه الأمور .

وكانت أبواب المرحاض والمغسلة الملاصقين للغرفـــة مثبتة بسلسلة وقفل . وقد أرسل أحد البحارة على عجل الى أسفل ليأتي بالمفاتيح فغاب لحظة ثم عـاد حاملا عدة مفاتيح . وأدير مفتاح باب المرحاض لكنه لم ينفتح لأن المرحاض كان مليئاً بجميع أنواع القطع الخاصة بالسفينة وكذلك كانت المغسلة ولم أستطع أن أرى شيئاً في الداخل .

وقال عبد الوهاب : هذه يستخدمها فقط النساء وكبار الركاب .

ولم أستطع ان أتصور نفسي استخدم مثل هذه المنتفعات في أيـــة رحلة . ويبدو أنه لا يوجد مكان آخر في السفينة لحفظ الأشرعـــة والقطع الأخرى فحشرت في المرحاض والمغسلة .

إن الصواري الكبرى لم توضع في مراكزها ولكن « العبد » الصاريـــة القصيرة التي تدعم الصارية الرئيسية كانت تقف هناك وكأنها اقتطعت مسافة ثمانية أقدام من ظهر السفينة . ومشى عبد الوهاب على القاعدة عبر الحواجز من جهة الى جهة ليشرح لي كيف توضع الصارية الرئيسيـة في موضعها والمكان الذي ينطل منه الماء الراكد في دومس السفينة الى الخارج . ويبدو ان كل لوح خشب في السفينة وكل قطعة لها اسم معين ومع انه اخبرني عدداً منها لكنه بقي الكثير الكثير . وفيما يلي بعض الملاحظات التي دونتها في حينه :

الاشرعة

للصارية الرئيسية	عدد قطع القماش
العود	٥٥
السفدره	٤٩
النكيت	٣٦
للصارية الثانية	
غالومي العود أو غالومي الكبير	٣٦
غالومي الصغير	٢٦

شراع مقدم السفينة ٢٣

ويبلغ عرض كل شراع من هذه الاشرعة ١٨ بوصة .

الحبال

١ — امار مولي	١٢ بوصة
٢ — امار شركي	١٠ بوصات
٣ — بريدون	٥ بوصات .

تستخدم الحبال للارساء في الرمل او الوحل اما حيث توجد الصخور فتستخدم السلاسل (الصناجل) .

وفي هذه الاثناء كان المد قد ارتفع اكثر بحيث انه غمر السلم على ارتفاع قدمين من الأرض . وسبقني عبد الوهاب في النزول وأحضر عدة ألواح من الخشب لأتمكن من النزول دون ان تبتل قدماي بالماء :

وقلت له مودعة :

— رحلة طيبة وحظاً سعيداً يا عبد الوهاب . اعادك الله سالماً .

وخرجت « الضو » بابهة عظيمة ذلك المساء بهدوء ودون ضوضاء وجرت الى البحر بواسطة زورق بخاري الى مرساها . وابحرت في ليل ٢١ ايلول .

وعادت في أواسط حزيران متعبة بعد رحلة طويلة وقد نفذ اليها الماء .

وضع السفينة في المرسى

بقلم فيوليت ديكسون

وكتبت في ذلك الوقت ما يلي :

ظهر اليوم عندما يرتفع المد ستنزل « الضو » الى الميناء . وهي الآن راسية على بعد ميل من الشاطىء وقد أنزلت صاريتها الرئيسية ويرفرف العلمان فوق مؤخرتها وعلى القوس .

« وعندما تعطى الاشارة ترفع الأشرعة وتسحب المراسي الى ما فوق الماء

ثم تبدأ السفينة بالتحرك . ويبدأ البحارة عندئذ قرع الطبول ببطء في البداية ثم تصبح قرعات الطبول أعنف وأعلى كلما اقتربت من الميناء يرافقها الغناء والتصفيق. والآن يهب نسيم عليل . ومع دخولها الميناء بدأ البحارة واحداً تلو الآخر يقفزون منها الى البحر أو يسبحون الى « النقمة » (جدار الميناء) حيث يشدون الحبال . وتنزل الأشرعة فتتهادى ببطء في مكانها « بالنقمة » وتسكت الطبول برهة ريثما يفرغ البحارة من فك الأشرعة . ويتوقف الغناء أيضاً ليحل محله نشيد « هيلا هولا » الذي يطلقه البحارة وهم يشدون الحبال لطرح المراسي في الماء .

« وتوافد الأولاد بزوارقهم من كل مكان للاستمتاع بالمشهد وهم يحومون حول مؤخرة السفينة . المد لا يزال يرتفع . وقبل ان تدار ستوضع في المكان الذي ستقضي فيه أشهر الصيف من كل سنة . كل شيء هادىء الآن على ظهر السفينة وقد انشغل البحارة في تثبيت « الفرمان » (العصا التي تحمل الشراع) في وسط السفينة ، وفي ارخاء الحبال استعداد لخفض الصارية . وتحنى الصارية بهدوء نحو المؤخرة ففي البداية تجر بحبال تعمل من مؤخرة السفينة ثم تخفض بواسطة حبال تعمل من القوس الى ان تستريح على سطح الغرفة . ومن هناك توضع في وضعها الأخير بأن تلقى على طول السفينة — قاعدتها على القوس ورأسها على سطح الغرفة — وتبقى هناك . ثم تطلى بزيت السمك .

« ان الاهتمام الزائد الذي تلقاه هذه المراكب لحمايتها من أشعة الشمس الحامية طيلة شهرين لأكبر دليل على مدى حب أصحابها لها بنفس الطريقة التي يحب فيها البدوي جمله . انها ضمانة حياته ومصدر عيشه . وتنصب على ارتفاع اربعة خيمة فوق ظهر السفينة من حصر مصنوعة من أوراق البردي تمتد من مقدمة السفينة الى مؤخرتها . أما الصواري والفرمان فتلف بحصر مماثلة وتوضع على الشاطىء . وتطلى السلاسل والمراسي بالقار وتوضع في مكانها بدقة. وتعلق حصر مصنوعة من الباف جوز الهند حول جوانب السفينة لحمايتها من حرارة الشمس الشديدة .

وتسند السفينة بأربع دعامات قوية من كل جهة لمنعها من التأرجح والاهتزاز اثناء انحسار المد .

وقد صادرت حكومة الهند « الضو » سنة ١٩٤٣ لانها تعاطت التسهريب . ويسرني ان أذكر هنا ان عبد الوهاب لم يعد قبطانها .

وأخبر الشيخ أحمد حاكم الكويت مرة زوجي ان كلمة « الضو » لم تكن معروفة للعرب وقد اكتسبت معنى تاريخيـــاً بسبب الهجوم الذي تعرضت له الكويت من قبل بني كعب في أيام مريم حسين أمرت خمس « ضوى » كبيرة .

وعلم زوجي من الحاكم الحالي سمـــو الشيخ عبدالله السالم بعد استفسارات أخرى ان الكلمة لم تكن معروفة في الخليج الفارسي ولكنه اكتشف ان الذين يركبون البحر من أهالي اليمن كانوا يستخدمونها أحياناً . وقد حصل سموه على هذه المعلومات من بعض اليمنيين الذين كانوا في الكويت . وأخبره زوجي أن هنالك لفظة فارسية تنطق « ضويد » ومعناها سريع ، وانه من المحتمل ان يكون بنو كعب قد اشتقوا كلمة « ضو » منها دلالة على سرعة الزورق . وقال سموه إنه ربما كان ذلك صحيحاً .

والى جانب السفن الكويتية تشاهد احياناً بعض السفن الأجنبية راسية في الميناء خلال الصيف ومنها مثلاً :

١ — « عبري » من صيهوت (١) في حضرموت وهي سفينة ذات صاريتين بارزة المقدمة والمؤخرة .

٢ — « الزروق » او « الزروقة » من جيزان او قيزان في اليمن وهي سفينة ذات صاريتين بارزة المقدمة والمؤخرة . وتطلى مؤخرتها بألوان زاهية .

٣ — « السمبوق » من المكلا وعدن وهي تختلف قليلاً في جسمها ومؤخرتها عن تلك التي تصنع في الكويت لصيد اللؤلؤ ولكنها أكبر . وتطلى جوانبـــها عادة بخطوط من الأزرق من الأبيض .

٤ — « النبوش » وهو زورق صغير مرفق بسمبوق المكلا ويكون لها بمثابة المشوح للبوم . ويمتاز هذا الزورق بانه يخاط ببعضه البعض بالحبال ولا تستخدم

(١) سيحوت

المسامير في بنائه . وله مقدمة ومؤخرة بارزتان .

٥ — « المنجي » من بومباي وهي سفينة ذات صاريتين وقوسها يشبه قوس بلم كبير كالذي يستخدم في أنهر العراق أما مؤخرتها فتشبه مؤخرة « الجليبوت» الكويتي . وتسير هذه السفن عادة بين بومباي وكراتشي وكاتياوار .

٦ — « البدن » أو «البدني » من مسقط وعمان وهي سفينة شراعية متوسطة الحجم وذات صارية واحدة .

٧ — « البقره » من الساحل الجنوبي وعمان وهي سفينة لها قوس بارز حاد وصارية واحدة .((انتهى حديث زوجها ديكسون))

انقاض مدينة قديمة

في أوائل نيسان سنة ١٩٤٢ دعيت وزوجتي لزيارة نائب رئيس شركة النفط العربية الأميركية ومديرها العام في الظهران . فسافرنا بسيارتين برفقة سالم المزين ومحمد بن طاهوس من عجمان . وكنت أقود سيارتي بنفسي وتصرفت كمرشد . وكان أثناء وجودي في الظهران ان أخبرني القصة التالية الأمير محمد الماضي من مدينة الخبر القريبة .

قال الأمير محمد :

— « منذ سنة أو سنتين كان الملك متوجهاً لقضاء عمل في منطقة نائية على طريق مكة — الرياض . وكانت معه سيارة واحدة اما السيارات المرافقة فقد أمرت بان تتبعه فيما بعد .

« وحدث انغرقت عجلات سيارة الملك بالرمل فنزل منها واستراح في ظل شجيرة « غرطا » فيما أخذ مرافقوه يحاولون ان يخرجوا السيارة من الرمل .

« وتوجه بدوي عابر سبيل نحو الملك المسترخي في الظل وسأله مـا اذا كان الامام قد مر من هناك او انه يحتمل ان يمر في ذلك اليوم . ولما سأله الملك عن سر لهفته لمعرفة ذلك اجابه الرجل بانه يود مقابلة الامام الذي يمتدحه جميع الرجال والذي يقال عنه انه يغدق العطاء على السائلين .

« وأضاف البدوي قائلاً ان الملك يعطي قليلاً للأشخاص الذين يقابلونه وسط جمهور من الناس ولكنه عندما يقابل الفقراء في الخلاء يعطيهم كثيراً ويقال انه يعطيهم خمسة وعشرين ريالاً وأحياناً ثلاثين ريالاً .

« وأجابه الملك قائلاً : يا صديقي اذا كنت تصر على معرفة الحقيقة فان الامام سبقنا . أما نحن الذين ترانا هنا فلسنا سوى خدامه وسنلحق به حالما نخلص من هذه الورطة .

« وقال له أيضاً انه أي الملك لكونه مسلماً تقياً يخاف الله ويرغب في عمل الصالحات فانه سيعطيه خمسة وعشرين ريالاً من جيبه ومبلغاً مماثلا باسم الملك الذي يعمل في خدمته .

« وأشرق وجه البدوي فجأة ثم أمسك بيد الملك وانحنى وقبله في أنفه وقال : السلام عليكم يا عبدالعزيز ... الآن عرفت انني أخاطب الامام نفسه !

وبفضل نائب رئيس شركة النفط العربية الاميركية ومديرها العام تمكنا في طريق عودتنا من الظهران من زيارة جبل البحري في جبيل وأنقاض مدينة ثاج القديمة في وادي المياه بأواسط الاحساء . وقد تم ذلك بفضل خدمات مرشدهم العجماني خميس بن رمضان الذي رافقنا وأعادنا سالمين الى الكويت .

وجبل البحري هي تلة من اثنتين قرب مدينة جبيل الساحلية الصغيرة والمعروفة بين العرب باسم عينين . وللبدو هناك حكايات كثيرة عن وجود كنز ثمين مخبأ في باطن جبل البحري . ووجدنا هناك صخرة كبيرة ملساء نصبت عمودياً حفر عليها بعض الكلام . ولما تقدمنا لدراسة الكلام المحفور على الصخرة وجدنا إنه من الصعب رؤيته واستنساخه لأن صخرة كبيرة قد سقطت فوقه من الأعلى ويقال ان الكلمات الآتية محفورة على الصخرة :

من الجبل البحري
الى الجبل البري
حمّل سبعة جمال
في سبعة أيام

امانة الله واحدة .

وفوق هذا الكلام المحفور جيداً في الصخرة يوجد ثقب مربـــع ضلعه ثماني عشرة بوصة وينتهي بثقب بحجم قطعة نقود صغيرة. ويقولون انه يمكن الحصول على قطن أو صوف مطيب من الثقب الداخلي بواسطة قضيب حديدي رفيع أو بواسطة سلك طوله قدمان معقوف الطرف .

وبدل ان نسلك الطريق القصيرة المباشرة الى الكويت عبر أبو حدريه لدى مغادرتنا جبيل، اتجهنا غرباً وسلكنا طريق الرياض الذي يقطع صحراء الدهنائه في أم عقلة أو معقلة كما تسمى عادة .

وأول واحدة صادفناها هي الهنئات حيث تقيم هجرة للاخوان من قبيلة العوازم . والى غرب القرية كانت تبدو آثار انقـــاض وكانت الآبار مبنية من حجارة كبيرة مقطوعة جيدة تدل على حضارة قديمة . ولاحت لنـــا في البعيد باتجاه الجنوب الغربي تلة غريبة مسطحة الرأس ومربعـة الشكل تقريباً ، اخبرنا مرشدنا بأنها تدعى القويديات وهي تبعد أربعة اميال الى شمال غربي ثاج .

كان الوقت قصيراً فلم نمكث طويلاً في الهنئات . ووصلنا الى ثاج في الخامسة والربع مساء فكان لدينـا ثلاثة أرباع الساعة نشاهد فيها المكان قبـــل غروب الشمس . وفيما كان الخدام والسواقون ينصبون الخيام بالقرب من بئر في حقل من الشعير ، تجولنا نحن بين الأنقاض .

وفي ثاج أيضاً تقيم هجرة للاخوان من العوازم . وكانت غالبية البيوت التي شيد بعضها بحجارة من الانقاض والقسم الآخر بني من الطين مهجورة في ذلـــك الوقت من السنة لأن أصحابها لا يقطنونها إلا في الصيف. ولكن بعض المزارعين يقيمون هنالك بصورة دائمة ويزرعون بعض المواسم .

لقد بنيت القرية على حافة سبخة كبيرة ولكن الانقاض تتعدى القريـة الى الشرق وتغطي مساحة قدرها ميل مربع . وعلى سلسلة تلال واطئة الى الجنوب الشرقي عبر منخفض فيه بئر أو بئران كانت هناك عدة مرتفعات صغيرة قـال مرشدنا انها تضم مزيداً من الانقاض ولكننا لم نزرها .

كانت الاواني الخزفية المحطمة في كل مكان . وكانت كميات من هـذا الحطام تغطي أربعة تلال الى الشمال الشرقي من المدينة . ويبلغ ارتفاع هذه التلال حوالي اربعين قدماً وربما كانت قبوراً لشخصيات مهمة أو أماكن لتقديم التضحيات .

وكان واضحاً ان بعض اجزاء القرية هي بقايا مدينة قديمة . امـا البعض الآخر فقد شيد بحجارة جمعت من الانقاض . كانت الاطارات المغلقة والعاريـة تشكل جدران المنازل اما الجدران التي يبلغ ارتفاعها أربعة اقدام عند طرف القرية فكانت بقايا جدران اساسية . ومن الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وفي خط يشكل زاوية قائمة ليسير في محاذاة وادي المياه توجد اساسات سور طويل قديم سماكته ٢٠ قدماً وحوله بقايا خنادق للتحصين . وداخل هـذه الحدود الاصلية للمدينة توجد اساسات عـدة منازل انتثرت حولها حطام أوعيـة خزفية .

والى جنوب القرية كان هناك مـا يبدو انـه قبور . وكانت تظهر قرب السطح مداميك سميكة من الحجارة المنحوتة تشكل كل ثلاثة منها قبراً في بعض الاحيان . وفي اماكن أخرى شاهدنا حجرين فقط . وهناك ايضاً رأينا اطاراً كبيرا طوله خمسة اقدام نحت جيداً ووضع في مكانـه بطريقة هندسية . ومن احدى الجهات وعلى مسافة قدم من القمة حفر فيه ثقب عرضه ثلاث بوصات مما يدل ان الاطار وضع في مكانه بواسطة حبال ادخلت في هذا الثقب . ولم تكن عليه اية نقوش كما اننا لم نجد نقوشاً على أي حجر آخر .

وشاهدنا في جدران المنازل قطعاً رائعة من الحجارة وضعت افقياً مما يعني ان اية نقوش عليها اصبحت مغطاة . وكانت جدران الحدائـق وحجارة الآبار في شمال شرقي القرية منحوتة في معظمها . وتجر الميـاه من الآبار بواسطة الحمير وكانت هنالك مقبرة صغيرة في الوادي الى شمال شرقي القرية .

ولم نلتقط اية ادوات صوانية من بين الانقاض . وكانت الاواني الخزفيـة المحطمة المنثورة هنا وهناك ذات الوان مختلفة منها الأحمر القاتم المائل الى السواد والرمادي القاتم والاحمر الفاتح والاحمر مع لمعة من الداخل بلون الزبدة او لمعة

سوداء من جهة واحدة فقط . وكانت هنالك قطع من قوارير كبيرة ذات زخارف مماثلة عند الرأس . واسترعى انتباهنا شيئان مربعا الشكل لكل منهما اربعة قوائم قصيرة اظن انها كانت تستخدم لحرق البخور فيهـا . وقد عثرنا عليهما على مرتفعين بجانب خيامنا . وكان احدهما من الخزف الاحمر المائل إلى السواد ابيض اللون من الداخل ولا توجد عليه أية زخارف . اما الآخر فكان محطماً وهو من الخزف الأحمر عليه رسوم حول الرأس وعلى القوائم . وعثرنا بين الانقاض ايضاً على عدة قطع صغيرة من المعدن اصبحت خضراء اللون مع مرور الزمن . ووجدنا على مرتفع بجانب خيمتنا رأس فأس من الحجر وخرزاً حجرياً .

ولم نحاول دخول القرية لأن أهلها قوم متطرفون . ونظراً لضيق الوقت لم نتمكن من تفحص الأماكن المحيطة بها بدقة . وعلى كل حال لا يستطيع أحد الحصول على ترخيص للقيام بحفريات بين الانقاض في المملكة السعودية ولكن مجرد حفر بسيط بين المرتفعات من شأنه ان يكشف اسرار ثاج .

وبعد مغادرتنا المكان توقفنا قليلاً عند التلة المسطحة المسماة القويسديات ولكننا لم نتسلق الى قمتها . ويبلغ ارتفاعها تقريباً ثلاثمائة قدم ويبلغ طولها حوالي اربعمائة ياردة . والانقاض الوحيدة الظاهرة هناك هي بقايا سور ارتفاعه اربعة او خمسة اقدام شيد عند منتصف الطريق في جانب التلة . ويبدو ان التلة نفسها كانت في يوم من الأيام مركزاً للمراقبة يحمي المسالك الشمالية الى مدينة ثاج ، وإن المكان المحاط بالسور كان ملجأ محصناً تقاد اليه قطعان الغنم والماعز عندما يحدق بها الخطر .

جزر العصافير

بقلم فيوليت ديكسون

سألت ابراهيم الفوداري وهو صياد سمك يعمل حارساً للمنارة في جزيرة مكان عن أفضل وقت لزيارة جزيرة عوحه (1) لأنني كنت أريد ان أرى الطيور

تمشعش هناك . فأخبرني ان اولاده زاروا عوحه في السنة الماضية (١٩٤١) في الثالث والعشرين من ربيع ثاني – وهو الشهر الرابع في السنة الهجرية – وجمعوا حوالي ١٥٠ بيضة باعوها في اسواق الكويت .

وقال لي : ان الثريا تظهر في الخامس والعشرين من الشهر ، فإذا قدمت في الواحد والعشرين يكون الطقس مناسباً .

وطلبت منه ان يأتي إليّ مرة ثانية قبل عدة أيام من موعد الرحلة لكي نضع الترتيبات الأخيرة . وجاء الرجل في الخامس من أيار وقال انه سمع ان أولاده سيتوجهون الى عوحه لجمع البيوض ولكنه منعهم من ذلك حتى يتسنى للخاتون (أي السيدة ويقصدني أنا) ان تذهب معهم . ولذلك اقترح القيام بالرحلة في وقت مبكر .

ووضعنا الخطة على أساس أن نغادر الكويت في ساعة مبكرة من صباح الخميس في السابع من أيار . وقررت أن أصطحب معي خادمنا البدوي مسالم المزين الذي كان صياد لؤلؤ في وقت من الأوقات ، وابنة أخيه عمشا بنت ابراهيم المزين .

كان كل المتاع الذي حملته معي عبارة عن خيمة وزنها ثلاثون رطلاً وفراش ولحاف وسجادتين من الصنع المحلي ووسادتين . ولأنني كنت سأحل في ضيافة عائلة الفوداري فقد أخذت لهم معي هدية تتألف من نصف كيس من أرز كراتشي ونصف كيس من الطحين وأوقية من الدهن وأوقية من القهوة ومند من الحطب .

وفي ساعة مبكرة من صباح الخميس جاء بلم ابراهيم الى الميناء أمام منزلنا . وكان المد عالياً فسهل علينا ذلك تحميل أمتعتنا وسرنا مع نسيم عليل يهب من الغرب . وبقينا في نفس الاتجاه ساعتين اتجهنا بعدها إلى شمال غربي مكان . ووصلنا بالتالي في الساعة الحادية عشرة والنصف وكان الجو حاراً شديد الرطوبة . وكان منزل ابراهيم يقوم على الشاطىء الغربي وهو عبارة عن مجموعة أكواخ صغيرة واطئة مبنية من الحجر . وبالقرب منه تقوم المنارة البيضاء التي

ترفع على صارية كل مساء بعد غروب الشمس . وعلى بعـــد مابقي باردة كانت هنالك شجرة تحتمي أبقاره وأغنامه في ظلها من شمس الظهر الشديدة الحرارة .

تغطي الجزيرة مساحة من الأرض تبلغ ثلاثين فداناً فيها خزانان للمـــاء من الاسمنت تملأ بماء المطر كل سنة . وفيها أيضاً مراعٍ جيدة وأجمـــة على شكل شنان يغطي الجزيرة . وهـــذه الشجيرات تقطع – ولا تقتلع من جذورها – كل خريف عندما تيبس ، لتستخدم حطباً للنار . وتنمو هذه الشجيرات من جديد كل ربيع وصيف فتعطي الجزيرة مشهداً أخضر رائعاً .

يكسب ابراهيم معيشته من الاسماك التي يصطادها مع اولاده ويبيعونهـــا في اسواق الكويت . وتتألف عائلته من زوجته وثلاثـــة اولاد متزوجين ، وزوجاتهم واطفالهم ، وابنة متزوجة وثلاث بنات اخريات أعمـــارهن عشر سنوات وثماني سنوات وخمس سنوات . وللنساء مكان خاص يقضون اوقاتهم فيه ويدعى العريش يقع على الشاطيء تماماً قرب المنزل. وقد بني العريش من صواري سفن قديمة وسقف بشباك صيد غير ذات فائدة وصفت فوقها حصر مصنوعـــة في اهوار العراق. ونصبت خيمتي وراءه وكنت في النهار استلقي في ظل العريش على فراش ووسائد .

وباستثناء ساعة واحدة قبل الظهر كانت تهب رياح جنوبية او غربية فكان الطقس بارداً مدهشاً في هذا الوقت من السنة . وجاءت بقرتان لتحلبا عند الظهر ثم استراحتا في ظل الشجرة حتى الساعة الثالثة حين حلبتا مرة ثانية قبل ان تتوجهـــا الى المرعى . وعند الغروب كانت تربط كل واحدة منها وتعطى علفة من نوى التمر او التمر . وعند الغسق جاء عدد من الاغنام والمـــاعز لا يتجاوز الحادية عشرة وارتموا تحت الشجرة لقضاء الليل هناك .

وطهى لي النســاء غداء لذيذاً من الارز طيباً وبسيطاً ، ومجموعة من الأسمـــاك طهيت بطرق مختلفة ، وتموراً طهيت بالعسل ، وقـــدراً من اللبن . وعلى العشاء تناولنا مزيداً من الأرز والسمك وعجة من بيض الحمام مقلية بالزبدة . ومساعدة للهضم احضرت لي كأس من الماء معطرة بلقاح ذكر النخل .

وبعد منتصف الليل هبت ريح جنوبية حملت معها كثيراً من الندى . ولم يكن بالامكان الابحار الى عوحه في الصباح التالي كما كنت آمل فقضينا يوماً كسولاً آخر في مكان . وذهبت مع الأطفال أبحث عن أعشاش العصافير كما قضيت بعض الوقت أراقب الرجال وهم يصنعون شباك صيد جديدة من أوراق البردي المستحضر من العراق ، بينما كان آخرون يقشرون الياف النخيل ليصنعوا منها حبالاً يربطون بها شباكهم . وهذه الأليــاف تسمى « عسو » . وتجدد الشباك باستمرار لأن العواصف تمزقها بسهولة . أمـا أنواع الأسماك التي اصطيدت اثناء زيارتي فهي الزبيدي والسبيتي والشعم . وقد علق بالشباك عدد من اللخمه* مع صغارها .

هنالك نوعان من اللخمة التي يخشاهـا الناس في تلك المياه . نوع له جوانب مستديرة ويعرف في الكويت باسم « سفيني » ، ونوع آخر جوانبـه بارزة تشبه الأجنحة وذيــله أطول بكثير وأرفع ويشبه السوط . ويدعى هــذا النوع « انصيفي » . وقد ذاق ابراهيم وأولاده لسع هذه المخلوقات الشريرة في وقت أو في آخر مما أقعدهم أياماً وشهوراً على بعضها . ويبدو ان لسعة صغار اللخمة ليست أقل سماً من كبارها . ولسعتها عبارة عن شوكة شبيهة بالعظم طولها بوصتان ونصف تتكسر داخل الجرح . ولا يمكن ازالتهـا إلا بشق لحم الملدوغ في مكان بموازاة نقطة دخول الشوكة من الجهة الاخرى وسحبها .

كانت « القوبا » اي القنبرة المتوجـة ، تعشش . ووجدت انا والأطفال عشاً صغيراً منها تحت شجيرة حمض . وكان العش مصنوعاً بكامـله وبصورة رائعة من اعشاب السمعه الجافة ، وفيه ثلاثة بيوض . ووجدنا عشاً مماثــلاً تحت شجيرة أخرى لكنه كان صغيراً جداً اذ لم يكن يتجاوز قطره بوصة ونصف البوصة ولم تكن فيه بيوض .

« الخضري » ــ أو الوروار وهو طير أخضر اللون . وقد وجدنا منه حوالي خمسة عشر أو عشرين عشاً كلهـا ضمن جحور حفرت في الارض بصورة منحنية

---

* ــ اللخمه وتدعى أحياناً الدابة وهي اسماك تلسع من يقترب منها .

على عمق عشرة أقدام . وقد وجدنا من بيوضها بيضة كروية الشكل عند مدخل أحد الجحور .

« القراوي » أو الزقزاق كان يبني أعشاشه في الأراضي الجافة بعيداً عـــن الشاطىء. وكانت هذه الأعشاش عبارة عن حفرة دائرية الشكل غطيت جوانبها بطين يابس وقطع من الأصداف البحرية . وعثرت على اثنـــين فيهما ثلاثة بيوض وآخر فيه بيضة واحدة . وشاهدنا واحدة من هـــذه الطيور تتدرج أمامنا وهي تجرجر جناحيها وتسير في خط متعرج باتجاه الشاطىء . وربما كان ثـــــا صغار ولكنني لم أستطع ان اعثر عليها .

« الجويده » او خطاف البحر ، وهـــذه الطيور كانت تعشش أيضاً وتطير فوق رؤوسنا وهي تصرخ . ووجدنا أحد اعشاشها تحت شجيرة حمض وكان يحتوي بيضة واحدة أطول بقليل من تلك التي عثرنا عليها في أعشاش «القراوي» وقد تكون هذه البيضة بيضة خطاف مع ان العش الذي وجدت فيه يشبه عش « القراوي » .

كانت هنالك أيضاً بقايا حباري وسنونو ميتة أغلب الظن انها هلكت بسبب العطش والاعياء أثناء هجرتها . وقد التقط الأولاد عدداً من الخضري برتقالية وبنية اللون وهي على وشك الهلاك . ولم تكن تلك الطيور معششة هنـــاك . ولاحظت أنواعـــاً أخرى من الطيور المهاجرة شمالاً ولكنني لم استطع التعرف عليها . وشوهدت على الشاطىء ست طيور من الكروان كما شوهدت بعض طيور الهازجة في الصباح الباكر وهي تشرب الندى من على أوراق شجيرات الثنان .

وبعد العشاء في اليومين الأول والثاني من زيارتي جلست مع ربة البيت وعمشا خارج خيمة حيث اخذا يخبرنني قصصاً عن الصحراء .

وقالت ربة البيت انها في الأصل فتـــاة بدوية والدها من قبيلة شمّر وأمها من عنيزه وانها نشأت وترعرعت في قرية عيون قرب حايل .

واخبرتني ان الرجال في تلك الأيام المضطربة كانوا يحملون البنادق اينما ذهبوا حتى الى الصلاة في المسجد . وحـــتى النســاء كن يدربن على اطلاق النـــار وعلى

ركوب الخيل . وقالت ان المنطقة المحيطة بحـــايل منطقة جبلية فيها كهوف عميقة . وكان الخطر يحدق بالقطعان والاغنام لأن الضباع والنمور كانت تـــأتي في الليل لافتراس الماعز والأغنام .

ومضت تقول : « واخــــبرتني أمي انني عندما كنت لا أزال رضيعــة ولم يتجاوز عمري شهرين كاد أحد النمور يفترسني . وكان والدي في المسجد يؤدي صلاة الغروب وكانت والدتي تحملني عائدة مع القطيع الى المنزل . وكان والدي لدى مغادرته المنزل قد نسـي ان يحكم اغلاق الباب فلما حملتني والدتي إلى المراح كان هنالك نمر قفز علينا قفزة واحدة وحاول اختطافي من بين يديها . وقد تركت انيابه جروحاً بالغة في معصمي وأصابعي ولكن والدتي اطلقت صراخــاً حاداً بحيث هرع الرجال من المسجد مع بنـــادقهم في ايديهم على استعداد لمواجهة أي غزو أو عدو . ولما أبلغتهم والدتي انه نمر بدأوا مطاردته فوراً ولكنهم تأخروا اذ استطاع الحيوان ان يختفي بين التلال . ولا تزال الندب التي تركتها أنيـــابه ظاهرة في يدي وسأريك إياها في الصباح عندما يطلع النهار .

واخبرتني مضيفتي ايضاً انه في مكان ما بين تلال وكهوف طفولتها تلــك ، كانت تعيش امرأة متوحشة يعتقد انها تأكل لحم الانسان . وقد اختفى عـــدد من الأشخاص في أوقات مختلفة وفي ظروف غامضة وسرت شائعـات ان هنالك ساحرة تظهر بعد حلول الظلام وتقتل التائهين لتأكلهم .

وقد صمم ابن رشيد امير حايل على وضع حد لهذه الشائعات فـــإذا ثبتت صحتها سير حراسه للقبض على تلك المرأة . وانطلق الخيالة ليلة بعد ليلة وشهراً بعد شهر للبحث عن المرأة في الظلام بين التلال . وأخيراً جاء من يقول ان المرأة ظهرت وهي تتسلل من كهف عميـــق . وفي الحال ارسلت قوة من الخيـــالة المسلحين وأحاطوا بالكهف . وعندما كانت المرأة المتوحشة عائدة الى مخبأهـــا قبل الفجر ، قبض عليها وأحضرت امام ابن رشيد .

كانت امرأة مرعبـة الشكل ذات راس كبير وشعر اشعث طويل وأسنان كأنياب الوحوش الكاسرة . وكانت تتكلم بلغة غريبة لم يفهمها الحاضرون الا

بعد جهد ' واعترفت انها في وقت من الأوقات أكلت لحماً بشرياً وشربت دماً بشرياً أيضاً . ولكنها لم تستطع ان تقول من أين أتت أو من أين هي ولكنها شرحت انها خنثى – اي نصف امرأة ونصف رجل .

وقبل أن يصدر عليها ابن رشيد الحكم بالموت اراد ان يطلع على بينات واثباتات انها قتلت رجالاً واكلت لحومهم . ولهذا الغرض أمرها ان ترشد رجاله الى مخبأها في التلال . ولكن الحراس عندما وصلوا الى ضواحي المدينة قتلوها ودفنوها حسب اتفاق سابق .

في الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم السبت التاسع من أيار استيقظت على صوت ابراهيم يناديني من خارج الخيمة قائلاً :

– الريح تهب من الغرب .. استعدي للذهاب .

وفي الساعة الرابعة كنا نركب البلم متوجهين نحو سعد وسعيد المزارين القديمين في الجهة الجنوبية الغربية من جزيرة فيلكا .

تقع عوحا بعد الزاوية الجنوبية الشرقية من فيلكا حيث يوجد لسان من الرمل يدعى « اللوان » . أما القناة التي تفصل فيلكا عن عوحا فتدعى « خور عوحا » وهي قناة عميقة عرضها ميل ونصف الميل وتبلغ مساحتها عشرة فدادين ولها شاطىء رملي من جهتها الشمالية . وقد نزلنا هناك في الساعة التاسعة .

ولما اقتربنا من الشاطىء طار رف من الطيور كان يحط هناك . وإذا صدق ظني فان معظم تلك الطيور هي من نوع خطاف البحر والنورس الذي تبينت منه اثنين من النوع الكبير ذات رؤوس واجنحة سوداء ورمادية مائلة الى السواد .

ويبدو ان هذه الطيور اطلقت النذير بوصولنا فما هي إلا لحظة حتى طار رف آخر كبير من طيور الحنكور في وسط الجزيرة يتجاوز عددها المئة طير . وبعد لحظة أخرى تبعها رف آخر . وقد لفت هذا الطيور ودارت مرة او مرتين في الفضاء فوق الجزيرة قبل أن تطير فوق البحر وتتفرق الى أسراب صغيرة كل منها من عشرة طيور . وقد عادت هذه الأسراب الصغيرة الى الجزيرة

وأخذت تطير وتحط بعد كل فترة وأخرى .

وبعد ان نزلنا الى الشاطىء وجدنا بيضتين كبيرتين قرب بعضها البعض فوق خط الماء مباشرة . وكانت كل منها داخل حفرة صغيرة غير ذات عمق . وكانت احداهما وردية اللون ذات خطوط زرقاء رمادية ملطخة بنقاط سوداء وحمراء بنية . أما قياساتها فكانت ٢٫٥٨ بوصة × ١٫٦٩ بوصة . وقياسات الأخرى كانت ٢٫٥٧ بوصة × ١٫٧٧ بوصة . بيضاء اللون تميل الى الصفار فيها لطخ زرقاء رمادية باهتة وعدد من النقاط والخطوط واللطخ البنية اللون . ويسمي العرب هذه البيوض بيوض « التراتشي » وربما كانت هي بيوض الطيرين الكبيرين اللذين طارا عندما وصلنا الى الشاطىء .

وعندما توغلنا داخل الجزيرة واقتربنا من المكان الذي يعشش فيه الحنكور خرجت بعض الطيور بمفردها من جحورها وتراكضت عدة ياردات وهي تمد أعناقها قبل أن تحلق في الفضاء . ويطلق العرب على هذه الطيور اسم « كويري » وتلفظ « تشويري » . ويقولون انها لا تأكل الأسماك بل تعيش على الديدان الصغيرة وعلى السرطان الذي تلتقطه على الشاطىء . ولذلك فان بيوض هذه الطيور مرغوبة لانه ليس لها طعم السمك . وبدأ البحارة يجمعون تلك البيوض وهي مهمة شاقة . اما الجحور فيبلغ طول قطر الواحد منها ست بوصات وهي محفورة بصورة منحنية في الأرض . وهنالك جحور بلغ قطر الواحد منها أربعة أقدام ونصف القدم . وتوجد البيوض عادة في الطرف البعيد منها . وكان يتم العثور على البيض في واحد من كل ثلاثة جحور فقط . ان بيوض الحنكور البيضاء اللون تبدو كبيرة بالنسبة لحجم الطير الذي يبيضها . وهذه الطيور متفاوتة الحجم قليلا كما يبدو من القياسات التي أخذتها في ذلك اليوم وهي بالبوصات كما يلي :

٢٫٥٧ × ١٫٨٢ .

٢٫٦٢ × ١٫٨٨ .

٢٫٦٤ × ١٫٧٩ .

٢,٥٣ × ١,٥٥ .
وتوجد عادة في الجحر الواحد بيضة واحدة ولكن أحياناً قليلة جداً يعثر على اثنتين .

وحاولت ان اصطاد واحداً من هذه الطيور لأتأكد من هويتها ولكنني فشلت في ذلك لأن طلقات بندقيتي كانت قديمة وزادت الحرارة الشديدة الأمر سوءاً . والطير الوحيد الذي رميته سقط في البحر ولم نتمكن من الحصول عليه . امـــا رفاقه فقد تفرقوا في الحال وعادوا فاجتمعوا فوقه وأخذوا يحومون حوله بعض الوقت وهم يطلقون صرخات محزنة الى ان جرفه البحر .

وتركت الرجال الثلاثة يجمعون البيض بينما توجهت مع ابراهيم للتجول عبر الجهة الجنوبية من الجزيرة . وهناك وجدنا اعشاش ثلاثة طيور يعرفها العرب « بالزرقي » و « ابو الخصايف » و « السلطاني » . وكانت جميع هذه الاعشاش متشابهة فهي مسطحة تقريباً ومبنية من اغصان يابسة ويبلغ طول قطر كل عش منها تسع او عشر بوصات .

وقد اقيمت هذه الاعشاش فوق شجيرات واطئـة من الحمض على ارتفاع ١٢ أو ١٤ بوصة عن الأرض . أما البيوض فكانت زرقاء تميل الى الاخضرار مشحة احياناً بالأبيض بلون الكلس . وقد وجدنا بيضة واحدة في أربعة أعشاش وعثرنا على ثلاثة بيوض دفعة واحدة في العش الخامس . وكان هنالك عش آخر فوق الاحجار عند أقدام رجمة حجارة ، وآخر فوق عمود حديدي قديم لملاحة كان مطروحاً على الأرض بعد ان أكله الصدأ عبر السنين فسقط وظل قسماً منه واقفاً على ارتفاع عشرة أقدام .

وعلى طول الشاطىء شاهدنا على الصخور الطيور صاحبة هذه الاعشاش يبدو ان بعضها من نوع مالك الحزين أسود اللون . وبعضها الآخر أبيض اللون من نفس النوع او من نوع البلشون . ويقول ابراهيم ان البيضاء منهـــا هي ذكور وإناث « ابو الخصايف » والسوداء هي ما يسمى بالزرقي . اما الذي يسميه « السلطاني » فله شوشة من الريش الطويل عند الرأس والرقبة . ووجدنا بيضة مكسورة على

الأرض قرب احد الأعشاش وقال ابراهيم ان الطيور تكسرها عن عمد عندما ترى شخصاً قادماً اليها .

ويمكن مشاهدة اعشاش الخنكور المهجورة من السنة الماضية والتي قبلها في مكانين آخرين من الجزيرة . ويقول ابراهيم ان هـذه الطيور تبني لنفسها اعشاشاً جديدة كل سنة على مسافة ليست بعيدة من الاعشاش القديمة . ووجدنا الأعشاش القديمة مطمورة وربما كان ذلك بفعل الرياح او الأحوال الجوية . ولم تنبت عليها أية نباتات أو شجيرات مع ان حولها توجد شجيرات الحمض والطها والشنان .

وفي داخل الجزيرة كانت هنالك طيور ميتة من السنونو وبقايا طيور صغيرة تشبه الخطاف وهي ذات صدر أبيض واجزاؤها العليا بنية رمادية .

غادرنا الجزيرة حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف بعد أن جمعنا سبعين بيضة من بيوض الخنكور وسبعة من بيوض « الذرقي » وبيضتا « التراتشي » التي سبق ذكرها. وعندما انتقلنا الى السفينة عادت الطيور الى مكان قريب من الشاطىء وتجمعت هناك ثم نزلت دفعة واحدة نحو الشاطىء . ثم طار رف منها يزيد على المئة نحو الأعشاش وتبعها الآخرون . ووصفها ابراهيم لي بقوله ان لهـا قوائم سوداء طولها سبع بوصات ، وان جسدها أبيض باستثناء خط أسود عند الرقبة ومؤخرة الرأس. ولكنني لاحظت ان هناك لوناً قاتماً على أجنحتها عندما تكون طائرة وإن أرجلها تمتد خلفها . وأخبرني ابراهيم انه وأولاده التقطوا في السنة الماضية سبعاً منها وإن احداها وضعت بيضة لدى وصولها الى منزله في مسكان . وهذا الطير بحجم طير الحمام ولكن لحمه طيب للأكل . ووجدت ان البيوض لذيذة عندما تطبخ مع ان بياضها قاسياً . وكانت بعض البيوض التي جمعناها قد قعد عليها فترة وجيزة .

وقال ابراهيم انه في السنة الماضية كان « أحمر المنقار » و « أحمر المرابخ » و « الكويري » اكثر منه في هذه السنة على الشاطىء .

وفي طريق عودتنا الى مسكان كانت تطير حول البـلم طيور من « الجويدد » سوداء الرأس وتغطس في البحر لالتقاط الأسماك الصغيرة الهاربة من طريـــق

الزورق . ولم يحالفهم الحظ إلا في غطسات قليلة وفيا عدا ذلـــك كانت الطيور تخرج من الماء فارغة الفم .

وفجأة شاهدنا فوق رؤوسنا طيرين من « الجويده » يطاردهما طير كبير من جنسها في محاولة للامساك بهـــا وقتلها . وكانا يلفـــان ويدوران وتصدر عنهما أصوات اشبه بالصراخ والطير الكبير يلاحقها . ويبدو ان الطير المهاجم يئس من العملية فانقطع عن ملاحقتها فجأة وطار بعيداً عنها وحط في مكان بعيد .

وشرح لي ابراهيم ان هذا الطير الغريب يعيش على الطيور التي تسقط بـــين يديه . فهو يلاحقها ويهاجمها ويخيفها الى أن تنهار فيلتقطها ويـــأ كلها في الهواء ويطير . ومع انني شاهدت عملية المطاردة هذه مرتين إلا ان فترة المشاهدة كانت قصيرة جداً بحيث كان من المستحيل ان أرى ما يحدث بالضبط. وهنالك نظرية أخرى تقول ان الطير الكبير يطارد بقية الطيور الى ان تتقيأ الأسماك التي تكون قد التقطتها في وقت سابق . ويقول ابراهيم ان لهـذا الطير ذيلا متشعباً كذيل السنونو إلا انني لم استطع أن أتأكد من ذلك بنفسي .

ووصلنا الى مسكان في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وسط ريح جنوبية عاتية .

الطيور التي تهاجر عبر الكويت

بقلم فيوليت ديكسون

تتم الهجرة الشمالية في الربيع والجنوبية في الخريف . وهـذا أمر مهم يجدر بنا ان نتذكره . وقد جمعت الملاحظات التالية خلال عدة سنوات :

– السنونو . وصلت الى الكويت باعداد كبيرة في هجرتها شمالاً في السابـع عشر من شباط سنة ١٩٣٧ وقد حـــاول بعضها ان يجـد لنفسه ملجأ في سقف شرفتنا . وعندما تهاجر هذه الطيور جنوباً تظهر في الكويت في العـــاشر من شهر آب .

– المرعة . التقطت واحـــداً ميتاً منها أمام منزلنا في الثامن والعشرين من

شباط سنة ١٩٣٧ .

– الخضري . وصلت في الثامن والعشرين من شباط سنة ١٩٣٩ وقد وصلت اعداد أخرى منها في ١٢ آذار سنة ١٩٣٩ .

– الهدهد . يشاهد دائماً في الكويت في اول يوم من مرزام (السابع من آب) اي قبل ثلاثة عشر يوماً من ارتفاع نجم سهيل في نجد الذي يصادف يوم ٢٠ آب .

وقد شاهدت واحداً منها حول مخيمنا في عريفجان على حدود الكويت الجنوبية في الرابع من آذار سنة ١٩٣٩ . وشاهدتها ايضاً في اول آذار سنة ١٩٤٠ وفي ٢٦ شباط سنة ١٩٤٩ . وشاهدت طيرين منها ايضاً في الهجرة الجنوبية في ١١ آب سنة ١٩٤٠ . وفي ربيع سنة ١٩٥١ شاهدت رفاً من حوالي مايتين يطير فوق الكويت من شباط حتى ايار . وهذا أمر غير عادي لانه لم يسبق ان شوهد مثل هذا العدد من قبل .

– هزاز الذنب . وصلت أشكال رمادية من هذا الطير في ١٥ شباط سنة ١٩٣١ ، وفي الخامس من آذار سنة ١٩٣٩ ، وفي ١٥ آب سنة ١٩٤٠ . وشوهدت اشكال صفراء منه في ١٥ آب سنة ١٩٤٠ . وفي الرابع من نيسان سنة ١٩٤١ مرت بالقرب من خيمتنا في الصحراء على بعد خمسين ميلا الى الجنوب من الكويت اعداد كبيرة من أشكال زرقاء الرأس واشكال سوداء الرأس مع اشكال منه رمادية وصفراء وبيضاء .

– السمن او السلوى (الفرّي) . شوهدت عند آبار الطويل في جنوب دولة الكويت في الخامس من آذار سنة ١٩٣٩ .

– ابو زريق او القيق . شاهدت واحداً منها في ٢٦ آذار سنة ١٩٣٩ وفي ٢٩ آذار سنة ١٩٤١ قرب المدينة وفي مخيمنا في الصحراء على بعد خمسين ميلا الى الجنوب الغربي من الكويت في الرابع من آذار سنة ١٩٥٢ .

– اللواء او ابو لوّي . شوهد في ٢٤ نيسان ١٩٣٩ وفي الرابع من نيسان ١٩٥٢ . وهذا الطير مدهش . وقد التقط صبي بدوي واحداً منها في خيمتنا

بعد ان دخل الخيمـة طلباً للظل . وبلغ طوله ست بوصات ونصف وله منقار صغير حاد وهو مزركش الألوان يغلب عليه الرمادي والبني . وعندما امسكته بيدي لوى رقبته ثم مدّها وأغلق عينيه بطريقة مدهشة . اما مخالبه الأماميـة فواحد منها قصير والآخر طويل وله رجلان في الخلف واحدة قصيرة والأخرى طويلة ولذلك تعلق باصبعي بمخلبين من كل جهة

وقال الصبي البدوي ان « ابولوّي » شيطان فهو يلوي رقبته متظاهراً بأنه ميت ويغلق عينيه وقد شاهدنا هذه العملية بالفعل. وبعد ان لوى الصبي جناحيه تركته يقفز في الخيمة ثم تفحصت اشاراته جيداً وعدت فأرخيت جناحيه وطار بعيداً بعد ان سقط « ميتاً » في يدي مدة ثلاثين ثانية .

— طائر الطيطوى الصغير . التقطنا واحداً على وشك الهلاك في ١٧ ايـــار سنـــة ١٩٤٣ . طوله ست بوصات وطول منقـاره نصف بوصة قوائمه سوداء اللون ظهره بني محروق وأسود صدره ابيض عنقه أبيض مخرش ذيـله بني اللون من فوق وابيض من تحت له مخلب في مؤخرة قدمه .

— الهازجة (طائر مغرّد) شوهد عدد كبير من هذه الطيور في السادس من شباط سنة ١٩٤٠ .

— الغراب الزيتوني . شاهدت أربعـــة منه في مطار الكويت في ٢٦ آذار سنة ١٩٤٢ كما شاهدت ثلاثة أخرى في أول آب سنة ١٩٤٠ .

— الحمام الفارسي المنقط . شوهدت في ٧ نيسان ١٩٣٩ وشوهدت أعـداد منها مع بعضها في ٢٤ نيسان من السنة ذاتها . وشوهدت اعداد كبيرة في الثامن والخامس عشر من شهر آب سنة ١٩٤٠ وهي لا تظهر عادة قبل أول أيلول .

— القطا . هذه الطيور تهاجر شمالاً وتمر فوق الكويت باعداد كبيرة جـداً بين العاشر والثلاثين من شهر نيسـان . وفي اوائل ايار سنة ١٩٣٥ عندما توقفت الهجرة العادية نحو الشمال رأيت عدداً كبيراً منها الى الغرب من سلسلة مرتفعات الظهر . وهذه الطيــور تخلفت دون شك لتعشش هناك . وقد اكدت ذلك البيوض التي يحملها الينا البـدو يومياً . وهذه البيوض تشبه في شكلها بيـــوض

الحمام لكنها أكبر منها قليلاً .

وعندما قام الخبير المشهور في علم الطيور الكولونيل ريتشارد مينارتز هاغن بزيارة الكويت في كانون الثاني عام ١٩٥١ ، تحقق معي من هوية الطيور الآتية :

– في ١٠ كانون الثاني اسراب من طـائر القنبر وثلاثة من السنبلة (طـائر مفرد) وجدت بين حقول الذرة والشجيرات خارج المدينة .

– في ١١ كانون الثاني أسراب صغيرة من القبّر القصيرة القوائم وجدت بين حقول الذرة . اصطاد منها ثلاثة . وفي الصحراء مـا بعد صبيحية اصطاد اثنتين ذكراً وانثى . واثنتين من نوع آخر .

– في ١٢ كانون الثاني . اصطاد عن الأشجار في واحة ملح سبعة من عصافير الدوري الاسباني .

– في ١٣ كانون الثاني . اصطاد طيراً ذكراً من صقر الجراد ، وواحـداً أعفر من الحشنة او العزيزاء وهـو طائر يشبه القنابر في الجهراء وعلى طول الشاطىء تعرف على طائر من الدريجة أو الشرّ وهو طائر من نوع زمار الرمل ، وعلى طيور الكروان ، وعلى صياد المحـار ، وعلى المدروان (من نوع الشرّ) ، وعلى غراب البحر (قاق الماء) وقد اصطاد طيراً كبيراً من القطقاط .

– في ١٥ كانون الثاني شاهدنا عـدداً كبيراً من سكسكة الصفاف والحمراء (طائر مفرد) بين الأشجار في قرية فنطاس . ((انتهى حديث زوجة ديكسون))

الفصل الثامن عشر

الكويت

١٩٤٢ - ١٩٤٣

من عدالة الصحراء

علمت ان هنالك سوء تفاهم بين الأمير هايف بن هجرف رئيس فرع السليمان في عجمان وبين ابن شقيقته سعود بن شلش، فرغبت في معرفة مزيد من التفاصيل عن هذا الخلاف نظراً لأن الرجلين صديقان قديمان لي . وقد اخبرني القصة كل من سعود بن شلش وسرور بن فروان وهو مطيري بارز في خدمة الشيخ أحمد حاكم الكويت .

قالا انه في اواسط تموز سنة ١٩٤٢ حدث ان كان رجل عجماني من آل سليمان في قلب الصحراء قرب طريق الرياض على بعد مائة ميل من الكويت . ورأى الرجل جملين شاردين فاقتادهما الى واحة الجهراء حيث كان يخيم اثناء الصيف جماعة من اتباع الأمير هايف وجماعة أخرى من اتباع سعود بن شلش . ويبدو ان الجملين شردا من قافلة للنجديين متوجهة الى الرياض ولكن ذلك لم يكن معروفاً في ذلك الوقت . وقد اصيب احد الجملين بالجرب فيما بعد وقضى نحبه .

في خيمتنا ـ زوجة المؤلف تصنع القهوة
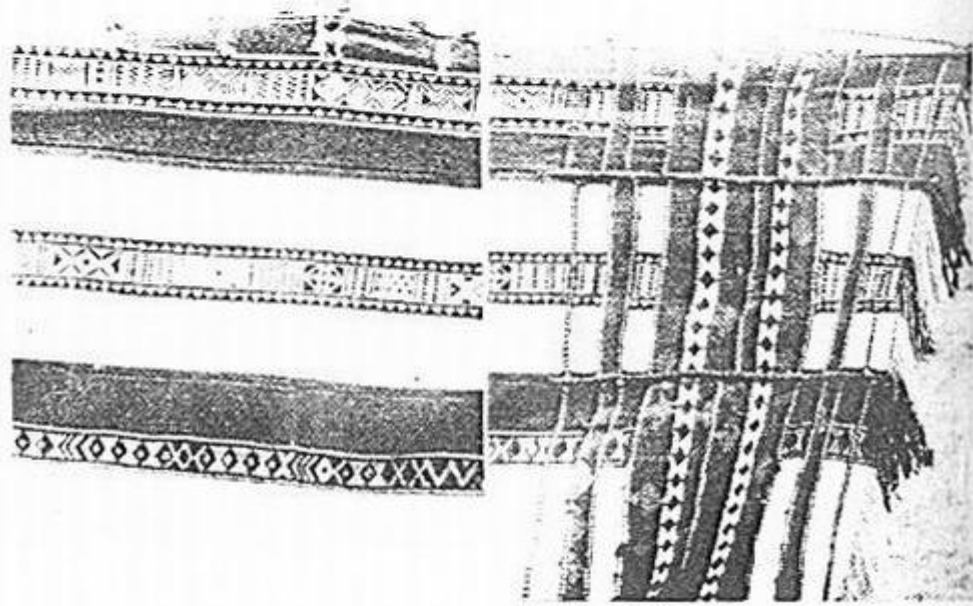
القاطع الذي يفصل جناح الرجال عن جناح النساء في كل خيمة عربية

« الوارجية » وهي سفينة صيد بدائية تستخدم في جزيرة فيلكا
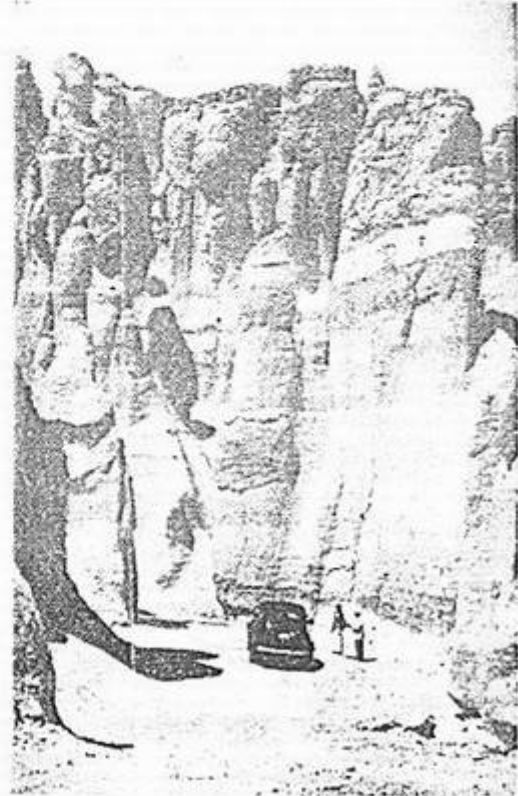
صخور جبل قارا في الهفوف بالاحساء خارج مدخل كهف ابراهيم

مزار الخضر في جزيرة فيلكا

وبعد فترة من الوقت عاد أحد النجديين الى الكويت حاملاً رسالة من الملك عبد العزيز يطلب فيها مساعدة الرجل في استعادة جمليه الضائعين . وفي الجهراء تعرف الرجل على الجمل الذي بقي على قيد الحياة وقدم شكوى ضد رجل دوسري « قصير » سعود بن شلش (أي ان خيمته بجوار خيمة سعود بن شلش) واتهمه امام الشيخ عبدالله المبارك الصباح مدير الامن العام الكويتي ، بالسرقة . ولما أحس العجمي الأول الذي عثر على الجملين وباعهما الى الدوسري بأن طلائع مشكلة تلوح في الافق هرب الى الصحراء .

وبعد ان استمع الشيخ عبدالله المبارك تفاصيل القضية قرر تغريم الدوسري بمبلغ قدره ثلاثماية روبية : ماية وخمسون ثمن الجمل الميت ومبلغ مماثل لأنه لم يبلغ السلطة انه عثر على الجملين شاردين . وأشار سعود بن شلش الى ان هذا القرار غير عادل وانه لا يسمح بحال من الاحوال ان يغرم قصيره وهو غريب الدار . وحكم الشيخ عبدالله بالتالي ان يجمع نصف المبلغ من سعود بن شلش والنصف الآخر من كبير مشايخ عجمان الامير هايف بن هجرف على ان يعطى المبلغ كله بالاضافة الى الجمل الحي للتاجر النجدي .

وفي الوقت الذي كانت تسمع فيه القضية كان الامير هايف في الرياض بزيارة الملك . ولدى عودته غضب وتألم لأن سعود بن شلش كان السبب في الحكم عليه بدفع الغرامة . وكان يعتقد ان السارق الحقيقي قد توارى عن الانظار بمشورة سعود ، وانه نظراً لأن الدوسري كان ضيفهم وجارهم ويجب أن لا يدفع شيئاً ، فان سعود يجب ان يتحمل الغرامة كلها بنفسه .

وهكذا نشأت العداوة بين الأمير وابن شقيقته . وقلت لسعود ان عليه ان يطيب خاطر الرجل العجوز وإلا فلن اعود استقبله في منزلي ليشرب من قهوتي .. فوعدني خيراً .

عطش في قلب الصحراء

كل سنة عندما تشتد الحرارة في شهري تموز وآب وتبلغ حوالي ١٨٠ درجة

فارنهيت ، لكثر حوادث الوفيات عطشاً في قلب الصحراء الى ما وراء الكويت في الداخل . ويتساءل المرء كيف أن البدوي الذي يعرف بالضبط المسافات بين آبار الماء المختلفة ويقدر على أساسها عدد قرب الماء التي يحتاجها في رحلته ، يفشل أحياناً في حساباته وينقطع من الماء قبل الوصول إلى المكان الذي يقصده .

والجواب على ذلك ليس مرده الى الجهل او الغباء بقدر ما هو ناتج عن سوء الحظ نظراً لأن الجمال في أواسط الصيف تصبح ضعيفة لعدم توفر المراعي الجيدة . وبالرغم من أنها تبدو معافاة إلا أنها معرضة لانهيار مفاجىء او أنها تفشل في السير الى المكان المقصود بالسرعة العادية فلا تصل إلى الماء ضمن الفترة المقررة لها عادة . والجدير بالذكر ان الجمل يستغرق ستة او سبعة أيام لقطع المسافة بين بئر وأخرى في الصحراء داخل الكويت . فإذا بدأ الجمل يخور عند منتصف الطريق فإنه قد يقطع المسافة في ثمانية او تسعة أيام الأمر الذي يخلق المتاعب للجمل ولصاحبه .

ولم تشذ سنة ١٩٤٢ عن غيرها من السنوات بالنسبة لدرجة الحرارة ولكن لحسن الحظ لم تحدث فيها أية وفيات بسبب العطش في الصيف . ولكن بعضهم نجوا بأعجوبة ومنهم ثلاثة أخبرني عنهم شياح الجبلي عند بئر الماء رقم ١٣ التي حفرتها شركة نفط الكويت في المنطقة المعروفة لدى البدو باسم حماتيه وهي أربعة مجاري ماء جافة الى الغرب من منخفض الشق وعلى بعد خمسين ميلاً الى الجنوب الغربي فالغرب من مدينة الكويت . وشياح الجبلي هو أحد مشايخ فرع جبلان في مطير وكان مسؤولاً عن ثلاثة قطعان من الجمال يملكها سمو الشيخ أحمد . وكان شياح ساكناً في الكويت .

وحوالي الرابع عشر من آب سنة ١٩٤٢ غادر رجل من الداهمشاه من فرع عمارات في قبيلة عنيزه آبار الصفا في المملكة العربية السعودية متوجهاً الى الكويت . وذهب معه كمرشد رجل صليبي وزوجته . وكان قصدهم الوصول الى البئر رقم ١٣ خلال مسيرة ستة أيام من الصفا . وعندما أضحوا على بعد خمسين ميلاً من المكان الذي يهدفون الوصول إليه نفد منهم الماء وبدأت تظهر

على جمالهم أعراض الاعياء . ومع ذلك تابعوا سيرهم يوماً وليلة كاملين الى ان وصلوا الى نقطة تبعد عن البئر رقم ١٣ مسافة عشرة أميـال فقط دون ان يعرفوا ذلك . وهناك انهارت جمالهم لأنها لم تذق طعم المـاء لمدة ستة أيام . ولما أشرقت الشمس على المغيب ذلك اليوم لم يكن الأشخاص الثلاثة قد شربوا المـاء لمدة ثلاثين ساعة . وأخبر رجل الداهمشاه رفيقيه انـه لم يعد يستطيع السير على الأقدام وانه يفضل البقاء مع الجمال والأمتعة في الوقت الذي يحاولان هما فيه الوصول الى الآبار .

وودعهما قائلاً :

– إذا تمكنتما من النجادي في الصباح فربما وجدتماني على قيد الحيـاة وإذا لم يكن ذلك بالامكان فإني أستودعكما الله .

وسار الصليبي وزوجته على قدميها ببطء الى ان تخطيا البئر رقم ١٣ وخيام المطيري شياح الجبلي مسافة ثلاثة أميال . لأنهما ضلا الطريق في الظلام . وفجأة قالت المرأة لزوجها انها تعتقد أنها سمعت نباح كلاب خلفهما الى جهـة اليمين . وكان الرجل في حالة من الاعياء بحيث انـه لم يكن يستطيع أن يسمع او يتكلم او يعبر عن رغباته فأخذته زوجته من يده واقتادته بخطى بطيئة متقلة باتجـاه النباح . وزحفا في ذلك الاتجاه الى ان وصلا في الثالثة صباحاً الى حدود خيـام شياح وهما فاقدا الوعي .

ولم يستفيقا من غيبوبتهما إلا في السادسة صباحاً وبعد ان بللا بالماء البارد وأعطيا كميات قليلة منه . وبعد ان استعاد الصليبي وعيه اخبر شياح انـه ترك رفيقاً له على بعد مسيرة اثنتي عشرة ساعة . وطلب منـه أن يعطيه فريقاً من الرجال ليذهب معهم على الجمال لانقاذه . ولسوء الحظ كانت جميع الجمال قـد أرسلت الى المراعي في الباطن قبل يومين . عندئذ طلب الصليبي الشجاع قربـة ماء وتوجه سيراً على الأقدام مع اثنين من رجـال شياح الى حيث تخلف رفيقه . وعثرا على الرجل الداهمشاهي حوالي السـاعة الثالثة بعد الظهر وكان لا يزال حياً ولكن على شفير الموت إذ انه لم يذق طعم المـاء لمدة خمسين ساعة . وبعد ان

سقوه بعض المـــاء على شكل جرعات صغيرة متقطعة أعطوه طعامــاً ليأكل وساعدوه في العودة الى الخيم على الأقدام بعد أن غابت الشمس . ووصل الجميع الى البئر رقم ١٣ حوالي الساعة الحاديـــة عشرة وسط مشهد رائـع من الفرح والأهازيج .

وأخبرني شياح الجبلي انه لو لم تكن الجمال ضعيفة بعد صيف طويـل مضى لكان من السهل على الثلاثة ان يصلوا الى مخيمه عند غروب الشمس بـدلاً من ان يسقط في ايديها على مسافة عشرة أميال منه . ان الجمال هي التي خيبت آمالهم وليس خطأهم في الحساب .

والقصة الثانية تتعلق برجلين من العوازم كانا قادمين الى الكويت من الرياض عن طريق جاريه سفلى في اواسط شهر آب نفسه . وكانا يركبان جملين أحدهما استعاراه من صديق لهما في القبيلة . وبينما كانا لا يزالان على مسافة مسيرة ثلاثين ساعة من وفره نفد منهما ماء الشرب وذلك لأن أحد الجملين افلت اثناء القيـــل فاضطرا الى قضاء النهار بطوله في البحث عنه . وحاولا اكمال الرحلة بدون ماء ولكنهما بعد ان بـــذلا جهداً بطولياً في قطع ثلث المسافة شعرا بأن الاعياء والاغماء سيتغلبان عليهما فقررا ان يذبحا أحد الجملين ليشربا الماء الباقي في جوفه. وقد انقذ ذلك حياتهما بدون شك لأنهما تمكنا من الوصول الى آبار وفره وهما على آخر رمق وهناك انجدهما رجال قبيلتهما . ويقال انهما ظلا فاقدي الوعي مـدة أربع ساعات .

ووقعت حادثة مؤسفة في اعقابها شهدتها بنفسي بعد عشرة ايام في الكويت عندما كان الشيخ عبدالله المبارك جالساً في مجلسه يحـــكم في القضايا العشائرية . فقد وجد الرجلان اللذان رويت قصتيهما نفسيهما امام المحكمة متهمين بذبح الجمل الذي لم يكن ملكاً لهما . وطلب صاحب الجمل انصافه اما باعطائه جملاً جديداً أو ثمن جمل جديد . وتساءل صاحب الجمل عن سبب إقدام الرجلين على ذبـــح جمل ليس ملكهما بدل ان يذبحا جملهما . وعبثاً توسلا ان يغفر ذنبهما مدعيين انهما كانا في حالة لا تسمح لهما بالتفكير وانهما ابقيا الجمل الاقوى بدافـــع من غريزة

البقاء وحفظ النفس .

وحكم الشيخ عبدالله على الرجلين بدفع ثمن الجمل وقدره ماية وثلاثون روبية وهو مبلغ حدده اشخاص حياديون يعرفون الجمل الذي نشأت القضية بصدده .

وفي مثل هذه الحالات لا يتسع المجال لاظهار العواطف لأن قاعـــدة العين بالعين والسن بالسن يجب ان تطبق . وقد شعرت بالفعل وانا استمع الى القضية بكثير من الأسف للمتهمين .

ووقع حادث ثالث في شهر آب سنة ١٩٤٢ ايضاً في مكان ليس بعيداً عن بئر الماء رقم ١٣ وذلك عندما كان اثنـان من قبيلة حرب قادمين الى الكويت على ظهور الجمال من حفر البـــاطن . وكان هدفهما الوصول الى البئر رقم ١٣ ولكنهما ضلا الطريق في عاصفة رملية شديدة . وعندما كانا لا يزالان على بعـد ٣٠ ميلاً من الآبار غلبهما الاعياء فذبحا جمليهما وشربا المــاء المخزون في جوفيهما (الكرش) . ولما لم يكن الرجلان قادرين على متابعة السير مشياً ، ولم يعـد بإمكانهما معرفة الاتجاه الذي يجب ان يسيرا فيه ، بدآ يدوران في حلقة مفرغة الى ان انهارا .

وبعد يومين عثر عليهما فريق من رجال شياح الجبلي كانوا يعودون بالجمـــال الى الماء من الباطن ، فظنوهما أمواتاً ونقلوهما الى المخيم . وقد استعادا وعيهمـا بالنتيجة مع انهما بقيا أربعة أيام دون ماء في اواسط آب .

وعندما انهى شياح الجبلي قصته قال : ان رحمة الله واسعة .

مطير تخرج من السمّن (الصمان)

قررت شركة نفط الكويت وقف جميع عمليات التنقيب خلال فترة الحرب. وقد تم ذلك في أواخر سنة ١٩٤٢ ولم يبق للشركة سوى جهاز رمزي من الموظفين في الكويت وفي تشرين الأول من تلك السنة عينت انا مديراً عاماً مسؤولاً عن صيانة منشآت الشركة والعناية بها .

وفي آذار سنة ١٩٤٣ قررت وزوجتي القيام بزيارة الى الشق . وكانت تلك

السنة رائعة بالنسبة للمطر اذ بلغ مجموع ما هطل من الأمطار منذ الخريف أكثر من تسع بوصات وهو رقم قياسي في الكويت . وكانت الصحراء نتيجة لذلك في أحسن أحوالها فاغتنمنا هذه الفرصة للقيام بأكبر عدد ممكن من الزيارات لمعارفنا من البدو في الداخل ولأهل مخيمنا الذين كانوا يتجولون بعيداً عن الكويت . . ابعد من اي وقت مضى .

وبعد ليلة عاصفة ، كان صباح الاربعاء السابع عشر من آذار رائعاً مع أن الجو كان غائماً . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف أخذ المطر يهطل يرافقه رعد وبرق وغيوم كثيفة سوداء آتية من جهة الغرب . وفي الساعة الثانية والنصف قررنا ان نخرج الى مخيمنا بالرغم من شدة المطر . ولكن السماء بدت مشرقة الى الغرب تبشر بمساء جميل .

لم يكن بالامكان مغادرة المدينة على الطريق الرئيسية الى الرياض لأنه لا يمكن تخطي أرض صبخة بالقرب من المدينة بعد مثل هذه الأمطار . ولذلك بعد وصولنا خارج أسوار المدينة سرنا في طريق جالب (١) الشيوخ ولكننا لم نصل اليها بل عرجنا عنها تاركين الآبار الى يميننا الى ان وصلنا الى طريق السيارات المؤدي من مقوى (٢) الى الشدادية حيث عدنا فاتجهنا الى اليمين . وكان المطر لا يزال يهطل بشدة .

كان العشب هناك رائعاً شديد الاخضرار وافراً يزيد ارتفاعه عن القدم . وفر من أمامنا طائر وحيد يستمتع بالمطر وعبر الطريق متجهاً الى اليسار . ومن هناك الى ان وصلنا مفرق الدرب حيث يتجه طريق الرياض الى اليسار ويبقى طريق الشق مستمراً ، كان السفر مدهشاً . فالطريق رملي بالاساس ولكن الامطار جعلته صلباً ثابتاً .

واختلفت الصورة عند كبد وكبيد اذ كانت المياه تجري عبر الطريق كأنها نهر حقيقي الى بقعة على يميننا وتصب منها في بركة تكونت حديثاً . وفي أماكن أخرى قطع السيل الطريق نهائياً . وكان هنالك خطر من الخروج عن الطريق والغرق في الوحل الأبيض اللامع على جانبي الطريق .

وأخذ المطر يهطل بشدة كما لم يهطل من قبل ولكن ذلك كان الرشق الأخير اذ انه قبل أن نصل الى التلة الصغيرة المنحدرة بجانب الشمية العليا اشرقت الشمس .. وبدأت متاعبنا . فقد كانت التلة شديدة المزالق بحيث ان السيارة لم تستطع الصعود خطوة واحدة . وبعد أن قمنا بعدة محاولات لدفع السيارة الى اعلى ثم الى أسفل وفي كل مرة يلطخنا الوحل من اعلى الرأس الى اخمص القدم ، تخلينا عن هذه المحاولات لأنها عديمة الفائدة. ورأينا ان الطريقة الوحيدة للخروج من هذا المأزق هي أن نسير على طول جانب ارض النهر الى أن نلتقي بالطريق من الجهة الاخرى .

وهكذا كان وسارت الامور من هناك على ما يرام . وقد قطع المطر الطريق في عدة أماكن وفي أماكن أخرى كانت الأنهار لا تزال تجري عبر الطريق . والتقينا في الطريق بسيارتين واحدة ملأى بالفداويه والاخرى تقل الشيخ فهد السالم الصباح الشقيق الأصغر للحاكم الحالي وهو صديق لنا. وبعد التحيات المعتادة تابعنا سيرنا . وعلمنا فيما بعد أنه لجأ الى خيمتنا منذ الصباح اتقاء للمطر .

وصلنا الشق في الساعة الخامسة بعد الظهر وكان المشهد رائعاً بعد المطر . كانت برك الماء في كل مكان وقد اصطفت على جوانبها قرب للبدو ملأى بالماء . وكانت أعشاب النسمة تتمايل مع النسيم وتغطي المنطقة كلها على مد النظر ، وكانت الجمال سارحة ترعى بعشرات الآلاف . وقبل اسبوع فقط لم يكن هناك أثر لشيء حي باستثناء سالم المزين الذي كان ينتظرنا في خيمتنا الصغيرة . أما الآن فالجمال تملأ المكان في الشمال الغربي وفي الغرب وفي الجنوب الشرقي . وكانت تأتي من الجنوب الشرقي باتجاه الشق جمال ثقيلة الأحمال تنقل الخيام والأمتعة تتهادى بينها الظعن التي تقل نساء شيوخ مطير . انها الهجرة الشمالية الغربية الكبرى لقبيلة مطير الخارجة من الصمّان بعد ان وصلت اليها أخبار المراعي الجيدة وبرك الماء الكثيرة . فالذين رأيناهم هم الطليعة المتقدمة ولا بد ان يكون بندر الدويش وأتباعه خلفهم ان لم يكونوا بينهم . ان لمطير كلمة شرف ان لا تفصح في المجالس عن مكان شيخها الدويش . ولهذا السبب يصعب على المرء معرفة مكانه .

ولم يكن من السهل علينا إيجاد مخيمنا ولكن كلابنا تراكضت وراء السيارة مؤكدة صدق افتراضنا بان الخيام الخمسة البعيدة الى اليمين هي تلك التي ينتظرنا فيها سالم المزين والربع. وقبل غروب الشمس وصلت عائلة كاملة من مطير وحطت رحالها بالقرب من خيمتنا . وأنيخت الجمال الى الأرض محدثة أصواتاً مزعجة ثم أنزلت عنها الحمال وراحت الضلة الى جهة وتفرقت بقية الجمال ترعى بين الأعشاب النضرة بينما راحت العائلة تدبر المكان الذي ستقضي فيه الليل على شكل دائرة . ولكنهم لم ينصبوا خيمة لأنهم كانوا سيرحلون الى الشمال الغربي عنـــد الفجر . وعندما حل الليل ظهرت حولنا آلاف الأضواء المنبعثة من نيران الخيام وكأنها أعين حيوانات بعيدة انعكست عليها أضواء السيارات في الليل .

وبعد فترة نبحت الكلاب وترجل راكب عنـــد خيمة سالم وربط فرسه بعمود الخيمة . والقادم هو مطلق الاسقي الدويش وهو شيخ شاب من الدوشان جاء للزيارة . وأدخل الى خيمتنا حيث قدمت له القهوة. وقال إن خيامه قريبة منا وانهم وصلوا الى المكان عند الظهر تحت المطر . وقد شاهد سيارتنا قادمةمن خلال منظاره فأتى بعد حلول الظلام ليقدم احترامـاته . وتحدث الشيخ مطلق معنا ساعة ونصف الساعة الخيرة خلالهـــا كل اخبار مطير ومكان وجود بندر الذي كان لا يزال جنوب الشق ويتوقع وصوله في اليوم التالي . وبعد أن شرب مزيداً من القهوة استأذن بالذهاب . ونادى ولداً ليأتيــه بفرسه وهي فرس جميلة سمينة تبدو كأحلى مـــا تكون عليه الخيول الأصيلة في الربيع . وعلق مطلق بندقيته على ظهره وتوجه نحو فرسه .

وسألته قائلاً :

– هل تشرفنا بالغداء معنا غداً يا مطلق ؟ ان لدينا خروفاً ممتازاً .

ولم يجبني على سؤالي بل قال :

– هل اعجبتك فرسي ؟ سأعطيها لك انها حمدانية .

كانت فرساً رائعة ولا شك ولكننا لم نستطع قبولها. وقفز مطلق على السرج وانطلق نحو خيمته في الظلام .

كنت أبحث ونحن حول النار كيف ان الأرض مدورة فيكون في انكلترا شتاء في الوقت الذي يكون فيه باستراليا الصيف . وفي هذه الأثناء وصل لزيارتنا زنيفر بن حويله من قبيلة عجمان وبعد ان شرب القهوة اشترك في الحديث الذي تحول من البحث في ألغاز الكون الى ألغاز من نوع آخر .

قال زنيفر ان احد الشيوخ ترك سبعة عشر جملاً لتقسم بين أولاده بعد وفاته . بحيث يأخذ الابن الأكبر نصف حصة من الجمال ويأخذ الثاني ثلث حصة وينال الثالث تسع حصة . ووضع مع الوصية شرط يقضي بان لا يستبعد من القسمة جمل واحد او يباع أو يقتل تسهيلاً لعملية القسمة .

وتوفي الشيخ ولكن أحداً لم يكن يجيد معرفة كيفية تقسيم الجمال السبعة عشر حسب النسب الموضوعة . وتبع ذلك شجار عنيف كاد يتحول الى صراع دموي بين الاشقاء الثلاثة ومؤيديهم الى ان مر من هناك رجل غريب يركب جملاً فترجل وسأل عن أسباب العراك فأخبروه .

وبعد ان فكر برهة من الزمن سألهم ما اذا كانوا يسمحون له بحل المسألة فوافق الاشقاء الثلاثة وطلب الغريب منهم ان يحضروا الجمال أمامه ففعلوا . وضم الرجل جمله الى الجمال فاصبح عددها ثماني عشرة اعطى منها للابن الأكبر تسعة (نصف حصة) واعطى الثاني ستة (ثلث حصة) واعطى اثنين للأصغر (تسع حصة) وبقي جمله فركبه وانصرف . ورضي الجميع بهذا الحل .

عندما بزغ ضوء النهار في الصباح التالي بدأت الجمال تتحرك بعيداً عن الخيام التي قضت الليل بجانبها وقد سار الرعاة في طليعتها ودعوها تتبعهم . وكانت بعض تلك القطعان تخص الملك وكان لتلك التي أخذت ترعى أمام خيمتنا في وقت لاحق من الصباح وصمه الخاص على افخاذها اليسرى . وكان بعض تلك الجمال بحالة جيدة والبعض الآخر لم يكن نظراً لرداءة الصيف الماضي . وقد فصل عدد كبير منها عن بقية الجمال لمعالجته من الجرب بالكلس والقطران . ويظهر هذا الجرب في الجمال عادة في السنين العجاف عندما تهزل بسبب قلة المراعي . اما القطيع الذي أهداه عبدالله بك الفالح السعدون للملك منذ

عدة سنوات فكان يرعى بجوار خيمتنا طول النهار .

وبعد الغداء رأينا أحد الرعاة يجمع عظام جمـــل ميت ويصفها بعناية على شكل هيكل عظمي وضع فوقه باقة من الزهور البرية . ولما سألناه عن القصد من هذه العملية قال انها لتخويف الجمـال . وعلمنا السبب الحقيقي فـيما بعد . فالجمل يلتقط اية عظمة تصادفه ويمضغها فيمنعه ذلـك من التغذي على الأعشاب وبذلك يفوت على نفسه فرصة السمنة والاكتناز . ولكن عندما تجمع العظـام بالطريقة التي شاهدناها يخاف الجمل ويعف عن أكل العظام .

شهد ذلك اليوم تحركات مستمرة فـيما كان مختلف الشيوخ ينتقلون الى الشق ليأتي غـــيرهم من الجنوب الشرقي فيحلوا محلهم . وكان من الصعب جـداً على الرعاة منع قطعانهم من الاختلاط بقطعان جيرانهم . وكانت ذكور الجمـــال تربط بحبل من أقصى الخلف الى المقدمة لأن موسم التنـاسل قد انقضى وكانت الجمال الصغيرة البالغة من العمر شهرين او ثلاثه تسير مع أمهاتها ..

خرج الشيخ مطلق باكراً صقره على معصمه ومعه كلبه وخادمه . والتقينا به عندما كنا متوجهين لزيارة شياح الجبلي . ولما لم يكن هنالك صيد يذكر جـاء مطلق معنا وشرب القهوة في خيمة شياح الذي سر كثيراً لأنـــه وجد نفسه في وسط الهجرة الكبرى لقبيلة مطير . وتعددت الزيارات بين السيدات في مختلف فروع مطير وقام عدد كبير منهن بزيارة طفاله زوجة شياح وهي سيدة بدويـة خارقة من عائلة عريقة ، إذ انها كانت بعيدة عن صديقتها عدة أشهر . وكان واضحاً انهن يعرنها كثيراً من الاهتمام . وقـد ساعدتها هدية من الشاي والسكر قدمناها لها في تكريم ضيوفها . وقد وعدتنا بأن تأتي لتناول الشاي مع زوجتي ولكنها لم تتمكن من ذلك . واستغرق مرور الهجرة من أمام خيمتنا أسبوعاً . ومن هناك اتجهت نحو اليسار ثم بدأت تسير نحو الجنوب الشرقي ثانيـــة ولكن بطريق أكثر انحرافاً نحو الغرب عبر منطقتي الدبدبة وقرعـة وذلك للعودة الى الصمّن — أرض مطير — مرة أخرى .

ولم يتسنَّ لنا مقابلة بندر الدويش الشيخ الأعلى في مطير إلا بعد عودتنا الى

الكويت عندما نقل الى مستشفى الارسالية الأميركية لمعالجته من لبطة جمل في معدته عندما كان يعالجه من الجرب . أما والدة بندر فهي سيدة من سبيع تدعى « البيضا » نسبة الى لون بشرتها .

العم الشرير

قبل عودتنا الى الكويت ذهبت وزوجتي الى الصيد في سيارتنا . وقد قمنا برياضة جيدة وبدأنا السير في منطقة الى الجنوب من سلسلة المسناة في المملكة السعودية . كانت المنطقة مهجورة تماماً وقد شاهدنا آخر بدوي في منخفض الشق حيث تركنا خيمتنا مع سالم المزين وجماعته على بعد ثلاثين ميلاً .

ولاح لنا في البعيد شخصان يسيران بين شجيرات الحمض. ان وجود شخصين يسيران على الاقدام في تلك المنطقة المقفرة أوحى لنا بأن جمليهما قد ماتا فاتجهنا نحوهما لمساعدتهما قدر ما نستطيع . ولما اقتربنا منهما أدهشنا أن نرى ان الشخصين ليسا إلا امرأة عجوز تجر بيدها فتاة لا تتجاوز الثامنة من العمر . وكان التعب والاعياء باديين عليهما . ولما وصلنا إليهما قالت العجوز انهما من الجوارين من قبائل المنتفق وان خيمتها تقع عند الجهة الشمالية من سلسلة المسناة . وقالت انها قبل خمسة أيام عثرت على تلك الفتاة البدوية الضائعة تموت عطشاً في البرية فنقلتها الى خيمتها وأنقذتها . ولما كانت العجوز وولداها مهاجرين نحو حفر الباطن فإنها لم تكن تعرف ماذا تفعل بالفتاة . وعندما شاهدت سيارتنا من بعيد استغلت غياب ولديها وشقت طريقها نحونا مع الفتاة على أمل أن نأخذها منها ونتمكن من معرفة أهلها وتسليمها لهم .

ووافقنا على ذلك وأتينا بالفتاة الى خيمتنا في الشق مع حلول الظلام . لقد كانت جميلة رائعة واسمها ثريا . ولم تكن خجولة أبداً ويبدو انها كانت شديدة الامتنان عندما علمت اننا قادمون من الكويت وسنأخذها معنا الى هناك ونسلمها الى والدتها . وفي تلك الليلة أخبرتنا قصتها .

قالت انها ابنة جزّاع[1] وهي أرملة مطيرية تعيش في الشامية خارج الكويت ،

وان لها شقيقة أصغر منها تدعى وسمية وأخ صغير يدعى محمد . ولثريا عم يدعى الشقيحي كان يلقي نظره على العائلة الصغيرة ولكنه لم يكن رجلاً طيباً . فهو يعيش لوحده في الصحراء مع أغنامه وجماله القليلة ولذلك أصر على ان يأخذ ثريا من والدتها لتطهي له الطعام وتعتني بخيمته في غيابه . ولم تجرؤ والدتها على رفض طلبه لأن الشقيحي شقيق زوجها الراحل ومسؤولاً عن عائلتها . وقبل ستة أيام أرسلها عمها لترعى الجمال في بلاد الحمض وهناك غلبها النعاس فنامت تحت احدى الشجيرات . ولما أفاقت لم تجد اثراً للجمال . وظلت تبحث عن الجمال الضائعة يوماً كاملاً وبعد ان أعياها البحث سقطت الى الأرض بسبب العطش . وقد عثر عليها رعاة مهاجرون من الجوارين فنقلوها الى خيمتهم واعتنوا بها . ولكن هؤلاء الرعاة انفسهم كانوا في أرض لا ماء فيها ويستعجلون الخروج منها . وقد اعتنوا بها خمسة أيام وسرهم الآن ان تخلصوا منها .

واعتنينا بثريا قدر الامكان لأنها كانت من اطيب وأحلى البدويات اللواتي صادفناهن اثناء السنوات الطويلة التي قضيناها في الكويت . وقد تصرفت فوراً معنا على أساس اننا والداها فكانت تهرع الينا عندما نعود من رحلةصيد وتطوقنا بذراعيها وتقبلنا . وكانت تلتصق بنا في الخيمة بالليل لتدفأ تحت معاطفنا المصنوعة من جلد الخروف .

وعندما عدنا الى الكويت لم نتمكن من العثور على والدتها إلا بعد مضي فترة من الوقت . وظلت ثريا تقيم لثلاثة أيام مع احدى صديقاتنا في المدينة وهي عمشا بنت ابراهيم المزين . وقد ساعدنا في البحث عن جزع حارس مطيري على دروازة نايف يدعى رجعان . وبواسطته تمكنا من معرفة مكانها ففرحت فرحاً عظيماً باستعادة ابنتها ثريا . وتصادقنا مع ام ثريا وتعرفنا على وسميه ومحمد . وكنا طوال سنة كاملة نقوم بزيارات منتظمة لهم . ولما كانت ظروفهم صعبة نظراً لعدم وجود معيل لهم ، فقد تمكنا من مساعدتهم كثيراً .

وبين ليلة وضحاها اختفت الأم واطفالها الثلاثة في ظروف غامضة . وقال جيرانها انها ذهبت الى الزبير في العراق خوفاً من ان يأتي الشقيحي – العم

الشرير – ويجبرهم على الذهاب معه الى الصحراء لخدمته . وقال غيرهم ان لجزع صديقاً قرب الزبير اراد ان يتزوجها فبعث لها ان تأتي الى الزبير سراً دون ان تترك خلفها اثراً .

لقد افتقدنا ثريا كثيراً لاننا احببناها وتولعنا بها كثيراً . ولكن غريزة حب الوطن قوية في نفوس البدو ولذلك كنا نشعر بثقة اننا سنلتقي بها مرة ثانية .. ربما عندما يزول العم الشرير ..

مدينة تحت الرمال

لقد اشرنا سابقاً الى محمـــد بن سالم بن دراهم المرّي الذي زار الكويت سنة ١٩٤٣ وأخبرنا قصصاً ذات أهمية . وتتعلق واحدة من هذه القصص بعـــاد بن جنعاد ملك أوبار (او أبار)* الاسطوري . وقـــد اخبرنيها محمد في الثاني من نيسان من تلك السنة بعد وقت قصير من عودتنا من الشق .

قال محمد ان أهل المدينة يعرفون هذا الملك الاسطوري الوحش باسم عـاد ولكن آل مرّه يعرفونه دائماً باسم عاد بن جنعاد . وكان هذا الملك يعيش في أوبار في وسط الربع الخالي . وهذه المدينة العجيبة التي اطلقت عليها قبيلة آل رشيد وأهل جنوب الجزيرة العربية اسم أوبار وجدت في اواسط جنوب الجزيرة منذ مئات السنين . ويقال ان أعالي قلاعها مغطاة بالذهب وقصورها مغطاة بالفضة المزدانة بالاحجار الكريمة . وفيها حدائق تعرف باسم جنات عاد تضم حوريات اجسادهن نقية كالبلور . والحوريات المذكورات لا يأكلن طعاماً بل يشربن الماء أو الحليب فقط وعندما يشربن من الانهار الجـارية يمكن مشاهدة المــاء وهي تنحدر في حنـاجرهن . ولم تدنس أجسادهن ايـــة أعمال غير نظيفة بل كن طاهرات طوال الأزمان . هذا هو الجزء السماوي من المدينة .. اما الجزء الآخر

---

* – هذا الاسم هو المعروف لدى آل مره والعوازم وغيرهم من القبائل الجنوبية . اما أهل الاحساء ونجد فيسمونه وبار .

ففيه الجحيم حيث أقيمت أفران تتأجج فيها نيران دائمة . والأرواح التي يكتب لها ان تقيم هناك تظل دائماً عطشى تطلب الماء البارد .

وقرر الملك عاد يوماً، وهو الذي يستطيع الحصول على كل ما يتمناه في الأرض ، ان يركب ظهر طائر ويتوجه الى الله في السماء ليقتله . فاستدعى جميع النسور واختار اكبرها وأقواها . وبعد ان علق قطعة من اللحم النيء على عصاه امتطى ظهر النسر وطار به . واستمر صعداً يوماً بعد يوم لمدة طويلة . وبعد شهرين التقى ببعض الملائكة الذين سألوه عن المكان الذي يقصده وعن مبتغاه . فقال :

ـ انني ابحث عن الله لأقتله .

وكذب عليه الملائكة بقولهم :

ـ ليس الله هنا .. انه تحت في الأسفل .

وعندما انحنى الملك عاد قليلاً الى الامام انحرفت العصا وعليها قطعة اللحم الى أسفل امام النسر الذي انقض عليها فجأة وبسرعة فسقط عاد عن ظهره .

كان نزوله تدريجياً اذ استغرق عشرين سنة انحل جسده خلالها ولم يصل منه الى الأرض إلا جمجمته الضخمة . وغضب الله فأمر الرياح ان تدفن مدينة أوبار الرائعة وتغطيها بالرمال .

وحدث ان كان ذئب يتجول في الصحراء فعثر على جمجمة عاد . ولكي يحتمي من حرارة الشمس دخل الذئب في فجوة العين اليسرى وكأنه داخل الى كهف . ومر غزال من هناك ايضاً فدخل في فجوة العين اليمنى ليتفيأ في داخلها . ثم جاء بدوي يركب جملا كان قد رأى هذه الكتلة الكبيرة البيضاء من مسافة بعيدة واراد ان يعرف ما هي . فلما اقترب منها هرب الذئب . ولما اتجه البدوي الى الجانب الآخر هرب منها الغزال . كانت الجمجمة كبيرة بحيث ان الذئب والغزال لم ير أحدهما الآخر في داخلها . وزاد فضول البدوي لمعرفة ما هي تلك الكتلة .. أهي صخر أم عظم .. فقرع الجمجمة بعصاه وعلى الفور خرج منها صوت يقول :

– لا تدع الشكوك تساورك .. لا تضحك . (او كما يقول آل مره : كب الفاقه عنك .. لا تمزح) .

وارتعد البدوي وركب رأساً الى سليمان بن داود وأخبره بما رأى : كيف انه مر في الصحراء على القسم الأعلى من جمجمة ضخمة ، وكيف انه عندما اقترب خرج من فجوة العين اليسرى ذئب ومن فجوة العين اليمنى غزال .. واخبره انها كبيرة الى درجة لم ير واحدهما الآخر . وقال :
– قرعتها بعصاي فخرج منها صوت يقول « كب الفاقه عنك .. لا تمزح » .
وسأله الملك سليمان اذا كان يستطيع ان يرشده الى المكان فأجابه :
– بالطبع .. افلست انا بدوياً من تلك الانحاء ؟
ووعده الملك سليمان بانه اذا صدر عن الجمجمة صوت حين يقرعها فسيعطيه وزنه ذهباً أما إذا لم تنطق فسيقطع رأسه .

وتوجه الملك سليمان ورفاقه بصحبة البدوي الى حيث ترقد الجمجمة العظيمة في الصحراء المجهولة . ولما وصلوا إليها قرعها الملك سليمان بعصاه فلم تنطق وأعاد الكرة مرة ثانية وثالثة ولكن دون جدوى . فأمر خدامه أن يقطعوا رأس البدوي . وعندما فعلوا ذلك طاعة لأمره بدأت الجمجمة تخاطب الرجل المقطوع الرأس بقولها : « كب الفاقه عنك .. أنا ما قلتلك « كب الفاقه عنك » ؟ لا تمزح عليّ » .

ولما نطقت الجمجمة حزن الملك سليمان كثيراً لقطعه رأس البدوي ووقف يتأمل لمعرفة ما سيفعله . وقرر أن يستدعي جميع طيور السماء ليسألها ما إذا كانت تعرف ملكاً عجيباً يدعى عاد بن جنعاد . ولبت الطيور طلبه ولكنها جميعها أبلغته أنها لم تسمع بملك يدعى عاد بن جنعاد . وجاء نسر قديم بالغ القدم يزحف .. أكل الدهر عليه وشرب بحيث لم تعد هنالك على جسده ريشة واحدة . وسأله الملك سليمان إذا كان قد سمع بعاد بن جنعاد الذي كان يعيش في مدينة عظيمة بنيت بالذهب والفضة تدعى أوبار . وقال له الملك :
– إذا كنت تستطيع أن تخبرني عنه فسأمر بيدي فوق جسدك العاري

فينبت فيه الريش من جديد وتعود وكأنك طير شاب .

وأجابه النسر بقوله :

— نعم أيها الملك . لقد سمعت بعاد بن جنعاد وبإمكاني أن أدلك على مدينته العظيمة المبنية من ذهب وفضة ومن مرمر وياقوت .

ورفع الملك يده فوق ظهر النسر فنبت ريشه في الحال وعـــاد إليه شبابه فاقتاد الملك سليمان ورفاقه الى المكان حيث تقوم فيه أوبار تحت الرمال . وطار النسر فوق المكان وقال للملك سليمان : « هنا تحت الرمال ترقد أوبار » .

واستدعى سليمان الشمال (الرياح الشمالية — الغربيـــة) لتهب وتحدث عاصفة شديدة من الغبـــار . ثم استدعى القوس (الرياح الجنوبيـــة الشرقية) لتحدث عاصفة مماثلة . وبعــــد استدعى الرياح الغربية فالشرقية . وبعد أن هدأت العواصف انكشفت مدينة أوبار أمامـــه فدخل إليها سليمان ورأى بـأم عينه بنيانها المشيد بالذهب والفضة والمرمر والياقوت . ورأى كذلك الحدائق التي كانت تعرف بجنات عاد ، والجحيم الذي لا تنطفىء ناره أبداً .

دب الهلع في قلب الملك سليمان عندما رأى كل ذلك لأنـــه خشي أن يغضب الله عليه ويعاقبه فيما لو بقي هناك . فخرج من مدينة أوبار ودعا الرياح الأربـع فهبت بكل قواها وغطت المدينة من جديد . وهي الى اليوم مدفونة تحت رمال الربع الخالي .

وعاد الملك سليمان الى بلاده . حدث ذلك في أيام الملك سليمان بن داود .

هذه هي القصة كما رواهـــا لي محمد بن سالم دراهم المرّي . عندما انتهى من الكلام سألته مـــا إذا كان هو او أي فرد آخر من قبيلته يعرف بالضبط موقع أوبار اليوم . فأجاب انهم بالتأكيد يستطيعون القول إنها تقع في مربع من الأرض ضلعه عشرة أميال ولكن الموقع بالضبط لم يكتشف بعد؛ ذلك لأن كثافة الرمال تجعل من المستحيل القيام بحفريات هناك . ولكنه قـال إن البدو في تلك المنطقة يلتقطون أحياناً قطعاً من الخزف وقوارير مكسورة عندما تكشف الرياح عنها الرمل . إن الرمال هنـــاك حمراء اللون وتشع في نور الشمس وكأنها ممزوجـة

بالذهب . أما كثبان الرمل الرئيسية في الربع الخالي فهي بيضاء اللون وتتحرك باتجاه الشمال سبعة أذرع سنوياً .

وتذكرت أن فيلبي يظن - كما جاء في كتابه « الربع الخالي » - ان أوبار أو وبار كما يلفظها وكما حددها على خريطته ، ربما كان قد دمرها نيزك وان أم الحديده حيث يبدو واضحاً أن نيزكاً قد اصطدم بالأرض هناك تقوم مكانها .

وسألت محمد ما إذا كانت لآل مرّه أية تقاليد تقول بأن أوبار قد دمرت بفعل نجم سقط من السماء ، فأجاب :

- لا .. لقد طغت عليها الرمال .

واستوضحته بقولي :

- كيف إذن تمكن آل مرّه من تحديد موقعها التقريبي ؟

وكان جوابه ان آثاراً قديمة لا تزال موجودة في الصحراء لا سيما فوق الاجزاء الصخرية المكشوفة وكل تلك الآثار تشير الى مكان واحد وهو المدينة المدفونة تحت الرمال . ووصف لي موقعها العام حسب تقاليد آل مرّه بقوله :

- بين بلاد آل رشيد وبين وادي دواسر ، وبين ام الحديده وبين الدكاكه .

وقال ان آل مرّه يعرفون المنطقة اليوم باسم « محمل الصيد » لأنها يكثر فيها الوعل والغزال والنعام . ويوجد في رمالها الكثير من « الداموسه » (نوع من الزحافات التي تشبه التمساح) .

وسألته :

- كم تبعد أوبار هذه عن أم الحديده ؟

- خمسة أيام على الجمال في الاتجاه الذي يغيب فيه نجم سهيل .

وذلك يعني ان تقع جنوب ام الحديده .

واضاف محمد قائلاً :

- ونحن آل مرّه لدينا خرافات واعتقادات تقول انه اذا حاول أحد كشف هذه المدينة يعاقب الله العالم .. وتكون النهاية .

وسألته ايضاً :
- اصحيح ان المرشدين المرّيين الذين رافقوا فيلبي خافوا عندما اقتربوا من المكان واقنعوه بأن ام الحديده هي المكان الذي توجد فيه أوبار ؟
وقال محمد بن سالم : لا شك في ذلك أبداً .

اغنية غريهبان[1]

قال محمد بن سالم انه كان يعيش في جوار نجران رجـــل من مرّه وزوجته وولداهما . وكان الولد الأكبر مختل العقل فكان أخوه ، وهـــو بحالة طبيعية ، يضحك عليه ويسخر منه .

مرض الأب ومات تاركاً ارملة وولدين. وتزوجت هي مرة أخرى وانجبت ستة أولاد من زوجها الثاني . كان ابنها الأكبر يدعى غريهبان وكانت حياته قد اصبحت تعيسة بسبب اضطهاد اخوانه له . فقـد كان له طريقه الخاص على كل حال ولم يكن ليخرج بدون قطعة من الخشب يركب عليها متظاهراً بأنـه شيخ يركب فرسه . وعندما بدأ يبلغ سن الرشد كان يقول لأخوانه دائماً انه سيقتلهم في يوم من الايام ولكن ذلك زاد في سخريتهم منه .

وذات يوم ذهب غريهبان الى زوج أمه وطلب منـــه ان يعطيه حصته من الاغنام والجمال وان يسمح له بالزواج. فسخر منه الرجل في البداية ولكنه عندما رأى ان الشاب جاد في كلامه وان نظرات الحقد والكراهية تنبعث من عينيه ، ارتعد وخاف .. ولكن بعد فوات الاوان. فقد استل غريهبان خنجره وبطعنة سريعة واحدة ارداه قتيلاً .

واصبحت ثروة العائلة كلها لغريهبان وبدل الخشبة أصبح يركب فرساً أصيلاً. ثم تزوج فتاة في القبيلة اشتهرت بجمالها لها شعر طويل يتدلى حتى قدميها .

كان غريهبان كل ربيع وشتاء يطوف الصحراء مع زوجته وقطعانه . وذات يوم كان عليه ان يقوم برحلة الى طويبع في نجران لشراء المؤن. واثناء غيابه جاء غزاة من قبيلة معادية فاقتادوا قطعانه ونهبوا خيمته واثاثها وأخذوا ثياب وحلي

[1] الغريهبان

زوجته وتركوها عارية في الشمس .

ولدى عودته من المدينة حزن غريبيان كثيراً لما حـــدث واتجهت افكاره بالدرجة الأولى الى زوجته العارية . وفي الوقت نفسه صعقه لون بشرتها البيضاء وشعرها الجميل الطويل فدعاها ان تأتي اليه ولكنها خجلت من التحرك من مكانها فخلع كوفيته الحريرية عن رأسه وغطاها بها . ثم حملها وراءه على فرسه وامرع بها الى خيمة مجاورة لاصدقائـــه حيث تركـــها هناك وامرع ليلحق بالغزاة لاستعادة ممتلكاته منهم .

ولم تكن فرسه مجربة بعد فيما يختص بالسرعة ولكنها اثبتت انهـــا جديرة بسمعتها . ولحق بالغزاة في الليـل فيما كانت القطعان ترعى فقتل شيخهم وسبعة عشر رجلا آخرين ولاذ الباقون بالفرار .. فأعاد ماشيته المسروقة الى منزله .

وبعد هذا النصر المبين أعلن غريبيان شيخا على فرع قوي من فروع آل مرّه ولا يزال اسمه شهيراً في القبيلة الى اليوم . وعندما يسير آل مرّه عبر رمال الربع الخالي المقفرة يدندنون وينشدون اغنيات تتغنى بغريبيان وفرسه وشجاعته وقدرته على قتل الغزاة بمفرده ، وتتغنى بخيمة غريبيان وكل شيء يخصه .

وهذه هي اغنية غريبيان كما نقلتها على لسان محمد بن سالم بن دراهم المرّي .

التي سبق ما يتقط راكبها (١)

إلا لنهار وريدها على الطويبع

قد ما الرجال القصير عنها

إلا يعرضها شبوى الصنداييع

* * *

لما جيت القى بها مسلوبه

تدري من دمعة عينها انا جميله

بيضا وقت البياض بصفاره

مثل لون الذهب والفضه البياضا

* * *

لاهي بنت قصيره .. قصيره شاينه
لاهي بنت طويله وباي
وان كان خقت البلا ورديتها
فين الرقايد مال سوداي

* * *

خقت شيخ القوم ثم ذبحته
غدا الجمال ليلة السدرا في ظامه
ذبحت منهم تسعة وثمانيه
ورديت هزهم على جزلاي

* * *

وكما ذكرت اي. س. ستيفنز في كتابها «حكايات شعبية من العراق» فان كثيراً من المقاطع مقلوبة في اغاني آل مرّه الذين لهم لهجة خاصة بهم . ويصعب ترجمة اغنية غريبان هذه بأمانة ودقة لأن بعض الكلمات فيها ليست مفهومة حتى باللغة العربية . ولكن المعنى الاجمالي لهذه الاغنية هو كما يلي :

لم أجرب خطواتها من قبل
إلا عندما ركبتها الى آبار الطويبع
ان الرجل القصير لا يستطيع ان يضع اللجام في فمها
إلا عندما يقف اعلى منها على ارض مرتفعة .

* * *

وعندما عدت وجدت زوجتي عاربة
والدموع تنحدر من عينيها الجميلتين
كان جسدها ابيض لدغته الشمس بالصفار
فأصبح بلون الذهب والفضة التي بيدها .

* * *

لم تكن قصيرة .. بشمه

ولم تكن طويلة غير لائقة
فاذا لم الحق بالجمال واعيدها
فسأنام مع امرأة سوداء

* * *

لحقت بشيخ القوم وقتلته
وكانت الجمال ليلة السدرا ترعى بهدوء في الظلام
وقتلت تسعة وثمانية من الغزاة
واعدت كل شيء الى عائلتي

ابن تعذاب المرّي

استطاع محمد بن سالم ان يؤكد لي حقيقة قصة رواها لي في السنة ذاتها محمد بن عبداللطيف المانع من أعيان قطر .

قال انــــه منذ عدة سنوات كان يعيش في صحراء الجفورة (الى جنوب — غربي قطر) شيخ شهير من فرع البهيته في آل مرّه اسمه تعذاب وينتمي الى عائلة ابن ديلا . وقد تزوج تعذاب من امرأة شابة لكنها لم تعجبه . وبعد ان قضى معها سنة لم تنجب له خلافــــا ولداً قرر ان يطلقها ليتزوج غيرها .. ولم يكن يعرف انها حامل .

ولا يجيز القانون في الجزيرة العربية لمرأة المطلقة ان تتزوج قبل مرور ثلاثة أشهر قمرية (أي بعد مرور ثلاث دورات طمثية) وذلك للتأكد من انها ليست حاملاً من زوجها الأول . ولكن في تلك الأيام لم تكن تلك القبيلة البدائية تتبع الشريعة الاسلامية بحذافيرها ، فبعد مرور خمسة عشر يومــــاً تزوجت زوجة تعذاب السابقة من رجل آخر يدعى جابر من فرع آل جابر في قبيلة مرّه . وفي الوقت المناسب انجبت ولداً فرح به الجميع .

وبعد خمس أو ست سنوات انتشرت شائعات بين قبيلة البهيه ان لتعذاب ولداً يعيش مع آل جابر . ان لآل مرّه مهارة عجيبة بحيث انهم اذا شاهدوا آثار

اقدام الأب ، حيواناً كان أم انساناً ، يستطيعون معرفة هوية نسله . وقد أكد عدد من الرجال الذين شاهدوا آثار أقدام الصبي انها تشبه تماماً آثار اقدام تعذاب.

ولما سمع تعذاب بهذه الشائعات أجرى مزيداً من التحقيقات فلما اقتنع بحقيقتها أرسل يطلب اعادة ابنه له . ولم يعترف آل جابر بادعائه في البداية مما أدى الى نزاع طويل الأمد تخلله قتال وغزو بين العشيرتين . وفي النهاية – وكان الصبي قد بلغ سن الرشد يعرف باسم هادي – حدثت معركة انزلت فيها قوة ابن ديلا الهزيمة بآل جابر . وبذلك انتهى النزاع لأن هادي عرف حقيقة نسبه فوافق ان ينضم الى والده الحقيقي تعذاب .

واشتهر هادي بن تعذاب المرّي بشجاعته وكرمه للجميع . وتروى عنه قصص انه كان يحتفظ بالنار مشتعلة طوال الليل امام خيمته في الصحراء يرشد المسافرين الى خيمته حيث كانت تحسن وفادتهم ويحضر لهم الطعام . وعندما توفي والده تعذاب اصبح هو شيخاً على العشيرة وخلفه بعد مماته شيخان آخران هما رشيد بن ديلا المرّي ومحمد بن جادالله المرّي .

المعركة مع شويعر اليمني

هذه قصة خرافية أخرى رواها لي محمد بن عبداللطيف المانع وتتعلق بعلي بن مرّه جد قبيلة آل مرّه .

كان علي بن مرّه يعيش في نجران في جنوب غربي الجزيرة العربية . ولم يكن قومه على علاقة ودية مع أهل اليمن . وبعد منازعات ومناوشات صغيرة قرر ان يخوض معهم معركة حاسمة . فسار مع قومه لمجابهة شويعر اليمني الذي يقال انه من قبيلة قحطان ، وقاتله يوماً كاملاً سقط خلاله عدد كبير من القتلى بين قوات الطرفين . وتجدد القتال سبع مرات بحيث لم يبق على قيد الحياة سوى القائدين علي وشويعر اللذين اوقفا القتال وعاد كل منهما الى أهله .

كان وقف القتال موقتاً اذ ان علياً عاد لتجديد النزاع آخذاً ابنه معه هذه المرة . وحدث ان فعل شويعر نفس الشيء . واشتبك الطرفان فكان ابن علي

يقاتل شويعر وابن شويعر يقاتل علياً . وتغلب علي على ابن شويعر وقتله بطعنة من خنجره ولكنه في هذه الاثناء سمع ابنه يستغيث طالبـــاً النجدة فهرع اليه قائلا :

– لبيك يا صبي .. قبل ان تفضحك صرخت !

وقبل ان يسدد طعنة نجلاء إلى قلب شويعر خاطب ابنه بصوت عال قائلاً :

– والله تمت مثل العير أصلي حيى على الفلاح .

واهتزت الأرض وانفتحت عند أقدامهـا هوّة سحيقة ابتلعت شويعر .. فخاف علي وابنه وقال :

– والله قلت للقصير لا تزح .. والله كانت اباعيرهم جربى واباعيري أصحا .

وانسدت الهوة السحيقه ورأى الله ان علياً بن مرّة رجـــل طيب فباركه ووعده بأن نسله سيتكاثر الى أن يصبح بعدد رمال الصحراء .

كلب الهفوف الأسود

وهذه قصة من عجمان رواها لي في ١٣ نيسان سنة ١٩٤٣ زعيم شاب في تلك القبيلة اسمه سعد بن منيف الحبيشي .

في قديم الزمان كان أحـد أجدادي وهو رجل يدعى عجيم بن علي مسافراً على ذلوله من نجران حيث كان يقيم قاصداً الهفوف . وبعد أن سار قرابة خمسة وعشرين يوماً مرّ في بقعة موحشة من الصحراء حيث التقى بشخص ظنه وحيداً ولكنه كان في الحقيقة من الجن . فحياه الغريب وسأله عن وجهة سيره فأجابـه عجيم بقوله :

– الى الهفوف في الاحساء .. لدي شغل هناك .

وقال الغريب :

– وأنا أيضاً لدي شغل مهـــم في الاحـساء ولست أعرف كيف سأصل الى هناك سيراً على الأقدام لأنها بعيدة .

– تعال واركب معي .. أهلا بك .

قال عجيم ذلك وأركب الغريب وراءه على ذلوله . وسارا عدة أيام الى أن ذاء الذلول بحمله فسقط من الاعياء . وأصبح عجيم الآن رفيق الغريب (او خويّه) ولم يعد بإمكانه ان يتركه في الصحراء . ولذلك اقترح أن يبقى مع الأمتعة ويذهب الرجل الآخر لوحده وحثه على ذلك بقوله :
- خذ الذلول واذهب لقضاء شغلك في الاحساء وعد إليّ بأسرع وقت ممكن .

ورفض الغريب هذا الاقتراح علماً منه بالخطر المحدق برجل وحيد في الصحراء . لا سيما خطر ان يأكله الذئاب . وقال :
- إذا كنت تقضي لي شغلي فلا حاجة لي بمتابعة السفر بل سأعود من حيث أتيت .

ووافق عجيم أن يفعل كل ما يطلب منه مقسماً بالله وبوجهه .
قال الغريب :
- عندما تصل الى الهفوف اذهب بعد الظهر قبل الغروب الى البوابة الشرقية للمدينة وهناك تجد راقداً في الظل كلباً كبيراً أسود اللون تماماً ليست فيه شعرة واحدة بيضاء . إذهب إليه وارفسه ثم ربت على رقبته . وعندما يعهد اسأله : « أأنت السيد نوري » فيجيبك : « نعم أنا هو » . عندئذ تقول له : « محمد نوري مرصيني عليك أقول لك أخوك انذبح في نجران وانا مضيم وأنت لا تخلني » . ويجب أن تكون حذراً لئلا يسمع أحد الحديث .. ثم افعل ما يأمرك به .

وركب عجيم ذلوله الذي استعاد نشاطه تاركاً الغريب هناك ووصل الى الهفوف . وفي المساء توجه الى البوابة الشرقية كما طلب منه وهناك وجد بالفعل كلباً أسود اللون في ظل برج البوابة . ولكن كان هناك عدد كبير من الناس . وعاد مساء اليوم التالي فوجد الكلب في مكانه ولكنه وجد بعض الناس أيضاً . وفي اليوم الثالث عاد في ساعة متأخرة فلم يجد أحداً سوى الكلب النائم فرفسه وربت على رقبته ولما همهم الكلب عليه بضراوة سأله بقوله : « أأنت السيد

نوري ؟ » .

فتحول الكلب فجأة الى انسان وأجابه : « نعم أنا هو » .

فقرأ عجيم على مسامعه الرسالة التي كلف بأدائها .. ورد عليه الرجل بقوله :

ـ لا أستطيع ان أساعده بشيء حتى يزول مني ذلك السحر الذي يحولني الى كلب أسود كل مساء. ولن يزول السحر إلا عندما أتزوج ابنة عيسى القصيبي. ان الشياطين تسكنني الآن . يجب أن تصادق العائلة ثم تقتل الديك الأصفر عندئذ يصبح بإمكاني ان آتي وأتزوج الفتاة الجميلة.. في هذه الحالة فقط أستطيع أن أتحرر من هذا الكابوس .

وبعد ان أنهى كلامه عاد الرجل فتحول الى كلب أسود .

دهش عجيم لما رأى وراح يبحث عن منزل عيسى القصيبي . وأرشد الى المنزل حيث تعرف على عيسى الذي دعاه ليعين وقتاً يأتي فيه لتناول القهوة معه . ووعده عجيم ان يأتي في المساء قبل الغروب .

وعندما عاد الى المنزل أدخل الى الديوانية المفروشة بالسجاد وقدمت له القهوة .

وصاح مضيفه قائلاً : « هات قدوه » (أي حلوى) فدخلت الى الغرفة صبية حسناء تحمل صينية ملأى بالتمر ووعاء ماء .

هذه هي ابنة عيسى القصيبي . فبعد ان شغلت نفسها بعض الوقت في الغرفة خرجت حاملة الصينية معها . وجلس عجيم بعض الوقت بعد تناول القهوة ثم لاحظ ديكاً أصفر اللون يتايل خارج الغرفة ولما حان وقت مغادرته أنقد عجيم مضيفه ثلاث قطع ذهبية فسأله عيسى :

ـ متى ستشرفنا مرة ثانية .. البيت بيتك ويسرنا ان نراك دائماً .

وفي اليوم التالي ذهب عجيم الى هناك لتناول القهوة فقدمت له الصبية الحسناء التمر كما فعلت في اليوم السابق . وفي هذه المرة دخل الديك الأصفر الى الغرفة . وقبل مغادرته انقد عجيم مضيفه ثلاث قطع ذهبية . فقال عيسى :

ـ نريدك أن تأتي لتناول الطعام في المرة القادمة وليس فقط لشرب القهوة..

متى تأتي ؟

ووعده عجيم ان يأتي عند الغروب في اليوم التالي لتناول طعام العشاء . وتم ذلك في الوقت المحدد وكالعادة وضع عجيم ثلاث قطع ذهبية في يد عيسى الذي قال له :

– هذا البيت بيتك .. تعال لزيارتنا في أي وقت تشاء .

وقام عجيم بزيارة عيسى عدة مرات شرب خلالها القهوة ولم ينس ان ينقد مضيفه قطعتين او ثلاثاً من الذهب في كل مرة . وذات صباح ذهب الى المنزل الذي يبدو انه لم يكن فيه أحد فجلس ينتظر في الديوانيه . وبينما هو جالس دخل الديك الأصفر فوجد عجيم ان الفرصة مناسبة لقتله فهجم عليه بعصاه وانهال عليه ضرباً حتى الموت .

ولم يكد يزيل بقع الدم عن الأرض حتى دخل عيسى الغرفة فوجد الديك ملقى على الأرض خامد الأنفاس . وشرح له عجيم كيف ان الديك هاجمه وهو داخل فقتله دفاعاً عن النفس فأمر عيسى بنقل الديك وطرحه بعيداً . وظن عجيم وهو يغادر المنزل انه سمع صوت فتاة تبكي وتنتحب في غرفة بعيدة .

مات الديك وزال السحر فأصبح الكلب الأسود تلك الليلة رجلاً دخل الى منزل عيسى خلسة وتوجه الى غرفة الصبية الحسناء وأجبرها على مضاجعته . حدث ذلك في الليلة الثانية والثالثة فخرجت الأرواح الشريرة من الرجل ودخلت الى الفتاة التي أصبحت وكأنها تسيطر عليها الشياطين .

وقلق والدها قلقاً شديداً ، وهو الذي لم يكن يعرف ما حدث ، فعرض خمسماية قطعة ذهبية لمن يستطيع شفاءها . وجاء السيد نوري الى عجيم وأبلغه ان عليه ان يتظاهر بأنه طبيب فيذهب الى الفتاة ويقرأ لها ويعطيها دواء سلمه له فيحصل بذلك على الذهب .

وتوجه عجيم الى المنزل مرة أخرى وأخبر عيسى انه يعتقد ان بإمكانه شفاء ابنته ، وانه احضر معه دواء لهذه الغاية .

وبعد ان قرأ فوقها اعطاها الدواء لتشربه فهدأت في الحال وغطت في نوم

عميق . وفي الصباح نهضت وكأن شيئاً لم يحدث لها . وأخذ عجيم خمسماية قطعة من الذهب من عيسى . . وبعد أن شكره السيد نوري على كل ما فعله من أجله ، قرر العودة الى نجران .

ولكونه من الجن استطاع السيد نوري ان يسافر بسرعة أكبر . فذهب الى نجدان وقتل قاتل شقيقه وانضم الى شقيقه الآخر محمد نوري في الصحراء قبل ان يصل عجيم الى هناك . فوصل عجيم ليجدهما في انتظاره وقد أقاما وليمة عامرة واخبراه انهما رداً لجميله قررا ان يزوجاه شقيقتهما بشرط ان يعاملها بالحسن ولا يغضبها . فوعدهما بذلك وتزوج الجنية التي تدعى يامبه .

وحملها معه الى نجران حيث عاش معها في غمرة من السعادة . وبعد سنة رزق منها ولداً ولكن حدث ان دخل كلب أسود الى الخيمة دون ان يلاحظه أحد فحمل الصبي وهرب به . وحزن عجيم كثيراً لكنه لم يقل شيئاً ولم يغضب من زوجته .

وبعد سنة حدث الشيء ذاته : رزق ولداً فجاء الكلب الأسود وحمله واختفى به . وكظم عجيم غيظه وتحمل حزنه بصمت ولم يقل شيئاً لزوجته . ولكنه عندما تكرر الأمر مرة ثالثة انفجر غاضباً ولعن زوجته لعدم اهتمامها ودرايتها . عندئذ اختفت الزوجة في الحال وعادت الى اشقائها اللذين نقلاها معهما الى تحت الأرض لتعود الى أهلها الجن .

ونقل عجيم ايضاً الى العالم السفلي ليعيش مع الجن لكنه لم يعرف ان اولاده الثلاثة كانوا هناك تعتني بهم جدة زوجته . وبعد ان قضى عدة سنوات مع الجن تحت الأرض أعطاه اشقاء زوجته ذلولاً وفرساً وسمحوا له بالصعود الى الصحراء والعودة الى قومه . وقالوا له :

– بعد أن تسير ساعة من الزمان سيلحق بك أولادك الثلاثة وستسمع خلفك وقع حوافر الخيل . فيجب عليك أن لا تلتفت الى الخلف لأن كل ما تراه أمامك خير وكل ما ستراه خلفك سيكون شراً .

ونقل عجيم الى الصحراء مرة ثانية وتابع سيره . وبعد ان سار مدة ساعة

سمع خلفه وقع حوافر الخيل . وما هي إلا لحظات حتى رأى شاباً وسيماً على فرس عظيمة يتخطاه ثم يلتف لمواجهته ويترجل عن فرسه ليقول له بعد ان قبله :

-- يا والدي . . انا ابنك الأكبر .

وفي تلك اللحظة اندفع بقربه فارس آخر أخذ يلتف ويقوم بحركات مدهشة على حصانه ثم ترجل امام عجيم وقال له بعد ان قبله :

-- يا والدي . . انا ابنك الثاني .

وسمع عجيم من بعيد اصوات خيال آخر فهاجه الشوق لــيرى ابنه الاصغر بحيث انــه نسي وصية الجن فتطلع الى الخلف . ولم يكد يلتفت حتى انشقت الارض محدثة صوتاً رهيباً وابتلعت الشاب وحصانه ولم يعد يراهما .

كان ابنه الأكبر يدعى مرزوق بن عجيم ويدعى ابنه الثاني مرّه بن عجــيم . وقال سعد بن منيف ان هذين الشابين هـــما جدا قبيلتي عجمان وآل مرّه . وعاد عجيم مع ولديه الى نجران وعاشوا هناك .

اكلته الذئاب حياً

ان الجن الشعر محمد نوري لم يذهب لوحده الى الاحساء لأنه يخاف الذئاب . وهذا الأمر اعاد الى ذهني حادثة حقيقية رواها لي شقيق سينا (١) وهي صديقة لنا من عجمان .

وقعت هذه الحادثة في سنة ١٩٤٨ بشمال الاحساء حيث تكثر الذئاب نظراً لكثرة الينابيع التي تنمو حولها أشجار النخيل حيث تختبىء الذئاب في النهار . وكان فريق من عجمان يتوقف جنوباً فتوقف في الليل عند إحدى الآبار لــكي تشرب الجمــال . وعندما نهضوا ليستأنفوا السير في الصباح الباكر تخلف رجل وعائلته وبقوا بعيدين عن رفاقهم مسافة خمسة أميــال . ولم يكن في نية الرجل ان يرافق زوجته وأطفاله الى الجنــوب بل رافقهم حتى يلتحقوا برفاقهم عند البئر الأخرى . ومن هناك عاد الرجل بمفرده .

وبعد يومين عثر عليه رجال من عجمان ، احدهم شقيق سيتا ، كانوا متوجهين شمالاً . وكان لحم يديه ورجليه قد أكلته الذئاب تمـــاماً ولم يبق سوى العظم . ولكن وجهـــه ورقبته وصدره وبطنه لم تمس . . وكان لا يزال واعيـــاً يتكلم فتوسل الى هؤلاء الرجال ان يأخذوه معهم حتى لا يظل فريسة للذئاب . وقالوا له انهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً من أجـــله ، ولكنه الح في الرجاء فخلع احدهم رداءه ولفه به وحمله معه الى خيمته . وقالت سيتا ان منظر الرجل كان مرعباً . ولكنه كان واعياً يعرف الناس. وقد رش أهل المنزل الرماد على رجليه وذراعيه ولكنه توفي بعد يومين فدفنوه .

البدوي اللص

هذه قصة أخرى تظهر شجاعة البدوي وتخاذل ابن المدينـــة وقد رواها لي سعد بن منيف الخبيشي من قبيلة عجمان .

كان هنالك رجل شهير بين بدو الجزيرة العربية . ومع انه كان لصاً ، لكنه كان ذكياً بحيث ان احداً لم يستطع ان يمسك به فيتخلص دائماً من شباك العدالة التي تنصب للصوص . وسرى همس بين الناس انه يستطيع ان يفتح اي قفـــل ويدخل اي منزل في الليل دون ان يقبض عليه .

وحدث ذات ليلة ان تسلق سطح منزل تاجر ثري في مدينة مشهورة ودخل الى الغرفة العليا . وتلفت حوله فرأى صندوقاً كبيراً فخماً ظن انه لا بد ان يحتوي كنزاً ثميناً . ولكي لا يتأخر حمـل الصندوق على ظهره ونزل عن السطح وخرج الى الصحراء عبر طريق ضيق .

وعندما وصل الى مكان يبعد عدة أميال عن المدينة توقف وفتح الصندوق بكل اعتناء ، فوجد داخله صبية حسناء قفزت فجأة وخرجت من الصندوق . وصعق محمد الحرامي (هذا هو الاسم الذي كان يعرف به) بحيث انه وقف مشدوهاً يحدق بالفتاة وقد أدهشه فرط جمالها .

ولما أفاق من دهشته تقدم نحو الفتاة ليضمها بين ذراعيه ، فظهرت من خلفها

ساحرة على شكل أسد هصور هجم عليه . واندفع محمد نحو الاسد خنجره بيده وقتله .

واصراراً منه على امتلاك الفتاة ، اعاد الكرة فحدث الشيء ذاته : امتل خنجره مرة ثانيه وقتل الاسد . ومرة ثالثة جاءت الساحرة على شكل أسد لحماية الفتاة ، ومرة ثالثة قتلها محمد .

وهنا تحدثت اليه الفتاة قائلة انها بنت بيت (اي من عائلة عريقة) . فإذا كان يعدها بوجه انه لا يلحق بها اي أذى ، فستخبره قصتها . ووعدها محمد بذلك فجلست الى جانبه وقالت :

– انا ابنة الملك وقد عقد قراني على ابن عمي الذي لم أكن أحبه ولا أرغب في الزواج منه . وهربت ليلة الزفاف الى منزل جارة طلباً للحماية فاقتادتني ربة البيت وهي صديقتي الى الطابق العلوي وخبأتني في الصندوق . ثم أتيت أنت فسرقت الصندوق اثناء الليل وجئت بي الى هنا . والآن اتوسل اليك ان تعيدني داخل الصندوق الى حيث وجدتني .

ولما كان محمد قد وعدها بان لا يلحق بها اي أذى ، فقد حملها وعاد بها قبل طلوع الصباح ووضع الصندوق في المكان الذي وجده فيه .

وحدث قلق عظيم في القصر عندما اختفت الأميرة فجرى البحث عنها في كل مكان دون نتيجة مما أدى الى تأجيل الزفاف . وفي صباح اليوم التالي تسللت الى القصر لتجد والدها في حالة يرثى لها اذ لم يكن أحد يعرف ما حل بها . اما هي فلم تقل شيئاً إلا انها قضت الليل في منزل احدى صديقاتها لأنها لم تكن ترغب في الزواج من ابن عمها .

وصرخ بها الملك منزجراً :

– لن تبرحي هذا المكان .. وسنحتفل بالزفاف هذه الليلة .

وامتلأ قلب الأميرة حزناً ولكنها رضخت اكراماً لوالدها. وجرى الزفاف تلك الليلة وادخل العريس غرفة الزوجية حسب العادات لينتظر عروسه هناك . ثم جاءت العروس مع صديقاتها اللواتي تركنها لوحدها واغلقن الباب . وجلس

العروسان صامتين لفترة من الزمن . . ولما تحرك العريس نحـــو زوجته قفز من السقف فجأة جرذ كبير وسقط على العروس . ولشدة الرعب لم يحاول العريس ان يقتل الجرذ بل انزوى في زاوية الغرفة وقبع هناك طول الليـــل . وفرحت الاميرة فرحاً لا يضاهى وضحكت في سرها على قلق زوجها وخوفه .

وتكرر الحادث في الليلة التالية إلا ان الجرذ في تلك الليلة كان أكـبر من الجرذ الأول بحيث ان العريس ارتعب وهرب الى غرفـــة أخرى وقضى فيها بقية الليل .

وحدث الشيء ذاته في الليلة الثالثة . . . فـــلم تعد أعصاب العريس تتحمل وبلغ به القلق والخوف حداً حمله إلى اللجوء للملك ليشرح له ما حدث بالضبط . وقد حز في نفسه ان تظهره الاميرة بمظهر الجبان الغبي فأعرب الملك عن دهشته كيف ان صبية عزباء تضحك عليه في محنته في الوقت الذي يجب عليها فيه ان تخجل وتخاف . وقال للملك :

– والآن اطلب منك ان تسمح لي بطلاقها .

وخجل الملك وانزعج كثيراً لسماع هذه القصة فأرسل في طلب ابنته . وقالت له :

– يا والدي . . اذا وعدتني بأن لا يصيبني اي أذى فسأخبرك كل شيء .

واخبرت الأميرة والدها كيف هربت ليلة زفافهـــا الى منزل جارتها التي خبأتها في صندوق جـــاء لص فسرقه وهي في داخله وذهب بها إلى الصحراء ، وكيف ان اللص الذي اعجب بجمالها حاول ان يقترب منها فخرجت اليه ساحرة على شكل أسد فقتلها ثلاث مرات قبـــل ان تطلب اليه ان يعدها بوجهه ان لا يصيبها بأذى وان يعيدها الى المكان الذي وجدها فيه .

وتابعت الأميرة قصتها بقولها :

– وعندما رأيت ابن عمي الذي زوجتـــني إياه يرتعد لمرأى جرذ ويصبح كامرأة بائسة ضحكت وخطر ببالي الرجل الذي قتل ثلاث حيوانات كأميرة ولم يرف له جفن .

وبعد ان سمع الملك بهذا اللص الذي لم يمكن القبض عليه أقسم على الفور ان يجده اينا كان .

وسأل الملك ابنته :

— هل تعرفين الرجل اذا شاهدته مرة ثانية .

فأكدت له ابنته ذلك .

وبعد ان فكر عدة أيام في افضل السبل للوصول الى هـــذه الغاية خطرت للملك فكرة . فقد أرسل دعوات في طول البلاد وعرضها لحضور مأدبة كبيرة امر ان تذبح خلالها عشرة جمال وعدد من الخراف والدجاج . وفي اليوم المحدد مدت الموائد في ممر طويل له مدخل من كل جهة احدهما يقود الى ممر جانبي وهو الذي سيصل منه المدعوون ، والآخر يقود الى فسحة من الارض تصب فيهـــا مجاري مياه مطابخ البيوت المجاورة ولذلك كانت دائماً موحلة رطبة .

وأمر الملك بوضع طير كبير شرس على المدخل الرئيسي لارهاب الضيوف الذين بدأوا يفدون الواحد بعد الآخر . ولمـــا كانوا يشاهدون الطائر المخيف لم يعودوا يتجرأون على الدخول الى القاعة بل استفسروا عما اذا كان هنالـــك مدخل آخر للقاعة .. فلما كان الجواب بالايجاب داروا الى خلف القصر ومروا عبر الأرض الموحلة الى المدخل حيث تركوا احذيتهم ملوثة بالوحل .

واخيراً جاء بدوي في يده عصا ويبدو بسيط المظهر . ولما شاهد الطير على الباب نهره بصوت عال فانزوى الطائر وكأنه غط في النوم فدخل البدوي الى القاعة تاركاً حذاءه على المدخل الرئيسي .

وقدم الطعام فكان الارز واللحم على درجة كبيرة من الحرارة اذ احترقت بها اصابع الضيوف الذين لم يعد بامكانهم تناول الطعام إلا بعـــد برود الأكل . ولكن محمد الحرامي .. وهو البدوي الذي دخل .. أخذ سكينه من حزامه واخذ يقطع اللحم ويأكل حتى شبع ولم يأكل حبة واحدة من الارز .

وكان الملك يراقب هذا البدوي الغريب الذي كان الوحيد بـــين الضيوف الذي دخل من الباب الرئيسي ولما انتهت الوليمة وكان الضيوف قـــد بـــدأوا

يغادرون القصر توجه الملك الى محمد وسأله عن اسمه واشاد بالطريقة الذكية التي اكل فيها اللحم وسأله لماذا لم يأكل الأرز فكان جوابه :

– انا لست سوى بدوي بسيط تعرفني قبيلتي باسم محمد .. وانا آكل الارز دائماً ولكن قلما اذوق طعم اللحم ولذلك فقد اكلت اللحم هنا اليوم وتركت الارز . وبعد تقديم القهوة والطواف بالبخور حسب العادات المتبعة غادر الضيوف القصر واحداً واحداً من الباب الذي دخلوا منه . واستعد محمد لكي يغادر القصر هو ايضاً واتجه نحو الباب الرئيسي ولكن الملك الذي ثارت شكوكه استوقفه وطلب منه ان يتبعه الى الداخل . وهناك كانت الاميرة تنتظر وراء الستار فلما رأت محمد عرفته في الحال . واستدعى الملك ابنته وسألها اذا كان هو الرجل الذي حملها في الليل . فأكدت له ذلك وعادت الى شقتها .

ونجحت خطة الملك ولكن حزن ودهش لكون جميع رعاياه من الجبناء وبينهم ابن شقيقه .

وقال الملك :

– في الحقيقة لا يوجد في مملكتي سوى رجل واحد جريء جدير بأن يكون زوجاً لابنتي . واطلب منه ان يقبل منصب الوزير في حكومتي وسأزوجه ابنتي .

وقبل محمد عرض الملك لأنه لم ينس جمال الاميرة الفتان . واحتفل في الزفاف بالحال وسط مظاهر من الفرح والابهة . ونفي ابن عم الاميرة خارج المملكة وعاش محمد مع عروسه حياة طويلة سعيدة .

اقتل الرجل الذي ذبح الكلب

هذه قصة أخيرة من قصص القبائل سأرويها هنا بقصد اظهار اهمية انزال عقوبة سريعة لابسط المخالفات ، لان البدو عندما تميع السلطة يفقدون الانضباط وتصعب السيطرة عليهم . وهذه ميزة عامة للعرب . وقد سمعت

وجهين لهذه الرواية . سمعت الوجه الاول منها على لسان خان بهادور[*] ملا صالح وهو سياسي قديم عمل وزيراً لآخر أربعة من حكام الكويت وقد تخلى عن الحياة العامة لابنه القدير عبدالله الملا صالح الذي يعمل حالياً سكرتيراً سياسياً لسمو الشيخ عبدالله السالم الحاكم الحالي ، ويبدو انه سيسير على خطى والده الشهير .

قال الملا صالح :

– كان لبدوي من مطير ثلاثة اولاد بالغين يعيشون في خيمة واحدة مع والدتهم ويهتمون بأغنام وجمال والدهم . وحدث ان كانت هذه العائلة تخيمة اثناء الصيف عند مجموعة من الآبار كما هي العادة في الجزيرة العربية . وكان يقيم الى جانبهم راع فقير من نفس القبيلة كل ما يملكه في هذه الدنيا عشر غنمات وجملان.

ومن المعروف ان اقدم قوانين الصحراء هو ان واجب الانسان الأقدس حماية جاره لأن محمداً رسول الله أجاب عندما سُئل عن واجبات الانسان الأولى في الحياة « جارهم ثم جارهم وجارهم » .

وذات يوم جاء أحد أفراد القبيلة لزيارة ذلك الراعي الفقير . وعندما اقترب من الخيمة خرج اليه الكلب وأخذ ينبح ويزمجر . ولما فشل في طرده شهر الزائر بندقيته واطلق النار على الكلب عمداً فأرداه قتيلاً .

وعم الاستياء البدو القاطنين هناك لهذا الحادث الغريب وحدثت موجة من الغضب لأن الكلب شيء أساسي بالنسبة لساكن الخيمة ليس فقط لأنه يمنع الذئاب من مهاجمة الاغنام في الليل وسرقتها بل لأنه يبعد اللصوص والمشبوهين ويحذر منهم . وذهب اولاد المطيري العجوز الثلاثة الى والدهم وأخبروه بما حدث طالبين نصيحته وقالوا :

– لقد قتل احدهم كلب جارنا عمداً .. فماذا نفعل ؟

وفكر الرجل قليلاً ثم قال لاولاده :

– يا اولادي اقتلوا ذابح الكلب .

---

* – خان بهادور لقب تمنحه حكومة الهند .

وخرج الشبان الثلاثة وتشاوروا فيما بينهم وقرروا ان والدهم اما ان يكون قد خرف او أنه ضرب لهم مثلاً ، لأنه من غير المعقول قتل انسان مقابل كلب . وبدلاً من ان يعملوا بنصيحة والدهم ذهبوا الى صاحب الكلب القتيل ليطيبوا خاطره . وبعد أن حاولوا تهدئته وتعزيته أخذوا يشجبون الحادث ويعربون عن استيائهم منه بين الخيام المجاورة فاثاروا المشاعر والعطف على الراعي المسكين .

وانحاز الرأي العام بصورة قاطعة الى جانب الراعي وتلقى القاتل شتائم وتوبيخات مقذعة . وبدا ان القضية انتهت عند هذا الحد . ولكنه بعد اسبوعين من الحادث تعرضت قواعد الحياة الصحراوية لخرق فاضح اكثر خطورة من الأول . فعندما كان الراعي المسكين يسقي أغنامه من أحد الآبار نزل عليه عدد من الشبان البدو الأشرار وهم من القادمين الجدد من نفس القبيلة وقادوا جمالهم الى البئر التي كان يسقي منها أغنامه وارادوا ان يسقوا جمالهم قبله . واعتدى هؤلاء الشبان عليه بالضرب وكسروا الحوض الذي كان يسقي منه قطيعه الصغير . . وهذه قضية قديمة من قضايا الاعتداء على الضعفاء الذين لا حول لهم ولا طول وجريمة لا تغتفر بين افراد القبيلة ذاتها .

وعاد الراعي البائس الى خيمته يندب حظه ويصرخ : الى متى يضطهد الاقوياء الضعفاء . . اين انتم يا أهل مطير . . كيف تسمحون بهذا الظلم . . إن الله لا يوافق على هذه الأعمال .

ولما سمع اولاد المطيري العجوز الثلاثة بالحادث ذهبوا الى والدهم يطلبون نصيحته فيما يتوجب عمله لمنع تكرار مثل هذه الأعمال . وكان جواب والدهم لهم : « اقتلوا ذابح الكلب » .

وقال الاولاد الثلاثة فيما بينهم : « لا بد ان والدنا قد شاخ وخرف فنحن لم نستشره في قضية مقتل الكلب بل في قضية تعدي بعض الشبان على حقوق جارنا » .

وبالرغم من نصيحة والدهم لم يفعلوا شيئاً سوى التنديد بالمعاملة السيئة لواحد

من أفراد القبيلة. أما الشبان المعتدون فكانوا يقولون لكل من تجرأ على توبيخهم : « الى الجحيم ايها الثرثرون ! ألستم تعرفون ان القوي يجب ان يسيطر على الضعيف ؟ هذه هي قوانين الصحراء .. هكذا كانت منذ الأزل . »

ومرّ شهر من الزمان .. وأراد أحد صغار مشايخ القبيلة ، وهو شخص لم يكن محبوباً لشدة بخله ، ان يحصل على خروف ليقيم مأدبة دعا اليها . ولما لم يكن لديه خروف مناسب بعث رجاله ليروا ما إذا كان هنالك خروف للبيع في الخيام المجاورة . وصدف ان مر هؤلاء بجانب قطيع الراعي الذي قتل كلبه فخطرت لهم فكرة وهي ان يأخذوا احد خرافه بالقوة مبررين ذلك بقولهم : أو ليس هذا الراعي هو الذي تجرأ على القول بان لخرافه الحق ان تشرب قبل جمال العرب ؟

وأسكت هؤلاء الراعي المحتج بقولهم ان شيخهم يريد ان يقيم مأدبة وهو بحاجة الى خروف .. والافضل له إذن ان يخلد الى الراحة وإلا تعرض للأذى .

وقد أثارت هذه المخالفة الكبرى موجة من السخط كما أثارت شعوراً بالشفقة على الراعي المسكين. ولكن إجراء حازماً لم يتخذ لأن الشيخ الذي سرق رجاله الخروف لديه جماعة أقوياء ، والناس عادة يتجنبون الخصومات التي تؤدي الى سفك الدماء لا سيما إذا كانت تتعلق بفرد فقير لا أهمية له في القبيلة .

وقال له الجميع : « أمرك لله .. هو يدبر كل شيء » .

وذهب الأولاد الثلاثة الى والدهم حانقين ، فالتفت اليهم والدهم وقال :

– لا تطلبوا نصيحتي .فكما قلت لكم من قبل أقول لكم الآن. اذهبوا واقتلوا الرجل الذي ذبح الكلب فتتوقف هذه الأعمال العدوانية ويتوقف معها استضعاف الفقراء المساكين .

وأثار هذا الكلام عواطف الأولاد الثلاثة فقرروا ان يعملوا بنصيحة والدهم. وأخذ هؤلاء يبحثون عن قاتل الكلب فعثروا عليه وذبحوه .. واستقبل العرب جميعهم هذا الحادث على انه عادل وله ما يبرره ؛ وكان الرأي العام الى جانب الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ حكم العدالة . وجاء أقارب الرجل القتيل

والشبان الذين طردوا أغنام الراعي من البئر والشيخ الذي سرق رجاله الخروف.. جاء هؤلاء وطلبوا الصفح والمعذرة من الراعي المطيري الفقير، وأصروا على أن لا تدفع دية الرجل القتيل، وقدموا له بعد ذلك كذ تعويضاً عن كلبه الذي قتل واشتروا له حوضاً جديداً عوضاً عن الذي كسره الشبان الأشرار.

وساد السلام والهدوء بين البدو المخيمين حول الآبار وامتلأت نفوس الذين يميلون الى اضطهاد الضعفاء بالخوف والاحترام .. هذه هي العدالة التي تروق لرجل الصحراء.

ولما اخبرت هذه الرواية للقصة لعثمان بن حميد العتيبي وهو من الزعماء البارزين في قبيلة عتيبه قال إن هذه الرواية ليست التي تنطبق على عتيبه. وكانت روايته لها كما يلي :

– منذ سنوات كان هنالك رجل ثري معروف من عتيبه يملك قطعاناً كبيرة من الجمال وقطعاناً كثيرة من الأغنام، فكان مرموقاً ومحترماً من الجميع. ولكنه كان ضريراً طاعناً في السن.. وكان اولاده الثلاثة الذين رزقه الله بهم يهتمون بماشيته.

وكانت والدة الشبان الثلاثة قد توفيت فاتخذ الرجل الشيخ لنفسه زوجة شابة حسناء ذكية من عائلة عريقة كانت تدير أمر الخيمة .. وقد تزوج هذا الفتاة ليستأنس بها في أيام شيخوخته. وكان في الحقيقة سعيداً معها. ولم يكن الاولاد ليهتموا بشؤون والدهم الخاصة فكانت الزوجة الشابة اول من لاحظ ذلك.

وكان للزوجة الشابة عشيق يقطن في خيمة مجاورة ويقوم بزيارة الشيخ الضرير دائماً بدافع من الصداقة في الظاهر ولكن في الواقع ليحظى بمقابلة الزوجة الشابة الحسناء. ولكن العلاقات بينهما كانت ضمن نصابها الصحيح.

وذات يوم كان الشاب يغادر خيمة جاره العجوز فتبعه الكلب الذي لامسه وكأنه يبغي عضه. فشهر الشاب بندقيته واطلق النار على الكلب فقتله.

ولما سمع الشيخ صوت الرصاص صرخ قائلا :

ــ ما هذه الرمية ؟
فهرع اليه أولاده قائلين :
ــ لقد قتل زائرك الكلب .
وقال الرجل العجوز :
ــ ماذا ! إذن اذهبوا واقتلوا قاتل الكلب .
وقال الأولاد فيما بينهم :
ــ امر عجيب، يبدو ان والدنا قد فقد عقله .. أنقتل رجلاً مقابل كلب مهما بلغت قيمته ؟

ولما رأت الزوجة الشابة ان اولاد زوجها لم يفعلوا شيئاً تمادت في غيها . فبعد اسبوع عندما كان الشبان يسقون جمال والدهم وجدوها عند البئر تمازح حبيبها الذي بلغ به غروره واعتداده بنفسه حداً دفعه الى ضرب أحد «الحيران»(*) فكسر رجله إذ كان يعرف ان هذا الجمل سيذبح وهو يريد بعض اللحم للأكل .

وهرع الاولاد الى والدهم الأعمى يخبرونه بما حدث وهم يقولون :
ــ ماذا نفعل ؟ ماذا نفعل ؟
وكان جواب الوالد العجوز :
ــ ماذا تفعلون ؟! اذهبوا واقتلوا قاتل الكلب .

ورأت الزوجة الشابة كل شيء، وعرفت ان الأولاد لن يفعلوا شيئاً فبعثت برسالة الى عشيقها تطلب منه فيها ان يقابلها بعد حلول الظلام في مجرى رملي جاف للماء ليس بعيداً عن الخيام . وجاء الشاب في الموعد المحدد وقضى مع حبيبته وقتاً ممتعاً . وكانت الزوجة الشابة تعلم أنه إذا افتضح أمرها ونقل الخبر الى زوجها فلن تتعرض لأي عقاب .

وبعد فترة من الزمن اكتشفت الزوجة الشابة انها حامل فذهبت الى زوجها

---

* ــ حيران جمع حوار وهو طفل الجمل ويطلق هذا الاسم على الجمل منذ ولادته وحتى يبلغ عمره سنة كاملة .

العجوز واخبرته انها تحمل منه طفلاً ففرح فرحـــاً عظيماً . وبعد تسعة أشهر رزقت ولداً فاقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة .

وبعد مضي ستة عشر عاماً أرسلت الزوجة في طلب اولاد زوجها وقالت لهم :

– ان ولدي الاول اصبح رجلاً الآن .. اعطوه بندقية ليتعلم الرماية .

واعطي الصبي بندقية فأصبح في وقت قصير ماهراً بالرماية . وكان الصبي قد أبلغ كيف ان إخوته الثلاثة تخاذلوا عندما طلب منهم والدهم ان يقتلوا قاتل الكلب منذ عدة سنوات .. فقالت له امه :

– يا بني.. انت فخري واعتزازي. اذهب واقتل الرجل الذي قتل الكلب .

ولما كان الصبي شجاعاً يحب أمـــه فقد ذهب على الفور يبحث عن الرجل وقتله .. وعاد مرفوع الرأس لكنه لم يعرف ان الرجل الذي قتل على يديه هو والده الحقيقي .

وعندما سمع الرجل العجوز الضرير صوت الرصاص صرخ قائلاً :

– ما هذه الرمية ؟

فلما أبلغ بما حدث فرح كثيراً وقال لزوجته باعتزاز :

– يا زوجتي .. لم تلدي لي صبياً جميلاً فحسب ، بل ورجلاً قوياً أيضاً .

وأمسك بالصبي فضمه الى صدره ومنحه بركته . واصبحت هذه العائلة بعد الحادث موضع احترام الجميع وجاء القاصي والداني ليروا الصبي الذي قتل رجلاً خرق جميع الأعراف العربية بقتله كلب جاره .

أما الزوجة الذكية فقد أسعدت زوجها من جهة وأعـادت الى البيت شرفه واسمه الطيب ، ومن جهة ثانية انجبت شاباً رائعاً .. ثم تخلصت من عشيقها .

الفصل التاسع عشر

الكويت

١٩٤٣ - ١٩٤٥

هنب للغداء

بقلم فيوليت ديكسون

كان حمد المكراد زعيماً بارزاً في قبيلة عجمان وصديقاً عزيزاً للشيخ أحمد . وقد توفي حمد في الكويت سنة ١٩٢٨ بسبب حمى شديدة انتابته . وتوفي شقيقه ركان في نفس السنة بالمرض ذاته في الرياض . وكان ابناهما خالد بن حمد المكراد وحمد بن ركان طفلين في ذلك الوقت .. ولكنهما اليوم شابان وسيمان يتزعمـــان فرع آل محفوظ في قبيلة عجمان .

وفي حزيران سنة ١٩٤٣ كان الشابان مخيمين في سلسلة الظهر التي تشرف على قرية فحاحيل الساحلية الصغيرة على بعـــد ٢٤ ميلاً الى الجنوب الشرقي من الكويت . وقد دعيت انا وزوجي لزيارتهما هناك .

وكان حمد بن ركان قد قدم الى المدينة في ٨ حزيران لشراء بعض الحاجيات لعائلته قبـل سفره الى الرياض في الزيارة السنوية للملك ابن سعود . وقد نقلناه معنا في سيارتنا . وكان ذلـــك الصباح شديد الحرارة ولكن الرياح الشمالية —

الغربية المعروفة بالبارح جعلت الطقس بعد الظهر يميل الى البرودة . ولكننا ونحن في طريقنا الى السلسلة باتجاه الجنوب الشرقي . وكانت حرارة هذه الرياح تزداد كلما ابتعدنا عن البحر بحيث ان محرك السيارة اشتدت حرارته مما اضطرنا الى التوقف مرتين لادارة المحرك باتجاه الريح وتغيير مائه لتبريده .

ولما كان ذلك الربيع استثنائياً فان الكثير من طيور القطا لم تهاجر شمالاً بل عششت في أماكن مختلفة من سلسلة الظهر . وقد صادفنا عدة أسراب منها في طريقنا واخبرنا حمد ان رجاله عثروا على عدد من البيوض .

ووصلنا الى خيمة حمد في الساعة الخامسة والنصف . وكانت خيام القبيلة منتشرة حولها هنا وهناك بمجموعات صغيرة تتألف الواحدة منها من خيمتين او ثلاث انتشرت حولها في كل مكان قطعان الجمال . وكانت خيمة حمد قد نقلت من مكانها اثناء غيابه في الكويت ولكنه على كل حال عرف مكانها بالضبط مع انها كانت مختبئة وراء تلة صغيرة الى جانب الطريق . ولم يكن على التلة سوى امرأة لوحدها شاهدناها وهي تؤشر لسيارتنا بالاتجاه نحوها ثم أشرت لنا بأن لفت عباءتها حول رأسها ثم الى الأرض مرة او مرتين .

تلك المرأة هي ميثا زوجة حمد . وكانت قد نقلت خيمتها ذلك اليوم ووصلت الى هناك قبل ساعات فقط من وصولنا . ولما كانوا في طريقهم الى المخيم الصيفي قرب ابو حليفا ، فان خيمته الكبيرة لم تنصب بل اكتفوا بمد ستارتها الخلفية على عمودين وباسدال قطعة قماش من الخلف لمنع الرياح الحارة والرمال من دخول الخيمة . واسرعت السيدة فسحبت القاطع من بين امتعتها ونصبت عموداً في الأرض مدته عليه قاطعة بذلك المأوى الصغير الى قسمين لتشكل لنا مكاناً ظليلاً نجلس فيه .

وخلع حمد رداءه ومد بساطاً على الأرض في الظل ثم احضر سرج فرسه وعدداً من المساند لنتكىء عليها . وحفر حفرة صغيرة في الأرض أمامنا ليشعل فيها النار وأحضر أباريق القهوة والمواد اللازمة لها. ثم جاء ببعض العرفج والجلا (براز الجمال) وأشعل فيها النار . وزاد وهج النار الجو حرارة ولكن ذلك

كان افضل من الانتقال خارج المكان نظراً لكثرة الرمال المتطايرة مع الريح .
أما ركان ونهار ولدا حمد الصغيران فقد لبسا الثياب القطنية البيضاء الجديدة التي احضرناها لهما وجلسا معنا يأكلان الجوز والحلويات التي قدمناها لهما. وانضم الينا بعد ذلك خالد ابن عم حمد . وكان خالد قد نقل خيمته ذلك اليوم وأخذ عائلته الى آبار الطويل بالقرب من وارا حيث يخيم والد زوجته واخوتهـا . وزوجته ساره هي الأبنة الكبرى لأحد اعز أصدقائنا زنيفر بن حويلة . وكانت سارة قد تزوجت مرتين من قبل : مرة من فهد الهذلان[1] ومرة من غليفص[2] احد افراد حرس الملك ابن سعود في الرياض . ولها ابنة لطيفة من زوجها الثاني تدعى خزنة وتبلغ من العمر سبع سنوات . ولها الآن من خالد ولد صغير يدعى حمد . وكانت سعيدة في حياتها مع زوجها الثالث الذي كان يحبها كثيراً . وقد جاء من وارا لمعالجة بعض جماله التي اصيبت بالجرب .

[1] الحثليم [2] غليفص

كانت القهوة جاهزة تغلي على حافة النار عندمـا ظهر فجأة على بعد عدة ياردات جمل رائع محمل بأكياس المؤونة يسير بأقصى سرعتـه وتعلقت بمؤخرته سيدة بدوية شابة ترتدي لباساً أنيقاً اسود اللون يرفرف بفعل الرياح . وبعد ان قامت البدوية بمجهود جبار لإيقاف الجمل اضطرت لتركه خوفاً من ان يجرهـا وراءه .. وانطلق الجمل بعيداً . وعلى مسافة خمسين ياردة خلف خيمتنـا سقط سرج الجمل ولكن الجمل تابع سيره مسرعاً متجهاً نحو الجنوب .

ولما شاهد خالد ما حدث قفز من مكانه وانطلق بأقصى سرعته ليلحق بالجمل ولكنه توقف عاجزاً بعد ان قطع مسافة نصف ميل. عندئذ ترك حمد موقد القهوة ولحق بخالد على جمله لمتابعة ملاحقة الجمل الهارب .

ودعته المرأة لينزع السرج قبل ان يركب الجمل ففعل بسرعة متناهيـة وركب الجمل عاري الظهر .

وكانت وراء التلة عدة خيام اخرى للقبيلة فلما بان حمد عليهـا اندفع نحوه بدوي شاب وأشر له ان يتوقف . ونزل حمد عن جمله وأخذ البدوي الآخر مكانه وقال له وهو يتابع المطاردة :

– يجب ان تعتني بضيوفك يا حمد .

ويبدو أن حمد قبل أن يغادرنا طلب من الرجل في الخيمة المجاورة أن يعتني بنا ويقدم لنا القهوة . وعرفنا أنـــه الرجل العجوز الذي صادفناه في طريقنا ومعه ابنته . . وكانا يشتريان المؤن من المدينة . ويظهر أن الجمل قد شرد بعد أن نزل عن ظهره لدى وصوله الى الخيمة ، ولم تتمكن ابنته من الامساك به . وقال الرجل إن جمله حاد المزاج مع أنه أصيل وثمين . وقبل ان يغادر بوابة المدينة في الصباح رفسه وأصابه بأذى . فقد كشف لنا ركبته المصابة بخدوش وقـال انه يشعر بألم شديد بسبب كسر في أحد ضلوعه . وكان الكيس الذي سقط عن ظهر الجمل يحتوي على التمر ، أما الثاني فكان فيه بعض القهوة والثياب وغيرها من المؤن . وتناسى الرجـل المسكين جروحه في غمرة تفكيره باحتمال فقد كل تلك الأشياء واحتل مكان حمد أمام النار التي تغلي عليها القهوة .

وهنا فكر زوجي أن الواجب يقضي بالاشتراك في المطاردة فركب السيارة وذهب ليأخذ خالد معه ثم سار في الاتجاه الذي سلكه الجمل الهارب . وانطلق الدعاء والشكر من أفواه النسوة الجالسات هنـاك لهذه البادرة وساد شعور بأن كل شيء سيكون على مـا يرام وأن الجمل الضائع سيعود الى أصحابه . وقدمت لي القهوة ولكنها لم تكن قوية الأمر الذي لم يرق لحمد .

وجـــاء ركان الابن الأكبر الذي يبلغ من العمر خمس سنوات وأراني ضباً أعطاه إياه الرجل الذي يرعى الجمـال . لم يكن الضب كبيراً إذ لم يتجاوز طوله الثماني عشرة بوصة ، مع انه كان يبدو سميناً . وقال أهل الخيمة انها أنثى ويكمن خمس البيوض في جوفها . ولما أعلنت عن عدم رغبتي فيه قرروا أن يشوى على النار ليأكلوه . فأخذه حمد وذبحه فلم يأت بأية حركة أو صوت ولكنه نزف منه قليل من الدم . ثم شق حمد برأس سكينه بطن الضب مسافة ست بوصات ونزع أحشاءه وطرحها بعيداً . ولم يبق منهـا سوى الكبد والبيوض التي بلغ عددها خمس عشرة بيضة . أما حجم الواحدة منها فلم يكن يتجاوز حجم رأس إصبع اليد الوسطى وتشبه بيضة الدجاج قبل اكتمال نموها . ونزعها حمد بكل عنايـــة

ووضعها مع الكبد في محمص للقهوة .

وجاء دور ميثا فبدأت طهي البيض على النار بتحريكها باستمرار الى أن كسر الصفار وشكل قرصاً من العجـــة أضافت عليه قليلاً من الزبدة . وبعد دقائق معدودات قلبت القرص في صحن خشبي وضعته أمـامي . وكان الولدان يرقصان فرحـاً على أمل ان يحصلا على بعض ذلك الطعـــام . وأكلت لقمة أو لقمتين فكانت جيدة في الواقع مع أن لهـا طعماً كطعم الجراد ولكن مزيداً من الملح عليها يحسن حالها قليلاً .

وجاء زائر تتبعه غنمة سمينة سوداء باتجاه الخيمة فاندفع الكلب حجلان نحوه ينبح نباحاً شديداً غاضباً . ونهض حمد لتحيته وتبادل الرجلان القبلات . وبعد ان حياني الزائر جلس بجانب النــار . وذهبت ميثا لاحضار مزيد من العرفج والجلا وضعته فوق النار حيث أحدث لهباً عالياً ثم جلست الى جانبي . وأعجبني ان أرى انها لم تغادر المكان بالرغم من وجود الرجـل ولكن يبدو ان الرجل ينتمي الى نفس القبيلة وربما كان من الأقرباء .

ووضع حمد الضب على النار بحيث ارتفع بطنه الى أعلى . وظل ذيله يتحرك فترة وكأنه لا يزال حياً على شكل أفعى تتلوى أو مقتلها . ثم انصرف يحمص مزيداً من القهوة لأن التي حمصت في البداية كانت ضعيفة . وقال انه يريد أن تكون القهوة جيدة لدى عودة زوجي .

وعندما اختفت الشمس وراء الأفق عند الغروب بدت لنـا السيارة العائدة من بعيد . وبعد دقائق معدودات كانت تقف وراء الخيمة فنزل منها خالد وهو يصرخ : طرحناه .

وأشرقت وجوه الجميع لهذه الأنباء السارة لا سيما وجوه النسوة اللواتي كن بجانبي . وبالرغم من أن الوقت كان متأخراً فقد أصر حمد على زوجي أن يشرب فنجاناً من القهوة . . وهكذا عدنا للجلوس مرة أخرى . ودار على الجالسين صحن فيه تمر وآخر فيه بقية من عجـة بيض الضب . وفيما كان الحاضرون يحتسون القهوة قص عليهم زوجي حكاية مطاردة الجمل الهائج وطرحه .

قال زوجي :

– لحسن الحظ ان الأرض كانت جامدة وليست رملية كثيراً ، الأمر الذي مكنني من اللحاق به على بعد اثني عشر ميلاً من هنا . وكان المطارد الأول قد ترك بعيداً خلفه ولكننا أتينا على الجمـل الهارب وهو واقف بدون حراك في مجرى جاف . وعندما اقتربنا منه أطلق ساقيه للريح مرة ثانيـة وأخذ يعدو بأقصى سرعته . وحاولت ان أتقدمه لأرده الى الوراء ولكنه لم يخف من السيارة وظل يندفع راكضاً بمحاذاتنا في مكان لم يكن بالامكان السير بسرعة أكبر .

« وكان امامنا على بعد ثلاثة أميال قطيع من الجمال الحلوب يملكها الشيخ صباح الناصر الصباح . وتوجه الجمل الهارب نحو القطيع واندس بينه فاسرعنا نحن واقتربنا اكبر مسافة ممكنة من القطيع ونزل خالد وتتبع الجمل بكل حذر الى ان وصل اليه من الخلف وامسك ببقية الحبل المشدود في رقبته وجعله يركع على الأرض بخفة متناهية ثم هرع وسط اصوات مزمجرة صادرة عن الجمل يربط قوائمه الأربع بالحبال التي كانت لا تزال على السرج المشدود على ظهره .

وبعد ان شد وثاقه جيداً وضع السرج في السيارة ورجعنا تاركين الجمل الهائج يتخبط عبثاً محاولاً الإفلات من قيوده . وكان راكبان من عجمان قادمين من اتجاه آخر فأشر لهما خالد فتوقفا وركبنا السيارة نحوهما . ودلهما خالد على الجمل المقيد وطلب منهما ان يعيداه الى خيمة حمد .

وفي هذه الاثناء كانت عملية طهي الضب قد أشرفت على نهايتها وكان قـد مضى على دفنه في الرمـاد اكثر من ربع ساعة . فامسك به حمد ونفض عنه الرماد وقص ذيله وناولني قطعة منه . وأخذ خالد بقية الضب منـه واخذ يقتطع قطعاً كبيرة منه بجلدها . واعطي الرأس لركان الصغير واعطي نهار فخذاً فهرعا الى داخل الخيمة يأكلان حصتهما بنهم . وكلما حاولت ان اقطع قليلاً من الذيـل الذي اعطيته كانت تصدر منه أصوات تشبه الفحيح ! كان لحمـه خيطياً أبيض اللون يشبه الكركند وله طعم كطعم الجراد . ورفض زوجي بوقاحة ان يأكل منه ولكنه حزن لما اخبر ان العجة التي اكل منها قبل قليل ليست سوى بيوض

الضب .

واراد خالد ان يقدم الجمل هدية لزوجي فلم يقبل . وقال خالد ان الجمل قدم له من الملك ابن سعود قبل ثلاث سنوات وانه ذلول أصيل . وقد اعطاه منذ ذلك الوقت للرجل الشيخ صاحب الضلع المكسورة .

وبعد تحيات الوداع ركبنا عائدين الى المدينة . وقد سرنا ان نشاهد كيف ان جميع اهل الخيم طفحوا بشراً لاستعادة الجمل اهارب مما يدل على مدى تعلق البدوي ببهائمه . وبموجب العادات كان يحق لزوجي المطالبة بمبلغ ثلاثة ريالات لطرحه الجمل .. وتمنينا الشفاء للرجل العجوز .

زوجة فهد الفاضل المريضة

في الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٤٣ التقيت وزوجتي برجل مرّي يدعى فهد بن عبدالرحمن الفاضل، حفيد الرجل الذي حفر بئر فاضل الشهيرة في الاطراف الشمالية للربع الخالي . ويبلغ فهد الخامسة والأربعين من العمر وهو عضو مرموق في فرع النقدان من آل مرّه . وكان وقت اجتماعنا به مخيماً مع حوالي اربعين خيمة من آل مرّه عند الآبار الأرق على بعد ثمانين ميلاً الى الجنوب من الكويت . وجاء الى منزلنا ذات صباح وعرف على نفسه بشكل غير مألوف عادة .

وقال الرجل :

– سمعت بفضلك على ابي ليلى وغيره من بني قومي، وها قد جئت من مسافة بعيدة لأطلب منك فضلاً . ان لي زوجة عزيزة مصابة بمرض وقد احضرتها ليعاينها الطبيب . ولكنني لست املك مالاً لأدفع اجرة الطبيب ، بل املك بندقية « موزر » جيدة ارجوك ان تأخذها مقابل ذلك .

وسألته :

– اين تخيم ؟

فأجاب :

– خارج دروازة نايف في خيمة صغيرة على صيهد عجمان وراء آبار الشامية بالقرب من خيمة امرأة عجمية تدعى صفيّة او ام مانع .

وكنا نعرف السيدة التي اشار اليها فوعدناه ان نذهب لزيارته ذلك المساء . وتوسل إلينا فهد ان لا نتباطأ لأن حالة زوجته سيئة للغاية وقد عانت آلاماً مبرحة خلال رحلتها من الأرق على ظهر الجمل مسافة ثمانين ميلاً .

ووجدنا خيمة صغيرة قذرة ذات عمود واحد طرح عليه رواقان تدليا على الجانبين قال فهد ان ذلك أسهل للسفر . ورأينا داخل الخيمة امرأة محزنة يبدو انها كانت في الأصل شابة جذابة ولكنها اصبحت من الضعف بحيث انها لا تستطيع الوقوف على قدميها . وحدقت المرأة بنا بعينين مشدوهتين وهي تضم الى صدرها طفلاً هزيلاً لا يتجاوز عمره عدة أشهر .

وقال فهد مخاطباً زوجته :

– قومي يا وضحى .. هنا ام سعود وابو سعود وقد جاءا لزيارتك ومحاولة شفائك .

وحاولت وضحى جهدها ان تفعل ما طلبه زوجها ولكنها لم تستطع النهوض لتحيتنا فصدرت عنها تأوهات مؤلمة . وشرح لنا فهد ان دملاً نبت في رقبتها منذ اربعة اشهر واخذ يكبر ويكبر الى ان يئست زوجته من شفائه بعد ان عانت الكثير من الآلام بسببه .

وطلبنا ان نشاهد الدمل فرأينا تورماً مخيفاً يمتد من الأذن اليسرى حتى أعلى الكتف وفي وسطه بقعة حمراء كبيرة بحجم البرتقالة . ويبدو ان شعر المرأة كان يضايقها فقص قسم كبير منه ولكنها ظلت غير قادرة على تحريك رأسها او رقبتها .

وقالت لها زوجتي :

– اطمئني .. سوف تشفين . أول شيء سنفعله في الصباح الباكر هو ان نأتي بسيارتنا لنقلك الى مستشفى الارسالية الأميركية المسؤولة عنه احدى السيدات والذي يعمل فيه طبيب ماهر .

واعربت وضحى المسكينة عن شكرها بعينيها الكبيرتين اللتين تفصحان انا وبحركة من يديها .

وطوال ذلك الوقت تجمهر عدد من النسوة والأطفال حولنا كانت صفية من بينهم طبعاً ، واخذوا يتدافعون ليلقوا نظرة على المرأة الطريحة . وظل فهد مشغولاً طوال الوقت في منعهم من التدافع حتى لا تسقط علينا الخيمة الصغيرة .

وغادرنا المكان لنعود في الصباح الباكر كما وعدنا ونقلنا المرأة وزوجها ووالدته والأولاد الثلاثة الى المستشفى حيث أجريت لوضحى عملية مستعجلة . واخبرنا الدكتور سكادر وزوجته النشيطة اللذان اجريا العملية ان سطولاً من القيح أزيلت من الدمل . وظلت سيارتنا تنقل المرأة المريضة مدة اسبوع الى المستشفى لتغيير رباط الجرح . وفي السادس من آب كانت وضحى تسير في طريق الشفاء العاجل واصبح بامكانها ان تمشي لزيارتنا يومياً وتخبرنا عن حياتها في الجنوب البعيد . وكان فهد أيضاً يأتي لزيارتنا يومياً ويقول انه لا ينوي من مشاهدتنا وان شعبه سيعرفون بكل فضل أم سعود على زوجته ، وان الملك عبد العزيز سيعرف بذلك ويكون شاكراً .

وردت عليه زوجتي بقولها :

– في الحقيقة اذا اصبح لنا شرف الحصول على امتداح ابن سعود لنا يكون ذلك بمثابة مكافأة قيمة .. ونرجو ان تأتي لزيارتنا قبل ان ترحل .

ان آل مرة قوم طيبون ولهم طريقة رائعة في تقديم الشكر والاعجاب . . ولم نأخذ بندقية فهد لقاء العملية بل سددنا القيمة من جيبنا .

مهارة الدكتور دايم

كان الدكتور لويس دايم الشهير الذي توفي في الولايات المتحدة عام ١٩٥٣ عضواً بارزاً رفيع الشأن في الارسالية الاميركية في البحرين . وعمل فيما بعد مع شركة النفط العربية – الأميركية في الظهران الى ان اضطرته احواله الصحية السيئة للعودة الى بلاده . وأثناء وجوده في الجزيرة العربية كان ينظر اليه البدو

نظرة احترام ووقار في كل مكان ، وكان بين الرجال القلائل الذين كان يسمح لهم بالذهاب الى الرياض بصورة مستديمة لمعالجة أفراد العائلة المالكة والمرضى من البدو الذين كانوا ينقلون الى العاصمة للمعالجة .

كان دايم في نظر البدو ساحراً عصرياً يستحق الثناء والمديح الذي كان ينصب عليه من جميع انحاء عالم البدو الرحل الذين لم ينفكوا لحظة عن التحدث بمآثره وعطفه ومهارته وقدرته على الشفاء . وليس ذلك أقل مما في الأمر لأن البدو الذين يتجاوبون بطبيعتهم مع العطف والاحسان ويحاولون المقابلة بأضعاف الأضعاف ، قد نشروا في القريب والبعيد قصصاً وحكايات فيها الكثير من المبالغة يقصد بها رد الجميل للرجل الذي ساعدهم وشفاهم من أمراضهم الغريبة .

ففي ٢٧ تموز سنة ١٩٤٣ جاء عبدالرحمن بن ماضي الأمير السعودي في أبرق الكبريت (او الجوف) بشمال الاحساء ليرد لنا في الكويت الزيارة التي قمت بها وزوجتي له في الاحساء في آيار من تلك السنة . وأثناء مأدبة الغداء التي اقمناها على شرفه اخبرنا من جملة الأشياء القصة الغريبة التالية عن الدكتور دايم :

ذات يوم كان الدكتور دايم في شقرا حيث جيء له ببدوي فقير بينه وبين الموت قيد شعرة . وقال رفاق البدو للطبيب : انه يريد ان يموت لكننا أردنا أن نأتي به اليك لعلك تستطيع ان تفعل شيئاً من أجله .

وقام دايم بفحص المريض من كل جانب لكنه لم يجد أثراً لأي خلل عضوي فوضعه تحت المراقبة لعدة أيام ولكن جميع الجهود التي بذلها لتحسين حالته ذهبت هباء .

وبالنتيجة وجد دايم ان المريض لم يأكل شيئاً خلال السنتين الماضيتين سوى حليب الجمال وبعض التمور ، فخطرت له فكرة بارعة . وسأل القصابين هناك عن الوقت الذي سيذبحون فيه جملاً وطلب منهم ان يقتطعوا له قطعة من الجلد الذي يغطي ركبة الجمل . واخذ قطعة من هذا الجلد بحجم قطعة النقود وربطها بخيط رفيع وأمر المريض ان يبلع القطعة نيئة ففعل واخذ هو يرقب النتائج بعد ان تأكد ان طرف الخيط لا يزال خارج فم الرجل .

وبعد مضي اكثر من يوم أخذ دايم يسحب قطعة اللحم النيء ببطء من جوف الرجل فوجد كتلة من الطفيليات التي تعيش على بدن الجمال ملتصقة بها من النوع الذي عندما يشبع من امتصاص الدم يصبح بحجم حبة العنب . وصاح الدكتور دايم وهو يشعر بنشوة النصر : هذه هي سبب علة الرجل .

ويبدو ان الرجل قد ابتلع هذه الطفيليات وهو يشرب حليب الجمال فجاءت في موضع حيوي من اعضائه الداخليـة حيث ظلت تعيش وتنمو فترة من الزمن فعندما دخلت قطعة لحم الجمـل جوف الرجل تعرفت عليها هـــذه الطفيليات بالغريزة أو بحاسة الشم فـافلتت قبضتها على جسم المريض وتمسكت بغذائهـــا الطبيعي .

وشفي المريض تماماً .

انني اذكر هذه الحادثة بـــدون تعليق لأنني لست ادري ما اذا كانت قصة حقيقية او من نسج خيـال البدو . ولكن الشيء المؤكد هو ان القصة انتشرت وصدقها الناس بحرفيتها ــ وقد شدد الأمير عبدالرحمن على هذه النقطة ــ لاسيما البدو الذين يحفظون الود والعرفان للدكتور دايم ومهارته الخارقة والذين يريدون من اخوانهم في كل مكان ان يعرفوا ذلك .

آبار الطويل

تقع آبار الطويل على بعد اثنين وثلاثـين ميلاً الى الجنوب فالجنوب الغربي من لكويت . وهي تشكل مع صبيحيه التي تبعد عنها اثني عشر ميـلاً الى الجنوب ومع جهرا ثلاثة من أهم الأماكن التي يعرفها البدو جيداً للتخييم الصيفي في شمال شرق الجزيرة العربية . والأماكن الثلاثة تضم عدداً كبيراً من الآبار يرجع تاريخها الى اقدم الأزمان ويجدر بالمرء زيارة أحدها عند اشتداد الحر والتجول بين خيام مطير وعجمان المتلاصقة المكتظة ورؤية قطعان الجمال وهي تنتظر دورها لعب الماء حول الآبار .

كان ذلك في السادس والعشرين من آب سنة ١٩٤٣ . وكان نجم سهيل الذي

يدل ظهوره على انتهاء الصيف قد ارتفع في نجد قبل ثلاثة أيام وأصبحت الليالي اكثر برودة والجمال ترد الآبار كل ثلاثة أيام . ويقال ايضاً ان الانسان في هـــذا الوقت يشرب كميات أقل من الماء عند ظهور هذا النجم.. او ليس يشعر الانسان في داخله كبقية افراد عالم الحيوان ؟

وفي تلك السنة صادف رمضان اليوم الأول من أيلول ولم يبق سوى بضعة أيام يمكن فيها للمرء ان يأكل ويشرب كما يشاء في النهـار . وكان الشيخ خالد بن حمد المكراد الذي اشترك معي في مطاردة الجمل الهارب ينتظر في الكويت سيارة تقله الى الرياض .

ولم يكن خالد يريد الذهاب لكن أوامر الملك يجب ان لا يقلل من شأنها . فقد أبلغه ابن سعود قبل شهر ان عليـه أن يحضر الى العاصمة لقضاء شهر الصوم عنده . لان الملك كان يحب دائماً ان يجمع حوله مجموعة من الشيوخ الشبان اللطيفي المعشر ليرافقوه وافراد عائلته أثناء الصوم . وكان خالد مقرباً الى الملك ويأمل ان يصحبه الى الحج في مكة بعد سبعين يوماً من عيد الفطر . وذلـــك يعني « الخرجيه » و « الكسوة » لأن الملك لا يبخل على المقربـــين اليه او على شيوخ القبائل الذين يصحبونه للحج .

ولما كان خالد يرغب في رؤية زوجته وأولاده قبل ان يسافر الى الجنوب ، فقد طلب مني ان انقله بسيارتي الى الطويل . وكان عليّ ان أقوم بعمل تفتيشي في مركز وارا فوافقت أن آخذ خالد معي الى الطويل أولاً . وتوجهنا الى هناك في الساعة الخامسة والنصف من صباح الثامن والعشرين من آب . وعندما اقتربنا من الطويل سألني خالد ما اذا كنت استطيع ان أحمل له في سيارتي الى الكويت شداده المفضل (الشداد يعني سرج الجمل) لأنه قـد يضطر الى القيام بالرحلة الى الرياض على ظهر الجمل ، فوافقت .

كان منظر الطويل رائعاً .. فقد انتقل فرعا محفوظ ومسرى في قبيلة عجمان الى صبيحيه وجهرا فكان عدد الخيام أقل مما كان عليه عندما شاهدتها آخر مرة ومع ذلك كان عددها لا يزال يزيـد عن خمسماية خيمة . وكانت الآبار مكتظة

بجمال الدياهين . (الدياهين فرع من مطير شيخه الأعلى أياد المترقى) وقد تجمعت الجمال حول حياض دائرية كبيرة بالقرب من أفواه الآبار فيما كان غيرهـا ينتظر دوره على شكل صفوف بين الخيام بمواجهة شمس الصباح الباكر كعادتها .

وهناك أيضاً كانت جمال زنيفر بن حويله وابنائه ولكن اصحاب تلك الجمال كانوا منهمكين في اصلاح فوهة أحد الآبار بعد ان قاموا بتنظيفه وتغطيته بالعرفج الممدود على عظام الجمال لتقويته .

وتوجهنا رأساً الى خيمة زنيفر والد زوجـة خالد ، حيث كانت تقيم ساره وولداها خزنه وحمد . ولم يمض وقت طويل حتى تجمع حولنـا عدد من النساء والأطفال في حين ذهب آخرون لاحضار زنيفر وولديه عبدالله ومعضد الذين كانوا يعملون في البئر . وفرشت لنـا ساره بساطاً في قطاع الرجال من الخيمة يعرف بالربعه وجعلتنا نشعر وكأننا في بيتنا . والتف حولي على الفور حمد الصغير ونورية وهمـا أولاد عبدالله ومعضد وقدموا لي خدودهم لأقبلها دون خجل أو وجل .

وجاء زنيفر وولداه تبدو على وجوههـم السعادة وعلى ثيـابهم الأوساخ والوحول من جراء حفر البئر .. وجلسوا معنا . وأتت ساره بحليب الجمال في وعاء خشبي ثم تبعته القهوة التي كانت تغلي على النار استمداداً لتقديمها الى العاملين في البئر .

ولقي خالد ترحيباً حاراً نظراً لكونـه زعيم آل محفوظ ثم انسل بهـدوء ليجري حديثاً خاصاً مع زوجته ساره التي احتلت مكانها على الفور نمشا العجوز زوجة زنيفر التي كانت تبدو اكثر تهدلاً من المعتاد . وكانت كلماتها الاولى لي :

– هل احضرت لي معك كسوة ؟ دائمـاً تحضر معك الهدايا لساره والاولاد وتنساني .

وأجبتها بقولي :

– زنيفر سيعطيك الكسوة لا أنا .. اذهبي وأحضري شغى .

وشغى التي تبلغ من العمر ستةعشر عاماً هي ابنة عبدالله من زوجته السابقة

سنوى التي طلقها . ولشفي معزة خاصة في قلوبنا .

وبعد القهوة أصر الرجال علىان أقوم بتفقد الجمال والبئر الجديدة التي وهبهم إياها سمو الشيخ أحمد قبل عدة أيام . وابلغت ان البئر قد امتلأت خلال سنوات طويلة ولكن مياهها كانت شديدة العذوبة مع انها كانت في ذلك الوقت معكرة قليلاً . واعطيت قليلاً من تلك الماء لأتذوقها ثم تفقدت التغطية المكونــة من العرفج حول فوهة البئر وقد كسي سطحها بالطين . وهذا العمل استحق اعجابي وتقديري بالفعل لأنه متقن للغاية . وكانت القامة الخاصة بجر المياه قد اقيمت في مكانها مما جعل الجميع في حـــالة من السعادة والرضا . فتمنيت لهم وللبئر حظاً سعيداً قائلاً : مبروكه .. مبروكه . ورد علي الجميع وكأنهم فرقـة موسيقية : « الله يطول عمرك » .

واقتادني زنيفر الذي لاحظت انه كان ثرثاراً أكثر من عادته لأرى قطيــع جماله الحلوب المؤلف من ثلاثة وخمسين رأساً تجمعت في مكان قريب من الخيمة . وهذه الجمال كلها تزاوجت من فحول عمانية أصيلة قال انه تلقاها هدية قبل أربع سنوات من محمد أبو ليلي شيخ النقدان في آل مرّه . وبكل فخر واعتزاز اشار زنيفر الى ثلاثة من بنات العمانية اعمارها ثلاث سنوات وسنتان وسنة على التوالي. اما الذكر الكبير فـكان أصيلاً معافى وسميناً له سنام كبير .

وعندما عاد زنيفر ليعمل في البئر انضم الى خـــالد وعدنا سوياً الى الخيمة لنجد جمهوراً أكبر من الشيوخ والشبان والأطفـال الذين تغطي اجسادهم اسمال بالية قذرة دفعهم الفضول لتسقط الاخبار الى الاستماع لاحاديثنا . وكان اول سؤال ألقي علي: « متى ستنتهي الحرب؟ » و«لماذا تحجز الحكومة المواد الغذائية والأرز ؟ » وهــذا السؤال يشير الى النقص الكبير الذي كانت تعـاني منه الكويت .

ومن أطرف الأسئلة التي سمعتها : « ماذا ستفعل الحكومة بهتلر عندما تلقي عليه القبض ؟ »

واجبت على هذا السؤال بقولي :

– « انها ستضعه في قفص وتسلمه لعجمان . . أليس هو حفيد ركان الهذلان الذي كان شيخكم في يوم من الأيام ؟ »

وفي هذه التورية اشارة الى مزاح كان يطلقه ابن سعود الذي كان يحب دائماً ان يداعب العجمان بقوله ان ركان الهذلان عندما كان سجيناً في الآستانة تزوج امرأة تركية وانجب منها اطفالاً ينحـــدر من أحدهم الفشار الكذاب ادولف هتلر .

وهنا صاحت الجوقة :

« نعم .. نعم سلموه لنـا ونحن نعرف كيف نتصرف معه .. ابن الكلاب »

ولم يكن بامكاني البقاء هناك مدة اطول فودعت الرجال واستأذنت بالذهاب من خلف القاطع لمشا وساره وشغى وريقا زوجة عبدالله اللواتي انسحبن الى قطاع النساء من الخيمة عندما تجمهر حولنا الرجال .

وكان الوداع الأخير الذي لقيته انا وخالد اشبه بتظاهرة قام بها جمهور من الأطفال . كما انني تلقيت قبلة في الأنف من زنيفر الذي دعـاني لزيارته مرة ثانية على ان احضر ام سعود معي .

وبعد ان أخذنا شداد خالد سرنا نحو برقان ومن هناك الى مركز وارا عـبر طريق دائرية . وفي وارا سرني ان ألتقي بخميس بن رمضان[1] رئيس المرشدين في شركة النفط العربية الأميركية . وكان خميس قد قدم من الاحساء ليرى زوجته الجديدة نورا شقيقة محمد بن طاهوس رئيس حراس شركة نفط الكويت في منطقة آبار برقان .

وبعد ان شربنا القهوة في كوخ الحارس اخذني خميس ومحمـد لنسلم على نورا وامها . وكانت نورا قــد هيأت شقة نظيفة لزوجها في منزل محمد بينما انتقلت ساره الى خيمة منفصلة لتفسح لهم المجال . وكنت انا وزوجـــتي نعرف نورا ووالدتها منذ أربعة عشر عاماً ولذلك سرني ان أحصل على شرف المعاملة وكأنني احد أفراد العائلة .. فدخلت شقة نورا دون أي مانع بسبب عدم وجود زوجتي معي .. وهذه عادة تتميز بها عجمان .

(1) رمضان

قضيت نصف ساعة التحدث الى خميس ونورا اللذين كانا في أحسن أحوالهما . ولم تنس نورا ان تسألني عن كيس الأرز الذي كانت له قيمة تذكر في تلك الأيام العصيبة فوعدتها ان افعل ما بوسعي للحصول على كيس اقدمه لها . وكانت لا تزال طفلة في طريقة حديثها وليس عجباً انها استأثرت بقلب حمو الشيخ احمد الذي تزوجها سنة ١٩٣١ ومن المؤسف ان ذلك الزواج قد انتهى بعد سنتين لأن نورا لم تنجب أطفالاً .

وأخبرني خميس اشياء كثيرة عن اصدقائي الأميركيين والعرب في الظهران ، وتحدثنا عن الأيام السالفة وعن الرحلة التي قمت وزوجتي بها برفقته الى الظهران والى آثار مدينة ثاج . وفي الحقيقة ان هؤلاء البدو الذين ينتمون الى اصل رفيع يكرمون المرء عندما يزورهم في ديارهم .. ولم استمتع في حياتي قط برحلة كتلك التي قمت بها ذلك اليوم مع خالد المكراد .

عدنا الى الكويت في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً قبل اشتداد الحر . وقد وفيت بوعدي وعدت لزيارة هؤلاء القوم في السابع من تشرين الأول بصحبة زوجتي . وكانت هديتنا لسارة حجري رحا لطحن القمح لاننا علمنا انها بحاجة ماسة اليها . اما الأطفال فقد أعطينا كلا منهم دشداشة وغطاء للرأس . ولم ننس نورا في وارا فقد حملنا لها كيساً من الأرز لاقينا صعوبة كبيرة في الحصول عليه .

عودة الحجاج

عودة الحجاج من مكة تكون دائماً حدثاً سعيداً اذ يتوجه أقارب الحجاج العائدين مسافة مئة ميل احياناً لملاقاتهم وقضاء ليلة معهم في مخيم على الطريق ويستقبلونهم بعد هذا الغياب الطويل بالطعام الشهي والماء العذب وغيرها من المغريات .. أو لم يكن هؤلاء في بيت الله الحرام ؟ الم تغفر ذنوبهم فعادوا اتقياء انقياء ؟

ان استقبال الاصدقاء للعائدين له دلالة خاصة لا سيما اذا كانوا قد ذهبوا الى

الحج على ظهور الجمال (مسافة الفي ميل) مما يعني انهم تغيبوا عن منازلهم مدة ثمانين يوماً ناهيك عن المدة التي يقضونها في المدينة ومكة المكرمة . ان فرحة الحجاج العائدين لا توصف وهي تفتح القلب لا سيما عندما يوزعون الهدايا الصغيرة التي حملوها معهم الى اعزائهم .. وفوق كل شيء الحج الى مكة هو الذي يحفظ وحدة الاسلام .

لا زلت أذكر جيداً عودة سالم المزين من الحج في الخامس من كانون الثاني سنة ١٩٤٥ ذلك اليوم الذي كان بمثابة عيد له ولعائلته . فقد أعطيته اجازة ليذهب الى الحج مع بعض أفراد اسرته وهم : زوجته حمشا ، وشقيقته منيره ، ومزيد الظافري ، وسليمان زوج شيخه ابنة ابراهيم المزين شقيق سالم ، وولد عبد اسمه مبارك . لقد افتقدناهم كثيراً طيلة الأشهر الثلاثة التي تغيبوا فيها ولذلك سررنا كثيراً لدى سماعنا انهم وصلوا رجم الجهتان على بعد خمسة عشر ميلاً الى الجنوب من وارا حيث كان الاتفاق ان تنقل مواشيهم لترعى هناك .

ولم تكد الأخبار تصلنا حتى قررت وزوجتي وولدنا سعود الذي كان يقيم عندنا لعدة ايام ان نخرج الى مخيم سالم لاستقبال العائدين . وقد حملنا في السيارة معنا من الطعام والأمتعة ما يكفي لقضاء ليلة معهم في خيامهم السوداء. ووصلنا المخيم الساعة الحادية عشرة صباحاً . وكان المخيم يقع في منخفض صغير على مسافة قصيرة الى الجنوب من رجم الجهتان . ولما وصلنا الى هناك أخذت الكلاب تنبح واستقبلنا الرجال والنساء والأطفال وعلى رأسهم سالم بالترحاب والأهازيج . لقد كنا نحب عائلتنا العربية الصغيرة وقد سررنا كثيراً انهم عادوا الينا من جديد .

وبعد التحيات المعهودة قام سالم ليصنع القهوة التي بعد ان شربناها تجمهر حولنا الجميع لينقلوا إلينا اخبارهم وليستعلموا منا عما يحدث في الكويت . كان يبدو عليهم النحول والتعب لأن رحلة طولها الفا كيلومتر على ظهر الجمال ليس أمراً هيناً خاصة بالنسبة للنساء . وكانوا العائدون قد قابلوا محمد وحمود أولاد ابراهيم المزين وحصا ابنة سالم التي جاءت مع اغنامها . وقد فرحت كثيراً

لمقابلتنا .

وسألتنا عمشا عن صحتنا وصحة اصدقائها الكثر في الكويت ثم اخرجت لنا هداياها الصغيرة التي تدل على عاطفتها نحـــونا . فقد أعطت زوجتي زجاجة صغيرة فيها ماء من زمزم البئر المقدسة بجوار المسجد الكبير في مكة . ويعرف عن هذا الماء بأنه من نفس المصدر الذي أحضر منه الملاك جبرائيل الماء باعجوبة لينقذ هاجر وابنها اسماعيـل من الموت عندما تاها في البراري المقفرة منذ عدة قرون .

واعطيت زوجتي ايضاً بعض ثمار الدوم الذي له اساطير تتعلق به اخـــبرتنا اياها زوجها فيما بعد . وقدمت عمشا لولدنا سعود جـوارب رخيصة اشترتها من سوق مكة .. فكانت هدية مؤثرة . اما هديتي فكانت عبـــارة عن قطعة من الحجر الناري عليها علامات كتلك الموجودة على الحجر الأسود المقدس في الكعبة القائمة وسط الباحة الواسعة للمسجد الكبير .

وقالت عمشا : و لقد وجدت هذه القطعة على مسافة مسيرة يوم كامـــل من مكة فخطر لي انك تود ان ترى كيف هو الحجر الأسود .

كان الحجر اخضر الى درجـــة السواد فيه خطوط بيضاء ربما كانت تشبه احرف هجـاء قديمة . ولا زلت احتفظ بهـــذه القطعة بين التحف الثمينة التي أملكها . ويزن هذا الحجر خمسة أرطال وقد حملته عمشا وحافظت عليـــه في سرج جملها مسافة تزيد عن الف ميل .

وبعد ذلك بدأ سالم يقص علينا تفاصيل رحلته الى الحج فوصف لنا الاشياء المدهشة التي رآها والواجبات الدينية المختلفة التي قام بها .

ولم يكن قد زار مكة من قبل فأثرت فيه هذه الزيارة تأثيراً كبيراً لانه كان يصف مفاتنها بنوع من اللذة العارمة . ومن هذا الوصف البسيط المزوج بالانفعال علمنا مقدار تأثير زيارة بيت الله وغفران الخطايا في جبل عرفـــات ، على سالم وعمشا .

تمتد الاماكن المقدسة على طول مساحة كبيرة حـول مكة محددة بعدد من

الاعمدة اقيمت على مسافة من المدينة . ولدى وصولهم الى الحدود الشرقية نصب سالم وصحبه خيـامهم هناك وغسلوا وطهروا انفسهم ولبس كل منهـم رداء الاحرام – ابيض اللون للرجال وأخضر قاتماً للنساء – الذي يحتفظ به الزائر الى يوم التضحية الكبرى الذي يصادف اليوم العاشر من ذي الحجة وهو شهر الحج .

وقبل الدخول الى مكة قص كل من الرجال ثلاث خصل من شعره واحـدة من كل جهة من الوجه وأخرى من وسط الرأس فوق الجبهة . وقصت كل واحدة من النساء قطعة من مؤخرة ضفائرها طولها بوصتان . اذ يمنع قص الشعر وتقليم الاظافر للجنسين من اليوم الاول حتى اليوم العاشر من ذي الحجة .

وسار الجميع نحو مكة حفاة الأقدام – وكان الرجال حاسري الرأس – فوصلوها قبل الوقت المناسب بستة أيام فقاموا بالطواف خلال هذه المدة اي انهم طافوا سبع مرات حول الكعبة ملجأ الحمام المقدس ، واخذوا دورهم في تقبيل الحجر الأسود ، وزاروا قبر ابراهيم وغـيره من المزارات ، وشربوا من مـاء زمزم . ويمكن للذين يصلون قبل الوقت كما فعـل سالم وعائلته ان يقوموا بهذه الواجبات مرات عديدة .

ان الجزء الأهم من الاحتفالات هو الشهادة على عرفـات . فاذا فشل المرء ان يفعل ذلك تبطل حجته ولو كان قد أدى جميع الفروض الأخرى . ان الوقوف على عرفات هو روح فريضة الحج ويجب ان يؤدى مع الجموع في اليوم التاسع من ذي الحجة وهو آخر يوم في السنة الهجرية .

وفي صباح ذلك اليوم حمّل سالم وصحبه جمالهم بالخيـام والطعام والأواني وتوجهوا عبر قرية منى الى جبل عرفات وهو عبارة عن تلة مخروطية الشكل من الغرانيت على بعد ثمانية عشر ميلاً من مكة على طريق الطائف .

وهناك شهدوا أمام الجبل المقدس من الظهر حتى الغروب بين عشرات الالوف من الحجاج اللابسين أثوابهم البيضاء والجالسين بوقار يقولون « لبّيك » ويشاركون في الصلوات والتأملات .

وفور غياب الشمس اندفعت الجموع عائدة نحو منى التي تبعد ثمانية أميـال

باتجاه مكة ، حيث يتوجب على الحاج ان يقضي ثلاثة أيام . وبالقرب من هناك يوجد مكان الرجم بالحجارة وهو عبارة عن ثلاثة أعمدة يحيط بها جدار منخفض وتعرف باسم الشيطان الكبير ، وجمرة الوسطى ، والشيطان الصغير . ففي الصباح الأول يلقون سبعة أحجار على الشيطان الكبير ، وفي الصباح التالي سبعة أخرى على جمرة الوسطى ، ويلقون سبعة أخرى على الشيطان الصغير في اليوم الثالث .

ومع انه من المفروض على الحاج ان يلقي الحجارة كل صباح أثناء اقامته في منى لكنه في الحقيقة تنتهي مراسم الحج رسمياً في اليوم الأول من تلك الأيام الذي يصادف العاشر من ذي الحجة . ويسمى هذا اليوم عيد الأضحى او عيد الضحية . وبعد أن القى سالم حجارته على الشيطان الكبير قام بما يسمى التضحية الكبرى بأن ذبح خروفاً . وفي نهاية الأيام الثلاثة التي قضوها في سهل منى عادوا فلبسوا ثيابهم الأصلية ورجعوا الى مكة حيث حلق الرجال رؤوسهم اما عمشا ومنيره فقد قصتا قطعة صغيرة من طرف ضفائرهما . وقضى سالم وصحبه اربعة أيام في مكة حيث زاروا الأماكن المقدسة مرة أخرى .. وفي اليوم الخامس غادروا المدينة المقدسة عائدين الى الكويت . وقد استغرقت رحلتهم من مكة الى حيث يخيمون في رجم الجهتان شهراً كاملاً من السير المتواصل .

وقد احضرنا معنا من الكويت خروفين سمينين مع بعض الضروريات الأخرى كالقهوة والأرز والدهن والزبيب والنخي ، فأقمنا للحجاج العائدين تلك الليلة وليمة عامرة لم يذوقوا مثلها منذ زمن فأكل الجميع مريئاً حول النار وشكروا الله .

وأخبرنا سالم حكاية نخيل الدوم الذي ينمو في بساتين مرّان التي تقع على طريق الحج المؤدية من العراق والكويت الى مكة والتي تبعد حوالي مئه وخمسين ميلاً الى الشمال الشرقي من المدينة المقدسة . وثمر الدوم ذو لون بني قاتم شديد اللمعان في حجم إجاصة صغيرة . وبلغ طول إحدى الاثمار التي اهدتها عمشا لزوجتي ٦٥ مليمتراً وبلغ عرضها ٥٩ مليمتراً ، ولم يكن في داخلها نواة ولكنها قاسية جلدية الملمس وغير ذات طعم . وقد اسماها العرب « دوم » أي الحجر .

وقال محمد ان اسطورة هذا التمر تعود الى زمن رسول الله محمد بن عبدالله. اذ حدث ان كان الرسول يسير مع بعض صحبه على الطريق الى مكة فوصلوا ضواحي مرّان وهم في حالة من التعب والاعياء نتوقفوا للاستراحة في واحة وارفة الظلال فيها أشجار نخيل محملة بتمور شهية . وكان صاحب البستان مشغولاً بجر الماء لري حديقته فاقترب منه الرسول وسأله اذا كان بامكانه الاستغناء عن عدة حبات من التمر لمسافرين متعبين تمكنهم من متابعة سيرهم . وأجابـــه صاحب البستان بصفاقة :

ـ اذهب أيها المتسول .. ليس لدي تمر إن ما تراه على هذه الاشجار ليس إلا حجارة .

وغضب الرسول من هذا الجواب الوقح فأشار الى التمور وقال :

ـ الله يجعلهم دوم الى آخر يوم .

ومنذ ذلك الحين ، قال سالم ، وكل أشجار النخيل في تلك الواحة والوادي تحمل الدوم بدلاً من التمر . وعندمـا يمر الحجاج من هناك في طريق عودتهم من الاماكن المقدسة يحملون معهم من هذه الثمار للذكرى دليلاً على صدق كلمة الرسول محمد بن عبدالله .

وعندما قمنا للنوم كانت الساعـــة التاسعة والنصف وكان الجو بارداً ملبداً بالغيوم ، والبرق والرعد البعيدان ينذران بعاصفة هوجاء . وبدأنا نحتاط لهـذه العاصفة فنهض سالم واقتاد اغنامه للجوء تحت سقف خيمته لأنـــه في مثل تلك الليلة تكثر الذئاب . ولم ينس ان يحذر الرعاة من ذلك ويطلب اليهم ان يوقدوا النار حول المكان طوال الليل .

كانت مخاوف سالم في محلها . اذ ان ذئبين ، ذكر وانثى كما تبين من آثارهما ، هاجما القطيع الساعة الواحدة صباحاً عندمـا كانت السماء قد بدأت تمطر ، وحملا معهما نعجة ممتازة .

وبالرغم من النباح الشديد الصادر عن كلاب الرعاة ، تمكن الذئبان من الفرار بفريستها التي وجدنا بقاياها في الصباح الباكر وقد أكلتها الذئاب كلهـا باستثناء

العظم والجلد على حوالي ثلاثمائة ياردة من الخيمة .

ومن السهل تصور مـــا حدث . ان الكلاب هاجمت بعنف وبجرأة ولكن أحـــد الذئبين كان يصدها فيما راح الآخر ينهش من الفريسة والعكس بالعكس . ونظراً لشدة الظلام والمطر لم يتمكن الرجال من القيام بمطاردة فعالة .

وعدنا الى الكويت نشعر ببعض الأسى ولكن عائلة سالم التي تبعتنا بعـــد يومين لم يكن يبدو عليها أي قلق بل على العكس كانوا شاكرين لعودتهم ورؤية اصدقائهم .

وقبل ان نغادر رجم الجهتان أفضت لنا عمشا بأنها قررت ان تسمح لسالم ان يتخذ زوجة جديدة على أمل ان تنجب له ولداً . لأن عمشا طوال هـــذه السنين لم تنجب له ولداً وقد رأت في نومها حلماً وهي على جبـــل عرفات يقضي بأن تتصرف بتلك الطريقة . وقالت ان سالم كان الى ذلك الوقت مخلصاً في حبه لها ومتعلقاً بها وانه يستحق زوجة جديدة . وتزوج سالم فتاة عوازمية انجبت له ولدين . وكانت عمشا سعيدة بها وتعتني بها كأنها ولداها .

وهنالك شيء أود ان اسجله هنا وهو ان سالم عندما توجـــه الى مكة من أبرق خيتان حيث كان مخيماً خارج الكويت، ترك خلفه كلبيه وهما ذكر وانثى ليحرسا قطيعه في غيابه . وهذان الكلبان اسودا اللون يجيـــدان صد الذئاب ومطاردتها . وبعد مسيرة أربعة أيام من الكويت افاق سالم ليجد كلبته السوداء تلوح بذنبها وتبتسم له . ويبدو انهـــا قـــد احست بأن سيدها ذاهب في رحلة طويلة فتبعته مستدلة على الطريق بحاسة الشم . وقـــد دهش سالم عندما رآها فقرر ان يأخذها معه في رحلته اذ انه لم يعد لديه وقت لاعادتها . وظلت الكلبة الوفية تتبع سيدها الى ضواحي مكة المكرمة . ورغبة منه في ان لا يدخلهـــا الى المدينة المقدسة ، طلب سالم من فريق من البدو مخيمين الى جانب الطريق ان يعتنوا بها لمدة اثني عشر يوماً فوافقوا وشدوا رباطها لمنعها من اللحاق بصاحبها .

وفي طريق العودة من مكة مر سالم ليأخـــذ الكلبة فقالوا له انهـــا قطعت رباطها وهربت . ولم يكن بامكان سالم ان يؤخر رحلته فقضى يوماً واحـــداً في

البحث ثم أكمل سيره . ولما وصل الى رجم الجهشان وجـد الكلب الآخر كسير القلب لا سيا بعد ان رأى ان صديقته ليست مع العائدين . ويبدو انه عرف انها ذهبت مع سالم فظل ينتظرها بفارغ الصبر مدة ثلاثة أشهر وبعد ان بحث عنهـا يومين متواصلين ولم يجد لها أثراً قضى ثلاث ليال متواصلة فيما يشبه النحيب ثم قضى نحبه .

وعلق سالم على هـــذه الحادثة بقوله : الحيوانات كالبشر تحب اصدقاءها .. الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .

انقطاع السوار

بقلم فيوليت ديكسون

في شتاء سنة ١٩٤٤ وربيع سنة ١٩٤٥ أقمنـا مخيمنا في بلاد الحمض عـــبر الشق على بعد ستين ميــلاً من الكويت . وقضيت هناك عدة أيام في نهاية شهر شباط فيما بقي زوجي في المدينة . وكان معنا بالاضافة الى سالم المزين ونسائه عدد من عائلات آل مرّه وعدوان وعوازم ومن فرع الدياهين في مطير .

وكان في الخيمة المجاورة لنا صالح المرّي وزوجته قمزه وابنه محمد . ولصالح صلة قربى بالصمعق شيخ فرع البهية في آل مرّه ، وكان يعمل في خدمة الشيـخ عبدالله المبارك الصباح كرئيس لمقتفي الآثار . وقـد انجبت قمزه طفلها الثاني في المخيم في كانون الثاني وصادفت ولادة معسرة وأياماً عصيبة أثرت على صحتها ممـا اضطر صالح لأن يحصل على اجازة ويبقى إلى جانبها ريثما تتحسن حالها ولكي يكون بامكانه الاشراف على جـــماله وأغنامه . وقد أخذنا لها بعض الدواء من الدكتورة الآنسة كراوز وبعض الأرز لانهـــا لم تكن تستطيع أكل مسحوق الحنطة او الشعير الذي كان كل ما تستطيع الحصول عليه بموجب بطاقـــة الاعاشة .

وخلال ليلتنا الأولى في المخيم استيقظت على اصوات رجال يتحدثون بالقرب منا عرفت صوت احدهم وهو سالم المزين الذي كان يتحدث الى رجل آخر ليس

بعيداً عنه .

ولم تكن لدي فكرة عن الوقت الذي جرت فيه المحادثة ولم يقلقني ذلك بل عدت الى النوم من جديد . وفي صباح اليوم التالي ذهبت لأشرب القهوة في خيمة سالم فأخبرني عن وصول ذلك الغريب اثناء الليل .

كان سالم نائماً في خيمته عندما سمع الكلاب تنبح بضراوة فهب ليعرف السبب لأنه ظن أن ذئباً قد تعقب اغنامه مع ان الذئاب لا تأتي في مثل ذلك الوقت من السنة . وسمع سالم صوت رجل ينيخ جمله ورأى في ضوء القمر بدوياً ينزل خارج خيمتي فذهب اليه وطلب منه ان يأتي الى خيمته حيث سقاه القهوة وأطعمه التمر واللبن . واستراح الغريب عدة ساعات استأنف بعدها سيره الى الكويت . وكان لديه اكياس مليئة ببعض الثمار البرية التي ينوي بيعها في المدينة مستعجلاً الوصول لأنه سمع في اليوم السابق ان الاسعار مرتفعة . كل ذلك كان وقائع عادية .

وفيما نحن نتحدث عن الغريب جاء صالح المرّي من خيمته الصغيرة وانضم الينا حول النار . وبعد تناول القهوة اخذته الى حيث قعد الجمل خارج خيمتي وسألته عن لون الجمل فأجاب على الفور : « انه جمل ذكر اصفر اللون » .

وهرع الى المكان الذي ركع فيه الجمل امام خيمة سالم وعاد ليقول : « نعم انه ذكر اصفر اللون » .

وسألته : من يكون راكب الجمل ؟

ولكن أناساً كثيرين قد مروا امام الخيمة منذ الصباح الباكر بحيث ان آثار اقدام الغريب قد ضاعت . واراد سالم ان يمازح صالح المرّي فهمس في أذني قائلاً :

— والله ان الجمل اصفر اللون لأنني رأيته بوضوح في ضوء القمر . ولكنني سأقول لصالح انه على خطأ وان الجمل أنثى بنية اللون . ونصحته ان لا يفعل ذلك لانه ليس عدلاً . وقلت لصالح انه على حق فأكد سالم ذلك .

وفي اليوم التالي خرجت طول النهار مع صالح لجمع الثمار البرية بصحبة

« العمشتين » عمشا زوجة سالم وعمشا ابنة أخيه ، وشاب يدعى حمود كان يرعى جمال سالم في ذلك الوقت . وقد حملنا غداءنا المكون من اللـبن والتمر والشاي والقهوة والخبز على حمار . وبعد ان قطعنا مسيرة ثلاث ساعات اتينا الى منخفض رائع مليء بشجيرات الرمض الكبيرة والأزهار البرية الجميلة التي يبلغ ارتفـاعها حوالي قدمين . وهناك أشعلنا نارين واحـدة للنساء وأخرى للرجال وتناولنا الغداء وشوينا بعض الثمار التي اقتلعناها كما نشوي البطاطا وأكلناها بعد ان رششنا عليها الملح .

ولمح صالح بعض الآثار فناداني قائلاً: ان هناك ارنباً برياً في مكان ليس بعيد ولكنني لا استطيع ان اتتبع آثاره لان الأرض صلبة . فيها عشب كثير .

وبعد الغداء كنت اتجول في المكان فرأيت ثـلاثة ارانب صغيرة نائمة تحت احدى الشجيرات ولم اخبر صالح بذلك لأنني لم اكن أريده ان يمسكها. واكملت جولتي لالتقاط الازهار فقفز من تحت احدى شجيرات الرمض ارنب كبير على بعد مسافة من الأرانب الصغيرة. ولما عدت الى الجماعة اخبرت صالح بما شاهدت فشرح لي ان الأم لا تبقى بالقرب من صغارها اثناء النهار ولكنها تعود اليهم في الليل . وقال : ليس هنالك شك في أن الصغار الثلاثة هم أولاد الأرنب الكبير ولو رأيتهم لنصبت لها فخاً وامسكت بها هذا المساء عندما تعود اليهم .

وفي طريق عودتنا اعربت عن رغبتي في العثور على عش للحبارى فيه بيوضها ، فأجاب صالح بأنه يعرف كيف ينصب الفخ للايقاع بالحبارى . ويبدو ان هـذا الطائر يترك أثراً عندما يتوجه الى عشه ولكنه عندمـا ينهض عن بيوضه يغادر العش تاركاً آثاراً أقل وضوحاً من الآثار الاولى . فالذي يريد التقاطها يبني حول بيوضها جداراً من الحصى من ثلاث جهات ارتفاعه خمس بوصات وينصب الفخ على المدخل . وهذا الفخ ليس مغطى بالتراب بل بقطعة قماش قـذرة لمنع انكسار أرجل الطائر عندما ينطبق عليها الفخ. وقال صالح ان الذكر منها أحياناً يدور ويدور حول الشجيرات في مكان ليس بعيد عن العش ويمكن الامساك به بنفس الطريقة . ولسوء الحظ لم نصادف أي أثر للحبارى في طريقنا .

وفي الأول من آذار جاء زوجي، ابو سعود كما يسميه البدو الى المخيم. وصادف ان كان ذلك اليوم هو اليوم الأربعين لولادة الابن الثاني لصالح المرّي الذي جاء الى خيمتنا بعد الغداء وجلس الى جانب النار ثم أخذ يشرح لنا بصورة جدية ان العادات الدينية لآل مرّه تقضي بأن يربط خيط فيه قطعة من اللبان حول يد الطفل اليمنى . ويقطع هذا الخيط في اليوم الأربعين .

وقال صالح : وهذه المهمة يقوم بها رجل شجاع كريم صالح تقي مستقيم .

ثم أعرب عن رغبته في ان يقوم ابو سعود بهذه المهمة . فبالرغم من وجود عدد كبير من الرجال الذين تنطبق عليهم الأوصاف المطلوبة ، لم يفكر صالح وزوجته بأحد افضل من ابي سعود لهذه المهمة .

وأبدى زوجي موافقته وترحيبه ثم توجهنا الى خيمة صالح . وكان الطفل نائماً في « مزبح* » ملفوفاً بقطعة قماش مشدودة بحبل من الصوف . وعندما جلسنا أخذته أمه من المهد وفكت الرباط بحيث تمكنت من سحب ذراعه اليمنى .

ثم أتى صالح بمقص سلمه لزوجي وقال : « بإسم الله الرحمن الرحيم » .

وقص زوجي الخيط متمنياً للطفل باسم الله عمراً طويلاً وحظاً سعيداً متمنياً أن يصبح الطفل فارساً شجاعاً كأبيه . وقد سر الوالدان بذلك الحديث سروراً كبيراً .

وقال صالح :

– « لقد اسميناه دكسان . ان قبيلة آل مرّه تعرف ذلك الآن لأنني أرسلت لهم خبراً .

وقبلت قمزه ان يسمى ابنها دكسان ولكننا كنا نعرف انها في الحقيقة تود ان تسميه سالم فاقترح زوجي أن يسمى الطفل سالم دكسان .. فساد السرور الجميع .

وقال صالح :

---

* – المزبح يعني المهد بلغة آل مره . هو مصنوع من الجلد الذي يمكن تعليقه بين عمودي الخيمة او على كتفي الام عند الانتقال . ويسميه العجمان الحبابه .

— سأجد خروفاً عمره ستة أشهر وعشرة أيام وأذبحه بهذه المناسبة . وسأدعوكم ان شاء الله يوم الجمعة القادم لتأتوا وتشاركونا في الوليمة .

وقلت له ان الارز علينا وسنحضر معنا خمسة وعشرين رطلاً من أجل الوليمة .

ابنة قمزه

بقلم فيوليت ديكسون

أنجبت قمزه طفلة في حوالي منتصف شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٧ . وقد رأيتها في اليوم التالي فوجدتها طفلة حلوة ذات وجه مدوّر .

وقالت قمزه : لقد اسميناها خاتون على اسمك .

وخاتون معناها السيدة وكان يناديني العرب بهذا الاسم .

وفي التاسع من شباط في السنة التالية كتبت عن خاتون ما يلي :

أصبح عمرها الآن حوالي الثلاثة أشهر وهي تنمو كأحسن ما يكون نمو الاطفال في عمرها . وكانت نائمة بهدوء في مزجها وقد شدت ملفتها جيداً . ومع ان الطقس كان بارداً لكنها كانت دافئة . واخبرتني قمزه سر ذلك بأن ارتني هاوناً نحاسياً كبيراً تدق فيه القهوة وقد امتلأ جمراً . وفك رباط خاتون وسمح لها ان تلعب فترة قصيرة في حضن والدتها . وعندما بدأت تشعر بالبرد نقلتها قمزه الى جانب النار حيث كانت تغلي الهريسة للعشاء ، ومددتها على قطعة قماش جافة فوق بعض الرماد الدافىء الذي أخذته من الهاون ، ثم رشت بعض الرماد على ساقيها وذراعيها ولفتها بالقماش بعد ان مددت لها رجليها وشدت يديها الى صدرها ثم لفتها بقطعة قماش ثانية ربطتها من الأعلى الى الاسفل جيداً . وكانت تبتسم شاعرة بالدفء فأرضعتها امها قليلاً قبل ان تضعها في المهد لتنام .

« وشرحت لي قمزه ان الرماد المأخوذ من براز انثى الجمل له رائحة طيبة . وبهذه الطريقة وبعد تضميخ الملفة بدخان البخور تظل الطفلة نظيفة مرتاحة .

وقالت لي : « انظري ما اسمن ساقيها كل ذلك لأنني ابقيها دافئة غير مبللة.
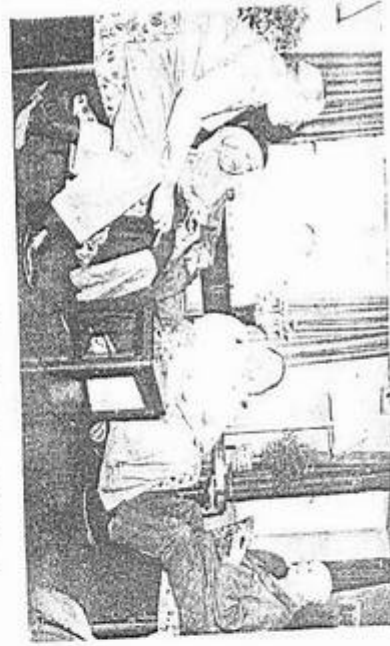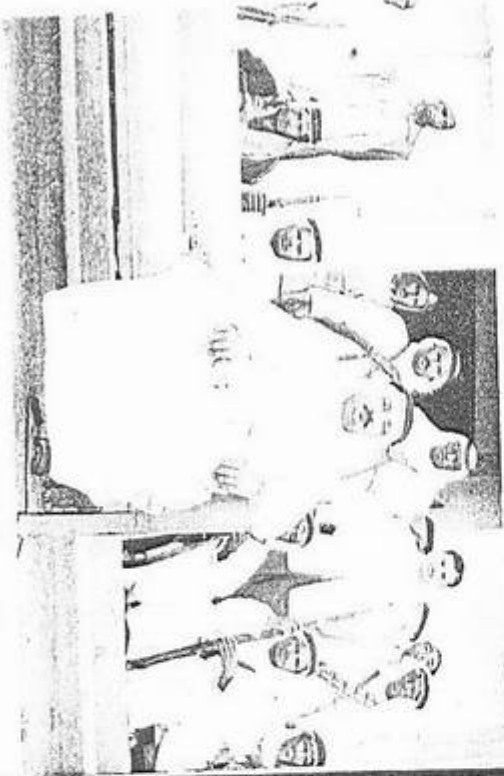
انني اغير لها الملفة كل صباح وكل مساء . انظري الى ابن سالم المزين انــه نحيل بارد رجلاه لا يعرفان الدفء وتقول أمه انهـا حضرية وتغسل له ثيابه دائمـاً وبذلك يبقى رطباً بارداً .

« إن نساء آل مرّة يعرفن في الحقيقة كيف يعتنين باطفالهن . وعندما تبلغ خاتون أربعة أشهر من العمر ستصنع لهـا والدتها زناراً دائرياً محشواً بالاعشاب المطيبة تربطه حول عنقها . ويقولون ان ذلك يمنع الامراض . »

فلك اسماعيل

بانتهاء الحرب العالمية الثانية تسلم العمليات في شركة نفط الكويت مدير عام أميركي معه جهاز من الموظفين الانكليز والاميركيين . وفي خريف عـام ١٩٤٥ بدأ الحفر والتنقيب من جديد .

وفي تلك الأثناء كنت اقضي مع زوجتي اجازة قصيرة في بلدة شتورا اللبنانية في سهل البقاع على طريق دمشق . وفي حزيران الماضي كانت قد قامت ثورة في دمشق فقصف الفرنسيون المدينة من مواقعهم في الصالحية . كان كل شيء هادئاً الآن بعد ان تم جلاء الجيوش الفرنسية عن سورية . وكانت الفرقة الهندية المسلحة الواحدة والثلاثين تعسكر بالقرب من المدينـة فكان ينظر الى البريطانيين بأنهم أصدقاء الجميع . وكان ولدنا سعود في فرقـة هودسون الخيالة التي تشكل جزءاً من الفرقة الهندية ، فلذلك اتيحت لنا الفرصة ان نقابله في دمشق .

كان الكولونيل ستيرلينغ* الذي عاد مؤخراً من لندن بعد ان قضى اجازته هناك يعيش في دمشق ويدير منطقة الصحراء . وقـد قابلناه صدفة عندما جاء الى الفندق الذي ننزل فيه في شتورا ذات صباح . وقد ذكرنا أمامه اننا نود ان نرى « مركب اسماعيل » او « فلك اسماعيل » الخـاص بفرع آل روله في قبيلة

* — اسمه الكامل جيمس ارسكين ستيرلينغ وهو رجل مدهش له معرفة لا تضاهى بشؤون الشرق الأوسط . وقد نجا قبل ثمانية اشهر من محاولة لاغتياله اذ دخل خمسة مسلحين الى منزله في دمشق وأطلقوا عليه النار فأصيب في خمسة أماكن من جسمه .

عنيزه . وكان الأمير فواز بن نوري الشعلان شيخ الروله الذين يقطنون الصحراء المجاورة لدمشق قد عاد من رحلة الى الولايات المتحدة وبريطانيا استغرقت ثلاثة أشهر . وحدث أن التقى به الكولونيل ستيرلينغ في لندن قبل عدة أسابيع فرحب به وأكرمه ودعاه الى الغداء في فندق سافوي . وقال ستيرلينغ انه يمكن ترتيب زيارة للامير في مخيمه الصيفي بعذرا على بعد عشرين ميلا الى الشمال الشرقي من دمشق .

والمركب عبارة عن هودج كبير خاص بالنساء له إطار خشبي من أغصان شجر استوائي خاص وهذا الاطار مغطى بريش النعام . ويسمى هذا المركب « فلك اسماعيل » تخليداً لأول عربي رحّل اسماعيل بن ابراهيم الخليل من زوجته المصرية هاجر .. ويقال ان اسماعيل قد بنى المركب الأصلي . ولا شك في ان المركب قديم العهد وربما كان عمره أكثر من الف ومايتي سنة وقد اهترأ خشبه وتآكل ريش النعام فيه ولكن الروله يجددونه ويصلحونه حفاظاً على قيمته التاريخية .

وعندما تدخل عنيزه في معركة تركب ابنة الشيخ المركب وتتقدم وسط قوات القبيلة لتحث المقاتلين على القيام باعمال البطولة . ويقال انه عندما تدور رحى الحرب يكبل الجمل الحامل المركب بالسلاسل حتى لا يتراجع . واذا ما اتجهت المعركة ضد عنيزه فيسمح بالتراجع الى حد المركب فقط حيث يتوجب على الجميع القتال حتى الموت دفاعاً عنه وعن السيدة الجالسة داخله .

وقد ابلغني الشيخ أحمد مرة ان هودجاً مماثلاً استخدمه ابن سعود في معركة جراب سنة ١٩١٥ ، وان الشيخ مبارك حاكم الكويت لجأ الى نفس الطريقة سنة ١٩٠١ عندما هدد ابن رشيد بالهجوم على الجهراء بأمر من الاتراك . ووضعت ابنة مبارك في الهودج وهي من أجمل نساء آل الصباح وقد تدلى شعرها وحسر رأسها ورفع الحجاب عن وجهها . ولو لم ينسحب ابن رشيد لتجمع الكويتيون حول السيدة وقاتلوا الى آخر رجل .

ومما لا شك فيه ان هذين المركبين ليسا سوى هودجين حليا بالزينة . والاسم

الحقيقي الذي يطلق على الواحد منها هو « مكسر » اذ انـــه يشبه سرج الجمل العادي الذي تستخدمه نساء مطير وعجمان وحرب وظافر . وقد اخبرني الشيخ خالد الهذلان (ذيب سهان) سنة ١٩٣٤ ان عجمان لا زالت تستخدم مثل هذا المركب عندما تذهب الى الحرب ، وتوضع أجمل سيدات القبيلة فيه سافرة لحث الرعاديد المتلكئين من الاندفاع الى المعركة . . ولكن عجمان تسميه « مكسر » ايضاً . وحسب معرفتي فـان الروله هي القبيلة الوحيدة التي تستخدم المركب الحقيقي كشعار للقبيلة ومما لا شك فيه انه يعود الى اقدم الأزمان .

وبعد عدة أيام عاد الكولونيل ستيرلنغ لزيارتنا بعد ان قابـــل الامير فواز وقال ان الامير سيقيم مأدبة عشاء في خيمته مساء الأحد عند الغروب واننـــا سنكون بين المدعوين لهذه المأدبة . وفي الساعة السادسة والربـــع من مساء يوم الأحد السادس عشر من أيلول وصلت مـــع زوجتي وابني الى منزل الكولونيل ستيرلنغ حيث التقينا بالمدعوين الآخرين وهم : تريفور ايفانس القنصل البريطاني في الشام وزوجته ، وقائد القوات البريطانيـة ، والكولونيل مورغان من دائرة الاستخبارات ، وأربع أو خمس ضباط آخرين من القيادة العامة .

وتوجهنا جميعنا مع الكولونيل ستيرلنغ على طريق بغداد الرئيسية الى القرب من عذرا حيث كان أحد المرشدين في استقبالنا فاقتادنا في طريق فرعي مسافة نصف ميل الى خيمة الامير التي كانت تشمشع بالكهرباء بعـــد غياب الشمس بحيث انها حجبت جميع خيام القبيلة المحيطة بها . وكان صوت المحرك الذي يولد الكهرباء يأتي من مبنى خاص الى اليمين . وقد اصطف بجانب الخيمة عـــدد من السيارات وسيارة كبيرة تتسع لخمسة عشر راكباً .

كانت الخيمة التي تتجه مقدمتها الى الجنوب تقوم على أحـــد عشر عموداً مركزياً . وعند العمود الخامس من جهة الغرب قسمت الى قسمين بقاطع مطرز فخم ارتفاعه اثنا عشر قدماً ويصل الى أعلى الخيمة ويمتد مسافـة عشر ياردات من واجهتها . اما القسم الغربي فكان مغطى بسجاد فخم عليه طنافس ومساند للضيوف . وأعتقد ان سيدات الأمير كن يشغلن القسم الشرقي من الخيمة .

وفيما نحن نسير لنحتل مقاعدنا في الطرف الشرقي من القسم الغربي من الخيمة رأينا المركب امـــام القاطع والى يمينه ويساره عبيد مسلحون يقومون على حراسته . وكان منظره رائعاً اذ يبلغ طوله خمسة عشر قدماً وارتفاعه سبعة اقدام وكان قد أصلح فظهر في حالة جيدة عليه تسع شمائل من ريش النعام بنية وسوداء اللون وضعت اثنتين اثنتين عند القمة تلوح مع النسيم . وكانت جوانبه مغطاة بريش نعام صغير رمادية اللون الصقت بالاطار الخشبي .

وعندما جلسنا في اماكننا على الفرش امام المركب انضم البـدو في الخارج الى بعضهم حول الجهات الثلاث المكشوفة في الخيمة مشكلين جداراً حياً صامتاً اذ لم ينبس أحدهم ببنت شفة مع ان عددهم كان يربو عن الخمسماية رجل .

ووقف في وسط الخيمة عبدان معهما بندقيتاهما ويلبسان ثياباً قرمزية موشاة بالذهب على الطراز النجدي ، في مواجهتنا ينتظران الأوامر . وجـــاء أولاد الأمير الثلاثة — أظن ان أسماءهم هي : محمد ومتعب وسلطان — وجلسوا بيننا . وكان متعب الذي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً يتكلم الانكليزية جيداً وأخـذ يخبرنا عن الحياة في الصحراء . وكان في جيبه قلم حبر اشتراه له والده من اميركا ولكنه لم يكن بإمكانه استخدامه لعدم وجود حـــبر عنده ! ووعدته السيدة ايفانس بأن ترسل له زجاجة حبر وآمل ان لا تكون قد نسيت .

وكان الأمير فواز مضيفاً رائعـاً فكان ينتقل من ضيف الى ضيف ويتحدث بالعربية او الفرنسية أو عن طريق كاتبه .

واقترب موعد العشاء لأن بساطاً أسود قـد مد على طول الخيمة ، كما دلت على ذلك أيضاً تحركات البدو الذين شغلوا بإحضار الطعـــام . ثم دخل العبيد يحملون خمس صواني كبيرة من اللحم والأرز ، يبلغ قطر الواحدة منهـــا ستة اقدام على الأقل وضعت وسط البساط الأسود . وهـــذه الصواني هي من نوع « ابو كرسي » الواسع الانتشار بين البدو وهي عبـــارة عن لوحة مستديرة من النحاس بلون الفضة تقوم على قاعدة معدنية ارتفاعها ثمـاني بوصات ولها مقابض تحمل بها من الجانبين . ووضعت حول الصواني صحون صغيرة من المرق وأرغفة

من الخبز المرقوق .

وقال مضيفنا « سموا » فلبينا دعوته وبدأنا الأكل . وقـــدم لكل ضيف أوروبي صحن إضافي مع سكين وملعقة وشوكة ووضعت على ركبته محرمـــة بيضاء جديدة . وكان الأرز على شكل تلة صغيرة مغطاة بقطع اللحم فوقها على كل صينية رأس خروف. ومن عدد الرؤوس الموجودة تبين لي ان خمساً وعشرين خروفاً قد ذبحت لهذه الوليمة .

ولم تؤثر جهودنا التي بذلناها في الأكل على أكوام الطعـام الموضوعة أمامنا . ولاحظت ان الأمير الذي كان جالساً الى يميني لم يأكل من الطعام شيئاً بل كان يساعدني ويساعد غيري من الضيوف في انتقـــاء قطع اللحم الشهية . وبعد ان انتهينا من الأكل نهضنا عن المائدة وقام الذين أكلوا بأيديهم مثلنا وغسلوا أيديهم عند طرف الخيمة قبل ان يعودوا لاحتلال مقاعدهم .

ثم اطبق الشيوخ على الطعام ونهضوا بعـــد ان أكلوا كفايتهم تاركين نقصاً ملحوظاً في كمية الطعام . وجلس وفدان آخران على المائدة وتناولوا طعامهم قبل ان تنقل الصواني من الخيمة وقـد فرغت تقريباً . ولم يبق في الصواني حتى العظام لأن العادة جرت ان يأخذ بعض المدعوين معه قطعة او قطعتين لشخص صغير في خيمته لم يكن له شرف الحضور مع والده . وبعـــد أن أزيح الصحن الأخير ونقل البساط الاسود بقيت على قطع السجاد في ارض الخيمة حبوب من الأرز تناثرت هنـــا وهناك فهرع أربعة عبيد وأخذوا السجاجيد ونفضوها في الخارج بلمح البصر وأعادوها الى مكانها بالسرعة ذاتها .

وأدار علينا القهوة عبد يحمل عدداً من الفناجين في يده اليمنى وابريق القهوة في يده اليسرى . ثم دارت علينـــا كؤوس الشاي وبعدهـا اقترح الكولونيل ستيرلنغ أن نعود الى دمشق ولكن الأمير استوقفنا قـــائلا : لم تأكلوا الفاكهة بعد .

وطلب الفاكهة فأحضرت على طاولة طويلة ارتفاعها قدم واحد ومحملة بالعنب الأبيض والأسود والبطيخ الأصفر والأحمر والخوخ ووزعت علينـــا الصحون

والسكاكين فيا جلسنا حول الطـــاولة واستمتعنا كثيراً بتلك الفاكهة الشهية . وأشار الامير الى انه دفع مؤخراً في لندن سبعة جنيهات ثمن كميــــة من العنب توازي ما بقي في الصحن بعد ان أكلنا جميعنا منه . وبعد ان انتهينا من أكل الفاكهة صب أحد العبيد الماء على أيدينا وعدنا الى الجلوس في أماكننا السابقة . ثم دارت علينا القهوة من جديد .

وبعد برهة استأذنا الامير بالذهاب فخرج لوداعنا الى السيارات . وكنــا على وشك الذهاب عندما قيل لنــــا اننا يجب ان نرجع لسماع خطاب أعده متعب الصغير .. فعدنا الى حيث كنا لنجد متعب واقفاً وسط الخيمة وفي يده خطاب مكتوب أخذ يلقيه . ورحب الخطاب بنا الى خيمته وأعرب عن الأمل في توطيد الصداقة مع الذين أنقذوهم من الفرنسيين .

وبالتالي حصلت على معلومات وافية عن المركب من نايف بن نوري الشعلان شقيق الأمير والذي كان موظفاً في الحكومة السعودية بالطائف .

قال لي : ان هذا المركب هو الفريد من نوعه في العالم الآن . ولكن القبائل الأخرى كفرع عمارات في عنيزة (١) تملك هوادج عادية أصغر بكثير يزينونها بريش النعام ويسيرون خلفها الى المعركة .. وهي ليست كالذي عندنا .. انها نسخ عنه . أما إذا استولى الاعداء على هذا المركب فإن قبيلتنا تنتهي الى كل الأزمان لأننا جميعنا نموت دفاعاً عنه . وإذا أخذ منا لا سمح الله فلن يصنع واحـــد جديد ليحل محله في قبيلتنا .

وسألته :

ـ في حالة الحرب مع قبيلة أخرى .. أي السيدات تركب فيه ؟

فقال : احدى سيدات الشعلان اما ابنة الشيخ او ابنة اخيه واما ابنة أقرب الذكور إليه .

مقتل رجل من عجمان

أثناء غيابنا عن الكويت وقع حادث في أوائل ابـاول بمكان ليس بعيداً عن

آبار جاريه . وتورط في الحادث فيصل بن عبدالعزيز الماجد الدويش الابن الأكبر لصديقتنا فيحا شقيقة عمشا .

كان الدوشان يقضون اشهر الصيف عند آبار حابه قرب الصفا وكانوا يعتزمون الانتقال قريباً ولكن الى مكان آخر بجوار الآبار الى ان تهطل الامطار الاولى . وقرر فيصل ان يذهب مع صديق له من عتيبه الى الاحساء لتصفية أعمال تتعلق بموسم التمر الجديد .

وركبا ذلولين ممتازين وسارا على بركة الله الى أن وصلا بعد مسيرة يومين الى مكان عند الظهر فيه رجلان من قبيلة عجمان ينتميان الى قوم الشيخ عبدالله بن جمعه حيث كانا يرعيان جمالهما . وترجل فيصل ورفيقه والقيا التحية على الرجلين اللذين ردا بمثلها ، وطلبا وعاء يحلبان فيه احدى النوق لأنهما يشعران بالعطش . فدلهما الرجلان على قربة ملأى بالحليب قالا انهما حلباها منذ ساعات قليلة . ورفض فيصل ان يشرب من القربة وأصر على ان يعطى حليباً طازجاً من احدى النوق فنشأ صدام بالكلام أخذ فيصل على أثره الوعاء واندفع يمسك باحدى النوق ويحلبها بالقوة .

وخشي أحد العجمانيين تطور النزاع فتوجه الى جمل فيصل دون ان يلحظه أحد ونزع زناد البندقية المشدودة الى السرج والقاه بين الاعشاب ثم تبع فيصل . وتعارك الرجلان بالأيدي واللكمات ثم تباطحا على الارض . وكان فيصل أعزل من السلاح ولكن العجماني كان يحمل خنجراً على وسطه أمسك به فيصل قبل ان يستله صاحبه ، وطعن الراعي فيه بمعدته . ولم ينتظر ليرى ما اذا كانت جروح الرجل بالغة بل تركه ملقى على الارض وركب ورفيقه جمليهما بسرعة وانطلقا نحو الجنوب الشرقي .

وبعد أن ضمد الراعي الآخر جروح زميله انطلق بسرعة الى خيام رجال من آل مرّه كانوا يخيمون في مكان مجاور ورجع ومعه أحد أولاد العريف الثلاثة الذي تفحص الآثار وقال ان الغريب الذي طعن الرجل العجماني هو من عائلة الدوشان في مطير .

ووضع الجريح على ظهر جمل ونقل الى جارية عليا حيث أخبر الأمير قصته كاملة قبل أن يفارق الحياة متأثراً بجراحه في اليوم التالي . وأبلغ الأمير الحادث الى الرياض فتلقى تعليمات بان يرسل فريقاً لمطاردة الرجلين الفارين برئاسة أحد مقتفي الآثار من آل مرّه ، وأن يرسل عـدداً من رجاله الى آبار حابه ليحضر أحد شيوخ الدوشان كرهينة .

ولحق المطاردون بالرجلين بعد عـدة أيام في ضواحي الاحساء فأعادوهما الى جاريه حيث أودعا السجن انتظاراً لصدور حكم العدالة . وقـد استاءت قبيلة عجمان كلها من هذه الجريمة النكراء واتفقت على ان لا تقبل أي فصل بالمـال بل طالبت برأس فيصل بن عبدالعزيز . وقدم شيوخ الدوشان جميعهم الى جاريـة وعلى رأسهم بندر الدويش الشيخ الأعلى في مطير لمراقبة الأحداث عن كثب .

ومر شهر تشرين الأول بكامله وعجمان تصر على رفض قبول المال في تسويـة القضية وظل شيوخ عجمان وشيوخ الدوشان مخيمين في جارية . ولم يسبق ان سمعت الجزيرة العربية بحادث تزهق فيـه روح أحد الدوشان مقابل مقتل رجل من عجمان .

وفي تشرين الثاني ، وكنا قد عدنا الى الكويت ، أمر الملـك ابن سعود قبيلة عجمان ان تقبل دية قدرها اثنا عشر إلف روبية فضاً للنزاع . ومن مزايا العظمة التي يتمتع بها الملك انه لم يأمر الدوشان ان يدفعوا في الحال . وبدلاً من ذلـك أرسل من مكة حيث كان في ذلك الوقت الى ولديه محمـد وناصر اللذين كانا في الرياض آنئذ ان يدفع كل منهما خمـة آلاف روبية الى عجمان وكان ان يدفع المبلغ الباقي فيصل وصديقه العتيبي بالتساوي وبعد ان دفع المبلغ اطلق سراح السجينين وعادا الى أهليهما .

ان حكمة هذه التسوية تكمن في أن الشريعة طلبت دفع المال ، ولكن تجنباً لنشوب حرب بين عجمان ومطير افتدى الملك فيصل بنفسه . أمـا الأموال التي دفعها محمد وناصر فتأتي من اموال الدولة المخصصة لمساعدة الدوشان .

لقد أخبرني هذه القصة عبد المحسن الحبيشي ، وشياح الجبلي ، وسالم المزين ،

وزيد السنا ، وفيحا والدة فيصل بن عبدالعزيز .

مقر اجتماع العبيد

بقلم فيوليت ديكسون

نادراً ما يجد المرء عبداً ، أي زنجياً يشترى بالمال ، في مدينة الكويت ، إلا انه يوجد بعض « المولدين »، اي الذين يخدمون في المنازل ، وقد ولدوا في الأسر من والدين عبدين كانا يعملان عند عائلة واحدة منذ سنين ، في البيوتات الموسرة الكبرى . ويعامل السادة هؤلاء العبيد بالحسنى وكأنهم أولادهم الذين يختلطون معهم على قدم المساواة . والمولد ، سواء كان ذكراً أم أنثى ، يعطى أحيـــاناً مركزا فيه الكثير من المسؤولية والثقة .

وبالرغم من انهـم مسلمون ظاهرياً إلا ان هؤلاء العبيد يحتفظون ببعض عاداتهم الافريقية الامر الذي ليس مستحباً لدى الحاكم . يجتمع العبيد مساء كل يوم خميس وفي مناسبات خاصة في النـوبان ، وهو الاسم الذي يطلق على مقر الاجتماع . وهنالك اثنان من هذه الاماكن في مدينة الكويت : المقر الرئيسي في حي المرقاب في الجهة الجنوبية ــ الغربية من المدينـة ، ومقر آخر اصغر منه في الحي الشرقي المعروف بالميدان الذي يقطنه في معظمه الايرانيون والبحارنة وهو ليس بعيداً عن منزلنا .

وقد ذهبت الى المقر الأصغر بدعوة من باخته وبصحبة بارون « فراشنا » الايراني في حوالي الساعة التاسعة من ليـل الثاني والعشرين من تشرين الأول سنة ١٩٤٥ وهي ليلة اكتمل فيها البدر . وباخته هي عبدة محررة كانت تملكها زوجة فيصل الدويش وقـــد طارت مع سيدها بالطائرة الى العراق عندمـا استسلم للبريطانيين سنة ١٩٣٠ .

ويقع المقر وباحته الصغيرة على طريق رئيسية ولا تميزه عن أي منزل عادي سوى صارية ارتفعت على احدى زوايا باحته . وعندما اقتربنا من الباب سمعنـا اصوات الطبـــول والموسيقى تتخللها أصوات غريبة مما يدل على ان الرقص

قد بدأ .

وخيم الصمت عندما توقفت الموسيقى وجلس الراقصون للاستراحة . وقرعنا الباب ففتحه أحد العبيد قليلاً وسألنا ماذا نريد .. فسأله خادمي قائلاً :

ـ هل باخته هنا ؟ لقد وعدت ان تقابل الخاتون هنا الليلة .

وأغلق الباب مرة أخرى ثم فتح بعد لحظات ليقول أحدهم ان باخته ليست هناك ولكن تتفضل الخاتون إذا شاءت . فخلعت حذائي ودخلت . كان هنالك عدد من النساء يجلسن في جانب من القاعة وعدد من الرجال يجلسون الى الحائط في الجهة المقابلة . فاقتادوني عبر القاعة الى مكان وضع فيه كرسيان لانهم توقعوا ان يكون زوجي معي . وخلع بارون نعليه وجلس مع الرجال قرب الحائط . وكان يخيم على المكان جو ديني لان الرجال والنساء كانوا يتحدثون باصوات خافتة تشبه الهمس .

ووقفت الى جانبي زنجية طويلة تلبس ثياباً جميلة وأخذت تلوح لي بمروحة من اوراق النخيل . وكان جو الغرفة مشبعاً برائحة البخور الذي كان يحترق في موقد من الطين امام آلة موسيقية ذات أوتار تعرف بالطمبوره يقف أمامها وقفة تأمل رجل كبير في السن أشيب اللحية . وادار هذا الرجل وجهه نحو أحد العبيد ثم هز برأسه عدة مرات . فنهض العبد الى الطمبوره ولكنه قال انه لا يعرف كيف يعزف عليها ، فجاء شاب زنجي واحتل المكان . وللطمبوره صوت حنون يشبه صوت الأوتار الوسطى في العود . وبدأت الطبول الثلاثة او الأربعة الموضوعة على الأرض الى جانبها تضرب واستؤنف الغناء . ولم يكن ذلك الغناء يشبه أي غناء سمعته بين العرب او بين العبيد في زوارق صيد اللؤلؤ . لقد كان في الواقع لحناً جميلاً .

ووضعت الى يساري على منضدة واطئة صينية عليها ثلاث شموع مشتعلة ، وثلاث قوارير تحتوي على ماء الورد ، وفي وسطها صحن فيه سبع بيضات نيئة و « المشمع » . وحول هذه الاشياء كان هنالك ثلاثة عشر طبقاً فيها اشياء مختلفة قالت لي باخته فيما بعد انها ما يلي :

مهلب (او مهلبي) .. وهو نوع من الحلوى يصنع من الأرز المدقوق ويسميه العرب مهلبية .

صندل .. نوع من الزيت يستخرج من خشت بنفس الاسم .

سعاد .. نوع من النعناع .

جواني .. لست متأكدة من معناها انها كلمة زنجية وربما كانت افريقية الأصل .

علوك (او علوش) كلمة زنجية لمادة تمضغ .

المشمع .. طحالب طيبة الرائحة .

العوض الأزرق .. خشب أزرق اللون ذو رائحة طيبة . وعندما توضع قطعة منه فوق النار ينبعث منها دخان أبيض يحمل رائحة عطرية قوية .

المعمول .. كلمة زنجية للبخور .

الملح .. ملح الطعام .

الهال .. نوع من التوابل يوضع في القهوة العربية .

القرنفل .. نوع آخر من التوابل .

مستكي .. مثل العلوك ولكن من نوعية أفضل .

وفيما استمر الغناء نهض الرجال والنساء ورقصوا رقصات فيها الكثير من التلوي والانحناء ، وعندما ينتشي أحدهم يمسك ببيضة من الصينية ويطبق عليها يده ويرقص بها . وكان أحد الرجال يلبس ازاراً صنع من أذيال الغنم وعلق على خصره بحزام عريض . وعندما كان يتلوى مع الموسيقى تصطدم قطع الازار ببعضها محدثة « الخشيش » الذي سمعناه قبل ان ندخل القاعة .

وعندما انتهت الاغنية توقف الرقص وعاد الجميع الى اماكنهم . ووضع مزيد من الفحم في الموقد ووضع فوقه البخور . وهنا قرع الباب ودخل عبد شاب وتوجه رأساً الى الطمبوره ولمسها بيده ثم وضعها على رأسه قبل ان يأخذ مكانه .

وفي كل جانب من جانبي القاعة غرفتان يصنع الرجال في احداهما القهوة

وخصصت الأخرى للنساء اللواتي يردن ان يسترحن أو يدخنّ . ولا يسمح لأية امرأة تحضر الاحتفالات وهي غير نظيفة ، ويقال انها اذا فعلت ذلك ينقر أحد اوتار الطمبوره تلقائياً .

حضرت ثلاث رقصات ولكنني غادرت المكان قبل ان ينفعل الجميع ويتدحرجوا على الأرض في وقت متأخر من الليل . وكان عبد الشيخ عبدالله الأحمد نجل الحاكم قد عفر وجهه بالتراب نتيجة لذلك ، وكان يضع رزمة من المشمع حول عنقه .

وبعثت باخته في وقت متأخر تقول انها ذهبت الى البيت لأنها متعبة . وجاءت الي في صباح اليوم التالي لتشرح كل شيء فاعطيتها عشرين روبية لتشتري بها القهوة للنوبان . « انتهى حديث زوجه ديكسون »

القسم الرابع

ملحق

ما دمتم في دارهم دارهم .

الفصل العشرون

الشحنة الأولى من النفط
٣٠ حزيران ١٩٤٦

كتب السيد سوثويل في تقريره يقول :

أجرى سمو شيخ الكويت حفل الافتتاح بأن أدار صماماً على أحد الأنابيب فتدفق النفط الخام من حقول بلاده الى أسواق العالم . وقد حضر حفل الافتتاح الكولونيل و.ر.هاي المقيم السياسي لحكومة صاحب الجلالة في الخليج الفارسي، والوكيل السياسي البريطاني، والسيد ويليام كارتر بيرديت الابن، نائب القنصل الأميركي في البصره ، وجميع أعيان الكويت . وقام باستقبال سمو الشيخ السيد س.ا.ب.سوثويل ممثلاً المديرين الأميركيين والبريطانيين في شركة نفط الكويت، كما قام السيدان ل.د. سكوت و ت.اي. باتريك بإرشاده الى الصمام الرئيسي عبر الممرات بين الأنابيب . وعندما أدار الشيخ الصمام ليفتحه سمع صوت النفط وهو يتدفق إلى الناقلة « بريتيش فوزيليه » . ثم قص سموه شريطاً عند محطة الاشارات إيذاناً بمباشرة عمليات النقل .

وألقى سوثويل خطاباً في الاحتفال بالنيابة عن مديري شركة نفط الكويت وموظفيها اعرب فيه عن تقديره العظيم لحضور صاحب السمو وقال :

— « لقد اجتمعنا هنـــا لنحتفل بأول شحنة من نفط الكويت وهو حدث ضخم في تطوير موارد الكويت النفطية التي ائتمنتم سموكم شركتنا عليهـــا منذ اثني عشر عاماً . وقـــد قدرنا تقديراً عظيماً الثقة التي وضعتها سموكم في قدرة شركتنا على القيام بهذه المهمة الحيوية لازدهار دولتكم . ويسعدنا اليوم ان نحتفل مع سموكم بهذا الحدث الذي يعتبر مرحلة جديدة في التقدم النـاجح الذي حققته جهودنا بتشجيع ومساعدة من سموكم . ونتمنى ان يكون هـــذا اليوم منطلقاً للازدهار لسموكم ولدولة الكويت ولشركة نفط الكويت .

« وتعلمون سموكم ان العمل الذي حققتـه الشركة أنجز على مراحل متتالية . ففي المرحلة الأولى قام جيولوجيو الشركة بدراسة البلاد لكي يروا إذا كانت هذه الدلائل مجرد آثار لآبار سحيقة في القدم ، أو انها عميقة في الارض ولا تزال فيها كميات كبيرة من النفط . وحصلنا على الجواب بواسطة الحـافرات التي مكنت الشركة بعد أبحاث مطولة ان تتأكد من ان هنالك مخزونـاً كبيراً من النفط تحت جزء من تربة الكويت . أمـــا الآن فقد وصلنا الى المرحلة الثالثة من العمليات وهي الانتاج الفعلي ونقله الى أسواق العالم .

« وأظن ان سموكم توافقون على ان النتائج الناجحة التي حققتها جهود الشركة ومحاولاتها ليست عملاً بسيطاً لا سيما وان الجزء الأكبر من العمل قد تم في ظروف صعبة بسبب الحرب لأن صنع آلات الحفر الضرورية وغيرها من التجهيزات قـد أرجئت مراراً ، ولأن صعوبة الشحن بين أوروبا والكويت فرضت على نشاطنا عوائق جسيمة .

« ان النجاح الكبير الذي توج جهودنا لم يكن ليتحقق لولا الصبر الذي تحليتم به سموكم وصداقتكم المخلصة وتعاونكم الوثيق ولولا العمل الممتاز الذي قـام به موظفو الشركة بفضل مهاراتهم الفنية وموارد الشركة الكبيرة التي أسهمت بها الى حد كبير المصالح البريطانية والاميركية .

« ولن يكون هنالك ظل من الشك بإذن الله على ان هذه الشحنة التي نحتفل بهـــا اليوم ليست سوى واحدة من شحنات كثيرة ستنقل نفط الكويت الى

أسواق العالم ، ونحن فخورون بأن شركتنا ، وهي الاداة التي اخترتموها سموكم ، قد تمكنت من تحقيق هذا النجاح والتقدم وبالتالي المساهمـــة في ازدهار دولتكم وشعبكم .

« وتعبيراً عن مشاعرنا الحارة نحوكم وعرفاننا بالجميل والصداقــة اسمحوا لي ان اقدم لسموكم هذه الهدية المتواضعة التي صنعتها أيادي حرفيين من الغرب لهذه المناسبة السعيدة » .

وهنا قدم السيد سوثويل للشيخ صندوقاً ذهبياً مرصعاً صنعته شركة لندن لصياغة الفضة والذهب ونقشت عليه عبارة تخليد للاحتفال .

ورد الشيخ على خطاب سوثويل بكلمة قال فيها :

ـ « انه ليوم سعيد هذا اليوم الذي نحتفل فيه بتصدير الشحنة الاولى من نفط الكويت . ولا أشك في ان كل شخص من شعبنا واصدقائنا سيفرح معنـــا بهذا الحدث السعيد الذي هو بحمدالله بداية لمستقبل زاهر .

« انني اقدر الجهود الجبارة التي بذلتها الشركة لإكمال هذه العمليات قبل وبعد توقف العمل اثناء الحرب . واشكر الله لمثل هذه الفرصة التي ستساعدنا على إكمال التحسينات التي نرغب في تحقيقها من أجل سعادة وتقدم دولتنا وشعبنا . وانني أخص بالذكر المساعدات الجلى التي قدمتها الشركة لنا اثناء العمليات في دولتنا ، واشكر حكومة صاحب الجلالة لمساعدتها في إنجاح هذه العمليات ، كما أشكر اصدقائي مديري الشركة البريطانيين والأميركيين . واقدم شكري كذلك الى سائر موظفي الشركة سواء كانوا من الخارج ام من بلادنا الذين أسدوا خدمـــات قيمة في هذا المضمار . وانني اقبل بمزيد من الشكر الهدية التذكارية التي قدمتها لي الشركة تخليداً لهذه المناسبة . وآمل ان تستمر علاقاتنا الودية بالشركة وتسودها روح الإخاء والنوايا الحسنة » .

وتلت هذا الاحتفال احتفالات اخرى جرت في المدينة تخللتهـــا رقصات الحرب وألعاب نارية وأقامت شركة نفط الكويت مأدبة عشاء للشيخ وموظفي الدولةوالاعيان والمعتمدين الأجانب، في منزل السيد ل. د. سكوت . وقد أقام

عدد من وجهاء الكويت مآدب مماثلة بهذه المناسبة . واقام نادي صغار الموظفين مأدبة عرض بعدها شريط سينمائي قدمه بادر هوايت من البصرة ، واقيمت حفلة راقصة في نادي كبـــار الموظفين في مقوى تخللتها مآدب في الهواء الطلق على الطريقة العربية .. وهذه الحفلة أقيمت على شرف العمال والفنيين .

وجهة النظر اللبنانية ١٩٥٠

أجريت في بيروت في ٣١ آب سنة ١٩٥٠ حديثاً مفيداً مع أحد السياسيين اللبنانيين البارزين كنت أعرفه منذ عدة سنوات.

ولهذا السياسي آراء عنيفة . وقد بدأ النقاش بملاحظة أبديتها وهي أنه من المؤسف ان تكون العلاقات السورية – اللبنانية سيئة الى هذه الدرجـة لا سيما وان ضحاياها تجار ابرياء ومسافرون يتطلعون على أعمالهم . وذكرت انـــه في ٢١ آب اوقفت سيارتي أربع مرات للتفتيش على الهويات والامتعة بـين شتورا ودمشق .

واجابني منفعلاً بقوله :

– نعم انني ارافقك .. ولكن هل تعلم غلطة من هي ؟

– لا .

– اذن سأخبرك . انهـا نتيجة مؤامرات أكبر دولتين ديمقراطيتين – أو هكذا يفترض ان تكونا – في العالم وهما الولايات المتحدة وبريطانيا بـلادك . انهما تتآمران في الليل والنهار لتقسيم الشرق الاوسط بينهما أو على الأقل لإقامة مناطق نفوذ منفصلة لها . فالولايات المتحدة مثلاً تسعى لتجعل لبنان تحت نفوذها . وبريطانيا تدفع العراق للاستيلاء على سوريـة بعلم الملك عبدالله ملك الأردن . وهذا ما يدفع المملكة العربية السعودية بتأييد من اميركا لأن تـدعم سورية فقدمت قرضاً بالدولارات للحكومة الحالية هناك وهي مصممة لأن تدق اسفيناً بين الملك عبدالله والامير عبد الاله ولي عهد العراق لتمنع نجاح خطة الحكومة البريطانية .

« وامبركا تدعم اسرائيل .. كما ان بريطانيا تدعم الملك عبدالله وأصبحت مصر معادية للطرفين لاعتقادها ان هنالك محاولة مكشوفة من جانب الولايات المتحدة وبريطانيا لتحطيم الجامعة العربية عن طريق زرع الشقاق بين اعضائها . والنتيجة ان الشعور المعادي للاوروبيين يزداد يوماً بعد يوم في جميع انحـــاء الشرق الاوسط ولا سيما ضد الولايات المتحدة وبريطانيا اللتـــين تظنان انهما تستفيدان من التفرقة بين دول الشرق الاوسط .

« والمؤسف في هذا كله ، انه في الوقت الذي لاميركا وبريطانيا فيه رجال اكفاء ومستشارون في شؤون الشرق الاوسط — رجال عاشوا فترات طويلة في هذه المناطق — فإن مشورة هؤلاء الرجال لا تطلب أو لا تؤخذ بعين الاعتبار . وهذا أمر محزن لأنه من شأنه ان يساعد روسيا السوفياتية على كسب ثقة بلدان الشرق الاوسط وخاصة الجيل الجديد فيه . وفي الحقيقة ان الاتحاد السوفياتي في مركز ارتياح ينتظر سعيداً الثمرة التي ستسقط لوحدها في فمه عند نضوجهـا . وللسوفيات عملاؤهم في الشرق الأوسط الذين هم على اتصال وثيـــق بالسفارات السوفياتية في كل مكان ويبشرون في كل لحظة ان الذئب الكبير المفترس ومصدر الشقاء في الشرق الاوسط هو الولايات المتحدة وبريطانيا التي تدور في فلكها .

وقلت لمحدثي :

— « لا بد للرئيس ترومان والمستر اتلي ان يصغيا لمستشاريهما من أهل الخبرة في شؤون الشرق الاوسط ان لم يكن اليوم فغداً .. وعندئـــذ تتحسن الأمور قليلاً .

— « لا .. انك مخطىء . ان مستشاري ترومان النـافذين اليوم يمثلون كتلة اليهود القوية في نيويورك وهذا الشيء ينطبق على لندن ولكن الى درجة أقل . صدقني اذا قلت لك ان اليهود هم الذين يملون سياسة بلادك في الشرق الأوسط .. وها هي النتائج المحزنة . انهم يحبـــذون فكرة بريطانيا والولايات المتحدة في الاستيلاء على بلدان الشرق الاوسط او تقسيمه الى منـاطق نفوذ لأنهم يعتقدون انهم بذلـك وبذلك فقط يستطيعون تثبيت اقـــدام اسرائيل وتحسين حالتها

الاقتصادية الحرجة المتردية . ان اسرائيل دولة مفلسة وتحتاج الى المتاجرة مع البلدان المجاورة. كيف تظن انهم يعملون لتحقيق ذلك ؟ طبعاً باستخدام شركات النفط الكبرى في الشرق الاوسط.. في السعودية والخليج الفارسي. وهم يحاولان الآن افساد علاقات الحكومات العربيـــة في الشرق الأوسط مع شركات النفط الكبرى بكل الوسائل المتوفرة لديهم وذلك لكي يجبروا الولايات المتحدة وبريطانيا على حماية مصالحها باتخاذ سياسة أشد تجاه الدول العربية .

« وصدقني يا كولونيل ديكسون انه ليس من قبيل الصدفة ان تطالب الدول العربية في المنطقة بزيادة عائداتها من النفط تحت التهديد بأن شيئاً ما سيحدث اذا لم تنفذ هذه المطالب . وتقضي الخطة اليهودية بالضغط على شركات النفط للجوء الى حكوماتها من أجل المساعدة الدبلوماسية وغيرها في محاولة لبذر الشقاق بين هذه الشركات والدول التي تعمل فيها . اننـــا نرى السعودية والبحرين والعراق وإيران تطالب بزيادة العائدات وحذا لبنان وسورية حذو الدول المذكورة في المطالبة بزيادة اجرة مرور النفط في أراضيها .. والدولة الاخرى التي ضمت الى القائمة هي الكويت التي بدأت بدورها تطالب بالزيادة .

هذه الحادثة المفيدة هي مثل على كيف يفكر اللبنانيون بقضية فلسطين وهم مستعدون ان يضربوا بالقانون عرض الحائط فيما يتعلق بقضية النفط الدقيقـــة وبسياسة الشرق الاوسط عامة . وهذا يظهر بصورة خاصة وفوق العلاقات بين بيروت والكويت .

وأضاف محدثي قائلاً :

— « ان فرصة بريطانيا الوحيدة هي ان ترفض السير على خطى اميركا . ان بريطانيا صديقة قديمة للعرب وتفهم واقع الدول الاسلاميـــة في الشرق الأوسط اكثر من الاميركيين ، ولذلك يجب ان تتعاون مع العرب لا ان تهددهم . والاهم من ذلك يجب على شركات النفط ان تتعاون مع البلدان العربية وحكامهـــا لا ان تلجأ الى حكوماتها للمساعدة فتساهم في سوء التفاهم. هذه هي غلطة شركة النفط في إيران .. وهنا سيقعون جميعهم في هذا الخطأ . واليهود يعرفون ذلك جيداً

بوسائلهم السرية التي يجيدون استخدامها ، فيعملون على إفهام الدول العربيـــة بان انكلترا واميركا تنويان إذا اقتضى الامر السيطرة على بلادهما بحجة الدفاع عن مصالحها النفطية المهددة بالخطر لأنها لا تستطيع ان تسمح لأحد بأن يهدد هذه المصالح . وهذا ما زاد في شكوك الدول العربية . لذلـــك يتوجب على بريطانيا ازالة هذه الشكوك من اذهـان العرب . يجب ان تقول لهم : « سيّروا شؤونكم بانفسكم وسنساعدكم اذا ما طلبتم المساعدة منا » .

« ولا تنس يا كولونيل ديكسون ان السلطات السوفياتيـــة تراقب وضع النفط في الشرق الاوسط كالقطط في هـذه الايام، وهي على استعداد لبث اية دعاية تزيد من كراهية الولايات المتحدة وبريطانيا في الشرق الأوسط . أمـــا بالنسبة للكويت فنحن في لبنان نعرف ان الحكومة البريطانية تحـــاول فرض مستشار مالي على الشيخ الجديد لكي يتخلص من سكرتيره اللبنـاني المحبوب ، ويعين وريثاً لعرشه أحد أفراد آل الصباح الموالين للانكليز . ولكن الحكومة البريطانية عرفت مدى رعونة هذه الخطوة ويتضح ذلك من عدم اقدامهـــا على تنفيذ خطتها الاساسية » .

عدم ارتياح في المملكة السعودية

قبل ثلاث سنوات من وفـاة الملك العظيم عبدالعزيز آل سعود في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ ، كتبت ما يلي : —

« ان الذي يراقب الاشياء من جهة الكويت في الجزيرة العربية يعرف ان ابن سعود قد تخلى عن التعاليم الوهابية كوسيلة سياسية للوصول الى غاية معينة. فبعد ان ركز سلطته في الجزيرة العربية أخـــذ يتطلع الى تطوير علاقاته بالقوى الخارجية ، وتقوية الوسائـــل التي تمكنه من تشديد قبضته في الداخـــل . ويبدو انه عاكف على العمل لضمان عرش منيع لورثته وخلفائه في حـال موته حتى يتمكنوا من اكمال مـا بدأه بدون أن يواجهوا ثورات وانقسامـــات في المملكة .

« لقد بلغ ابن سعود من العمر عتيا بحيث انه لم يعد يقدر على السير على قدميه. وقد اعطى كثيراً من السلطات لأولاده ومستشاريهم السوريين والمصريين الذين كما يقول البدو يجيدون كتمان مجريات الامور عن حاكمهم المحبوب. وهذا هو أحد الاسباب للكره المتزايد للنظام السعودي الذي اخذ يبرز ببطء بين القبائل العربية. وبلغ هذا الشعور حداً جعل بعض زعماء الاخوان السابقين يصفونه بانه حاكم جبار – أي طاغية. انهم لا يقصدون بذلك الملك المسن بل الحكم الحاضر الذي أصبح بعد ان آل الى الجيل الجديد من آل سعود ومستشاريهم الاجانب، اكثر تركيزاً وقسوة واقتباساً عن الغرب وفقد رابطته العاطفية مع الشعب كما كان في القديم. ويقال ان هؤلاء الزعماء مشمئزون من الزيارات المتكررة التي يقوم بها أفراد العائلة المالكة الى اوروبا واميركا حيث في رأيهم يختلطون بالمسيحيين الذين يكثرون من شرب الخمر، فيكتسبون عادات سيئة وينسون واجباتهم نحو الله. والحقيقة ان الانتقال نحو الحياة العصرية هو السبب الجوهري لهذه المشاكل. فالبدو يتوقون الى عودة الحكم للملك شخصياً الذي كان في متناول الجميع بمن فيهم احقر رعاياه واكثرهم تواضعاً.

« ويقول المتتبعون للاحداث انه إذا حدث مكروه لابن سعود لا سمح الله ستنشأ مشاكل تستنزف جميع موارد السعودية. اما انا شخصياً فلست اعتقد ان ذلك سيحدث لأن أهل نجد ما زالوا في قلوبهم يفخرون بعبد العزيز آل سعود بطلهم القوي ومليكهم الشجاع بسبب مآثره العظيمة داخل الجزيرة وبسبب مواقفه المشرفة التي وقفها دائماً في وجه النفوذ الاجنبي والعدوان. انه مثل شاكا ملك الزولو القديم الذي كان الرجل الابيض يرتجف أمامه ولا يزال شعبه يفتخرون بذلك ولا ينسونه.

« وفيما عدا شعبية ابن سعود الشخصية، فان شعبه يريد سلطة أقل مركزية لانهم يخشون قدوم مدنية الرجل الأبيض التي هي في نظرهم معادية للدين ونسيان لله وعبودية حتمية. وأكثر من ذلك فهم يفضلون العودة كلياً الى النظام القبلي حيث لا سلطة الا لزعماء القبائل. ولكن أحداً من أفراد عائلة آل سعود لا

يفكر أبداً في العودة الى مثل ذلك النظام ، لأن السلطة ، كما يقول العرب ، هي اعز شيء في الدنيا على البيت السعودي والحكم بالنسبة لهم هو اكسير الحياة .

وقد أثبتت الأحداث اللاحقة ان الوريث المحتمل للعرش السعودي ، الأمير سعود ، الذي آلت اليه معظم السلطات عندما مرض والده ، بدأ يتحسس تفكير شعبه فقرر التشدد فيما يتعلق بالدين وبالطقوس الدينية . فقرر مثلاً منع استيراد المشروبات الكحولية التي كان يحصل عليها موظفو شركة النفط . واعتبر حصول اي بدوي من السكان على زجاجة من المشروبات الروحية جريمة كبرى يلقى مرتكبها أشد العقاب .

ولكن هل هذا في وقته ؟

تأثير الغرب .. ١٩٥٣

وضع صديقي الدكتور هارولد ستورم أحد أعضاء الإرسالية الأميركية في الخليج الفارسي الذي يدير حالياً مستشفى في الهفوف ، كتاباً بعنوان « الجزيرة العربية .. الى اين ؟ » . واذ اكتب هذا التعليق عن موضوع مهم وهو التأثير الغربي في الجزيرة العربية ، تجرأت واقتبست من مجمل الوضع كما وصفه الدكتور ستورم بمهارة . واذ أستخدم أفكاراً ليست لي ، فانما افعل ذلك معترفاً بفضل الدكتور ستورم وناشري كتابه .

قلما توجد أماكن في العالم اليوم يسير فيها القديم والحديث جنباً الى جنب كما هي الحال في الجزيرة العربية . ففي أعماق الصحراء يرى المرء نموذجاً للحياة كما كانت في زمن ابراهيم الخليل بكل تفاصيلها ووقائعها . وما زال البدو الرحل على الصورة التي رسمت في التوراة وتفكير البدوي ايضاً ما زال كما كان في زمن أيوب . اما عناده واستقلاله واعتزازه وكفايته الذاتية فقد جسّمها الاسلام في حين تحولت حياته الدينية في نظام جامد من التقاليد والشكليات .

لقد غير التأثير الغربي وجه عدد من المدن الساحلية التي يأتي إليها البدوي الجائع بحثاً عن الطعام والمؤن . وهو يتطلع الى التغييرات حوله باحتقار ويعود

الى صحرائه وهو أشد اقتناعاً بهـا وبالحياة فيها . لكن رحى الحضارة تدور بدون توقف ولا يستطيع أبناء الصحراء الهروب منها .

وربما ليس هنالك عامل واحد غيّر تفكير العربي في الصحراء كالسيارة . فالحج إلى مكة الذي كان يستغرق أربعين يوماً على ظهور الجمال أصبح يستغرق ستة أيام فقط . وعندما يسافر حـاكم السعودية من عاصمته الداخلية الرياض الى مكة يركب وحاشيته أحدث الطائرات وأفخمها ويضم موكبه بين مايتي سيارة وخمسماية سيارة يسوقها رجال من الكويت وباكستان ومصر والصومال وسورية وحتى من اندونيسيا . وليس من الصعب التحقق من التأثير الكبير لكل هـذه المظاهر لأنه ليست السيارة فقط هي التي تحدث التغيير بـل السائق أيضاً الذي يجلب معه أفكاراً جديدة وعادات وتقاليد جديدة . ففي الرياض مثلاً يجد المرء السائقين يعيشون في مجتمع خاص خارج أسوار المدينة . وبينما لا تسترعي هـذه الفئة انتباه او تفكير أفراد الطبقة الحاكمة ورجـال الدين ، إلا ان الزائرين يتدفقون عليها من المدينة والصحراء . وبذلك تتسرب الأفكار ، الجيدة منها او الرديئة ، والتي تحمل معهـا بعض ما في الكويت والقاهرة ودمشق وعدن وكراتشي ، الى البدو الذين يتقبلونها مـع مرور الأيام لبساطتهم وسذاجة تفكيرهم .

إن سهولة التنقلات حملت معها كماليات جعلت وسائل الراحـة متوفرة ولكن لهذا العامل تأثير الخلاقي . فالشيخ العربي لم يعد يريد ركوب الخيل لأنه أصبح يفضل قيادة السيارات . والصيد بالباز الذي كان في يوم من الأيام الرياضة العربية الأساسية ، تحول الى مذابح لآلاف الحبارى سنوياً لأن ممارسته أصبحت تتم بواسطة السيارات التي أدخلت أيضاً في صيد الغزلان التي أوشكت ، لهـذا السبب ، على الانقراض . فقد ضاع الإحساس القديم بالفروسية والرياضة .

والتأثير الملحوظ للسيارة هو التأثير على نفسية العربي . فقـد بلغ التنافس أشده على أفضل السيارات وأغلاها ثمناً ، بين الأمراء الأثرياء وتجـار المدينة . وعدم القدرة على شراء السيارات يولد مرارة وعـدم ارتياح بين أفراد الطبقات

الوسطى والسفلى . ومن جهة ثانية ليست كل التأثيرات سيئة . فقد قصرت المسافات وتقلص استقلال القبائل . وأصبحت الطرقات تخترق المراعي التي كانت فيا مضى صعبة المسالك ، كما أصبح نقل المؤن الى المخيمات النائية سهلاً وسريعاً . وبذلك أصبح الاتصال بين الحاكم والشعب وثيقاً .

ولكن التأثير الأشد للسيارة كان على سيدات المدن اللواتي أصبح بإمكانهن زيارة أماكن لم يكن بإمكانهن اختراقها من قبل ، وازداد تبادل الزيارات بين عائلات الطبقة الواحدة فأصبح النساء يسمعن أكثر ويرين اكثر . وربما أصبحت السيارة فيا بعد عاملاً في التخلص من الحجاب مع ان ذلك صعب جداً جداً فيا يتعلق بالجزيرة العربية .

ومع ان النساء في الجزيرة العربية لم يتحررن بأي معنى حقيقي للكلمة إلا ان تحسينات كثيرة قد طرأت على حياتهن الجافة . فالراديو ينقلهن الى عالم من الموسيقى والناس والأماكن والأحداث لم تكن أمهاتهن قد سمعن بها من قبل او تحسسن وجودها . لقد وصلت السيارة وآلة الخياطة الى أقصى المدن والقرى العربية . وبينما كانت أعداد كبيرة من العبدات يقضين ساعات وأيام في صنع ملابس أهل البيت في السابق أصبح هذا العمل يستغرق ساعات قليلة ، وقد زاد اهتمام هؤلاء النسوة بالعطور والمساحيق والصابون وأدوات التجميل الأخرى .

وساعد الطب الحديث المرأة العربية على تخفيف آلامها سواء في الولادة او في الأمراض العادية . ففي السابق كانت تقوم بهذه المهمة نساء جاهلات وقابلات لا يعرفن للنظافة معنى . اما اليوم فيقف على علاج المرضى اطباء بريطانيون واميركيون وممرضات من الارساليات وغيرها مما خلق رغبة في الخضوع لمنطق العلم الحديث . ويتزايد الاهتمام كذلك بالتغذية والطعام والعناية بالاطفال . وكما هو متوقع ، فقد احدث ذلك نزاعات خطيرة في كثير من البيوتات العربية . فالجيل الجديد من النساء يرغب في اتباع الافكار الحديثة في التغذية والنظافة للاطفال فيصطدمن بمعارضة الجيل القديم المتحجر .

ونظراً لتبني ابن سعود لجهاز لاسلكي في طول بلاده وعرضها ، فقد اصبح

هنالك اكثر من عشر محطات في المراكز الكبرى وعدد مماثل من المحطات المتنقلة. وهذه الأخيرة يستخدمها الحاكم الحـــالي ووريث العرش واشقاؤه وامير الحجاز وكبار المسؤولين الذين مهما ابتعدوا في الصحراء يظلون على اتصال دائم ومباشر مع العاصمة وانحاء أخرى من البلاد . وهكذا فانه يمكن اخماد اية انتفاضة قبل ان تبدأ .

وتتصل اجزاء أخرى من الجزيرة ببعضها بمحطات مختلفة للبرق . ولذلــك فان اي تبدل بالاسعار في اسواق بومباي يلاحظ في اليوم ذاته في اسواق البحرين ومسقط والكويت وجدة والرياض . والاذاعات التي تبث برامج باللغة العربيــة من لندن وبيروت والأردن وبغداد وانقره وموسكو ، تجعل النــاس على اتصال دائم بالأحداث العالمية . ومن جملة الجهود الرامية الى توحيد التفكير الاسلامي ، تبث دعايات اسلاميــة متنوعة . واذا ما حدث نزاع بــين العرب واليهود في فلسطين ، فان العرب يسمعون بــه ويناقشونه من وجهة نظرهم . وفي الكويت وحدها اليوم هنالك اكثر من ثمانماية جهاز استقبال. كذلك فان الصحف اللبنانية والمصرية والعراقية والهندية تفسر الاحداث الدوليــــة وتنقلها الى كل جزء من الجزيرة والعالم العربي . وكثيراً ما توزع منشورات معادية للمسيحيين الامر الذي يعيق عمل الارساليــات بسبب نقل الاخبار على غير حقيقتها . فعندمــــا عزل الفرنسيون سلطان المغرب ونفوه الى جزيرة كورسيكا أحدث ذلـــك مناقشات حامية في أسواق الكويت ومقاهيها بعد يومين فقط من الحادث .

ان العربي في الصحراء اليوم الذي يلبس على طريقة اجداده ، ويعيش كآبائه ويفكر بنفس مقاييس الماضي ، يجد نفسه مضطراً لمواجهة التقدم والحياة العصرية وقبول تأثيرها على حياته .

ان اكتشاف النفط في البــــحرين مؤخراً واكتشاف مخزون جديد منه في السعودية والكويت وقطر حمل معه طرقــاً عصرية وعادات جديدة وتـــأثير الحضارة الغربية الى جميع انحــــاء مناطق الخليج الفــارسي . فالدولة العربية الصغيرة ، الكويت ، تحولت من مدينة صغيرة مجهولة الى زهرة زاهية على الخليج

بفضل النفط . وبالرغم من ان بريطانيا اتخذت من البحرين قاعدة بحرية لها في الخليج ، وان تلك الجزيرة هي مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج .

وقد برز عامل آخر اشد خطورة يمكن تسميته المادية الحديثة التي يصعب تقدير نتائجها. ففي الماضي اصطدم الاسلام بديانات عديدة لكنه لم ينهزم أمامها اما اليوم فيبدو انه سينحل وينتهي في موطنه الأصلي . ومع كل سيارة وصحيفة تدخل البلاد تدخل معها المادية العلمية و «عدم الإيمان» الغربي والوثنية الحديثة التي هي عدو كل معتقد ديني . ولا يستطيع أحد يتكهن بمدى امتداد هذه الوثنية الجديدة ولكن مما لا شك انها آتية كالطوفان . كان تأثيرها الى الأمس القريب محصوراً في فئة قليلة من الوسط التجاري ولكنه امتد اليوم الى أقصى أقاصي الصحراء وتزداد قوته تدريجياً . ولا غرابة اذا كان الذين يخافون الله من العرب والذين يشتهرون بسمعتهم الجلية قد بدأوا يقلقون ويخافون .

ان المادية التي اشاعها العلم الحديث قد اضعفت الاسلام بنفس الطريقة التي عملت نظرية « الخلاص بالمعرفة » على لغم المسيحية في القرون الأولى . ويدعي الماديون انهم ليسوا اعداء الدين بل حلفاءه تماماً كما كان يدعي «العارفون» القدامى . وفي هذا الادعاء تكمن حقيقة خطرة . ان التقدم المادي هو ثروة للدين ، اي دين ، ولكن عندما تصبح حيازة الممتلكات الدنيوية هدف الانسان الأوحد ، اي القوة الدافعة لحياته ، بدل التفاني في سبيل الحق والصلاح ، يتأثر الدين عندئذ . فالازدهار المادي الذي ليس صالحاً او شريراً بحد ذاته ، يشبه النار التي تتوقف فائدتها او اضرارها على طريقة استخدامها .. هذا الازدهار كان من شأنه ان يضعف الاسلام لا ان يعمل على تقويته .

ومع امتداد المادية والحضارة الغربية ، تسربت الى حياة العربي روح القومية الموجودة في أماكن اخرى من العالم . ولكن انتشار هذه الروح لم يكن متطرفاً كما هي الحال في تركيا او مصر ، بل وجدت تعبيراً شديداً عن نفسها في ولاء العربي لعنصره . وقد ساهمت قضية فلسطين في تقوية وتركيز هذا الولاء ، كما ان الخطط الحديثة والدعايات الواسعة للوحدة العربية ساعدت على تدعيم

ذلك الولاء .

وفي سنة ١٩٣٤ كما رأينا آنفاً ، قام الملك ابن سعود بعد نزاع حاسم قصير الأمد باغتصاب منطقة عسير ثم عقد معاهدة صداقة اسلامية مع الامام يحيى امام اليمن . وكانت هذه المعاهدة بشيراً لمعاهدات وتفاهم اوسع بين الدول الاسلامية . فبعد توقيع هذه المعاهدة مباشرة بدأت المفاوضات لإنشاء حلف رباعي بين تركيا وايران والعراق وافغانستان . وفي الوقت نفسه قرر الإمام يحيى الانضمام الى معاهدة الصداقة والتحالف التي تم توقيعها في الثاني من نيسان سنة ١٩٣٦ بين حكومتي العراق والمملكة العربية السعودية . وقد عقدت معاهدة ثانية بين السعودية واليمن في الثالث من تشرين الثاني عام ١٩٣٧ .وبذلك اصبحت أكبر مملكتين عربيتين مستقلتين في نفس الخط مع تركيا وايران والعراق وافغانستان الذين وقعوا المعاهدة فيما بينهم سنة ١٩٣٧ . ولتحقيق تفاهم أفضل مع مصر انهى الملك ابن سعود الخلاف الذي كان قد مضي عليه عشر سنوات مع الحكومة المصرية التي وافقت ان تستأنف ارسال الكسوة السنوية الى مكة .

ومن الصعب التكهن بالنتائج البعيدة المدى لهذه المعاهدات السياسية . وانه لأمر بالغ الاهمية بالنسبة لأصدقاء العرب ان يروا هذا التقارب والتفاهم بين الدول الاسلامية الأمر الذي قد ينتج عنه تحالف حقيقي بين تلك الدول . ولكنه من المستحيل على المرء ان يتكهن مما اذا كان ذلك سيؤدي الى احياء الحضارة الاسلامية والحماس الديني او انه سينتج عنه انفصال السلطة السياسية عن الدين .

ان المصالح الأجنبية بريطانية في معظمها ولكن دولاً أخرى بدأت تهتم بالشؤون العربية .ويصح هذا القول بصورة خاصة على الولايات المتحدة الاميركية التي تحاول الحصول على نفوذ سياسي في الجزيرة العربية في اعقاب توسع شركة النفط العربية — الاميركية (ارامكو) في الظهران . وتجاوباً مع الطلبات المتزايدة بدأت الاذاعة البريطانية منذ سنوات في بث برامج باللغة العربية . واخذت السفن الحربية الاميركية مؤخراً تزور الخليج الفارسي منافسة بذلك

صديقاتها البريطانيات !

وتتتبع الجزيرة العربية باهتمام في هذه الايام مجرى الاحداث في اوروبا الأمر الذي يدفع الناس في كل مكان لاصدار أحكام اكثر دقة على الشؤون الاوروبية . وليس متوقعاً ان تلعب الجزيرة العربيـــة تحت الحكم الاسلامي دوراً مهماً في الشؤون الدولية دفعة واحدة مع انها ستبقى محور السياسة الاسلامية ومركز العالم الديني في الاسلام .

ان الأحداث الاجتماعيـــة والسياسية التي وقعت في مصر وباكستان وشمال افريقيا ولبنان وايران بدأت تؤثر في الجزيرة العربية . وهذه الحركات الجديدة لن تفشل في النهاية في فرض تأثير متزايد على مجرى الاحداث . فقد بـــدأت القومية تمسك بالزمام وذلك من قبيل التحدي للغرب وخاصة بريطانيا . وقـــد قال لي عربي بارز من الكويت في ٢٨ تشرين الأول ١٩٥٣ ما يلي :

ـ « انكم لا تستطيعون الانحاء باللائمة على العرب لأنهم يريدون تقليد الغرب وادخال بعض الاساليب الغربية كالنقابات لحماية حقوق عمال شركات النفط ، في الوقت الذي تتعلم هذه الأشياء يومياً عن طريق الاذاعات الصادرة عن بريطانيا واميركا . فاذا سمعنا ان سائقي السيارات في لندن قد اعلنوا الاضراب للحصول على زيادة في اجورهم .. فلماذا لا يحق لنا ان نفعل نفس الشيء » ؟

ان مصدر الخطر في دولة كالكويت هـــو بـــدون شك تدفق الفلسطينيين والعراقيين واللبنانيين والايرانيين والمصريين وغيرهم من الأجانب بشكل لم يسبق له مثيل ولم يكن يحلم به أحد . وهذا الشيء ما زال قائماً لاسيما وان عملية البناء والانشاء تسير على قدم وساق . وسواء كان هؤلاء من المشردين الفلسطينيين ، او من العمال اللبنانيين المهرة ، او من العمال العاديين القادمين من العراق وايران ، او صحافيين من الاقطار العربية ، او تجـــاراً من بيروت ، فانهم جميعهم يغرسون في ذهن الكويتي الشعار القائل « بلاد العرب للعرب والكويت للكويتيين » .

ويتقرب هؤلاء من الكويتيين بطريقة ذكية على أساس ان الكويت امـــارة عربية مستقلة فلماذا يكون فيها مثل هذا النفوذ السياسي للبريطانيين .. ولماذا

يكون فيها وكيل سياسي بريطاني ؟ ويقولون إن الاوضاع يجب ان تصحح ويجب ان يزول نفوذ الوكيل السياسي .. والقادرون على هذا التصحيح هم الكويتيون أنفسهم . وينتقدون كذلك الامتيازات البريطانية ويدعون الى التخلص منها والى جعل الوكيل السياسي قنصلاً عادياً أو وزيراً مفوضاً لدى حاكم الكويت . وهم ينصحون أفراد الجيل الجديد من آل الصباح ان يعملوا على اقامة وضع شبيه بالسعودية بقولهم : « ما أحسن شركة أرامكو في الظهران .. وما أحسن معاملة الاميركيين للعرب هناك وما أروع علاقاتهم بالحكومة السعودية » . ومن خلال هذه الاخطار يجدر بالاميركيين والبريطانيين على السواء حيثما وجدوا ، ان يتذكروا أن العرب الذين لا يكنون الود لهم والذين يحملون آراء متطرفة ، يهتمون بافساد العلاقات بينهم .. فقد تعلموا اصول اللعبة ايضاً !

وهذه الدعايات الشريرة تقلق بال الكويتيين القدامى الذين يحبون البريطانيين ، ولكنها تجد وقعاً حسناً في نفوس الشبان الكويتيين المتطرفين الذين ليس أحب لديهم من ان يروا الكويت تحت سيطرة العراق السياسية بحجة ان العراق دولة مسلمة تظل افضل بكثير من بريطانيا المسيحية . ولا يخفى ان العراق يشجع هذه الدعايات بشتى الطرق لاسيما عن طريق آلاف العراقيين العاملين في الكويت .

وآخر الطرق العراقية في مغازلة الكويتيين هي التلويح لهم بالفوائد الجمة التي يجنونها من جر مياه شط العرب الى الكويت بواسطة أنبوب قطره ٣٢ بوصة ، الأمر الذي من شأنه ان يحول الأراضي القاحلة بجوار مدينة الكويت والجهراء الى حدائق غناء ، ويضاعف كميات الشرب المتوفرة في الكويت والتي هي بأمس الحاجة لها . وهم يعرفون انه إذا تم ذلك فإن الفلاحين الذين سيتولون زراعة الأرض المستصلحة سيأتون من العراق وبذلك يسيطرون على جزء كبير من الأراضي الكويتية فيطلبون بالتالي حماية دولتهم إذا نشأ أي نزاع بينهم وبين حكومة الكويت حتى ولو كان مفتعلاً . والشبان المتطرفون في الكويت — وهم ليسوا قلة — يعرفون ذلك حق المعرفة . فهم لا يؤيدون هذه الخطة فحسب بل يدعون لها ليل نهار ويعبرون عن هذه الرغبة في الصحف العراقية واللبنانية .

والمؤسف في ذلك كله ، أنــه في الوقت الذي يتزايد فيه شعور الشبان المتطرفين القوميين ضد الأجانب وضد البريطانيين بصورة خاصة ، فإن عرب الصحراء القدامى وكبار تجار المدينة النافذين الذين مـا زالوا يحبون ويحترمون الانكليز ، بدأوا يتحولون ببطء ضد الغربيين لأسباب تختلف تماماً . فهؤلاء ، وهم مؤمنون متدينون ، يرون في التأثير الغربي بماديته الرهيبــة خطراً يهدد عاداتهم وأخلاقهم وتقاليدهم ودياناتهم بصورة خاصة . لقد بدأوا يرون أولادهم يشبون على العادات السيئة فيشربون الخمر ، ولا يذهبون الى الصلاة ، وينكرون الدين وأخلاقيته، ويرفضون طاعة والديهم . ولذلك يقولون بينهم وبـين أنفسهم ان مرد ذلك الى الغرب وأمواله وعاداته غير الدينية .

وبحـافز من الدفاع عن النفس أخذ الجيل القديم المحافظ يتحول ضد الغرب فأطلقوا صرخة متعصبة جديدة تقول: ان الدين في خطر . ولأنهم يظنون أن الغرب أصبح يسيطر على بلادهم وعلى أولادهم وبناتهم فإن هـذه الصرخة صارت اليوم « ما لنا وللغربيين .. انهم لم يعودوا كما عرفناهم من قبل » . وهكذا نجـد أن العربي المرح الذي ينتمي الى المدرسة القديمة أصبح ضــد الأجنبي ، ضد البريطانيين والأمريكيين ، على الرغم من أن الأسباب الموجبـة لهذا الشعور ليست مماثلة للأسباب الدافعة لأبنا الجيل الجديد .

ما هو الجواب لهذا الوضع المؤسف ؟ انني أتجرأ لأقول انه الآتي :

فليتخلَّ الغرب عــن فرض مفاهيمه الحضارية كتحسين مستوى المعيشة ، والأفكار التربويـة الحديثة ، ورفع المستوى ، والأطعمة الممتــازة والملابس الفخمة ... الخ . وليبشر بالتطور والبنــاء على صخر بدل البناء على الرمل . فليبشر بأن التقدم الذي لا يمكن وقفه يجب أن يأتي على مهل وليس كالنــار الأكولة كجهنم . فليبشر الغرب بفضائل بناء الأخلاق ومبادىء الدين والايمـان بإله واحد خالق الكل .. وليبشر أيضاً بعالمية قدسية الوصايا العشر .

يتوجب على الغرب وعلى كل الرجال ذوي النوايا الحسنة ان يحاربوا الشرور القادمة مع المدنية ... ويعددوا فضائل الأشياء الحسنة القادمة من الغرب .. لأن
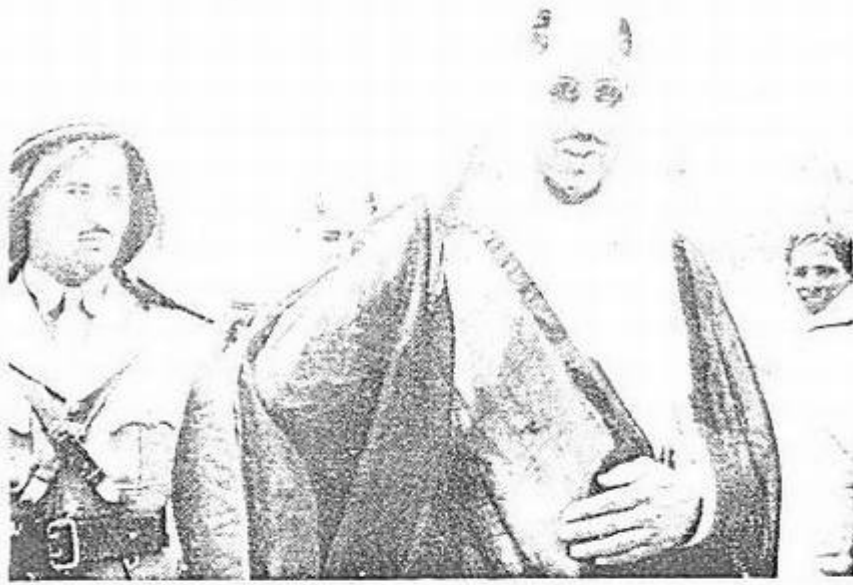
الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية

جانب من المأدبة التي اقامتها شركة نفط الكويت في الاحمدي تكريماً للملك سعود

. مدير شركة نفط الكويت المستر سوثويل لدى وصوله الى الكويت من لندن

« ماك » جيمس ماكفرسون مؤسس ارامكو

الشرور القادمة مع التقدم كالمشروبات الروحية والسينما وغيرها تزيد في عددها على النواحي الصالحة .

تقدم شركة نفط الكويت ١٩٥٣

هذا المقال ملخص لمقال بقلم الآنسة مارغريت كلارك نشر في صحيفة « بترولیوم تایمز » بتاريخ ٣٠ تشرين الأول ١٩٥٣ وهو عرض رائع لتقدم شركة نفط الكويت منذ استئناف عملياتها بعد الحرب العالمية الثانية .

في حزيران سنة ١٩٤٦ صدر اول برميل من نفط الكويت . وقد بلغ الانتاج الاجمالي من خزان النفط العجيب القائم تحت رمال الكويت الملتهبة حتى أوائل هذا الشهر ألف مليون برميل . الف مليون برميل في أقل من ثماني سنوات رقم قياسي يعتبر من أهم المنجزات الصناعية في العصر الحديث لم يسبق لها مثيل في تاريخ حقول النفط .

ولم يسبق ان طورت حقول للنفط بمثل هذه السرعة . والنجاح الذي يشهد عليه هذا الرقم القياسي سيظل مثلاً على التعاون الانكلو - الاميركي في ارقى مستوياته . وحتى بلوغ هذا الرقم لم يكن هنالك سوى ثمانية بلدان سجلت انتاجاً اجمالياً يعادل الف مليون برميل من النفط الخام . وهذه البلدان هي : الولايات المتحدة الاميركية ، المكسيك ، فنزويلا ، رومانيا ، الاتحاد السوفياتي ، ايران ، المملكة العربية السعودية ، واندونيسيا . والآن اصبحت الكويت وهي أصغر دولة في العالم ، تحتل مكانها بين جبابرة النفط . وقد حققت هذا النصر في وقت أقصر من الوقت الذي لزم لسابقيها الثمانية .

ان شركة نفط الكويت التي تملك امتيازاً يشمل حقوق الاستكشاف والاستثمار في جميع الاراضي الكويتية ، مع انها مسجلة بانها شركة بريطانية ، تملكها بالتساوي شركة الخليج وشركة دارسي (الشركة الانكلو - إيرانية)* .

* - المدير العام لشركة نفط الكويت هو المستر ل . ت . جوردان من تكساس . وهو يحظى بحب واحترام وتقدير جميع العرب في الكويت من الحاكم حتى اصغر بدوي في الصحراء . وهم يصفونه بانه اكثر الناس استقامة في البلاد .

وقد منح الامتياز سنة ١٩٣٤ ولمدة خمس وسبعين سنة . وفي تشرين الثاني سنة ١٩٥١ وقعت اتفاقية جديدة بين الشركة وحاكم الكويت . وتقضي بان تخضع الشركة لضريبة دخل حسبت بشكل اصبحت الارباح تقسم بالتساوي بين الشركة والحاكم. وقضى التعديل ايضاً بان تعتبر مدة الامتياز وهي خمس وسبعون سنة من تاريخ الاتفاقية الجديدة .

ويمكن القول ان عمليات الانتاج بدأت في أول حزيران سنة ١٩٤٦ عندما توجه الشيخ أحمد الجابر الصباح الى ميناء الاحمدي وأدار الصمام لتعبئة اول ناقلة « بريتيش فوزيليه » – بشحنة من النفط الخام الى غراينجموث – وهذا دليل للمستقبل لأن بريطانيا هي المستهلك الرئيسي لنفط الكويت منذ ذلك الوقت .

وقد تمت العمليات في وجه صعوبات عديدة نشأ معظمها من واقع ان المنطقة بعيدة عن النشاط الصناعي أسهم مناخها في خلق تعقيدات غير اعتيادية . وقبل اكتشاف النفط في بلادهم التي تبلغ مساحتها ٦٠٠٠ ميل مربع على رأس الخليج الفارسي ، كان الكويتيون يحصلون على معيشتهم من الصيد والتجارة وبناء السفن . ولذلك لم تكن هنالك تقاليد صناعية بالمعنى الغربي يمكن ان تقوم عليها صناعة جديدة . فلم تكن هنالك ايد عاملة ماهرة ولا مواد اولية ولا مواصلات . وبالرغم من تخطي هذه المصاعب فانه لم تكن هنالك اسواق ملائمة لامتصاص النفط . ان الشمس والرمال عدوان منيعان في بلاد لا ماء فيها ولا يزيد هطول الامطار فيها عن خمس بوصات في السنة وتبلغ درجة الحرارة في الظل بين ١١٠ درجات فارنهايت و ١٢٠ درجة وحتى ١٢٨ درجة . هذه الاحوال الصعبة التي عمل الرجال وعاشوا فيها لا سيما في المراحل الاولى تجعل هذا النجاح خارقاً رائعاً .

وبموجب برنامج لتنمية موارد البلاد النفطية اكمل حتى الآن حفر ١٥٣ بئراً. وهنالك ثلاث آبار على وشك الانتهاء . ان الطبقات الحاملة للنفط في الكويت كلسية متوسطة العمر . وهنالك اربع طبقات رملية النوع ثلاث منها واضحة المعالم . والعمق الأدنى الى قمة الطبقة الأولى يبلغ ٣٥٤٥ قدماً ، ويبلغ العمق

الأقصى الى الطبقة الرابعة الحاملة للنفط ٤٧٧٢ قدماً . وأغلب الآبار في حقل الكويت ذات انتاج مزدوج . ان الطبقتين الثالثة والرابعة هما أكبر الطبقات انتاجاً وتحتوي الطبقة الثالثة على النسبة الأكبر من الاحتياطي . ويتراوح الانتاج الفردي بين ٨٠٠ برميل يومياً للآبار في الطبقة الأولى وبين ٦٠٠٠ الى ٩٠٠٠ برميل يومياً للآبار في الطبقة الثالثة . انه انتاج عظيم للبئر الواحدة اذا ما قيس بالحقول القديمة العهد بالإنتاج وخاصة تلك الموجودة في اميركا الشمالية .

ومع انه تأكد وجود النفط في الكويت ، وان آبار الكويت هي من أغنى خزانات النفط في العالم ، وبالرغم من انه لا توجد صعوبات في نقله من الآبار الى الشاطىء الذي يبعد ١٤ الى ٢٠ ميلاً فقط ، ولكن الواقع شيء آخر . ان كل قطعة من الآليات التي استخدمت في كل مرحلة من مراحل التنقيب والنقل والتعبئة احضرت من بريطانيا أو من اميركا على بعد آلاف الأميال . ان مياه الخليج الفارسي المجاورة ضحلة على مسافة طويلة من الشاطىء وليس هنالك مدخل او خليج صغير يحمي السفن من الرياح الشديدة التي تهب هناك . وحتى في خليج الكويت الى الشمال تضطر السفن الى القاء مراسيها على مسافة أميال من الشاطىء. ولذلك كان من الضروري اعادة نقل التجهيزات بواسطة سفن صغيرة الى الشاطىء ثم عبر الصحراء الى مواقع العمليات . وفي كل مرحلة كان هنالك احتمال تحطم تلك المعدات ، وفي الواقع كانت هذه المشكلة في السنوات الأولى من أهم المشاكل الرئيسية . ومع ذلك ازدادت كمية التجهيزات المستوردة نظراً لاتساع الاعمال .

وفي شهر واحد ، شباط سنة ١٩٤٨ ، انزلت على الشاطىء بهذه الطريقة معدات بلغ وزنها ٢٥ الف طن . وقد بلغ وزن المعدات المستوردة تلك السنة ١٩٠ الف طن وهو رقم قياسي . هذا بالطبع كان احدى المصاعب التي توجب التغلب عليها قبل استمرار العمل وتنميته . وبالاضافة الى ذلك كانت هنالك مشكلة تدريب العمال المحليين على الطرق الغربية في العمل .. وهذه المشكلة

اقتضت احضار فنيين من الخارج مع مستلزمات عملهم ومعيشتهم في الصحراء .
ان الحقائق والارقام الواردة هنا يجب ان لا تحجب ضخامة هذا العمل الجبار .

يجري النفط من الآبار الى تسعـــة مراكز للتجمع ثم يضخ الى الخزانات في الاحمدي القائمة على سلسلة مرتفعات على بعد خمسة اميـال من الشاطىء . وهذه الخزانات تتسع لاكثر من اربعة ملايين برميل ومنها ينحدر النفط في ستة أنابيب قطر الواحد منها ٢٢/٣٠ بوصة ، الى الميناء والمصفاة في ميناء الاحمدي. وهنالك انبوبان قيد البناء احدهما قطره ٣٤ بوصة ويعتقد انـــه اضخم انبوب للنفط في العالم .

البلدان التي أنتجت ألف مليون برميل من النفط الخام مع تاريخ بلوغ هـذا الرقم . هذه الإحصاءات مأخوذة من دائرة المناجم الأميركية .

الكويت	١٩٤٦ — ١٩٥٣	٨ سنوات
المملكة العربية السعودية	١٩٣٦ — ١٩٥١	١٦ سنة
فنزويلا	١٩١٧ — ١٩٣٤	١٨ سنة
المكسيك	١٩٠١ — ١٩٢٣	٢٣ سنة
إيران	١٩١٣ — ١٩٤٠	٢٨ سنة
الولايات المتحدة	١٨٥٩ — ١٩٠٠	٤٢ سنة
روسيا	١٨٦٣ — ١٩٠٥	٤٣ سنة
اندونيسيا	١٨٩٣ — ١٩٤١	٤٩ سنة
رومانيا	١٨٥٧ — ١٩٤٣	٨٧ سنة .

وقد جعلت هذه النتائج الباهرة من الممكن ارتفاع معدل الإنتاج كما يبدو في اللائحة أدناه :

السنة	عدد البراميل
١٩٤٦ (السبعة أشهر الأخيرة فقط)	٥،٩٢٧،٩٧٦
١٩٤٧	١٦،٢٢٧،٩٠٦
١٩٤٨	٤٦،٥٤٦،٧٩٥

١٩٤٩	٨٩,٩٣٠,٤٤٤
١٩٥٠	١٢٥,٧٢٢,٣٩٦
١٩٥١	٢٠٤,٩٠٩,٦٦٢
١٩٥٢	٢٧٣,٤٣٢,٨٩٥
١٩٥٣ (الأشهر الثمانية الأولى فقط)	٢٠٦,٠٩٥,١٩٢

وخلال الأشهر الستة الأولى من هذه السنة أنتجت الكويت١٥٢,٠٤٩,٣٩١ برميلاً من النفط فتكون بذلك قد احتلت المرتبة الثالثة بين الدول المنتجة بعد الولايات المتحدة وفنزويلا .

ويتضح ان الوصول الى هذه القدرة في وقت قصير كهذا لم يكن ممكناً لولا وجود نظام دقيق للنقل والتخزين والشحن منذ البداية . وقد اتخذت جميع الاحتياطات للتأكيد بأن سير هذه الترتيبات يجب ان يتوسع بسرعة الانتاج .

ففي مطلع سنة ١٩٤٦ مد أول أنبوب من عدة أنابيب قطرها ١٢ بوصة تحت سطح البحر . وبالاضافة الى ذلك وصل هذا الأنبوب بخرطوم لتعبئة الناقلات بسرعة . وبين سنة ١٩٤٦ وسنة ١٩٤٩ مدت عشرة أنابيب مماثلة اتصل كل اثنين منها بمرسى خاص بشحن النفط . وكان عدد هذه المراسي المستخدمة في ذلك الوقت خمسة . وفي نهاية سنة ١٩٤٩ أنشىء أكبر رصيف لناقلات النفط في العالم في ميناء الأحمدي ويمتد هذا الرصيف داخل البحر ٤١٠٠ قدم وعليه طريق عرضه ٢٤ قدماً صمم بشكل يستطيع معه حمل أثقل سيارات الشحن بالإضافة الى ممر للأنابيب يضم ثمانية خطوط للنفط الخام قطر الواحد منها ٢٤ بوصة ، وعدد آخر من الأنابيب الصغيرة تحمل الوقود والماء للسفن والهواء المضغوط للرافعات .

إن القسم الشمالي من الرصيف الذي يبلغ طوله ٢٨٠٠ قدم وعرضه ١٠٥ أقدام، فيه ستة مراسي يمكن تحميل الناقلات فيها بسرعة ، اما الناحية الجنوبية التي يبلغ طولها ١٠٥٠ قدماً وعرضها ١٠٠ قدم فيقوم بالخدمات لمرسيين كانا يستخدمان أصلاً لتفريغ المعدات والتجهيزات ، ولكنهما يستخدمان حاليا

لتحميل النفط . ويمكن للسفن على هـذا الرصيف ان تحمل بمعدل مليون برميل وله قدرة على العمل في الليل والنهار بصورة متواصلة .

وبالنظر الى هذه التسهيلات المستخدمة فقد نشطت حركة الناقلات وزادت على الوجه التالي :

السنة	عدد الناقلات التي حملت النفط من الكويت
١٩٤٦	٦١
١٩٤٧	١٦٨
١٩٤٨	٤٣٦
١٩٤٩	٨٠٣
١٩٥٠	٩٩٥
١٩٥١	١٧٣٥
١٩٥٢	٢٢٨٠
١٩٥٣ (الاشهر التسعة الاولى)	١٨١٣

وسيصبح من الممكن استقبال مزيـد من الناقلات في السنة القادمة لأن التسهيلات والخدمات في قطاع تحميل النفط تتوسع باستمرار . وهنالك ثلاثة مراس جديدة قيد الانشاء يتصل كل منها بالشاطىء بانبوب للنفط الخام قطره ٢٤ بوصة .

ان سعة مصفاة ميناء الاحمدي تبلغ ٣٠ ألف برميل يومياً . وفي سنة ١٩٥٢ كانت تكفي وحدها لسد حاجات السوق المحلية الى الوقود والزيوت ومشتقات النفط الاخرى بما في ذلك احتياجات الشركة والناقلات والسفن القادمة الى الكويت . وقد اقيم بالقرب من المصفاة معمل لصنع الاسفلت بدأ الانتاج في أوائل هذه السنة . وهذا المعمل ينتج من ٢٥ الى ٣٠ طناً من الاسفلت يومياً تستخدمها الدولة في تعبيد الطرقات .

وأنشأت الشركة في ميناء الاحمدي محطة لتوليد الطاقة الكهربائية قوتها ٢٢,٥٠٠ كيلواط ، ومعملاً لتكرير مياه البحر سعته ٦٠٠ الف غالون يومياً ،

ومحطات للضخ، ومستودعات تخزين، وجهاز ضبط كهربائي يضمن تدفق النفط الى المصفاة والى منشآت التحميل في الميناء . وقد ادخلت على حقل العمليات اجهزة اوتوماتيكية لضبط العمليات بقدر الامكان بعيداً عن الاماكن المركزية مما يضمن مزيداً من الدقة والتكييف السريع والتوفير في الأيدي العاملة .

وهنالك انبوب طوله ٢٧ ميلاً يربط المصفاة بمدينة الكويت الى الشمال ويسد احتياجات المدينة الى المنتجات النفطية . وتنتقل هذه المنتجات الى خمس محطات للخدمة من المستودع الرئيسي في المدينة، وتوزع على المستهلكين من تلك المحطات . وهنالك ايضاً انبوب للغاز طوله ٣٠ ميلاً وقطره ثماني بوصات ، ينقل الغاز من حقول النفط الى المدينة .

وعملت الشركة مع تطوير انتاج النفط على تحسين احوال عدد كبير من موظفيها ومستخدميها من جميع الجنسيات . والجدير بالتأكيد هنا انه عندما بدأت العمليات كانت تلك المنطقة صحراء جرداء لا تنمو فيها سوى اعشاب خشنة ولم يكن فيها من الموارد الطبيعية سوى بعض الماء غير الصالح للشرب في آبار شديدة الملوحة .

وقد حلت مكان المساكن المؤقتة مدينة جميلة بنيت منازلها على احدث الطرق الهندسية فيها مراكز للترفيه وللعناية الطبية والتعليم . وهي تضم مستشفى وعيادة ومدارس وكنائس ومساجد ومصابغ ومصنعاً للثلج ومخبزاً وعدداً من الحوانيت . وقد اقيمت هذه التسهيلات الضرورية للحياة اليومية في كل مجتمع متمدن للموظفين وعائلاتهم وهو انجاز ضخم لأن هنالك اكثر من ٩٠٠ اميركي وبريطاني يعملون في شركة النفط بالاضافة الى ٣٠٠٠ هندي و ٢٤٠٠ كويتي و ١٨٠٠ من جنسيات عربية اخرى .

وبالإضافة الى ذلك اسست مدرسة للتدريب المهني تخرج منها كثيرون من العرب الذين تخلوا عن اعمالهم الاصلية ذات التقدم الاقتصادي المحدود بحثاً عن فرص أوسع في خدمة شركة النفط . وستعمد الشركة الى ارسال بعض المرشحين الى الخارج لإكمال دراستهم الفنية او الجامعية حتى يتمكن الكويتيون من الحلول

محل الاجانب في الوظائف العليا . وهذا العمل لا يقل عن العمليات في حقول النفط لأنها من شأنها ان تكفل تحقيق التوسع في الانتاج .

ولكن نتائج إنماء وتطوير موارد نفط الكويت لا تقف عند هذا الحد . فقد اتسع اقتصاد البلاد القومي الامر الذي مكن الحاكم الحالي من وضع الخطط لإيجاد خدمات بلدية عصرية بما فيها الصحة العامة والماء والكهرباء . وقد اسهم التوظيف الكامل وارتفاع مستوى الاجور في الارتفاع العام الذي شهده مستوى المعيشة . ولكن بما ان حصة الحاكم من عائدات النفط بلغت حوالي ٥٠ مليون جنيه استرليني في السنة الماضية ، وبما ان هذا الدخل في دولة صحراوية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها ٢٠٠ الف نسمة لا يمكن امتصاصه كله مهما بلغت التحسينات والخدمات العامة ، فان استخدام الاموال العائدة من النفط لها أيضاً مشاكل بحد ذاتها . ورأى الحاكم ان تدفق الثروة المفاجيء على بلاده قد يحدث صعوبات كبيرة كتلك الناجمة عن الفقر في بلدان اخرى . ولذلك كرس جهوده ليضمن ان هذا الانتقال المفاجيء من الندرة الى الكثرة سيتم بصورة هادئة بطيئة . وبادارته الحكيمة الواعية يجرب حالياً استثمار الفائض الكبير للمستقبل .

ان العامل الرئيسي الذي جعل انتاج الكويت من النفط يتضخم بهذه الصورة خلال السنوات الثلاث الماضية هو بدون شك انفتاح الاسواق العالمية الناجم عن توقف الانتاج في إيران في حزيران سنة ١٩٥١ . ان مقارنة صادرات الكويت في سنة ١٩٥١ و ١٩٥٢ تظهر ليس فقط كيفية ارتفاع الصادرات منذ الازمة الايرانية ، ولكنها تظهر ايضاً كيف ان البلدان المختلفة استفادت من الوضع .

إن المكانة المهمة التي يحتلها نفط الكويت على الصعيد الدولي ، بعد مضي ثماني سنوات فقط من ارسال اول شحنة من ميناء الاحمدي ، لا تحتاج الى تأكيد . والمعروف ان البلدان التي هي خارج منطقة الدولار تستفيد بصورة خاصة من نفط الكويت وقد ساهم في ذلك انخفاض كلفته بالدولار بالنسبة للنفط من البلدان المجاورة كالسعودية والبحرين . ولكن منطقة الدولار استفادت هي

ايضاً منه . فالنفط الكويتي بلغ مثلاً ١٥،٦ بالمئة من المستوردات الاجمالية للولايات المتحدة في النصف الاول من هذه السنة ، و ٤٥ بالمئة من مستوردات الولايات المتحدة من الشرق الاوسط في الفترة ذاتها .

شحنات النفط الخام من الكويت

البلدان	١٩٥٢	١٩٥٠
	البراميل	
بريطانيا	٩٧,٠٤٧,٩١٧	٢٨,٠٥٣,٦٢٣
فرنسا	٥٦,٨٤٠,٣١٤	٢٨,١٦٨,٨٦٤
هولندا	٣٠,٥٥٥,١٤٩	١٧,٨٤١,١٥١
الولايات المتحدة الاميركية	٢٧,٢٢٣,٠٨٧	٢٦,٣٦١,٤٢٨
ايطاليا	١٤,٧٢١,٩٦٥	١٠,٦٣١,٥٣٢
بلجيكا	١٢,٥٢٥,٩٧٨	—
الارجنتين	٩,٠٧٢,١٩٤	—
السويد	٤,٠١٧,٦٢١	١,٤٣٢,١٥١
بلدان أخرى	١٢,٠٢٤,٠٤٦	٤,٢١٦,٢٥٤
المجموع	٢٦٤,٠٢٨,٢٧١	١١٦,٧٠٥,٠٠٣

ليست هنالك دولة تميل الى نفط الكويت كبريطانيا . فبرامج توسيع المصافي في المملكة المتحدة التي كررت ٠٠٠ و ٣٠٦و١٦٤ برميل من النفط الخام في السنة الماضية، تنجح او تسقط تبعاً لامكانية الحصول على النفط من الشرق الأوسط والكويت هي اليوم المصدر الرئيسي لبريطانيا .

ففي الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٤٦ قبل الحصول على النفط الخام من الكويت ، كانت مصادر بريطانيا الأساسية هي : الأنتيل الهولندية ٤٤ بالمئة ، فنزويلا ٢٦ بالمئة ، ايران ١٥ بالمئة ، الولايات المتحدة ١٤ بالمئة ، بلدان أخرى واحد بالمئة .

ولكن هذه الصورة تغيرت في الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٥٠ فاصبحت مصادر بريطانيا الاساسية هي:الكويت والبحرين ٤٠ بالمئة (الكميات المستوردة من البحرين لا تذكر اذا قيست بالكويت) ايران ١و٢٥ بالمئة، الانتيل الهولندية ٤و١٢ بالمئة ، المملكة العربية السعودية ١و١٢ بالمئة ، العراق ٣و٤ بالمئة ، فنزويلا ٩و٢ بالمئة ، بلدان اخرى ٢و٣ بالمئة .

وفي الأشهر الستة الأولى من هذه السنة قفزت الكويت قفزة كبيرة في تصدير النفط الى بريطانيا فاصبحت مستوردات بريطانيا في هذه الفترة كما يلي : الكويت ٨و٥٧ بالمئة ، العراق ٨و٢٨ بالمئة ، البحرين ٩و٥ بالمئة ، الانتيل الهولندية ٤و٢ بالمئة ، فنزويلا ٣و٢ بالمئة . وتتزايد مساهمة نفط الكويت في بناء الاقتصاد البريطاني يوماً بعد يوم ، اذ ان واردات بريطانيا من نفط الكويت ارتفعت خلال الأشهر التسعة الأولى من هذه السنة الى ١و٥٩ بالمئة من مجموع الواردات النفطية . واذا اخذنا جميع الواردات بعين الاعتبار تبلغ نسبة نفط الكويت فيها ٩و٤٦ بالمئة .

فاذا كان هذا البحث تخطى اشياء كثيرة بحيث يعتبره البعض انه أصبح « تاريخاً قديماً » ، فهو فقط للدلالة على ان أهمية نفط الكويت في الاقتصاد البريطاني ليس مبالغاً فيها . وربما كانت نصف سيارات لندن تسير بواسطة نفط الكويت وهو واقع يعرفه الجميع . ولذلك ليس من المناسب ، في بريطانيا خاصة ، ان تمر جهود الشركة التي وصلت الى هذه الأهمية بدون ملاحظة . يجب ان يقدّر كل العاملين في شركة نفط الكويت الذين ساهمت جهودهم في الوصول الى هذه النتائج الرائعة ، وحاكم الكويت ورعاياه الذين بتفهمهم وتعاونهم ساعدوا على ايجاد شراكة بين الشرق والغرب لولاها لما اثمرت هذه المشروعات .

ولكن النجاح الحالي ليس نهاية القصة . فالعمليات تقوم بطريقة تعطي اكبر انتاج ممكن ضمن خطط للصيانة تضمن أطول حياة ممكنة للحقول في الكويت . وتشير التقديرات الى ان الكويت تملك أغنى مخزون للنفط في العالم بحيث ان تاريخ الانتاج الرائع مع انه صغير العمر ليس إلا في بداية الطريق .

فهرست